ضياء الفرقان في تفسير القرآن

المجلد الثامن



السيد محمد تقي النقوي القائني


بسم الله الرحمن الرحيم

ضیاء الفرقان
فی
تفسیر القرآن
مجلد ۸

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. 8: 978-964-8981-52-0
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/ BP ۹۸
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الثامن

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

شابک: ۰ - ۵۲ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

الجزء
العاشر

وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبىٰ وَ ٱلْيَتامىٰ وَ ٱلْمَساكِينِ وَ ٱبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مآ أَنْزَلْنا عَلىٰ عَبْدِنا يَوْمَ ٱلْفُرْقانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعانِ وَ ٱللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿۴۱﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوىٰ وَ ٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعادِ وَلٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كانَ مَفْعُولًا ﴿۴۲﴾ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿۴۳﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿۴۴﴾ وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿۴۵﴾ يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿۴۶﴾

◀ اللّغة

غَنِمْتُمْ: الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و في الإصطلاح تطلق علىٰ ما أُخِذ من الكفّار مع القتال فأن كانت من غير قتالٍ فهي فيءُ و اليه ذهبت

الإماميّة و قال قوم الفيئ و الغنيمة واحد.

وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ عندنا هم أهل بيت النّبي و عند العامّة هم بنو هاشم.

وَٱلْيَتَامَىٰ، اليتيم من مات أبوه و هو صغير.

وَٱبْنِ السَّبِيلِ هو المُنقطع به في سفره.

وَٱلْمَسَاكِينِ، المكسين المحتاج الّذي من شأنه أن تسكنه الحاجة عمّا ينهض به الغني.

يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ يوم بَدر.

بِالْعُدْوَةِ بضمّ العين شفير الوادي و قَرأ ابن كثير بكسر العين و هما نعتان سواء.

ٱلْقُصْوَىٰ بضمّ القاف بمعنى الأقصىٰ منها الى جهة مكّة.

وَٱلرَّكْبُ بفتح الرّاء و سكون الكاف و الباء جمع راكب.

لَفَشِلْتُمْ، الفَشل الضّعف عن فزعٍ و خوفٍ.

فِئَةً بكسر الفاء الجماعة.

◄ الإعراب

ما غَنِمْتُمْ ما بمعنى الّذي و العائد محذوف مِنْ شَيْءٍ حال من العائد المحذوف تقديره ما غنمتوه قليلاً أو كثيراً فَأَنَّ لِلَّهِ يقرأ بفتح الهَمزة خُمُسَهُ الخمس بضمّ الميم و سكونها لغتان قد قرأ بهما يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ظرف لأنزلنا أو لآمنتم يَوْمَ ٱلْتَقَى مبدلٌ من يوم الأوّل إِذْ أَنْتُمْ إذ بدل من يوم أيضاً و يجوز أن يكون ظرفاً تقدير بِالْعُدْوَةِ (والعُدوة) بضمّ العين و كسرها لغتان و قد قرئ بهما ٱلْقُصْوَىٰ بضمّ القاف خارجة علىٰ الأصل و أصلها من الواو و قياس الإستعمال أن تكون القصيا لأنّه صفة كالدّنيا و العليا، و فعلى إذا كانت صفة قلبت واو ها ياء فرقاً بين الإسم و الصّفة وَٱلرَّكْبُ جمع راكب في المعنى و ليس بجمع في اللّفظ و لذلك تقول في التّصغير ركب أَسْفَلَ مِنْكُمْ ظرف أي و الرّكب في

مكانٍ أسفل منكم أي أشدّ تنقّلاً و الجملة حال من الظّرف الّذي قبله و يجوز أن تكون في موضع جرّ عطفاً على أنتم أي و اذ الرّكب أسفل منكم **لِيَهْلِكَ** يجوز أن يكون بدلاً من ليقضي بإعادة الحَرف و أن يكون متعلّقاً بيقضي أو بِمفعولاً **فَتَفشلوا** في موضع نصب على جواب النّهي.

◀ التّفسير

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قلنا في شرح اللّغات أنّ الغنيمة تطلق على ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفّار بسبب القتال و هى هبةٌ من اللّه تعالىٰ للمسلمين و الفيء ما أخذ بغير قتالٍ و هو قول الشّافعي و سُفيان الثّوري و عطا و غيرهم و هو المروّي في أخبارنا و قال قومٌ الفيء و الغنيمة واحدة و قالوا أنّ هذه الآية ناسخة للّتي في الحشر: **مَا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلٰى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرٰى فَلِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبٰى وَالْيَتَامٰى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ**[1] لأنّه بيّن في هذه الآية أنّ الأربعة أخماس للمقاتلة و على القول الأوّل لا يحتاج الىٰ هذا و عند أصحابنا الفيء للإمام خاصّة قاله الشّيخ في التّبيان و قال بعض المحقّقين الغنيمة هي ما أخذ من دار الحرب بقتالٍ و يرشد اليه السّياق و بذلك يفرق بينهما و بين الأنفال و هو قول أكثر المفسّرين و به قال كثير من الأصحاب و جعلوا ثبوت الخمس فيما عدا ذلك من الأنواع السّبعة بدليلٍ خارج.

و قال المفيد في المقنعة الغنائم كلّما أستفيد بالحرب من الأموال و ما أستيد من المعادن و الغوص و الكنوز و العنبر و كلّما فضل من أرباب التّجارات و الزّراعات و الصّناعات من المؤنة و الكفاية طول السّنة على الإقتصاد و نحوه قال الشّهيد في البيان و الطّبرسي في مجمع البيان بل أدعى أنّ في عرف اللّغة

١- = الحشر =٧

يطلق إسم الغُنم و الغنيمة علىٰ جميع ذلك و يرشد اليه صحيحة إبن سنان قال سمعت أبا عبد اللّه يقول ليس الخمس إلاّ في الغنائم خاصّة و على ذلك حمله الشّيخ في الإستبصار.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية و أختلفوا أهل العلم في معنى الغنيمة و الفيئ فقال بعضهم فيهما معنيان كلّ واحدٍ منهما غير صاحبه و قال آخرون الغنيمة و الفيئ بمعنىٰ واحد.

و قال القرطبي في تفسيره لها و أعلم أنّ الإتّفاق حاصل على أنّ المراد بقوله تعالىٰ: **غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ** مال الكفّار إذا ظفر به المسلمون على وجه القهر و الغلبة و لا تقتضي اللّغة هذا التّخصيص على ما بيّناه و لكن عرف الشّرع قيّد اللّفظ بهذا النّوع و سمى الشّرع الواصل الينا من الكفّار من الأموال بإسمين، غنيمةً، وفيئاً، فالشّيئ الّذي يَناله المسلمون من عدّوهم بالسّعي و ايجاف الخيل و الرّكاب يسّمىٰ غنيمة و لزم هذا الإسم هذا المعنى حتّى صار عرفاً و الفيئ مأخوذ من فاءٍ يفيئُ إذا رجع و هو كلّ ما دخل علىٰ المسلمين من غير حربٍ و لا ايجاف كخراج الأرضين و جزية الجماجم و خُمس الغَنائم، و قيل أنّهما واحد و فيهما الخُمس قاله قتادة إنتهىٰ كلامه.

أقول الحّق أنّ الغنيمة تطلق على جميع ذلك كما نقلناه عن المفيد تختص بما أخذ من دار الحرب بقتالٍ و لعلّه الظّاهر، قال في المجمع، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و أصطلح جماعة على أنّ ما أخذ من الكفّار معَ القتال.

و قال في المنجد، غنم غنماً الشّيئ، فاز به و ناله بلا بدل، و الغنيمة ما يؤخذ من المحاربين عنوةً، المكسب عموماً.

و عن كنز العرفان، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و أصطلح جماعة علىٰ أنّها تطلق على ما أخذ من الكفّار بقتالٍ.

و عن زبدة البيان، الغنيمة في اللّغة بل العرف الفائدة، و أمّا العامّة فقد أطلقوا الغنيمة على ما أخذ من الكفّار بقتالٍ إذا عرفت معنىٰ الغنيمة.

فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

معناه أنّ ما غنمتم من شئ حتّى الخيط و المخيط فأنّ للّه خمسه و للرّسول أي يجب عليكم في الخمس.

ثمّ انّ البحث حول الآية يقع في جهات:

الأُولىٰ: في بيان ما يجب فيه الخُمس.

الثّانية: في بيان المستحق.

الثّالثة: في بيان كميّة القسمة.

الرّابعة: في بيان كيفيّة القسمة.

أمّا الجهة الأُولىٰ: فنقول الّذي يجب فيه الخمس أقسام:

الأوّل: الغنائم المأخوذة في دار الحرب و هو مجمع عليه و فى حكمه غنيمة مال البغّاة التّي حواها العسكر كما قاله جماعة من الأصحاب.

الثّاني: المعادن سواء كانت منطبعة كالذّهب أو غير منطبعة كالياقوت أو مائعة كالقِير.

الثّالث: الكنوز و هو كلّ مالٍ مذخور تحت الأرض و يدّل على ذلك الإجماع و النصّوص.

الرّابع: ما يخرج بالغوص و يدّل عليه أيضاً الإجماع و النصّوص.

الخامس: الأرباح الفاضلة عن مؤنة السنّة و وجوب الخمس فيه هو المشهور بين الأصحاب بل نقل عيه الإجماع و تواتر الأخبار.

السّادس: أرض الذّمي اذا إشتراها من مسلمٍ ذكره الشّيخ و الأكثر.



السّابع: الحرام المختلط بالحلال و لجميع هذه الأقسام تفاصيل و أحكام مذكورة في الكتب الفقهيّة لا نطيل الكلام بذكرها لخروجها عن موضوع الكتاب.

الثّانية: في بيان المستحقّ و الأظهر أنّهم أولاد عبد المطّلب خاصّة ذكوراً و أناثاً ويدّل عليه **ما رواه حمّاد بن عيسىٰ عن بعض أصحابه عن أبي الحَسن أنّه عليه السلام قال: و هؤلاء الّذين جعل اللّه لهم الخمس هم قرابة النّبي و هم بنو عبد المطّلب أنفسهم للذّكر و الأُنثىٰ ليس فيهم من أهل بيوتات قريش و لا من العَرب أحَد** و هو الظّاهر من الرّوايات.

الثّالثة: في بيان كميّة القسمة و قد إختلف فيه علماءنا و غيرهم.

و الأشهر أنّه يقسم ستّة أقسامٍ، ثلاثة للإمام و هی سهم الرّسول و سهم ذي القربى و ثلاثة للباقين و هم اليتامىٰ و المساكين و إبن السّبيل كما تضمّنته الآية و الأخبار به أيضاً كثيرة.

منها، موّثقة عبد اللّه بن بكير عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السّلام في قوله عليه السلام وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ قال عليه السلام: خمس اللّه لِلإمام و خمس الرّسول لِلإمام وخُمس ذوي القربىٰ لقرابة الرّسول الإمام و اليتامىٰ يتامىٰ الرّسول و المساكين منهم و أبناء السّبيل منهم فلا يخرج منهم الىٰ غيرهم انتهىٰ

و منها، ما رواه الشّيخ بأسناده الىٰ أن قال: فأمّا الخُمس فيقسم علىٰ ستّة أسهم:

سهم لِلّه، و سهمٌ للرّسول، و سهمٌ لِذي القُربى، و سهم لليتامىٰ، و سهم للمساكين، و سهم لأبناء السّبيل.

فالّذي لِلّه فلرسول اللّه فرسول اللّه أحقّ به فهو له و الّذي للرّسول فهو لذي



القربى و الحجّة في زمانه فالنّصف له خاصّة والنِّصف لليتامى و المساكين و ابن السّبيل هذا هو المشهور عندنا في كميّة القسمة.

و قد حكى العلامّة و المحقّق عن بعض الفقهاء قولاً بأنّه يقسم خمسة أقسام:

سهم لرسول اللّه و سهمٌ لذي القربى و الثّلاثة الباقية لليتامى و المساكين و إبن السّبيل و الى هذا القول ذهب أكثر العامّة قالوا و معنى للّه خمسه و للرّسول أنّ للرّسول خمسه كقوله تعالىٰ:

وَ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ(١) و المراد رسوله و الافتتاح بذكر إسم اللّه على جهة التّبرك و التيّمن لأنّ الأشياء كلّها للّه و أنّ من حقّ الخمس أن يكون متقرّباً الىٰ اللّه لا غير و أنّ قوله: **لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** الخ بيان لأنّ مصرفه هؤلاء فيكون من قبيل التّخصيص بعد التّعميم تفصيلاً لهذه الوجوه علىٰ غيرها كقوله تعالىٰ: **وَ مَلَٓائِكَتِهِۦ وَ رُسُلِهِۦ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**(٢) هذا والمشهور ما ذكرناه أوّلاً.

و قال بعض العامّة أنّه يقسم على أربعة أسهم:

سهم ذوي القُربىٰ لقرابة النّبي و الأسهم الثّلاثة لمن ذكر بعد ذلك من سائر المسلمين و هو مذهب الشّافعي.

و قيل أنّه يقسم علىٰ ثلاثة أسهم لأنّ سهم الرّسول قد سقط بوفاته عندهم لأنّ الأنبياء على زعمهم لا تورث و سهم ذوي القربىٰ أيضاً قد سقط لأنّ أبا بكر و عمرلم يعطياه و لم ينكر ذلك أحَد من الصّحابة عليهما و هو مذهب أبي حنيفة و أهل العراق.

و منهم: من قال لو أعطى فقراء ذوي القربى سهماً و الأخرون ثلاثة أسهم

١- التوبة = ٦٢   ٢- البقرة = ٩٨

جاز، ولو جعل ذا القربى أسوة الفقراء و لا يفرد له سهم جاز، و هذه الأقاويل كلّها باطلة عندنا و عند جميع العقلاء.

الرّابعة: في بيان كيفيّة القسمة و المشهور بين الأصحاب أنّ للإمام النّصف سهم اللّه و سهم رسوله بالوراثة و سهم ذي القربى بالأصالة و الثّلاثة الباقية لمن سمّه اللّه عزّ وجلّ بل نقل الشّيخ علىٰ ذلك إجماع الفرقة و إستدلّ المحقّق قدس سره في المعتبر على إختصاص ذي القربىٰ بالإمام بأنّ قوله: **وَ لِـذِى ٱلْقُرْبىٰ** لفظٌ مفرد فلا يتناول أكثر من واحد فيصرف الى الإمام لأنّ القول بأنّ المراد واحد غير الإمام باطل بالإجماع.

لا يقال يمكن إرادة الجنس كإبن السّبيل، لأنّا نقول تنزيل اللّفظ الموضوع للواحد علىٰ الجنس مجاز يحتاج في حمل اللّفظ عليه الىٰ الصّارف عن إرادة الحقيقة و لا مانع هنا من الحمل على الحقيقة و ليس كذلك قوله و إبن السّبيل لأنّ في إرادة الواحد هنا إخلالاً بمعنى اللّفظ اذ ليس هناك واحد يمكن حمل اللّفظ عليه انتهىٰ.

و أورد عليه بأنّ إرادة الواحد من ذي القربىٰ غير ظاهرة بل الظّاهر إرادة الجنس كما في قوله: **وَ ايتآءِ ذِى ٱلْقُرْبىٰ**[1] و قوله: **وَ اٰتِ ذَا ٱلْقُرْبىٰ حَقَّهُ**[2] و نحو ذلك من الأيات و الحقّ أنّ هذا اللّفظ بالنّظر الىٰ وضعه يكون ظاهراً في الوحدة و بالنّظر الىٰ كثرة الإستعمال يكون ظاهراً في إرادة الجنس فالإعتماد في هذا المقام على البيان من معدن التّنزيل و قد فسّروه بما مرّ بيانه.

و في المقام فوائد يجب التّنبيه عليها:

الأُولىٰ: يعتبر في الطّوائف الثّلاث أعني اليتامى و المساكين و إبن السّبيل إنتسابهم الىٰ عبد المطّلب جدّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو المشهور بين الأصحاب

و عن الكافي عن سليم بن قيس قال سمعت أمير المؤمنين يقول

١- النحل = ٩١ ٢- الاسراء= ٢٦

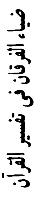
نحن واللّه الّذي عني بذي القُربىٰ الّذين قرنهم اللّه بنفسه و نبيّه فقال: مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَ ٱلْمَسَاكِينِ[١] منّا خاصّة ولم يجعل لنا سهماً في الصدّقة أكرم اللّه نبيّه و أكرمنا أن يطعمنا أوساخ النّاس (ما في أيدي النّاس) انتهىٰ.

الثّانية: يعتبر في الإنتساب الىٰ عبد المطّلب أن يكون بالأب فلا يعطى من أُنتسب بالأمّ خاصّة و بذلك قال أكثر الأصحاب و فيه بحث في موضعه.

الثّالثة: لا يجب إستيعاب كلّ طائفة بل لو إقتصر من كلّ طائفة علىٰ واحد جاز و هذا هو المعروف من مذهب الأصحاب و ذلك لأنّ اللاّم للجنس كما في أية الزّكاة.

الرّابعة: الظّاهر أنّ الآية مسوقة لبيان المصرف فيجوز تخصيص النّصف الذّي لغير الإمام بطائفةٍ من الطّوائف الثّلاثة و أمّا إختصاص النّصف الأخر بالإمام فللنّص عليه و هذا هو المشهور بين المتّأخرين.

و قيل يجب البسط على الثّلاثة بناءً على أنّ اللاّم للملك أو الإختصاص و العطف بالواو يقتضي التّشريك في الحكم و فيه نظر.



الخامسة: اليّتيم هو الطّفل الّذي لا أب له و ظاهر إطلاق الآية و الرّوايات أنّه لايعتبر فيه الفقر و إلاّ لدخل في المساكين و لأنّ ما قبله لا يعتبر فيه ذلك فذكره في سياق ذلك بدون إعتبار وصفٌ أخر يشعر بذلك.



السّادسة: ظاهر إطلاق الآية و الرّوايات أنّه لا يشترط العدالة في المستحقّ و لم نعثر علىٰ ما يكون مقيّداً لذلك و هذا هو المشهور بين الأصحاب و ربّما قيل بالإشتراط و هو مع جهالة قائله ضعيف نعم يشترط فيها الإيمان.

١- الحشر = ٧

إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰآ أَنْزَلْنٰا عَلٰى عَبْدِنٰا يَوْمَ ٱلْفُرْقٰانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعٰانِ وَ ٱللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

جواب الشّرط هو ما تقدّم أو مقدّر من جنسه أي فأعلموا أنّ الخس لهؤلاء و أعملوا بذلك لأنّه المقصود و في تصدير الكلام يالعلم و تكرار التّأكيد، بأنّ، و تقييد ذلك بالإيمان باللّه مبالغة في التّأكيد و ما أنزله هو جبرئيل و الملائكة و يوم الفرقان هو يوم بدر لأنّ اللّه فرّق فيه بين الحقّ و الباطل و نصر فيه جميع المسلمين مع قلّتهم و كثرة المشركين لأنّ المسلمين كانوا ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلاً و كان معهم فرس واحدة و كان المشركون تسع مائة الى ألف و كان معهم مائتا فرس أو أربع مائة.

و روي في الخصال عن محمّد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: الغسل في سبعة عشر مَوطناً ليلة سبعة عشر من رمضان و هي ليلة إلتقىٰ الجمعان ليلة بَدر.

و في تفسير العيّاشي عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان قلت ما معنى قوله: يلتقي الجمعان قال عليه السلام يجمع فيها ما يُريد من تقديمه و تأخيره وإرادته وقضاءه.

و نقل أنّه كان يوم الجمعة بسبع عشرة ليلة مَضت من شهر رمضان من ستنة أثنتين مضت من الهجرة علىٰ رأس ثمانية عشر شهراً **وَ ٱللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** فلاتتعجّبوا من نصرهالمسلمين علىٰ الكفّار مع قلّة عددالمسلمين و كثرة عدد الكفّار فأنّ ذلك في جنب قدرة اللّه حقير فهذا تفسير الآية علىٰ ماذهب اليه الإماميّة في معنى الخمس و تقسيمه الى أخر ما ذكرناه و لا بأس بالإشارة الىٰ بعض ما ورد في الباب من طريق أهل البيت تتميماً للكلام و توضيحاً للمرام.

فعن التَّهذيب بأسناده عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس عن

أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول كلاماً كثيراً ثمّ قال و أعظم من ذلك كلّه سهم ذي القُربىٰ الذّين قال اللّه تعالىٰ: إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ قال عليه السلام: نحن واللّه عني بذي القربىٰ و اليتامى و المساكين و إبن السّبيل منّا خاصّة و لم يجعل لنا في سهم الصّدقة نصيباً أكرم اللّه نبيّه و أكرمنا أن يُطعمنا أوساخ أيدي النّاس انتهىٰ.

و عن الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه في قوله تعالىٰ: وَ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ قال أمير المؤمنين والأئمّة انتهىٰ.

و عنه بأسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: وَ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ قال عليه السلام هم قرابة رسول اللّه والخُمس للرّسول و لنا إنتهىٰ.

و عنه بأسناده عن الرّضا عليه السلام قال سُأل عن قول اللّه: وَ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ فقيل له عليه السلام فما كان لِلّه فَلِمن هو، فقال عليه السلام لرسول اللّه و ما كان لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فهو للإمام عليه السلام فقيل له أرأيت أن كان صنف من الأصناف أكثر و صنف أقلّ ما يصنع به قال عليه السلام ذلك الىٰ الإمام أرأيت رسول اللّه كيف يصنع أليس أنّما كان يُعطي علىٰ ما يرىٰ كذلك الإمام انتهىٰ.

و عن الثّعلبي في تفسيره لهذه الآية عن المنهال بن عمر وقال سألت زين العابدين عليه السلام عن الخمس قال عليه السلام: هو لَنا فقلت أنّ اللّه تعالى يقول و اليتامىٰ و المساكين قال عليه السلام أيتامنا و مساكيننا انتهىٰ.

و عن غوالي اللّئائي عن علّي عليه السلام أنّه قيل له و اليتامىٰ و المساكين فقال عليه السلام: أيتامنا و مساكيننا انتهىٰ.

و عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه قال سمعته يقول أنّ نجدة الحروري كتب الىٰ إبن عبّاس يسأله عن موضع الخُمس لمن هو فكتب اليه أمّا الخُمس فأنّا نزعم أنّه لنا، و يزعم قومنا أنّه ليس لنا فصبرنا إنتهىٰ.

و عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال سألته عن قول اللّه وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قال الخمس للّه و للرّسول و هو لنا إنتهىٰ و الأحاديث في الباب كثيرة جدّاً(١).

أقول هذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ الخمس مختصّ بأل رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و ليس لأحدٍ من المسلمين فيه سهمٌ و لا نصيبٌ و مع ذلك فقد أصَّر المخالف على مخالفته و منعه عن أهَله و ليس هذا بأوّل قارورة كسرت في الإسلام.

فأنّ القوم بعد غصبهم الخلافة غصبوا جميع حقوق أهل البيت و ليس هذا من الظّالمين ببعيد و حيث إنّجر البحث الىٰ هنا فلابدّ لنا من الإشارة الىٰ ما ذهب اليه القوم في معنى الآية لتعلم صدق ما إدعيناه.

قال القُرطبي و هو من أعاظم أهل السُنّة في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

العاشرة: و إختلف العلماء في كيفيّة قسم الخمس على أقوال ستّة:

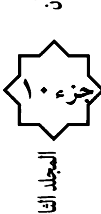
الأوّل: قالت طائفة يقسم الخمس على ستّة فيجعل السُّدس للكعبة الذي لِلّه.

الثّاني: لرسول اللّه.

الثّالث: لذوي القُربىٰ.

الرّابع: لليتامىٰ.

الخامس: للمساكين.



١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ١٥٥ الىٰ ص ١٥٩

السّادس: لإبن السّبيل.

و قال بعض أصحاب هذا القول يردّ السّهم الّذي للّه على ذوي الحاجة.

الثّاني: قال أبو العالية و الرّبيع تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهمٌ واحد و تقسم الأربعة على النّاس ثمّ يضرب بسهمه الّذي عزله فما قبضوا عليه من شئٍ جعله للكعبة ثمّ يقسم بقيّة السّهم الّذي عزله على خمسة سهمٌ للنّبي و سهمٌ لذي القربى و سهم لليتامى و سهم للمساكين و سهم لإبن السّبيل.

الثّالث: قال المنهال بن عمرو سألت عبد اللّه محمّد بن علّي و علّي بن الحسين عن الخمس فقال هو لنا قلت لعلّي أنّ اللّه يقول **وَ ٱلْيَتَٰمَىٰ وَ ٱلْمَسَٰكِينِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** فقال أيتامنا و مساكيننا.

الرّابع: قال الشّافعي يقسم علىٰ خمسة و رأى أنّ سهم اللّه و رسوله واحد و أنّه يصرف في مصالح المؤمنين و الأربعة الأخماس علىٰ الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

الخامس: قال أبو حنيفة يقسم علىٰ ثلاثة، اليتامىٰ و المساكين و إبن السّبيل و إرتفع عنده حكم قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بموته كما إرتفع حكم سهمه قالوا و يبدأ من الخُسم بإصلاح القناطر و بناء المساجد و أرزاق القضاة و الجند و روي نحو هذا عن الشّافعي أيضاً.

السّادس: قال مالك هو موكول الىٰ نظر الإمام و إجتهاده فيأخذ منه من غير تقدير و يُعطي منه القرابة بإجتهاده و يصرف الباقي في مصارف المسلمين و به قال الخلفاء الأربعة و به عملوا و عليه يدّل قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مالي ممّا أفاء اللّه عليكم إلاّ الخمس و الخمس مردودٌ اليكم فأنّه لم يقسمه أخماساً و لا أثلاثاً و أنّما ذكر في الآية من ذكر علىٰ وجه التّنبيه عليهم لأنّهم من أهمَّ من يدفع اليه.

قال الزّجاج محتّجاً لمالك قال اللّه عزّ وجلّ: **يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ**



أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ[1] و للرّجل جائز بإجماع أن يُنفق في غير هذه الأصناف اذا رأى ذلك.

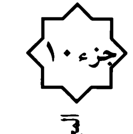
و ذكر النّسائي عن عطاء قال خمس اللّه و خمس الرّسول واحد كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يحمل منه و يعطي منه ويَضعَه حيث شاء و يصنع به ما شاء فهذه هي الأقوال السّتة الّتي ذكرها القُرطبي في تفسيره و نحن لا نتعجّب ممّا ذكره و نَقَله عن القوم و ذلك لأنّ كلام اللّه تعالى اذا فسرّ بالرّأي فيقول كلّ أحدٍ فيه بما شاء و حيث أنّ القوم لم يتمسّكوا بالعترة في تفسير القرأن تبعاً لإمامهم عمر بن الخطاب حيث قال حسبنا كتاب اللّه فلا محالة يصير القرأن غريباً و هذا داءٌ لا دواء له فعلاً لأنّهم أعرضوا عن أهل البيت الذّين جعلهم الرّسول عدلاً للكتاب حيث قال: **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي** الحديث و لمّا كان الأمر على هذا المنوال فما تُريد منهم في تفسير القرآن و من المعلوم أنّ تفسيره عند من خوطب به و أهل البيت أدرىٰ بما في البيت و عليه فلا نحتاج الى ردّ ما قاله أبو حنيفة و مالك و الشّافعي و من حذى حذوهم و المفروض أنّ أقوالهم ليست الاّ من سنخ المخيّلات و الوساوس النّفسانية و الالقاعات الشّيطانية ألا ترىٰ أنّ اللّه يقول: **وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ** و يصّرح بأنّ الغنيمة لِلّه و لرسوله و لذي القُربىٰ الخ.

و مالك إمام القرطبي يقول هو موكول الىٰ نظر الإمام و إجتهاده يصرفها كيف يشاء الخ.

و أبو حنيفة يقول يبدأ بإصلاح القناطر الخ.

و الآخر يقول سهم للكعبة الخ.

و هكذا و هكذا فما نقول في جوابهم إلاّ أن نقول قال رسول اللّه من فسرّ القرآن برأيّه فليتّبوء مقعده من النّار و محصّل الكلام في المقام هو أنّ الآية



١- البقرة= ٢١٥

الشّريفة نزلت لوجوب الخمس و هو مختصّ بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و آله الطّاهر نصيب لأحدٍ من أحاد الأمّة فيه و هذا ممّا لا كلام فيه ثمّ أنّى بعد ما ذكرت كلام القرطبي وقفت على ما ذكره الرّازي في تفسيره فرأيت أنّه زاد في الطّنبور شيئاً آخر و هو انّه بعد نقله كلام أبي حنيفة و الشّافعي و غيرهما قال و أعلم أنّ ظاهر الآية مطابق لقول الشّافعي و صريحٌ فيه فلا يجوز العدول عنه إلاّ لدليلٍ منفصلٍ أقوىٰ منها و كيف و قد قال في آخر الآية **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** يعني أن كنتم آمنتم باللّه فأحكموا بهذه القسمة و هو يدّل علىٰ أنّه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة لم يحصل الإيمان باللّه انتهى كلامه.

أقول و لابدّ لنا من نقل كلام الشّافعي على ما نقله الرّازي و ذلك لأختلاف النّقل.

أمّا نقل القرطبي عنه فقد ذكرناه.

و أمّا الرّازي فقال عند الشّافعي يقسم الخمس علىٰ خمسة أسهم سهم لرسول اللّه يصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع و السّلاح و سهم لذوي القربى من أغنياءهم و فقراءهم يقسم بينهم للذّكر مثل حظّ الأنثيين و الباقي للفرق الثّلاثة و هم اليتامىٰ و المساكين و إبن السّبيل انتهىٰ.

و الشيئى الّذى قلنا انه زاده هو قوله يقسم للذّكر مثل حظّ الأنثيين، فأنّ هذا الكلام لم ينقله القرطبي في نقله و قد ذكره الرّازي و هو أدرى بما في البيت لأنّه شافعي المذهب.

و أمّا القُرطبي فهو حنبليّ و قيل أنّه مالّكي و كيف كان فكل مأمومٍ هو أعرف بمسلك إمامه وكلامه.

و أنّما قلنا ذالک لأنّه لم يذكره أحدٌ غير الشّافعي فأنّه تخيّل أنّ هذا من قبيل الأرث الّذي قال اللّه فيه **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ** ولم يعلم أنّه ليس منه بل هو



حقّ لهم في الغنائم مثل الزّكٰوة للفقراء و لا يبعد منه أن يقول بهذه المقالة في الزكّوة بل و جميع الصدّقات أيضاً فأنظروا يا أهل الإنصاف كيف أدخلوا آرائهم و أوهامهم الّتي أوحاها الشّياطين اليهم في الدّين و جعلوها من الأحكام الشّرعية الصّادرة عن صاحب الشّريعة و أعجب منه متابعة الرّازي في دينه عنه و نقله كلامه و إدّعائه أنّ ظاهر الآية مطابق لقوله بل صريحٌ فيه و لا يَجوز العدول عنه إلاّ لدليلٍ منفصلٍ و أوهن بل أضحك منه إستدلاله بآخر الآية و هو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** ألخ و حكمه بأنّ هذه القسمة لولَم تحصل لم يحصل الايمان و ليت شعري كيف يكون ظاهر الآية مطابقاً لقول الشّافعي بل صريح فيه و الآية صريحة في أنّ الأقسام و الأسهام ستّة.

و الشّافعي يقول، أنّها خمسة و أدّعى حذف سهم اللّه أو إدغامه في سهم الرّسول و أيّ دليلٍ دلَّ على صحّة ما إدّعاه الشّافعي مع أنّه خلاف ظاهر الآية و صريحها، و أمّا إستدلال الرّازي على مدّعاه بآخر الآية و هو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** ألخ فهو ممّا تضحك به الثّكلى و ذلك لأنّ قوله تعالىٰ: **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** شرطٌ و جزائه مقدمٌ عليه أو مقدّر فعلى الأوّل معنى الكلام إن كنتم آمنتم باللّه فأعلموا إنّما غنمتم من شئٍ ألخ.

وعلىٰ الثّانى: **إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** فأعملوا بهذا الحكم مثلاً و أمّا أنّه يثبت قول الشّافعي فلا نفهم معناه و أظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال بل هو من زلاّت كلامه أعاذنا اللّه منه و لنختم الكلام في تفسير الآية في المقام و نقول:

لا أضحك اللّه سنّ الدّهر أن ضحكت   وآل أحمد مظلومون قد قهروا

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوىٰ وَ ٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

العُدوة بضّم العين و كسرها شفير الوادي، و الدّنيا، بمعنى الأدنىٰ الى المدينة و القصوى بمعنى الأقصىٰ منها الى جهة مكّة و أصل الدّنيا الدنّو بالواو بدلالة قولهم و دنوت الىٰ الشّئ فقلبت **الواو** ياء و لم تقلب مثل ذك في القُصوىٰ

فلا يقال قصياً مثلاً، و ذلك لأنّ الدُّنيا عومل معها معاملة الإسم في قولهم الدّنيا و الأخرة و أن كان أصلها صفة فخفّفت لأنّ الإسم أحقّ بالتّخفيف و هذا بخلاف القصوى فأنّها بقيت على كونها صفة، و المعنى و أذكروا إذ أنتم بالعدوة الدّنيا أيّها المؤمنون أي كنتم على شفير الوادي الّذي كان أدنى و أقرب الى المدينة و هم يعني هٰؤلاء الكفّار كانوا بالعُدوة القصوى أي كانوا في جهة الأقصى أي الأبعد الى مكّة، و الرَّكب، يعني أبا سفيان و أصحابه كانوا في موضع أسفل منكم الى ساحل البحر **وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ** المواعدة وعد كلّ واحدٍ من الأثنين الآخر.

و الإختلاف مذهب كلّ واحدٍ من الشّيئين في نقيض الآخر و منه الإختلاف في الميعاد لذهاب كلّ واحدٍ من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التّقدم و التّأخر و الزّيادة و النّقصان عمّا إنعقد به الميعاد و قيل إختلافهم في الميعاد بمعنى، لو تواعدتم، أيّها المؤمنون على الإجتماع في الموضع الّذي إجتمعتم فيه ثمّ بلغكم كثرة عددكم مع قلّة عددكم لتأخّرتم فنقضتم الميعاد و وجه آخر، **لَوْ تَوَاعَدْتُمْ** من غير لطف اللّه لكم لأختلفتم بالعوائق و القواطع فذكر الميعاد لتأكيد أمره في الإتّفاق و لولا لطف اللّه مع ذلك لوقع علىٰ الإختلاف.

جرت الرّياح علىٰ محّل ديارهم فكأنّما كانوا علىٰ ميعادٍ

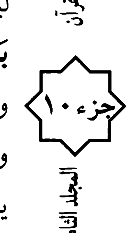
ذكر هذه الوجوه في التّبيان و قيل معناه **لَوْ تَوَاعَدْتُمْ** أنتم و أهل مكّة علىٰ القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلّتكم و كثرتهم.

و قال صاحب الكشّاف معنىٰ الكلام و لو تواعدتم أنتم أهل مكّة و تواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتّكم و كثرتهم علىٰ الوفاء بالموعد و ثبطهم ما في قلوبهم من تهّيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فلم يتّفق لكم من التّلاقي ما وفقّه اللّه و سبب له وَ



لٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ليقضي متعلّق بمحذوف أي ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل و هو نصر أولياءه و قهر أعداءه دبر ذلك **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** قيل ليهلك بدلٌ منه و أستعير الهلاك و الحياة للكفر و الإسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبه حتّىٰ لا تبقى له علىٰ اللّه حجّة و هكذا يصدر إسلام من أسلم عن يقينٍ و علم بأنّ الإسلام هو دين الحّق الّذي ينبغي الدّخول فيه و التّمسك به و البّينة إقامة الحجّة و البرهان و المقصود منها في المقام هو المعجزات الباهرات الّتي وقعت للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في حروبه و غيرها و لا سيّما غزوة بدر الّتي نزلت هذه الأيات فيها، من نزول الملائكة لنصرة المؤمنين و غلبتهم على الكفّار مع قلّة عدد المؤمنين و كثرة الكفّار و فى قوله تعالىٰ: **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** إشارة الىٰ أصلين:

أحدهما: أنّ المكلّف مختار في إنتخابه غير مجبور فيه خلافاً للأشاعرة فأنّهم يقولون بأنّ الإنسان غير مختار في الهداية و الضّلالة بل هما مقدّرتان له من الأزل في علم اللّه و ما علم اللّه كان لا محالة و لم يعلموا أنّ العلم الأزلي لا يكون علّة للفعل خارجاً، و أنّما قلنا أنّ الآية دليل علىٰ الإختيار لأنّ قوله تعالى عن بيّنة في المقامين دليل عليه إذ لو كان مجبوراً في إنتخاب أحدهما فلا معنى لإستناد الحياة و الكفر الى البيّنة بل حقّ العبارة أن يقال ليهلك من هلك و يحيى من حيَّ و لم يقل ذلك بل قال: **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ** و هكذا في الحياة و تقريب الإستدلال هو أنّ الهلاك و الحياة ليسا بقضاءٍ و قدرٍ من اللّه من دون إرادة العبد و إختياره بل هما يحصلان له بإقامة الحجّج و البراهين من اللّه تعالى بسبب الأنبياء و بعد وضوح البيّنة فمن إختار الكفر فلا يلومن إلاّ نفسه و من إختار الحقّ فهو أيضاً من إنتخابه و من يشكر فأنّما يشكر لنفسه و بهذا التّقرير يظهر لك الأصل الثّاني و هو أنّ اللّه لن يؤاخذ العبد على



فعله و قوله إلاّ بعد إتمام الحجّة **قُلْ فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبٰالِغَةُ**(١) و هذا هو مقتضى العدل إذ المؤاخذة و العقاب قبل الحجّة من قبيل العقاب بلا بيان و هو قبيح عقلاً و شرعاً قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِرًا وَ إِمّٰا كَفُورًا**(٢) ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ لم يؤاخذ قوماً على أعمالهم في دار الدّنيا إلاّ بعد إقامة الحجّة بإرساله الرّسل و إنزاله الكتب و ظهور المعجزات على أيدي الأنبياء في كلّ عصر و زمان، فقد أهلك فرعون و قومه بعد ظهور المعجزات على يد موسى عليه السلام و إنكار فرعون و عناده و هكذا سائر الأمم فهذا أصلٌ أصيل في نظام التّشريع و التّكوين.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ ٱلنّٰاسُ بِالْقِسْطِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّى مُنَزِّلُهٰا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنّى أُعَذِّبُهُ عَذٰابًا**(٤).

و الأيات كثيرة والعقل أيضاً يحكم به حكماً جازماً لا مرية فيه.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرٰيكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنٰازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ

والتقدير أذكر يا محمّد و الضّمير في قوله: **يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ** أعني به، هم، و فى قوله: **أَرٰيكَهُمْ** راجع الى الكفّار.

قال المفسّرون الخطاب للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و تظاهرت الرّوايات على أنّ الرّسول أراه اللّه في منامه، الكفّار قليلاً فلمّا إنتبه من النّوم أخبر أصحابه بما رآه في النّوم من قلّة عدد الكفّار فقويت نفوسهم و شجعت علىٰ أعداءهم.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم لأصحابه إبشروا لقد نظرت الىٰ مصارع القوم، قيل المراد

١- الانعام = ١٤٩
٢- الانسان = ٣
٣- الحديد =٢٥
٤- المائدة =١١٥

بالقلّة هنا قلّة القدر و اليأس و النّجدة و أنّهم مهزومون معروفون لا قلّة العدد لأنّ صلى الله عليه و آله و سلم رؤياه حقّ و قد علم أنّهم ما بين تسع مائة ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلّة العدد.

و قال الحسن معنى في منامك، في عينك الّتي تنام بها لأنّها مكان النّوم كما قيل للقطيفة المَنامة لأنّه ينام فيها فتكون الرّؤية في اليقظة و على هذا فسّره النّقاش و ذكره عن المازني انتهىٰ.

قال صاحب الكشّاف و هذا تفسير فيه تعسُّف و ما أحسب الرّواية عن الحسن و ما يلائم علمه بكلام العرب و فصاحته.

و قد فسّر الكلام الزّمخشري و قال أنّ اللّه عزّ وجلّ أراه أيّاهم في رؤياه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم و تشجيعاً علىٰ عدُّوهم انتهىٰ.

أقول قال بعض المحقّقين الرؤّيا علىٰ أربعة أقسام:

رؤيا من اللّه عزّ وجلّ و لها تأّويل.

و رؤيا من وسوسة الشّيطان.

و رؤيا من غلبة الإفراط.

و رؤيا من الأفطار و كلّها أضغاث أحلام إلاّ الرؤيا من قِبل اللّه تعالىٰ الّتي هي الإلهام في المنام يتصوّر به الشّيئ كأنّه يرىٰ في اليقظة.

و رؤيا النّبي صلى الله عليه و آله و سلم من هذا القبيل فهي بشارة له و للمؤمنين بالنَّصر و الغلبة و قد وقع انتهىٰ.

و حيث أنّ اللّه تعالىٰ قد أراه في المنام قليلاً و بذلك قويت نفوس المؤمنين قال: **وَ لَوْ أَرَيٰكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ** و وجهه ظاهر فأنّ كثرة العدّو توجب الخوف و هو يوجب الفشل و الضَّعف فأنّ الخائف ضعيف قهراً و إذا وجد الفشل و الضَّعف في قومٍ يتحقّق الإختلاف و النزاع بينهم في المحاربة و عدمها فبعضهم يقول نحارب و الأكثر لا يقول به و

إذا وجد الإختلاف فلا نصر و لا غلبة هناك فأنّ الإختلاف أساس الذلّة و المقهورية يمكن معه الغلبة على العدّو أصلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَ عَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ**(١).

و أما قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** فالسّلامة النّجاة من الآفة و أسلم الإنسان إذا دخل في السّلامة من جهة الدّين قيل في هذا الكلام إشارة الى أنّه تعالىٰ سلم من الفشل و التّنازع و الإختلاف و قيل معناه سلمهم اللّه من ذلك بلطفه لهم و إحسانه حتّى بلغوا ما أرادوه من عدُّوهم و قيل و لكنّ اللّه سلمكم من المخالفة فيما بينكم أو سلمهم من الهزيمة يوم بدر و الأظهر أنّ المراد و لكنّ اللّه سلمكم من التّنازع و الإختلاف فيما بينكم و لأجل ذلك غلبتم على أعداءكم أنّه تعالىٰ: **عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** يعلم ما يحصل فيها من الجرأة و الجبن و الصّبر و الجزع و بعد ما أشار اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أرى رسوله في منامه ما أراه ثمّ أخبر الرّسول أصحابه بما أراه اللّه في منامه على ما مرّ الكلام فيه أشار الىٰ نكتته بل معجزةٍ أخرى و هى أنّه تعالىٰ فعل ذلك بهم في اليقظة حين الإلتقاء.

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ

و التقدير و أذكروا أيّها المؤمنون إذ يريكموهم، فالهاء و الميم كناية عن المشركين و الكاف و الميم كناية عن المؤمنين.

و المقصود أنّ اللّه تعالىٰ أرى الكفّار قليلين في أعين المؤمنين ليشتدّ بذلك طمعهم فيهم و جرأتهم عليهم و قلّل المؤمنين في أعين الكفّار لئلا يتأهبّوا



١- آل عمران =١٥٢

يستعدّوا لقتالهم و لا يكترثوا بهم و يظفر بهم المؤمنون و لا شكّ أنّ المراد بالرّؤية في المقام الرّؤية بالبصر لقوله في أعينكم، إذ العين حاسّة يدرك بها البصر بخلاف الرّؤية في الآية السّابقة فأنّها كانت في المنام و هى في الحقيقة من سنخ الإلهام بالنّسبة الىٰ النّبي.

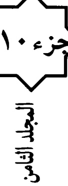
ثمّ قال تعالىٰ: **لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** اللاّم في، **ليقضي**، لام الغاية أو لام التّعليل أي أنّما فعلنا ذلك لهم و لكم ليقضي اللّه أي لإجراء قضاء اللّه و قدره فيما شاء و أراد فأنّ ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن في عالم التّكوين و الإيجاد فأنّه تعالىٰ أذا أراد بعبدٍ خيراً هيأً له أسبابه.

قال بعض المفسّرين أنّما كرَّر قوله: **لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** في هذه الآية مع ذكره في الآية الأولى، لإختلاف الفائدة فمعناه في الآية الأولىٰ، ولو تواعدتم لأختلفتم في الميعاد و لكن ليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً من الإلتقاء علىء الصفقّة الّتي حصلتم عليها.

و أمّا في الثّاني يقلّل كلّ فريقٍ في عين صاحبه ليقضي اللّه الخ مِن إعزاز الدّين بجهادكم على ما دبّره لكم و أنّما قال كان مفعولاً مع أنّ المعنى يكون مفعولاً في المستقبل، لتحقُّق كونه لا محالة حتّى صار بمنزلة ما قد كان إذ قد علم اللّه أنّه كائن لا محالة انتهىٰ كلامه.

و قال الرّازي المقصود من ذكره في الآية المتقدّمة هو أنّه تعالىٰ فعل تلك الأفعال ليحصل إستيلاء المؤمنين على المشركين على وجهٍ يكون معجزةً دالّة على صدق الرّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المقصود من ذكره هاهنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنّه تعالىٰ ذكر هاهنا أنّه قلَّل عدد المؤمنين في أعين المشركين فبيّن هاهنا أنّه فعل ذلك ليصير ذلك سبباً لئلا يبالغ الكفّار في تحصيل الإستعداد و الحذر فيصير ذلك سبباً لإنكسارهم انتهى كلامه.

أقول و الّذي يختلج بالبال في الفرق بين المقامين هو أنّه تعالىٰ قوّى



المسلمين و حرَّصهم على القتال من طريق إخبار الرّسول و متابعتهم أيّاه في إخباره لهم بما أراه اللّه في منامه ففيه تقوّيةٌ من طريق القلب بسبب الإعتقاد بأنّ الرّسول ما ينطق عن الهوى و أمّا في المقام فقوّاهم و حرَّصهم عليه من طريق الحسّ و العيان و المشاهدة بالبصر و من المعلوم أنّ اتمام الحجّة من طريق الحسّ و العيان أتمّ منه من طريق القلب و الإعتقاد إذ لا سبيل لأحدٍ لإنكار ما يراه بالعين و محصّل الكلام هو أنّ القضاء تعلّق في الأوّل بصدق إخبار الرّسول بما أراه اللّه في منامه.

و في المقام الثّاني تعلّق القضاء بغلبتهم بما أراهم بحاسّة البصر و اللّه تعالىٰ أعلم بحقيقة كلامه.

و أمّا رجوع الأمور اليه فهو ممّا لا كلام فيه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**(٣).

و المراد برجوع الأمر اليه هو أنّه ما شاء اللّه و أراد فأنّه واقع لا محالة في الخارج و لن يقدر أحد على منعه تعالىٰ أو على إيجاد شيءٍ على خلاف مشيّئته و إرادته في عالم الإيجاد

و أمّا في عالم التّشريع فقدرة العبد و إختياره واسطة بين الإرادة و المراد و لعلّه لأجل هذه النّكتة الخفيّة قال في الآية السّابقة بعد قوله: لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ الخ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ.

و أمّا في المقام قال والىٰ اللّه ترجع الأمور فأثبت في الآية السّابقة علمه بما

١- البقرة =٢١٠ ٢- آل عمران =١٠٩
٣- سورة فاطر =۴

في قلوبهم و قلوبنا و فى المقام أثبت قدرته على إيجاد ما شاء و أراد.

يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ ٱذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

الْفِئة بكسر الفاء الجماعة المُنقطعة عن غيرها و أصله من فأوت رأسه بالسّيف اذا قطعته و الثّبوت حصول الشّئ في المكان على إستمرارٍ والذّكر ضدّ السّهو و قد يكون الذّكر القول من غير سهوٍ الخطاب في الآية للمؤمنين خاصّة أمرهم اللّه بأنّهم اذا لقوا جماعة من الكفّار لحربهم أن يثبتوا و يذكروا اللّه كثيراً فأنّ في ذلك صلاحهم و سدادهم و الفئة و أن كانت في الآية مطلقة إلاّ أنّ المراد بها في الآية جماعة المشركين أو الباغين و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ لا يأمر بقتال المؤمنين للمؤمنين فالمعنىٰ اذا لقيتم المشركين أو الباغين في معركة القتال فأثبتوا في مكانكم و هو كناية عن عدم الإضطراب و التّزلزل في الرّأي و قد يعبّر عنه بالإستقامة و مع ذلك فأذكروا اللّه كثيراً يغرّنكم الشّيطان بكثرة عددكم و وفور سلاحكم و قوّة أبدانكم فأنّ الأمور بيد اللّه و النّصر منه.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ** قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يُثَبِّتُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ**[٣].

وقال مخاطباً لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْلَآ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**[٤].

١- فصّلت =٣٠
٢- البقرة =٢٥٠
٣- إبراهيم =٢٧
٤- الإسراء =٧٤

و أمثال ذلك من الأيات الدّالة علىٰ المدّعى فأنّ الإستقامة و التثبّت في الأمور ممدوحٌ عقلاً و شرعاً بل لا يمكن الوصول الىٰ المقصود إلاّ به.

و أمّا ذكر اللّه أعني به التوجّه الى المعبود قلباً و عدم الغفلة عنه فهو مرغوب فيه في جميع الأمور سواء كان في الحرب أم غيرها و قد أمرنا اللّه به في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ امَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللّٰهِ وَ ٱذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا ٱلَّذِينَ امَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ ٱشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ**(٤).

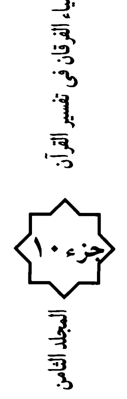
قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**(٥).

و ليس المراد بالذّكر ما أبدعته الصُّوفية من عند أنفسهم بل المراد به التَّوجّه الىٰ المعبود في الشدّة و الرّخاء و أن لم يكن باللّسان و حيث أنّ التَّثَبُّت في الأمور و لا سيّما في الأمور الشّرعية ممدوحٌ مرّغب فيه و لا سيّما اذا كان قريناً مع الذّكر منضّماً اليه يوجب الفَلاح في الدّنيا و الأخرة قال تعالىٰ: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** أي كونوا كذلك لكي تفلحوا فمورد الآية و أن كان غزوة بدر إلاّ أنّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السَّبب و هو واضح لا خفاء فيه و الحمد للّه.

■

١- الأحزاب =٤١
٢- الجمعة =١٠
٣- الشّعراء =٢٢٧
٤- البقرة =١٥٢
٥- طه =١٢٤

وَ أَطيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ ريحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّابِرينَ ﴿۴۷﴾ وَ لا تَكُونُوا كَالَّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَرًا وَ رِئاءَ النّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحيطٌ ﴿۴۸﴾ وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُمْ فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنّي بَريءٌ مِنْكُمْ إِنّي أَرىٰ ما لا تَرَوْنَ إِنّي أَخافُ اللّٰهَ وَ اللّٰهُ شَديدُ الْعِقابِ ﴿۴۹﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاءِ دينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴿۵۰﴾ وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَريقِ ﴿۵۱﴾ ذٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْديكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ ﴿۵۲﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ شَديدُ الْعِقابِ ﴿۵۳﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلىٰ قَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَميعٌ عَليمٌ ﴿۵۴﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ



أَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾

◄ اللّغة

فَتَفْشَلُوا، الفَشَل ضعفٌ مع جبنٍ.

رِيحُكُمْ، الرّيح في الأصل على ما قيل هو الهواء المتحرّك و لكن هنا أستعير للغلبة يقال أروح الماء اذا تغيّرت ريحه و إختصّ ذلك بالنتن.

بَطَرًا، البَطَر بفتح الباء و الطّاء دهش يعتري الإنسان من سوء إحتمال النّعمة نو قلّة القيام بحقّها و حرفها الىٰ غير وجهها.

رِئَآءَ ٱلنَّاسِ، الرّئاء بكسر الراء إظهار الجميل مع إبطان القبيح.

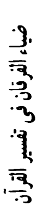
وَ يَصُدُّونَ، الصَّد المنع.

جَارٌ، الجار هو الدّافع عن صاحبه السُّوء.

نَكَصَ النَّكوص هو الرّجوع قهقري خوفاً ممّا يرىٰ.

كَدَأْبِ، الدَّأب بفتح الدّال الجَري على طبق العادة يقال دَأَبَ يَدأب دَأباً ودُؤباً فهو دائب يفعل كذا أي يجري فيه علىٰ عادة.

ٱلدَّوَآبِّ جمع دابّة و هى ما يدّب علىٰ الأرض لكن بالعرف لا يطلق إلاّ على الخيل.



◄ الإعراب

فَتَفْشَلُوا في موضع النَّصب على جواب النّهي و كذلك وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ.
بَطَرًا وَ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال وَ يَصُدُّونَ معطوف على معنى المصدر لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ غالب هنا مبنيّةٌ و، لكم، في

موضع رفع خبر، لا، و اليوم معمول الخبر مِنَ ٱلنَّاسِ حال من الضّمير في، لكم، و لا يجوز أن يكون اليوم منصوباً بغالب و لا، من النّاس، حال من الضّمير في غالب لأنّ إسم لا، اذا عمل فيما بعده لا يجوز بناءه و الألف في، جار، بدلّ من الواو لقولك جاورته و عَلَىٰ عَقِبَيْهِ حال إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أي أذ كروا أن يكون ظرفاً، لزيَّن، أو لفعلٍ من الأفعال ممّا يصّح به المعنى يَتَوَفَّى يقرأ بالياء و في الفاعل وجهان:

أحدهما: الملائكة ولم يؤنّث الفعل للفصل بينهما و لأنّ تأنيث الملائكة غير حقّيقي فعلىٰ هذا يكون يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ حالاً من الملائكة أو حالاً، من الذّين كفروا، لأنّ فيها ضميراً يعود عليها.

الثّانى: أن يكون الفاعل مضمراً أي إذ يتوفّىٰ اللّه، و الملائكة على هذا مبتدأ و يَضْرِبُونَ الخبر و الجملة و يقرأ بالتّاء و الفاعل الملائكة.

◀ التّفسير

وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا أمر اللّه هؤلاء المؤمنين بأن يطيعوا اللّه و رسوله و ذلك لأنّ سعادة الدّارين في طاعتهما كما أنّ الشّقاوة في مخالفتهما و قد أمر اللّه تعالىٰ المؤمنين بذلك في كثير من الأيات كما لا يخفى و لا نحتاج الىٰ ذكرها لوضوح الأمر وأنما قلنا أمر اللّه المؤمنين مع أنّه ليس في الآية منهم ذكرٌ ظاهراً لأنّ الواو في قوله: **وَ أَطِيعُوا** للعطف.

و لمّا قال في الآية السّابقة **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ثمّ قال و أطيعوا اللّه ورسوله فصار المعنى كما قلنا و أنّما أمر المؤمنين بالطّاعة دون جميع النّاس مع أنّ طاعة اللّه و طاعة الرّسول واجب على الجميع لأنّ غير المؤمن لا يطيع لكفره و عناده و من يكفر باللّه كيف يخاطب بالطّاعة.

ثمّ نهاهم اللّه عن التّنازع فقال و لا تنازعوا أي لا تختلفوا بل إتّحدوا لأنّ التّنازع و الإختلاف يوجب الضّعف مع الجبن و لذلك قال: **فَتَفْشَلُوا** أي أنّ

الفشل و الضَّعف من عوارض التَّنازع و يترتّب عليه ولأجل هذا قال: **فَتَفْشَلُوا** و لم يقل و تفشلوا فأنّ الفاء تفيد التَّفريع أي أنّ الفشل متفرّعٌ على التَّنازع.

و أمّا قوله: **وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ** فإختلفوا في معناه بعد إتّفاقهم علىٰ أنّ الرّيح أستعمل على سبيل الإستعارة و لم يرد به معناه اللُّغوي.

فقال الزّمخشري هو كناية عن الدَّولة يقال هبت رياح فلان اذا دالَت له الدَّولة و نفذ أمره، و عليه قول الشّاعر:

إذا هبَّت رياحك فإغتنمها　　　فأنّ لكلّ عاصفةٍ سكوناً

و قال شاعر الأنصار:

قد عوَّدتهم صباهم أن يكون لهم　　ريح القتال وأسلاب الّذين لقوا

و قال زيد بن علّي، و يذهب ريحكم، معناه الرُّعب من قلوب عدّوكم و منه قيل للخائف انتفخ سحره.

و قال بن زيد و غيره الرّيح على بابها أي على معناه الأصلي و هو تحرّك الهواء و ذلك لأنّ النَّصر لم يكن قطّ الاّ بريح تهبّ فتضرب في وجوه الكفّار و إستند بضعهم في هذه المقالة الىٰ قوله صلى الله عليه وآله وسلم نصرت بالصّبا و عليه فالمعنى فيّ و تذهب ريحكم يعني الصّبا إذ بها نُصر محمّد و أمّته.

و قيل: **رِيحُكُمْ** أي حدّتكم، و قيل جلدكم، و قيل هيبتكم و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة في التّفاسير والحقّ أنّ المراد بالرّيح القوّة و الشّوكة والرُّعب الّذي جعله اللّه في قلوب الكفّار لأنّ النّبي كان منصوراً بالرُّعب ففي الكلام إشارة الى أنّ الرُّعب في قلوب الكفّار ثابت في صورة وحدة الكلمة بينكم و إتّفاقكم على إطاعة اللّه و رسوله و أمّا في صورة الإختلاف فلا محالة تذهب ريحكم أي هيبتكم و سطوتكم.

وَ ٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ أي و أصبروا على الشّدائد و المكاره في الحرب و في غيرها فأنّ اللّه مع الصّابرين.

وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ

قيل أنّها نزلت في أبي جهل وأصحابه و ذلك لأنّهم خرجوا من مكّة لنصرة العير بالقينات و المعازف و وردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني و كان صديقاً له بهدايا مع إبنه و قال أن شئت أمددناك بالرّجال وأن شئت بنفسي مع من خفّ من قومي فقال أبو جهل أن لنّا نقاتل اللّه كما يزعم محمّد فواللّه ما لنا باللّه طاقة و أن كنّا نقاتل النّاس فواللّه أنّ بنا على النّاس لقوّة و اللّه لا نرجع عن قتال محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّىٰ نرد بدراً فنشرب فيها الخمور و تعزف علينا القينان فأنّ بدراً مركزٌ من مراكز العرب و سوقٌ من أسواقهم حتّى تسمع العرب فخرجنا فتهابنا أخر الأبد فوردوا بدراً فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر و ناحت عليهم النّوائح مكان القِينات فنهى اللّه المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين بأعمالهم صادّين عن سبيل اللّه واللّه تعالىٰ بما يعملون محيط كما قال: **وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** و في الآية الشّريفة من اللّطائف الخفيّة ما لا يخفىٰ.

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ

أي و أذكروا يا محمّد إذ زيَّن لهم الشّيطان أعمالهم هكذا قالوا.

أقول لا يبعد أن تكون كلمة للتّعليل و ذلك لأنّه تعالى قال في الآية السّابقة و لا تكونوا كالذّين خرجوا من ديارهم الخ فكأنّه قيل متىٰ خرجوا أو لأيّ شئ خرجوا أو لِم خرجوا و أمثال ذلك من التّعابير فقال تعالىٰ: **وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** أي أنّ علّة خروجهم كان هذا أو زمان خروجهم كان هذا بمعنىٰ أنّ تزيين الشّيطان لهم أعمالهم صار باعثاً علىٰ خروجهم و بعبارةٍ أخرىٰ لولا تزيين الشّيطان و إغواءه إيّاهم لما خرجوا و لم يقنع الشّيطان بتزيين الأعمال فقط بل قال لهم لا غالب لكم اليوم أي لا يغلب عليكم أحد و الحال أنّي جارٌ لكم أي مدافعٌ عنكم السُّوء.

فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ قيل أنّ الشّيطان ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي في جماعة من جنده لهم هذه كنانة قد أتتكم نجدة فقبلوا قوله و إطمّأنوا به و زعموا أنّ ما رأوه حقّ و لم يعلموا أنّ الشّيطان ظهر لهم بصورة سراقة و أنّه قادر علىٰ أن يظهر في أيّة صورةٍ شاء حتّى الكلب و الخنزير إلاّ الأنبياء و الأوصياء، فلمّا تراءت الفئتان أي فلمّا تلاقى الفريقان في معركة القتال نكص الشّيطان علىٰ عقبيه.

وَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِنْكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ أي قال الشّيطان للمشركين أنّي بريءٌ منكم إنّي أرىٰ ما لا ترون قال ذلك حين نزلت جنود اللّه لنصرة المسلمين فقال الحارث بن هشام الىٰ أين يا سراقة فقال: **إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ** أي أنّي أرىٰ الملائكة.

قيل أنّه رأى جبرئيل بين يدي النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و قيل حوّله اللّه على صورة إنسان علماً للنّبي بما يخبر به عنه و قيل أنّما هو يوسوس من غير أن يحوّل في صورة إنسان وكيف كان لمّا رأى الشّيطان ما رأه من الملائكة.

و قال بعضهم المراد بالفئتان فئة المؤمنين و فئة الملائكة نكص أي رجع الى قهقري خوفاً ممّا رأه و قال ما قال من قوله أنّي أرىٰ ما لا ترون ثمّ قال: **إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَ ٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.**

أقول يظهر من الآية أنّ الشّيطان لا يعد النّاس إلاّ غروراً بمعنى أنّه يغرّ النّاس فلَّما أوقعهم في الضّلالة و التّهلكة يقول أنّي بريءٌ منكم و من كان كذلك كيف يعتمد على قوله و وعده و لذلك حذر اللّه النّاس من متابعته في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ**[2].

١- البقرة =٢٦٨ ٢- آل عمران = ١٧٥

قال اللّه تعالىٰ: **يَعِدُهُمْ وَ يُمَنّيهِمْ وَ مٰا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ إِلّا غُرُورًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰا يُرِيدُ ٱلشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدٰاوَةَ وَ ٱلْبَغْضٰاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَ ٱلْمَيْسِرِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ إِلّا غُرُورًا**[۴].

و أمثال ذلك من الأيات و العجب أنّه مع ذلك صار إماماً لأكثر النّاس والسّر في ذلك أنّه يدعو النّاس الى أميالهم و شهواتهم و أهواءهم بخلاف الأنبياء فأنّهم يدعون النّاس الىٰ خلاف شهواتهم و أميالهم و من المعلوم أنّ الحركة الى الشّهوات طبيّعي و الحركة الىٰ خلافها قسّريّ والطّبيعي مقدّم علىٰ القسّري بمقتضى الطّبيعة و الجبلّة و لهذا يكون أتباعه في كلّ عصرٍ و زمانٍ أكثر من أتباع الأنبياء.

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنٰافِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

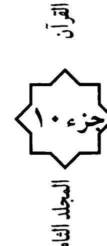
المنافقون جمع منافق و هو الّذي باطنه بخلاف ظاهره فهو أعمّ من الكافر إذ قد يكون منافقاً و لا يكون كافراً و ذلك مثل كثير من المسلمين في صدر الإسلام بل في كلّ عصرٍ و قد يكون كافراً باطناً و مسلماً ظاهراً و أمّا الكافر الخالص الّذي لا يعتقد الإسلام فلا يعدّ منافقاً لأنّ ظاهره و باطنه واحد، و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فالظّاهر عدم دخولهم في سلك المنافقين و إلاّ لم يحتج الىٰ إفرادهم بالذّكر بعد قوله: **إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنٰافِقُونَ**.

١- النّساء =١٢٠
٢- المائدة =٩١
٣- الأنعام =۴٣
۴- الإسراء =۶۴

قال بعض المفسّرين المراد بقوله: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** من كان شاكاً في الإسلام مع إظهاره كلمة الإيمان و عليه فالمراد بالمرض في الآية هو الشكّ في الإسلام قلباً، ولِقائل أن يقول هذا معنى المنافق بعينه اللّهم إلاّ أن يقال بأنّ المنافق منكر الإسلام قلباً و مظهره لفظاً و ظاهراً والّذي في قلبه مرض ليس بمنكرٍ قلباً بل هو شّاك قلباً و به حصل الفرق، و يحتمل أن يكون المراد بالمرض الحسد و الكبر و البخل و أمثال ذلك من الأمراض النّفسانية و كيف كان روي أنّ جماعة خرجت مع المشركين يوم بدر فلمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا هذا القول و هم قيس بن الوليد بن المغيرة و الحارث بن زمعة و العاص بن المنبّه بن الحجّاج و علّي إبن أميّة و هذا قول مجاهد و الشّعبى.

و قال الحسن المرض الشِّرك فالمراد هو المشركون و قيل المنافقون هم من الأوس و الخزرج لمّا خرج الرّسول قال بعضهم نخرج معه و قال بعضهم لا نخرج غرّ هؤلاء أي المؤمنين دينهم فأنّهم يزعمون أنّهم علىٰ حقٍّ و أنّهم لا يغلبون نُقل هذا عن إبن عبّاس و الّذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا و منعهم أقرباءهم من الهجرة فأخرجهم قريش معها كرهاً فلمّا نظروا الى قلّة المسلمين إرتابوا و قالوا غرَّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً.

و قال إبن عطّية قال المفسّرون أنّ هؤلاء الموصوفين بالنّفاق و مرض القلب أنّما هم من أهل عسكر الكفّار لمّا أشرفوا على المسلمين و رأوا قلّة عددهم قالوا مشيرين الى المسلمين غرّ هؤلاء دينهم أي إغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به و كني بالقلوب عن العقائد، و المرض أعمّ من النّفاق إذ يطلق مرض القلب علىٰ الكفر انتهىٰ كلام إبن عطّية.



وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ هذا يتضمّن الرّد علىٰ من قال غرَّ هؤلاء دينهم فكأنّه قيل هؤلاء في لقاء عدّوهم كانوا متوكّلين على اللّه فلا محالة هم الغالبون، فأنّ من يتوكّل على اللّه فهو حسبه ينصره و يعزّه لأنّه تعالى عزيز لا يغالب بقوّةٍ و لا بكثرة حكيمٌ، يضع الأشياء مواضعها إشارة الىٰ

أنّ النّصر و الغلبة ليس بكثرة العدد و لا بقوّة الجسد بل النّصر يحصيل بالتّوكل علىٰ اللّه و الإعتماد عليه و الكافر حيث لا يتوجّه الىٰ هذه الدّقيقة بل يرى ظاهر الأمر فلا محالة يحكم بما يقتضيه و همه و خياله.

وَ لَوْ تَرٰىٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ ٱلْحَرِيقِ

لَو، الّتي ليست شرطاً في المستقبل تقلب المضارع للممضّي فالمعنى لو رأيت و شاهدت و حذف جواب، لو، أي لرأيت أمراً عجباً و شأناً هائلاً و هذا الحذف جائز بليغ يدّل على التّعظيم، فمن قرأ الفعل **بالتّاء** أسند الفعل الى الملائكة و من قرأ **بالياء** فلأنّ التأنّيث في الملائكة غير حقيقي، و الخطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول اللّه تعالىٰ له ولو ترىٰ الوقت الّذي تتوفّىٰ الملائكة الّذين كفروا، أي يقبضون أرواحهم على إستيفاءها لأنّ المَوت لا يتحقّق إلاّ بإخراج الرّوح عن الجسد بتمامها، يضربون وجوههم و أدبارهم، أي يضربون الملائكة وجوه الكفّار و أدبارهم أي ظهورهم، و ذوقوا عذاب الحريق، قالوا تقديره و يقولون يعني الملائكة للكفّار ذوقوا عذاب الحريق و الحريق تفريق الأجسام الكبيرة العظيمة بالنّار العظيمة هذا ما قالوه في تفسير الآية و إستدّلوا على ذلك بوجود نظائره في القرآن مثل قوله تعالىٰ: **وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ ٱلْقَوٰاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا**(١) أي و يقولان ربّنا.

و قوله تعالىٰ: **وَ لَوْ تَرىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰآ أَبْصَرْنٰا**(٢) أي يقولون ربّنا أبصرنا و هكذا ما نحن فيه، أقول ما ذكروه من النّظائر لا كلام فيه إلاّ أنّ المقام لا يقاس عليه لوجود الواو في المقام و عدمه هناك و ذلك لأنّ **الواو** في قوله: **وَ ذُوقُوا** أن كانت عاطفة فأين المعطوف عليه إذ لم يقدّم في الكلام، قولٌ من الملائكة حتّى يقال بصحّة تقديره القول قضاءً

١- البقرة = ١٢٧ ٢- السجدة = ١٢

لحكم العطف و أن كان للإستئناف فالظّاهر أنّ قوله: **وَ ذُوقُوا** جملة مستأنفة لا ربط لها بالكلام السّابق و عليه فلا معنى للتّقدير إذ لا يدّل عليه دليل و مع ذلك فقد أجمع المفسّرون على أنّ التّقدير و يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق واللّه أعلم بكلامه.

قال إبن عبّاس، قول الملائكة لهم إنّما صّح لأنّه كان مَع الملائكة، مقامع و كلّما ضربوا بها إلتهبت النّار في الأجزاء و الأبعاض فذاك قوله: **وَ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ** و عن الواحدي، أنّ هذا تقول الملائكة لهم في الآخرة.

أقول و عليه هو كلام مستأنف من اللّه على سبيل التّقريع للكافرين، إمّا في الدّنيا حالة الموت أي مقدّمة عذاب النّار و أمّا في الآخرة **ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[١] ذٰلك إشارة الىٰ ما تقّدم ذكره من قول الملائكة لهم **ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ** فكأنّه قيل للملائكة لم نذوق العذاب قالوا لهم ذالک بسبب ما قدّمت أيديكم في دار الدّنيا و أنّ اللّه تعالىٰ: **لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** يستفاد من هذا الكلام أمران:

أحدهما: أنّ العذاب مسّببٌ من الأعمال.

الثّانى: أنّ اللّه لا يظلم أحداً.



أمّا الأوّل: أعني كون العذاب مسّبباً عن الأعمال فيدُّل عليه العقل و النّقل، أمّا العقل فلأنّه قد ثبت أنّ اللّه تعالىٰ عادل لا يَجوز في حكمه و لا يضع الشّئ في غير محّله كما هو معنى العدل و عليه فأن كان العذاب مسّبباً من الأعمال فهو المطلوب و إلاّ يلزم الظّلم منه تعالىٰ على العبد لأنّ العذاب من غير سببٍ هو من وضع الشيئ في غير محلّه و هو ظلمٌ و الظّلم نقيض العدل فيلزم أن يكون ظالماً غير عادلٍ و هو خلاف ما ثبت عقلاً و اذا كان كذلك فالعذاب مسّببٌ و معلولٌ لشيٍ أخر و هذا الشّئ لا يكون إلاّ عمل العبد فالمطلوب ثابت.

١- آل عمران = ١٨٢

هذا مضافاً الى أنّ لكلّ شيءٍ يوجد عقاباً كان أو ثواباً علّة و سببٌ و إلاّ يلزم وجود المعلول بلا علّة و هو محال عقلاً و العلّة أو السّبب إمّا نفس إرادة الخالق أو فعل العبد او فعل غيره و الأوّل يستلزم الظّلم و الثّاني حقّ و الثّالث غير معقول اذ لا تزر وازرة وزر أخرى فثبت المدّعى.

و أمّا الدّلائل النّقلية فهي كثيرة جدّاً من الكتاب و السنّة.

قال اللّه تعالىٰ: **فَما كانَ اَللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لا يَظْلِمُ اَلنّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ اَلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ**(۵) والأيات كثيرة.

و أمّا السنّة فلا نحتاج الى ذكر ما وَرد فيها لإثبات المدّعىٰ بعد ذكر الأيات مضافاً الى أنّ كلّ ما ورد في السنّة ناظر الى ما ذكرناه و هو واضح.

وأمّا الأمر الثّانى: و هو أنّ اللّه لا يظلم أحداً فهو أيضاً قد ثبت فيما ذكرناه فلا نحتاج الى الإعادة و سيجيئ في موضعه أنّ الأعمال هي بعينها تنقلب الىٰ العذاب لا أنّ العذاب شيئ أخر يترتّب عليها، فأنّ القول يتجسّم الأعمال يوم القيامة بصورة العذاب مشهور بين العلماء و سيأتي تحقيق ذلك إن شاء اللّه تعالىٰ.

جزء ١٠

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ

١- التّوبة =٧٠
٢- أل عمران =١١٧
٣- يُونس =۴۴
۴- النّحل =١١٨
۵- النّساء =۴٠

العامل في قوله: **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** الإبتداء و تقديره، دأبهم كدأب آل فرعون، فموضعه رفع، و الدّأب العادة و الطّريقة تقول هذا دأبه، و ليس هذا من دأبه أي من عادته و طريقته.

و المعنى أنّه جوزي هؤلاء الكفّار بالقتل والأسر كما جوزي آل فِرعون بالغرق و كما جوزي من قبلهم من الأمم الذّين كفروا بآيات اللّه فأخذهم اللّه بذنوبهم و أهلكهم مثل قوم نوح و عاد و ثمود و هكذا و ذلك لأنّ الملاك في إستحقاق العذاب هو التّمرد و العصيان و تكذيب الآيات و إنكار الأنبياء بعد تماميّة الحُجّة عليهم و هذا الملاك كان موجوداً في كفّار قريش فوقعوا فيما وقع فيه من قبلهم مِن الكفّار و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد.

و في قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** إشارة بأنّ اللّه تعالىٰ لا يعجز عن العقاب بل هو علىٰ كلّ شيٍ قدير.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ**[۵] و أمثالها كثيرة.

نعم أنّ اللّه تعالىٰ لم يعذّب قوماً إلاّ بعد بعث الرّسل كما قال: **وَ مَآ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ**[۶] فمعنى الآية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات اللّه الّتي أتى بها رسوله بحال آل فرعون في تكذيبهم بآيات اللّه الّتي أتىٰ

١- الأنعام =۶۵
٢- الأنعام =۶
٣- يونس =١٣
۴- الإسراء =١٧
۵- مريم =٩٨
۶- الشّعراء =٢٠٨

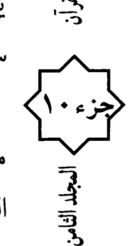
بها موسىٰ عليه‌السلام لأنّ تعجيل العقاب لهؤلاء بالإهلاك كتعجيله للمشركين بالإستئصال و القتل و الأسر في غزوة بدر و غيرها.

ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

ذلك، إشارة الىٰ ما تقدّم ذكره من أخذ اللّه الكفّار بالعقاب و محصّل الكلام في معنى الآية هو أنّه تعالىٰ بيّن فيها سَبَب الإهلاك و العقاب و هو أنّ تبديل النّعمة بالنّقمة والعذاب بسبب تغير ما في قلوبهم من الإعتقادات و الأعمال و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ اللّه تعالى لا يغيّر نعمةً أنعمها علىٰ قومٍ إلاّ بعد تغيير نيّات القوم من الخير الى الشّر فهذا هو السَّبب الفرد و لتوضيح الآية نقول:

لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ خلق الخلق و أخرجهم من العدم الىٰ الوجود و لاشكّ أيضاً أنّ الخالق أشفق و أرأف بخلقه من الوالد الشّفيق، و هذا ممّا لا كلام فيه.

ثمّ نقول أنّه تعالى جوادٌ لا يبخل و غنيٌّ لا يفقر و قوّي لا يضعف و هكذا و مع ذلك نحن نرى أنّه تعالى قد يسلب النّعمة عن قومٍ و يبتليهم بالقحط و الغلاء أو يجعلهم في معيشةٍ ضنكٍ أو يسلّط عليهم من لا يرحمهم أو يهلكهم و يفنيهم عن صفحة الوجود بنزول أنواع العذاب عليهم ممّا هو مذكور في القرأن بالنّسبة الى بعض الأمم و لابدّ لها من علّةٍ وسببٍ فأنّه تعالىٰ أبىٰ أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها و لا شكّ عقلاً أنّ كلّ حادثةٍ من الحوادث لابدّ لها من سبب و هذا هو الّذي ذكره في هذه الآية صريحاً.



و حاصله أنّ النِّعم الإلٰهيّة و البركات السَّماوية و الألطاف الرّبانية كلّها يدور مدار النّيات و الإعتقادات و الأعمال فاذا كانت النّيات صادقة و الأعمال النّاشئة عنها صالحة و القلوب عن الأعراض القلبيّة خالية و الرّأفة و العدالة في الجامعة حاكمة تكون البركات من اللّه عليهم نازلة و الألطاف و العنايات الرَّبانية لهم شاملة و هذا أصلٌ أصيل جعل اللّه عليه مدار السّعادة في الدَّارين.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرىٰ اٰمَنُوا وَ اٰتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا بَيٰاتًا وَ هُمْ نٰآئِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللّٰهِ فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخٰاسِرُونَ**(۴).

هذه الأيات و نظائرها كما ترى أوضحت و بيَّنت ما نحن بصدد إثباته بأوضح تبيينٍ ففي الآية الأولى جعل اللّه فتح البركات معلّقاً على الإيمان و التّقوىٰ و العذاب على ما كانوا يكسبون من الأعمال و قال تعالىٰ: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**(۵) و المعيشة الضَّنك ليست إلاّ حبس البركات و العنايات و عليه.

ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ واضح لا خفاء فيه.

و أمّا قوله: **وَ أَنَّ ٱللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** فهو إشارة الىٰ أنّ اللّه سميعٌ أي يسمع ما يقولون و عليمٌ أي يعلم ما يسّرون و ما يعلنُون لا يخفى عليه شئ و المراد بكونه سميعاً يعني أنّه عالم بالمسموعات كما أنّه عالمٌ بالمبصرات و سائر الإدراكات لا أنّه يسمع أو يبصر بجارحة السّمع و البصر كما هو فينا كذلك لتّنزهه عن الأعضاء و الجوارح فأنّها من شئون الأجسام.

١- الاعراف =٩۶ ٢- ٩٧
٣- ٩٨ ۴- ٩٩
۵- طه =١٢۴

كَدَأْبِ اٰلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنَآ اٰلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ

قيل وجه التّكرار في قوله: **كَدَأْبِ اٰلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** هو أنّ الأيتين مشتملتان على نوعين من العقاب ففي الآية السّابقة ذكر أنّه تعالىٰ أخذهم بذنوبهم و لم يبيّن كيفيّة الأخذ و العقاب و أمّا في هذه الآية بيّن كيفيّة العذاب و أنّه أهلكهم و أغرقهم.

و قال الأخر فيه تصريف القول في الذّم بما كانوا عليه من قبح الفعل و تقدير الكلام دأب هؤلاء الكفّار مثل دأب أل فرعون.

و قال بعض المفسّرين التّكرير للتّأكيد.

و قال إبن عطّية هذا التّكرير لمعنًى ليس للأوّل و الأوّل دأبٌ في أن هلكوا لمّا كفروا.

الثّانى: دأبٌ في أن لم يغيّر نعمتهم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم انتهى.

و قال قوم كرّر لوجوهٍ:

منها، أنّ الثّاني جري مجرى التّفصيل للأوّل لأنّ في ذلك ذكر إجرامهم و في هذا ذكر إغراقهم.

و منها، أنّه أريد بالأوّل ما نزل بهم من العقوبة حال الموت.

بالثّانى: ما نزل بهم من العذاب في الأخرة.

و منها، أنّه في الأوّل إشارة الىٰ إنكار دلائل الإلٰهيّة و كفرهم بأيات اللّه.

في الثّانى: بأيات ربّهم، إشارة الى إنكار نعم من ربّاهم و دلائل تربيته و إحسانه على كثرتها و تواليها.

و منها، في الأوّل اللاّزم منه الأخذ.

في الثّانى: اللاّزم منه الهلاك والإغراق.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **بِاٰيَاتِ رَبِّهِمْ** زيادة دلالةٍ على كفران النّعم وجحود الحقّ و فى ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذّنوب انتهىٰ.

أقول هذه الوجوه كلّها إستحسانات لا بأس بها فأنّ لكلّ واحدٍ منها وجه وجَيه و قد ذكروا في المقام وجوهاً كثيرة تجدها في تفاسيرهم و لكن كلّها من سنخٍ واحدٍ لا يعتمد عليه و الحقّ أنّ أل فرعون كانوا علىٰ أحوالٍ مختلفة في المعصية فبيَّن اللّه تعالىٰ في هذه الأيات مشاركة هؤلاء الكفّار بهم في تلك الأحوال.

و أمّا كيفيّة الغرق فقد مرَّ الكلام فيها غير مرّةٍ و قوله: **وَ كُلٌّ كٰانُوا ظٰالِمِينَ** فيه إشارة الىٰ أنّا لم نأخذهم ولم نغرقهم إلاّ لأجل ظلمهم و لولا ظلمهم و معصيتهم ما كانوا من المعذّبين و المغرقين (فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد).

إِنَّ شَرَّ اَلدَّوٰآبِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ

الدّابة ما من شأنه أن يدُّب علىٰ الأرض لكن لا يطلق عرفاً إلاّ على الخيل ومنه قوله تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِى اَلْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اَللّٰهِ رِزْقُهٰا**[١].

و قد مرَّ الكلام في الدّابة سابقاً وقوله: **إِنَّ شَرَّ اَلدَّوٰآبِّ** الشَّر ضدّ الخير، و المراد بالشّر ليس الشَّر المطلق المعبّر عنه في الفلسفة بالشَّر المحض، لأنّه لم يوجد أبداً لأنّ الشّر.

المحض هو بعينه عدم المحض فأنّ الشّرور اعدام.

بل المراد به الموجود الّذي يكون شرارته غالباً على خيراته و قد يعبّر عنه بكثير الشّر و توضيح ذلك إجمالاً أنّ الموجود أمّا أن يكون خيراً محضاً لا شّر فيه أصلاً و هو الواجب الوجود لا غيره.

و أمّا أن يكون خيره غالباً على شرّه كالأنبياء و الأوصياء و الصُّلحاء و أمّا أن يكون بالعكس كالشّيطان و أتباعه من شياطين الإنس والجنّ و أمّا أن يكون متساوي الشّر و الخير فقيل هو ممّا لم يوجد و قيل عدم الوجدان لا يدّل علىٰ عدم الوجود فلعلّه وجد و لا نعرفه.



١- هود =٦

و أنّما قلنا أنّ اللّه تعالىٰ خيرٌ محض و لا ثاني له لأنّ اللّه تعالىٰ صرف الوجود و حقيقته و الوجود خيرٌ محض و أمّا الشّرور فأنّها من شئون الماهّيات الإمكانيّة فمن لا ماهيّة له لا شرارة فيه و هذا الموجود الّذي منزّه عن الماهيّة و النّقص الإمكاني لا يكون إلاّ الواجب تعالى و تفصيل الكلام موكول الى محلّه اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ** المقصود من الدَّواب في المقام هو الإنسان الكافر أمّا أنّه من الدَّواب لأنّه يدُّب على الأرض كما يدُّب عليها الحمار و البقر و سائر الدَّوابّ و أمّا أنّه شرّ الدَّوابّ فلأنّه أضَرُّ وأظلم و أخبث منها.

و الوجه فيه هو أنّ كلّ دابّةٍ تدّب علىٰ الأرض من أنواع الحيوانات وأصنافها تعرف خالقه و لا تُنكره بل تسبّحه و تقدّسه.

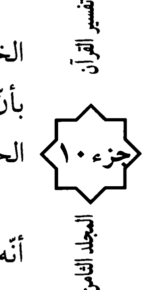
قال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **سَبَّحَ لِلّٰهِ ما فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ما فِى ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوٰاتُ ٱلسَّبْعُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ**(۳).

هذا مضافاً الىٰ أنّ الدَّواب غير الإنسان لا ضَرَر لها أن لم يكن لها نفع.

و أمّا الإنسان الكافر فهو شرّ منها لكفره و عدم معرفته بخالقه و من لا يعرف الخالق بل أنكره أشدّ الإنكار فلا يسبّحه و لا يشكره قطعاً و كلّ منصفٍ يحكم بأنّ الكافر أخبث و أفسد و لا مزيّة له على غيره من الدّواب أعني بها الحيوانات إلاّ من جهة إستقامة قامته و أنّه موجودٌ مستقيم القامة.



و من المعلوم أنّ إستقامة القامة و إنحناءها لا ربط له بالإنسّانية الكلام هو أنّه بكفره و إلحاده من شرّ الدَّواب عند اللّه، و قوله: **عِنْدَ ٱللّٰهِ** لعلّه إشارة الىٰ

۱- الإسراء =۴۴ ۲- الحَشر =۱ ؛ الصّف =۱
۳- الإسراء =۴۴

أنّه أي الكافر عند اللّه لا متيمة و أن كان عند النّاس محبوباً معزّزاً كما هو كذلك واقعاً ولذا لم يقل أنّ شرّ الدّواب عند النّاس.

فأنّ أكثر النّاس من هذا القبيل و الجنس الى الجنس يميل فأنّ النّاس الى أشباههم أميل و أمّا قوله: **فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ففيه إشارة الىٰ أنّ هؤلاء الأشخاص لا يؤمنون أصلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ ٱللّٰهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰٓ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ**[١].

و قد بيَّن اللّه تعالىٰ العلّة في بقاءهم على الكفر.

قال اللّه تعالىٰ: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ ٱللّٰهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ**[٢]

أن قلت قوله: **فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** يدّل علىٰ الجبر و أنتم معشر الإمامية لا تقولون به.

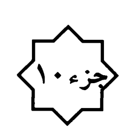
قُلتُ لا دلالة فيه على الجبر أصلاً و أنّما هو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم في علمه و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه تعالىٰ قد علم أنّهم لا يؤمنون بسوء سريرتهم و إختيارهم لا أنّه تعالىٰ خلقهم و أجبرهم على عدم الإيمان و قد مرّ منّا مراراً أنّ العلم الأزّلي ليس بعلّةٍ أصلاً و أنّما هو إنكشاف الواقع فحسب.

و أمّا الفعل في الخارج فهو تحت إختيار الإنسان و قدرته أن شاء فعل و إن لم يشاء لم يفعل و هو واضح.

■

١- البقرة =٦ و ٧ ٢- البقرة =١٠

ٱلَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ ﴿۵۷﴾ فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿۵۸﴾ وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلٰى سَوٰاءٍ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ ٱلْخٰائِنِينَ ﴿۵۹﴾ وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ ﴿۶۰﴾ وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ ﴿۶۱﴾ وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿۶۲﴾ وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿۶۳﴾ وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿۶۴﴾ يٰا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللّٰهُ وَ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۶۵﴾



◀ اللّغة

يَنْقُضُونَ، نَقَضَ العهد مثل نقض الوعد و هو الرّجوع عمّا عهد اليه.

تَثْقَفَنَّهُمْ معنى، تَثقفّن، تصادفّن و تلّقين و أصله الإدراك بسرعةٍ تقول ثقف

الكلمة و ثاقفه مثاقفة إذا تدارك كلّ واحدٍ منهما أمر صاحبه و دخلت، ما، ولو لم تدخله لما حسن دخول النّون.

فَشَرِّدْ ،شَرَّد بفتح الشّين و كسر الرّاء المشدّدة أمرٌ من التّشديد أي التّفريق علىٰ إضطرابٍ.

خِيَانَةً ضدّ الأمانة.

فَانْبِذْ، النّبَذ إلقاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنّه حرب بنقض عهدٍ أو إقامة علىٰ بغيٍ.

جَنَحُوا أيّ مالُوا الى المسالمة يقال جنحت السّفينة إذا مالت الى الوقوف و منه جناح الطّائر لأنّه يميل به في أحد شقّيه و الباقي واضح.

◀ الإعراب

ٱلَّذِينَ عَٰهَدْتَ بَدَلٌ من، الّذين الأولى، و يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هم الّذين، و يجوز أن يكون نصباً على إضمار أعني و مِنْهُمْ حال من العائد المحذوف فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أي عهدهم فحذف المفعول و عَلَىٰ سَوَآءٍ حال مِنْ قُوَّةٍ في موضع الحال، من، ما، أو من العائد المحذوف في إستطعتم تُرْهِبُونَ بِهِ في موضع الحال من الفاعل في، إعدلوا، أو من المفعول لِلسَّلْمِ يجوز أن تكون اللاّم بمعنى، الى، لانّ جنح بمعنىٰ مال، والسّلم بفتح السّين و كسرها لغتان، و قد قرأ بهما و هى مؤنثة و لذلك قال فأجنح لها حَسْبُكَ ٱللَّهُ مبتدأ و خبر وَ مَنِ ٱتَّبَعَكَ في، مَن، ثلاثة أوجه.

أحدها: جرّ، عطفاً علىٰ الكاف في حسبك و هذا يجوز عند البصرّيين لأنّ العطف على الضّمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز.

الثّاني: موضعه، نصب، بفعلٍ محذوف دلّ عليه الكلام و تقديره و يكفي من إتّبعك.

الثّالث: موضعه، رفع لأنّه معطوف على إسم الّه.



◀ التّفسير

ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ قيل هذه الآية نزلت في بني قريظة لمّا نقضت عهد النّبي في أن لا يحاربوه و لا يمالؤوا عليه فنقضوا عَهده و مالؤوا عليه و عاولوا قريشاً يوم الخندق فأنتقم اللّه منهم.

و قال بعضهم نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف و أصحابه عاهدهم الرّسول أن لا يمالؤا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكّة بالسّلاح و قالوا أنسينا و أخطأنا ثمّ عاهدوهم ثانياً فنكثوا و مالئوا معهم يوم الخندق و أنطق كعب بن الأشرف الى مكّة فخالفهم.

قال البغوي من روى أنّه كعب بن الأشرف قد أخطأ و وهم، بل يحتمل أنّه كعب بن أسد فأنّه كان سيّد قريظة.

و قيل هم بنو قريظة و النضّير.

و قيل نفر من قريش من عبد الدّار حكاه التّبريزي في تفسيره و كيف كان فلا شكّ أنّ نفراً من الكفّار نقضوا عهدهم و لا يهمنّا البحث في تعيين أشخاصهم و الآية بصدد بيان هذا الأصل و من المعلوم أنّ نقض العهد مذمومٌ عقلاً و شرعاً.

ثمّ قال تعالى في آخر الآية **وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ** أي لا أنّ النّاقضين لعهدهم لا يتّقون عقاب اللّه آجلاً و عاجلاً.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي فأن تظفر بهم في الحرب و تتمكّن منهم فشرّد بهم من خلفهم.

قال إبن عبّاس معناه، فنكّل بهم من خلفهم.

و قال إبن جبير أنذر من خلفهم عن قتل من ظفر به و تنكيله فكان المعنى فأن تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً حتّى يفرّ، عنك من خلفهم و يتفرّق و لمّا كان التّشديد و هو التّطريد و الإبعاد ناشئاً عن قتل من ظفر به في الحرب من المعاندين و المعاهدين النّاقضين جعل جواباً للشّرط إذ هو يتسبّب عن الجواب.

و قال الزّمخشري من وراءهم من الكفرة حتّى لا يجسر عليك بعدهم أحداً إعتباراً بهم و إتّعاظاً بحالهم، و قرأ الأعمش، فشرّذ بالّذال بدلاً من الدّال المهملة.

و عن الزّمخشري أنّه قال شرّذ بالذّال المعجمة، بمعنىٰ، فرِّق.

و قال قطرب هو بالذّال المعجمة التّنكيل و بالمهملة التّفريق و علىٰ أيّ حالٍ أمر اللّه نبيَّه بتشريدهم و تفريقهم بعد الظّفر عليهم في الحرب لأنّ في التّفريق الضّعف بخلاف الإجتماع فأنّ فيه القوّة و الشّوكة ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ نهانا عن التّفريق حيث قال: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعًا وَ لا تَفَرَّقُوا**[1] فمَن قال معنىٰ الكلام فأن تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً كما مرّ، لا نفهم معناه و ليت شعري من أين أخذ هذا المعنى و ليس منه في الآية عينٌ و لا أثر، مضافاً الىٰ أنّه خلاف حكم العقل فأنّ المستوجب للقتل يقتل و أمّا القتل الذّريع، و الفجيع فالإسلام منزّهٌ عنه.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم **أيّاكم و المثلة ولَو بالكلب العقور.**

و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ أمر رسوله بتشريد الكفّار و معناه واضح.

و أمّا قوله: **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** مشدَّدةً معناه لكي يفكرّوا فيتّعظوا و ينزجروا من الكفر و المعاصي.

وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللّٰهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ إختلفوا في **الواو** هل للعطف او للإستئناف فقال قوم هذه الآية معطوفة علىٰ الآية السّابقة و هو الظّاهرعليه التّكرار في كلمة، إمّا، أي فإمّا تثّقفنهم في الحرب.

وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً.

فَعلىٰ الأوّل: فشرّد بهم ألَخ.

١- آل عمران =١٠٣

علىٰ الثّاني: فأنبذ اليهم الآية و عليه فالمراد بالقوم في هذه الآية هو قوم بني قريظة الّذين نزلت الآيـة فـيهم أو غـيرهم عـلىٰ مـا نـقلناه فـي شَأن النّـزول و الحاصل أنّ المراد بالقوم من نزلت الآية في شأنه بمقتضىٰ العطف.

و قال بعض المفسّرين **الواو** للإستئناف و عليه فما ذكره في هذه الآية حكمٌ آخر أمر اللّه نبّيه به و أستدّلوا على مدّعاهم أمّا أوّلاً فبأنّ بني قريظة لم يكـونوا في حدّ من يخاف منه خيانة لأنّ خيانتهم كانت ظاهرة مشهورة.

ثانياً: لأنّه تعالىٰ قـال مـن قـومٍ عـلىٰ وجـه التّـنكير فـلو كـان المـراد مـنهم بنوقريظة لَقال من القوم أو و إمّا تخافّن منهم و لم يقل.

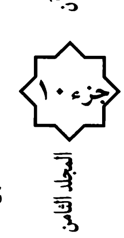
و قال يحيى إبـن سـلام، تـخافّن بـمعنى تـعلم و حكـاه بـعضهم أنّـه قـول الجمهور و قيل الخوف على بابه فالمعنى أنّه ليظهر منهم مبادئ الشّر و يـنتقل عنهم أقوال تدّل على الغدر فالمبادئ معلومة و الخيانة الّتي هي غـاية المـبادئ مخوفة لا متّيقنة و لفظ الخيانة دالّ على تقّدم عهدٍ لأنّه من لا عَهد بينك و بـينه لا تكون محاربته خيانة فأمر اللّه نبّيه إاذ حسَّ من أهل عهدٍ ما ذكرناه و خـاف خيانتهم أن يلقي اليهم عهدهم و هو النّبذ مـفعول، فأنـبذ، مـحذوف و التّـقدير فأنبذ اليهم عهدهم أي أرمه و أطرحه **عَلَىٰ سَوَاءٍ** قـيل أي عـلى مـهلٍ عـلىٰ العدل و منه قيل للوسط سواء لإعتداله الى الجهات قال الشّاعر:

يـا ويـح أنـصار النّـبي ورهـطه   بعد المغيب فـي سـواء المـلحد

أي في وسطه.

فأن قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة و المفروض عدم حصولها.

نقول إنّما فعل ذلك لظهور إمارات الخيانة الّتي دلّت على نقض العهد و لم تشتهر ولو إشتهرت لم يجب النَّبذ كما حارب الرّسـول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهـل مكّـة لّـما نقضوا العهد بقتل خزاعة و هـم فـي ذمّـة النّـبي فـلّما فـعلوا ذلك فـعلاً ظـاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ولو نقضوه على خفاءٍ لم يكن بـدّ مـن نبذ العهد اليهم لئلا ينسب الىٰ نقض العهد و الغدر.



أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ** فالوجه فيه معلوم لأنّ الخيانة من أقبح الأفعال و أشنعها بل هي من المستقلات العقلية و ما كان كذلك كيف يكون محبوباً لعاقل فضلاً من اللّه تعالىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أَثِيماً**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ كَفُورٍ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَخُونُوٓا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**[۳].

و أمّا الأخبار الواردة في ذمّها فكثيرة لا نحتاج الى ذكرها في المقام.

وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ

قرأ إبن عامر و حمزة و حفص و أبو جعفر **ولا يَحسّبن** بالياء و الباقون بالتّاء و قرأ إبن عامر أنّهم بفتح الهَمزة و الباقون بكسرها، فمن قرأ بالتّاء فالخطاب للنّبى.

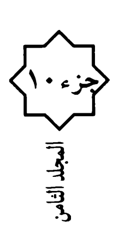
و قوله: **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** المفعول الأوّل **سَبَقُوٓا** المفعول الثّاني و موضعه النّصب و أمّا من قرأ بالياء أحتمل ثلاثة أشياء:

أحدها: وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا و هو قول أبي الحسن.

الثّانى: أن يكون أضمر المفعول الأوّل و تقديره و لا يحسّبن الّذين كفروا أنفسهم سبقونا و إيّاهم سبقوا.

الثّالث: أن يقدّر على حذف، أن، كأنّه قال و لا يحسبنّ الّذين كفروا أن سبقوا.

قال الزّجاج: يقوّى ذلك أن في قراءة إبن مسعود **إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** بكسر الألف فعلىٰ هذا يكون، إن سبقوا، سدَّ مسدّ المفعولين كما أنّ قوله: **أَحَسِبَ ٱلنّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا**[۴] كذلك و من فتح الهَمزَة في **إِنَّهُمْ** جَعَل الجملة



۱- النّساء =۱۰۷
۲- الحَج =۳۸
۳- الأنفال =۲۷
۴- العنكبوت = ۲

متعلّقة بالجملة الأولى و التّقدير و لا تحسّبنهم سبقوا، لأنّـهم لا يـفوتون فـهم يجازون علىٰ كفرهم و من كسر إستأنف الكلام إنتهىٰ كلام الشّيخ في التّبيان.

و قال الزّمخشري، كلّ واحـدة مـن المكسـورة و المـفتوحة تـعليلٌ، إلاّ أنّ المكسورة علىٰ طريقة الإستئناف و المفتوحة تعليلٌ صريح و فى المقام أقـوال كثيرة أشار الىٰ بعضها الزّمخشري ثمّ قال هذه الأقاويل كلّها محتملة.

و أمّا نزولها فقيل أنّها نزلت فيمن أفلت من الكفّار، في، بـدر، و المـعنى لا تظنّهم يا محمّد ناجين مفلتين فأنّهم لا يعجزون طالبهم بل لابـدّ مـن أخـذهم قيل و ذلك في الدّنيا، و لا يفوتون بل ليظفرك اللّه بهم و قيل في الآخرة **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** عّام قاله إبن عبّاس و قوله يعجزون أي يغلمون قال الشّاعر:

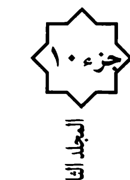
و أعـجزنا أبـو ليـلى طـفيل　　　　صحيح الجلد من أثر السّـلاح

و أمّا علىٰ قراءة من قَرأ بالياء فالمعنىٰ **وَ لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا** أي لا يحسّبن الكفّار الّذين سبقوا الى الحياة في غزوة بدر و لم يقتلوا و بعبارةٌ أخرى من أفلت من وقعة بدر سبقوا الىٰ الحياة ثمّ إستأنف الكلام فقال، (أنّهم لا يعجزون) أي لاٰ يفوتون حتّى يظفرك اللّـه بـهم و قـيل يـعني فـي الآخـرة و محصّل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالىٰ أعلم المسلمين و أخبرهم بأنّ من لم يقتل في غزوة بدر بسبب الفرار أو غير ذلك من الكفّار لا يفوتون حتّى يظفِرك اللّه بهم في الدّنيا أو في الآخرة فأنّ معنى أعجزه، سبقه وفـاته حـتّى لم يـقدر عليه.

و في هذا الكلام إشارة الىٰ أنّه لا يُمكن الفرار من حكومة اللّه.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ**[٢].



١- الجمعة =٨　　٢- الأحزاب =١٦

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ

أَعِّدوا أمرٌ من **عَدَّ يَعُّد** بمعنى هيّأ أمر اللّه المؤمنين بإعداد القُوة للأعداء أي بإعداد ما قدروا عليه مِن السِّلاح و آلة الحرب و الخيل و غير ذلك ممّا ينبغي إعداده في الحرب فأنّ الإعداد إتّخاذ الشّيْ لغيره ممّا يحتاج اليه في أمره، ولو إتّخذه له في نفسه محّبةً لم يكن إعداداً، و الإستّطاعة معنى تنطاع بها الجوارح لِلفعل مع إنتفاء المنع و قوله تعالىٰ: **مِنْ قُوَّةٍ** أي ممّا تعدّون به علىٰ عدّوه و قيل معناه من الرّمي و قوله: **وَ مِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ** فالرّباط شدّ السّير من العقد.

و قال إبن عبّاس القوّة هاهنا السّلاح و القِّسي و نقل القُرطبي في تفسيره.

عنه ﷺ أنّه قال: (سَتُفتَح عليكم أرضون و يكفيكم اللّه فلا يعجز أحدكم أن يلهوا بأسهمه)

و قال (كلّ شئ يلهو به الرّجل باطل ،إلاّ رميه بقوسه و تأديبه فرسه و ملاعبته أهله فأنّه من الحّق) إنتهىٰ.

و قال في تفسير قوله: **وَ مِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ** الرِّباط من الخيل فما فوقها و جماعته، رُبُط، و هى الّتي تَرتبط يقال منه، رَبَط يَربط، رَبطاً، وأَرتَبط يَرتَبط إرتباطاً ومِربَط الخَيل و مَرابطها و هى إرتباطها بإزاء العدّو قال الشّاعر:

أمـــر الإلٰـــه بـــربطها العـــدّو   في الحرب أنّ اللّه خير موفّقٍ

وقال الآخر:

تلوم علىٰ حبس الجياد و ربطها   و أوصـى بـها اللّـه النّبي مـحمّداً

و رباط الخيل فضل عظيم و منزلة شريفة إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ يعني تخيفون به عدّو اللّه و عدّوكم من اليهود و قريش و كفّار العرب فالهاء في، به، راجعة الىٰ الرّباط و ذكره لأنّه على

لفظ الواحد و أن كان في معنى الجمع، و الإرهاب إزعاج النّفس بالخوف **وَ اٰخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ** قيل المراد بهم، فارس و الرُّوم قاله السّدي و قيل الجّن قاله الطّبري و قيل المراد بذلك كلّ من لا تعرف عداوته و قيل هم بنو قريظة و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة والكّل محتمل و لذلك قال: **اَللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ** فكيف يدّعي أحد علماً بهم **وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ**أي ما من شئٍ تنفقونه في الجهاد إلاّ والله يوّفيكم ثوابه علىٰ ذلك على أحسن الوجه.

تَنبيهٌ

وأعلم أنّ الغرض الأصلي من الآية هو إستعداد المسلمين في كلّ عصر و زمانٍ لحرب الكفّار لو إتفّقت الحرب و لازم ذلك أن لا يكونوا علىٰ غفلةٍ منها فأنّ العدّو ينتهز الفرصة فإذا وجدها أخذ بها قطعاً.

و المراد بالإستعداد هو كونهم مجهّزين بالسّلاح علىٰ ما ينبغي و يصلح في كلّ عصرٍ و زمان و من المعلوم أنّ السّلاح في عصرنا هذا مثلاً غير السّلاح في صدر الإسلام فأنّ الخيول و الرّباط و القسّي في هذا الزّمان لا أثر لها و لا نفع فيها يعتدّ به كما هو واضح بل السّلاح المتعارف في هذا العصر شئ آخر فينبغي للمسلمين أن يستعدّوا للحرب بما هو المتعارف و المتداول بين النّاس و حيث لم يستعدّوا له فلا محالة صاروا مقهورين مغلوبين في جنب الأعداء و لا مناص لهم إلاّ التّسليم و الإنقياد و هذا هو الحقارة و الذلّة و ذلك لأنّهم لم يسمعوا كلام الله و لم يعملوا بسُّنة رسول الله و غفلوا عمّا أمروا به من إعداد القوّة و من كان كذلك فكيف يكون عزيزاً و قد ثبت أنّ الإسلام يعلوا و لا يغلى عليه و أنّ العزّة للّه و لرسوله و للمؤمنين.

و أمّا التّغافل و التّسامح و الإشتغال بالشّهوات و المادّيات و الإعراض عمّا فيه العزّة و المكانة فلا يورث إلاّ ما ذكرناه و رأيناه.

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

السِلّم بكسر **السّين** وفَتحها لغتان، و فيه ثلاث لغات.

الفتح و الكسر مع سكون اللاّم و فتح السّين و اللاّم معاً و معناها المسالمة و لذلك أنّت في الآية فقيل فأجنح لها، ولم يقل، له، و الجنح الميل، فقوله: **وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ** أي مالوا الى المسالمة و الصلّح و معنى الآية أن مال الكفّار الى المسالمة و ترك المحاربة فأجنح لها أي فأقبل منهم.

قيل أنّ الضّمير يرجع الى بني قريظة و النّضير و قيل علىٰ مشركي قريش و العرب و قيل على قومٍ سألوا من رسول اللّه قبول الجزية منهم و جنح يتعدّى بالى و باللاّم والسّلم بفتح السّين و كسرها يذّكر و يؤنّث.

قال قتادة هي أي السّلم المأمور بها موادعة المشركين و مهادنتهم راجع الى الإمام فأن رآه مصلحة فعل و إلاّ فلا.

و قيل نزلت في قوم سألوا الموادعة فأمر اللّه نبيّه بالإجابة اليها ثمّ نسخت بقوله و قاتلوا الّذين لا يؤمنون، و قيل إداء الجزية، و قال الحسن الإسلام مجاهد نسخت بقوله: **اقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**.

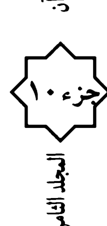
و قال الزّمخشري: و الصّحيح أنّ الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام و أهله من حربٍ أو سلمٍ و ليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا الى الهدنة أبداً و قال القُرطبي قد إختلف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا فقال قُتادة و عكرمة نسخها:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً**(٢).

و قالا نسخت براءة كلّ موادعة حتّىٰ يقولوا لا إله إلاّ اللّه.

و قال إبن عبّاس النّاسخ قوله: **فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ** و قيل ليست



١- التوبة = ٥ ٢- التوبة= ٣٦

بمنسوخة بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية و قد صالح أصحاب رسول اللّه في زمن عمر و من بعده من الأئمّة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذه منهم و تركوهم على ما هم فيه و هم قادرون على إستئصالهم و كذلك صالح رسول اللّه كثيراً من أهل البلاد على مالٍ يؤدّونه من ذلك خيبر ردَّ أصلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدّوا النِّصف قال إبن إسحاق عنىٰ بهذه االآية قريظة لأنّ الجزية تقبل منهم فأمّا المشركين فلا يقبل منهم شيء.

و قال السّدي و إبن زيد معنىٰ الآية أن دعوك الىٰ الصُّلح فأجبهم و لا نسخ فيها و قال إبن العربي و بهذا يختلف الجواب عنه و قد قال اللّه عزّ وجّل: **فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَ ٱللَّهُ مَعَكُمْ** [١] فإذا كان المسلمون على عزّةٍ و قوّةٍ و منعةٍ و جماعةٍ عديدة و شدّة شديدة فلا صلح كما قال الشّاعر:

فلا صلح حتّىٰ تطعن الخيل بالقنا   وتضرب بالبيض الرّقاق الجماجم

و أن كان للمسلمين مصلحة في الصُّلح لنفعٍ يحتلبونه أو ضرٍّ يدفعونه فلا بأس أن يبتدأ المسلمون به إذا إحتاجوا إليه و قد صالح رسول اللّه أهل خيبر على شروطٍ نقضوها فنقض صلحهم و ما زالت الخلفاء و الصّحابة على هذا السّبيل الّتي شرعناها سالكة و بالوجوه الّتي شرحناها عاقلة إنتهى كلامه.

و قال القشيري إذا كانت القوّة للمسلمين فينبغي أن لا تبلغ الهدنة سنة و إذا كانت القوّة للكفّار جاز مهادنتهم عشر سنين و لا تجوز الزّيادة و قد هادن رسول اللّه أهل مكّة عشر سنين انتهىٰ.

و قال الرّازي و أعلم أنّه لما بيّن ما يرهب به العدّو من القوّة و الإستظهار بيَّن بعده أنّهم عند الإرهاب إذا جنحوا أي مالوا الىٰ الصُّلح فالحكم قبول الصُّلح انتهىٰ كلامه.

١- محمد= ٣٥

أقُول هذه هي الأقوال المشهورة في تفاسيرهم المعتبرة و قد ظهر منها أنّ الكفّار لو جنحوا و مالوا الى الصُّلح ينبغي للإمام إجابتهم اليه.

و أمّا القول بالنّسخ فهو عاطل باطل لا يعتمد عليه و به صرّح الشّيخ في التّبيان و هو أعرف بمذاهب القوم و فروع المذهب.

قال(قدّه) و الصّحيح أنّها ليست منسوخة لأنّ قوله أقتلوا المشركين الأية، نزلت في سنة تسع و بعث بها رسول اللّه الى مكّة ثمّ صالح أهل نجران بعد ذلك علىٰ ألفي حلّة، ألف في صفر و ألف في رجب انتهى كلامه رفع مقامه.

و هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع عقلاً و نقلاً و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ بعث أنبيائه في كلّ عصرٍ و زمانٍ لإيجاد الصُّلح بين النّاس حتّى الإمكان و أمّا الحرب فلا تكون إلاّ في صورة الإضطرار فالأصل في الدَّعوة الصُّلح.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[2].

و إذا كان الأصل في دعوة الأنبياء و الصُّلح و متابعة الحَق فلا معنى لنسخ الآية نعم إذا فرضنا في الكفّار عدم قبول الدّعوة و مخالفة الحقّ علناً بالقتال و الفساد في الأرض فلا محالة تقع الحرب و ذلك لقمع مادّة الفساد و إيجاد الصُّلح و لأجل هذه الدّقيقة لا يبعد أن يقال أنّ غزوات النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم كانت لأجل الدّفاع عن الحقّ و رفع الفتنة الّتي كانوا أوجدوها لإطفاء نور الحقّ و سَريان الظُّلم و الفساد في الإجتماع و هذا ظاهرٌ نعم.

إذا كان الكافر مخالفاً و محارباً يجب حربه و هذا أمرٌ آخر و محصّل الكلام هو أنّ مجرّد بقاء الكافر على كفره و عدم قبوله الحقّ لا يوجب الحرب معه إذا



١- آل عُمران =٦٤ ٢- النّحل =١٢٥

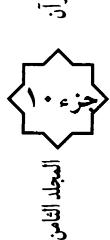
لم يكن حرّبياً و لكن قبل وقوع الحرب جنح الى السلّم فالعقل يحكم بقبول قوله و تَرك المحاربة لأنّ الحرب ليست مقصوداً بالإصالة و أنّما هي ثابتة في صورة الإضطرار و ما علىٰ الرّسول إلاّ البلاغ المبين و الى هذه النكتة أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ إِنْ يُرِيدُوٓا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

لمّا قال اللّه تعالى في الآية السّابقة: **وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** حيث أَمَر النّبي بقبول الصلح أفاد في هذه الآية أنّ الكفّار إن قصدوا بالصلح خديعتك فأنّ حسبك اللّه أي إنّ اللّه يكفيك، و الخديعة إظهار المحبوب في الأمر للإستجابة له مع إبطان خلافه و المعنى المقصود في الآية هو أنّ الكفّار أن مالوا الىٰ الصلح فأقبل منهم، ثمّ أنّهم أن كانوا صادقين فهو و أن كانوا كاذبين بمعنى أنّهم خدعوك بزعمهم فلا تخف فأنّ اللّه يكفيك فيرّد عنك شرّ خدعتهم و مكرهم فأنّ اللّه هو الّذي أيدّك بنصره و المؤمنين و ألّف بين قلوبهم أي قلوب المؤمنين.

قيل المراد بالمؤمنين الأنصار وبتأليف قلوبهم ما كان الأوس و الخزرج من العداوة والقتال.

و قال مجاهد هو في كلّ متحابّين في اللّه وأنّما كان الجمع على المحبّة تأليفاً بين القلوب لأنّه مأخوذ من الألفة و هى الإجتماع على الموافقة في المحبّة و لا يجوز في الجمع على البغضاء أن يسمّىٰ بذلك و قوله: **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ففيه إشارة الىٰ أنّ قلوب النّاس بيد اللّه و تحت قدرته إذ هو مقلّب القلوب و الأبصار.



و هذا مختّص به تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللّٰهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**(١).

وقال في الكفّار: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ**(٤).

وقال في المؤمنين: **وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً**(٥).

و الحاصل أنّ القلوب تحت قدرة خالقها يتصرّف فيها كيف يشاء و الى هذا أشار في آخر الآية بقوله: **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** فقوله: **عَزِيزٌ** إشارة الىٰ قدرته على تقليب القلوب و قوله: **حَكِيمٌ** إشارة الى أنّه تعالىٰ لا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة و هى الّتي صارت سبباً لِلإلفة بين المؤمنين لأنّ فيها ظهور الحقّ و إعلاء كلمة التّوحيد و الدّليل عليه ما كان بين الأوس و الخزرج من العداوة و البغضاء و لذلك وقع بينهم ما وقع من الحروب الّتي لولا الإسلام لا تنقضي أبداً و لكنّه تعالىٰ منَّ عليهم فبدلّ عداوتهم بالمحبَّة و مباغضتهم بالألفة فأصبحوا بنعمته إخواناً و نصروا الإسلام فظهرت كلمة الحقّ و ماتت كلمة الباطل ليظهره علىٰ الدّين كلّه ولو كره المشركون.

يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللّٰهُ وَ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

هذا خطاب مِن اللّه تعالىٰ لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول له يكفيك أن يكون ناصرك على أعداءك هو اللّه تعالىٰ و الّذين إتّبعوك من المؤمنين أعني بهم المهاجرين و الأنصار و إختلفوا في موضع، من، في قوله و من إتّبعك من المؤمنين.

١- آل عمران =١٠٣
٢- آل عمران =١٥١
٣- يُونس =٧۴
۴- الحجر =١٢
۵- الحديد =٢٧

فقال بعضهم أنّ موضعها الرّفع عطفاً على ما قبله و على هذا فسرّه الحسن و جماعة و عليه فالمعنى حسبك اللّه و المؤمنين.

و قال الأخرون موضعها النَّصب عطفاً علىٰ موضع الكاف لأنّ موضعها النَّصب على المعنى بيكفيك اللّه سدّت حَسبك مسَّدها و عليه فالمعنىٰ حَسبك اللّه و حسب من إتَّبعك من المؤمنين و بعبارةٍ أخرى حسبكم اللّه جميعاً.

و قال الكسائي و الفّراء و الزّجاج يجوز الوجهان و الّذي عندي هو أنّ الوجه الثّاني أقوى بالنّظر الى المعنى و الأوّل بالنّظر الىٰ اللّفظ

و نقل عن الواقدي أنّه قال نزلت الآية في بني قريظة و بنيالنَّضير لمّا قالوا له نحن نسلم و نتَّبعك و الحقّ أنّ الآية بصدد بيان حكم عقلي لا ريب فيه في جميع الموارد و أن كان موردها خاصّاً فأنّ خصوصّية المورد لا تنافي عموم الحكم كيف و قد قال.

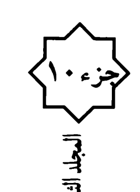
قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا حَسْبُنَا ٱللّٰهُ وَ نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ حَسْبِيَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**[4] و غيرها من الأيات.

■



۱- الطّلاق =۳
۲- أل عمران =۱۷۳
۳- التّوبة =۱۲۹
۴- الزّمر =۳۸

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْاٰنَ خَفَّفَ ٱللّٰهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صٰابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ مَعَ ٱلصّٰابِرِينَ ﴿٦٧﴾ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرٰى حَتّٰى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيا وَ ٱللّٰهُ يُرِيدُ ٱلْاٰخِرَةَ وَ ٱللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾ لَوْلَا كِتٰابٌ مِنَ ٱللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰآ أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾ فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلٰالًا طَيِّبًا وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِيٓ أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرٰىٓ إِنْ يَعْلَمِ ٱللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمّٰآ أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧١﴾ وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا ٱللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ ٱلَّذِينَ اٰوَوْا وَ نَصَرُوٓا أُولٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰآءُ بَعْضٍ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ لَمْ يُهٰاجِرُوا مٰا لَكُمْ مِنْ وَلٰايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّٰى يُهٰاجِرُوا وَ إِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ

فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٤﴾ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

◀ اللّغة

حَرِّضِ فعل أمرٍ من حَرَّض تَحريضاً و التّحريض و الحثّ، الدُّعاء الأكيد بتحريك النّفس على أمرٍ من الأمور و ضدّه التّقيته.

خَفَّفَ فعل ماضٍ مصدره التَّخفيف و هو التَّسهيل.

أَسْرىٰ بفتح الألف جمع أسير مثل جرحى جمع جريح و قتلى جمع قتيل.

يُثْخِنَ بضمّ الياء مضارع أثْخَن و مصدره الإثخان والإثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل و قيل الإثخان القتل و الثّخن و الغلظ و الكثافة نظائر.

آوَوْا يقال أوىٰ الى كذا إنضّم اليه و الباقي واضح.

◀ الإعراب

لَوْلَا كِتَابٌ كتاب مبتدأ و سَبَقَ صفة له و مِنَ ٱللَّهِ يجوز أن يكون أيضاً متعلّقاً بسبق، و الخبر محذوف أي تداركُكم خِيَانَتَكَ مصدر خان يخون و

أصل الياء الواو فقلبت لإنكسار ما قبلها و وقوع الألف بعدها **فِي كِتَابِ ٱللَّهِ** في موضع نصب بأولى أي يثبت ذلك في كتاب اللّه.

◄ التّفسير

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ هذا أيضاً خطاب للنّبي ﷺ يأمره اللّه بتحريض المؤمنين على قتال المشركين ثمّ قال: **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا** هاتان الجملتان شرطيّتان في ضمنهما الأمر بصبر عشرين لمائتين و بصبر مائة لالف قيل و لذلك دخلها النّسخ اذ لو كان خبراً محضاً لم يكن فيه النّسخ لكن الشّرط اذا كان فيه معني التكلّيف جاز فيه النّسخ و هذا من ذلك نسخ بقوله تعالىٰ: **ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنْكُمْ** و التّقييد بالصّبر في أوّل كلّ شرطٍ لفظاً هو محذوف من الثّانية لدلالة ذكره في الأولى و تقييد الشّرط الثّاني بقوله من الّذين كفروا لفظاً هو محذوف من الشّرط الأوّل في قوله: **يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ** فأنظر الىٰ فصاحة هذا الكلام حيث أثبت قيداً من الجملة الأولى و حذف تظيره من الثّانية و أثبت قيداً في الثّانية و حذف من الأولىٰ و لمّا كان الصَّبر مطلوباً أثبت في أولى جملتي التّخفيف و حذف من الثّانية لدلالة السّابقة عليه ثمّ ختمت الآية بقوله: **وَ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ** قاله بعض المفسّرين في تفسير الآية.



أقول لمّا أمر اللّه نبيّه بتحريض المؤمنين على القتال قال: **فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ** وعدهم اللّه تعالىٰ بالغلبة على الأعداء بشرط أن يكونوا صابرين على الجهاد فأعلمهم اللّه أن كانوا كذلك فكلّ واحدٍ منهم أي من المؤمنين بعشرة و أنّما قال تعالىٰ ذلك لتقوية قلوبهم و إزالة الخوف عنهم و ذلك لأنّ المؤمنين كانوا قليلين في جنب الكفّار فوقع الخوف في قلوبهم فأزاله اللّه عنها بذلك و إستّدل على ذلك بقوله: **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ** أي أنّهم على جهالة خلاف

من يقاتل على بصيرة و هو يرجو ثواب الأخرة أو لأنّهم لا يعلمون ما لهم من إستحقاق الثّواب بالقتال و ليس في أمره تعالى بتحريض المؤمنين على القتال دليل على إبتداء فرضيّة القتال كما قيل بل كان القتال واجباً قبل هذه الآية و أنّما جاءت هذه حثّاً علىٰ أمرٍ واجب.

قال إبن جريح كان عليهم أن لا يفرّوا و يثبت الواحد للعَشَرة و كان رسول اللّه قد بعث حمزة في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل في ثلاث مائة راكب قيل ثمّ ثقل عليهم ذلك و ضجُّوا منه و ذلك بعد مدّةٍ طويلة فنسخ و خفَّف عنهم بمقاومة الواحد للأثنين والىٰ هذا المعنىٰ أشار اللّه بقوله:

ٱلْـٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صٰابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ فَخَّففَ اللّه تعالىٰ عنهم بمقاومة الواحد للأثنين.

و قد إستفاد بعضهم عن هذه الآية أنّ كلّ مسلم بالغٍ وقف بأزاء المشركين عبداً كان أو حرّاً فالهزيمة عليه محرّمة مادام معه سلاحه يقاتل به فأن كان ليس معه سلاح فله أن ينهزم و إن قابله ثلاثة حلَّت له الهزيمة و الصَّبر أحسن انتهىٰ.

و في قوله: **بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصّٰابِرِينَ** إشارة الىٰ أنّ النَّصر والغَلَبة علىٰ الكفّار بأذن اللّه وإرادته و مع ذلك فيه ترغيبٌ في الثّبات و الإستقامة للقاء العدّو و تبشيراً بأنّ اللّه تعالىٰ يؤيّد الصّابرين لأنّه من كان اللّه معه هو الغالب و الصّابرين كذلك.

مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهٗٓ أَسْرٰى حَتّٰى يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ

قيل نزلت في أسرىٰ بدر قبل أن يكترث الإسلام فلمّا كثر المسلمون قال اللّه تعالىٰ: **فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰآءً** (١) و المعنى ما كان لنبيٍّ أن يحبس كافراً

١- محمّد =٤

للفداء و المنّ حتّى يثخن في الأرض و الإثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل.

قال بعضهم هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من اللّه تعالىٰ لأصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و المعنىٰ ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذّي أوجب أن يكون للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أسرى قبل الإثخان، و لهم هذا الأخبار بقوله: **تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا** و النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بإستبقاء الرّجال وقت الحرب و لا أراد قطّ عرض الدّنيا و أنّما فعله جمهور مباشري الحرب فالتّوبيخ و العتاب أنّما كان متوجّهاً بسبب من أشار الىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخذ الفدية هذا قول أكثر المفسّرين الّذي لا يصُّح غيره انتهىٰ.

أقول ذكر المؤرّخون و أرباب السِّير أنّ القتلى كانوا ببدر سبعين و الأسرىٰ سبعين قتل منهم أمير المؤمنين عليه السلام سبعة و عشرين و لم يؤسر أحداً فجمعوا الأسارىٰ و فرّقوهم في الجمال و ساقوهم علىٰ أقدامهم و جمعوا الغنائم و قتل من أصحاب رسول اللّه تسعة رجال فيهم سعد بن خثيمة و كان من النُّقباء فرحل رسول اللّه و نزل الأثيل عند غروب الشّمس و هو من بدر على ستّة أميال فنظر رسول اللّه الى عقبة بن أبي معيط و الى النّضر بن الحرث بن كلدة و هما في قرآن واحدٍ فقال النّضر لعقبة يا عقبة أنا و أنت مقتولان فقال عقبة من بين قريش.

قال نعم لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم قد نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا علّي، علّي بالنّضر و عقبة و كان النّضر رجلاً جميلاً عليه شعر فجاء علّيٌ فأخذه بشعره فجرّه الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال النَّضر يا محمّد أسألك بالرَّحم بيني وبينك ألاّ أجرتني كرجلٍ من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن ناديتهم ناديتني و إن أطلقتهم أطلقتني فقال رسول اللّه لا رحم بيني و بينك قطع اللّه الرَّحم بالإسلام قدمّه يا علّي فأضرب عنقه فقال عقبة يا محمّد ألم تقل لا تصبر قريش أي لا يقتلون صبراً قال صلى الله عليه وآله وسلم و أنت من قريش إنّما أنت

علج من أهل صفّورية لأنت في الميلاد أكبر من أبيك الّذي تدعي له ليس منها قدمّه يا علّي فأضرب عنقه فقدّمه فضرب عنقه فلّما قتل رسول اللّه النَّضر و عقبة خافت الأنصار أن يقتل الأسارى كلّهم فقاموا الى رسول اللّه و قالوا يا رسول اللّه قد قتلنا سبعين و أسرنا سبعين و هم قومك و أساراك هبهم لنا يا رسول اللّه وخذ منهم الفداء و أطلقهم فأنزل اللّه عليهم: **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا** فأطلق لهم أن يأخذوا الفداء و يطلقوهم و شرط أن يقتل منهم في عامٍ قابل بعدد من ياخذوا منهم الفداء فرضوا منه بذلك فلمّا كان يوم أحد قتل من أصحاب رسول اللّه ﷺ سبعون رجلاً فقال من بقى من أصحابه يا رسول اللّه ما هذا الّذي أصابنا و قد كنت تعدنا بالنَّصر فأنزل اللّه تعالىٰ فيهم **أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**[١].

اذا عرفت هذا فلنرجع الىٰ تفسير الآية و نقول معنى الآية ما كان لنّبي أن يحبس كافراً للفداء أي ليس له ذلك حتّى يثخن في الأرض، أي حتّى يذّب الكفر و يقلّ حزبه و يعزّ الإسلام و ليستولي أهله من أثخنه المرض اذا أثقله **تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا** أي حطامها بأخذ الفداء **وَ ٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ** أي يريد لكم ثوابها **وَ ٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أي أنّ اللّه يغلب أولياءه على أعداءه لأنّه يعلم ما يليق بكلّ حالٍ علىٰ أساس المصلحة.

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

أي لولا ما كتبه اللّه في اللّوح المحفوظ من أنّه لا يعذّبهم على ذلك.

و قيل معناه، لولا ما كتب اللّه فيه أنّه يغفر لأهل بدر ما تقدّم و ما تأخر.

١- أل عمران =١٦٥

و قال بعضهم، لولا ما كتبه اللّه من أنّ الفدية ستحلّ لهم فيما بعد ذهب اليه سعيد بن جبير و أنّما قال تعالىٰ ذلك لأنّهم أخذوا الفدية قبل أن يؤذن لهم كان سبق أنّ اللّه سيحلّه لهم.

نقل عن الجبائي أنّه قال و قد كان من النّبي صلى الله عليه و آله و سلم في هذا معصية إجماعاً من غير تعيين ما هي و أظنّ أنّهما في ترك قتل الأسرى ذكره الشّيخ في التّبيان.

ثم قال قدس سره و هذا الّذي ذكره غير صحيح لأنّه لا إجماع في ذلك بل عندنا لا يجوز على النّبي فعل شيءٍ من القبائح صغيراً كان أو كبيراً لما فى ذلك من التّنفير عنه علىٰ ما بيّناه في غير موضع و أكثر المفسّرين على أنّ النّبي لم يقع منه خلاف لأمر اللّه.

و قد روي أنّه صلى الله عليه و آله و سلم كره أخذ الفداء حتّى رأى سعد بن معاذ كراهيّة ذلك في وجهه فقال يا رسول اللّه هذا أوّل حربٍ لقينا فيه المشركين أردت أن يثخن فيهم القتل حتّى لا يعود أحد بعد هذا الى خلافك و قتالك فقال رسول اللّه قد كرهت ما كرهت و لكن رأيت ما صنع القوم فالمعصية في ذلك كانت من قومٍ من الصّحابة الّذين مالوا الى الدّنيا و أخذ الفداء.

و قال البلخي أيضاً أنّ أجلاّء الصّحابة براء من ذلك انتهىٰ كلامه.

و أنا أقُول ما ذكره قدس سره في جواب الجبائي يكفينا و لا نحتاج الىٰ بيان خطأ الجبائي في المقام تفصيلاً و الذّي نزيده في الجواب هو أنّه قد ثبت عصمة الأنبياء عقلاً و نقلاً فكأنّ الجبائي لم يسمع هذا و إدّعى الإجماع علىٰ تحقّق المعصية عنه عليه السلام.



أليس هذا مخالفاً لعصمته صلى الله عليه و آله و سلم و من إنتفت العصمة في حقّه لا يعتمد علىٰ قوله و فعله و للبحث فيها مقام أخر.

قال أبو جعفر عليه السلام كان الفداء يوم بدر لكلّ رجلٍ من المشركين أربعين أوقية من فضّة و الاوقية أربعون مثقالاً إلاّ العبّاس بن عبد المطّلب فأنّ فداءه كان مائة أوقية و كان أخذ منه حين أسر أثنين و عشرين أوقية ذهباً فقال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم

ذاك غنيمة ففاد نفسك و إبني أخيك عقيل و نوفل إبن الحارث بن عبد المطّلب فقال العبّاس ليس معي فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أين الذّهب الّذي سلّمته الى أمّ الفضل و قلت إن حدث بي حدث فهو لك و للفضل و عبد اللّه و ميثم فقال العبّاس من أخبرك بهذا قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اللّه، قال أشهد أنّك رسول اللّه و اللّه ما إطّلع على هذا أحَد إلاّ اللّه تعالىٰ.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قد أباح اللّه بهذه الآية أكل الغنيمة ممّا أخذوه من أموال المشركين بالقهر من دار الحرب فقوله: **فَكُلُوا** و أن كان أمراً لفظاً إلاّ أنّ المراد به الإباحة و رفع الحظر و الفرق بين الغنيمة و الفئ هو أنّ الغنيمة ما أخذ من دار الحرب على سبيل القهر و الغلبة و أمّا الفئ فهو ما رجع الى المسلمين و أنتقل اليهم من المشركين.

و أنّما قال تعالىٰ: **حَلَٰلًا طَيِّبًا** ولم يقل مباحاً لأنّ الحلال من حلّ العقد في التّحريم و المباح من التّوسعة في الفعل و إن إجتمعا في الحلّ.

و قوله: **طَيِّبًا** فالطّيب المستلّذ فهو شبه الحلال، و اللّه تعالى أباح لهم بهذه الآية الغنيمة و أمرهم بالتّقوى فقال: **وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ** أي إتّقوا معاصيه أو إتّقوا عن أكل ما لا يحلّ لكم، **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَنْ فِىٓ أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قرأ أبو عمرو وحدة من السّبعة و أبو جعفر، الأسارى و الباقون، الأسرى، و الأسير من أخذ من دار الحرب من أهلها و لو أخذ مسلم لكان قد فكّ أسره خاطب اللّه تعالىٰ في هذه الآية نبيّه و أمره أن يقول لهؤلاء الأسرى الّذين كانوا تحت يده أي تحت إختياره و قدرته لأنّ من حصل في وثاقه بمنزلة ما قبض على يده بالإستيلاء عليه و لذلك يقال للملك المتنازع فيه لمن اليد، كما يقال على اليد ما أخذت حتّى تؤدّيه.

و الحاصل أنّ اليد كناية عن الإستيلاء، **إِنْ يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا** أي قل لهم أن يعلم اللّه في قلوبهم خيراً أي إسلاماً.

و قيل خيراً في المستقبل بأن يفعلوه و الخير هو النَّفع العظيم قالوا المراد به في المقام البصيرة في دين اللّه و حسن النّية في أمره **يُؤْتِكُمْ خَيْرًا** أي يعطيكم خيراً ممّا أخذ منكم من الفِداء **وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** أي يغفر لكم معاصيكم و يسترها عليكم فأنّه غفورٌ رحيمٌ.

وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية معطوفة على السّابقة و المعنى أنّ هؤلاء الأسارى أن علم اللّه في قلوبهم خيراً خلف عليهم خيراً ممّا أخذ منهم و أن عزموا علىٰ الخيانة و نقض العهد و فعلوا خلاف ما وقع عليه العقد من تأدّية فرض اللّه فقد خانوا اللّه من قبل هذا و المعنى فقد خانوا أولياء اللّه و المراد بالخيانة هاهنا نقض عهد الطّاعة للّه و رسوله.

و أنّما قلنا فقد خانوا أولياء اللّه مع أنّ اللّه مصرّحة بأنّهم خانوا اللّه، لأنّ اللّه تعالى عالم بالأسرار و الظّواهر عالم بالأشياء كلّها لا يخفى عليه خافية فكيف يمكن أن يخان.

و أمّا قوله: **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** فقيل في معناه أنّهم لمّا خانوا بأن خرجوا الى بدر و قاتلوا مع المشركين فقد أمكن اللّه منهم بأن غُلبوا و أسروا فأن خانوا ثانياً فيمكن اللّه منهم مثل ذلك و الإمكان هو القدرة على الشّئ مع رفع المانع.

و قال الكرماني في معنىٰ الآية وأن يُريدوا يعني الأسرىٰ خيانتك يعني نقض ما عهدوا معك فقد خانوا اللّه بالكفر و الشّرك قبل العهد و قيل قبل بدر.

و نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن الأزهري أنّه قال مفعول الإمكان محذوف و المعنى فأمكن المؤمنين منهم أي أنّهم لمّا خانوا اللّه بما أقدموا

عليه من محاربة الرّسول يوم بدر فأمكن اللّه منهم قتلاً و أسراً و ذلك نهاية الإمكان و الظَّفر فنبّه اللّه بذلك على أنّهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثمّ فأن عادوا كان التّمكين منهم ثابتاً حاصلاً و فيه بشارة للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه يتمكّن من كلّ من يخونه و ينقض عهده.

ثمّ قال واللّه عليمٌ ببواطنهم و ضمائرهم حكيمٌ يجازيهم بأعمالهم كيف يشاء علىٰ طبق المصلحة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ ءَاوَوْا وَ نَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

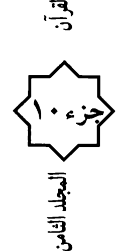
إعلم أنّ اللّه تعالى قسّم المؤمنين في عهد الرّسول الى قسمين و ذلك لأنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بعث في مكّة و دعا النّاس فيها الىٰ الإسلام فقال لهم **قُولُوا لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهَ تُفْلِحُوا** فمنهم من أمن به و منهم من كفر فالمؤمنون هم الّذين أجابوا دعوته و دخلوا في الإسلام و الكافرون أنكروا دعوته و بقوا على كفرهم ثمّ أنّ المؤمنين قسّمهم اللّه تعالىٰ أيضاً الىٰ قسمين:

قسمٌ منهم هاجروا مع الرّسول من مكّة الى المدينة و هم الّذين سمّاهم اللّه المهاجرين.

و صنفٌ أخر منهم لم يهاجروا معه و بقوا في مكّة، ثمّ أنّ المؤمنين المهاجرين أيضاً علىٰ صنفين:

صنفٌ منهم جاهدوا بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة مع الرّسول و صنفٌ أخر هاجروا و لكن لم يجاهدوا كذلك بل أكلوا و أنكحوا و ناموا على فراشهم منتهزين للفرصة لأنّهم دخلوا في الإسلام طمعاً لا إعتقاداً اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** أي في مكّة و هاجروا الى المدينة و جاهدوا فيها بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه و الّذين أووا و نصروا، يعني النّبي

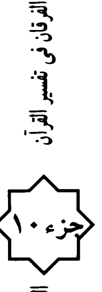


والمراد بهم الأنصار في المدينة و ذلك لأنّ الأنصار أوَوا و نصروا المهاجرين في بيوتهم و ذلك لأنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم و المهاجرين لمّا هاجروا من مكّة الى المدينة فلولا أنّ الأنصار أووا و نصروا و بذلوا النّفس و المال في خدمة الرّسول و إصلاح مهمّات أصحابه من حيث المسكن و غيره ممّا يحتاج اليه الإنسان في معيشته لما تمّ المقصود البتّة و هذا هو المراد بقوله تعالىٰ: **ءَاوَوْا وَ نَصَرُوٓا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**.

قال صاحب الكشّاف أي يتولّى بعضهم بعضاً في الميراث و كان المهاجرون و الأنصار يتوارثون بالهجرة و النُّصرة دون ذوي القرابات حتّىٰ نسخ ذلك بقوله تعالىٰ: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** إنتهىٰ كلامه.

و قال القرطبي، نقلاً عن إبن عبّاس، أولياء بعضٍ في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة و كان لا يرث من آمن و لم يهاجر من هاجر فنسخه اللّه ذلك بقوله: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ** قال أخرجه أبو داوود و صار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين و لا يتوارث أهل ملتّين شيئاً ثمّ جاء قوله عليه السلام إلحقوا الفرائض بأهلها و قيل ليس هنا نسخ و أنّما معناه في النّصرة و المعونة انتهىٰ.

و قال الطّبري و قد قيل أنّما عني بذلك أنّ بعضهم أولى بميراث بعضٍ و أنّ اللّه ورث بعضهم من بعضٍ بالهجرة و النصرة دُون القرابة و الأرحام ثمّ ذكر لتأييد مقالته بعض الأخبار الواردة عن إبن عبّاس و غيره و بهذه المقالة قال جميع المفسّرين من العامّة فيما رأيناه في تفاسيرهم و لم يخالف فيها أحد و ذلك لأنّهم أجمعوا على أنّ المراد بالولاية في قوله: **أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** الولاية في الميراث أو المؤازرة في قول إبن إسحاق و حيث أنّه متفرّدٌ به طردوه.



و قال الطّبرسي قدس سره مِنّا و هو من أعاظم المفسّرين في نزول الآية ما هذا لفظه قيل نزلت في الميراث و كانوا يتوارثون بالهجرة فجعل اللّه الميراث للمهاجرين و الأنصار دون ذوي الأرحام و كان الّذي آمن ولم يهاجر لم يرث

من أجل أنّه لم يهاجرِ و لم ينصر و كانوا يعملون بذلك حتّى أنزل اللّه: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** فنسخت الآية و صار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين و لم يتوارث أهل ملتّين عن إبن عبّاس و الحسن و قتادة و مجاهد و السّدي انتهىٰ.

ثمّ قال قدس سره عند تفسيره لقوله تعالىٰ: **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** أي هؤلاء بعضهم أولىٰ ببعضٍ في النُّصرة و أن لم يكن بينهم قرابة من أقرباءهم من الكفّار و قيل في التّوارث عن إبن عبّاس و الحسن و قتادة و مجاهد و السّدي و قيل في التّناصر و التّعاون و الموالاة في الدّين عن الأصمّ و قيل في نفوذ أمان بعضهم على بعضٍ فأنّ واحداً من المسلمين لو آمن إنساناً فقد أمانه على سائر المسلمين انتهىٰ كلامه رفع مقامه.

أقول يظهر من كلام الطّبرسي أنّ المسألة ليست إتّفاقية بل تكون خلاّفية فأنّ قوله و قيل في التّناصر و التّعاون والموالاة في الدّين الىٰ آخر ما قال يدلّ على ما ذكرناه.

و قال صاحب تفسير الميزان الولاية أعمّ من ولاية الميراث و ولاية النّصرة و ولاية الأمن فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع فالبعض من الجميع ولّي البعض مِن الجميع كالمهاجر ولّي كلّ مهاجرٍ و الانصارى، و الأنصاري ولّي كلّ أنصاريٍّ و مهاجرٍ كلّ ذلك بدليل الإطلاق في الآية فلا شاهد الى صرف الآية الىٰ ولاية الأرث بالمواخاة الّتي كان النّبي جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زماناً حتّى نُسخت انتهىٰ كلامه قدس سره.

و الّذي يظهر من كلامه هو عدم تخصيص الولاية في الآية بالميراث بل هي أعمّ منه في المقام و أن كانوا يتوارثون بها زماناً و عليه فالمراد بالولاية معناها العّام الشّامل لجميع الأقسام و أنت إذا تأمّلت في كلامه تجده موافقاً لما ذكره الطّبرسي قدس سره و الّذي يظهر من كلام جميع المفسّرين من العامّة و الخاصّة أنّ

التّوارث بينهم أي بين المهاجرين و الأنصار كان باقياً الى أن نسخت الأية ممّا لا كلام لأحدٍ فيه و يؤيّده ما في ورد في بعض الأخبار.

قال الفيض قدس سره في الصّافي في المقام أي يتولّى بعضهم بعضاً في الميراث القمي لما هاجر رسول اللّه المدينة آخىٰ بين المهاجرين و المهاجرين الأنصار و الأنصار و بين المهاجرين و الأنصار و كان إذا مات الرّجل يرثه أخوه في الدّين و يأخذ المال و كان له ما ترك دون ورثته فلّما كان بعد بدر أنزل اللّه، **اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ** فنسخت و فى المجمع عن الباقر عليه السلام أنّهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الأولى دون التّقارب حتّىٰ نسخ ذلك و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ انتهىٰ.

و مع ذلك كلّه فقد أنكر الرّازي في تفسيره لهذه الآية كون الولاية في الميراث فقال أنّ لفظ الولاية غير مشعرٍ بهذا المعنىٰ لأنّ هذا اللّفظ مشعرٌ بالقرب و لا يفيد الأرث.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اَللّٰهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**[1] الىٰ أن قال فيمكن حَمله علىٰ غير الأرث و هو كون بعضهم معظّماً للبعض مهتّماً بشأنه مخصوصاً بمعاونته و مناصرته و المقصود أن يكونوا يداً واحدة علىٰ الأعداء و أن يكون حبّ كلّ واحدٍ لغيره جارياً مجرى حبّه لنفسه و إذا كان اللّفظ محتملاً لهذا المعنى كان حَمله على الأرث بعيداً عن دلالة اللّفظ لا سيّما و هم يقولون أنّ ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله في آخر الآية **وَ أُولُوا اَلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ** و أيُّ حاجةٍ تحملنا على حمل اللّفظ على معنى لا إشعار لذلك اللّفظ به ثمّ الحكم بأنّه صار منسوخاً بآيةٍ أخرى مذكورة معه في غاية البُعد اللّهم إلاّ إذا حصل إجماع المفسّرين على أنّ المراد ذلك مح يجب المصير اليه إلاّ أنّ دعوىٰ الإجماع بعيد انتهىٰ كلامه.

١- يونس = ٦٢

و لقائلٍ أن يقول من حمل لفظ الولاية على الميراث والعجب من الرّازي أنّه أطال الكلام في ردّ من حمله على الميراث و تمسّك في آخر كلامه بالإجماع أن ثبت و لم يعلم أن حمل لفظ الولاية علىٰ الميراث لا يقول به عاقل فضلاً عن هؤلاء الأعلام من الخاصّة و العامّة و أنّما قالوا أريد بالولاية هنا هذا القسم الخّاص منها أعني به الميراث لا أنّ الولاية بمعنىٰ الميراث فأنّ لها معان متكثَّرة متعدّدة و إذا كان كذلك فحمل اللّفظ على بعض مصاديقه دون بعض بسبب قرنية حالّية أو مقالّية لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: وهم يقولون أنّ ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله في آخر الأية.

ففيه أنّهم لم يقولوا أنّه منسوخ بقوله في آخر الآية بل قالوا أنّ الحُكم منسوخ بقوله: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ** و هو آية أخرىٰ فى موضعها بعد ثلاث آيات و أيّ إشكالٍ فيه فأنّ فى الأيات ناسخة و منسوخة.

و الحاصل أنّه لم يتوجّه الىٰ ما قال فقال ما قال و محصّل الكلام من أوّل الآية الىٰ قوله: **أَوْلِيٰآءُ بَعْضٍ** هو أنّ المؤمنين المهاجرين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه أعني بهم المهاجرين، و الّذين آووهم و نصروهم في المدينة أعني بهم الأنصار.

أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰآءُ بَعْضٍ في جميع شؤن الولاية سواء قُلنا أنها بمعنىٰ المحبّة أو النُّصرة أو الأمن أو الميراث أو غير ذلك و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ لَمْ يُهٰاجِرُوا مٰا لَكُمْ مِنْ وَلاٰيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّٰى يُهٰاجِرُوا

ففيه إخراج المؤمنين الّذين لم يهاجروا مع النّبي و بقوا في مكّة عن حكم الولاية و لذلك قال مالكم من ولايتهم من شيءٍ حتّىٰ يهاجروا.

و يستفاد من هذا الكلام أنّ ولاية بعضهم علىٰ بعض مختصّ بالمؤمنين المهاجرين فقط فليس للجهاد بالأموال و الأنفس في إثبات الولاية حظٌّ نصيبٌ و الدّليل عليه قوله: **حَتّٰى يُهٰاجِرُوا** و لم يقل و يجاهدوا و الخ...

فأثبت اللّه الولاية للمهاجرين و الأنصار و قوله: **وَ إِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ** و المعنى إن إستنصروكم أي طلبوا منكم النُصرة هؤلاء المؤمنين الّذين بقوا في مكّة و لم يهاجروا معكم في الدِّين لا في غيره فعليكم النَّصر أي أنصروهم و ذلك لأنّهم إخوانكم في الدّين و نصرة الدّين واجبة علىٰ كلّ مسلمٍ فقوله في الدّين، يدّل علىٰ أنّ النُصرة لا تجب في غيره و هو كذلك و عليه فنصرة هؤلاء في الحقيقة نصرة الدّين و هي من أهمّ الواجبات.

ثمّ إستثنىٰ من ذلك بقوله: **إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** أي إ إستنصروكم علىٰ قومٍ من الكفّار الّذين بينكم وبينهم ميثاق و عهدٍ فلا تنصروهم و ذلك لأنّه يوجب نقض العهد و الميثاق و هو لا يجوز قطعاً.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ، وَ ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ ٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا، إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ**[٣].

وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفىٰ عليه شيءٌ ممّا تخفُون أو تُعلنون.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ

١- الرّعد =٢٠/٢١ ٢- الأعراف =١٦٩
٣- النسّاء =٨٩/٩٠

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن الكافرين.و قال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** أي لَم يؤمنوا باللّه و رسوله بعضهم أولياء بعض و الولاية بمعنىٰ النُّصرة أي ينصر بعضهم بعضاً كما كان كذلك في المؤمنين، قل كلٌّ يعمل على شاكلته فأنّ الجنس الى الجنس يميل و قانون السّنخية لا يقبل التخصّيص في العقلّيات ثمّ حذّرهم اللّه عن المخالفة و قال: **إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ**.

قيل ضمير الهاء في، تفعلوه، عائدة الى معنى ما أُمروا به في الآية الأولىٰ و الثّانية و مخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر و تقديره، إلاّ تفعلوا ما أمرتم به من التّناصر و التّعاون في قوله: **أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** والبراءة من الكفّار في قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** تكن فتنة في الأرض وفساد كبير على المؤمنين الّذين لم يهاجروا فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الىٰ الضّلال.

و قال بعض المفسّرين ظاهره إثبات المولاة بينهم كقوله في المسلمين و معناه نهي المسلمين عن الموالاة الذّين كفروا و مواريثهم و إيجاب مساعدتهم و مصادقتهم و أن كانوا أقارب و أن يتركوا، يتوارثون بعضهم بعضاً.

و قال الأخر لمّا ذكر أقسام المؤمنين الثّلاثة و أنّهم أولياء ينصر بعضهم بعضاً و يرث بعضهم بعضاً بيَّن أنّ فريق الكفّار كذلك اذ كانوا قبل بعثة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ينادي أهل الكتاب قريشاً ويتربّصون بهم الدّوائر فصاروا بعد بعثه يوالي بعضهم انتهىٰ.

و قال بعضهم أنّ الضّمير المنصوب في تفعلوه عائد على الميثاق أي علىٰ حفظه أو على النَّصر أو علىٰ الإرث أو علىٰ مجموع ما تقدّم أقوال أربعة.

و قال الزّمخشري أي أن لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتوّلي بعضهم بعضاً حتّى في التّوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة و لم تقطعوا العلائق بينكم و بين الكفّار و لم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض و مفسدة عظيمة لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة علىٰ الشّرك كان الشّرك ظاهراً والفساد زائداً.

و قيل المراد بالفِتنة في الأرض قوّة الكفر و بالفساد الكبير ضعف الإسلام و هذه الأقوال كما ترى ترجع الىٰ أصلٍ واحدٍ و أن كانت الألفاظ و التَّعابير مختلفة والجامع بينها هو أنّ المؤمنين لو لم تكن الولاية فيهم ثابتة بأن لا يكون بعضهم أولياء بعضٍ يكون الإختلاف حاكماً عليهم لا محالة و اذا كان كذلك فلا قُدرة لهم لدفع الشّرور و الأفات الواصلة اليهم من ناحية الكفّار فيصير الكفر قوّياً و الإسلام ضعيفاً و من المعلوم أنّ الفتنة و الفساد و الظُّلم و أمثال ذلك من شئون الكفر والباطل.

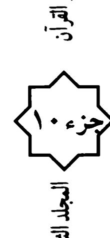
و أمّا الإسلام فقد جاء لرفع الفتنة و دفعها لا إيقاعها و إظهارها فقوله: **تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ** من شئون الكفر و قوّته و قوّة الكُفر من ضعف الإسلام و أهله و هو ظاهر.

وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِوَ ٱلَّذِينَ اٰوَوْا وَ نَصَرُوٓا أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

لمّا أثبت في الآية السّابقة الولاية للمؤمنين المهاجرين، والذّين أووا و نصروا و هم الأنصار فقال: **أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** على ما مرّ بيانه أثبت في المقام لهؤلاء المؤمنين حقيقة الإيمان و المغفرة و رزقٌ كريمٌ، فليس في الآية تكرار لإختلاف الغاية فيهما و في قوله حقّاً، إشارة الىٰ أنّ الإيمان له مراتب في الشدّة و الضّعف فهو كلّيّ مشّكك يصدق على مصاديقه شدّةً و ضعفاً و لكلّ مرتبةٍ منه أثار و علائم يعرف بها فقوله تعالىٰ حقّاً، أي أنّهم أدركوا حقيقة الإيمان و وصلوا الى كنهه و باطنه بخلاف غيرهم من المؤمنين الّذين لم يصلوا الى هذا المقام.

و قد أشار اللّه تعالىٰ الىٰ هذا في كثير من الأيات.

منها قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ ايمٰانًا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ**



ٱلصَّلٰوةَ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ، [1] والأيات في الباب كثيرة جدّاً.

و في قوله: **مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ** إخبار منه تعالى أنّ لهؤلاء المغفرة لذنوبهم في الأخرة و الرّزق الكريم الواسع في الدّنيا فهم في الحقيقة جمعوا بين الدّنيا و الأخرة ببركة إيمانهم و من فازبسعادة الدّارين فقد فاز فوزاً عظيماً و لنعم ما قيل:

وأخـــرُ فـــاز بكـــلتيهما قد جمع الدّنيا مع الأخرة

وَ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا ٱلْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ في كِتابِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ

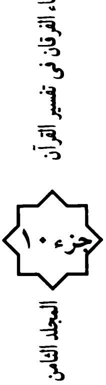
في هذه الآية إخبارٌ منه تعالىٰ بأنّ المؤمنين الّذين هاجروا بعد هجرتهم قبل الفتح أو بعده ثمّ لحقوا بهم في دار الهجرة و جاهدوا معهم في سبيل اللّه حكمهم حكمهم في وجوب الموالاة و المواريث و النُّصرة و الى هذا المعنى أشار بقوله: **فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ** و ذلك لأنّ الملاك فيهم موجود الإيمان و الهجرة و الجهاد و وجود السَّبب يلزم المسَّبب و التَّقدّم و التَّأخر من حيث الزّمان لا يغيّر المِلاك فاذا كان الملاك في ثبوت الولاية بعضهم لبعض هو الإيمان و الهجرة والجهاد كما هو كذلك فهو قد حصل في حقّ المؤمن المهاجر المتّأخر أيضاً.

و أمّا قوله: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ في كِتابِ ٱللّٰهِ** أي في حكم اللّه و قيل في اللّوح المحفوظ فمعناه أنّ الأقرب الى الميّت أولىٰ من غير الأقرب في الإرث و ذلك لأنّ الأقرب يمنع الأبعد سواء كان عصبة أم لم يكن و سواء كان له تسمية أم لا و ذلك لأنّ الأقربيّة تبطل التّسمية ثمّ أنّ هذه الآية نسخت حكم التّوارث بالنُّصرة و الهجرة علىٰ ما مرَّ هذا على قول من ذهب أنّ الولاية في الآية الأولى في قوله أولياء بعض ولاية الميراث.

١- الأنفال =٢ و ٣ و ٤

و أمّا علىٰ قول من ذهب الى أنّها ولاية النُّصرة فلا نسخ أصلاً بل هما محكمتان و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** معناه أنّه لا يخفى عليه شئ فأنّه تعالىٰ عالم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و العلّة فيه هي أنّه تعالى عالم بذاته بل العلم عين ذاته و قد ثبت أنّ ذاته علّة لوجود الأشياء فالأشياء معلول له والعلم بالعلّة مستلزم للعلم بالمعلول تفصيلاً و لا عكس فهو عالم بجميع ما سواه و هو المطلوب هذا تمام الكلام في سورة الأنفال و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

❊ ❊ ❊



سورة التوبة

سورة بَراءة، قد تُسمّىٰ بالتّوبة

بَرَاۤءَةٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ رَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللّٰهِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ مُخْزِى ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٢﴾ وَ أَذٰانٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ رَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنّٰاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللّٰهَ بَرِىٓءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُۥ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللّٰهِ وَ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنْسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ ٱحْصُرُوهُمْ وَ ٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجٰارَكَ فَأَجِرْهُ

حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿۶﴾

◀ اللّغة

بَرَاءَةٌ يقال بَرِيَ بَرَاءة البراءة معناها إنقطاع العصمة و قال الرّاغب في المفردات التّبري التّقصي مِمّا يكره مجاورته و لذلك قيل برأت من فلان أو بَرأتُ من المَرض.

فَسِيحُوا أمرٌ من ساح يسيح سيحاً و سياحةً والسّيح السّير في الأرض على مَهلٍ.

أَذَانٌ، الأذان الإعلام و قيل معناه النّداء الّذي يسمع بالأذن.

وَ لَمْ يُظَاهِرُوا: المظاهرة المعاونة علىٰ العدّو للظّهور عليه.

ٱنسَلَخَ، الإنسلاخ إخراج الشّيئ ممّا لابسه و منه سلخ الشّاة اذا نزع الجلد عنها.

ٱسْتَجَارَكَ أي طلب منك الجار و قيل المعنىٰ إستأمنك

◀ الإعراب

بَرَاءَةٌ فيه وجهان:

أحدهما: هو خَبر مبتدأ محذوف أي هذا أو هذه براءةٌ و مِنَ ٱللَّهِ نعتٌ له و إِلَى ٱلَّذِينَ متعلّقة ببراءة.

الثّاني: أنّه مبتدأ و من اللّه نعتٌ له و الى الّذين الخبر أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ظرف لفسيحُوا أَذَانٌ مثل براءة وإِلَى ٱلنَّاسِ متعلّق بأذان أو خبر له أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ هو خبر لأذان، أو صفة له وَ رَسُولِهِۦ بالرّفع معطوف علىٰ الضّمير في برئٌ، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أو معطوف على موضع الإبتداء و قد يقرأ رسوله بالنَّصب

عطفاً علىٰ إسم، أنّ، و يقرأ بالجرّ شاذاً و هو القسم و لا يكون عطفاً على المشركين لأنّه يؤدّي الىٰ الكفر إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ في موضع نصب على الإستثناء من المشركين أو أنّه مبتدأ و الخبر، فأتّموا شَيْئًا في موضع المصدر وَ إِنْ أَحَدٌ هو فاعل لفعلٍ محذوف دلّ عليه ما بعده مَأْمَنَهُ مفعل من الأمن مكان.

◀ التّفسير

قال صاحب الكشّاف لها عدّة أسماء براءة، التّوبة، المقشقشة، المبصّرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدمدمة.

و قال قد إختلف أصحاب رسول اللّه فقال بعضهم، الأنفال و براءة سورة واحدة.

و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان، و تركت بسمّ اللّه الرّحمٰن الرّحيم لقول من قال هما سورة واحدة انتهىٰ.

ثمّ أنّ هذه السُّورة مدنيّة علىٰ ما قيل و قال بعضهم الأ الآيتين من أخرها فأنّهما نزلتا بمكّة و هذا قول الجمهور.

بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

البراءة إنقطاع العِصمة و منه برأت من الدّين أو مِن فلان و هى مرفوعة على الإبتداء و قوله: إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ خبره و، مِن اللّه، صفة مسوّغة لجواز الإبتداء بالنّكرة و قيل براءة، مرفوعة على الخبر و المبتدأ محذوف أي هذه براءةٌ.

وقرأ بعضهم، براءةً بالنَّصب أي ألزِموا و فيه معنىٰ الإغرار.

و قال الزّمخشري أي إسمعوا براءةً.

إعلم أنّ المفسّرين إختلفوا في سبب سقوط البسملة من أوّل هـذه السُّورة علىٰ أقوالٍ:

الأوّل: قيل كان من شأن العرب في زمان الجاهليّة اذا كان بينهم و بين قومٍ عهد و أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتاباً و لم يكتبوا فيه بسملة فلمّا نزلت سورة براءة بنقض العهد الذّي كان بين النّبي و المشركين بعث بها النّبي علّياً عليه السلام فقرأها عليهم في الموسم و لم يبسمل في ذلك على ما جرت عادتهم في نقض العَهد من تركها.

الثّاني: ما عن ابن عبّاس قال قلت لعثمان ما حملكم الى أن عمدتم الى الأنفال، و هی من المثاني و الی، براءة و هی من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** و وضعتموها في السّبع الطّوال فما حملكم علىٰ ذلك.

قال عثمان أنّ رسول اللّه كان اذا أنزل عليه الشّئ يدعوا بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذا في السُّورة الّتي فيها كذا و كذا و تنزل عليه الأيات فيقول ضعوا الأيات في السُّورة الّتي يذكر فيها كذا و كذا و كانت الأنفال من أوائل ما أُنزل و براءة من أخر القرأن و كانت قصّتها شبيهة بقصّتها و قبض رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و لم يُبيّن لنا أنّها منها فظنّنت أنّها منها و من ثمَّ قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ**.

الثّالث: روي عن عثمان أيضاً أنّه لما سُقط **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** مَعه و روي عن ابن عجلان أنّه بلغه أنّ سورة براءة كانت تَعدل البقرة أو قربها فذهب منها فلذلك لم يكتب بينهما البسملة و نقل ذلك عن سعيد بن جبير أيضاً.

الرّابع: قالوا لمّا كتبوا المصحف في خلافة عثمان إختلف أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال بعضهم براءة و الأنفال سورة واحدة و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال أنّهما سورتان و تركت بسم اللّه

الرّحمٰن الرّحيم لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً و ثبتت حجتاهما في المصحف.

الخامس: عن إبن عبّاس أنّه قال قلت لعلّي ابن أبي طالب لم لم يكتب في براءة **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** قال لأنّ بسم اللّه أمان و براءة نزلت بالسّيف ليس فيها أمان و لذلك لم يجمع بينهما فأنّ **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** رحمة و براءة نزلت سخطة و مثله عن سفيان بن عينية فأنّه قال أنّما لم تكتب في صدر هذه السُّورة **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** لأنّ التّسمية رحمة و الرَّحمة أمان و هذه السُّورة نزلت في المنافقين و بالسّيف و لا أمان للمنافقين.

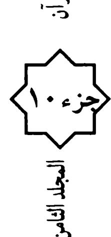
و قول سادس: و هو أنّ التّسمية لم تكتب لأنّ جبرئيل عليه السلام ما نزل بها في هذه السُّورة قاله القيشري نقل هذه الأقوال القرطبي في تفسيره.

ثمّ قال و في قول عثمان قبض رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم و لم يبيّن لنا أنّها منها دليل علىٰ أنّ السُّور كلّها إنتظمت بقوله و تبيينه و أنّ براءَة وحدها ضمّت الى الأنفال من غير عهدٍ من النّبي صلی الله علیه و آله و سلم لمّا عاجله من الحمام قبل تبيينه لذلك و كانتا تدعيان القرينتين فوجب أن تجمعا و تضمّ إحداهما الى الأخرىٰ للوصف الّذي لزمهما من الإقتران و رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم حيٌّ.

قال إبن العربي هذا دليل علىٰ أنّ القياس أصلٌ في الدِّين ألا ترى الى عثمان و أعيان الصّحابة كيف لجأوا الى قياس الشّبه عند عدم النّص و رأوا أنّ قصّة براءة شبيهة بقصّة الأنفال فألحقوها بها فإذا كان اللّه تعالى قد بيَّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام انتهىٰ كلامه.

أقول ما نقله القُرطبي في المقام من الأقوال لا بأس به لأنّ نقل الأقوال صحيحاً كان أو باطلاً لا إشكال فيه و لا حرج فيه على النّاقل.

و أمّا قوله في عثمان و أنّه قال أنّ رسول اللّه لم يبيّن لنا أنّها منها فهو دليل على أنّ السُّور كلّها إنتظمت بقوله أي بقول عثمان و تبيينه و أنّ براءة وحدها ضُمّت الىٰ الأنفال من غير عهدٍ من النّبي الى قوله فوجب أن تجمعا و تضمّ



أحدايهما الىٰ الأخرى و رسول اللّه حيٌّ، فهو كلامٌ لا يصّح و لا ينبغي الإعتماد عليه إلاّ على قول من يقول بالقياس مع أنّه أيضاً غَلطٌ لكونه مع الفارق و ذلك لأنّ ما فعله عثمان من ضمّ إحدى السُّورتين الىٰ الأخرى كما إعترف به المستدل لا يدّل علىٰ أنّ الرّسول لو كان حيّاً كان كذلك و من أين ثبت للقرطبي أنّه لو كان الرّسول حيّاً رضى بذلك و مجرّد عدم تبيين الرّسول في حياته لو ثبت لا يدّل على ما إدّعاه المستدّل بل يدّل على سكوت من بعده لقوله ﷺ **أسكتُوا عمّا سَكَت اللّه عنه** و من المحتمل أن يكون في عدم تبينيه وجه من المصالح الخفّية فإذا فرضنا أنّ النّبي لم يضمّ إحدىٰ السُّورتين الى الأخرى في حياته لمصلحةٍ خفّية لا يجوز لأحدٍ بعده ضمّ إحدايهما الى الأخرىٰ و هذا هو مقتضىٰ الإيمان.

و أمّا مانقله عن إبن العربي من أنّ هذا دليل على أنّ القياس أصلٌ في الدّين و إستدلاله بأنّ عثمان و أعيان الصّحابة لجأوا الى قياس الشّبه عند عدم النّص فهو طريف جدّاً فكأنّ إبن العربي لم يعلم أنّ عمل عثمان و غيره من الصّحابة ليس بحجّةٍ في الدّين و إلاّ يلزم الحكم بصّحة جميع ما أبدعوه في صدر الإسلام من البدع المنكرة الّتي لا شكّ في خروجها من الإسلام كتحريم عُمر المتعتين و إدخاله، الصّلاة خير من النّوم، و في الأذان و الإتيان بالصّلاة المندوبة جماعةً.

و منع أبي بكر فاطمة الزّهراء عليها السلام عن ميراثها و هكذا ما فعله عثمان و معاوية لأنّ الصّحابة لم ينكروا عليهم علىٰ قول إبن العربي و العجب منهم أنّهم يستدّلون علىٰ إثبات مدّعاهم بعمل عثمان و أمثاله و لا يستدلّون بعمل رسول اللّه ﷺ في المقام و غيره أليس يقولون أنّ رسول اللّه لم يبيّن هذا في حياته فلو كان ما ذكروه حقّاً فلم لا يتأسون به أليس السّكوت منه ﷺ حجّة عليهم فالقول بأنّ ما فعله الرسول ليس من الحجّة على إثبات المدّعي و أمّا ما فعله عثمان فهو حجّة و عليه تبتني صحّة القياس ممّا لا يقول به عاقل فضلاً عن

فاضلٍ و أعجب منه ما فرّعه علىٰ كلامه بقوله فإذا كان اللّه تعالىٰ قد بيَّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام.

و لم يعلم أنّ اللّه لم يبيّن دخول القياس في تأليف القرآن أصلاً فأن بيَّن ذلك أين موضعه، بل الّذي أدخل دخول القياس فيه هو عثمان لو كان على ما إعترفوا به و لم يثبت أنّ عثمان هو اللّه بل هو عبد من عباده و عمل العبد لا ينسب الىٰ اللّه إلاّ على مذهب من لا دين له هذا أوّلاً.

و ثانياً قياس تأليف القرآن و ترتيب السُّور و الأيات فيه على الأحكام قياس مع الفارق لأنّ تأليف القرآن و ترتيب سُوره و آياته لا يحلّل حراماً و لا يحرّم حلالاً و هذا بخلاف الأحكام الشّرعية و عليه فلو قال قائل بصّحة القياس في تأليف القرآن لا يمكنه القول بصّحة القياس في الأحكام لما ذكرناه هذا كلّه على مسلك الخصم الّذي يقول بالقياس و أمّا نحن فلا نقول به مطلقاً تبعاً لأهل بيت العصمة و الحمد للّه ربّ العالمين.

و لنرجع الى تفسير الكلام فنقول.

بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

قالوا قد أذن اللّه تعالى في معاهدة المشركين أوّلاً فأتّفق المسلمون مع رسول اللّه ﷺ و عاهدوهم فلمّا نقضوا العهد أوجب اللّه تعالىٰ النّبذ اليهم فخوطب المسلمون بما تجدّد من ذلك فقيل لهم أعلموا أيّها المسلمون أنّ اللّه و رسوله قد برئا عمّا عاهدتم به المشركين و لمّا كان عهد الرّسول لازماً لجميع أمّته حسن أن يقول عاهدتم قال مقاتل المراد بالمشركين هنا ثلاث قبائل من العرب.



خزاعة وبنو مدلج، وبنو خزيمة.

و قيل هذه الآية في أهل مكّة و كان الرّسول صالح قريشاً عام الحديبيّة علىٰ أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها النّاس فدخلت خُزاعة في عهد

الرّسول وبنو بكر بن عبد مناة في عهد قريش و كان لبني الدّيل من بني بكردم عند خزاعة فأغتنموا الفرصة و غفلة خزاعة فخرج نوفل بن معاوية الدّيلي فيمن أطاعه من بنى‌بكر و بيّنوا خزاعة فأقتتلوا و أعانت قريش بني بكر بالسّلاح و قومٌ أعانوهم بأنفسهم فهزمت خزاعة الى الحرم فكان ذلك نقضاً لصلح حديّبية فخرج من خزاعة بديل بن ورقاء و عمر بن سالم في ناسٍ من قومهم فقدموا علىٰ رسول اللّه ﷺ مستغيثين و أنشدّه عمرو فقال:

يا ربّ أنّي ناشدُ محمّداً ... حلف أبينا وأبيه ألا تلدا

كنت لنا أباً وكنّا ولداً ... ثمّة أسلمنا ولم ننزع يداً

فأنصر هداك اللّه نصراً عبداً ... وأدع عباد اللّه يأتوا مدداً

فيهم رسول اللّه قد تجرّئا ... أبيض مثل الشّمس ينمو صعدا

ان يسم خسفاً و جهد تربّداً ... في فيلقٍ كالبحر يجري مِزبداً

أنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤّكدا

وزعموا أن لست تدعو أحداً ... وهم أذّل و أقلَّ عدداً

هم بيّتونا بالحطيم هجّداً ... و قتلونا ركعّاً وسجّداً

فقال رسول اللّه ﷺ لأنصرت أن لم أنصركم فتجّهز الىٰ مكّة سنة ثمان ثمّ خرج الى غزوة تبوك و تخلّف من تخّلف من المنافقين و أرجفوا الأراجيف فجعل المشركون ينقضون عهودهم فأمره اللّه تعالىٰ بالقاء عهدهم اليهم و أذن في الحرب و الى هذا أشار بقوله:

فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَ أَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ

فقوله: **فَسِيحُوا** أمرٌ إباحة و فى ضمنه تهديد و هو إلتفاتٌ من غيبةٍ الىٰ خطابٍ أي قل لهم سيموا، أمر اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء المشركين أن يسيموا في الأرض أربعة أشهر آمنين و أنّما أحلّهم هذه الأشهر لأنّها الأشهر الحرم من أوّل شوّال الى آخر المحرّم قاله إبن عبّاس و الزُّهري.

و نقل عن الفرّاء أنّه قال كانت المدّة الى آخر المحرّم لأنّه كان فيهم من كان مدّته خمسين ليلة و هو من لم يكن له عهداً من النّبي فجعل اللّه ذلك له قال و معنى الأشهر الحرم المحرّم وحده و أنّما جَمَعه لأنّه متّصل بذي الحجّة و ذي القعدة فكأنّه قال فاذا إنقضت الثّلاثة أشهر.

و قال أبو عبد اللّه عليه السلام الأربعة الاشهر يوم النَّحر و أخرها العاشر من شهر ربيع الأخر و هو قول محمّد بن كعب القرطبي و مجاهد.

و قال أبو الحسن أنّما جعل لهم هذه المدّة لأنّ منهم من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فحطّ اليها و منهم من كان أقلّ فرفع اليها.

و قال أبو علّي الجبائي كان يوم النَّحر لعشرين من ذي القعدة الىٰ عشرين من ربيع الأوّل لأنّ الحجّ كان تلك السّنة في ذلك الوقت ثمّ صارت في السّنة الثّانية في ذي الحجّة و فيها حجّة الوداع و كان سبب ذلك النّسئ الّذي كان في الجاهليّة انتهىٰ ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و الأقوال فيه كثيرة مختلفة و لكن في أصل المهلة لم يختلفوا فأنّ جميع المفسّرين ذهبوا الى أنّها كانت أربعة أشهر و أنّما الإختلاف في تعيين الشُّهور و هو لا يهمّنا و لا يخلّ بالمقصود.

ثمّ أنّ قراءة البراءة كانت يوم النَّحر بمكّة و قد قرأها أمير المؤمنين علّى بن أبي طالب عليه السلام بأمرٍ من اللّه و رسوله هذا هو المشهور المسطور في التّواريخ و السِّير أمّا عندنا فلا خلاف فيه لأنّ الأخبار الواردة فيه من أهل البيت و عند أكثر أهل السنّة متظافرة لو لم تكن متواترة.

و أمّا عند شرذمّةٌ من المعاندين المنكرين لفضائله فلا و نحن نذكر القصّة.

قال ابن هشام في السِّيرة و هو من أعاظم هل السنّة لمّا نزلت براءة علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و قد كان بعث أبا بكر ليقيم للنّاس الحجّ قيل يا رسول اللّه لو بعثت بها الى أبي بكر فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا يؤدّي عنّي إلاّ رجل من أهل بيتي ثمّ دعا علّي بن أبي طالب عليه السلام فقال له أخرج بهذه القصّة من صدر براءة و أذّن في



النّاس يوم النَّحر اذا إجتمعوا بمنى أنّه لا يدخل الجنّة كافر و لا يحجّ بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عُريان و من كان له عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عهد فهو له الى مدّته فخرج عليّ عليه السلام علىٰ ناقة رسول اللّه الغضباء حتّىٰ أدرك أبابكر بالطّريق فلمّا رأه أبوبكر قال أمير أم مأمور فقال بل مأمور ثمّ مضيا فأقام أبوبكر للنّاس الحجّ و العرب اذ ذاك في تلك السّنة على منازلهم من الحجّ التّي كانوا عليها في الجاهلّية حتّى اذا كان يوم النّحر قام بن أبي طالب عليه السلام فأذّن بالنّاس بالّذي أمره به رسول اللّه انتهىٰ موضع الحاجة منه.

و قال إبن الأثير في الكامل و فيها حجّ أبوبكر بالنّاس و معه عشرون بدنة لرسول اللّه و لنفسه خمس بدنات و كان في ثلاث مائة رجل فلمّا كان بذي الحليفة أرسل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في أثره عليّاً و أمره بقراءة سورة براءة على المشركين فعاد أبوبكر و قال يا رسول اللّه أنزل فيَّ شيئ قال صلى الله عليه وآله وسلم لا و لكن لا يبلغ عنّي إلاّ أنا أو رجل مِنّي الخ.

و قال المسعودي في مروج الذَّهب و هو من أقدم التّواريخ و أشهرها سنة تسع حجّ أبوبكر بالنّاس و قرأ علّي بن أبىطالب عليهم سورة براءة و أمر أن لا يحجّ مشرك و لا يطوف بالبيت عريان الخ.

و به قال الزّمخشري في الكشّاف و القرطبي في تفسيره و أبوحيّان في تفسيره المسّمىٰ ببحر المحيط.

و الفخر الرّازي في تفسيره و الطَّبري في تفسيره جامع البيان، و السّيوطي في الدُّر المنثور و الألوسي في روح المعاني والحقّي في روح البيان وهكذا سائر المفسّرين منهم فأنّ هذا أي قراءة علّي أيات سورة براءة علىٰ المشركين بأمر رسول اللّه ممّا لا كلام فيه لأحدٍ ولم نرَ أحداً من المُفسّرين و أرباب السِّير و التّواريخ أنكر قراءة علّي عليه السلام بها و أنّما الخلاف في أنّ أبابكر لمّا رجع الىٰ رسول اللّه و قال أنزل فيَّ شيئ فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا و لكن لا يبلغ عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي.

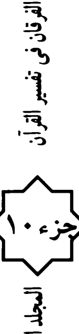
هل رجع الى مكّة أميراً على الموسم أم لم يرجع فهم يقولون بأنّه رجع اليها أميراً على الموسم و نحن نقول لم يرجع و هذا ممّا لا بحث لنا فيه لأنّ الإمارة علىٰ الموسم ليس فيها كثير فضيلةٍ حتّى يبحث عنها و أنّما الفضيلة تثبت بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يبلغ عنّي إلاّ أنا أو رجلٌ منّي بوحيٍ من اللّه تعالى كما إعترف به أكثر المفسّرين و ذلك لأنّه يدّل على عدم صلاحيّة أبىبكر لذلك التّبليغ و من لم يكن صالحاً لقراءة بعض الأيات على الكفّار فكيف يصلح للخلافة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم في الدّين و الدُّنيا على المؤمنين و حيث إنجّر الكلام الىٰ هنا فلا بأس بذكر ما أورده الرّازي في المقام و الجواب عنه.

قال الرّازي و إختلفوا في السّبب الّذي لأجله أمر عليّاً بقراءة هذه السّورة عليهم وتبليغ هذه الرّسالة اليهم فقالوا السَّبب فيه أنّ عادة العرب أن يتوّلى تقرير العهد و نقضه إلاّ رجل من الأقارب فلو تَوَّلاه أبوبكر لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود فربّما لم يقبلوا فأزيحت علّتهم بتولية ذلك عليّاً.

و قيل لمّا خصَّ أبابكر بتولية أمير الموسم خصَّ عليّاً بهذا التَّبليغ تطبيباً للقلُوب و رعايةً للجوانب و قيل قرَّر أبابكر على الموسم و بعث عليّاً خلفه لتبليغ هذه الرّسالة حتّى يصلّي خلف أبىبكر و يكون ذلك مجرى التّنبيه على إمامة أبىبكر.

و قرَّر الجاحظ هذا المعنى فقال أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث أبابكر أميراً علىٰ الحاجّ و وَّلاه الموسم و بعث عليّاً يقرأ على النّاس أيات من سورة براءة فكان أبوبكر الإمام و علّي المؤتم و كان أبوبكر الخطيب و علّي المستمع و كان أبوبكر الرّافع بالموسم و السّابق لهم و الأمر لهم و لم يكن ذلك لعلّي.

و أمّا قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يبلغ عنّي إلاّ رجل منّي فهذا لا يدّل على تفضيل علّي على أبىبكر و لكنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عامل العرب بما يتعارفونه فيما بينهم و كان السيّد الكبير منهم اذا عقد لقومٍ حلفاً أو عاهد عهداً لم يحلّ ذلك العهد و العقد إلاّ



هو أو رجل من أقاربه القريبين منه كأخٍ أو عمٍّ فلهذا المعنى قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك القول انتهى كلام الرّازي و ما نقله عن الجاحظ بألفاظه و عباراته.

و أنا أقول أُنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه الكلمات السّخيفة الخالية عن المعنى من هذين الفحلين من علماء العامّة علىٰ إثبات فضيلة أبىبكر و ردعها عن أمير المؤمنين و اذا كان الرّازي تمّسك في إثباتِ فضيلة لأبىبكر بهذه الكلمات التّي هي أوهن من بيت العنكبوت بل هي بالإفتراء على العرب في عهد الجاهليّة أشبه منها بالدّليل على المدّعىٰ فما ظنّك بأتباعه و أذنابه أمثال أبي حيّان في بحر المحيط و الألُوسي في روح المعاني و غيرهما من مقلّديه الذّين ليست لهم قوّة التّشخيص بين الغثّ و السَّمين.

فقول الرّازي أنّ عادة العرب كان كذا وكذا لا يَدّل النّقل منه علىٰ صحته ما لم يعضد بالقرائن و الإمارات المثبتة و مجرّد النّقل بأنّ العرب كان كذا لا يكفي، و على فرض صحّة النّقل و أنّ العرب كان المتعارف بينهم أن ينقض العهد رجل من الأقارب فالعبّاس بن عبد المطّلب كان عمّ الرّسول و هو أيضاً من أقاربه بل هو أقرب لأنّ العمّ أقرب من إبن العمّ فلم لم يأمره الرّسول بقراءة هذه السُّورة على المشركين و أمر علّياً بذلك فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الوجه في ذلك هو كون علّيٍ نفس الرّسول بدليل أية المباهلة و الأخبار الواردة في الباب عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا وعليٌ من نور واحدٍ.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا و علّيٌ من شجرة واحدة و سائر النّاس من شجرٍ شتّىٰ.

و قوله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علّي حربك حربي و سلمك سلمي.

و قوله صلى الله عليه وآله وسلم: علّي منّي كنفسي و أمثال ذلك من الأخبار.

و أمّا قوله أنّ الرّسول فعل ذلك تطبيباً للقلوب، فهو أيضاً لا معنى له لأنّ المراد بالقلوب أن كان قلوب المسلمين فمن المعلوم أنّهم كانوا تابعين للرّسول

في قوله و فعله و لم يكن لأحدٍ منهم إعتراض على الرّسول في نصبه أبىبكر على الموسم أو أيّ شخصٍ شاء وأن كان المراد بالقلوب قلب علّيٍ فهو أيضاً كذلك بل هو أحقَّ و أليق بعدم الإعتراض علىٰ الرّسول.

و أمّا ما نقله عن الجاحظ، تأييداً لما ذكره و إدَّعاه فالجواب الجواب.

و أمّا ما نقله عن غيره و هو أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث علّياً خلف أبىبكر حتّى يصلّي خلفه و يكون ذلك مجرىٰ التّنبيه على إمامة أبىبكر.

فالجواب أمّا أوّلاً: فبأنّ المستدلّ من أين علم أنّ علّياً صلّى خلف أبىبكر في الموسم.

ثانياً: على فرض ثبوته و أنّه صلّى خلفه لا يثبت مدّعاه لأنّ مجرّد الصّلاة خلف أبىبكر أو غيره لا يغني شيئاً و لا يدّل على إمامته بعد الرّسول اذ لو كان كذلك فالخليفة بعد الرّسول كان إبن أمّ مكتوم لأنّ المسلمين في غيبة الرّسول كانوا يصلّون خلفه بأمرٍ من رسول اللّه في تعيينه للإمامة هذا كلّه.

مضافاً الىٰ أنّ العامّة و منهم المستدلّ لا يشترطون العدالة في الإمامة للصّلاة بل يصلّون خلف كلّ فاسقٍ و فاجرٍ فكيف تكون الإمامة في الصّلاة دليلاً علىٰ صحّة الخلافة و للبحث في هذا الموضوع محلّ أخر و نكتفي بهذا القدر في المقام و لنشر الى بعض ما ورد من الأخبار في إثبات تلك الفضيلة لعلّيٍ عليه السلام أمير المؤمنين فنقول:

في كتاب الخصال عن الحارث بن ثعلبة قال قلت لسعد، أشهدت شيئاً من مناقب علّي عليه السلام قال: نعم شهدت له أربع مناقب و الخامسة شهدتها لئن يكون لي منهنّ واحد أحبَّ إلَّي من حمر النِّعم، بعث رسول اللّه أبابكر ببراءة ثمّ أرسل علّياً فأخذها منه فرجع أبوبكر فقال يا رسول اللّه أنزل فيَّ شئ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا إلاّ أنّه لا يبلغ عنّي إلاّ رجل منّي انتهىٰ.

مخزي الكافرين، و الإخزاء الإذلال بما فيه الفضيحة و الخزي النّكال الفاضح، فأمهل اللّه الكفّار في هذه الآية أربعة أشهر و هى أشهر الحرم على ما مرّ الكلام فيها ثمّ أهلكهم اللّه و ذلك جزاء الكافرين.

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ

الأذان، الإعلام و قال بعضهم معناه النّداء الّذي يسمع بالإذن، والواو للعطف و أنّما إرتفع، أذانٌ، لأنّه عطف على قوله، براءةٌ و أذانٌ من اللّه و رسوله يوم الحجّ الأكبر.

و إختلف في معنى الأكبر فقيل هو ما فيه الوقوف بعرفة و الحجّ الأصغر، العمرة و قيل الأكبر القرأن و الأصغر الأفراد.

و قيل في معنى يوم الحجّ الأكبر، ثلاثة أقوال:

أحدها: ما رُوي عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال عرفة.

الثّاني: و في رواية أخرى عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو المرّوية عن أبي عبد اللّه هو الحجّ الّذي حجّ فيه المشركون و المسلمون و لم يحجّ بعدها مُشرك.

الثّالث: هو جميع أيّام الحجّ.

و قال القُرطبي نقلاً عن إبن سيرين أنّ الحجّ الأكبر العام الّذي حجَّ فيه النّبي صلى الله عليه و آله و سلم حجّة الوداع و حجّت فيه معه الأمم و قد ذكر المفسّرون أقوالاً كثيرة و كيف كان فمعنى الآية هو أنّ اللّه تعالى أعلمهم أنّ اللّه و رسوله بريءٌ من المشركين و أنّهم أن تابوا عن الكفر و رجعوا الىٰ الإسلام و إتّبعوا الحقّ فهو خيرٌ لهم في الدّنيا و الأخرة و أن توّلوا و أعرضوا عن الحقّ و بقوا على كفرهم فأنّهم غير معجزي اللّه أي لا يفوتون اللّه اذ لا يمكن الفرار من حكومته.

ثمّ قال **وَ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** أي شديدٌ مؤلمٌ، جعل الإنذار بشارة على سبيل الإستهزاء بهم، و الّذين كفروا، عامّ يشمل جميع أصناف الكفّار من المشركين و عبدة الأوثان و غيرهم و فى هذا و عيدٌ عظيمٌ بهم من حلول العقاب عليهم في صورة التولّي و عدم قبولهم الحقّ ثمّ إستثنى من هؤلاء المشركين طائفة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ

إستثنى اللّه تعالى من براءته و براءة رسوله من المشركين من كان لهم العهد.

و قال الفّراء هذا إستثناء في موضع نصب و هو قوم من بني كنانة كان قد بقي مِن أجلهم تسعة أشهر فقال اللّه فأتّموا اليهم عهدهم الى مدّتهم لا تحطوهم الى الإربعة أشهر.

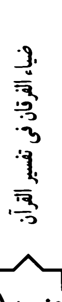
و قال مجاهد عني بذلك جماعة من خزاعة و مدلج.

و قال ابن عبّاس توّجه ذلك الى كلّ من كان بينه و بين رسول اللّه عهد قبل براءة.

أقول قال بعض المفسّرين، قال قوم هذا إستثناء منقطع و التّقدير، لكن الّذين عاهدتم فثبّتوا على العهد و أتّموا اليهم عهدهم.

و قال قوم منهم الزّجاج هو إستثناء متّصل من قوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**.

و عن صاحب الكشّاف أنّ المستثنى من قوله: **فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ** لأنّ الكلام خطاب للمسلمين و معناه براءة من اللّه و رسوله الى الّذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلاّ الّذين عاهدتم منهم ثمّ لم ينقضوا فأتّموا اليهم عهدهم و الإستثناء بمعنى الإستدراك كأنّه قيل بعد أن أمروا في النّاكثين و لكنّ الّذين لم ينكثوا فأتّموا اليهم عهدهم و لا تجروهم مجراهم و لا تجعلوا الوَفي كالغادر انتهىٰ.



و في قوله: **ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا** إشارة الى أنّ المستثنى ليس جميع المشركين المعاهدين بل المراد المعاهدين الّذين بقوا على عهدهم و لم ينقصوكم شيئاً من العهد و لم يظاهروا أي لم يعاونوا عليكم أحداً فأنّ المظاهرة المعاونة على العدّو للظّهور عليه فهؤلاء أتمّوا اليهم عهدهم أنّ اللّه يحبّ المتّقين، أي أنّ مراعاة العهد من علائم التّقوى فمن نقض العهد ليس من المتّقين الّذين يحبّهم اللّه و يحبّونه.

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَ اٰتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الإنسلاخ إخراج الشّئ ممّا لابسه و كذلك سلخ الشّاة اذا نزع الجلد عنها و المعنى اذا إنقضت الأشهر الحرم و فيها قولان:

أحدهما: أنّها، رجب و ذو القعدة و ذو الحجّة و محرّم ثلاثة سرد و واحد فرد.

الثّاني: المراد بها الأشهر الأربعة الّتي جعل اللّه لهم أن يسيموا فيها آمنين و هي عشرون من ذي الحجّة، المحّرم، صفر، ربيع الأوّل و عشر من ربيع الآخر.

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ أي سواءٍ كان في الأشهر الحرم أو غيرها و سواء في الحِّل أو في الحرم أمرهم اللّه تعالىٰ أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم في أيّ مكانٍ و زمانٍ و أن يحصروهم أي يمنعوهم من الخروج و الفرار و أن يقعدوا لهم كلّ موضعٍ يرقب فيه العدّو و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى أذن لهم أن أفنُوا المشركين عن صفحة الوجود بكلّ طريقٍ ممكنٍ و ذلك لأنّ الحجّة قد تمّت عليهم و لا عذر لهم في بقائهم على كفرهم و عنادهم مضافاً الىٰ كونهم صادّين عن سبيل اللّه محاربين للّه و رسوله و لأجل ذلك قال: **فَإِنْ تَابُوا وَ**

أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أي و أن رجعوا عمّاكانوا عليه من الشّرك و أقاموا الصّلاة و آتوا الزّكاة، في تخصيص الصّلاة و الزّكاة بالذّكر من بين الأحكام إشارة الى أنّهما أعظم الشّعائر الإسلاميّة و ذلك لأنّ الصّلاة أفضل الأعمال البدّنية و ايتاء الزّكاة أفضل الأعمال الماليّة و بهما تظهر القوّة العمليّة كما بالتّوبة تظهر القوّة العلّمية عن الجهل هكذا قال بعض المفسّرين و لا إشكال فيه إذ لا شكّ أنّ الصّلاة و الزّكاة كذلك و فى قوله: **فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** بعدهما إشارة الى أنّ علامة صدقهم في التّوبة هي إقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة لا مجّرد القول و معنى خلّوا سبيلهم، لا تتعرّضوا لهم و أقبلوا قولهم: **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ** يغفر الذّنوب قلّ أو كثر، رحيمٌ بعباده لأنّ رَحمته سبقت غضبه فهو أرحم الرّاحمين.

وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

في هذه الآية أشار اللّه تعالىٰ الى أمرين خطاباً للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم:

أحدهما: أمره تعالىٰ أنّه متى إستجاره أحد من المشركين أي طلب منه الجار في رفع الأذىٰ لصاحبه و قيل المعنى إستأمنه أحد، أن يقبل دعوته فأجاره و آمنه حتىٰ يسمع المشرك المشتجير كلام اللّه تعالىٰ.

الثّاني: أنّه تعالىٰ أمر نبيّه بعد ذلك بأن يبلغ المشرك مأمنه و هو مكان الأَمن كبيته أو قبيلته و المقصود لا تؤذوه و ذلك بأنّهم قوم لا يعلمون و لابّد من المداراة للجاهل.



قال الضّحاك و السّدي هي منسوخة بآية الأمر بقتل المشركين و قال الحسن و مجاهد هي محكمة الى يوم القيامة.

و قيل أنّ الحكم فيها ثابتة مدّة الأربعة الأشهر الّتي ضربت لهم أجلاً، و الظّاهر أنّها محكمة و لّما أمر اللّه بقتل المشركين حيث وجدوا و أخذهم و

حصرهم ذكر لهم حالة لا يقتلون فيها و لا يؤخَذون و لا يؤسرون و تلك إذا جاء واحد منهم مسترشداً طالباً للحجّة و الدّلالة على ما يدعوا اليه من الدّين فالمعنىٰ و أن أحدٌ من المشركين إستجارك أي طلب منك أن تكون مجيراً له و ذلك بعد إنسلاخ الأشهر ليسمع كلام اللّه و ما تضمّنه من التّوحيد و يقف على ما بعثت به فكن مجيراً له حتّى يسمع كلام اللّه و يتدبّره و يطّلع على حقيقة الأمر فأنّه بعد ذلك أي بعد التدّبر والتّأمل يجد أنّه ليس من جنس كلام المخلوق فلا محالة يكون كلام الخالق و إذا ثبت له ذلك يعلم أنّه أي، القرآن معجزة دالّة على صدق النّبي في إدّعاءه النُّبوة و لازم ذلك الإقرار بالنُّبوة بعد التّوحيد و بعد الإقرار بهما يقرّ بانّ ما جاء به النّبي حقٌّ و أنّه من عند اللّه فَيَجب عقلاً قبوله و العمل به و لا نعني بالدّين و الإيمان إلاّ ذلك و هذا من أتمّ الفوائد المترتّبة على قبول إستيجار المستجير و يستفاد من هذه الآية كيفيّة المداراة في جلب المخالف الى الحقّ في كلّ عصرٍ و زمان تبعاً للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فلو كان مْشيناً و طريقتنا في الدّعوة على هذا الأساس مع المخالف بعد النّبي لكنّا من الموفّقين و لكن مع الأسف سلكنا غير هذا المسلك و هو كما ترى ضرّه أكثر من نفعه و قبحه أكثر و أشدّ من حسنه.

نقل المفسّرون عن إبن عبّاس أنّه قال: أنّ رجلاً من المشركين قال لعلّي عليه السلام إن أرَدنا أن نأتي الرّسول بَعد إنقضاء هذا الأجل لسماع كلامٍ اللّه أو لحاجةٍ أخرىٰ فهل نقتل فقال علّي عليه السلام: لا أنّ اللّه تعالىٰ قال: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ أي فأمنه حتّىٰ يسمع كلام اللّه انتهىٰ.

و قال الرّازي في تفسيره بعد نقل هذا الحديث ما هذا لفظه:

و تقرير هذا الكلام أن نقول أنّه تعالىٰ لمّا أوجب بعد إنسلاخ الأشهر الحرم قتل المشركين دلّ ذلك علىٰ أنّ حجّة اللّه قد قامت عليهم و أنّ ما ذكره الرّسول قبل ذلك من أنواع الدّلائل و البيّنات كفى في إزاحة عذرهم و علّتهم

يقتضي أنّ أحداً من المشركين لو طلب الدّليل و الحجّة لا يلتفت اليه بل يطالب أمّا بالإسلام و أمّا بالقتل فلمّا كان هذا الكلام واقعاً في القلب لاجرم ذكر اللّه هذه الآية إزالةً لهذه الشُّبهة و المقصود منه بيان أنّ الكافر اذا جاء طالباً للحجّة و الدّليل أو جاء طالباً لإستماع القرأن فأنّه يجب إمهاله و يحرم قتله و يجب إيصاله الى مأمنه و هذا يدّل على أنّ المقصود من شرع القتل قبول الدّين و الإقرار بالتّوحيد و يدلّ أيضاً على أنّ النّظر في دين اللّه أعلى المقامات و أعلى الدّرجات فأنّ الكافر الّذي صار دمه مهدراً لمّا أظهر من نفسه كونه طالباً للنّظر و الإستدلال زال ذلك الإهدار و وجب علىٰ الرّسول أن يبلغه مأمنه انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه فأنّ القتل ليس مطلوباً في نفسه بل هو مطلوب لغيره و يؤيّده أنّ العقل لا يحكم به بما هو هو بل يحكم به اذا كان فيه صلاح و لذلك لا يقتل أحدٌ بلاجرم و علّة و لو كان مطلوباً في نفسه فلا معنى لوجود المقتول من أوّل الأمر و ملخّص الكلام أنّ اللّه تعالى لم يخلق الإنسان ليقتل بل خلقه ليبقى و يصل الى كماله المطلوب و عليه فالأصل الحياة و البقاء و اذا كان كذلك فالامهال أمرٌ عقلّي و لذلك أمر اللّه نبيّه و قال فأجره الخ.

و قال في أخر الآية **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ** فهذا الكلام بمنزلة الدّليل على الإمهال فكأنّه قال قائل و كيف أمر اللّه نبيّه بما أمر فقال تعالىٰ في الجواب ما قال.

■

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ عِنْدَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرٰامِ
فَمَا ٱسْتَقٰامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿۷﴾ كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لٰا يَرْقُبُوا
فِيكُمْ إِلًّا وَ لٰا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ تَأْبٰى
قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ ﴿۸﴾ ٱشْتَرَوْا بِاٰيٰاتِ
ٱللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سٰآءَ مٰا
كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿۹﴾ لٰا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لٰا
ذِمَّةً وَ أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿۱۰﴾ فَإِنْ تٰابُوا وَ
أَقٰامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَإِخْوٰانُكُمْ فِى
ٱلدِّينِ وَ نُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿۱۱﴾ وَ إِنْ
نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمٰانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿۱۲﴾ أَلٰا تُقٰاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوٓا
أَيْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ ٱلرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۳﴾ قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللّٰهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۴﴾ وَ يُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ ٱللّٰهُ عَلٰى مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿۱۵﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّٰا يَعْلَمِ ٱللّٰهُ
ٱلَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ

وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَ أَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ آتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

◀ اللّغة

لَا يَرْقُبُوا، الرُّقُوب هو العمل في الأمر علىٰ ما تقدّم به العهد و المراقبة و المراعاة نظائر و المعنىٰ لا يراعون فيكم.

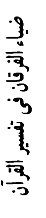
إِلًّا أي عهداً و قيل هو إسم اللّه و قيل القرابة و هو مأخوذ من الأليل البريق يقال أل يؤل اذا لمع.

و قال الرّاغب في المفردات، الإل، كلّ حالةٍ ظاهرة من عهد حلفٍ و قرابة، ألّ يألّ، يقال تئلُّ أي تلمع فلا يمكن إنكاره.

تَأْبىٰ أي تمنع.

نَكَثُوا، النَّكث نقض العَهد.

هَمُّوا أي قصدوا فأنّ الهمّ القَصد



◀ الإعراب

كَيْفَ يَكُونُ إسم يكون، عهدٌ، و الخبر، كيف قدّم للإستفهام و قيل، للمشركين، و قيل، عند اللّه، و للمشركين تبيين أو متعلّق، بيكون و كيف، حال

من العَهد فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا قيل ما، زمانيّة، و الحقّ أنّها مصدّرية و التّقدير فإستقيموا لهم مدّة إستقامتهم لكم، و قيل هي شرّطية كقوله تعالىٰ ما يفتح اللّه، و المعنى أن إستقاموا لكم فأستقيموا و ليست نافية لأنّ المعنى يفيد كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا المستفهم عنه محذوف و التّقدير كيف يكون لهم عهد، أو كيف تطّمأنون اليهم إِلًّا بكسر الألف و اللاّم المشدّدة من ألىٰ يؤل اذا ساس أو من أل يؤُل اذا صار الىٰ أخر الأمر و قيل إيلاً إيل مثل ريح أبدل اللاّم الأول ياء لثقل التّضعيف و كسر الهَمزة و على الوجهين قلبت الواو ياء لسكونها و إنكسار ما قبلها يُرْضُونَكُمْ حال من الفاعل في، لا يرقبوا، عند قوم، و الحقّ أنّها مستأنف فِى ٱلدِّينِ متعلّق بأخوانكم أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ جمع إمام و أصله أئممة مثل خباء و أخبية فنقلت حركة الميم الأولى الى الهَمزة السّاكنة و أدغمت في الميم الأخرى أَوَّلَ مَرَّةٍ منصوب على الظّرف فَٱللَّهُ أَحَقُّ مبتدأ و خبر أَنْ تَخْشَوْهُ في موضع نصب أو جرّ أي بأن تخشوه وَيَتُوبُ ٱللَّهُ مستأنف.

◀ التّفسير

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

قوله: كَيْفَ إستفهام معناه التّعجب والإستنكار والإستبعاد قيل معناه النّفي أي لا يكون لهم عهد و هم لكم ضدّ و نبّه على علّة إنتفاء العهد بالوصف الّذي قام به و هو الإشتراك.

و قيل في الآية إضمار أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر و النّكث و الإستفهام يراد به النّفي كثيراً كقول الشّاعر:

فها ذي سيوفُ يا هدّي بن مالكٍ ... كثير ولكن كيف بالسّيف ضاربُ

أي ليس بالسّيف ضارب و إذا كان معناه النّفي فالإستثناء متصّل و يجوز أن

يكون، الّذين، في موضع خبر على البدل من المشركين لأنّ معنى ما تقدّم النّفي أي ليس يكون للمشركين عهد إلاّ الّذين لم ينكثوا.

قال إبن عبّاس و هم قريش و قيل أنّ الإستثناء منقطع أي لكن الّذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام فعلى القول بأنّ المراد بالإستفهام النّفي يصير معنى الأية، لا يكون للمشركين عهدٌ عند اللّه و عند رسوله إلاّ الّذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

و أمّا على القول بإرادة الإستفهام منه فلابّد من التّقدير في الكلام فيقال كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه و عند رسوله مع إضمار الغدر في عهدهم.

ثمّ إستثنى من ذلك قوله: **إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**

و كيف كان فالمقصود الأصلي من هذا الكلام هو عدم الإعتماد على المشركين في عهودهم لأنّ العهد عندهم كالعدم لأضمارهم الغدر فيه إلاّ الّذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فأنّه يجب عليكم الوفاء به **فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ** أي فما إستقاموا لكم في البقاء علىٰ العَهد فكونوا كذلك معهم و إلاّ فلا و أنّما قال تعالىٰ ذلك حيث فرَّع إستقامة المؤمنين على عهد إستقامة الكفّار أوّلاً لما ذكرناه من الوجه و هو عدم الإعتماد على قولهم و عهدهم فكأنّه قال للمؤمنين أيّها المؤمنون أنّ المشركين أن وفوا بعدهم معكم فأوفوا أنتم أيضاً و إن نقضوا و نكثوا فأنكثوا أنتم أيضاً إذ لا ينبغي للمؤمن أن ينقض عهده في قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ** إشارة الىٰ أنّ الوفاء بالعهد من شؤن التّقوىٰ و لا شكّ أنّ اللّه يحبّ المتّقين و حيث وصف اللّه تعالى المشركين بما وصف في الآية و غيرها من الأيات السّابقة من نقض العهد و النّفاق و الغدر و أمثال ذلك.

كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً

و التّقدير كيف يكون لهم عهد أو كيف يعتمد على عهدهم و الحال أن يظهروا عليكم بالغلبة لا يرقبوا فيكم، أي لا يراعون فيكم و الرُّقوب هو العمل في الأمر على ما تقدَّم به العهد و المراقبة و المراعاة نظائر في اللّغة فحاصل المعنىٰ هو إن يغلبوا و يعلموا عليكم لا يراعون فيكم، إلاّ، أي عهداً و قيل قرابةً و قيل الإِل هو إسم اللّه، و لا ذمّةً، قيل هي أيضاً العهد فمن رأىٰ أنّ الإِل هو العهد جعله و الذمّة لفظين لمعنى واحد أو متقاربين و على قول من رأىٰ أنّ الإِّل غير العهد فهما لفظان متباينان و لمّا ذكر حال المشركين مع المؤمنين إن ظهروا و غلبوا عليهم ذكر حال المؤمنين مع المشركين في صورة الغَلبة عليهم فقال: **يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ تَأْبىٰ قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ** أي إذا صار المشركون مقهورين مغلوبين لكم فهم يرضونكم بأفواههم أي يقولون لكم ما ترضون به كما هو شأن المنافق الّذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنّ أكثرهم فاسقون.

و الفاسق حاله معلوم لا يبالي بما قيل أو يقال فيه فهو يتكلّم بما يشاء و يفعل ما يشاء لفسقه و من المعلوم أنّ المؤمن لا يكون كذلك لدينه و معرفته و أنّما قال و أكثرهم فاسقون و لم يقل كلّهم لأنّ كلّهم ليسوا كذلك إذ يوجد فيهم من لا يتّصف به و يظهر من قوله: **وَ أَكْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ** أنّ الفسق لَيس مرادفاً للكفر و ذلك لأنّ المشركين مع أنّهم من الكفّار بل من أظهر مصاديقهم لم يحكم في الآية بفسقهم جميعاً بل حكم بفسق أكثرهم و مفهومه أنّ قليلاً منهم ليسوا بفاسقين و إذا كان كذلك فبين الكفر و الفسق من النِّسب الأربع العموم و الخصوص من وجهٍ.

فمادّة الإجتماع الكافر الفاسق ومادّة الإفتراق الكافر الّذي ليس بفاسقٍ، و المؤمن الفاسق هذا إذا قلنا أنّ الإيمان يحصل بمجرّد الإعتقاد و لا يشترط فيه العمل و إلاّ فالمؤمن لا يكون فاسقاً فلابدّ لنا من وضع المسلم مكان المؤمن في القضية و هو ظاهرٌ.

و قال بعض المفسّرين الكفر مرادف للفسق فكلّ كافر فاسق و لا عكس فبينهما العموم و الخصوص المطلق لصدق الكلّية من أحد الطَّرفين.

ثمّ قال في معنى الآية أنّ المراد رؤوساءهم وأن كانوا كلّهم فاسقين.

و لقائلٍ أن يقول لو كان المراد رؤوساءهم لا يستقيم الكلام لأنّه يلزم أن يكون أكثرهم علماء أو رؤوساء و ليس كذلك و بعبارةٍ أخرى لو كان المراد، بأكثرهم رؤوساءهم، يصير معنى الكلام أنّ أكثر رؤوساءهم فاسقون أيضاً يثبت ما ذكرناه لا ما ذكره.

ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

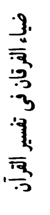
الظّاهر عود الضّمير على من قبله من المشركين المأمور بقتلهم.

و المعنى إشتروا بالقرآن و ما يدعوا اليه من الإسلام ثمناً قليلاً و هو إتّباع الشّهوات و الأهواء و ذلك لأنّك لمّا تركت دين اللّه و آثرت الكفر عليه كان ذلك كالبيع و الشّراء.

و قال مجاهد هم الأعراب الّذين جمعهم أبو سفيان علىٰ طعامه.

و قال أبو صالح هم قومٌ من اليهود و آيات اللّه التّوراة.

و قال إبن عبّاس هم أهل الطّائف كانوا يمدّون النّاس بالأموال و يمنعونهم من الدّخول في الإسلام فصدّوا عن سبيله أي صرفوا أنفسهم عن دين اللّه و أعرضوا عنه.



و قال الشّيخ في التّبيان معنىٰ **ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ** إستبدلوا بحجّج اللّه و بيّناته العظيمة، الشأن ثمناً قليلاً أي عرضاً قليلاً.

أقول و على هذا فالمراد هو الكفّار من أهل الكتاب.

قال أبو علّي الجبائي نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلّت عليه هذه الصّفة و هذا هو الحقّ لأنّ قوله: **ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** لا

ينطبق على غير أهل الكتاب فالأمر يدور مدارهم، و حيث أنّ تحريف الكتاب و تغييره عمّا كان عليه كان من دأب اليهود فلا يبعد أن يكون المراد في الآية قوم اليهود واللّه أعلم.

و كيف كان لاشكّ أنّ الكفّار كانوا يصدّون أي يمنعون النّاس عن سبيل الحقّ و متابعته ثمّ قال تعالىٰ: **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** و ذلك لأنّ البقاء علىٰ الكفر قبيح و منع الغير أيضاً عن متابعة الحقّ قبيح إلاّ أنّ الثّاني أقبح مِن الأوّل و أسوأ فأنّ منشأ الأوّل العناد و منشأ الثّاني العناد و الحسد والبخل.

تَنبيهٌ

وأعلم أنّ مورد الآية و أن كان خاصّاً إلاّ أنّ معناها عامّ و العبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد و حيئذٍ فنقول المراد بالإشتراء الإستبدال و ليس معناه الحقيقي إذ ليست الأيات ممّا يُباع أو يشترى واقعاً كالمتاع و السِّلعة و لكن أهل التّوراة و الإنجيل لمّا غيّروا الأيات أو فسّروها بآراءهم و أخذوا الثّمن من الظَّلمة يقال: أنّهم **اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**.

و هذه السيّرة الخبيثة بعد رسول اللّه كانت مستمرّة الىٰ زماننا هذا.

و قد نقل المؤرّخون أن سمرة بن جندب أعطاه معاوية أربع مائة ألف درهم وطلب منه أن يقول لأهل الشّام أنّ قوله تعالىٰ: **وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّٰهِ**[١] نزلت في مَدح قاتل علّي إبن أبي طالب لأنّه بَقتله يقتل لا محالة فهو ممّن يشري نفسه إبتغاء مرضات اللّه حيث أراح النّاس من علّي و قتل به.

أليسَ هذا من مصاديق قوله إشتروا بآيات اللّه ثمناً قليلاً.

و من المعلوم أنّ الثّمن الّذي يأخذونه ليس قليلاً في حدّ نفسه و لكنّه قليل بالنسّبة الى الذّنب العظيم و هو الإفتراء علىٰ اللّه.

١- البقرة = ٢٠٧

و هكذا من قال أو يقول أنّ المراد بأولي الأمر من بيده زمام الأمور في كلّ زمانٍ بعد رسول اللّه و أنمّا قالوا ذلك لأجل الحكام و المناصب في عصر الخلفاء فحكموا بصّحة خلافتهم على أساس القرآن و أنّهم خلفاء اللّه و خلفاء الرّسول و أولوا الأمر في كتاب اللّه فمن خالفهم يقتل لأنّه خالف اللّه و رسوله أليس هذا من مصاديق الآية.

و هكذا من قال بأنّ آية التّطهير لا تختّص بأصحاب الكساء بل تعمّ جميع أقرباء الرّسول و زوجاته لصدق أهل البيت عليهم فعائشة و حفصة و سائر زوجاته و أقرباءه كلّهم داخلون فيها و هكذا.

و الحاصل أنّ جعل الأيات وسيلة الىٰ النّيل بالحطام الدّنيوية و تفسيرها علىٰ مذاق المخالف لأخذ الثّمن أو التّقرب الى الظّلمة أمرٌ ذائعٌ شائع في جميع الأمم و قليل من عبادي الشّكور.

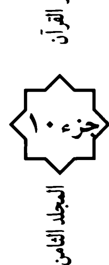
لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ.

قد ظهر معنى الآية عند قوله: **كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً** (١) فلا نحتاج الى الإعادة.

أن قلت اليس هذا من التّكرار.

قلت اللّفظ مكرّرٌ و الإعتبار متفاوت و تكرار اللّفظ بإعتبار المعنىٰ و بعبارةٍ أخرى تكرار اللّفظ لأجل المناسبات و الإعتبارات المختلفة لا إشكال فيه بل هو من المحسّنات و التّأكيد و المقام من هذا القبيل فأنّ الآية السّابقة نزلت بعد قوله: **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ** ألخ.

و هذه الآية نزلت بعد قوله: **اَشْتَرَوْا بِاٰيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** و لذلك قال في آخر تلك الآية **وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** وقال في آخر هذه الأية **أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ** و ذلك لأنّ الإعتداء هو التّجاوز عن الحّد و الفسق هو الخروج من الشّئ و الفرق بينهما واضح.



١- التّوبة =٨

فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَ اٰتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْاٰيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و ممّا ذكرنا يظهر وجه التّكرار في هذه الآية أيضاً و ذلك لأنّه تعالىٰ قال في الآية السابقة **فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ**(١) الىٰ قوله **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَ اٰتَوُا الزَّكَوٰةَ** و هكذا قال في هذه الآية و الفرق بين المقامين هو أنّه جعل الغاية هناك تخلية سبيلهم و أمّا في المقام قال: **فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ** و الفرق واضح إذا عرفت هذا فنقول شرط لهؤلاء المشركين بأنّهم إن تابوا و رجعوا عمّا هم عليه من الشّرك الى طاعة اللّه و الإعتراف بوحدانيّته و الإقرار بالنّبي و أقاموا الصّلاة الخ فأنّهم يكونون إخوان المؤمنين في الدّين و الإيمان و ذلك لأنّهم يصيرون بذلك من المؤمنين و قد قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**(٢) و في قوله: **وَ نُفَصِّلُ الْاٰيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** إشارة الىٰ أنّه لا يتأمّل تفصيل الأيات إلاّ من كان من أهل العلم و الفهم دون الجهّال الّذين لا يعلمون عن اللّه.

وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

لمّا وصفهم اللّه تعالى في الآية السّابقة بأنّهم إخوانكم في الدّين بشرط التّوبة عن الشّرك و إقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة، علّق الأخوّة في هذه الآية علىٰ الشّرط ضمناً أي الأخوّة بينكم و بينهم ثابتة إذا كانوا مستمرين على التّوحيد و النبّوة و إقامة الصّلاة الخ... .

فأن نكثوا و نقضوا إيمانهم و رجعوا الى الشّرك الّذي كانوا فيه من بعد عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر أنّهم لا إيمان لهم و خصّ الأئمّة

١- التوبة ٥=
٢- الحجرات = ١٠

بالذّكر لأنّهم يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر فالواجب قطع مادّة الفساد و يظهر من الآية أنّه لا يجوز تأمينه بل يجب قتله و ذلك لأنّ النّاكث لا إيمان له واقعاً و لأجل ذلك قاتل أمير المؤمنين مع أصحاب الجمل و قتلهم و إستئصلهم لأنّهم نكثوا عهده و نقضوا بيعته و لمّا قتل الزُّبير و طلحة وضعت الحرب أوزارها فلم يأمر أمير المؤمنين بقتل أتباع الزُّبير و طلحة و عائشة و ذلك لأنّ ذنبهم كان جهلهم و أنّما الذّنب في الحقيقة على الرؤوساء الّذين يريدون النّيل الى مقاصدهم بسبب الجهّال و العوام كالأنعام و ذلك داءٌ لا دواء له و يؤيّده ما ذهب اليه بعض المفسّرين من أنّه من أقدم على نكث العهد و الطّعن في الدّين صار رأساً في الكفر فهو من أئمة الكفر.

و أصرح منه ما قاله إبن عطيّة حيث قال لا يعني بها معيّن و أنّما دفع الأمر بقتال أئمة النّاكثين العهود من الكفرة الى يوم القيامة دون تعيين.

و أنا أقول علق القتال في الآية على النّكث لا على الكفر لأنّه تعالى قال: **وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ** الى أن قال فقاتلوا أئمة الكفر و بعبارةٍ أخرىٰ القتال مشروط بالنّكث و هو الشّرط ومقتضىٰ القاعدة هو تحقّق المشروط بعد تَحقُّق الشَّرط و عليه فإذا وُجد الشَّرط وُجد المَشروط.

أن قُلت الشّرط أعني به نكث العَهد مُقيّدٌ بأن صَدر من الكافر يعني أنّ الكفّار إذا نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم يجب القتال.

قُلت الشّرط في الآية مُطلق لم يُقيّد بشيءٍ ومجرّد نزول الآية في حقّ الكفّار النّاكثين للعَهد لَو ثَبَت، لا ينافي إطلاق الآية وشمولها لغيرهم و ذلك لأنّ خُصوص المورد لا ينافي عموم المعنىٰ هذا كلّه إذا أردنا من الكُفر في قوله: **أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ** الكفر المُصطَلح بمعنىٰ رجوع الناكث الىٰ كُفره الأصلي.

و أمّا إذا قلنا أنّ المراد بالكُفر في الآية هو الكُفر بترك ما أمَر اللّه فالأمر واضح إذ لا فرق فيه بين الكافر و المسلم و توضيح ذلك أنّ الكفر في كتاب اللّه على خمسة أوجه:

أحدها: إنكار الرَّب و هو قول من يقول لا ربّ و لا جنَّة و لا نار و هو قول صنفين من الزَّنادقة يقال لهم الدّهرية و هم الّذين يقولون و ما يهلكنا إلاّ الدّهر.

الثّاني: أن يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حقّ كما حكى اللّه تعالى عنهم.

بقوله: **وَ جَحَدُوا بِهَا وَ ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا**[١].

وقال للّه تعالىٰ: **وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**[٢]. فهذا تفسير وجهي الجحود.

الوجه الثّالث: من الكفر هو كفر النِّعم و ذلك قوله تعالىٰ يحكي عن سليمان: **هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ**[٣].

الوجه الرّابع: منها ترك ما أمر اللّه عزّ وجلّ كما قال تعالىٰ: **وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ** الى قوله **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**[٤].

الوجه الخامس: كفر البراءة و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ يحكي قول إبراهيم: **كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ**[٥].

فهذه هي أقسام الكفر إذا عرفت هذا فنقول.

قوله: **فَقَاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ** ليس المراد بالكفر إنكار الرّب إذا لا دليل في الآية عليه بل الآية دلّت على أنّهم نكثوا أيمانهم فقط اللّهم إلاّ أن يقال أنّهم كانوا كافرين قبل العهد و بعده ولم يؤمنوا باللّه أصلاً ففي هذه السُّورة يراد بالكفر كفر الرّب و لكن ينافيه قوله قبل هذه الآية **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ**

١- النمل = ١٤
٢- البقرة =٨٩
٣- النّمل =٤٠
٤- البقرة =٨٣ الى ٨٥
٥- الممتحنة =٤

وَ ءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وجه التّنافي ظاهر فأنّ التّائب الّذي يقيم الصّلاة لا يكون كافراً بالكفر بهذا المعنى أي كفر الرَّب.

أمّا القسم الثّاني: منهما و هو الإنكار مع العلم بكون المنكر حقّ فهو محتمل لأنّ النّاكث كذلك.

أمّا القسم الثّالث: و هو كفر النِّعم فهو أيضاً محتمل.

أمّا القسم الرّابع: و هو ترك ما أمر اللّه به فهو من أقوى الوجوه المحتملة في الآية.

أمّا الخامس: و هو كفر البراءة فهو بعيد و أن كان محتملاً، و حيث أنّ اللّه تعالى قال: فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ.

ثمّ قال: وَ إِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم يظهر لنا أنّ النّكث تعلّق بهم أي أنّ التّائبين المقيمين للصّلاة الخ.

إن نكثوا بعد أيمانهم من بعد عهدهم فقاتلوهم و عليه فالآية لا تختص بالمشركين بل لا يبعد أن تكون منصرفة عنهم لقوله تعالىٰ: فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ فمن تاب و أقام الصّلاة لا يكون مشركاً اللّهم إلاّ أن يقال بأنّ الواو في قوله: وَ إِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم ليس للعطف على الآية السّابقة بل هو مستأنفة و إذا كان كذلك فالأمر أوضح إذ عليه نقول بأنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي و هو أنّ جزاء النّاكث القتل مسلماً كان أو كافراً و هذا المعنى ليس ببعيدٍ فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الكافر يطلق على النّاكث للعهد على ما مرَّ الكلام فيه لأنّه ترك ما أمره اللّه به من الوفاء بالعهد و الميثاق و أن كان مسلماً ظاهراً و ذلك مثل الزُّبير و طلحة و عائشة حيث نقضوا عهدهم و بيعتهم فيشملهم قوله تعالىٰ: وَ إِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم و لأجل هذا إستدلّ أمير المؤمنين عليه‌السلام علىٰ مشروعيّة قتالهم بهذه الآية ثمّ حلف حين قرأها أنّه ما قوتل عليها منذ نزلت حتّىٰ اليوم، فقوله عليه‌السلام حتّىٰ اليوم أدلّ دليلٍ علىٰ ما قلناه روي أنّ الأشتر دخل علىٰ عائشة فقالت له أو ما سمعت قول النّبي أنّ المسلم لا يقتل إلاّ عن كفرٍ

بعد إيمانٍ أو زنىٰ بعد إحصانٍ أو قتل النّفس الّتي حرَّم اللّه قتلها فقال الأشتر لها علىٰ أحد الثّلاثة قاتلناه ثمّ أنشد:

أعائش لولا أنّني كُنت طاوياً ثلاثاً لألفيتَ إبن أختك هالِكاً
عَشية يَدعوا والرّجال تجوزه بأضعف صَوتٍ أقتلوني ومالِكاً

و عن تفسير علّي بن إبراهيم، و أمّا قوله: **وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ** فأنّها نزلت في أصحاب الجمل.

و قال أمير المؤمنين عليه‌السلام يوم الجمل ما قاتلت هذه الفئة النّاكثة إلاّ بآيةٍ من كتاب اللّه يقول اللّه: **وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ.**

و عن قرب الأسناد لِلحميري بأسناده عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد اللّه يقول دخل علّي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة و الزُّبير فقلت لهم، كانا من أئمة الكفر، أنّ علّياً يوم البصرة لمّا صفّ الخيول قال لأصحابه لا تعجلوا علىٰ القوم حتّىٰ أعذر فيما بيني و بين اللّه عزّ وجلّ و بينهم فقام اليهم فقال يا أهل البصرة هل تجدون علّي جوراً في حكم اللّه قالوا لا قال عليه‌السلام مخيفاً في قسم قالوا لا قال عليه‌السلام فرغبت في دنيا أخذتها لىٰ ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علّي فنكثتم بيعتي قالوا لا، قال عليه‌السلام فأقمت فيكم الحدود و عطلتّها عن غيركم قالوا لا قال عليه‌السلام فما بال بيعتي تنكث و بيعة غيري لا تنكث أنّي ضربت الأمر أنفه و عينه فلم أجد إلاّ الكفر أو السَّيف ثمّ ثنى علىٰ أصحابه فقال أنّ اللّه تبارك و تعالى يقول في كتابه: **وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لآ أَيْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ**

فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام و الّذي فلق الحبّة و بريئ النّسمة و أصطفىٰ محمّداً بالنُّبوة أنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت إنتهىٰ.

وعن آمالي الشّيخ بأسناده الىٰ أبي عثمان البجلي مؤذّن بني أقصى قال بكير أذّن لنا أربعين سنة قال سمعت عليّاً عليه السلام يقول: وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ثمّ حلف عليه السلام حين قرأها أنّه ما قوتل أهلها منذ نزلت حتّىٰ اليوم قال بكير فسئلت عنها أبا جعفر عليه السلام فقال صدق الشّيخ هكذا قال عليٌّ عليه السلام هكذا كان إنتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن أبي الطّفيل قال: سمعت عليّاً يوم الجمل و هو يحضّ النّاس على قتالهم يقول و اللّه ما رمي أهل هذه الآية بكنانة قبل اليوم قاتلوا أئمّة الكفر أنّهم لا إيمان لهم لعّلهم ينتهون فقلت لأبي الطُّفيل ما الكنانة قال السَّهم يكون موضع الحديد فيه عظم تسميّه بعض العرب الكنانة.

و عن الحسن البصري قال: خطبنا علّي بن أبي طالب علىٰ هذا المنبر و ذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة و الزّبير و عائشة صعد المنبر فحمد اللّه وأثنىٰ عليه و صلّى علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال (يا أيّها النّاس ما قاتلت هؤلاء إلاّ بآيةٍ تركتها في كتاب اللّه أنّ اللّه يقول: وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لآ أَيْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أما واللّه لقد عهد إلّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

و قال يا علّي لَتقاتِّلن الفِئَة الباغِيَة والفِئَة النّاكِثة والفِئَة المارِقَة) إنتهىٰ.

و عن أبي عثمان مولى بني أقصى قال: سمعت عليّاً يقول (عذرني اللّه من طلحة و الزّبير بايعاني طائعين غير مكرهين ثمّ نكثا بيعتي من غير حدثٍ أحدثته و اللّه ما قوتل أهل هذه الآية منذ نزلت حتّىٰ قاتلتهم وَ إِنْ نَكَثُوٓا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ[1].

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ١٨٨ الىٰ ص ١٩٠

أقول الأحاديث بهذه المعنىٰ كثيرة في كتب الأخبار و فيما مقلناه كفاية لمن كان له قلب، و يظهر منها أنّ الآية و إن نزلت في عهد رسول اللّه إلاّ أنّ الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم ما قاتل المشركين بهذه الآية و يؤيّده أن القتال معلّق علىٰ وجود شرطه و هو النكّث وليس في الآية ما يدلّ عليه و بعبارةٍ أخرىٰ الآية لا تدلّ على أنّ النّكث و نقض العهد وقع من المشركين بل دلّت علىٰ أنّ النّكث أن وقع فحكمه كذا.

و حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام و اللّه ما قوتل على هذه الآية منذ نزلت حتّى قاتلتهم فلا يبقى شكّ في صدق ما إدَّعيناه و محصّل الكلام هو أنّ القتال إمّا على التّنزيل و هو مختّص بالرّسول و أمّا على التّأويل و هو مختّص بالوَّصي و حيث لم يثبت القتال على الأوّل فالثّاني ثابت قطعاً في حرب الجمل فالمراد بأئمّة الكفر هو طلحة و الزّبير و عائشة و من حذى حذوهم من رؤوساءهم و هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و لا سيّما تصريح أمير المؤمنين عليه السلام بذلك و هو في رأس العترة التّي جعلهم اللّه عدلاً للكتاب **فقال إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعِترتي أهل بيتي** الخبر.

و العجب أنّ مفّسري العامّة لم يتَّعرضوا في تفاسيرهم لذلك أصلاً و الوجه فيه أنّهم يقولون بأنّ الزّبير و طلحة من العشرة المبشّرة على لسان النّبي بقول أبي هريرة و أمثاله و اذا كان كذلك فكيف يقال بأنّهم أئمّة الكفر.

و لم يعلموا أنّ الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم لم يقل ذلك أصلاً و لكنّ المنافقين نسبوه اليه صلى الله عليه و آله و سلم فالحديث في زمرة المجعولات الى رسول اللّه و نظائره كثيرة هذا مضافاً الى أن العقل السليم يكذّبه اذ كيف يجوز له صلى الله عليه و آله و سلم عقلاً أن يقول ذلك وهو يوجب التَّجريْ في الإعتقاد و العمل و للبحث فيه موضع أخر.

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوٓا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ألا، كلمة، موضوعة للتّحضيض علىٰ الفعل و أصلها لا، دخلت عليها ألف الإستفهام فصارت تحضيضاً كما أنّها دخلت على، ليس، صارت تقريراً، و ألا، موافقةٍ للتحضيض بالإستقبال و، أليس، أنّما هي للحال، فاذا قيل، ألا تقاتلون، كان معناه التّحضيض علىٰ قتالهم كما في الآية واذا قيل: **أَلَا تُقَاتِلُونَ** كان تأنيباً، فقوله: **أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوٓا أَيْمَانَهُمْ** فيه حضٌّ وتحريض من اللّه تعالىٰ للمؤمنين على قتال النّاكثين الّذين نكثوا عهدهم و همُّوا، أي قصدوا بإخراج الرّسول من مكّة **وَ هُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**.

فقال الطّبري بدءوهم بخروجهم الى بدر لقتالهم.

و قال الزّجاج أي بدءوا حلفاء النّبي بالقتال من خزاعة بعد عهد الحديبية و من المعلوم أنّ البادئ أظلم و اذا كان كذلك فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله تصدمونهم بالشّر كما صدموكم و نجّهم بترك مقاتلتهم و حضّهم عليها ثمّ وصفهم بما يوجب الحضّ عليها و تقّرر أنّ من كان مثل صفاتهم من نكث العهود و إخراج الرّسول و البدء بالقتال من غير موجبٍ حقيقٌ بأن لا تترك مصادقته و أن يوّبخ من فرَّط فيها.

قال إبن عطية، أوّل مرّة قيل يريد أفعالهم بمكّة بالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم و بالمؤمنين **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** الإستفهام قيل أنّه إنكاريٌ أي لا تخشوهم و قيل للتّوبيخ، و قيل، أتخشونهم تقرير للخشية منهم و توبيخٌ عليها، و الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و الخشية نوع من الخوف و ذلك لأنّ الخوف عبارة عن تألّم القَلب و إحتراقه بسبب توقعٍ مكروهٍ في الإستقبال مشكوك الوقوع ثمّ أنّه على نوعين:

مذمومٌ و هو الذّي لم يكن من اللّه و لا من معاصي العبد و جناياته.

و ممدوحٌ و هو الذّي كان من اللّه تعالى، و من عظمته و كبرياءه و هذا هو المسّمى بالخشية والرَّهبة في عرف أرباب القلوب.

و أمّا اذا كان من جناية العبد بإقترانه المعاصي فلا يسمّىٰ بالخشية كان من الخوف من اللّه سبحانه و عظمته موقوفاً على المعرفة به فمن لا يعرف اللّه لا يخشى منه و لأجل ذلك قالوا في تعريفها.

الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يخشى منه و أن شئت قلت الخوف عامّ و الخشية تختّص بالعلماء و الى هٰذه الدقيقة أشار اللّه تعالى بقوله:

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللّٰهَ مِنْ عِبادِهِ ٱلْعُلَمَاۤ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰىٓ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشٰى**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ ٱخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**(٦) و الأيات في الباب كثيرة.

و أنّما قال تعالىٰ: **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ** ولم يقل أتخافونهم فاللّه أحقّ أن تخافوه، لأنّهم كانوا عالمين بحال المشركين و أنّهم لا يقدرون على شيءٍ كما كانوا عالمين بأنّ أزمّة الأمور بيد اللّه و هو على كلّ شيءٍ قدير و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا وجه للخشية منهم دونه بل ينبغي أن يكون الأمر بالعكس و لذلك علّق الحكم على إيمانهم فقال أن كنتم مؤمنين و الإيمان لا يكون إلاّ عن علمٍ و معرفة.

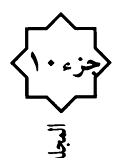
١- فاطر =٢٨
٢- النّازعات =٢٦
٣- الأعلىٰ =١٠
٤- سورة فاطر أية ١٨
٥- الزّمر =٢٣
٦- البقرة =١٥٠

و قيل أن كنتم مصدّقين بثوابه و عقابه و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه لأنّ التّصديق عبارة عن العلم بإذعان النّسبة و بعد ذلك أمرهم اللّه بقتال الكفّار فقال:

قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ ٱللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أمر اللّه المؤمنين بقتال هؤلاء النّاقضين للعهد البادئين بقتال حلفاء النّبي من خزاعة و وعدهم بأن يعذّب اللّه النّاقضين للعهد بأيديهم بالقتل و الأسر و يخزيهم بالذلّة و المقهوريّة و ينصر المؤمنين عليهم بالظفر و الغلبة و يشف صدور قوم مؤمنين و يذهب غيظ قلوبهم بسبب هذه الذِّلة و الإنكسار و هذه الأمور كلّها لا يحصل إلاّ بالقتال و الاستقامة في طريق الحقّ فمن جلس في بيته ولم يقاتل صار ذليلاً قهراً و لأجل ذلك صار الجهاد واجباً لازماً.

و في قوله: **يَتُوبُ ٱللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ** إشارة الىٰ أنّ مَن تاب من هؤلاء النّاقضين و رجع الىٰ ما كان عليه من العهد فاللّه يتوب عليه و اللّه عليمٌ حكيمٌ، أي عالمٌ بجميع الأمور و حكيمٌ أىّ يضع الأشياء في مواضعها و فيها دلالة على صحّة نبوّة النّبي لأنّه تعالى وعده النَّصر فكان الأمر على ما قال و من المعلوم أنّ اللّه لا يخلف الميعاد **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ حَدِيثاً**[١].



أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّٰا يَعْلَمِ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ لاٰ رَسُولِهِ وَ لاَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ ٱللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ

قال الزّمخشري، أم، في قوله، أم حسبتم، منقطعة و معنى الهمزة فيها التَّوبيخ على وجود الحسبان و المعنىٰ أنّكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتّىٰ

١- النساء= ٨٧

يتَّبين الخلّص منكم و هم الّذين جاهدوا في سبيل اللّه لوجه اللّه ولم يتَّخذوا وليجةً أي بطانة من الّذين يضّادون رسول اللّه صلّی الله علیه و آله وسلّم و المؤمنين انتهىٰ.

و قال الشّيخ في التّبيان، أم حسبتم من الإستفهام الّذي يتوسّط الكلام فيجعل بأم، ليفرق بينه و بين الإستفهام المبتدأ الذّي لم يتَّصل بكلامٍ ولو كان المراد بالإبتداء لكان إمّا بالألف و بهل، كقوله: **هَل أتىٰ علىٰ الإنسان** و المعنىٰ ظننتم أن تتركوا و الظّن و الحسبان نظائر انتهىٰ.

و كيف كان فالمعنى حسبتم أو ظننتم أن تتركوا:

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَآءً**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **اَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ**[4].

و محصّل الكلام فيها أنّ الإنسان المكّلف لابدّ له من الإختبار والإمتحان في الدّنيا:

قال اللّه تعالىٰ: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ**[5].

و أيضاً أنّ الإنسان لا يترك بحاله في أقواله و أفعاله بمعنىٰ عدم ترّتب الجزاء عليها كما قال تعالىٰ: **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**[6] وهذه سيرة مستّمرة من بدو خلق الإنسان الىٰ يوم القيامة و الوجه في ذلك أنّ الإنسان قبل

١- العنكبوت =٤
٢- الجاثية =٢١
٣- البقرة =٢١٤
٤- أل عمران =١٤٢
٥- العنكبوت =٢
٦- القيامة =٣٦

لِمتحان لا يعرف نفسه و لذلك كثيراً ما يدّعي ما ليس له و لذلك نقول أنّ الإبتلاء و الإمتحان لايزيد على علم اللّه بحال عبده و هو تعالى لم يجعل الإمتحان فيهم لأجل أن يعرفهم لأنّ الخالق لا يخفى عليه شيئ من حالات مخلوقه.

و أنّما جعله فيهم لأن يعرف كلّ إنسانٍ قدره و لا يدّعي أكثر منه و هذا ممّا لاكلام فيه و قد سبق منّا البحث فيه مفصّلاً اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ هذه الآية و نظائرها ناظرة الى ذلك الأصل و ذلك لأنّ المؤمنين في عهد الرّسول كانوا يدَّعون الإيمان باللّه و رسوله حقّاً فقال تعالىٰ لهم ليس الأمر كما زعمتموه ظننتم أنّ تتركوا و لا نختبركم بالجهاد مع أعداء الدّين يعني أن صدقتم فيما تدَّعونه فجاهدوا في سبيله و لا تتَّخذوا من دون اللّه و رسوله وليجة أي الكفر و النّفاق و أنّما قال تعالى فيهم ذلك لأنّهم كانوا يتَّخذون بطانة يغشون اليهم أسرار هم و لا نعني بالنّفاق إلاّ هذا و فى الآية دلالة على أنّه لا يجوز أن يتَّخذ من الفساق وليجةً لأنّ في ذلك تأليفاً بالفسق مع أنّ الواجب معاداة الفسّاق و البراءة منهم.

والوليجة كلّ شيئٍ أدخلته في شيئٍ و ليس منه، ففي الآية طعنٌ علىٰ المنافقين الّذين إتَّخذوا الولائج لا سيّما عند فرض القتال و أيضاً يظهر من الآية أنّ الجهاد لابدّ له من الإخلاص خالياً عن النّفاق و الرّياء و التّودد الى الكفّار و في قوله: وَ ٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ إشارة الى أنّ اللّه يعلم ما في قلوبكم خبير بما تضمرونه في أنفسكم فضلاً عن أعمالكم.



مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ

قرأ إبن كثير و أبو عمرو مسجد اللّه على التّوحيد و الباقون على الجمع فمن قرأ علىٰ التّوحيد أراد به المسجد الحرام و به قال الجبائي و من قرأ بالجمع أراد جميع المساجد.

قال بعضهم من قرأ علىٰ التّوحيد يحتمل أن يكون أراد المساجد كلّها لأنّ لفظ الجنس يدّل على القليل و الكثير.

و من قرأ علىٰ الجمع أيضاً يحتمل أن يكون مراده المسجد الحرام لأنّ كلّ موضع منه مسجد يسجد عليه و القراءتان متناسبتان و الأصل في المسجد هو موضع السّجود و فى العرف يعبّر به عن البيت المهيّأ لصلاة الجماعة فيه.

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه ليس لمشرك أن يعمر مسجد اللّه و العمارة أن يجدّد منه ما إسترم من الأبنية **شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ** أي لا يجوز لهم ذلك والحال أنّهم يشهدون علىٰ أنفسهم بالكفر فالمعنىٰ ما إستقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافسين عمارة متّعبدات اللّه مع الكفر باللّه و بعبادته و معنىٰ شاهدين علىٰ أنفسهم بالكفر و هو ظهور كفرهم و أنّهم نصبوا أصنامهم حول البيت و كانوا يطوفون عراة و يقولون لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي و كلّما طافوا بها شوطاً سجدوا لها و قيل هو قولهم لبّيك لا شريك لك.

و قيل قد أقبل المهاجرون و الأنصار على أسارى بدر فعيّروهم بالشّرك فطفق علّي ابن أبي طالب يوبّخ العبّاس بقتال رسول اللّه و قطيعة الرَّحم و أغلظ له في القول فقال العبّاس تذكرون مساوينا و تكتمون محاسننا فقال أو لكم محاسن قالوا نعم و نحن أفضل منكم أجراً أنّا لنعمر مساجد اللّه (المسجد الحرام) ونحجب الكعبة و نسقي الحجيج و نفّك العاني فنزلت الآية ذكره صاحب الكشّاف.

و عليه فقوله تعالىٰ بعد ذلك **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** إشارة الى أنّ أعمالهم لا تنفع لهم في حال كفرهم و أنّما هي تنفع اذا صدرت عن الإيمان و الخلوص و ذلك لأنّ الكفر يسترها و يحبطها بالكليّة فلا جرم هم في النّار.

أقول الذّي يظهر لنا من الآية هو أنّ المسجد الحرام كان في أيدي المشركين قبل الإسلام فلا محالة كان يعتمر المسجد و البيت أيضاً بيد المشركين و لمّا ظهر الإسلام أمر اللّه رسوله و المؤمنين أن يمنعوهم عن تعمير المسجد بل عن الدّخول فيه و هم على كفرهم لنجاستهم:

قال الّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذاٰ**(١).

ثمّ أشار الّله تعالى الى من يصلح لتعمير المسجد فقال:

إِنَّمٰا يَعْمُرُ مَسٰاجِدَ ٱللّٰهِ مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ أَقٰامَ ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَى ٱلزَّكٰوةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللّٰهَ فَعَسٰىٓ أُولٰٓئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ

كلمة، أنّما، تفيد الحصر أي لا يكون تعمير المساجد إلاّ لمن كان واجداً لهذه الشُّروط خمسة:

أحدها: الإيمان باللّه و هو يتّحقق بالإعتقاد القلبي و الإقرار اللّساني و العمل بالأركان علىٰ مسلك الحقّ.

ثانيها: الإيمان باليوم الأخر و هو القيامة.

ثالثها: إقامة الصّلاة بشرائطها.

رابعها: إعطاء الزّكاة.

خامسها: الخشية من اللّه ثمّ فرّع على الشّروط المقرّرة إصابة الحقّ فقال: **فَعَسٰىٓ أُولٰٓئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ** فالإهتداء متّفرعٌ على وجُود الشّرائط فبإنتفائها و إنتفاء بعضها لا يحصل الإهتداء و هذه الآية عامّة لجميع المساجد وليس المراد من الحصر عدم قدرة الكافر على التّعمير بل المراد به أنّ الكافر اذا فعل ذلك فهو كالعدم.



١- التّوبة =٢٨

وإعلم أنّ تعمير المسجد يتّصور على نوعين:

أحدهما: تعمير البناء في الظّاهر.

ثانيهما: تعمير المسجد بإقامة الصّلاة فيها.

أمّا الأوّل: فلا خفاء فيه فأنّ بناء المسجد أو تعميره من علائم الإيمان إلاّ أنّ التّعمير لا يختّص به فأنّا نرى في زماننا هذا مساجد كثيرة مزّينة بأنواع الزّينة والتَّجمل إلاّ أنّها خالية عن المصّلي مع أنّه قد ورد لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد (في مسجده) و قد ورد في الباب أحاديث كثيرة.

فقد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: شكت المساجد الىٰ اللّه تعالىٰ الّذين لا شهدونها من جيرآنها فأوحى اللّه اليها وعزّتي و جلالي لا قبلت لهم صلاة واحدة ولا أظهّرنَّ لهم في النّاس عدالة و لا نالتهم رحمتي ولا جاوروني في جنَّتي انتهىٰ[1].

و فيه أيضاً عن جعفر عن أبيه أنّ علياً كان يقول ليس لجار المسجد صلاة اذا لم يشهد المكتوبة في المسجد اذا كان فارغاً صحيحاً انتهىٰ[2].

و بأسناده عن علّي عليه السلام قال: من إختلف الىٰ المساجد (المسجد) أصاب أحدى الثّمانٍ، أخاً مستفاداً في اللّه، أو علماً مستطرفاً، أو أيةً محكمةً، أو يسمع كلمةً تدلّ على الهدى (هدىً) أو رحمةً منتّظرةً، أو كلمةً تّرده عن رديئ، أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً انتهىٰ[3].

فهذه الأحاديث ناظرة الى تعمير المسجد واقعاً و للبحث فيه مقام أخر يأتي إن شاء اللّه تعالىٰ.

■

١- وسائل الشّيعة ج ٣ كتاب الصّلاة ص ٤٧٩

٢- ص ٤٧٩

٣- ص ٤٨٠

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَ عِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهُٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا اٰبَآءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْاِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ اٰبَآؤُكُمْ وَ أَبْنَآؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ ٱللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَ ٱللّٰهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

◀ اللّغة

سِقَايَة بكسر السّين مصدر يقال سَقىٰ وسقايةً و هى ألة تتّخذ لسقي الماء.

ٱقْتَرَفْتُمُوهَا، الإقتراف مصدر قولك إقترف إقترافاً و معناه الإكتساب و الإقتطاع و الاقتراف في الأصل إقتطاع الشّيء عن مكانه الىٰ غيره.

فَتَرَبَّصُوا أمرٌ من تربّص و التّربص التّثبت في الشّئ حقّ يجيء وقته كالتّنظر و التّوقف.

◀ الإعراب

سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ الجمهور على سقاية بالياء، و قرأ سقاة الحاجّ و عمّار المسجد الحرام ،على أنّه جمع ساق و عامر لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ مستأنف و يجوز أن يكون حالاً من المفعول الأوّل و الثّاني و يكون التّقدير سوّيتم بينهم في حال تفاوتهم.

◀ التّفسير

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَ عِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ

قيل نزلت الآية في عليٍّ عليه السلام و العبّاس.

و روىٰ الطّبري بأسناده عن إبن عبّاس أنّها نزلت في العبّاس حين قال يوم بدر إن سبقتمونا الى الإسلام و الهجرة لم تسبقونا الى سقاية الحاجّ و سدنة البيت.

و روى أيضاً بأسناده عن الحسن أنّها نزلت في عليٍّ عليه السلام و العبّاس و عثمان و شيبة و قال الشّعبي نزلت في علّيٍ و العبّاس و به قال إبن وهب و السُّدي.

و قال القرطبي ظاهر هذه الآية أنّها مبطلة قول من إفتخر من المشركين بسقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كما ذكره السُّدي قال إفتخر عبّاس بالسّقاية و شيبة بالعمارة و علّي عليه السلام بالإسلام و الجهاد فصَدق اللّه علياً و كذّبهما و أخبر أنّ العمارة لا تكون بالكفر و أنّما تكون بالإيمان و العبادة و أداء الطّاعة و هذا بيّنٌ لا غبار عليه انتهىٰ.

و قال الرّازي، قيل أنّ علياً قال للعبّاس بعد إسلامه يا عمّي ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول اللّه فقال ألست في أفضل من الهجرة أسقي حاجّ بيت اللّه و أعمر المسجد الحرام فلمّا نزلت هذه الآية قال ما أراني إلاّ تارك سقايتنا فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أقيموا على سقايتكم فأنّ لكم فيها خيراً.

و قيل إفتخر طلحة بن شيبة و العبّاس و علّي عليه السلام فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو أردت بتُّ فيه و قال العبّاس أنا صاحب السّقاية و القائم عليها و قال علّي عليه السلام أنا صاحب الجهاد فأنزل اللّه تعالى هذه الآية انتهى كلامه.

أقول بعد التَّفحص في تفاسير العامّة وجدنا أنّهم إتَّفقوا في هذه المسألة و إن نقلوا أقوالاً أخر أيضاً.

و أمّا عندنا فلا كلام لأحدٍ فيه و جميع المفسّرين من الخاصّة قالوا نزلت الآية في علّي و العبّاس حين إفتخر بسقاية الحاجّ فنزلت الآية ففي تفسير علّي إبن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: نزلت في علّي و حمزة و العبّاس و شيبة قال العبّاس أنا أفضل لأنّ سقاية الحاجّ بيدي شيبة أنا أفضل لأنّ حجابة البيت بيدي و قال حمزة أنا أفضل لأنّ عمارة البيت بيدي و قال علّي عليه السلام أنا أفضل فأنّي أمنت قبلكم ثمّ هاجرت و جاهدت فرضوا برسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم حكماً فأنزل اللّه **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ** الى قوله **أَجْرٌ عَظِيمٌ** انتهى.



و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و قد ذكر الحاكم الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل لقواعد التَّفضيل كثيراً من الأخبار الواردة بطرق العامّة في الباب أن شئت الإطلاع عليها فعليك بمراجعة الكتاب و من جملة ما نقله فيه.

بأسناده عن أبي بريدة عن أبيه، قال: بينما شيبة و العبّاس يتفاخران اذ مرَّ بهما عليّ بن أبي طالب فقال لهما فيماذا تفاخران فقال العبّاس يا علّي لَقد أُوتيتا من الفضل ما لم يؤت أحد فقال عليه السلام وما أوتيت يا عبّاس قال أوتيت سقاية الحاجّ فقال عليه السلام ما تقول أنت يا شيبة قال قد أعطيت عمارة المسجد الحرام فقال لهما عليٌّ عليه السلام إستحييت لكما يا شيخان فقد أوتيت على صغري ما لم توتيتما فقالا وما أوتيت يا علّي قال عليه السلام ضربت خراطيمكما بالسّيف حتّىٰ أمنتما باللّه و رسوله فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النّبي ما وراءك يا عبّاس فقال أما ترى الى ما إستقبلني به هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم و من ذاك، فقال علّي ابن أبي طالب فقال صلى الله عليه وآله وسلم أدعوا لي علّياً فدعى فقال رسول اللّه يا علّي ما الذّي حملك على ما إستقبلت به عمّك فقال يا رسول اللّه صدمته بالحقّ إن غلظت له أنفاً فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض اذ نزل جبرئيل فقال يا محمّد أنّ ربّك يقرأوك السّلام و يقول أتل عليهم هذه الآية أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ ٱلْحَآجِّ وَ عِمارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرامِ كَمَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ جاهَدَ في سَبيلِ ٱللّٰهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللّٰهِ فقال العبّاس أنّا قد رضينا ثلاث مرّات انتهىٰ[1].

و قد نقل المجلسي قدس سره في المجلّد التّاسع من بحار الأنوار أحاديث كثيرة من العامّة و الخاصّة و قال في أخرها نزولها في أمير المؤمنين ممّا أجمع عليه عامّة المفسّرين من المتّقدمين و متّعصبي المتّأخرين كالبيضاوي و الزّمخشري و الرّازي و غيرهم و سيأتي الأخبار في باب شجاعته و يدلّ على أنّ مناط الفضل و الفخر الإيمان و الجهاد و لا ريب في سبقه فيهما على سائر الصّحابة

۱- شواهد التّنزيل ص ۲۵۰

كما سيأتي تفصيلهما فهو أولى بالخلافة و الإمامة لقبح تفضيل المفضول كما يشهد به الباب ذوي العقول انتهى كلامه رفع مقامه.

اذا عرفت نزول الآية و أنّها فيمن نزلت و فى أيّ شئ نزلت فلنرجع الى تفسير الآية فنقول قوله: **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَ عِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** الإستفهام للإنكار أي ليس الأمر كذلك و لذلك قال تعالىٰ: **(لا يستوُن كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله)** أي تقاسون هذا بذاك بل تفتخرون بالسّقاية و العمارة (لا يستون) بل بينهما بونٌ بعيد **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** يظهر من هذا الكلام في آخر الآية أنّ من قاس سقاية الحّاج و عمارة المسجد الحرام بالإيمان باللّه و اليوم الآخر و الجهاد في سبيل اللّه فهو ظالم.

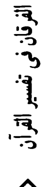
أمّا لأنّه أنكر الحقّ فهو ظالم.

و أمّا أنّ سقاية الحّاج و عمارة المسجد من الكافر و المشرك ليس على ما ينبغي لقوله تعالىٰ: **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**(١) و حيث أن الكفر من أعظم الذّنوب فصدور الفعل الّذي يشترط فيه الإيمان.

منه أيضاً كفرٌ و ظلمٌ لأنّه وضع الشّئ في غير محلّه و لا نعني بالظّلم إلاّ هذا. و في قوله: **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** إشارة الى أنّ الكافر المعاند للحقّ بعد تماميّة الحّجة إذا بقى على كفره فأنّ اللّه تعالى يكله الى نفسه هو المراد بقوله: **لَا يَهْدِى** و إلاّ فالهداية بمعنى إرائة الطريق بتوسط الأنبياء ثابتة في حقّ الكّل ثمّ أنّه تعالى أثبت في هذه الآية لأمير المؤمنين.

أوصافاً ثلاثة لا مزيّة لأحدٍ فوقها:

أحدها: الإيمان و هو الأصل في جميع الأعمال كما هو واضح و لا شكّ أنّ امير المؤمنين أوّل من آمن باللّه و رسوله ولم ينكره أحد و من المعلوم أنّ





١- التوبة = ١٨

الفضل لمن سبق و قد تواترت الأخبار و أتّفق أرباب السِّير و أجمع المورخون على أنّ أوّل من آمن من الرّجال أمير المؤمنين و من النّساء خديجة و هذا فضلٌ أيّ فضل و منقبةٌ أيّة منقبة و هذا كان من المشهورات في صدر الإسلام عند الكُل حتّى الأعراب في البوادي فعلى منكره لعنة اللّه.

قال في المناقب أستفاضت الرّواية أنّ أوّل من أسلم علّيٌ ثمّ خديجة ثمّ جعفر ثمّ زيد ثمّ أبوذر ثمّ عمرو بن عنبة السّلمي ثمّ خالد بن سعيد بن العاص ثمّ سمّية أمّ عمّار ثمّ عبيدة بن الحرث ثمّ حمزة ثمّ خبات بن الأرت و هكذا و هذا ممّا لا كلام فيه و كفىٰ في ذلك ما رواه السّدي عن أبي مالك عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: وَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ، أُولَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ[1] سابق هذه الأمّة عليّ بن أبي طالب قال النّطنزي في الخصائص العلويّة بالأسناد عن المأمون عن الرّشيد عن المهدي عن المنصور عن جدّه عن إبن عبّاس قال سمعت عمر بن الخطّاب يقول، قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا علّي أنت أوّل المسلمين إسلاماً و أوّل المؤمنين إيماناً.

و في حديث إبن عبّاس، قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم علّيٌ عليه السلام أوّل من آمن بي و صدّقني، و عن أربعين الخطيب بأسناده عن إبن عبّاس و فضائل أحمد وكشف الثّعلبي بأسنادهم الى عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قالا إنّ النّبي قال أن سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا طرفة عينٍ علّي بن أبي طالب عليه السلام، و صاحبه ياسين و مؤمن آل فرعون فهم الصّديقون و علّيٌ أفضلهم.

و لنكتفي بهذا المقدار من النُّصوص في الباب مع أنّه ليس بالنّسبة الىٰ فضائله إلاّ كقطرة من البحور و قد روي عنه عليه السلام في بعض إحتجاجاته أنه قال:

١- الواقعة = ١٠/١١

صَدّقتُه و جميع النّاس في بهم　　من الضّلالة و الإشراك و النّكد

وقال الحميري:

من فضله أنّه قد كان أوّل من　　صلّى و آمن بالرّحمن إذ كفروا

سنين سبع و أيّام محرّمة　　مع النّبي على خوفٍ و ما شعروا

و أيضاً قال:

من كان وحدّ قبل كلّ موحدٍ　　يدعوا الإله الواحد القَّهار

من كان صلّى القبلتين و قومه　　مثل النّواهق تحمل الأسفارا

و قد روي المخالفون عن عمر بن الخطاب عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال لو وزن إيمان علّي بإيمان أمّتي و في روايةٍ، و إيمان أمّتي لرجّح ايمان علّيٍ على إيمان أمّتي الى يوم القيامة انتهىٰ.

و لنعم ما قال العبدي:

أشهد باللّه لقد قال لنا　　محمّد و القول منه ما خفى

لو أنّ إيمان جميع الخلق ممّن　　سكن الأرض و من حلّ السّماء

يجعل في كفّه ميزانٍ لكي　　يوفي بإيمان علّيٍ ما وفى

و لنختم الكلام في الوصف الأوّل و هو الإيمان فثبت أنّ أمير المؤمنين مضافاً الى سبقه بالإيمان باللّه و رسوله على جميع الأمّة كان إيمانه عليه السلام أثقل من إيمان الجميع و من المعلوم أنّ السبق بالإيمان شئ وكونه أثقل و أحكم من إيمان غيره شئ آخر و لا ملازمة بينهما ولم يجمع بينهما في هذه الأمّة إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام هذا تمام الكلام في الوصف الأوّل و هو قوله كمن آمن باللّه.

و أمّا الوصف الثّاني و هو الإيمان باليوم الآخر فهو من شؤن الإيمان باللّه و لوازمه إذ لا يعقل أن يكون الإنسان كاملاً في إيمانه باللّه و هو لا يؤمن باليوم الآخر و عليه فهو لا يحتاج الىٰ التكلّم فيه كيف و قد قال اللّه تعالى في وصف المتقين في أوائل سورة البقرة:

وَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(١) و الأيات فيه كثيرة.

و أمّا الوصف الثّالث و هو قوله: **وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ**(٢) فهو أيضاً من المسلّمات في حقّه عليه السلام ولم يخالف فيه أحد إلاّ المكابر الّذي لا ينبغي الإلتفات اليه.

فنقول إجتمعت الأمّة و وافق الكتاب و السُّنة إنّ للّه خيرةٌ من خلقه و أنّ خيرته من خلقه هم المتّقون.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقَيٰكُمْ**(٣).

و أنّ خيرته من المتقين المجاهدون:

قال اللّه تعالىٰ: **فَضَّلَ ٱللّٰهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**(٤).

و إنّ خيرته من المجاهدين السّابقون الىٰ الجهاد:

قال اللّه تعالىٰ: **لَايَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَ قَاتَلَ**(٥).

و إنّ خيرته من المجاهدين أكثرهم عملاً في الجهاد و إتّفقت الأمّة على أنّ السّابقين الى الجهاد هم البدريّون و أنّ خيرة البدريّين علّيّ عليه السلام لإجماع المؤمنين على أنّ الفتح في يوم بدر كان بسبب جهاده إذ هو الّذي قتل أبطال المشركين واحداً بعد واحدٍ بشهادة التّاريخ فلم يزل القرآن يصدّق بعضه بعضاً بإجماعهم حتّى دلُّوا بأنّ علّياً خير هذه الأمّة و لنعم ما قيل:

ولو يستوي بالنّهوض الجلوس لمّا بيّن اللّه فضل الجهاد

قال بعض المُحقّقين المعرُوفون بالجهاد، عَلّيٌ، حمزة، جعفر، عبيدة بن الحارث، الزّبير، طلحة، أبو دّجانة، سعد بن أبي وقّاص، البراء بن عازب، سعد بن معاذ و محمّد بن مسلمة.

١- البقرة= ٤
٢- البقرة= ٢١٨
٣- الحجرات = ١٣
٤- النساء = ٩٥
٥- الحديد = ١٠

و قد إجتمعت الأمّة على أنّ هؤلاء لا يقاسوا بعليٍ في شوكته و كثرة جهاده.

فأمّا أبو بكر و عمر فقد تفحصّنا كتب المغازي فما وجدنا لهما فيه أثر ألبتة انتهى. و لنعم ما قال الزّاهي:

أيجعل سيّد الثّقلين شبهاً ... لما يرتضيه له غلاماً
الى من قطّ لم يهزم شجاعاً ... ولم يجعل بقبضته حساماً

و قال آخر:

أيا ناصر المصطفىٰ أحمد ... تعلّمت نصرته من أبيكا
و ناصبت نصّابه عنوةً ... فلعنة ربي على ناصبيكا

و قال آخر:

إذا فاخر العبّاس عمّ المصطفىٰ ... لعلّيٍ المختار صهر محمّدٍ
بعمارة البيت المعظّم شأنه ... و سقاية الحّجاج وسط المسجد
فأتى بها جبريل عن ربّ السّماء ... يقرئ السّلام على النّبي المهتدى
أجعلتم سقي الحجيج وما يرى ... من ظاهر الأستار فوق الجلمد
كالمؤمنين الضّاربي هام العدى ... وسط العجاج بساعدٍ لم يرعدٍ

و قال الأخر:

يا قارئ القرأن مع تأويله ... مع كلّ محمحمةٍ أتت في حالٍ
أعمارة البيت المحرّم مثله ... و سقاية الحجّاج في الأمثال
أم مثلي التّمي أم عدويّهم ... هل كان في حالٍ من الأحوال
لا و الّذي فرض علّي وداده ... ما عندي العلماء كالجهال

و قال الأخر:

وقال جعلتم السّقيا كمن لا ... يزال مجاهداً لا يستونا

و المقصود من ذكر الأشعار بعد الإخبار هو أنّه ما كان عند الأوائل في صدر الإسلام شكّ في أنّ الآية نزلت فيما ذكرناه و أثبتت لأمير المؤمنين عليه السلام فضيلةً

لم يسبقه اليها أحد و أيّة فضيلةً أحسن ممّا نصّ عليه القرأن الكريم و الحمد للّه ربّ العالمين.

اَلَّذينَ اٰمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا في سَبيلِ اللّٰهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ الملاك في الفضيلة هو الإيمان و الجهاد في سبيل اللّه لا سقاية الحاجّ و عمارة المسجد أكّد ما ذكره بهذه الآية و قال: **اَلَّذينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ** ثمّ هاجروا معه من مكّة الى المدينة، ثمّ جاهدوا بعد ذلك في سبيل اللّه بأموالهم و أنفسهم أولئك أعظم درجةً عند اللّه من غيرهم و أولئك هم الفائزون بسعادة الدارين و حلاوة النّشأتين و فى قوله بأموالهم و أنفسهم، إشارة الى أنّ الجهاد في سبيل اللّه لا يختصّ بالسيف و السّلاح بل الجهاد بالأموال في موارده مثل الجهاد بالأنفس من حيث الفضيلة و ذلك مثل جهاد خديجة عليها السلام فأنّها بذلت أموالها في سبيل اللّه كما لا يخفى على أحدٍ فهي تكون من أعظم مصاديق الآية بالنسبة الى الجهاد المالي كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يكون من أعظم مصاديقها في الجهاد بالنّفس.

و أمّا غيرهما من المسلمين الّذين جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فلكلّ واحدٍ منهم شأن و فضيلة على حسب مراتبهم و هذا ظاهر و المخالف معاند بشهادة الأثار.

و الحقّ أنّ هذه الآية أيضاً تنطبق على أمير المؤمنين عليه السلام إنطباقاً لا يساويه أحد من أفراد الأمّة أمّا الإيمان فهو أوّل من أمن باللّه و رسوله إيماناً حقيقياً لا يشوبه شكّ و لا نفاق أصلاً كما إعترف به رسول اللّه في كثير من الأحاديث و كفى في إثبات المدّعى ما قال الرّسول فيه حيث قال لو وزن إيمان علّيٍ بإيمان أمّتي لرّجح إيمانه على إيمان أمّتي الى يوم القيامة.

و أمّا الهجرة و الجهاد بقسميه فهو أيضاً واضح لا نحتاج الى بسط الكلام فيه فاذاً هو أعظم درجةً عند اللّه من جميع أفراد الأمّة و لذلك كان عليه السلام من أظهر مصاديق الفائزين، لأنّه ولد في بيت اللّه الحرام و فاز الى الشّهادة أيضاً في بيت اللّه و لا فوز أعلى من ذلك و أمّا في الأخرة فهو قسيم الجنّة و النّار و ساقي الكوثر و بالجملة لا يقاس به أحد بعد رسول اللّه وليست درجة أعظم و أشرف من هذه الدَّرجة عند اللّه قطعاً فالمطلوب ثابت.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنّاتٍ لَهُمْ فيها نَعيمٌ مُقيمٌ

أي أنّ هؤلاء الّذين مرّ ذكرهم في الآية السّابقة و هم المؤمنون المهاجرون المجاهدون يبشّرهم ربّهم برحمةٍ منه و رضوانٍ و جنّاتٍ، أمّا الرّحمة فهي من اللّه إنعام و إفضال و من الأدَّميين رقّة و تعَّطف و اذا وصف بها الباريء فلا يراد بهما إلاّ الإحسان المجرّد دون الرِّقة و هذا الإحسان المجرّد في الدُّنيا يعمّ المؤمنين و الكافرين لقوله: **وَ رَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**[1].

و أمّا في الأخرة فهو مختّص بالمؤمنين و الى هذا أشار بقوله: **فَسَأَكْتُبُها لِلَّذينَ يَتَّقُونَ**[2] تنبيهاً على أنّ الرّحمة في الدنيّا عامّة و فى الأخرة خاصّة بالمؤمنين اذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **بِرَحْمَةٍ مِنْهُ** إشارة الى هذه الدقيقة، فكلمة، منه إشارة الى أنّ هذه الرّحمة التّي يبشّرهم بها ربّهم ليست من أنعامه التّي وسعت كلّ شيءٍ في الدُّنيا بل هي منه تعالى خاصّة بالمؤمنين في الأخرة.

و أمّا الرِّضوان فعلى ما فسّره الرّاغب في المفردات، الرّضا الكثير، و لمّا كان أعظم الرِّضا رضا اللّه تعالى خصّ لفظ الرّضوان في القرأن بما كان من اللّه تعالىٰ و من المعلوم أنّ الرّضا الكثير أعني به رضى اللّه من أعظم النِّعم و أفضل القرب عند اللّه، و جنّات جمع جنَّة يعني البساتين التّي يحَّفها الشّجر.



۱- الاعرا = ۱۵۶   ۲- الاعراف = ۱۵۶

قال الرّاغب الجنَّة كلّ بستانٍ ذي شجرٍ يستر بأشجاره الارْض و أمّا قوله: **لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ** أي لهؤلاء الموصوفين بالأوصاف المذكورة في الجنّة نعيمٌ مقيمٌ فالنَّعيم لين العيش اللَّذيذ و هو مشتَّق من النّعمة و هي الليّن و أمّا النّعمة بكسر **النّون** فهي منفعة ليستحقّ بها الشّكر، و المقيم الدّائم بخلاف الرّاحل فكأنّه قال المقيم أبداً.

تنبيهٌ

و إعلم أنّه تعالى قال في هذه الآية يبشّرهم ربّهم برحمةٍ منه و رضوانٍ، و لم يقل بالرّحمة و الرِّضوان، و ذلك لأنّ التّنكير يفيد النّوعية بخلاف التّعريف و حيث أنّه تعالى أراد نوعاً خاصّاً من الرّحمة و الرّضوان و لا علم للمخاطب بها نكَّرهما أي يبشّرهم ربّهم برحمةٍ و رضوانٍ لا علم لكم بهما لأنّهما نوعان خاصّان.

ألا ترى أنّك اذا قلت مررت برجلٍ أو رأيت رجلاً بالتّنكير لا يعلم المخاطب من هو و أمّا اذا قلت مررت بالرّجل مثلاً فهو يعلم أنّ **الألف و اللاّم** كناية عن الرّجل المعهُود بين المتّكلم و الخاطب و حيث أنّا لا نعلم من رحمته إلاّ العامّة منها و كذا الرِّضوان فقال تعالى قال أي أنّهما ليسا من سنخ ما تعلمون و هذه نكتته خفيّة دقيقة الدّالة على عظم الرَّحمة و الرّضوان الّذين بشّرهم اللّه بهما.

ثمّ أكَّد ما قال بقوله: **خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ** و الخلود في العرف الدَّوام في الشّيء، و الأبد الزّمان المستقبل من غير أخرٍ كما أنَّ، قطٌّ، للماضي و حاصل هذا الكلام هو أنّ المؤمنين بتلك الصِّفات المبشّرين بالرّحمة و الرّضوان و جنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ، خالدين فيها أبداً أي دائماً أنّ اللّه عنده أجرٌ عظيم أي كبير متضاعف لا تبلغه نعمة غيره من الخلق.

قال بعضهم أنّ الأبد قطعةٌ من الدّهر متتابعة في اللّغة و منه قول الشّاعر:

أهـاج عـليك الشّوق أطـلال ذمـنةٍ   بـناصفةٍ البـردين أو جـانب الهـجل
أتـىٰ أبـدُ مـن دون حـدثان عـهدها   وجــرّت عـليهاكـلّ نـافلةٍ شـمل

و قالت صفية بنت عبد المطّلب:

وخـالجت أبـاد الدُّهـور عـليكم   وأسـماء لم تشـعر بـذلك أيـمُ
فـلو كـان زبـر مشـركاً لعـذرته   ولكـنّ زبـراً يـزعم النّاس مسلم

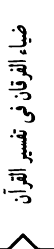
و أمّا الخلود فليس في كلام العرب ما يدلّ على أنه بقاء لا غاية له و أنّما يخبرون به عن البقاء الى مدّةٍ و لأجل هذا قال تعالى خالدين فيها أبداً.

نقل بعض المفسّرين عن إبن عبّاس أنّه قال:

قوله تعالىٰ: **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ** الىٰ قوله: **أَجْرٌ عَظِيمٌ** نزل في شأن المهاجرين خاصّة ولم يذكر مأخذاً و مستنداً عليه من الأثار و عليه لا دليل على صحّة قول ابن عبّاس لوضح النّقل و ذلك لأنّ الآية ناظرة الى سابقتها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ثمّ قال بعد ذلك **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ** الخ.

و ظاهر التعليق يشعر بأنّ الموصوفين بالأوصاف المذكورة يشملهم التبشير من اللّه سواء فيه المهاجرين و الأنصار و كلّ من كذلك الىٰ يوم القيامة و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ أثبت التّبشير، للمؤمنين، و المهاجرين و المجاهدين بأموالهم و أنفسهم و غير المجاهدين من الأنصار و المؤمنين و المجاهدين و أن لم يهاجروا من مكّة الى المدينة و لكنّهم آمنوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم هذا إذا قلنا بأنّ المراد بالهجرة الهجرة من مكّة الى المدينة.



و أمّا إذا عممّنا معناها فنقول المراد بالهجرة من الكفر الى الإيمان أو الهجرة من الوساوس الشيطانيّة الىٰ اللّه تعالىٰ بالعبوديّة و الطاعة و عليه فيدخل الجميع في الآية.

ثمّ أنّه تعالىٰ أسند التَّبشير الى نفسه فقال: **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ** لما في ذلك من الإحسان اليهم بأنّ مالك أمرهم و النّاظر في مصالحهم هو الّذي يبشرّهم و لمّا كانت الأوصاف الّتي تحلّوا بها و صاروا بها عبيده حقيقة هي ثلاثة، الإيمان، و الهجرة، و الجهاد بالمال و النّفس قوبلوا في التَّبشير بثلاثة، الرَّحمة، و الرّضوان، و الجنّات، فبدأ بالرّحمة لأنّها الوصف الأعمّ النّاشئ عنها تيسير الإيمان لهم، و ثنّى بالرّضوان لأنّه الغاية من إحسان الرّب لعبده و هو مقابل الجهاد إذ هو بذل النّفس و المال، و قدّم على الجنّات لأنّ رضا اللّه عن العبد أفضل من إسكانه الجنَّة و أتى ثالثاً بقوله: **وَ جَنّٰاتٍ لَهُمْ فِيهٰا نَعِيمٌ مُقِيمٌ** أي دائم لا ينقطع و هذا مقابل لقوله: **وَ هٰاجَرُوا** لأنّهم تركوا أوطانهم الّتي نشأوا فيها و كانوا فيها منعميّن فآثروا الهجرة على دار الكفر الى مستّقر الإيمان و الرّسالة فقوبلوا على ذلك بالجنّات ذوات النّعيم الدّائم فجاء التّرتيب في أوصافهم علىٰ حسب الواقع الإيمان ثمّ الهجرة ثمّ الجهاد في المقابل على حسب الأعمّ ثمّ الأشرف ثمّ التّكميل هذا.

ما ذكره بعض المفسرين في الآية و لا بأس به.

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَكُمْ وَ إِخْوٰانَكُمْ أَوْلِيٰاءَ إِنِ اِسْتَحَبُّوا اَلْكُفْرَ عَلَى اَلْإِيمٰانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ

قيل في نزولها، أنّها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حيث كتب الى قريش بخبر النّبي حين أراد فتح مكّة ذكره الشّيخ في التّبيان راوياً عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليها السّلام.

و قال بعض المفسّرين تبعاً لصاحب الكشّاف كان قبل فتح مكّة من آمن لم يتّم إيمانه إلاّ بأن يهاجر و يصارم أقاربه (يصادم خ) الكفرة و يقطع موالاتهم فقالوا يا رسول اللّه إن نحن إعتزلنا من يخالفنا في الدّين قطعنا آباءنا و أبناءنا و عشائرنا و ذهبت تجارتنا و هلكت أموالنا و خربت ديارنا و بقينا ضائعين

فنزلت فهاجروا فجعل الرّجل يأتيه إبنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه و لا ينزله و لا ينفق عليه ثمّ رخصّ لهم بعد ذلك، و قيل نزلت في التسّعة الّذين إرتدّوا ولحقوا بمكّة فنهى اللّه موالاتهم انتهى أقول لا يهمّنا شأن النّزول و أنّما المهمّ ما يستفاد من الآية عموماً أو خصوصاً، فالحقّ أنّ الآية خطاب للمؤمنين كافّة و هى باقية الحكم الى يوم القيامة و لا تختّص بطائفةٍ خاصّة أو بزمانٍ خاصّ أمر اللّه المؤمنين أن لا يتّخذوا آباءهم أو إخوانهم أولياء أن أستحّبوا الكفر على الإيمان فالنّهي عن الإتّخاذ مشروط لا مطلق و ذلك لأنّ الأب أو الأخ أو غيرهما من الأقارب إذا إختاروا الكفر على الإيمان لا فرق بينهم و بين الكافر الّذي ليس من الأقارب لأنّ المانع هو الكفر و هو موجود فيهم على الفرض و قد نهى اللّه تعالى في كثيرٍ من الأيات عن إتّخاذ الكفّار أولياء.

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰآءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاٰ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيٰآءَ حَتّٰى يُهٰاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰآءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ كٰانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلنَّبِيِّ وَ مٰآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مٰا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيٰآءَ**(٤).

والأيات في النّهي عن ذلك كثيرة و إذا كان إتّخاذ المؤمنين الكافرين أولياء منهيّاً عنه فهو ثابت الىٰ يوم القيامة و فى قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ**

١- آل عمران =٢٨
٢- النّساء =٨٩
٣- النّساء =١٣٩
٤- المائدة =٨١

فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ إشارة الىٰ أنّ توّلي الكافر ظلمٌ لأنّه من وضع الشّئ في غير محلّه بقى في المقام بحثان لابدّ لنا من التّنبيه عليهما:

أحدهما: أنّ النّهي في قوله: **لَا تَتَّخِذُوٓا** نهي تنزيه أو تحريم فقال بعض المفسّرين أنّ النّهي للتنّزيه أي ترك الإتّخاذ أولى من فعله و الحقّ أنّه للتّحريم بدليل قوله في آخر الآية **وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** و من المعلوم أنّ الظُّلم حرام فمن إتّخذ الكفّار أولياء فعل حراماً لأنّه ظالم.

ثانيهما: أنّ كلمة أولياء جمع ولي، و الولي يطلق علىٰ معانٍ في القرآن.

الأوّل: جاء بمعنىٰ المعين و النّاصر و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ**[١].

يعني ولم يكن له صاحب ينتصر به من ذلٍّ أصابه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**[٢] يعني صاحب مرشداً.

الثّاني: جاء بمعنى الولد و منه:

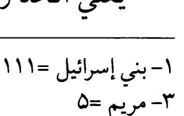
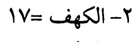
قال اللّه تعالىٰ: **فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**[٣] يعني ولداً.

الثّالث: جاء بمعنى القريب من حيث النّسب أو السّبب و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ**[٤] أي قريب ينفعكم و ناصر ينصركم.

الرّابع: جاء بمعنى الرَّب و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ**[٥] يعني أتَّخذ ربّاً.

١- بني إسرائيل =١١١
٢- الكهف =١٧
٣- مريم =٥
٤- العنكبوت =٢٢
٥- الأنعام =١٤

و قال اللّه تعالیٰ: **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ**[۱] يعني الرَّب.

الخامس: جاء بمعنیٰ اللّه و منه:

قال اللّه تعالیٰ: **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيَآءَ**[۲] يعني الآلهة.

و قال اللّه تعالیٰ: **وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ**[۳] يعني الآلِهة.

السّادس: جاء بمعنیٰ النّاصح و منه:

قال اللّه تعالیٰ: **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**[۴] يعني في المناصحة.

و قال اللّه تعالیٰ: **يٰآ أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكٰافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**[۵]. يعني النّصيحة.

و قال اللّه تعالیٰ: **يٰآ أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ**[۶] يعني النّصيحة إذا عرفت هذا.

فنقول قوله: **لَا تَتَّخِذُوٓا اٰبَآءَكُمْ وَ إِخْوٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ** يحتمل أن يكون بالمعنیٰ الأوّل و هو المعين و النّاصر أي لا تستعينوا بهم و لا تستنصروا منهم و أن كانوا أقرباء لأنّهم حيث إستَّحبوا الكفر على الإيمان فليسوا بمعتمدين فأنّ الكافر عدّو المسلم و أن كان من الأقرباء.

و يمكن أن يكون بمعنى القريب و هو الثّالث من الأقوال و عليه فالمعنى لا تتّخذوا الكفّار و أن كانوا من أقرباءكم من الأقرباء الّذين ينفعونكم ينصرونكم و بعبارة أخرى لا تعدُّوهم من الأقرباء و النّافعين بحالكم لأنّهم بإختيارهم رجعوا الكفر على الإيمان كأنّهم خرجوا من ربقة القرابة.

۱- الشورى =۹
۲- العنكبوت =۴۱
۳- الشورى =۶
۴- آل عمران =۲۸
۵- النّساء =۱۴۴
۶- الممتحنة =۱

و يمكن أن يكون بمعنى النّاصح و هو السّادس منها و المعنى لا تتّخذوهم ناصحين مشفقين و هذه الإحتمالات الثّلاثة في معنى الولّي لا إشكال فيها غيرها فلا يناسب المقام لأنّهم لا يتّخذوا آباءهم و أخوانهم أولياء يعني أرباباً أو آلهةً أو أولاداً و هو ظاهر فالآية لا تدلّ على عدم جواز معاشرتهم و مجالستهم و مؤانستهم و مراودتهم و لا سيّما إذا كانوا أقرباء بل نقول أنّ الآية و أمثالها لا دلالة لها على عدم جواز المحبّة و الإعانة لهم إذا كانوا محتاجين فأنّ صلة الأرحام مرغوب فيه شرعاً فلو كان الأب كافراً و الولد مسلماً يجب علىٰ الأولاد مراعاة حال الأباء و الأمهات و الأخوان و جميع الأقرباء لا لأجل كفرهم بل لأجل قرابتهم هذا بالنّسبة الىٰ الأقرباء ممّا لا كلام فيه فأنّه من مصاديق صلة الأرحام الّتي أمر اللّه أن يوصل مسلماً كان أو كافراً.

و أمّا بالنسّبة الى غيرهم من أصناف الكفّار فليس الأمر كذلك إلاّ في صورة الاضطرار و هو أمرٌ آخر.

أن قلت فعلى ما ذكرت يصير معنىٰ الآية لا إشكال في إتخاذ الأقرباء أولياء.

قلت كّلا و ذلك لأنّ الآية تدلّ على عدم جواز إتّخاذ الأقرباء أولياء في أمور دينكم بمعنى عدم الإعتماد على نصائحهم و بعبارة أخرى لا تستعينوا بهم تقبلوا قولهم، فقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ** معناه من جعل أباه أو أخاه ولّياً لنفسه فهو ظالم لأنّ الكافر لا يكون ولّياً للمؤمن.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.**

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ**[١].



و هذا هو السَّبب الأصلي في عدم جواز الكفّار أولياء لأنّهم من أتباع الشّيطان و من إتّخذ الشّيطان و من تابعه ولّياً لنفسه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

١- البقرة = ٢٥٧

قُلْ إِنْ كٰانَ اٰبٰآؤُكُمْ وَ أَبْنٰآؤُكُمْ وَ إِخْوٰانُكُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوٰالٌ اَقْتَرَفْتُمُوهٰا وَ تِجٰارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسٰادَهٰا وَ مَسٰاكِنُ تَرْضَوْنَهٰآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهٰادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اَللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَ اَللّٰهُ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِينَ

لمّا نهىٰ اللّه تعالىٰ المؤمنين من أن يتَّخذوا آباءهم و أخوانهم أولياء علىٰ ما مرّ بيانه خاطب رسوله في هذه الآية و أمره أن يقول لهم أن كان آباءكم الآية وجه الرّبط بين الأيتين هو أنّ إتّخاذ الأباء و الأخوان أولياء من دون اللّه مع كفرهم لا يكون إلاّ ناشئاً عن محبّة المؤمنين أيّاهم إذ لولا المحبَّة و العلاقة لا يحصل المقصود فأنّ من لم يكن محبوباً كيف صار وليّاً فقال تعالىٰ في هذه الآية ما حاصله أنّ المؤمن ينبغي أن لا يحبّ الكافر بحيث لا يرّجحه على اللّه و رسوله فيجعله وليّاً دونه.

ثمّ فصَّل الكلام فقال ما قال و قد ذكر في هذه الأية، الأباء أوّلاً و الأبناء ثانياً و الأخوان ثالثاً و الأزواج رابعاً والعشيرة و هى القبيلة أو مطلق الأقرباء سبباً ونسباً، خامساً و الأموال المكتسبة سادساً، و التّجارة و هى البيع و الشّراء سابعاً، و المساكن و هى جمع مسكن و هو مكان السُّكونة ثامناً، فهذه الأمور الثّمانية هي أصول العلائق في عالم الطبيعة و مدار الإعاشة فيه عليها و الجامع لهما هو الأقرباء و الأموال و من المعلوم أنّ وجود أحدهما بدون الأخر مصيبة و عدمهما من أعظم المصائب و لمّا كان كذلك فهي محبوبة لكلّ إنسانٍ قهراً و طبعاً و بعبارةٍ أخرى محبّة الإنسان بالمال و الأولاد و الأقرباء غريزيّة فطريّة لا يمكن سلبها منه اذ الشّئ لا يقبل الرّفع إلاّ بعد قبوله الوضع فما لا يكون قابلاً للوضع و الجعل لا يكون قبلاً للرَّفع و حيث أنّ المحبّة بها غريزيّة فطريّة و ليست بجعل جاعل و وضع واضع فهي غير قابلة للرَّفع فلا يعقل أن يقال لأحدٍ من أفراد الانسان يجب عليك أن لا تحبّ المال و الأقرباء مثلاً كما لا

يعقل أن يقال له ذلك بالنّسبة الىٰ حياته و صحته و عزّته و السِّر في الجميع ما ذكرناه اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ اللّه تعالىٰ لم يمنعهم عن أصل المحبّة و لذلك لم يقل محبوباً اليكم بدل قوله: **أَحَبَّ إِلَيْكُمْ** اذ لو قال محبوباً اليكم كان التّكليف بالمحال اذ لا يمكن لأحدٍ أن يبغض ماله و أولاده و أقرباءه و هكذا و ما لا يمكن فهو غير مقدورٍ و الأمر و النّهي لا يتّعلقان به، و لذلك قال أحبَّ اليكم، فلم يكلّفهم بنفي المحبّة رأساً بل كلّفهم بأمرٍ مقدورٍ و هو عدم ترجيح حبّهم علىٰ حبّ اللّه و رسوله و توضيح الكلام إجمالاً هو أنّ المؤمن يحبّ ماله و أولاده كذلك يحبّ اللّه و رسوله إلاّ أنّ الأوّل فطّري قهريّ و الأخر كسّبيّ يحصل له بسبب الإيمان فاذا دار الأمر في بعض الموارد بين إختيار أحدهما و ترك الأخر فالمؤمن يختار رضا اللّه و رسوله و بعبارةٍ أخرى يرّجح حبّهما على حبّ أولاده و الكافر و المنافق بالعكس فالآية بصدد بيان هذه النّكتة فكأنّه تعالىٰ قال أنّي لا أقول لم تحبّونهم أو لا ينبغي أن تحبّوا هؤلاء المذكورات في الآية رأساً بل أقول لا ترّجحوا حبّهم على حبّ اللّه و رسوله فاذا دار الأمر بين أحدهما فإختاروا حبّ اللّه و الجهاد في سبيل اللّه و أتركوا تلك العلائق هذا ما فهمناه من الآية.

و أمّا تخصيص الجهاد بالذّكر في الآية في قوله: **وَ جِهٰادٍ فِي سَبِيلِهِ** فالوجه فيه واضح لأنّهم كانوا متّخلفين عن الهجرة و الجهاد حبّاً لأموالهم و أقرباءهم فوّبخهم اللّه عليه هذا اذا قلنا أنّ الآية خطاب الىٰ المؤمنين الّذين تخلّفوا من الهجرة.

و أمّا اذا قلنا بأنّ الآية خطاب لجميع المؤمنين الىٰ يوم القيامة فالوجه فيه أنّ في الجهاد مظنّته القتل أو الجرح و فى البقاء مع الأقرباء و عدم الدّخول في الجهاد مظنّة الحياة و السّلامة و لا شكّ أنّ المؤمن الحقيقي يختار الأوّل اذ فيه رضا اللّه و رسوله، و أمّا غير المؤمن فلا.

فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ

فالتَّربص، التَّثبت في الشّيئ حتّى يجئ وقته، و بعبارةٍ أخرى هو الإنـتظار أمرهم اللّه به حتّىٰ يأتي الّه بأمره من عقوبةٍ عاجلة أو أجلة فأنّ اللّه تعالىٰ لبالمرصاد و اللّه لا يهدي القوم الفاسقين، أي لا يهديهم الىٰ الثّواب و الجنّة لأنّه تعالى قد هداهم الى الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ**(١)

و أنّما عبَّر عنهم بالفاسقين و لم يقل الكافرين، لأنّهم كانوا من المؤمنين باللّه و رسوله ظاهراً ولكنّهم لم يطيعوا أمر اللّه و رسوله فصاروا بذلك من الفاسقين أعاذنا اللّه منه.

■

١- فصّلت =١٧

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِۦٓ إِنْ شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

◄ اللّغة

حُنَيْنٍ بضّم الحاء و فتح النّون و سكون الياء و النّون إسم وادٍ بين مكّة و الطّائف في قول قتادة و قال عروة هو وادٍ الى جانب ذي المجاز فلذلك صرف.

فَلَمْ تُغْنِ الاغناء إعطاء ما يرفع و الفعل مجزوم، بلم.

رَحُبَتْ، الرَّحب السّعة في المكان و قد يكون في الرّزق.

مُدْبِرِينَ، الإدبار الذّهاب الىٰ جهة الخلف.

سَكِينَتَهُ، السَّكينة بفتح السّين و كسر الكاف الرّحمة التّي تسكن اليه النّفس ويزول معها الخوف.

نَجَسٌ بفتح النّون والجيم و سكون السّين كلّ شيئٍ مستقذر و يقع على الذّكر و الأنثى سواء.

عَيْلَةً تقول عال يعيل اذا إفتقر، العيلة الفقر.

صٰاغِرُونَ الصّغار الذّل و النّكال الّذي يصغر قدر صاحبه.

◀ الإعراب

وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ معطوف على موضع في مواطن وإذ بدل من يوم دِينَ ٱلْحَقِّ يجوز أن يكون مصدر، يدينون، و يجوز أن يكون مفعولاً به، و يدينون بمعنىٰ يعتقدون عَنْ يَدٍ في موضع الحال أي يعطوا الجزية أذلّة.

◀ التّفسير

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ

قيل اللاّم في قوله: **لَقَدْ** للقسم أقسم اللّه تعالى في هذه الآية بأنه نصر المؤمنين في مواطن كثيرة والمواطن مقامات الحرب و مواقفها و قيل مشاهد الحَرب وهذه المواطن التّي نصرهم اللّه فيها وقعات بدر و قريظة و النَّضير و الحديبيّة و خيبر و فتح مكّة و أنّما وصفت المواطن بالكثرة لأنّ المؤرّخين وأصحاب المغازي نقلوا أنّها كانت ثمانين موطناً و اللّه تعالى قد نصرهم في كلّها و منها غزوة حنين التّي خصَّها اللّه تعالى بالذّكر في هذه الآية و قلنا أنّه وادٍ بين مكّة و الطّائف قريب من ذي المجاز.

و إجمال القصّة هو أنّه لمّا أذن أمير المؤمنين عليه السلام بمكّة أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك العام جزعت قريش جزعاً شديداً و قالوا ذهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا و خربت دورنا فأنزل اللّه عزّ وجلّ قل يا محمّد أن كان أباءكم أو أبناءكم الآية.



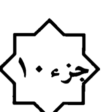
و أمّا سبب غزوة حنين أنّه لمّا خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الىٰ فتح مكّة أظهر أنّه يريد هوازن و بلغ الخبر هوازن فتهّيأوا و جمعوا الجموع و السّلاح و إجتمع رؤوساء هوازن الىٰ مالك بن عوف النَّضري فرأَّسوه عليهم و خرجوا و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و مرّوا حتّى نزلوا بأوطاس و كان دريد بن الصَّمة الجشمي في القوم و كان رئيسهم (رئيس جشم) و كان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فلمس الأرض بيده فقال في أيّ وادٍ قالوا بوادي أوطاس قال نعم مجال خيل لا حزن خرس و لا سهل دهس، مالي أسمع رعاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر و ثغاء الشّاة و بكاء الصَّبي فقالوا له أنّ مالك بن عوف ساق مع النّاس أموالهم ونساءهم و ذراريهم ليقاتل كلّ إمرئٍ عن نفسه و ماله و أهله فقال دريد راعي الضّأن و ربّ الكعبة ماله و للحرب ثمّ قال أدعوا لي مالكاً فلمّا جاء قال له يا مالك ما فعلت قال سقت مع النّاس أموالهم و نساءهم و أبناءهم ليجعل كلّ رجلٍ أهله و ماله وراء ظهره فيكون أشدَّ لحربه فقال يا مالك أنّك أصبحت رئيس قومك و أنّك تقاتل رجلاً كبيراً و هذا اليوم لما بعده ولم تضع في تقدَّمة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئاً ويحك و هل يلوي المنهزم علىٰ شيئٍ أردد بيضة هوازن الىٰ عليا بلادهم و ممتنع محالّهم و أبق الرّجال علىٰ متون الخيل فأنّه لا ينفعك إلاّ رجل بسيفه و درعه و فرسه فأن كانت لك لحق بك من وراءك و أن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك و عيالك فقال له مالك أنّك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك فلم يقبل من دريد فقال دريد ما فعلت كعب و كلاب قالوا لم يحضر منهم أحد قال غاب الجدّ و الحزم لو كان يوم علا و سعادة ما كانت تغيب كعب و لا كلاب قال فمن حضرها من هوازن قالوا عمرو بن عامر و عوف بن عامر قال ذانك الجذعان لا ينفعان و لا يضّران ثمّ تنَّفس دريد و قال حرب عوان ليتني فيها جزع أحبّ فيها واضع أقود و طفاء الزمع كأنّها شاة صدع و بلغ رسول اللّه إجتماع هوازن بأوطاس فجمع القبائل و رغبهم في الجهاد و وعدهم النَّصر و أنّ اللّه قد وعده

أن غنيمة أولادهم و نساءهم و ذراريهم فرغب النّاس و خرجوا على راياتهم و عقد اللّواء الأكبر و دفعه الى أمير المؤمنين عليه السلام وكلّ من دخل مكّة برايةٍ أمره أن يحملها و خرج في إثني عشر ألف رجل ممّن كانوا معه و فى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال و كان معه من بني سليم ألف رجل رئيسهم عبّاس بن مرداس السّلمي و من مزينة ألف رجل قال فمضوا حتّى كان من القوم على مسيرة بعض ليلة و قال مالك بن عوف لقومه ليصير كلّ رجلٍ منكم أهله و ماله خلف ظهره و أكسروا جفون سيوفكم و أكمنوا في شعاب هذا الوادي و فى الشّجر فأذا كان في غلس الصّبح فأحملوا حملة رجلٍ واحدٍ وهدوا القوم فأنّ محمّداً لم يلق أحداً يحسن الحرب فلمّا صلّىٰ رسول اللّه الغداة إنحدر في الوادي و هو وادٍ له إنحدار بعيد و كانت بنو سليم علىٰ مقدّمة فخَرجت عليها كتائب هوازن من كلّ ناحيةٍ فأنهزمت بنو سليم و إنهزم من وراءهم و لم يبق أحد إلاّ إنهزم و بقى أمير المؤمنين عليه السلام يقاتلهم في نفرٍ قليل و مرَّ المنهزمون برسول اللّه لا يلوون على شئٍ و كان العبّاس أخذ بلجام بغلة رسول اللّه عن يمينه و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب عن يساره فأقبل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ينادي يا معشر الأنصار الى أين المفر ألاّ أنا رسول اللّه فلم يلو أحد عليه و كانت نسيبته بنت كعب المازينة تحثوا التّراب في وجوه المنهزمين و تقول أين تفرّون عن اللّه و رسوله و مرَّ بها عمر فقالت له ويلك يا عمر ما هذا الّذي صنعت فقال لها هذا أمر اللّه فلمّا رأى رسول اللّه الهزيمة ركض يحوم على بغلته و قد شهر سيفه فقال يا عبّاس أصعد هذا الظّرب (الفرس) و ناد يا أصحاب البقرة و يا أصحاب الشّجرة الىٰ أين تفرّون هذا رسول اللّه ثمّ رفع رسول اللّه يده فقال اللّهم لك الحمد و اليك المشتكىٰ و أنت المستعان فنزل جبرائيل فقال يا رسول اللّه دعوت بما دعا به موسى حين فلق اللّه له البحر و نجّاه من فرعون ثمّ قال رسول اللّه لأبي سفيان بن الحارث ناولني كفّاً من حصىً فناوله فرماه في وجوه المشركين ثمّ قال شاهت الوجوه

ثمّ رفع رأسه الى السّماء و قال اللّهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد و أن شئت أن لا تعبد لا تعبد، فلمّا سمعت الأنصار نداء العبّاس عطفوا و كسروا جفون سيوفهم و هم يقولون لبّيك و مرّوا برسول اللّه و أستحيوا أن يرجعوا اليه و لحقوا بالرّاية فقال رسول اللّه للعبّاس من هؤلاء يا أبا الفضل فقال يا رسول اللّه هؤلاء الأنصار فقال رسول اللّه عليه السلام الآن حمى الوطيس و نزل النّصر من السّماء و إنهزمت هوازن فكانوا يسمعُون قمقعة السّلاح في الجوّ و إنهزموا في كلّ وجهٍ و غنم اللّه و رسوله أموالهم و نساءهم و ذراريهم و هو قول اللّه: **لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ** أقول نقلنا القصّة عن تفسير القُمي[١].

إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

فقد ظهر معناه ممّا ذكرناه و ذلك لأنّ عدّة المسلمين كانت إثني عشر ألف رجل و هذه الكثرة هي الّتي كانت أعجبتهم و أيقنوا أنّ النّصر معهم و هذا العجب صار سبباً لأنهزامهم و ضيق الأرض عليهم فرّجحوا الفرار على القرار و فى هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ الأمور بيد اللّه فالمؤمن المسلم ينبغي أن يتوكّل عليه في جميع أموره مع الثّبات و الإستقامة و لا يغتّر بالأسباب و الإمكانات الظّاهرية و كانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شوّال سنة ثمان.



ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

أي ثمّ بعد ذلك **أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ** و هى الرّحمة الّتي تسكن اليها النّفس و يزول معها الخوف حتّى رجعوا اليهم و قاتلوهم و هزمهم اللّه بأن أنزل النّصر و

١- تفسير القُمي ص ٢٨٥ الىٰ ص ٢٨٨

أنزل السَّكينة هي الطّمأنينة والأمنة و قيل هي الوقار و قد علمت أنّ الأنصار أنهزموا في بدء الأمر و منشأ الإنهزام الخوف أي خافوا فأنهزموا، ثمّ رجعوا و كسروا جفون سيوفهم و هم يقولون لبيّك يا رسول اللّه، و لا نعني بالسَّكينة إلاّ هذا إذ لاشكّ أنّ اللّه تعالىٰ هو المتصّرف في القلوب لا غيره و هذا هو المراد بإنزال السَّكينة عليهم.

و أمّا قوله: **وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهٰا** ففيه إحتمالان:

أحدهما: أنّه تعالىٰ أنزل الملائكة لنُصرة المسلمين لم يروها إذ الملك لا يرى بالعين الملكي العنصري و عليه فقوله: **لَمْ تَرَوْهٰا** خطاب للمسلمين لا للنّبي لأنّ النّبي يرى الملك كما يرىٰ غيره لأنّه برزخٌ بين الملكوت و الملك،

و الإحتمال الثّاني أن يكون المراد بالجنود غير الملائكة، فأنّ للّه تعالى جنوداً كثيرة لا يعلم عددها إلاّ هو كما في قصّة أصحاب الفيل، واللّه أعلم بما أراد والأقوىٰ الأوّل كما في غزوة بدر و لّما بيّن اللّه تعالىٰ أنّه أنزل السَّكينة و الجنود علىٰ المؤمنين قال: **وَ عَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذٰلِكَ جَزٰآءُ ٱلْكٰافِرِينَ** أمّا عذابهم في الدّنيا فقد ظهر مّما ذكرناه من مغلوبيّتهم و مقهوريّتهم و سبي نسائهم و ذراريهم و أخذ أموالهم و أيّ عذابٍ في الدّنيا أشدّ ممّا وقع عليهم في حنين فأنّهم قد أصبحوا نادمين خاذلين بل مقتولين أو مجروحين و بالجملة ضاقت الدّنيا عليهم بالفقر و الإستئصال و الذّلة بعد ما كانوا متنعّمين في حياتهم من نِعمة المال و الأولاد و العشيرة و غيرها و أيُّ عذابٍ أشدّ منه فأنّ الموت خيرٌ من هذه الحياة المكتنفة بالشّدائد و المصائب و الآلام الرّوحية و الجسميّة و فقد الأحّبة و الأعزّة هذا إذا كان المراد بالعذاب المشار إليه في الآية هو العذاب الدُّنيوي و أمّا أن كان المراد به العذاب الأخروي فهو أشدّ و أعظم من العذاب الدّنيوي بمراتب بل لا يقاس أحدهما بالآخر لأنّ العاجلي يفنى و الآجل يبقى هذا بالنّظر الى الكيفيّة و أمّا الكميّة فاللّه تعالى أعلم و يستفاد من الآية أنّ اللّه تعالىٰ لا يظلم علىٰ عباده قال تعالىٰ: **وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلّامٍ**

لِلْعَبِيدِ[١] بل اللّه تعالىٰ يريد الخير و الصّلاح من عباده و لأجل ذلك بعث اليهم أنبياء و جعل لهم التّكاليف و لم يتركهم سدى و مع ذلك هو أرحم الرّاحمين بالنّسبة الىٰ العصاة و لأجل ذلك جعل التّوبة لهم.

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هاهنا تفيد العطف و إنّما حسن عطف المستقبل على الماضي لأنّه مشاكله فأنّ الأوّل تذكير بنعمه و الثّاني وعدٌ بنعمه.

والتّوبة بفتح التّاء هي النَّدم علىٰ ما مضى من القبيح و العزم على أن لا يعود الى مثله في الجني أو في القبح فشرط النَّدم بالعزم لأنّ النَّدم إنّما هو الماضي و العزم على ما يستقبل فلو لم يجتمعا لم تكن توبة و المراد بهما في المقام أنّه تعالىٰ يقبل التّوبة من بعد هزيمة من إنهزم و رجوعه الىٰ الحّقالمراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب و يرجع الى طاعة اللّه و الإسلام و يندم علىٰ ما فعل من القبيح على من يشاء قال بعضهم و إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ قبول التَّوبة و إسقاط العذاب عندها تفضّلٌ منه تعالىٰ على التّائب و لو كان ذلك و اجباً لما جاز تعلّق ذلك بالمشيئة و أمّا من خالفنا في ذلك و لم يقل بالتَّفضل فهو قال إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ منهم من له لطف يؤمن عنده فاللّه تعالىٰ يَشاء أن يلطف له مع صرف العمل في ترك التَّوبة الى اللّه و قوله: **وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** معناه أنّه ستّارٌ للذّنوب لا يفضح أحداً على معاصيه في الدّنيا والآخرة بل يسترها عليه في النّشأتين و هو رحيمٌ بعباده لأنّ رحمته سبقت غضبه و إنّما قال اللّه تعالى ذلك في المقام ليرغّب المنهزمين و المغلوبين الىٰ التّوبة و الرّجوع الى الإسلام.

بعبارةٍ أخرى أعلم اللّه تعالىٰ أنّه لم ينسّد عليهم باب التَّوبة بعد كفرهم و قتالهم و هو من أكبر النِّعم و لذلك رجع بعض المنهزمين من الكفّار الىٰ الإسلام

١- الفصلت = ٤٦

و حسن إسلامهم بعد ذلك منهم مالك بن عوف النَّضري رئيس هوازن فأنّه و من معه من قومه أسلموا جميعاً.

و روي أنّ ناساً جاءوا فبايعوا على الإسلام و قالوا يا رسول اللّه أنت خير النّاس و أبّر النّاس و قد سبي أهلونا و أولادنا و أخذت أموالنا، و كان سبي يومئذٍ ستّة ألاف نفسٍ و أخذ من الإبل و الغنم ما لا يخفى فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ خير القول أصدقه إختاروا أمّا ذراريكم و نساءكم و أمّا أموالكم فقالوا ما نعدل بالأحساب شيئاً و تمام الحديث أنّهم أخذوا نساءهم و ذراريهم إلاّ إمرأة وقع عليها صفوان بن أميّة فحملت منه فلم يرّدها.

و قد نقل بعض العامّة في تفسيره[1] لهذه الآية عن رجل كان يكّنى بأبي حرد، قال لمّا كان يوم حنين أسرنا رسول اللّه فبينا هو يميز بين الرّجال والنّساء وثبت إمرأة حتّى قعدت بين يديه أذكره حيث نشأ و شبَّ في هوازن أرضعوه فأنشأت تقول:

أمننّ علينا رسول اللّه في كرم	فأنّك المرء نرجوه وننتظرُ
أمننّ على بيضةٍ قد عاقها قدرٌ	مفرّقٌ شملها في دهرها غيرُ
أبقت لنا الحرب هتافاً علىٰ حزَنٍ	علىٰ قلوبهم الغمّاء والغمِر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها	يا أرجح النّاس حلماً حين يختبرُ
أمنن على نسوةٍ قد كنت ترضعها	إذ فوك يملأوها من مخضها الدُّرر
إذ كنت طفلٌ صغير كنت ترضعها	وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ
يا خير من مرحت كمت الجياد به	عند الهياج إذا ما إستوقد الشَّرَر
لا تجعلَّنا كمن شالَت نُعامته	ولِبق منّا معشرُ زهَرُ
اِنّا نؤمِّلُ عفواً مِنك نلبسه	هذي البَّرية إن تعفوا وتنتصروا
إنّا لنشكر للنّعمى وقد كفرت	و عندنا بعد هذا اليَوم مدَّخر
فألَبس العفو من قد كنت ترضعه	من أمّهاتك أنّ العَفو مشتهرُ
وأعفُ عفىٰ اللّه عمّا أنت راهبه	يوم القيامة إذ يهدي لَكَ الظَّفَرُ



۱- بحر المحيط ج ٥

فلمّا سمع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الشِّعر قال صلى الله عليه وآله وسلم ما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكُم و قالت قريش ما كان لنا فهو للّه و رسوله و قالت الأنصار ما كان لنا فهو لِلّه و رسوله و في روايةٍ أخرىٰ فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمّا ما كان لي و لبني عبد المطّلب فللّه و لكم و قالت الأنصار ما كان لنا فلِلّه و لرسوله فرَّدت الأنصار ما كان في أيَديها من الذّراري والأموال انتهىٰ.

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى رحم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و عدله، أمّا رحمه فلأنّه صلى الله عليه وآله وسلم قد عفى عن سهمه و سهم أقرباءه الذّين هم بمنزلة نفسه ولم يعف عن سهم القريش و الأنصار فقال أمّا ما كان لي و لبني عبد المطّلب.

ثمّ أنّ قريشاً و الأنصار قد إقتدوا بنبيّهم في العفو و تركوا ما بأيديهم نكتته لابدّ من المسلمين من التوجّه اليها الى يوم القيامة و هى أنّ العفو و الإغماض من المسلم بالنّسبة الى الخاطئ و العاصي اذا ندم من فعله أمرٌ مرغوبٌ فيه كما أنّ اللّه تعالى يعفوا عن المذنب التّائب و بذلك أمر جميع أنبياءه و أوصياءه و من حذى حذوهم و هذا ممّا لا كلام في حسنه و لكنّ المسلمين و لا سيّما حكّامهم تركوا بعد رسول اللّه هذه السنّة المرضيّة الّتي توجب جلب العاصي الى الطّاعة الخاطئ الىٰ الإنقياد و الكافر الى الإسلام و لم يعلموا أنّ الإسلام دين الرّأفة و الرَّحمة لا دين الخشونة و الإنتقام و هذا أي ترك هذه الطّريقة المرّضية صار باعثاً لركود الإسلام و إنتشار أحكامه في الأفاق كما لا يخفى على أحدٍ.

و أمّا مسألة العدالة فهي التّي بنى الإسلام عليها واقعاً فاذا كان الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم و هو يقول في كلامه أمّا ما كان لي مثلاً فهو لكم و لا يقول ما كان لجميع المسلمين فهو لكم فما تفهم من هذا الكلام، هذا، مع أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مضافاً الى مقام ولايته على الأموال والنّفوس لقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ**[1] كان يعلم أنه لو رَدَّ جميع الأموال و السَّبايا لم يخالف فيه أحد كما

١- المائدة = ٥٥

رأيت من الأنصار و غيرهم حيث قالوا ما كان لنا فهو للّه و لرسوله و اذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال و المفروض أنّ الرّسول كان عالماً به مضافاً الى مقام ولايته فلم لم يقل من أوّل الأمر ما كان لي و للمسلمين فهو لكم جميعاً.

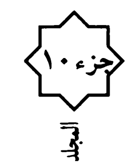
لأنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أعلم بذلك أنّ أساس الإسلام على العدل و هو يقتضي ذلك و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في موضع أخر لا يحلّ مال إمرؤ إلاّ بطيب نفسه، و قال تعالىٰ: **وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ**[1] و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم النّاس مسلّطون على أموالهم و أنفسهم و هكذا و حيث أنّ المسلمين قاتلوا الكفّار و أخذوا منهم ما أخذوا تحت عنوان الغنيمة فصاروا مالكين لها قهراً بحكم اللّه تعالىٰ فالحكم بأنّه لاحقَّ لهم فيها مخالف للعدل و هذه النّكتة أيضاً ممّا غفل عنه السلمون بعد وفاته صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنّ ولاتهم و حكّامهم حكموا في أموالهم و نفوسهم بما شاءوا و أرادوا و هذه الرّؤية الرّديئة و الطّريقة القبيحة الخبيثة سرت مِنهم الى أحاد المسلمين كما نرىٰ في زماننا هذا و أقبح منه إنتحالهم الحكم الى الإسلام فأصبح الإسلام في هذا العصر غَريباً لا يجاب دعوته و أمثاله يذوب قلب المؤمن أعاذنا اللّه من متابعة الأهواء أنّه على كلّ شئٍ قدير.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا

أخبر اللّه تعالىٰ المؤمنين في هذه الآية بنجاسة المشركين، النّجاسة القذارة و ذلك ضربان:

ضربٌ يدرك بالحاسّة و هو جميع القاذورات المحسوسة مثل البول و المني و الدَّم و الميتة و أمثال ذلك و لا كلام لنا فيها فعلاً.

و ضربٌ لا يدرك بالحاسّة بل يدرك بالبصيرة و هذا هو المراد في المقام و ذلك كالكفر فأنّه من أنجس الأنجاس و لا يُطَّهر إلاّ بالتّوحيد والنّبوة.



١- البقرة = ١٨٨

و أمّا في اللُّغة فكلّ شيءٍ مستقذرٍ فهو نجس بفتح النّون و كسر الجيم فاذا أستعمل مفرد قيل نجس بفتحهما و يقع على الذّكر و الأنثى سواء و ظاهر الآية أنّ الكفّار أنجاس واذا ثبت ذلك بحكم الآية فيتفرّع عليه أمور:

منها، عدم جواز دخولهم المساجد لأنّ شركهم أجرى مجرىٰ القذر الّذي يجب تجّنبه و على هذا من باشر يده يد كافرٍ مع الرُّطوبة يجب على المسلم أن يغسل يده و الأحكام المترتّبة عليه كثيرة ليس المقام من مواضع ذكرها.

أنّما الكلام في دخولهم المساجد و قد أجمع الفقهاء على عدم جوازه و حيث أنّ الموضوع من أهمّ المسائل فلابدّ لنا من التكلّم فيه بحسب ما يقتضيه المقام فنقول:

المتبادر من الشِّرك هنا أنّه الّذي أثبت له تعالى شريكاً أي إعتقد إلهاً غيره فالمشرك هو غير الموّحد فيه و بذلك قال بعض علماءنا و بعض العامّة و يرشد اليه.

قال اللّه تعالىٰ: **لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَ لاَ ٱلْمُشْرِكِينَ**(٣).

كيفيّة الإستدلال بها أنّ اللّه تعالى عطف المشركين على الكفّار بالواو و هو يقتضي المغايرة.

و من الأخبار مُرسلة الوّشا عن أبي عبد اللّه عليه السلام: أنّه كرّه سُئور ولد الزّنا و اليهودي و النصّراني والمشرك و كلّ من خالف الإسلام و كان أشَدَّ ذلك عنده سئور النّاصب و يدّل علىٰ ذلك رواية سعد بن صدقة قال سمعت أباعبداللّه و قد سأل عن الكفر و الشّرك أيَّهما

١- البيّنة =١ ٢- البيّنة =٦

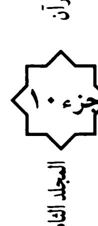
٣- البقرة =١٠٥

أقدم فقال الكفر أقدم و ذلك أنّ ابليس لعنه اللّه أوّل من كفر وكان كفره غير شركٍ لأنّه لم يدع الىٰ عبادة غير اللّه و أنّما دعا الىٰ ذلك بعد فأشرك انتهىٰ.

و في الحَسَن عن هشام بن الحكم عن أبي عبد اللّه عليه السلام في حديثٍ قال: فيه من عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الإسم والمعنى فقد شَرك و عبد أثنين و من عبد المعنى دون الإسم فذلك التّوحيد انتهىٰ.

فهذه الأيات والأخبار قد دَلَّت علىٰ أنّ الكفر غير الشِّرك و يتفرّع عليه أنّ المشرك لا يجوز دخوله المسجد الحرام و أمّا غيره من أصناف الكفّار فلا و حيث أنّ اليهود و النصّارى من أهل الكتاب بالإتفاق فهم موّحدون لا مشركون فلامنع من دخولهم المسجد الحرام هذا ملخّص كلامهم في الباب.

و قال أكثر علماءنا أنّ المراد بالمشركين في الأيات هنا ما يعمّ عبّاد الأصنام و غيرهم من اليهود و النّصارىٰ و إضرابهم لأنّه تعالىٰ قد سمّاهم مشركين بقوله عَزَّ مِن قائِل: **وَ قَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللّٰهِ وَ قَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللّٰهِ** الى قوله **ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلٰهًا واحِدًا لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**[١].



و هذه الآية مذكورة في سياق الآية المذكورة المتَّضمنة لوصفهم بالنّجاسة فدّلت على التّعميم، و قال في المدارك بعد نقله لذلك نمنع هذه المقدّمة إذ المتبادر من معنى الشِّرك هو من إعتقد آلهاً مع اللّه و قد ورد في أخبارنا أنّ معنى إتّخاذهم الأحبار و الرُّهبان أرباباً دون اللّه إمتثالهم أوامرهم و نواهيهم لا إعتقاد أنّهم آلِهة انتهىٰ.

قال مؤّلف آيات الأحكام بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه.

١- التوبة = ٣١/٣٢

أقُول في حسنة أبى‌بصير و قد سُأل أبو عبد اللّه عن هذه الآية فقال عليه‌السلام أما واله ما دعوه الىٰ عبادة أنفسهم ولو دعوهم الى عبادة أنفسهم لما أجابوا أحلّوا لهم حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم مِن حيث لا يشعرون.

و مرسلة إبن أبي عمير عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام من أطاعَ رجلاً في معصية فقد عَبده انتهىٰ.

و في رواية إسحاق عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ:

وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّٰا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ(١). قال يُطيع الشّيطان من حيث لا يعلم فيشرك.

و عنه عليه‌السلام في قوله عزّ وجلّ: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّٰا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ** قال عليه‌السلام شِرك طاعةٍ و ليس شِرك عبادة.

و في رواية عميرة عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: سمعته يقول أمِر النّاس بمعرفتنا والرَّد الينا والتَّسليم لنا ثمّ قال عليه‌السلام: و أن صاموا وصلّوا و شهدوا أن لا إله إلاّ اللّه و جعلوا علىٰ أنفسهم أن لا يرَّدوا الينا كانوا بذلك مُشركين.

و عن زرارة عن أبي جعفر عليه‌السلام قال عليه‌السلام: واللّه أنّ الكُفر لأقدم من الشِّرك و أخبث قال عليه‌السلام ثمّ ذكر كفرإبليس حين قال له أسجد لآدم فأبىٰ أن يسجد فالكفر أعظم من الشِّرك فمن إختار على اللّه عزّ وجلّ و أبىٰ الطّاعة و أقام على الكبائر فهو كافر و من نصب ديناً غير دين المؤمنين فهو مُشرك انتهىٰ.

و في رواية يزيد بن خليفة قال: قال أبو عبد اللّه: كلّ رياءٍ شِرك أنّه من عمل لِلنّاس كان ثوابه علىٰ النّاس و من عمل لِلّه كان ثوابه علىٰ اللّه انتهىٰ.

١- يوسف = ١٠٦

و الأخبار الدّالة علىٰ إطلاق الشّرك على من يفعل بعض المعاصي و أن كان من المؤمنين كثيرة و قد يظهر من مجموع الأخبار الواردة في الباب إطلاق الشّرك علىٰ بعض طوائف الكفّار.

و على بعض المنتسبين الىٰ الإسلام بل على جميع المخالفين و على المرائي و بعض العصاة من المؤمنين و لا يجوز أن يكون الحكم بالنّجاسة ثابتاً للكلّ فتعيّن صرف إطلاق الآية الكريمة الى المشرك الّذي جعل معه تعالىٰ إلٰهاً إقتصاراً علىٰ موضع اليقين دون المشرك بحسب الطّاعة أو يقال بثبوت الحكم لكلّ من إتّصف بذلك إلاّ من قام الدّليل علىٰ خروجه فيكون من قبيل العامّ و الخاصّ انتهىٰ ما ذكره قدس سره.

و أنا أقول لابدّ لنا مِن تحقيق معنى الشّرك أوّلاً ثمّ التكلّم في الآية ثانياً.

و أعلم أنّ **الشِّرك** بكسر الشّين مصدر قولك **شَرِك شِركاً** و هو في الأصل يطلق علىٰ **الشِّركة** **والمشاركة** بخلط الملكين و قيل هو أن يوجد شئ لأثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشّئ أو معنىً كمشاركة الإنسان و الفرس في الحيوانيّة و مشاركة فرسٍ و فرسٍ في الكمتة والدهمة يقال **شَركتُه** و **شارَكتُه** و **تشاركوا** و **إشتَركوا** و **أشرَكتَه** في كذا كما قال تعالى حكايةً عن موسىٰ عليه السلام **وأشرِكهُ في أمري** و في الحديث **اللّهم أشركنا في دعاء الصّالحين** و من المعلوم أنّ الشرّك بهذا المعنى من الأمور المتعارفة بين النّاس و ليس المراد من المشرك في الأيات هذا المعنى و أنّما المراد به فيها هو الشّرك في الدّين و هذا هو الّذي يحكم بنجاسته و هو على قسمين:

أحدهما: الشّرك العظيم و هو إثبات شريكٍ للّه تعالى يقال أشرك فلان باللّه و ذلك أعظم كفرٍ قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**[1].

١- النساء = ٤٨

الثّاني: الشّرك الصّغير و هو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور و هو الرّياء و النّفاق المشار اليه بقوله: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّٰا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ** و غيرها من الأيات و لا شكّ أنّ الشّرك بالمعنى الثّاني أعني به الشّرك الصّغير أيضاً خارج عن مورد البحث إذ لا يحكم بنجاسته قطعاً فبقى في المقام قسمٌ واحد الشّرك العظيم الّذي لا يغفر و هذا هو المراد في الآية و قد قسّم بعض المحقّقين الشّرك على أقسامٍ ثلاثة بحسب الأيات:

أحدها: الشّرك باللّه و هو الشّرك الأعظم.

الثّاني: الشّرك في الطّاعة.

الثّالث: الشّرك بمعنى الرّياء والنّفاق انتهىٰ.

و لا شكّ أنّ مورد البحث في الآية هو الأوّل إذا عرفت هذا.

فنقول المشرك يطلق على معانٍ:

أحدها: من جعل للّه شريكاً في إستحقاق العبادة و ذلك كمشركي العرب و امثالهم فأنّهم بعد علمهم بأنّ صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته حيث حكى اللّه عنهم:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلّٰا لِيُقَرِّبُونٰآ إِلَى ٱللّٰهِ زُلْفىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّه**[٣].

الثّاني: من جعل له شريكاً في خالقيته و صانعيّته و ذلك كالثّنوية، القائلين بالنّور و الظّلمة فجعلوا النّور فاعل الخيرات و الظّلمة فاعل الشرور.

١- الزّمر =٣ ٢- لقمان =٢٥

٣- العنكبوت =٦١

الثّالث: من نسب اليه تعالى في صفاته الذّاتية ما لا يليق بذاته المقدّسة كالأشاعرة القائلين بزيادة صفاته على ذاته و أنّ العباد مجبورون في أفعالهم و غير ذلك من المقالات السَّخيفة، و كالكرّامية القائلين بإتّصافه تعالى بالصّفات الموجودة الحادثة و كالنّصارى القائلين بأنّه تعالىٰ جوهر واحد من ثلاث أقانيم هي الوجود، و العلم و الحياة، المعبّر عندهم بالأب و الأبن و روح القدس و يقولون الجوهر القائم بنفسه و الأقنوم الصِّفة ثمّ قالوا، الكلمة و هي أقنوم العلم إتحدّت بجسد المسيح و تدرَّعت بناسوته بطريق الإمتزاج كالخمر بالماء عند الملّكائية و بطريق الإشراق كما تشرق الشّمس من كور على كورٍ عند النَّطورية و بطريق الإنقلاب لحماً و دماً بحيث صار الإلٰه هو المسيح عند اليعقوبيّة و منهم من قال ظهراً اللاّهوت بالنّاسوت كما يظهر الملك في صورة البشر و قيل ترَّكب اللاّهوت و النّاسوت كالنّفس مع البدن و قيل أنّ الكلمة قد تداخل الجسد فيصدر عنه خوارق العادات و قد تفارقه فتحلّه الآلام.

و كمذهب الغلاة قالوا لا يمتنع ظهور الرّوحاني بالجسماني كجبرئيل في صورة دحية الكلبي و كبعض الجنّ في صورة الأناسّي فلا يبعد أن يظهر اللّه في صورة بعض الكاملين و أولى النّاس بذلك أمير المؤمنين عليه السلام و أولاده الّذين هم خير البرّية في الكمالات العلّمية و العمَّلية فلهذا كان يصدر عنهم من العلوم و الأعمال ما هو فوق الطّاقة البشّرية و نحو ذلك من المذاهب الباطلة، فيصدق على أهل هذه المذاهب أنّهم مشركون لأنّ معبودهم الّذي يعبدونه ليس هو المعبود الّذي ليس كمثله شئ الّذي لا تدركه الأبصار و لا يحطيون به علماً.

الرّابع: من نسب اليه تعالى النّقص في أفعاله كالعجز و الظّلم و ترك اللُّطف و نحو ذلك كقول اليهود **يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ** فأنّ معبودهم ليس هو المعبود بالحقّ هذا تمام الكلام في معاني الشِّرك و إطلاق المشرك و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ النّجاسة ثابتة للقسم الأوّل و الثّاني فأنّ مشركي العرب و الثَّنوية

القائلين بالنُّور و الظُّلمة داخلون في هذا الشِّرك بلا كلام و لا خلاف في نجاستهم أيضاً.

و أمّا القسم الثّالث و الرّابع فمختلفٌ فيه فمنهم من قال أو يقول بنجاستهم و منهم من لا يقول بها بعد إتّفاقهم على كفرهم و خروجهم عن ربقة المؤمنين و للبحث فيه مقام آخر و مقتضى القاعدة العقّلية هو الأخذ بالمتّقين و ترك المشكوك.

و المتيقّن هو القسم الأوّل و الثّاني من معنى المشرك في الآية لإتّفاق الكلّ على شِركهم و نجاستهم شرعاً سواء كان المراد بالنّجاسة هو خبث باطنهم و سوء إعتقادهم على ما قيل أو يكون المراد بها نجاسة ظواهرهم بالنّجاسات العارضة لأنّهم لا يغتسلون من الجنابة كما هو قول الأخرين والّذي عليه علماءنا هو أنّ المراد بها نجاسة ذواتهم بالنّجاسة الشّرعية كالكلاب و الخنازير و هو المنقول عن إبن عبّاس و هو مذهب الرّازي و جماعة منهم أيضاً الظّاهر المتبادر لغةً و عرفاً.

ثمّ أنّ علماءنا قد أطبقوا على نجاسة ما عدا اليهود و النّصارى من أصناف الكفّار و أمّا هذان الصّنفان فالمشهور عندهم أيضاً النّجاسة و خالف في الحكم إبن الجنيد و إبن عقيل و المفيد و جمعٌ من المتّقدمين و المتّأخرين فأنّهم أفتوا بطهارة أهل الكتاب و البحث فيه موكولٌ الى الفقه اذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية فنقول:

أخبر اللّه تعالى رسوله و المؤمنين بأنّ المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام الفاء للتّفريع أي أنّ النّهي متّفرعٌ على نجاستهم و القرب كناية عن دخولهم المسجد و المستفاد من الآية هو أنّ المانع نجاستهم و هو كذلك.

قال بعض المحقّقين المراد بالمسجد تمام الحرم من تسمية الشّئ بإسم أجزاءه و قيل المراد نفس المسجد و النّهي عن القرب للمبالغة كقوله تعالىٰ: **وَلاٰ تَقرِبُوا الزِّنٰا، وَلاٰ تَقرِبُوا الصَّلاٰة** و هذا أمر للمؤمنين بأن لا يمكّنوهم ذلك كما يدلّ عليه صدر الآية.

و قال أبو حنيفة النّهي عن الحجّ و العمرة خاصّة دون المسجد، و ليس بشئ لأنّه خلاف المتبادر و أمّا قوله: **بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا** فالمراد بالعام سنة تسع من الهجرة لأنّ في هذه السّنة بعث النّبي أبا بكر بسورة براءة ثمّ أمر اللّه بردّه و أن لا يقرأها إلاّ هو أو أحد من أهل بيته فبعث صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليّاً عليه السّلام فقرأها على أهل الموسم على ما مرّ تفصيله و قيل هي سنة حجّة الوداع.

وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شٰاءَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قيل أنّ المؤمنين خافوا العيلة و هى الفقر بسبب إنقطاع المشركين و ذلك لأنّ أمر التّجارة كان بأيديهم فقال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ خِفْتُمْ** أيّها المؤمنون العيلة و الفقر فسوف يغنيكم اللّه من فضله بسبب الجزية و غيرها فأنّ الرّازق هو اللّه تعالى و أنّما علّقه على المشيّئة لأنّ منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به لأنّه يجوز أن يموت قبله في قول أبي علّي.

و القول الأخر، أي لتنقطع الأمال الى اللّه تعالى كما قال:

لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ آمِنِينَ(١).

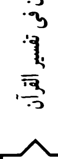
و قوله: **إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** دمعناه أنّه تعالىٰ عالم بمصالحكم حكيمٌ في منع المشركين من دخول المسجد الحرام.

تنبية

يستفاد من الآية أحكام:

أحدها: نجاسة المشرك فيتّفرع عليه نجاسة ما باشره برطوبة و تحليل طعامهم قد عرفت معناه.

الثّاني: كون نجاستهم من جهة الشِّرك فلا تحصل لهم الطّهارة ما دام هذا الوصف ولو غسّلوا أبدانهم بالماء فلا تطهر إلاّ بالإسلام.




١- الفتح =٢٧

الثّالث: عدم دخولهم المسجد الحرام بل مطلق المساجد كما يفهم من تعليق الحكم على كونهم نجساً بل يفهم منه عدم جواز إدخال مطلق النّجاسة الى المسجد و أن لم تكن متعديّة.

الرّابع: عدم جواز التّمكين من إدخالها اليها و قد يفهم وجوب إخراجها و إزالتها عن المساجد و تفصيل البحث في الفقه.

قٰاتِلُوا اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ اَلْحَقِّ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ حَتّٰى يُعْطُوا اَلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ

قيل نزلت الآية حين أمر الرّسول بغزو الرُّوم و غزا بعد نزولها تبوك.

و قيل نزلت في قريظة و النَّضير فصالحهم و كانت أوّل جزية أصابها المسلمون.

أقول هذه الآية دالّة على وجوب قتال أهل الكتاب و قد وصفهم اللّه بصفاتٍ أربع كلّ واحدةٍ منها موجبة لقتالهم.

الأُولىٰ: كونهم لا يؤمنون باللّه في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين بالتَّوحيد و الى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ** و أنّما قلنا في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين به لأنّ أهل الكتاب موّحدون ظاهراً و مع ذلك أمر اللّه في هذه الآية بقتالهم لأنّهم يعتقدون أنّ معبودهم على صفةٍ يستحيل أن يكون الموصوف بها هو اللّه سبحانه كقولهم عزير إبن اللّه و المسيح إبن اللّه و نحو ذلك ممّا أشرنا اليه في الآية السّابقة عند قوله: **إِنَّمَا اَلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**

الثّانية: كونهم لا يؤمنون باليوم الأخر أي لا يؤمنون بالبعث و النّشور.

الثّالثة: كونهم لا يحرّمون ما حرَّم اللّه كنكاح المحرّمان و أكل لحم الخنزير و نحو ذلك و اليهما الإشارة بقوله: **وَ لاٰ بِالْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ** و المراد بالرّسول نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتحمل موسى و عيسى عليهما السّلام حيث أخبرا بالنّبي و بدينه و أمرا بإتّباعه فحرَّفوا و خالفوا.

الرّابعة: كونهم و لا يدينون دين ٱلحقّ أي الإسلام الذّي هو ناسخ للأديان و هم لا يعتقدون صحته و إليه الإشارة بقوله: **وَ لاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ**.

و قوله: **مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ** يشمل المجوس أيضاً و يدلّ عليه.

ما رواه إبن بابويه في الصّحيح عن إبن عمير عن سماعة بن مهران عن أبي عبد اللّه عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال أنّ ذمّة المجوس مثل ذمّة اليهود و النّصارىٰ و قال أنّهم أهل الكتاب

أن قلت كيف يحكم بأنّ دين هؤلاء من أهل الكتاب ليس دين الحقّ و المفروض أنّ دينهم كان من قبل اللّه تعالى لأنّ موسى و عيسى عليهما السلام و هكذا نبيٌّ المجوس بناء على كونهم من أهل الكتاب من قبل اللّه تعالى و ما كان من قبله فهو حقّ و أيّ فرقٍ بين أديانهم و دين الإسلام و المفروض أنّ الجميع من اللّه تعالىٰ.

قلت أنّما حكم ببطلان دينهم في عهد رسول الإسلام لا مطلقاً و ذلك لأنّ أديانهم بعد مجئ الإسلام صارت منسوخة و ما كان كذلك فهو باطل من حيث عدم جواز العمل به بعد نسخه ولو كان قبل النَّسخ حقّاً هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ التّوراة والإنجيل قد غَيَّروهما و بَدَّلوهما و حرَّفوهما بأيديهم كان كذلك لا يجوز التَّدين به و العمل بأحكامه لأنّ الموجود ليس من قبل اللّه تعالى و هذا لا ينافي كونه حقّاً في الأصل.

و أمّا قوله: **حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ** دفهو غاية لقتالهم فتدلّ الآية على أنّ الحكم فيهم القتل أو الجزية.

أمّا القتل فلقوله: **قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ.**

و أمّا الجزية فلقوله: **حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ** أي قاتلوهم حتّى حصلت الغاية و يستفاد من الآية مفهوماً أنّ من زالت عنه الصّفات المذكورة و دخل في الإسلام فلا يقتل و لا تؤخذ منه الجزية و هو كذلك.

و قد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: القتال قتالان قتال لأهل الشّرك لا ينفر عنهم حتّىٰ يسلموا أو يؤدّوا الجزية عن يدٍ و هم صاغرون و قتال لأهل الزّيغ لا ينفر عنهم حتّىٰ يفيئوا الى اللّه أو يقتلوا وقد يفهم من الإطلاق أنّ من ضربت عليه الجزية فأسلم سقطت عنه الجزية و أن كان ذلك بعد حلول وقت أجل الجزية

و بذلك قال جماعة منهم المفيد في المقنعة و الشّيخ في النّهاية و قيل اذا كان الإسلام بعد حلول الأجل لا يسقط.

و إعلم أنّه يشترط مع قبولهم الجزية شروط:

أحدها: أن لا يؤذوا المسلمين في أنفسهم و أموالهم و نساءهم.

ثانيها: أن لا يتظاهراً بشئ من المحرّمات في دين الإسلام كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و ضرب النّاقوس و إحداث البيع و الكنائس.

ثمّ أنّ الجزية منوطة برأي الإمام كمّاً و كيفاً و عليه دلّت الأخبار خلافاً للعامّة، و لا تؤخذ الجزية من النّساء و لا من الصّغير و لا من المعتوه و لا من الفقير و لا من الشّيخ القاني.

و يجوز أخذ الجزية من أثمان المحرّمات كثمن لحم الخنزير و ثمن الخمر و غير ذلك و أمّا قوله: **عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ** فقد إختلفوا في المراد باليّد في المقام.

فقال قوم معناه نقداً لا نسيئةً من قولهم يعتُه يداً بيدٍ، و قيل معناه أنّهم يعطونها و يسلّمونها بأيديهم لا على يد نائبٍ و وكيلٍ لأنّه أنسب بالصّغار و الذّلة.

و قيل عن قهرٍ و قدرةٍ لكم عليهم، و قيل اليد هنا بمعنى النّعمة فيعطونها على وجهٍ يرون أنّ لكم عليهم النّعمة بإقرارهم على دينهم و قبولكم منهم الجزية و قوله و هم صاغرون، جملة حاليّة من ضمير يعطوا.

روي في الفقيه في الصّحيح عن حريز عن زرارة قال قلت لأبي عبد اللّه ما حدّ الجزية على أهل الكتاب و هل عليهم في ذلك شئ موّظف لا ينبغي أن يجوز الى غيره فقال عليه‌السلام: ذلك الى الإمام يأخذ من كلّ إنسانٍ منهم ما شاء علىٰ قدر ماله و ما يطيق أنّما هم قومٌ فدوا أنفسهم أن لا يستعبدوا أو يقتلوا فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم به حتّى يسلموا قال اللّه عزّ وجلّ: حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ و هو لا يكترث لما يؤخذ منه حتّى يجد ذلاًّ لما أخذ منه فيألم لذلك فيسلم انتهىٰ.

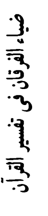
أقول يظهر من الرّواية أنّ الصّغار يحصل بمجموع شيئين:

أحدهما: عدم تقديرها بقدرٍ ليبقى غير موّطنٍ نفسه على شئ.

الثّانى: إلزامهم بما يراه مجحفاً بهم بالنّسبة الى أحوالهم و بذلك تحصيل لهم الخوف و الإضطراب المفضي الىٰ الذِّلة.

و قال إبن إدريس اختلف المفسّرون في الصِّغار و الأظهر أنّه إلزام أحكامنا و إجرائها عليهم و أن لا تقدر الجزية بل بحسب ما يراه الإمام و هو قول الشّيخ في الخلاف و المبسوط.

و قيل هو أن تؤخذ الجزية منه قائماً و المسلم جالس و يقال له أدِّ الجزية و أنت صاغر و يصفع على قفاه صفعة و قيل هو أن يدفع و يقهر بحيث تظهر ذلّته.



و نقل عن المفيد هو أن يأخذهم الإمام بما لا يطيقون حتّى يسلموا هذا تفسير الآية على ما هو الحقّ عندنا.

و أمّا العامّة فقد سلكوا مسلكاً أخر في تفسير الآية.

فقال القرطبي في قوله: **قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ ٱلْأٰخِرِ** أنّ اللّه أمر بمقاتلة جميع الكفّار لإصفاقهم على هذا الوصف و خصّ

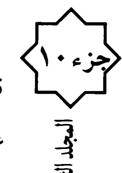
أهل الكتاب بالذّكر إكراماً لكتابهم و لكونهم عالمين بالتّوحيد و الرُسل و الشّرائع و الملل و خصوصاً ذكر محمّد ﷺ و ملّته أمّته فلمّا أنكروه أكدّت عليهم الحجّة و عظمت منهم الجريمة فنبَّه على محلّهم ثمّ جعل للقتال غاية إعطاء الجزية بدلاً عن القتل و ساق الكلام الى أن قال إختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية.

قال الشّافعي لا تقبل الجزية إلاّ من أهل الكتاب خاصّة عرباً كانوا أو عجماً لهذه الآية فأنّهم هم الّذين خصّوا بالذّكر فتوجّه الحكم اليهم دون من سواهم لقوله عزّ و جلّ: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**[1] و لم يقل حتّىٰ يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب و تقبل من المجوس بالسنّة و به قال أحمد و أبو ثور و هو مذهب الثُّوري و أبو حنيفة و أصحابه.

و قال الأوزاعي تؤخذ الجزية من كلّ عابدٍ و ثنٍ أو نارٍ أو جاحدٍ أو مكذّبٍ و كذلك مذهب مالك فأنّه رأى أنّ الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشّرك و الجحد كائناً من كان إلاّ المرتد.

و قال إبن القاسم و أشهب و سحنون تؤخذ الجزية من مجوس العرب و الأمم كلّها و أمّا عبدة الأوثان فلم يستّن اللّه فيهم جزية ثمّ ذكر في المقام أقوالاً كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و التّعرض لها لأنّهم قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و لم يستندوا أقوالهم و آراءهم الى ركنٍ وثيقٍ فقالوا ما شاءوا في تفسير كلام اللّه و لم يخافوا في ذلك لومة لائم.

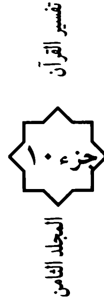
و قال القرطبي أيضاً في مقدار الجزية ما لفظه الرّابعة لم يذكر اللّه سبحانه و تعالىٰ في كتابه مقداراً للجزية المأخوذة منهم وقد إختلف العلماء فيه فقال عطاء إبن أبي رباح لا توّقيت فيها و أنّما هو على ما صولحوا عليه و به قال يحيى بن آدم و أبو عبيد و الطَّبري إلاّ أنّه أي الطّبري قال أقلّه دينار و أكثره لا



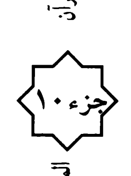
١- التوبة = ٥

حدَّ له و قد أطال الكلام في نقل الأقوال الّتي لا فائدة فيها لا علماً و لا عملاً أن شئت الإطّلاع عليها فعليك بمراجعة كتابه فأنّ العمر أعزّ و أشرف من صرفه حول هذه الموهومات الّتي تفوّهوا بها، و من يحيى إبن آدم و أبو عبيد و إبن القاسم و أشهب و سحنون و أمثالهم حتّى ينقل كلماتهم في تفسير كلام اللّه و اللّه من وراء القصد.

■



وَ قَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَ قَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ «٣٠» ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٣١» يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ «٣٢» هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ «٣٣» يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَ ٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَ ٱلْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٣٤» يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ «٣٥»



◄ اللّغة

يُضَاهِؤُنَ أي يشابهون و منه قولهم إمرأة ضهياء الّتي لا تحيض و لا يخرج ثدياه أي أشبهت الرّجال.

يُؤْفَكُونَ، الإفك الكذب و المعنى يصرفون عن الحقّ.

أَحْبَارَهُمْ و هو جمع حبر و هو العالم الّذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان.

رُهْبَانَهُمْ، الرُّهبان بضمّ الرّاء جمع راهب و هو الخاشي الّذي يظهر عليه للنّاس الخشية و قد كثر إستعماله في متنسكي النّصارىٰ.

يُطْفِؤُا، الإطفاء إذهاب نور النّار ثمّ أستعمل في إذهاب كلّ نورٍ.

يَكْنِزُونَ أصل الكنز كبس الشّئ بعضه على بعضٍ و منه قولهم كنز التّمر و الطّعام.

يُحْمَىٰ بضمّ الياء بصيغة المجهول و الإحماء جعل الشّئ حاراً في الإحساس و هو فرق الإسخان و ضدّه التّبريد.

فَتُكْوَىٰ بضمّ التّاء أيضاً بصيغة المجهول، و الكّي إلصاق الشّئ الحّار بالعضو من البدن.

جِبَاهُهُمْ جمع جبهة و هى صفحة أعلى الوجه فوق الحاجبين.

جُنُوبُهُمْ جمع جنب و هو الضّلع.

ظُهُورُهُمْ جمع ظهر و هو الصّفحة العليا من الخلف



◀ الإعراب

عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ مبتدأ و خبر ولم يحذف التنوين من عزير إيذاناً بأنّه مبتدأ و أنّ ما بعده خبر و ليس بصفة و يقرأ بحذف التنّوين أيضاً و فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه مبتدأ و خبر أيضاً و أنّما حذف التنّوين لإلتقاء السّاكنين.

الثّاني: أنّ عزير خبر مبتدأ محذوف تقديره نبيّنا أو صاحبنا أو معبودنا و إبن، صفة أو يكون عزير مبتدأ و، إبن، صفة و الخبر محذوف و تقديره عزير إبن اللّه صاحبنا.

الثّالث: أنّ إبناً بدل من عزير أو عطف بيان.

ذٰلِكَ مبتدأ و قَوْلُهُمْ خبره و بِأَفْوٰاهِهِمْ حال و العامل فيه القول يُضٰاهِؤُنَ الجمهور على ضمّ الهاء من غير همزٍ و الأصل، ضاهي، و الألف منقلبة عن ياء و حذفت من أجل الواو و قرئ بكسر الهاء و همزة مضمومة بعدها و هو ضعيف و الأشبه أن يكون لغة في ضاهي و ليس مشتقّاً من قولهم إمرأة ضهياء لأنّ الياء أصل و الهمزة زائدة و لا يجوز أن تكون الياء زائدة إذ ليس في الكلام فعيل بفتح الفاء وَ اَلْمَسِيحَ أي و أتّخذوا المسيح ربّاً فحذف الفعل واحد المفعولين و يجوز أن يكون التّقدير و عبدوا المسيح وَ اَلَّذِينَ يَكْنِزُونَ مبتدأ و الخبر يَوْمَ يُحْمىٰ يوم ظرف على المعنى أي يعذّبهم في ذلك اليوم و قيل تقديره عذاب يوم و قيل التّقدير، أذكر عذاب يوم يحمى، و عَلَيْهٰا في موضع رفع لقيامه الفاعل.

◀ التّفسير

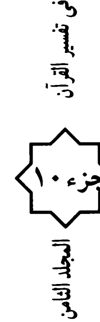
وَ قٰالَتِ اَلْيَهُودُ عُزَيْرٌ اِبْنُ اَللّٰهِ وَ قٰالَتِ اَلنَّصٰارىٰ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ اَللّٰهِ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية المتّقدمة على اليهود و النّصارى بأنّهم لا يؤمنون باللّه شرح ذلك في هذه الآية و قال قٰالَتِ اَلْيَهُودُ كذا و النّصارى قالت كذا، و تقريره أنّ من أثبت ابنا للّه تعالى فهو في الحقيقة منكرٌ له و داخل في زمرة المشركين فأنّ طرق الشِّرك كثيرة إذ لا فرق بين من يعبد الصَّنم و من يعبد المسيح و غيره لأنّه لا معنى للشِّرك إلاّ أن يتّخذ الإنسان مع اللّه معبوداً فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشِّرك بل قال بعض المحقّقين أنّ كفر النّصارى أو اليهود أشدّ من كفر عابد الوثن لأنّ عابد الوثن لا يقول بأنّ الوثن خالق العالم أو أنّ الخالق إتّحد مع الوثن بل جعل الوثن ممّا يتّقرب به الى اللّه و أمّا اليهود و النّصارى فأنّهم يثبتون الحلول و الإتّحاد و ذلك كفرٌ قبيح جدّاً فثبت أنّه لا فرق بين هؤلاء الحلوليّة و بين سائر المشركين و أنّما خصّهم بقبول الجزية منهم لأنّهم في الظّاهر ألصقوا أنفسهم بموسى و عيسى و أدّعوا أنّهم يعملون

بالتّوراة و الإنجيل فقبول الجزية منهم أنّما هو لأجل تعظيم هذين الرّسولين المغطمين و تعظيم كتابيهما و تعظيم أسلاف هؤلاء اليهود و النّصارى بسبب أنّهم كانوا على الدّين الحقّ انتهى موضع الحاجة منه.

ثمّ أنّ المفسّرين قد أجمعوا على أنّ القائلين بتلك المقالة السّخيفة لم يكن إلاّ بعضهم بل قيل رجلٌ واحدٌ منهم إسمه فغاص بن عازوراء و قد نقلوا عن إبن عبّاس أنّه قال أتى جماعة من اليهود الى رسول اللّه، و هم سلام بن مشكم و النّعمان بن أوفى، ومالك بن الصَّيف و قالوا كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا تزعم أنّ عزير إبن اللّه فنزلت هذه الآية و على هذا فالقائلون بهذا المذهب بعضهم لا جميعهم إلاّ أنّ نسبة القول الى الجميع على عادة العرب في إيقاع إسم الجماعة على الواحد، و أنت ترى أنّ إطلاق إسم الجماعة على الواحد ليس من عادة العرب أمّا على الأكثر فلا إشكال فيه فلا يعقل أن يكون القائل شخصاً واحداً من اليهود و قد قال اللّه و قالت اليهود، بل يستفاد من قوله تعالى أنّ أكثر اليهود كانوا قائلين بها و هكذا بالنّسبة الى النّصارى و أمّا وجه بطلان مقالتهم فلأنّ إثبات الأبن له تعالى يوجب إدخاله في المحدثات لأنّ التّوالد و التناسل من شؤن الحادث.

و أمّا القديم فلا يتّصف بصفة الحادث و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ البنوة لا تتحقق إلاّ على طريق الولادة لأنّه على سبيل الإيجاد بغير الولادة لا يكون إبناً بل هو مخلوق لخالقه كغيره من المخلوقات و إذا كان الأبن لا يوجد إلاّ من طريق الولادة فلابدّ له من الأمّ و لازم ذلك هو أن يكون له تعالى صاحبة ثمّ المضاجعة و لا يحصل المطلوب إلاّ ببركة الشّهوة الجنسيّة و هى لا توجد إلاّ في الأجسام المركّبة إذ الموجود البسيط لا شهوة له فيلزم من القول بالبنوّة هذه المحاذير كلّها و لا شكّ أنّها من شؤن المخلوق الحادث فيلزم أن يكون من المحدثات.



ثانياً: قد ثبت أنّ اللّه تعالى غنّي بالذّات عن جميع ما سواه و حينئذٍ فنقول أن كان غنيّاً عن الأبن فالمطلوب ثابت و أن كان محتاجاً اليه فكلّ محتاج ممكنٌ و كلّ ممكنٍ يجوز عليه العدم و المفروض أنّه واجب الوجود الّذي يستحيل عليه العدم و هو كما ترى.

ثالثاً: لاشكّ أنّه تعالى واجب الوجود و أمّا الإبن فأن كان ممكناً فهو مثل غيره من الممكنات و أن كان واجباً يلزم تعدّد القديم مضافاً الى عدم إمكان كونه قديماً لأنّ المفروض وجوده بعد وجود الواجب فهو حادث و كلّ حادثٍ ممكن و محصّل الكلام هو أنّ إثبات الإبن له تعالى كفرٌ محض ينكره العقل السليم و لا يقول به إلاّ مخبطٌ مجنون و لا كلام لنا معه و لعّله لأجل هذه الدقيقة و هي أنّ العقل السليم لا يقبل تلك المقالة و أمثالها قال تعالى: **ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ يُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** فأنّ قوله: **بِأَفْوٰاهِهِمْ** يدّل على عدم إعتقاد هؤلاء أيضاً بما يقولون و ذلك لأنّهم لم يكونوا من سنخ المجانين ظاهراً و العاقل لا يعتقد بما ينكره العقل و أن تفّوه به ظاهراً و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى في وصف المنافقين بقوله: **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مٰا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**[1] و ذلك لأنّ اللّسان يقدر أن يتكلّم بما شاء و العقل لا يكون كذلك فأنّه إذا أدرك شيئاً و أعتقد الإنسان صحّته فلا يمكن له أن يعقل خلافه مثلاً إذا حكم العقل بأنّ الواحد نصف الإثنينِ فلا يمكن له أن يحكم بأنّ الواحد ضعف الإثنين و لعلّه لذلك قال تعالى: **بِأَفْوٰاهِهِمْ** ولم يقل بقلوبهم مثلاً و نظائره كثيرة في المحاورات فأنّ كثيراً من النّاس يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

إن قلت أن كان الأمر كما ذكرت فلم يحكم بكفرهم و المفروض أنّهم لم يعتقدوا ذلك.

١- الفتح = ١١

قلت مدار الحكم بالكفر و الإيمان على اللسان دون القلب فمن أنكر التّوحيد و النُّبوة بلسانه يحكم بكفره و أن أعتقد بقلبه خلاف ما ذكره باللسان و من أقَّر بهما يحكم بإسلامه و أن كان في القلب منكراً و هكذا في المقام حكم اللّه بكفر اليهود و النّصارى لقولهم بأنّ عزير إبن اللّه و المسيح إبن اللّه ألا ترى أنّه تعالى قال بعد ذلك: **يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ولم يقل إعتقاد الّذين كفروا مثلاً ففيه إشارة الى أنّ الملاك في نسبة الكفر أو الإيمان هو القول باللّسان فقط و كيف يعقل أن يقول عاقل بهذه المقالة السّخيفة الباطلة و في قوله: **يُضَاهِؤُنَ** حيث شبّه قول اليهود و النّصارى بقول الكفّار الّذين أنكروا وجوده تعالى رأساً، إشارة الى عدم الفرق بين القولين واقعاً و أن كان بينهما فرق ظاهراً لأنّ الكفار أنكروا وجوده تعالى هؤلاء لم ينكروا وجوده بل أثبتوه إلاّ أنّهم قالوا ولد: و ذلك لأنّ الإله الّذي له ولد فهو ليس بإلٰهٍ بل هو مخلوق محدث كغيره فأيّ فرق بين هذا الإله الممكن و بين من أنكر وجوده رأساً فكما يحكم بكفر المنكر يحكم بكفر من أثبت الإله الّذي له ولد **قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** أي لَعنهم اللّه وقيل، قتلهم اللّه أنّى يؤفكون، أي كيف يصرفون عن الحقّ الى الإفك الّذي هو الكذب و الحّق و هو ظاهرٌ لا خفاء فيه.

ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن اليهود و النّصارى أنّهم إتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون اللّه و المسيح إبن مريم أي و أتّخذوه أيضاً ربّاً و الحال أنّهم كانوا مأمورين بعبادة اللّه الواحد الّذي لا إله إلاّ هو الّذي منّزهٌ عن الشِّرك

أن قلت كيف إتّخذوا المخلوق ربّاً و هم عقلاء و العاقل يعلم أنّ المخلوق لا يكون خالقاً.

قلت ليس المراد بالرّب في قوله: **أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ** الرّب بمعنىٰ الخالق كما في قوله: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ** بل المراد منه في الآية أنّهم كانوا مطيعين لأحبارهم و رهبانهم في جميع الأمور و أمّا بالنّسبة الى المسيح فالظّاهر أنّهم كانوا يقولون بالإلوهيّة و عليه فالرّب في المعطوف و المعطوف عليه يفترق من حيث المراد و توضيحه أنّ كلمة الرّب في الأصل بمعنى التربيّة إنشاء الشّئ حالاً فحالاً الى حدّ التّمام يقال ربّه و ربّاه و ربّبه يُقال لإنّ يربّني رجلٌ من قريش أحبّ إلّي من أن يربّني رجل من هوازن فالرّب مصدر للفاعل و لذلك لا يقال الرّب مطلقاً إلاّ للّه تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **آمَنَّا بِرَبِّ اَلْعَالَمِينَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **رَبِّ مُوسَىٰ وَ هٰرُونَ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِيمِ**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ آخِرُ دَعْوٰيهُمْ أَنِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ**[6].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ**[7].

وأمثال ذلك من الأيات الّتي أطلقت فيها كلمة الرّب على اللّه تعالى كثيرة جدّاً و أمّا إطلاق الرّب على المخلوق أيضاً كثير.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَغَيْرَ اَللّٰهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ**[8].

و حكاية عن يوسف عليه السلام.

١- سبأ =١٥
٢- الأعراف =١٠٤
٣- الأعراف = ١٢١
٤- الأعراف =١٢٢
٥- التّوبة =١٢٩
٦- يُونس =١٠
٧- الشّعراء =١٦
٨- الأنعام =١٦٤

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا صٰاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمّآ أَحَدُكُمٰا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْسٰيهُ ٱلشَّيْطٰانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**[٢].

و حكاية عن فرعون.

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا وَلِيدًا**[٣].

و يقال ربّ الدّار و رّب الفرس قال عبد المطّلب عليه السلام أنا ربّ الإبل و للبيت ربّاً، إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **اِتَّخَذُوٓا أَحْبٰارَهُمْ أَرْبٰابًا** ليس المراد أنّهم إتّخذوا آلهة بل المراد بالرّب هو المعنىٰ الثّاني أعني به الرّئيس و الزّعيم و المطاع و أمثال ذلك إذ لم يقل أحد بأنّ الحبر هو اللّه أو الرّاهب هو اللّه و هو معلوم لا خلاف فيه.

و قد روي الثّعلبي - في تفسيره بأسناده عن عدّي بن حاتم قال أتيت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم وفي عنقي صليب فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا عدّي أطرح هذا الوثن عن عنقك فطرحته ثمّ أتيت اليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الأية: اِتَّخَذُوٓا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰابًا حتّىٰ فَرَغ منها فَقُلت له صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّا لَسنا نَعبُدهم قال صلّى الله عليه وآله وسلّم اَليس يُحّرمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه و يحلّون ما حرّم اللّه فتحلّونه قال فقلت بلى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم فتلك عبادتهم إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير قال: سئلت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: اِتَّخَذُوٓا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰابًا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فقال عليه السلام: أما و اللّه ما دعوهم الى عبادة أنفسهم و لو دعوهم الى عبادة أنفسهم لما أجابوهم ولكن أحلّوا حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

١- يوسف =٤١ ٢- أية ٤٢

٣- الشّعراء =١٨

و بأسناده عنه عليه السلام قال: من أطاع رجلاً في معصية اللّه فقد عبده إنتهىٰ.

و في تفسير العياشى: عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قال عليه السلام: أما و اللّه ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فأتّبعوهم إنتهىٰ.

و في خبر آخر عنه عليه السلام ولكّنهم أطاعوهم في معصية اللّه.

و عن جابر عنه عليه السلام قال سئلت عن قول اللّه عزّ وجلّ: ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قال عليه السلام: أما أنّهم لم يتّخذوهم آلِهة، إلاّ أنّهم أحلّوا حراماً و حرّموا حلالاً فأخذوا به فكانوا أربابهم من دون اللّه تعالى إنتهىٰ[1].

و في تفسير علّي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ قال عليه السلام: أمّا المسيح فعصوه وعظّموه في أنفسهم حتّى زعموا أنّه إلٰه و أنّه إبن اللّه و طائفة منهم قالوا ثالث ثلاثة و طائفة منهم قالوا هو اللّه و أمّا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ فأنّهم أطاعوه و أخذوا بقولهم و أتّبعوا ما أمروهم به و دانوا بهم بما دعوهم اليه فأتّخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم و تركهم ما أمر اللّه و كتبه و رسله فنبذوه وراء ظهورهم و ما أمرهم به الأحبار و الرُّهبان إتّبعوه و أطاعوه و عصوا اللّه و إنمّا ذكر هذا في كتابنا لكي نتّعظ بهم فعّير اللّه بني إسرائيل بما صنعوا يقول اللّه: وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ إنتهىٰ[2].

١- تفسير نُور الثّقلين ص ٢٠٩ ج ٢
٢- ص ٢٨٩

أقول يستفاد من هذه الأخبار و لا سيّما الأخير منها تفسير الآية بأوضح بيانٍ و محصّل الكلام هو أنّ الأرباب في قوله: **اِتَّخَذُوٓا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰابًا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ** أطاعوهم فيما أمرهم به و نهوهم عنه و يستفاد أنّ الإطاعة بلا قيد و شرط مخصوصة باللّه تعالى و أمّا غيره كائناً من كان فالإطاعة منه مشروطه بكون المطاع آمراً بما أمر اللّه به و ناهياً عمّا نهى اللّه عنه و أمّا إذا قال من عند نفسه ما شاء و أراد و إن إنتحله الى اللّه فلا يجب طاعته بل تحرم لأنّ طاعته طاعة الشّيطان بعينه.

و أمّا قوله: **وَ اَلْمَسِيحَ** فإطلاق الرَّب عليه ليس من سنخ إطلاقه علىٰ الأحبار و الرُّهبان بل الرَّب هنا بمعنىٰ الإله علىٰ ما ذكره الإمام في الحديث الأخير و قد تكلّمنا فيه سابقاً و قلنا أنّ كثيراً بل أكثرهم لولا كلّهم قالوا بأنّ المسيح إبن اللّه أو هو اللّه و أمثال ذلك من الآباطيل، و هذا كفرٌ محضٌ نعوذ باللّه منه و أمّا قوله: **وَمٰآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا** الخ.

فالوجه فيه واضح لأنّ الأنبياء عليهم السّلام كانوا مأمورين تبليغ هذا الحكم قال رسول اللّه ﷺ: **قُولُوا لاٰ اِله اِلاّ اللّٰهَ تُفْلِحُوا.**

قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لنبيّه.

قُلْ إِنَّمٰآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ وَ لآ أُشْرِكَ بِهِ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ اَلْبَلْدَةِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ مُخْلِصًا لَهُ اَلدِّينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَفَغَيْرَ اَللّٰهِ تَأْمُرُوٓنِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا اَلْجٰاهِلُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ**(٥).

والآيات كثيرة.

١- الرّعد =٣٦
٢- النّمل =٩١
٣- الزّمر =١١
٤- الزّمر =٦٤
٥- غافر =٦٦

كيف و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**[١].

و أمّا قوله: **سُبْحٰانَهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ** ففيه إشارة الى تنزّهه تعالىٰ عمّا نسبوه اليه من الشّرك و ذلك لأنّ نسبة الشّرك اليه تعالىٰ من أعظم الظّلم و أقبحه قال تعالى حكاية عن لقمان حيث قال:

يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[٢].

و ذلك لأنّ إثبات الشّريك له تعالىٰ مساوق للمخلوقيّة فالمشرك جعل اللّه مخلوقاً من حيث لا يشعر و المخلوق لا يستحقّ أن يعبد و أيُّ ظلمٍ أقبح و أشنع منه هذا ما فهمناه في تفسير الآية وبَقىٰ في المقام شئ لا بأس بالإشارة اليه إجمالاً و هو قول أبي جعفر الباقر عليه السلام في الخبر الّذي رويناه عن تفسير علّي بن إبراهيم حيث قال عليه السلام (وأنّما ذكر هذا في كتابنا لكي نتعظّ بهم فغيّر اللّه بني إسرائيل بما صنعوا) الخ.

يظهر من هذا الكلام أنّ إتخاذهم الأحبار و الرّهبان أرباباً من دون اللّه، بالمعنى الّذي ذكره عليه السلام ليس مُختّصاً بقوم اليهود و النّصارىٰ بل هو سيرةٌ مستمرّة في جميع الأمم قل أو كثر و المراد بقوله نتعظّ به، هو أن لا نكون مثلهم.

فأنّ حكم الأمثال واحد فإذا كان المسلم في دينه تابعاً لشخصٍ خاصٍّ في جميع أوامره و نواهيه طابق قوله الشّرع أم لا فلا فرق بينه و بين اليهود و النّصارىٰ و ذلك لأنّ الأحبّارية و الرّهبانية و أمثال ذلك من الألفاظ المستعملة في كلّ زمانٍ لا توجب تغيير أصل الحكم الموجب للتعيّير و نحن نرى جريان هذا الأصل في المسلمين طابق النّعل بالنّعل فأنّ أكثرهم نبذوا الكتاب وراء ظهورهم و تركوا سنّة رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و أخذوا بما أمروا أو نهوا عنه من قبل زعماءهم و لأجل ذلك ظهرت في الإسلام بدعاً كثيرة و للبحث فيه مقام أخر.

١- الذّاريات =٥٦ ٢- لقمان =١٣

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ

الإطفاء إذهاب نور النّار ثمّ إستعمل في إذهاب كلّ نورٍ أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ هؤلاء الكفّار يريدون إطفاء نور الّله و المراد بالنُّور الإسلام، بأفواههم الأفواه جمع فوه فحذفت الهاء و أبدلت من الواو ميم لأنّه حرفٌ صحيح من مخرج الواو و مشاكل لها ثمّ أبدلت الضّمة الفتحة فصارت الكلمة، فم، ولو كره الكافرون من إتمام نوره فأنّ اللّه يتمّ نوره قطعاً و في هذه الآية مسائل:

الأُولىٰ: أنّ مخالفة أتباع الباطل للحقّ أمرٌ قهرِيّ لا مناص عنه لأنّ الباطل ضدّ الحقّ و لكلّ واحدٍ منهما أشياع و أتباع فاذا ظهر الحقّ لا مجال لظهور الباطل و بالعكس و لذلك فكلّ طائفةٍ منهما يريد ظهور مطلوبه و محبوبه يوجب بروز الإختلاف بينهما و هذه سيرة مستمرّة من البدو الى الختم و لا إختصاصٍ لها بزمانٍ دون زمانٍ و اذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال فبعد ظهور الإسلام أراد أتباع الباطل إطفاء نور الحقّ كما كانوا كذلك في الأمم السّالفة أيضاً و هذا ممّا لا شكّ فيه.

الثّانية: أنّ اللّه تعالىٰ أخبر في هذه الآية و أمثالها أنّهم أي أتباع الباطل لا يقدرون علىٰ ذلك لأنّ الحقّ ثابت لا يتغيّر و الباطل ليس كذلك.

نعم يمكن تضعيف الحقّ إمّا إطفاءه و إماتته بالكلّية فلا لأنّ الحقّ لا سبيل للبطلان اليه و يؤيّده العقل أيضاً لأنّ اللّه تعالى على كلّ شيٍ قدير عقلاً و نقلاً فاذا أراد القادر المطلق شيئاً فمن يقدر على منعه و ردعه.

و المفروض أنّه أراد إعلاء كلمة التّوحيد بوساطة أنبياءه و رسله و وعدهم بذلك أيضاً فهو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قال اللّه تعالىٰ: **كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللّٰهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ ٱللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ ٱللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِيَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَكُمْ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَغُلِبُوا هُنٰالِكَ وَ ٱنْقَلَبُوا صٰاغِرِينَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ غٰالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ ٱلْغٰالِبُونَ**[٧].

فهذه الأيات ونظائرها تدّل على إثبات المدّعى و هو أنّ اللّه يتمّ نوره ولو كره الكافرون.

الثّالثة: أنّه تعالى عبَّر عن الإسلام بالنُّور و ذلك لأنّ النُّور علىٰ ما قيل في تعريفهما ظاهرة بذاتها مظهرةٌ لغيرها كما هو تعريف الوجود أيضاً.

و المقصود من كون النُّور كذلك هو أنّ نورانيّة النُّور ذاتيّة لها و ليست بجعل جاعلٍ و أمّا غيرها فظهوره بها و هذا كما نرى أنّ النُّور في الظُّلمات توجب ظهور الأشياء بها.

و الإسلام أيضاً كذلك لأنّ الإسلام حقٌّ و حقانيّته ليست بجعل جاعلٍ فالحقّ حقّ بذاته لا بشيءٍ أخر لأنّه من قبيل تحصيل الحاصل فهو كالسّراج في الظّلمات في طريق السّلوك الى اللّه فكما أنّ الإنسان في الظُّلمة الحسّية لا يقدر علىٰ رؤية الأشياء و لا يجد الطّريق في سلوكه كذلك في ظلمات الكفر و الجهل لا يقدر علىٰ تشخيص الطّريق و تحصيل الكمال و كسب السّعادة إلاّ بالدّين و العمل بأحكامه فالدّين نورٌ و الكفر و الجهل ظلمات.

١- المائدة =٦٤
٢- الصّف =٨
٣- المجادلة =٢١
٤- أل عمران =١٦٠
٥- الأعراف =١١٩
٦- يوسف =٢١
٧- الصّافات =١٧٣

الرّابعة: قوله تعالىٰ: **بِأَفْوٰاهِهِمْ** فيه إشارة الى أنّ الكفّار الّذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه، ليست لهم حجّة قاطعة على صحّة قولهم و أنّما قالوا ما قالوا بمجرّد اللّفظ و ذلك لا يكفي في حصول مطلوبهم، و يمكن أن يكون قوله: **بِأَفْوٰاهِهِمْ** إشارة الىٰ أنّ الكفّار يريدون إطفاء الحقّ بسبب الكذب و الإفتراء الّذي يظهر علىٰ ألسنتهم لتضعيف الحقّ و لم يعلموا أنّ هذا لا يغنيهم و كيف كان فإضافة الإطفاء الىٰ الأفواه في الآية من أحسن الإستعارات فهو من تشبيه المعقول بالمحسُوس و هذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأن الكفّار و المخالفين للحقّ و تضعيف كيدهم و ذلك لأنّ النَّفخ يؤثّر في الأنوار الضَّعيفة دون الأقباس العظيمة.

و نور اللّه تعالى من أعظم الأنوار و الأقباس فكيف يمكن لهم إطفاءها بمجرّد الألفاظ الخالية عن المعنى و الإفتراءات الّتي ليس لها أصل و الدّليل علىٰ ما ذكرناه هو أنّ الكفّار و الجاحدين للحقّ لم يقدروا علىٰ ذلك و هو واضح لمن تدبّر و أمعن النَّظر في التّاريخ.

فعن كتاب الغيبة لشيخ الطّائفة رضي الله عنه **بأسناده عن محمّد بن سنان قال ذكر علّي ابن حمزة عند الرّضا** عليه السلام **فلعنه ثمّ قال** عليه السلام**: أنّ علّي بن حمزة أراد أن لا يعبد اللّه في سماءه و أرضه و يأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره اللّعين المشرك.**

قلت، المُشرك قال عليه السلام **نَعم واللّه رغم أنفه كذلك هو في كتاب اللّه: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اَللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ و قد جرت فيه و أمثاله أنّه أراد أن يطفئ نور اللّه انتهىٰ.**

و بأسناده الى الصّادق عليه السلام **والحديث طويل يقول فيه و قد ذكر شقّ فرعون بطون الحوامل في طلب موسىٰ** عليه السلام **كذلك بنو أمّية و بنو العبّاس لمّا أن وقفوا على أنّ زوال ملكة الأمر و الجبابرة منهم على**

يدي القائم ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول اللّه و إبادة نسله طمعاً لهم في الوصول الىٰ قتل القائم فأبى اللّه ن يكشف أمَره لواحدٍ من الظَّلَمة إلاّ أن يُتّم نُوره ولو كره المشركون انتهىٰ.

و عن تفسير العيّاشي عن أحَمد بن محمّد قال وقف علّي أبو الحسن الثّاني عليه السلام في بني زريق فقال لي و هو رافع صوته يا أحمد قلتُ لبيّك قال أنّه لمّا قبض رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم جَهد النّاس علىٰ إطفاء نُور اللّه فأبى الّه إلاّ أن يتمّ نوره بأمير المؤمنين عليه السلام انتهىٰ.

تنبيهٌ

يظهر من تفاسير العامّة أنّ الآية نزلت في الكفّار من اليهود و النّصارى و غيرهم حيث أنّهم أنكروا نبوّة نبيّنا و جحدوا بها مع أنّ أهل الكتاب منهم قد علموا أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول اللّه و هو الّذي بشر به موسى و عيسى و قد ذكر اللّه تعالى في التّوراة و الإنجيل من أوصافه صلى الله عليه وآله وسلم ما يدّل على صدقه في إدّعاءه النبوّة و الأوصاف المذكورة في التّوراة و الإنجيل لا تنطبق على غيره صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنّهم أي علماء اليهود و النّصارىٰ حرّفوا كتابهم إطفاءً منهم لنور اللّه و لكنّ اللّه تعالىٰ قد أتمّ نوره علىٰ رغم أنوفهم و أظهر الحق ولو كره المشركون.

و نحن نقول لا كلام لنا فيما ذكروه فأنّه حقّ لا مرية فيه إلاّ أنّ تخصيص الآية به بعيد عن الإنصاف مع أنّه لا دليل عليه و لو فرضنا نزول الآية فيما ذكروه فهو لا ينافي إرادة العموم منها من حيث المعنى و ذلك لما مرَّ منّا مراراً أنّ حصوصيّة المورد لا تنافي عموم المعنى فلا يجوز لنا أن نقول أنّ الآية لا مصداق لها فعلاً فالحقّ أنّ الآية بصدد بيان حكم كلّى في كلّ عصرٍ و زمانٍ فلو كان الكفّار أنكروا نبوّة الرّسول و لم يقدروا علىٰ إطفاء نور النبوّة والدّين فقد

أنكـر المسلمون بعد رسول اللّه ﷺ خلافة أوصياءه و أيّ فرقٍ بين الإنكارين فكما أنّ الكفّار لم يصلوا الى ما أرادوا كذلك السّقيفة و أصحابها و أذنابها من خلفاء الجور لم يصلوا الىٰ ما شاءوا و أرادوا و كما أنّ منكري النُّبوة لم يقصروا في إيذاء النّبي كذلك الخلفاء لم يقصروا في ايذاء أوصياءه و أهل بيته بل أنّهم فعلوا بأهل البيت من الظُّلم بأنواعه ما لا يخفى على أحدٍ.

و لو قلنا بأنّ ظلم المسلمين على بيت نبيّهم كان أضعاف ظلم الكفّار على رسول اللّه لم نقل جزافاً و لكن اللّه تعالىٰ بما وعد رسوله في الآية فقد و من أصدق من اللّه قيلاً فأظهر الحقّ على رغم أنوف المعاندين المنافقين في الإسلام كما أظهره على رغم الكفّار بالنّسبة الىٰ رسُوله.

و الحاصل أنّ خلفاء المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ و أتباعهم و أذنابهم لم يألوا جهداً في إيذاء أهل بيت رسول اللّه ﷺ و قتلهم و هتكهم و سبّهم بل و سبي نساءهم و ذراريهم كلّ ذلك لإطفاء نور الحقّ و أن شئت قلت عداوةً للّه و لرسوله فأن لم يكن لذلك فلماذا فعلوا ما فعلوا و المفروض أنّ أهل البيت لم يذنبوا ذنباً أصلاً و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّه هو الّذي أرسل رسوله الى الخلق و هذا نصٌّ على رسالة الرّسول و أنّه جاء من عند اللّه لا من قبل نفسه و قوله: **بِٱلْهُدَىٰ** يعني بالحجج و البيّنات و البيان لِما يؤدّيهم العمل به الىٰ أبواب الجنّة، و دين الحقّ، هو الإسلام و قوله: **لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** معناه ليعلى دين الإسلام على جميع الأديان بالحكم و القهر و الغلبة لهم.

هكذا قيل و عليه فالألف و اللاّم في قوله: **عَلَى ٱلدِّينِ** للجنس أو الإستغراق حتّى يشمل الجميع و قوله: **وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ** اشارة الىٰ كراهة الكفّار من ذلك.

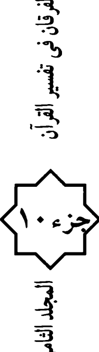
و من المعلوم أنّ المشرك لا يرضى بإعلاء كلمة التّوحيد و ظهور الحقّ و لكنّ اللّه يتمّ نوره علىٰ ما مرَّ بيانه في الآية السّابقة.

قالوا و في الآية دلالة علىٰ صدق نبوّته صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّها تضمّنت الوعد بظهور الإسلام على جميع الأديان و قد صحّ ظهور عليها.

و قال أبو جعفر عليه السلام أنّ ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام و قال إبن عبّاس أنّ الهاء في ليظهره عائدة الىٰ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أي ليعلمه اللّه الأديان كلّها حتّى لا يخفى عليه شيئ منها ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول أمّا ما ذهب اليه إبن عبّاس من أنّ الضّمير عائدة الى الرّسول فهو بعيد عن مساق الآية و الحقّ أنّها عائدة الى الدّين كما عليه جمهور المفسّرين.

و أمّا قوله: **لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** فأنّا نعلم أنّه لم يقع الى الأن ونعلم أيضاً أنّ قوله تعالى صدق و حقّ و هو لا يخلف الميعاد فلابدّ لنا من القول بأنّه سيقع في المستقبل و إلاّ يلزم كذب الآية نعوذ باللّه منه و بذلك نحكم بصحّة ما روي عن أئمّتنا في الباب من الأثار.



منها، ما رواه في كتاب كمال الدّين وتمام النّعمة بأسناده الى أبي بصير قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: في قوله: هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ قال عليه السلام واللّه ما نزل تأويلها حتّى يخرج القائم فاذا خرَج القائم لم يبق كافر باللّه العظيم و لا مُشرك بالإمام إلاّ كره خروجه حتّى لو كان كافراً أو مشرك في بطن صخرةٍ لقالت يا مؤمن في بطني كافر فأكسرني و أقتله انتهىٰ.

و بأسناده الىٰ سليط قال: الحسين بن علّي بن أبي طالب عليه السلام منّا أثني عشر مهدّياً أوّلهم أمير المؤمنين عليه السلام علّي بن أبي طالب و أخرهم التّاسع من ولدي و هو القائم بالحقّ يحي اللّه به الأرض بعد موتها و يظهر به الدّين الحقّ على الدّين كلّه و لو كره المشركون انتهىٰ.

و بأسناده الىٰ محمّد بن مسلم الثّقفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام محمّد بن علّي عليه السلام يقول القائم منّا منصور بالرُّعب مؤيّد بالنّصر تطوي له الأرض و تظهر له الكنوز يبلغ سلطانه المشرق و المغرب و يظهر اللّه عزّ و جلّ دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون فلا يبقى في الأرض خرائب إلاّ عمر و ينزل روح اللّه عيسى بن مريم فيصلّي خلفه و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

و في أُصول الكافي بأسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قُلتُ هو الّذي أرسل رسوله بالهُدىٰ و دين الحقّ الآية قال هو الّذي أمر رسوله بالولاية لوَصّيه و الولاية هي دين الحقّ قلت ليظهره علىٰ الدّين كلّه قال عليه السلام: يُظهر على جميع الأديان عند قيام القائم قال يقول اللّه: وَ ٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ قال ولاية القائم ولو كره الكافرون بولاية علّي قلت هذا تنزيل قال عليه السلام نَعم هذا الحرف فتنزيل وأمّا غيره فتأويلٌ والحديث طويل إنتهىٰ.

و في تفسير العيّاشي عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالىٰ: لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ يكون أن لا يبقىٰ أحد إلاّ أقرَّ بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم انتهىٰ[١].

أقول هذا الّذي ذكرناه في تفسير الآية لا كلام له عندنا و أمّا العامّة فسلكوا مسلكاً أخر و ذلك لأنّهم يمعزلٍ عمّا نعتقده من ظهور المهدي من أهل البيت على الوجه المقرّر في أخبارنا و لذلك وقعوا في تفسير الآية في تزلزلٍ و إضطراب و لم يعلموا ما قالوا و ما يقولون فمثلهم كمثل الغريق يتشبّث بكلّ حشيشٍ و هذا إمامهم الرّازي و هو عندهم يقول ما هذا لفظه.

إعلم أنّه تعالىٰ لمّا حكى عن الأعداء أنّهم يحاولون إبطال أمر محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و بيّن أنّه يأبى ذلك الإبطال و أنّه يتمّ أمره بيّن كيفيّة ذلك الإتمام

١- نُور الثّقلين ج ٢ ص ٢١١

فقال: **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ** و إعلم أنّ كمال حال الأنبياء لا تحصل إلاّ بمجموع أمورٍ:

أولها: كثرة الدّلائل و المعجزات و هو المراد من قوله: **أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ**.

ثانيها: كون دينه مشتملاً على أمورٍ يظهر لكلّ أحدٍ كونها موصوفة بالصّواب و الصّلاح و مطابقة الحكمة و موافقة المنفعة في الدّنيا و الأخرةالمراد من قوله: **وَدِينِ ٱلۡحَقِّ**.

ثالثها: صيرورة دينه مستعلياً على سائر الأديان عالياً عليها غالباً لأضدادها قاهراً لمنكريها و هو المراد من قوله: **لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**.

ثمّ قال و اعلم أنّ ظهور الشّيئ قد يكون بالحجّة و قد يكون بالكثرة و الوفور و قد يكون بالغلبة و الإستيلاء و معلوم أنّه تعالى بشّر بذلك و لا يجوز أن يبشّر إلاّ بأمرٍ مستقبل غير حاصل و ظهور هذا الدّين بالحجّة مقرّر معلوم فالواجب حمله علىٰ الظّهور بالغلبة.

فأن قيل ظاهر قوله: **لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** كونه غالباً لكلّ الأديان و ليس الأمر كذلك فأنّ الإسلام لم يصر غالباً لسائر الأديان في أرض الهند و الصّين و الرّوم و سائر أراضي الكفرة قلنا جابوا عنه من وجوه:

الأوّل: أنّه لا دين بخلاف الإسلام إلاّ و قد قهرهم المسلمون و ظهروا عليه في بعض المواضع وأن لم يكن كذلك في جميع مواضعهم فقهروا اليهود و أخرجوهم من بلاد العرب و غلبوا النّصارى علىٰ بلاد الشّام و ما والاها الى ناحية الرُّوم و غلبوا المجوس على ملكهم و غلبوا عبّاد الأصنام على كثيرٍ من بلادهم ممّا يلي التُّرك و الهند و كذلك سائر الأديان فثبت أنّ الّذي أخبر اللّه عنه في هذه الآية وقع و حصل و كان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

الوجه الثّاني: في الجواب أن نقول روي عن أبي هريرة أنّه قال هذا وعدٌ من اللّه بأنّه تعالىٰ يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان و تمام هذا أنّما يحصل عند خروج عيسىٰ عليه السلام.

و قال السُّدي ذلك عند خروج المَهدي لا يبقى أحد إلاّ دخل في الإسلام أو أدّى الخراج.

الوجه الثّالث: المراد ليظهر الإسلام على الدّين كلّه في جزيرة العرب حصل ذلك فأنّه تعالىٰ ما أبقى فيها أحداً من الكفّار.

الوجه الرّابع: أنّ المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** أن يوقفه علىٰ جميع شرائع الدّين و يطلعه عليها بالكلّية حتّى لا يخفىٰ عليه منها شئ.

الخامس: أنّ المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** بالحجّة و البيان إلاّ أنّ هذا الوجه ضعيفٌ لأنّ هذا وعدٌ بأنّه تعالىٰ سيفعله و التّقوية بالحجّة و البيان كانت حاصلة من أوّل الأمر و يمكن أن يجاب عنه بأنّ في مبدأ الأمر كثرت الشُّبهات بسبب ضعف الاسلام و إستيلاء الكفّار و منع الكفّار سائر النّاس من التّأمل في تلك الدّلائل.

أمّا بعد قوّة دولة الإسلام عجزت الكفّار فضعفت الشُّبهات فقوي ظهور دلائل الإسلام فكان المراد من تلك البشارة هذه الزّيادة انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

نحن نقول أصل الإشكال في الآية لا خفاء فيه و ذلك لأنّه تعالىٰ قال: **لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** أي على الأديان كلّها لأنّ اللاّم في قوله: **عَلَى ٱلدِّينِ** للجنس أو الإستغراق و هذا ممّا لم يخالفه أحد و من المعلوم أنّ ما وعده لم يقع بل نرى إستيلاء الكفر على الإسلام في زماننا هذا و هكذا كان بعد رسول اللّه فأنّ الإسلام لم يظهر على الأديان كلّها من أوّل البعثة الىٰ زماننا هذا و هذا ممّا لا يخفى على أحدٍ و الرّازي أيضاً إعترف بما ذكرناه من الإشكال إلاّ أنّه عبّر عنه بقوله فأن قيل، ثمّ أجاب عنه بوجوهٍ ضعيفة باطلة نشير الىٰ وجه ضعفها إجمالاً.

أمّا الوجه الأوّل: فضعفه بل بطلانه ظاهر لا يحتاج الى الجواب لأنّ التّاريخ يحكم بكذب ما قاله الرّازي و كان علىٰ المستدلّ أن يذكر في إستدلاله و نقله

زماناً ظهر المسلمون علىٰ الكفّار بحيث لم يبق من الكفار و أديانهم أثراً في وجه الأرض كما هو مقتضىٰ الآية بدليل قوله: **كُلِّهِ** و مجرّد غلبة المسلمين على اليهود أو النصّارى في جزيرة العرب أو بعض البلاد مع أنّ الغلبة كانت على طائفة قليلة منهم لا على كلّ الكفّار لا يسمّىٰ بغلبة الإسلام بقولٍ مطلق و ظهوره على الأديان كلّها كما هو مفاد الآية و بعبارةٍ أخرىٰ المدّعىٰ ظهور الإسلام على جميع الأديان كلّها بحيث لا يبقى كافر على وجه الأرض و هو لم يحصل قطعاً.

أمّا الوجه الثّاني: و هو ما نقله عن أبي هُريرة ففيه أنّ اللّه تعالىٰ وعد نبيّه بذلك فقال: **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ** و لازم ذلك أن يكون الإظهار بتّوسط النّبي أو وصّيه و خليفته الذّي هو كنفس الرَّسول بحيث صَحَّ ما نسب اليه ما نسب الى الرّسول و أمّا عيسى عليه‌السلام فهو رسول أخر و قد نسخ دينه بعد الإسلام فالقول بأنّ دين محمّدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يظهر على الأديان بتّوسط عيسى لا نفهم معناه.

و المفروض أنّ رسالة عيسى قد إنقضت مدّته فلو ظهر أو نزل عيسىٰ في أخر الزّمان لا يكون إلاّ مُطيعاً و تابعاً للإسلام مُنقاداً لوصّي رسول ربّ العالمين الّذي به يظهر الإسلام على الأديان كما دلَّت عليه أخبارنا المرّوية عن أئمّة أهل البيت و يدّل على ما ذكرناه أنّه يصلّي خلف القائم عليه‌السلام.

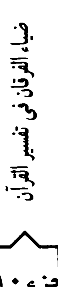
أمّا الوجه الثّالث: فهو من أوهن الوجوه و أضعفها و ذلك لأنّ الآية تقول ليظهره على الدّين كلّه و لا تقول في جزيرة العرب مع أنّه أيضاً لم يحصُل بشهادة التّاريخ و العجب من قوله فأنّه تعالى ما أبقى فيها أحدٌ من الكفّار بلغ وقوفه و إطّلاعه على التّاريخ بهذا المقدار و لم يعلم أنّ الكفّار في عهد النّبي و عهد الخلفاء بعده كانوا كثيرين و مع ذلك يقول أنّه ما أبقى فيها أحد من الكفّار فلا كلام لنا معه.

أمّا الوجه الرّابع: و هو أنّ المراد أن يوقفه على جميع الشّرائع و يطّلعه عليها فهو أيضاً خلاف ظاهر الآية لأنّ الوقوف و الإطّلاع على جميع الأديان يرجع الى العلم بها و هو لا يعدّ ظهور الدّين ضرورة وجود الفرق بين العلم بالدّين و ظهوره على الأديان و هو واضح.

أمّا الوجه الخامس: فلا يحتاج الىٰ الجواب لأنّه أجاب عنه بنفسه و أمّا ذكره في أخر كلامه بقوله و يمكن أن يجاب عنه فهو كما ترى خارج عن مورد البحث فأنّ إظهار الدّين و غلبته على جميع الأديان لا ربط له بوجود الشُّبهات و عدمه و كثرتها و قلّتها.

اذا عرفت هذا فقد علمت أنّه لا يمكن رفع الإشكال من الآية إلاّ بما ذكرناه تبعاً لأثار أهل البيت و قد أشرنا الىٰ بعض ما ما وَرد في الباب فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ تأويل الآية يحتاج الى ظهور القائم الّذي يملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً كما مُلأت ظلماً و جوراً.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَ ٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوٰلَ ٱلنَّاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَ ٱلْفِضَّةَ وَ لٰا يُنْفِقُونَهٰا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ



هذا خطاب للمؤمنين يعلمهم اللّه تعالى أنّ كثيراً من أحبار اليهود و علماءهم و كثيراً من رهبان النّصارى ليأكلون أموال النّاس بالباطل.

قال بعضهم أنّهم كانوا يأخذون الرّشا في الأحكام، و لا شكّ أنّه من أكل المال بالباطل، و قيل أنّهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم بإسم الكنائس و البيع.

و قيل أنّهم كانوا يتملّكون أموال النّاس من الجهات الّتي يحرم منها أخذه و قيل غير ذلك و الجامع بين الأقوال كلّها هو أخذ أموال النّاس من غير طريق الشّرع و قد نهىٰ اللّه تعالىٰ في كلّ الأديان قال رسول اللّه لا يحلّ مال إمرئٍ إلاّ بطيب نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَأْكُلُوٓا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِـالْبٰاطِلِ وَ تُـدْلُوا بِـهٰآ إِلَـى ٱلْحُكّٰامِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَأْكُلُوٓا أَمْوٰالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوٰالِكُمْ إِنَّهُ كٰانَ حُوبًا كَبِيرًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لا تَأْكُلُوٓا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ**[٣].

و الحاصل أنّ أكل المال بالباطل ممنوع شرعاً و عقلاً و حيث أنّ علماء اليهود و النّصارى كانوا يأخذون أموال النّاس بأنواع الحيل و الخدعة أو بعنوان الرّشاء أو بغير ذلك من الوجوه المحرّمة عيَّرهم اللّه في هذه الآية.

و أعلم المسلمين أيضاً بقبح ذلك و أنّما خاطب المؤمنين بذلك مع أنّ الأفعال صدرت مِن علماء اليهود و النّصارى دون المسلمين لأنّ حكم الأمثال واحد ففيه إشارة الى أنّ المؤمن لو فعل ما فعله اليهود و النّصارى من أكل أموال النّاس بالباطل فهو مثلهم و حيث أنّهم إستحقّوا التَّعيير بما فعلُوه فأنتم أيّها المؤمنون لو أكلتم أموال النّاس بالباطل فأنتم مثلهم و هو كذلك لأنّ الأصول في جميع الأديان محفوظة و هذا منها.

و أمّا قوله: **يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ** ففيه إشارة الى أنّ علماءهم قصدوا بذلك إضلال النّاس و إنحرافهم عن طريق الحقّ و ذلك لأنّ العَوام في جميع الأديان و المذاهب يتبعون علماءهم و ليس عقلٌ يميّزون به الحقّ عن الباطل كما إشتهر أنّ العوام عقولهم في أعينهم لا في رؤسهم أي ليست لهم قدرة التّفكر و لا سيّما في أمور دينهم و إذا كان كذلك فالذَّنب ثابت على العلماء أوّلاً و عليهم ثانياً فالعالم الفاسد يصدّ عن سبيل اللّه من حيث لا يشعر قال رسول اللّه إذا فسد العالم فسد العالم، و الحقّ أنّ هذه الموعظة و التّذكير من اللّه تعالىٰ لم يؤّثر في المسلمين فأنّ علماءهم تابعوا اليهود و النّصارى في

١- البقرة =١٨٨ ٢- النّساء =٢

٣- النّساء =٢٩

أعمالهم الشّنيعة و أكلهم أموال النّاس بالباطل كأنّهم لم يعلموا أن ألقرآن، من قبيل إيّاك أعني و أسمعي يا جارة، بمعنى أنّ الأيات الواردة في الكتاب و أن كانت في الظّاهر في حّق اليهود و النّصارى و أمثالهم إلاّ أنّ الغرض الأصلي من حكاية أحوالهم و أقوالهم هو أن نتعظّ بها و لنعم ما قال أمير المؤمنين عليه‌السلام حيث قال **ما أكثر العِبَر وأقَلّ الإعتبار** ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ أشار الىٰ هذه الدّقيقة في كثير من الأيات، و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ يَكْنِزُونَ اَلذَّهَبَ وَ اَلْفِضَّةَ** ألخ فهو حكمٌ آخر نهى اللّه تعالىٰ عن كنز الأموال و هذا الحكم عامّ يشمل الكافر و المؤمن.

أن قُلتَ ليس في الكلام نَهيٌ و إنّما الأخبار فقط.

قُلتُ الإخبار هنا في قُوّة النّهي حيث أنّه تعالى قال في آخره: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ** فكأنّه قال لا تكنزوا الذّهب و الفضّة فأنّ فيه عذابٌ أليم.

قال الشّيخ في التّبيان معناه الّذين يخبّئون أموالهم من غيرأن يخرجوا زكاتها لأنّهم لو أخرجوا زكاتها و كنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين بلا خلاف.

أقول و على ما ذكره الشّيخ ره فالنّهي و العذاب مختصّان بما عنى الزّكاة و لعّل قوله: **وَ لاٰ يُنْفِقُونَهٰا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ** يدّل علىٰ ذلك إذا قلنا أنّ المراد بالإنفاق في سبيل اللّه هو الزّكاة لوجوب هذا الإنفاق، و أمّا أن قلنا أنّ المراد مطلق الإنفاق في سبيله فالآية على العموم.

و قال كثير من العلماء الكَنز هو المال الّذي لا تؤدّى زكاته و أن كان على وجه الأرض فأمّا المال المدفون إذا خرجت زكاته فليس بكنزٍ.

قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كلّ ما أدّيت زكاته فليس بكنزٍ و قال الجبائي و غيره، و الّذين يكنزون الآية نزلت في مانعي الزّكاة من أهل الصّلاة، و قال قوم نزلت في المشركين و الأقوال كثيرة و الّذي نقول في المقام هو أنّ المال الّذي أخرجت زكاته لا دليل على حرمة كنزه فلا يترتّب عليه العذاب الموجود في الآية إلاّ في موارد الضّرورة و الإضطّرار كما إذا فرضنا إحتياج النّاس اليه في



عام القحط و الشدّة و هو خارج عن مورد البحث و إنّما قلنا ذلك لأنّ النّاس مسلّطون على أموالهم خرج عنه ما خرج بالدّليل الشّرعي و بقي ما بقى تحت الأصل.

أَن قُلت روي في تفسير علّي بن إبراهيم و غيره من الآثار المّروية من طريق العامّة و الخاصّة و الحديث مشهور بين الفَريقين أنّ عثمان بن عفان سأل كعب الأحبار و قال له يا أبا إسحاق ما تقول في رجلٍ أدّى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيئ فقال لا، و لو إتّخذ لبنةً من ذهب و لبنةً من فضّة ما وجب عليه شيئ فرفع أبوذرّ رضي الله عنه عصاه فضرب بها رأس كعب ثمّ قال له يا بن اليّهودية الكافرة ما أنت و النّضر في أحكام المسلمين قول اللّه أصدق من قولك حيث قال: **وَ ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَ ٱلْفِضَّةَ.**

قُلت أمّا أوّلاً هذا الحديث و أن كان مشهوراً بين النّاس إلاّ أنّه ربّ شهرةٍ لا أصل له إذ لم ينقل في موثق يعتمد عليه.

ثانياً: على فرض صحة سنده لا يكون حجّة لأنّ أباذر و أن كان من كبار الأصحاب و قد صدَّقه الرّسول في أقواله إلاّ أنّه لم يكن من المعصومين ليكون فعله حجّة لنا و عليه فما قاله أبوذر في جواب كعب الأحبار أو عثمان مربوط بشخصه.

ثالثاً: لعّل غرضه أنّ عثمان كان عالماً بأنّ أباذر أعلم و أصلح و أتقى من كعب الأحبار و أمثاله و هو كان حاضراً في المجلس و هو الّذي أنكر على عثمان تصرّفاته في أموال المسلمين و إنفاقها على أقربائه من بني أمّية و منعه المسلمين عن حقوقهم المالّية الموجودة في بيت المال و لمّا كان الأمر على هذا المنوال فسؤال عثمان عن كعب الأحبار في محضر أباذر و عثمان يعلم أنّه أي كعب الأحبار لا يخالفه قطعاً لم يرد به إلاّ تكذيب أباذر في أنظار المسلمين و أنّ ما يفعله في أموال النّاس مطابق للشّريعة الحقّة و لأجل ذلك أنكر أباذر على كعب الأحبار و هكذا من الإحتمالات الّتي أوجبت لنا أَن نقول تلك قضّية

شخصّية وقعت في صدر الإسلام على فرض صحّتها و الحاضر يرى ما لا يراه الغائب و كيف كانت فليست لنا بحُجّةٍ و لا برهان هذا كلّه مع أنّه لم يكن لعثمان مال و لا درهم و دينار و لا غيره و ما نقله أهل السُّنة في هذا الباب و أنّه كان ممّن أنفق أمواله في سبيل اللّه من الأكاذيب و إذا كان كذلك فغرضه من السّؤال ما ذكرناه و مع ذلك كلّه فنحن نشير الى بعض ما ورد في الباب.

في آمال الشّيخ‌ﷺ بأسناده لمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللّه‌ﷺ: (كلّ مالٍ تؤّدى زكاته فليس بكنزٍ و أن كان تحت سبع أرضين و كلّ مالٍ لا تؤّدى زكاته فهو كنز و أن كان فوق الأرض) إنتهىٰ.

و في مجمع البيان - و روي عن علّي‌عليه السلام (ما زاد علىٰ أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّها و ما دونها فهي نفقة فبشّرهم بعذابٍ أليمٍ) إنتهىٰ.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفرعليه السلام: في قوله: وَ ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَ ٱلْفِضَّةَ فأنّ اللّه حَرَّم كنز الذّهب و الفضّة و أمر بإنفاقه في سبيل اللّه إنتهىٰ.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الأية، و أختلف أهل العلم في معنى الكنز فقال بعضهم هو كلّ مالٍ وجبت فيه الزّكاة فلم تؤّد زكاته قالوا و عنى بقوله: **وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** و لا يؤدّون زكاتها ثمّ ذكر بأسناده عن إبن عمر أنّه قال كلّ ما أدّيت زكاته فليس بكنزٍ و أن كان مدفوناً و كلّ ما لم تؤّد زكاته فهو كنز و إن لم يكن مدفوناً.

و بأسناده عن عكرمة قال، ما أدّيت زكاته فليس بكنزٍ، و بأسناده عن السّدي قال أمّا الّذين يكنزون الذّهب و الفضّة فهٰؤلاء أهل القِبلة و الكنز ما لم تؤّد زكاته و أن كان على ظهر الأرض و أن قلَّ، و أن كان كثيراً قد أدّيت زكاته

فليس بكنزٍ و الأحاديث الّتي نقلها كثيرة ثمّ قال الطّبري في آخر كلامه و أولى الأقوال في ذلك بالصّحة القول الّذي ذكر عن إبن عُمر من أنّ كلّ مالٍ أدّيت زكاته فليس بكنزٍ يحرم على صاحبه إكتنازه و أن كثر و أنّ كلّ مالٍ لم تؤّد زكاته فصاحبه معاقب مستحقّ و عيد اللّه إلاّ أن يتفضّل اللّه عليه بعفوه و أن قلَّ إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول بعد التخصّص التّام فيما بأيدينا من التفاسّير لم نر مخالفاً في المسئلة بل جميع المفسّرين من العامّة و الخاصّة إتّفقوا على ذلك و يظهر من كلام الرّازي التّرديد و نحن ننقل كلامه بعين ألفاظه و عباراته قال في الآية مسائل.

المسئلة الأولىٰ: في قوله: وَ ٱلَّذِينَ إحتمالات ثلاثة لأنّه يحتمل أن يكون المراد بقوله:، الّذين أولئك الأحبار والرّهبان و يحتمل أن يكون المراد كلاماً مبتدأ على ما قال بعضهم المراد منه مانعوا الزّكاة من المسلمين و يتحمل أن يكون المراد منه كلّ من كنز المال و لم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحبار و الرّهبان أو كان من المسلمين فلا شكّ أنّ اللّفظ محتمل لكلّ واحدٍ من هذه الوجوه الثّلاثة و روي عن زيد بن وهب قال مررت بأبى‌ذر.

فَقُلت يا أباذر ما أنزلك هذه البلاد فقال كُنت بالشّام فقرأت و الّذين يكنزون الذّهب و الفِضّة الآية فقال معاوية هذه الآية نزلت في أهل الكتاب فقلت أنّها فيهم و فينا.

فصار ذلك سبباً للوحشة بيني و بينه فكتب الى عثمان أن أقبل إلّى فلمّا قدمت المدينة إنحرف النّاس عنّي كأنّهم لم يَروني من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لي تنَّح قريباً فقلت أنّي و اللّه لن أدع ما كنت أقول انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه ثمّ ساق الكلام الىٰ أن قال.

وأعلم أنّ الطّريق الحقّ أن يقال الأولى أن لا يجمع الرّجل الطّالب للدّين المال الكثير إلاّ أنّه لم يمنع عنه في ظاهر الشّرع فالأوّل محمول علىٰ التّقوى و الثّاني على ظاهر الفتوى انتهى و هو متين جدّاً.

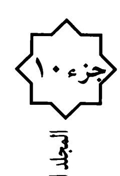
يَوْمَ يُحْمٰى عَلَيْهٰا فِي نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوٰى بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هٰذٰا مٰا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ

يوم يُحمىٰ، متعلّق بقوله فبشّرهم بعذابٍ أليم في يوم يحمى عليها، معناه أنّه يدخل الذّهب و الفضّة في النّار فيوقد عليها يعني على الكنوز الّتي كنزوا فالهاء في قوله: **عَلَيْهٰا** عائدة على الكنوز أو الفضّة، و الإحماء جعل الشّئ حاراً في الإحساس و هو فوق الإسخان و ضدّه التّبريد، و الكّي إلصّاق الشّئ الحّار بالعضو من البدن و منه قولهم آخر الدّاء الكّي، لفظ أمره كقطع العضو إذا عظم فساده قالوا و معنى الآية أنّ اللّه يحمي هذه الكنوز بالنّار ليكوي بها جباه من كنزها و لم يخرج حقّ اللّه منها و جنوبهم و ظهورهم فيكون ذلك أشدّ لعذابهم و أعظم لخزيهم و قوله هذا ما كنزتم لأنفسكم أي أذخرّتموه لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون أي فأطعموا أجزاء ما كنتم تدخّرونه من منع الزكوّات و الحقوق الواجبة في أموالكم و على ما ذكرناه في الآية السّابقة ظهر لك تفسير هذه الآية أيضاً و أنّها نزلت في حقّ مانعي الزّكوٰة و غيرها من الحقوق الواجبة و قد ورد في حديثٍ طويل في كتاب من لا يحضره الفقيه عن أبي عبد اللّه عليه السلام حيث يذكر فيه الكبائر قال عليه السلام و منع الزّكاة المفروضة لأنّ اللّه عزّ وجلّ يقول : **يَوْمَ يُحْمٰى عَلَيْهٰا فِي نٰارِ جَهَنَّمَ** وإستدلال الإمام عليه السلام بها دليل علىٰ أنّها نزلت في منع زكاة ماله و هو المطلوب.

و عن صحيح البخاري و صحيح مسلم، الوحيد الشدّيد لمانع الزّكاة.

■

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللّٰهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللّٰهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَ ٱللّٰهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَ ٱللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللّٰهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللّٰهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَى وَ كَلِمَةُ ٱللّٰهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَ ٱللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾



◀ اللّغة

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عدّة بكسر العين و فتح الدّال المشدّدة مصدر مثل العَدد و الشُّهور بضمّ الشّين جمع شهر قيل و هو مأخوذ مِن شهرة أمره لحاجة النّاس اليه في معاملاتهم و محلّ ديونهم و حجّهم و صومهم و غير ذلك من مصالحهم المتعلّقة بالشّريعة.

كَآفَّةً هي مشتقّة من كفّة الشّئ و هى طرفه و أنّما أخذ من أنّ الشّئ إذا أنتهى الىٰ ذلك كفّ عن الزّيادة و هى لا يثنّى و لا يجمع.

النَّسِيٓءُ على وزن فعيل و هو مصدر يقال نسأت الأبل في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر و معناه التّأخير.

لِيُوَاطِؤُا المواطاة موافقة أمر التَّوطئة أي ليوافقوا.

ٱنْفِرُوا أمرٌ من النَّفر و هو الخروج أي أخرجوا.

ٱثَّاقَلْتُمْ: التَثّاقُل تعاطي إظهار ثقل النّفي و مثله التَّباطئ و ضدّه التَّسرع.

◀ الإعراب

عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عدّة مصدر مثل العدد وعِنْدَ معمول له وفِي كِتَابِ ٱللَّهِ صفة لأثنى عشر و ليس بمعمولٍ لعدّة لأنّ المصدر إذا أخبر عنه لا يعمل فيما بعد الخبر و يَوْمَ خَلَقَ معمولٌ لكتاب مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ الجملة صفة لأثنى عشرأن تكون حالاً من إستقرار و أن تكون مستأنفة مِنهُنّ ضمير الأربعة إثني عشر كَآفَّةً مصدر في موضع الحال من المشركين أو من ضمير الفاعل في قاتلوا إِنَّمَا النَّسِيٓءُ يُقرأ بهَمزة بعد الياء و هو فَعيل مصدر مثل النَّذير و النّكير و يجوز أن يكون بمعنىٰ مفعول أيّ أنّما المنسوء و قد يقرأ بتشدّيد الياء من غير همز على قلب الهَمزة ياء و يقرأ بسكون السّين و همزة بعدها و هو مصدر نسأت يُحِلُّونَهُ يجوز أن يكون مفسّراً للضّلال فلا يكون له موضع و يجوز أن يكون حالاً ٱثَّاقَلْتُمْ الماضي هنا بمعنىٰ المضارع أي مالكم تتثاقلون و موضعه نصب أي

أيُّ شئٍ لكم في التّثاقل أو في موضع جرٍّ على رأي الخليل مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ في موضع الحال أي بدلاً من الأخرة ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ هو حال من الهاء أي أحد إثنين إِذْ هُمَا ظرف لنصره لأنّه بدلٌ من إذ الأولىٰ إِذْ يَقُولُ بدل أيضاً سَكِينَتَهُ هي فعيلة بمعنى فعلة أي أنزل عليه ما يسكنه كَلِمَةُ ٱللَّهِ بالرّفع على الإبتداء و هِيَ ٱلْعُلْيَا مبتدأ و خبر و قرئ بالنّصب أي و جعل كلمة اللّه و هو ضعيف جدّاً.

◀ التفسّير

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ

إعلم أنّ العَرب كانت في عهد الجاهّلية لا عيش لها إلاّ من الغارات و أعمال سلامها فكانت إذا توالت عليهم الأربعة الحرم صعب عليهم و أملقوا و كان بنوا فقيم من كنانة أهل دينٍ و تمسّكٍ بشرع إبراهيم فأنتدب منهم القلمس و هو حذيفة بن عبيد بن مقيم فنسأ الشُّهور للعرب ثمّ خلفه علىٰ ذلك إبنه عباد ثمّ إبنه قلع ثمّ إبنه أمّية ثمّ إبنه عوف ثمّ إبنه جاندة بن عوف و عليه قام الإسلام و كانت العرب إذا فرغت من حجّها جاء اليه من شاء منهم مجتمعين فقالوا أنسئنا شهراً أي أضّرعنّا حرمة المحرّم فأجعلها في صفر فيحلّ لهم المحرّم فيغيرون فيه و يعيشون ثمّ يلزمون حرمة صفر ليوافقوا عدّة الأشهر الأربعة و يسمّون ذلك الصَّفر المحرم و يسمّون ربيعا الأوّل صفراً و ربيعا الآخر ربيعا الأوّل و هكذا في سائر الشّهور يستقبلون نسيئهم في المحرّم الموضوع لهم فيسقط على هذا الحكم المحرّم الّذي حلّل لهم و تجئ السَّنة من ثلاثة عشر شهراً أوّلها المحرّم ثم المحرّم الّذي هو في الحقيقة صفر ثمّ إستقبال السَّنة كما ذكرناه قال مجاهد ثمّ كانوا يحجّون في كلّ عامٍ شهرين و لاء و بعد ذلك يبدّلون فيحجُّون عامين ولاء ثمّ كذلك حتّىٰ كانت حجّة أبىبكر في ذي القعدة حقيقتاً و هم يسمّونه ذا الحجّة ثمّ حجّ رسول اللّه سنة عشر في ذي الحجّة

حقيقةً فذلك قوله ﷺ أنّ الزّمان قد إستدار كهيئة يوم خلق اللّه السّمٰوات و الأرض السّنة إثني عشر شهراً أربعة حرم ذو القعدة و ذى الحجّة و المحرّم و رجب هكذا قيل.

و أعلم أنّ مناسبة الآية لما قبلها هو أنّه تعالى لمّا بيَّن فيها أنواعاً من قبائح أهل الشِّرك و أهل الكتاب ذكر في هذه الآية نوعاً آخر منه و هو تغيير العرب أحكام اللّه تعالى لأنّه تعالى حكم في وقتٍ بحكم خاصٍ فإذا غيّروا ذلك الوقت فقد غيّروا حكم اللّه و الشّهور جمع كثرةٍ لمّا كانت أزيد من عشرة بخلاف الاشهُر في قوله: **اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومٰاتٌ** حيث جاء بلفظ جمع القلّة و المعنى شهور السّنة القمّرية لأنّهم كانوا يؤرّخون بالسّنة القمرية لا شمسّية توارثوه عن إسماعيل و إبراهيم و معنى، عند اللّه، أي في حكمه، و قال الرّازي في تفسيره.

إعلم أنّ السّنة عند العرب كانت عبارة عن إثني عشر شهراً من الشُّهور القمرّية و الّدليل عليه هذه الآية و أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ اَلَّذِي جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِيَاءً وَ اَلْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسٰابَ**[1].

فجعل تقدير القمر بالمنازل علّة لِلسّنين و الحساب و ذلك أنّما يصّح إذا كانت السّنة معلّقة بسير القمر و أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْئَلُونَكَ عَنِ اَلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوٰاقِيتُ لِلنّٰاسِ وَ اَلْحَجِّ**[2].

و كانت السّنة عند سائر الطّوائف عبارة عن المدّة الّتي تدور الشّمس فيها دورةً تآمة و السّنة القمرّية أقَلّ من السّنة الشّمسية بمقدارٍ معلومٍ و بسبب ذلك النّقصان تنتقل الشّهور القمرية من فصلٍ الى فصلٍ فيكون الحجّ واقعاً في الشّتاء مرّة و في الصيف أخرى و كان يشّق الأمر عليهم بهذا السبب و أيضاً إذا



١- يونس = ٥ ٢- البقرة= ١٨٩

حضروا الحجّ حضروا للتّجارة فربّما كان ذلك الوقت غير موافقٍ لحضور التّجار من الأطراف فلهذا السّبب أقدموا على عمل الكبيسة على ما هو معلوم في علم الزيجات و أعتبروا السّنة الشّمسية و عند ذلك بقى زمان الحّج مختّصاً بوقتٍ واحد معيّنٍ موافق لمصلحتهم فهذا النّسيئ و إن كان سبباً لحُصول المصالح الدُّنيوية إلاّ أنّه لزم منه تغيّر حكم اللّه و ذلك لأنّه لمّا خصّ الحجّ بأشهر معلومة على اليّقين و كان بسبب ذلك النّسئ يقع في سائر الشّهور تغيّر حكم اللّه و تكليفه فالحاصل أنّهم لرعاية مصالحهم في الدّنيا سعوا في تغيير أحكام اللّه و لهذا إستوجبوا الذّم العظيم فى هذه الآية انتهى كلامه.

أقول هذا ما ذكروه في المقام و يظهر منه أنّهم غيّروا السّنة و الشّهور لأجل منافعهم و قوله تعالىٰ: **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا** أنّهم جعلوها أكثر منها و لذلك رد اللّه عليهم في هذه الأية، و هو كذلك لأنّ السّنة الشّمسية كانت أزيد من السّنة القمريّة فجمعوا تلك الزّيادة فإذا بلغ مقدارها الىٰ شهر جعلوا تلك السّنة ثلاثة عشر شهراً فأنكر اللّه عليهم و قال: **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ**.

قال إبن عبّاس أنّه اللّوح المحفوظ الّذي كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها و هو الأصل الكتب الّذي أنزلها اللّه على جميع الأنبياء.

و قيل أنّ المراد بالكتاب القرآن، و قيل في كتاب اللّه أي فيما أوجبه و حكم به فالكتاب في هذا الموضع هو الحكم و الإيجاب.

قال اللّه تعالىٰ: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**[3] و أمثال ذلك.

١- البقرة= ٢١٦ ٢- البقرة= ١٧٨

٣- الانعام = ٥٤

و المشهور بين المفسّرين هو القَول الأوّل.

و أمّا قول من قال أنّ المراد به الحكم فهو بَعيد عن مساق الكلام مضافاً الىٰ أنّه مستلزم للمجاز و فى قوله: **يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** إشارة الىٰ مبدء خلق العالم أي من أوّل الأمر كان كذا ثمّ أنّ الشّهور القمّرية شرّعوها من المحرّم و ختامها ذو الحجّة، و هكذا، محرّم، صفر، ربيع الأوّل، ربيع الثّاني، جمادي الأوّل، جمادي الثّاني، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحَجَّة.

و أمّا قوله: **مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** فهي رجب، ذو القعدة، ذو الحجَّة، محرَّم **ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** قيل المراد بالدّين القَيّم هو القضاء المستقيم، و قيل العدد الصّحيح، و قيل الشَّرع القويم إذ هو دين إبراهيم.

و قيل الحساب الصّحيح هو الّدين القيّم لا ما كانت عليه العرب من النّسِئ.

و قيل معناه ذلك التَّدين هو الّدين القيّم، و قال بعضهم الّدين القيّم الّذي لا يبدّل و لا يغيّر فالقيّم هاهنا بمعنى القائم بالحقّ الّذي لا يزول و هو الّدين الّذي فطر النّاس عليه، **فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** الفاء للتّفريع أي إذا كان الدّين القيّم هو هذا فلا تظلموا فيّهن، أي في الأشهر الحرم أو في الشُّهور الأثني عشر أنفسكم و المقصود لا تعصوا اللّه فيّهن، أي في السَّنة و لا سيّما في الأشهر الحرم و فى قوله: **أَنْفُسَكُمْ**إشارة الىٰ أنّ تبعات الظّلم ترجع اليكم لا الى اللّه تعالىٰ و أظنّ أنّ قوله: **فَلاٰ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ** معناه المنع من القتال فيهنّ و أن كان ترك جميع المعاصي أولى **وَ قٰاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كٰآفَّةً كَمٰا يُقٰاتِلُونَكُمْ كٰآفَّةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ** أمرهم اللّه بقتال المشركين كافّةً، أي جميعاً و فيه قولان:

أحدهما: أن يكون المراد قاتلوهم مجتمعين على قتالهم كما أنّهم يقاتلونكم بهذه الصّفة.

الثّاني: قال إبن عبّاس قاتلوهم بكلّتيهم و لا تجادلوا بعضهم بترك القتال كما أنّهم يستحلّون قتال جميعكم **وَ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ** لمعاصيهم يؤدّي الى عقابه و يكون معهم بالنُّصرة و الولاية دون الإجتماع في مكانٍ أو محّلٍ لأنّه تعالى لا يجوز عليه ذلك فهو من قبيل قوله: **هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**(١) فالمّعية معّية العناية و الولاية.

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا

قد ذكرنا وجوه القراءة في النّسيئ عند شرح اللّغات و الإعراب صدّر الآية بكلمة، أنما، الّتي تفيد الحصر فقال أنّما النسّيئ أي التّأخير زيادة في الكُفر و المراد بالتّأخير تأخير حرمة شهرٍ الىٰ شهر ليست له تلك الحرمة فيحرّمون بهذا التّأخير ما أحلّ اللّه و يحلّون ما حرَّم اللّهالمعلوم أنّ نفس تأخير الشّهر ليس زيادة في الكفر و أنّما الزّيادة في تأخير حرمة الشّهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة.

قيل أنّهم كانوا قد وكّلوا قوماً من بني كنانة يقال لهم بنوا فقيم و كانوا يؤّخرون المحرّم و ذلك نساء الشُّهور لا يفعلون ذلك إلاّ في ذي الحجَّة إذا إجتمعات العرب للموسم فينادي منادٍ أن إفعلوا ذلك لحاجةٍ أو الحرب و ليس كلّ سنةٍ يفعلون ذلك فأن أرادوا أن يحلّلوا المحرّم نادوا هذا صفر و أنّ المحرّم الأكبر صفر و ربّما جعلوا صفراً محرّماً مع ذي القعدة حتّى يذهب النّاس الى منازلهم إذا نادىٰ المنادي بذلك و كانوا يسمّون المحرّم صفراً و يقدّمون صفراً سنة و يؤّخرونه.

و قال أبو علّي كانوا يؤّخرون الحجّ في كلّ سنةٍ شهراً و محصّل الكلام هو أنّ النّسِيئ المنهي عنه في الآية هو تأخير الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللّه وكانوا في الجاهلّية يعملون ذلك و كان الحجّ يقع في غير وقته و إعتقاد حرمة الشّهر في

١- الحديد = ۴

غير أوانه و لذلك بيّن اللّه تعالى أنّ ذلك زيادة في الكُفر و الى هذا المعنى أشير بقوله: **يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ** أي الحجّ عاماً و يحرّمونه كذلك

و من المعلوم أنّ هذا يوجب الإضلال هذا بناءً على قراءة، **يُضَلّ**، في الآية الشّريفة بضمّ الياء كما هو المشهور و عليه المصاحف فعلاً و أمّا على قِراءة الفتح فالمعنى أنّهم سبب النّسيئ يضلّون عن طريق الحقّ و المآل واحد لأنّ المضّل لغيره فهو ضّال في نفسه فحاصل المعنى أنّ الكفّار أقدموا علىٰ ضلالتهم و ضلالة غيرهم بسبب النِّسيئ لأنّه أوجب تحريم الحلال و تحليل الحرام و ما يلزم منه الكفر فهو كُفر في نفسه و أنّما فعلوا ذلك ليوافقوا عدّة ما حرَّم اللّه كما قال تعالىٰ: **لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ**.

روي أنّ رجلاً مِن كنانة يقال له أبو ثمامة كان يقول للنّاس في منصرفهم من الحجّ أنّ ألهتكم قد أقسمت لنحرِّمن و ربما قال لتحلِّن هذا الشّهر يعني المحرّم فيحلّونه و يحرّمون صفراً و أن حرَّموه أحلُّوا صفراً و كانوا يسمُّونهما الصَّفرين فهذا إضلال من هذا المنادي **زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ** و المزَّين لهم هو أنفسهم و الشّيطان و التَّزيين يكون بمعنىٰ الفعل له و يكون بمعنى تقبُّل الطّبع و أنّما سمّي إنساءهم زيادة في الكفر لأنّهم كانوا يعتقدون صِحّته فلذلك كان كُفراً.

و قوله: **وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ** معناه أنّه لا يهديهم الىٰ طريق الجنّة أو أنّه تعالى بكل الكفّار الّذين لا يتّبعون الحقّ الى أنفسهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّه تعالى يهدي الكلّ قال تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[1].

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ

١- الانسان = ٣

هذا خطاب من اللّه تعالى لجماعةٍ من المؤمنين الذّين تقاعدوا عن الجهاد في سبيل اللّه فقال لهم ما لكم، أي أيُّ شيءٍ لكم و ما الذّي صار سبباً لهذا التّقاعد و التّثاقل عن الجهاد.

أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

قيل في وجه ذلك لمّا أمر اللّه رسوله بغزاة تبوك و كان زمان جدبٍ وحرٍ شديد و قد طابت الثّمار عظم ذلك على النّاس و أحبّوا المقام فنزلت الآية عتاباً لمن تخلَّف على هذه الغزوة و كانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعامٍ غَزا فيها الرّوم في عشرين ألفاً من راكبٍ و راجلٍ و تخلّف عنه قبائل من النّاس و رجال من المُؤمنين كثير و منافقون و خصّ الثّلاثة بالعتاب الشّديد بحسب مكانهم من الصُّحبة إذ هم من أهل بدر و ممّن يقتدي بهم و كان تخلُّفهم لغير علّةٍ و لمّا شرح معاتب الكفّار رغب في مقابلتهم وقوله: **و مَا لَكُمْ** إستفهام معناه الإنكار و التّقريع.

و قوله: **قِيلَ** القائل هو الرّسول لم يذكر إغلاظاً و مخاشنةً لهم و صوناً لذكره و أمّا الإستفهام في قوله: **أَرَضِيتُمْ** فهو أيضاً نوعٌ من الإنكار و التّعجب أي أرضيتم بالنّعيم العاجل في الدّنيا بدلّ النّعيم الأجل الباقي في الأخرة فقوله: **مِنَ الْآخِرَةِ** أي بدل الأخرة لإجماع المفسّرين على أنّها بمعنى بدل في هذا المقام و ذلك كقوله: **لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَآئِكَةً**[1] أي بدلاً منكم و منه قول الشّاعر:

فليست لنا من ماء زمزم شَربةً   مبرّدةً باتت على طهيانٍ

أي بدلاً من ماء زمزم و أمّا أنّ متاع الحياة الدّنيا بالنّسبة الى الأخرة قليل فلا شكّ فيه لمن له عقل و ذلك لوجوهٍ:

۱- الزخرف = ۶۰

أحدها: أنّ متاع الدّنيا و حياتها فانية و حياة الأخرة و متاعها باقية المعلوم أنّ الباقي خير من الفاني و الدّائم من الزّائل.

الثّاني: أنّ الدّنيا و ما فيها من النّعم محفوفة بالألام الجسمانيّة و الرّوحانية كما قال أمير المؤمنين عليه السلام **الدّنيا دارٌ بالبلاء محفُوفَة وبالغَدر مَعرُوفة الخ.**

و هذا بخلاف الأخرة فأنّها مشحونة بالسُّرور و الصّحة و ليس هناك بلاء مرض و لا شكّ أنّ الحياة اذا كانت مصونة عن البلايا و الالام فهي خير من الحياة المحفوفة بها.

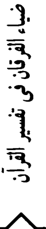
الثّالث: أنّ متاع الحياة الدّنيا حسّيّ ومتاع الأخرة عقلّي و ذلك لأنّ الإنتفاع بالدّنيا يظهر بالحوّاس.

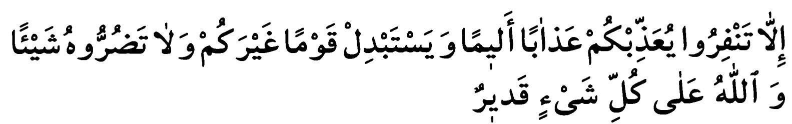
و أمّا متاع الأخرة يظهر للعقل و الإدراك العقلّي خير من الحسّي.

الرّابع: أنّ الدّنيا و ما فيها من النّعم لا تختّص بالمؤمن بل حظُّ الكافر فيها منها أكثر و أوفر من حظّ المؤمن منها و هو دليلّ على دناءتها و رداءتها بخلاف الأخرة اذ لا نصيب للكافر من نعمها و لذاتها إلاّ العذاب.

و من المعلوم أنّ اللّه تعالى يحبّ المؤمن و يبغض الكافر فلو كانت الدّنيا و نعمها و لذاتها تزن عند اللّه بقدر جناح بعوضة لما سقى منها الكافر شربة ماء و حيث نرى الأمر بالعكس نستكشف منه أنّه لا قيمة لها عنده.

و أمّا الأخرة فقد جعلها اللّه لأولياءه الصّالحين الّذين يحبّهم و يحبّونه و أين هذا من ذاك.





لمّا و بخهم في الآية السّابقة على التّثاقل و التّقاعد عن الجهاد في سبيل اللّه حذرهم في هذا الآية و قال: **إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ** اللّه عذاباً أليماً أي مؤلماً و هذا سخطٌ من اللّه عليهم أوعدهم بعذابٍ مطلق يتناول عذاب الدّارين و أنّه

يهلكهم و يستبدل قوماً أخرين خيراً منهم و أطوع و أنّه غنيٌ عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً واللّه قادر على ذلك أي على إهلاكهم و إستبدال قومٍ أخر و على نصرة دينه بأحسن وجهٍ و الضّمير في قوله: **لٰا تَضُرُّوهُ** يرجع الىٰ اللّه لأنّه غنّي بنفسه عن جميع الأشياء و يتحمل رجوعه الىٰ النّبي لأنّ اللّه عصمه من جميع النّاس و الأوّل أحسن.

قال أمير المؤمنين عليه السلام أنّ اللّه تبارك و تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنّياً عن طاعتهم أمناً من معصيتهم لأنّه لا تنفعه طاعة من أطاعه و لا تضرّطوه معصية من عَصاه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلّٰا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ أَفَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ اَنْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اَللّٰهَ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اَللّٰهُ اَلشّٰاكِرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اَللّٰهَ شَيْئًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا**[٣].

إِلّٰا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اَللّٰهُ إِذْ أَخْرَجَهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا ثٰانِيَ اَثْنَيْنِ إِذْ هُمٰا فِي اَلْغٰارِ إِذْ يَقُولُ لِصٰاحِبِهِ لاٰ تَحْزَنْ إِنَّ اَللّٰهَ مَعَنٰا فَأَنْزَلَ اَللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهٰا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلسُّفْلىٰ وَ كَلِمَةُ اَللّٰهِ هِيَ اَلْعُلْيٰا وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

هذا أيضاً خطاب للمتّثاقلين عن الجهاد و نصرة النّبي فأنّه تعالىٰ بعد التَّوبيخ و الإيعاد خاطبهم بذلك و قال لهم إن لا تنصروا النّبي فقد نصره اللّه الخ.

١- أل عمران =١٤٤
٢- أل عمران =١٧٦
٣- المائدة =٤٢

و في الآية مسائل لابدّ لنا من البحث فيها فأنّـها مـعركة الأراء بـين العـامّة و الخاصّة لمسألة الغار و حيث أنّهم لم يجدوا لأبي بكر فـي الإسـلام فـضيلة إلاّ مسألة الغار مع أنّها أيضاً ليست فضيلة فقالوا فيها ما قالوا.

المسألة الأُولىٰ: قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ** ففيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد نصر أنبياءه في جميع الموارد و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ بعثهم الىٰ خـلقه و أكثر الخلق كانوا من أعداء الأنبياء و ما أمن معهم إلاّ قليل فـلولا نـصرة اللّـه إيّاهم لم يقدروا على إعلاء كـلمة التّـوحيد و هـذا أمـرٌ لا يـحتاج الى الإثـبات لوضوحه و منهم نبّي الإسلام و هو أكملهم و أشرفهم و أفضلهم لكونه خـاتم الأنبياء و سيّد المرسلين و العـلّة الغـائية لجـميع الخـلق الّـذي بـدينه نسـخت الأديان و بأحكام شريعته بطلت الأحكام في جميع الأديان و لذلك قال: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**(١) فهو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوَلى، بالنصرة من اللّه من غيره لأنّ دينه يبقى الىٰ يوم القيامة و الىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله: **لَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** من مكّة و فيه أنّ وفاة خديجة كانت بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيّام و قيل بـعد شهرٍ فتتابعت علىٰ رسول اللّه المصائب بموت خديجة و أبي طالب.

روي عن عبد اللّه بن ثعلبة قال لمّا توَفىٰ أبـو طـالب و خـديجة إجـتمعت على رسول اللّه مصيبتان فلزم بيته و أقلّ الخروج و نالت منه قريش ما لم تكن تنال و لا تطمع فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه و قال يا محمّد إمض لما أردت و مـا كنت صانعاً اذا كان أبـو طـالب حـيّاً فأصـنعه لا واللاّت لا يـوصل اليك حـتّى أموت هذه السّنة خرج الى الطّائف و معه زيد بن حارثة و ذلك في ليال بـقين من شوّال سنة عشر من النّبوة فأقـام بـها عشـرة أيّـام فأذوه و رمـوه بـالحجارة فإنصرف الى مكّة.



١- آل عمران = ٨٥

و روي أنّه لمّا إنصرف من الطّائف عمد الى ظلّ حبلة من عِنب فجلس فيه و قال اللّهم أنّي أشكو اليك ضعف قوّتي و قلّة حيلتي و هواني على النّاس أنت أرحم الرّاحمين أنت ربّ المستضعفين و أنت ربّي الى من تكلني الى بعيد يتجهمني أو الى عدّو ملكته أمري إن لم يكُن بك علّي غضب فلا أبالي و لكن عافيتك هي أوسع لى أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظُّلمات و صلح عليه أمر الدّنيا و الأخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ علّي سخطك لكن لك العتبى حتّى ترضى ولا قوّة إلاّ بك.

و لمّا دخل مكّة كان يقف بالموسم على القبائل فيقول يا بني فلان أنّي رسول اللّه اليكم يأمركم أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئاً و كان خلفه أبو لهب يقول لا تطيعوه.

و في سنة أحدىٰ عشرة من نبوّته كان بدو إسلام الأنصار روي أنّ رسول اللّه خرج في الموسم يعرض نفسه على القبائل كما هو كان دأبه بعد ما أمر بإظهار الإسلام فبينا هو في العقبة إذ لقى رهطاً من الخزرج فقال ﷺ من أنتم فقالوا من الخزرج قال ﷺ أفلا تجلسون أكلّمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الىٰ الإسلام و تلى عليهم القرأن و كان أولئك يسمعون من اليهود أنّه قد أظّل زمان نبّي يبعث فلمّا كلمّمهم قال بضعهم لبعضٍ واللّه أنّه للنّبي الّذي يعدكم به اليهود فلاً يسبقّنكم اليه و إنصرفوا راجعين الىٰ بلادهم و قد أمنوا و كانوا ستّة أنفس أسعد بن زرارة، و عون بن الحرث و رافع بن مالك بن عجلان و قطبة بن عامر بن حديدة و عقبة بن عامر و جابر بن عبد اللّه فلمّا قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم رسول اللّه و دعوهم الىٰ الإسلام حتّى فشى دينهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلاّ و فيها ذكر رسول اللّه.

و في سنة أثنتي عشرة من نبوّته كان المعراج و فى هذه السّنة كانت بيعة عقبة الأولى و ذلك أنّ رسول خرج الى الموسم و قد قدم من الأنصار أثني عشر رجلاً فلقوه بالعقبة و هى العقبة الأولى فبايعهم رسول اللّه.

و في سنة ثلاثة عشرة كانت بيعة العقبة الثّانية و ذلك أنّ رسول اللّه خرج الى الموسم فلقيه جماعة من الأنصار فواعدوه العقبة من أوسط أيّام التّشريق و كانوا سبعين رجلاً و معهم، إمرأتان من نساءهم نسيبة بنت كعب أمّ عمّار و أسماء بنت عمرو بن عدّي قال كعب بن مالك فبايعنا و جعل علينا رسول اللّه إثني عشر نقيباً منّا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس ثمّ أمر رسول اللّه أصحابه بالخروج الى المدينة و أقام هو بمكّة ينتظر أن يؤذن له قال في المنتقى كانت الهجرة سنة أربع عشرة من المبعث و هى سنة أربع و ثلاثين من ملك كسرى پرويز و سنة تسع لهرقل و أوّل هذه السّنة المحرّم و كان رسول اللّه مقيّماً بمكّة لم يخرج منها و قد كان جماعة خرجوا في ذي الحجّة و قال محمّد بن كعب القرطبي إجتمع قريش على بابه و قالوا أنّ محمّداً يزعم لكم أن بايعتموه كنتم ملوك العرب و العجم ثمّ بعثتم بعد موتكم فجعل لكم جنان كجنان الأرض وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذّبح ثمّ بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون بها فخرج رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأخذ حفنةً من ترابٍ ثمّ قال صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نعم أنا أقول ذلك فنثر التّراب على رؤسهم و هو يقرأ يٰس، الىٰ قوله: **وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ**[1] فلم يبق منهم رجل وضع علىٰ رأسه التّراب إلاّ قتل يوم بدر ثمّ أنصرف الىٰ حيث أراد فأتاهم آتٍ فقال ما تنتظرون هاهنا قالوا محمّداً قال و اللّه قد خرج محمّد عليكم ثمّ ما ترك رجلاً إلاّ و قد وضع علىٰ رأسه التّراب و أنطلق لحاجته فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التّراب ثمّ جعلوا يطيعون فرأوا عليّاً على الفراش مُتّشحاً ببرد رسول اللّه فيقولون أنّ هذا لمحمّد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتّى أصبحوا فقام علّي من الفراش فقالوا واللّه لقد صدقنا الّذي كان حدّثنا به.

١- يس = ٩

و روي الواقدي و هو من أعيان العامّة عن أشياخه أنّ الّذين كانوا ينتظرون رسول اللّه تلك اللّيلة من المشركين، أبو جهل، و الحكم بن أبي العاص، و عقبة إبن أبي معيط، و النَّضر بن الحرث و أميّة بن خلف و إبن الغيطلة و زمعة بن الأسود و طعمة بن عدي و أبولهب و أبّي بن خلف و بنيه و منبه إبنا الحجّاج فلمّا أصبحوا قام علّيٌ من الفراش فسألوه عن رسول اللّه فقال لا علم لي به.

و روي أنّهم ضربوا علّياً و حبسوه ساعة ثمّ تركوه.

و أورد الغزالي في كتاب إحياء العلوم و هو من أكابر العامّة و هو الّذي سمّي بحجّة الإسلام عندهم قال أنّ اللّيلة الّتي بات علّيٌ على فراش رسول اللّه أوحى اللّه تعالى الى جبرئيل و ميكائيل إنّي أخيت بينكما و جعلت عُمر أحدكما أطول من عمر الأخر فأيّكما يؤثر صاحبه بحياته فإختار كلّ منهما الحياة و أحباها فاوحى اللّه تعالىٰ اليهما أفلا كنتما مثل علّي بن أبي طالب أخيت بينه و بين محمّد فبات عليّ عليه السلام على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة إهبطا الىٰ الأرض فأحفظاه من عدُّوه فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادي بخّ بخّ من مثلك يابن أبي طالب يباهي اللّه بِك الملائكة فأنزل اللّه عزّ وجلّ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**[1].

أقول و ساق حديث الغار الىٰ أن قال كان رسول اللّه حين أتىٰ الغار دعا الشّجرة فأتته فأمرها أن تكون علىٰ باب الغار و بعث اللّه حمامتين فكانتا على فم الغار و نسج العنكبوت على فم الغار ثمّ أقبل فتيان قريش و كان أبو جهل قد أمر منادياً ينادي بأعلى مكّة و أسفلها من جاء بمحمّدٍ أو دلَّ عليه فله مائة بعيرٍ أو جاء بإبن أبي قحافة أو دلَّ عليه فله مائة بعير فلمّا رأوا الحمامتين و نسج العنكبوت على فم الغار إنصرفوا.

١- البقرة = ٢٠٧

و روي أرباب السِّير أنّه إجتمعت قريش في دار النّدوة و كان لا يدخلها إلاّ من أتى عليه أربعون سنة فأدخلوا فيها أربعين رجلاً من مشايخ قريش و جاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البوّاب من أنت قال أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم منّي رأي صائب أنّي حيث بلغني إجتماعكم في أمر هذا الرّجل فخبئت لأشير عليكم فقال أدخل فدخل إبليس فلمّا أخذوا مجلسهم قال أبوجهل يا مشعر قريش أنّه لم يكن أحد من العرب أعزّ منّا نحن أهل اللّه تفد الينا العرب في السّنة مرّتين و يكرموننا و نحن في حرم اللّه لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتّى نشأ فينا محمّد بن عبد اللّه فكنّا نسمّيه الأمين لصلاحه و سكونه و صدق لهجته حتّىٰ اذا بلغ ما بلغ و أكرمناه.

إدّعى أنّه رسول اللّه و أنّ أخبار السّماء تأتيه فسفّه أحلامنا و سبَّ ألهتنا و أفسد شبّاننا و فرّق جماعتنا و زعم أنّه من مات من أسلافنا ففي النّار فلم يرد علينا شئ أعظم من هذا و قد رأيت فيه رأياً قالوا و ما أرأيت قال رأيت أن ندّس اليه رجلاً منّا ليقتله فأن طلب بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديّات فقال الخبيث هذا رأيٌ خبيث قالوا و كيف ذاك قال لأنّ قاتل محمّد مقتول لا محالة فمن هذا الّذي يبذل نفسه للقتل منكم فأنّه اذا قتل محمّد تعصّبت بنو هاشم و حلفاءهم من خزاعة و أنّ بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمّد علىٰ وجه الأرض فيقع بينكم الحروب في حرمكم و تتفاوتوا.

فقال أخر منهم فعندي رأيٌ أخر قال و ما هو قال نلقيه في بيت و نلقي اليه قوته حتّى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنّابغة و إمرؤ القيس فقال إبليس هذا أخبث من الأخر قال و كيف ذاك قال لأنّ بني هاشم لا ترضى بذلك فاذا جاء موسم العرب إستغاثوا بهم و إجتمعوا عليكم فأخرجوه.

قال أخر منهم و لكنّا نخرجه من بلادنا و نتّفرغ نحن لعبادة ألهتنا قال إبليس هذا أخبث من الرّأيين المتقدّمين قالوا و كيف.

قال لأنّكم تعمدون الىٰ أصبح النّاس وجهاً و أنطق النّاس لساناً و أفصحهم لهجةً فتحملوه الى بوادي العرب فيخدعهم و يسحرهم بلسانه فلا يفجأكم إلاّ و قد ملأها عليكم خيلاً و رجلاً فبقوا حائرين.

ثمّ قالوا لإبليس فما الرّأي يا شيخ قال ما فيه إلاّ رأيٌ واحد قالوا و ما هو قال يجتمع من كلّ بطنٍ من بطون قريش و قبائل العرب ما أمكن و يكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكيّنةً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلّهم ضربةً واحدة حتّىٰ يتفرّق دمه في قريش كلّها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه و قد شاركوه فيه فأن سألوكم أن تعطوهم الدِّية فأعطوهم ثلث ديّات فقالوا نعم و عشر ديّات ثمّ قالوا الرّأي رأي الشّيخ النَّجدي فإجتمعوا فيه و دخل معهم في ذلك أبولهب عمّ النّبي فنزل جبرئيل علىٰ رسول اللّه و أخبره أنّ قريشاً قد إجتمعت في دار النَّدوة يدَّبرون عليك و قال له جبرئيل خذ على طريق ثور و هو جبل علىٰ طريق منى له سنام كسنام الثَّور فدخل الغار و كان من أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان فلمّا أصبحت قريش و ثبوا الى الحجرة و قصدوا الفراش فوثب علّي في وجوههم و قال ما شأنكم قالوا له أيَن محمّد قال أجعلتموني عليه رقيباً ألستم قلتم نخرجه من بلادنا فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبىلهب يعيّرونه و يقولون أنت تخدعنا منذ اللّيلة فتَّفرقوا في الجبال و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الأثار.

فقالوا يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول اللّه فقال هذه قدم محمّد واللّه لأنّها لأخت القدم الّتي في المقام و كان أبوبكر إستقبل رسول اللّه فقال أبوكرز و هذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثمّ قال و هاهنا غير إبن أبي قحافة فما زال بهم حتّىٰ أوقفهم على باب الغار ثمّ قال ما جوازوا هذا المكان إمّا أن يكونوا صعدوا الى السّماء أو دخلوا تحت الأرض و بعث اللّه العنكبوت فنسجت علىٰ باب الغار وجاء فارس من الملائكة حتّىٰ وقف علىٰ باب الغار.

ثمّ قال ما في الغار أحد فتفرّقوا في الشّعاب و صرَّفهم اللّه عن رسوله ثمّ أذن لنبيّه في الهجرة.

و عن أنس ابن مالك قال لمّا توّجه رسول اللّه الىٰ الغار و معه أبوبكر أمر النّبي عليّاً أن ينام على فراشه و يتّغشى ببردته فبات علّي عليه السلام موطّناً نفسه على القتل وجاءت رجال قريش من بطونها يريدون قتل رسول اللّه فلمّا أرادوا أن يضعوا عليه أسيافهم لا يشّكون أنّه محمّد فقالوا أيقظوه ليجد ألم القتل و يرى السّيوف مأخذه فلمّا أيقظوه و رأوه عليّاً تركوه و تفرَّقوا في طلب رسول اللّه فأنزل اللّه عزّ وجلّ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**[1].

روي عن مجاهد أنّه قال فخرت عائشة بأبيها و مكانه مع رسول اللّه في الغار فقال لها عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد و أين أنت من عَلّي بن أبي طالب حيث نام في مكانه و هو يرىٰ أنّه يُقتل فسكتت و لم تحر جواباً انتهىٰ.

أقول إذا عرفت هذا فقد ظهر لك تفسير قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللّٰهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ** وعَلِمت أنّ الكفّار كيف إجتمعوا علىٰ قتله صلى الله عليه وآله وسلم و أنّما ذكرنا قصّة الغار بتفصيلها بطرق مختلفة لئلا تحتاج الى مراجعة التّواريخ و كتب السِّير فهذا الّذي ذكرناه من مصاحبة أبى بكر لرسول اللّه و نوم علّي عليه السلام على فراشه ممّا إتّفق عليه جميع المؤرّخين و أرباب السِّير و المفسّرين و لم يختلف فيه أحد أنّما الإختلاف بين العامّة و الخاصّة في أنّ النَّوم على فراش رسول اللّه أفضل أو مصاحبته في الغار.

و قد أطنب الكلام في الباب بعض علماء العامّة من مؤرّخيهم و مفسّريهم على أنّ أبابكر أفضل من علّي لكونه من أصحاب الغار و قد قال اللّه تعالىٰ: **إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللّٰهَ مَعَنَا**

١- البقرة = ٢٠٧

و حيث أنّ الموضوع له ربطٌ بمسألة الإمامة و الآية معركة الأراء بين الباحثين و بها أوقعوا الشُبه في أذهان العوام و ذلك لأنّهم لم يجدوا بعد الفحص الكامل في التّواريخ و السِّير و كتب الأخبار فضيلةً لأبى‌بكر الّذي قالوا فيه أنّه خليفة رسول اللّه حقّاً فلاجرم تمسّكوا بهذه الآية و جعلوا كونه في الغار مع النّبي فضيلة له بل من رؤوس الفضائل فلابدّ لنا من التكلّم في الآية إجمالاً و أن كان خارجاً عن موضوع كتابنا و ذلك لأنّ الدّفاع عن حريم العترة كالدّفاع عن حريم الكتاب لكون العترة عدلاً له قال رسول اللّه **أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعِترتي أهل بيتي**.

فنقول مستعيناً باللّه و متوكّلاً عليه قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ماهذا لفظه:

السّادسة: قوله تعالىٰ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** هذه الآية تضَّمنت فضائل الصّديق رضي الله عنه.

روي أصبغ و أبو زيد عن أبي القاسم عن مالك **ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** هو الصّديق فحقق اللّه تعالىٰ قوله له بكلامه و وصف الصُّحبة في كتابه.

قال بعض العُلماء من أنكر أن يكون عُمر و عثمان أو أحد من الصّحابة صاحب رسول اللّه فهو كذّابٌ مبتدع و من أنكر أن يكون أبوبكر رضي الله عنه صاحب رسول اللّه فهو كافر لأنّه ردَّ نصَّ القرأن و معنى، أنّ اللّه معنا، أي بالنَّص و الرّعاية و الحفظ و الكَلاءة.

روي التّرمذي والحارث إبن أبي أُسامة قالا حدَّثنا عفّان قال حدَّثنا هُمام قال أخبَرنا ثابت عن أنس أنّ أبا بكر حدَّثه قال قلتُ للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم و نحنُ في الغار لو أنَّ أحدهم نَظرالىٰ قَدميه لأبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنّك بأثنين اللّه ثالثهما

قال المجاسي يعني معهما بالنّصر و الدّفاع لا على معنى ما عمَّ به الخلائق فقال ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم. فمعناه العموم أنّه يسمع و يرى من الكفّار و المؤمنين.

السّابعة: قال إبن العربي قالت الإماميّة قبّحها اللّه حزن أبىبكر في الغار دليل علىٰ جهله و نقصه و ضعف قلبه و خرقه.

و أجاب علماءنا عن ذلك بأنّ إضافة الحُزن اليه ليس بنقصٍ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه:

نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ(١).

و لَم ينقُص موسىٰ قوله:

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ، قُلْنَا لا تَخَفْ(٢).

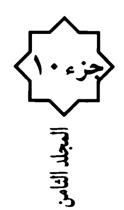
و في لوط:

وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ(٣).

فهؤلاء العُظماء عليهم السّلام قد وجدت عندهم التّقية نصّاً و لم يكن ذلك طعناً عليهم و وصفاً لهم من نقص ثمّ هي عند الصّديق إحتمال فأنّه قال لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

جواب ثان: إنّ حزن الصّديق أنّما كان خوفاً على النّبي صلّی الله علیه وآله وسلّم أن يصل اليه ضرر ولم يكن النّبي في ذلك الوقت معصوماً و أنّما نزل عليه **وَ ٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**(٤) بالمدينة انتهىٰ.

الثّامنة: قال بن العربي قال لنا أبو الفضائل العدل قال لنا جمال الإسلام أبوالقاسم قال موسىٰ علیه السلام **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**(٥)و قال في محمّد **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** لاجرم لمّا كان اللّه مع موسىٰ وحده إرتّد أصحابه بعده



١- هود = ٧٠
٢- طه = ٦٧/٦٨
٣- العنكبوت =٣٣
٤- المائدة= ٦٧
٥- الشعراء = ٦٢

فرجع من عند ربّه ووجدهم يعبدون العجل و لمّا قال في محمّد و لا تحزن أنّ اللّه معنا، بقى أبوبكر مهتدياً موّحداً عالماً جازماً قائماً بالأمر و لم يتطرّق اليه إختلال.

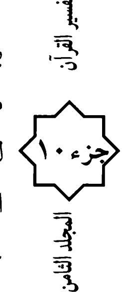
التّاسعة: خرج التّرمذي من حديث نبيط بن شريط عن سالم بن عبيد له صحبة، قال أغمي على رسول اللّه ،الحديث.

و فيه و إجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا إنطلقوا بنا الى أخواننا من الأنصار ندخلهم في هذا الأمر معنا فقالت الأنصار منّا أمير و منكم أمير فقال عمر، من له مثل هذه الثّلاث، **ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا.**

من هما قال ثمّ بسط يده فبايعه و بايعه النّاس بيعةً حسنةً جميلةً.

قلتُ و لهذا قال بعض العلماء في قوله: **ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ** ما يدّل علىٰ أنّ الخليفة بعد النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أبو بكر الصّديق لأنّ الخليفة لا يكون أبداً إلاّ ثانياً و سمعت شيخنا الإمام أبا العبّاس أحمد بن عُمر يقول إنّما إستّحق الصّديق أن يقال له ثاني إثنين لقيامه بعد النّبي بالأمر لقيام النّبي به أوّلاًأنّ النّبي لمّا مات إرتّدت العرب كلّها و لم يبق الإسلام إلاّ بالمدينة و مّكة و جواثا، فقام أبوبكر يدعو ألنّاس الى الإسلام و يقاتلهم علىٰ الدّخول في الدّين كما فعل النّبي فأستحقّ من هذه الجهة أن يقال له ثاني إثنين.

قُلت و قد جاء في السّنة أحاديث صحيحة يدّل ظاهرها علىٰ أنّه الخليفة بعده و قد إنفقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف و القادح في خلافته مقطوع بخطأه و تفسيقه و هل يكفر أم لا يختلف فيه و الأظهر تكفيره و سيأتي لهذا المعنىٰ مزيد بيان في سورة الفتح إنشاء اللّه والّذي يقطع به الكتاب و السُّنة و أقوال علماء الامّة و يجب أن تؤمن به القلوب و الأفئدة فضل الصّديق على جميع الصّحابة و لا مبالاة بأقوال أهل التّشيع و لا أهل البدع فأنّهم بين مكفّر تضرب عنقه و بين مبتدع مفسق لا تُقبل كلمته ثمّ بعد الصّديق عمر الفاروق ثمّ بعده عثمان.



روي البخاري: عن إبن عمر قال كُنّا نخّير بين النّاس مِن زمن رسول اللّه فنخيّر أبابكر ثمّ عثمان و أختلف أئمة أهل السّلف في عثمان و علّي فالجمهور منهم علىٰ تقديم عثمان.

و روي عن مالك أنّه توقّف في ذلك.

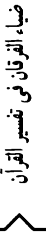
و روي عنه أنّه رجع الى ما عليه الجمهور و هو الأصّح إنشاء اللّه إنتهى ما ذكره القُرطبي بألفاظه و عباراته.

و إنّما نقلناها بطولها مع علمنا بأنّه لا فائدة فيها لأنّ ماذكره لا دليل عليه من العقل و النّقل و إنّما هو مجّرد أوهام و خيالات، حفظاً للأمانة.

و نحن نقول، أمّا ما ذكره في أوّل البحث من أنّ أبا بكر كان صاحبه في الغار فلاكلام لأحدٍ فيه حتّى يحتاج الى الإثبات و ذلك لدلالة نَّص الكتاب عليه إلاّ إنّا نقول أنّ مجرّد كونه في الغار مع النّبي لا يثبت له فضيلة و على المدّعي الإثبات إذ كلمة، صاحب، ليست فيها فضيلة و لا شأن.

و أمّا نقله عن إبن العرّبي من أنّ قوله: **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** لا يدّل علىٰ النّقص و إستدلاله على ذلك بالأيات الحاكية عن إبراهيم و موسىٰ و لُوط و أنّ الإمّامية قالت أنّ الحزن يدّل على الجهل و النّقص ألخ.

ففيه أنّ الحزن ثابت بصريح الآية و هو قوله: **لَا تَحْزَنْ** و أمّا أنّه نقصٌ و جهلٌ، فهو أيضاً لا إشكال فيه إذ المخلوق كائناً من كان فهو ناقص في حدّ ذاته و الكامل بالذّات هو اللّه تعالى و لا شكّ أنّ الحزن نقص بالنّسبة الى عدمه فما نقله إبن العربي عن الإماميّة.



من أنّ الحزن يدّل على الجهل و النَّقص على فرض صحّته كلامٌ مطابق للأصل و لا إختصاص له بأبىبكر و كأنّه أي إبن العربي، لم يعلم أنّ الحزن نقصٌ في حدّ ذاته و من لم يعلم ذلك كيف دخل في المعقولات.

و أمّا ما ذكره في المسألة الثّالثة، فلم نفهم ما أراد من كلامه لأنّه أشبه شئ بكلام المجانين و أقبح منه قوله في آخر كلامه و بقى أبوبكر مهتدياً موّحداً

عالماً ألخ و لم يبيّن كيف صار مهتدياً موّحداً عالماً جازماً قائماً بالأمر وهل يجوز لقائلٍ أن يقول لما قال لا تحزن أنّ اللّه معنا، فصار أبوبكر كذا و كذا وأيُّ ربطٍ بين قوله ﷺ لا تحزن أنّ اللّه معنا و بين كونه أي أبو بكر مهتدياً موّحداً الخ.

و أمّا مانقله في المسألة التّاسعة عن التّرمذي و غيره الى أن قال فقال عُمر من له مثل هذه الثّلاث الخ فنقول كلام عمر ليس حجّة و لا برهاناً على إثبات المدّعىٰ و هو واضح لأنّ عمر كان بمنزلة الرُّوح في جَسد أبىبكر فلو لم يثبت عمر لأبي بكر ما أثبت أبوبكر له ما أثبت بعده الم يعلم القُرطبي و أمثاله أنّ شهادة أبىبكر لعمر أو شهادة عُمر لأبىبكر كانت لأجل المصلحة فتلك الشّهادات أنّما صدرت عن كلّ واحدٍ منهما بعوضٍ معلوم.

و أمّا قول القُرطبي بأنّ قوله ثاني أثنين، لقيامه بعد النّبي بالأمر كقيام النّبي به أوّلاً.

ففيه أنّ الكلام خرج مخرج المصادرة بالمطلوب و ذلك لأنّه يصّح لو كان قيام أبىبكر بعده بأذنه و تصريحه و هو أيضاً لا يدّعي ذلك و مجرّد القيام و لو بغير إذنه لا يدّل علىٰ أنّه ثاني أثنين.

و أمّا قوله إرتدّت العرب كلّها بعد موت النّبي فهو أوّل الكلام وعلىٰ المدّعي الإثبات نعم لو أراد القرطبي بالإرتداد رجوعهم الى القهقري بعد موت النّبي بسبب أعمال الخلفاء أو لأنّهم لم يرضوا بخلافته لأنّها كانت من غير مشورةٍ و أمثال ذلك فله وجهٌ و العجب منه حيث يدّعي أنّ أبابكر قام بالأمر و هو يدعوا النّاس الىٰ الإسلام و يقاتلهم علىٰ الدّخول في الدّين كما فعل النّبي ﷺ فإستّحق من هذه أن يقال في حقّه ثاني أثنين.

إذ يلزم علىٰ ما ذكره أن يكون أبوبكر مبعوثاً بعد النّبي لدعوة النّاس بالدّخول في الإسلام و ذلك لأنّ دعوة النّبي قد زالت بموته على الفرض و لم يبق منها عينٌ و لا أثر لإرتداد العرب كلّها فلو لم يقم أبوبكر بعده و لم يدعو

النّاس الى الإسلام و لم يقاتلهم على الدّخول فيه كنّا من الكافرين و عليه فحقّ أبى‌بكر على المسلمين أعظم من حقّ النّبي و لازم ذلك أن يكون وجود الرّسول بلا فائدة فكان على اللّه أن يبعث أبابكر من أوّل الأمر و لا أظنّ من يقول بهذه المقالة إلاّ الملحد نعوذ باللّه من هفوات الشّياطين.

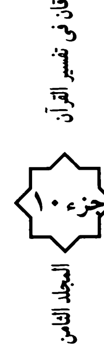
و أمّا ما قال و إدَّعى أنّه جاء في السنّة الصّحيحة ما يدّل علىٰ أنّه الخليفة بعده و إنعقد الإجماع ذلك و لم يبق منهم مخالف.

فيقال له اذا كانت السنّة الصّحيحة دلَّت على ذلك فلا كلام لأحدٍ فيه لأنّ المسلم تابع للسنّة الصّحيحة و لكن على المدّعي إثبات ما قال فأنّ السنّة الصّحيحة ما ثبت عن طريق أهل البيت لأنّ أهل البيت أدرىٰ بما في البيت.

فالسنّة لا تؤخذ إلاّ منهم و أمّا أبو هريرة و أمثاله من الكذّابين فلا تثبت بقولهم السنّة.

و أمّا إنعقاد الإجماع و قوله لم يبق منهم مخالف، فهو ممّا تضحك به الثّكلىٰ، و الحقّ أنّه لم يعلم معنىٰ الإجماع ولو علم كان عناده و تعصّبه مانعاً عن بيان الحقّ و إلاّ كيف يدّعي الإجماع و رؤوس المهاجرين و الأنصار كانوا مخالفين لخلافة أبى‌بكر و بعده عمر و تفصيل الكلام فيه خارج عن موضوع الكتاب.

و أمّا قوله و لا مبالاة بأقوال أهل التّشيع و أهل البدع فأنّهم بين مكفّرٍ تضرب عنقه و بين مبتدِع مفسَّق لا تقبل كلمته فهو من أوّل الدّلائل علىٰ صحّة خلافة أبى‌بكر و عمر و عثمان و لا دليل لهم على إثبات مدّعاهم أقوى منه فأنّ الإنسان اذا عجز عن الإستدلال يتشبّث بهذه الأقاويل أعني بها التّكفير و ضرب الأعناق والرّقي بالبدعة و الإضلال كما كان قيام أبى‌بكر بالأمر بعده بهذه الأسباب و من يشابه أبد فما ظلم، و أمّا قوله أنّ أبابكر أفضل الصّحابة و بعده عُمر و بعد عثمان الى أخر ما قال فلا بحث لنا فيه فعلاً وللبحث فيه مقام أخر.



و محصّل الكلام هو أنّ القُرطبي لم يقدر على إثبات مدّعاه و أنّما هو كالغريق يتشبّث بكلّ حشيشٍ و سنقيم الدّلائل العقلّية و النّقلية علىٰ أنّ المصاحبة لا تدّل على الفضيلة أصلاً، إن شاء اللّه تعالىٰ.

و ممّن تكلّم في الآية و أثبت بزعمه الفضيلة لأبى‌بكر هو الفخر الرّازي في تفسيره لهذه الآية فأنّه قد أطال الكلام في المقام وكلّ من جاء بعده من مفسّري العامّة أخذوا ما أخذوا منه و ذلك لإتّفاقهم علىٰ ان الرّازي أعلمهم و أقواهم في إقامة الدّليل لتّبحره في الفلسفة و الكلام و نحن لابدّ لنا من التعرّض لدلائله و الجواب عنها مع مراعاة الإيجاز و الإختصار و إن كانت هذه المباحث خارجة عن موضوع الكتاب فنقول قال الرّازي:

المسألة الثّالثة: ذكروا أنّ قريشاً و من بمكّة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول اللّه فنزل **وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**[1] فأمره اللّه تعالىٰ أن يخرج هو و أبوبكر أوّل اللّيل الىٰ الغار والمراد من قوله: **أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** هو أنّهم جعلوه كالمضّطر الىٰ الخروج و خرج رسول اللّه و أبوبكر أوّل اللّيل الى الغار و أمر علّياً أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السّواد من طلبه حتّىٰ يبلغ هو و صاحبه الىٰ ما أمر اللّه به فلمّا و صلا الى الغار دخل أبوبكر الغار أوّلاً يلتمس ما في الغار فقال له النّبي ما لك فقال بأبي أنت و أمّي الغيران مأوى السِّباع والهَوام فأن كان فيه شيئ كان بي لا بك و كان في الغار حجر فوضع عقبه عليه لئّلا يخرج ما يؤذي الرّسول فلمّا طلب المشركون الأثر و قربوا بكى أبوبكر خوفاً على رسول اللّه فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا تحزن أنّ اللّه معنا فقال أبو كر أنّ اللّه لمعنا فقال الرّسول نعم فجعل يمسح الدُّموع عن خدّه و يروي عن الحسن أنّه اذا ذَكر بكاء أبى‌بكر بكى و إذا ذكر مَسحه الدُّموع مسح هو الدُّموع عن خدّه.

۱- الانفال = ۳۰

و قيل لما طلع المشركون فوق الغار أشَفق أبوبكر علىٰ رسول اللّه فقال أنتصب اليوم ذهب دين اللّه فقال رسول اللّه ما ظنّك، بأثنين اللّه ثالثهما لمّا دخل الغار وضع أبوبكر ثمامة علىٰ باب الغار فبعث اللّه حمامتين فباضتا في أسفله و العنكبوت نسجت عليه و قال رسول اللّه اللّه أعم أبصارهم فجعلوا يتردّدون حول الغار و لا يرون أحداً انتهىٰ كلامه في هذه المسألة.

أقول أصل دخولهما الغار لا كلام لأحدٍ فيه و لكن يلوح من نقله أثار الوضع و أنّهم أضافوا الى قصّة الغار ما شاءوا و أرادوا ليثبتوا بذلك ما أرادوه من الفضيلة بزعمهم و أن لم تكن فضيلة واقعاً و نحن نشير الى الإضافات إجمالاً.

منها، قوله دخل أبوبكر الغار أوّلاً يلتمس ما في الغار، فأنّه من المجعولات إذ من أخبر الرّازي و أمثاله بذلك و المفروض أنّه لم يكن معهما أحد فأن كان المخبر بذلك هو أبوبكر نفسه فهو من قبيل الإدّعاء فأين الدّليل لأنّ من كان بصدد إثبات الفضيلة لنفسه فيقول ما يشاء و العقل يحكم بعدم صحتّه و أن كان المخبر غير أبىبكر فمن هو و المفروض أنّه لم يكن هناك أحد و أعجب بل أضحك منه ما نقله من أنّ أبابكر بكىٰ و النّبي مسح الدّموع عن خدّه و ليت شعري من أخبر الرّازي بهذه الأخبار من داخل الغار أنظروا يا أهل الإنصاف هذا الرّجل من أعلم علماءهم و هو ممّن كان يدّعي التّوغل في الفلسفة و المطالب العقلّية فما تظنُّون بأمثال القُرطبي و الألوسي و البيضاوي و غيرهم.

و أمّا قوله فقال رسول اللّه ما ظنّك بأثنين اللّه ثالثهما فيقال له و أيّ فضيلةٍ في ذلك و هذا يجري في جميع الموارد و بعبارةٍ أخرى كلّ أثنين سواء كانا مؤمنين أم كافرين فلا محالة اللّه ثالثهما، فأنّ اللّه مع كلّ أحدٍ و هو معكم أينما كنتم و الحاصل أنّه لا شكّ في كون أبىبكر مع النّبي في الغار.

و أمّا إثبات الفضيلة فهو شئ آخر ثمّ شرع الّرازي في إثبات مدّعاه و قد أقام على ذلك إثني عشر دليلاً و نحن نشير الىٰ كلّ واحدٍ منها و نجيب عنه بحوله تعالى و قوّته.

قال الرّازي المسألة الرّابعة: دلّت هذه الآية على فضيلة أبى‌بكر من وجوهٍ.

الأوّل: أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا ذهب الىٰ الغار لأجل أنّه كان يخاف الكفّار من أن يقدموا علىٰ قتله فلولا أنّه كان قاطعاً علىٰ باطن أبى‌بكر بأنّه من المؤمنين المحقّين الصّادقين الصّديقين لما أصحبه نفسه في ذلك الموضع لأنّه لو جوّز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أنّ يدّل أعدءه عليه و أيضاً لخافه من أن يقدم على قتله فلمّا إستخلصه لنفسه في تلك الحالة دلَّ على أنّ كان قاطعاً بأنّ باطنه على وِفق ظاهره انتهىٰ.

أقول ليس في هذا الدّليل إثبات فضيلةٍ لأبى‌بكر بل أثبت الرّازي بذلك أنّ باطنه كان موافقاً لظاهره و بعبارةٍ أخرى أنّه لم يكن منافقاً، و هذا غير ما نحن بصدد إثباته من إثبات فضيلةٍ له ليست لغيره لأجلها صار من أصحاب الغار فغاية ما يستفاد من دليله هو أنّ أبابكر كان من المؤمنين كغيره من آحاد المؤمنين و لم يكن منافقاً و من المعلوم أنّ هذا المعنى على فرض ثبوته أو إثباته لا يجعله ممتازاً بين المؤمنين و لا بحث لنا فيه فعلاً و أنّما البحث في إثبات فضيلةٍ لم تكن لغيره و أنّىٰ له بإثباته.

الثّاني: و هو أنّ الهجرة كانت بإذن اللّه تعالى و كان في خدمة الرّسول جماعة من المخلصين و كانوا في النّسب الىٰ شجرة رسول اللّه أقرب من أبى‌بكر فلولا أنّ اللّه تعالىٰ أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك الواقعة الصعبة الهائلة و إلاّ لكان الظّاهر أن لا يخصّه بهذه الصُّحبة و تخصيص اللّه أيّاه بهذا التّشريف دلّ على منصبٍ عالٍ في الدّين انتهىٰ.

أقول أمّا أنّ الهجرة كانت بإذن اللّه فهو حقّ لا كلام لنا فيه.

و أمّا أنّ جماعة من المخلصين كانوا في خدمته من أقرباءه فهو أيضاً لا بحث فيه و أمّا أنّ اللّه تعالىٰ أمر رسوله بأن يستصحب أبابكر فلا دليل عليه و من أين ثبت للمستدلّ هذاالمعنى و على فرض ثبوته فلعلّه كان لغرضٍ آخر غير ما زعمه الرّازي فمجرّد كون أبى‌بكر مصاحباً له صلى الله عليه وآله وسلم في الغار لا يدّل

على أنّه تعالىٰ أمر رسوله بهذه الصحبّة لصفاء أبىبكر و إيمانه و إمتيازه عن غيره و هو واضح.

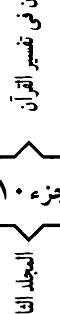
الثّالث: أنّ كلّ من سوى أبىبكر فارقوا رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمّا هو فما فارق رسول اللّه كغيره بل صبر على مؤنسته و ملازمته و خدمته عند هذا الخوف الشّديد الّذي لم يبق معه أحد و ذلك يوجب الفضل العظيم انتهىٰ.

أقول كان على المستدلّ أن يبيّن من الّذين فارقوا رسول اللّه. و أمّا أنّه ما فارقه كغيره بل صبر الخ.

فهذا على فرض ثبوته يدّل على أنّ أبابكر كان مؤمناً باللّه ورسوله و لم يرتدّ عن دينه فهو كغيره من المؤمنين الّذين بقوا علىٰ عهدهم و نصروا رسوله شكّ أنّه أمرٌ مستحسّنٌ ممدوح.

و أمّا قوله أنّه صبر على الخوف الشدّيد الّذي لم يبق معه أحد و ذلك يوجب الفضل العظيم فنقول له مصاحبة أبىبكر في الغار كان أشدّ خوفاً أو نوم علّي عَلَيْهِ السَّلَامُ في فراشه بين السّيوف و الرّماح فأقض ما أنت قاضٍ، هذا أوّلاً.

و ثانياً، لو سلّمنا ما قال نقول له ليس البحث في إثبات الفضيلة بل البحث في إثبات الأفضّلية و أنّ أبابكر كان أفضل من غيره لأجل الغار فالدّليل على فرض تماميّته لا يثبت المدّعى و لو كان مجرّد المصاحبة دليلاً على الأفضلية لكان أنس بن مالك أفضل الصّحابة لكونه بوّاباً على باب الرّسول و مصاحباً له أكثر من غيره وهكذا بلال المؤذّن وزيد بن الحارثة و إبنه أسامة بل و زوجات النّبي و لا يقول به عاقل.



الرّابع: أنّه تعالىٰ سمّاه ثاني إثنين فجعل ثاني محمّد حال كونهما في الغار و العلماء أثبتوا أنّ كان ثاني محمّد في أكثر المناصب الدّينية فأنّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمّا أرسل الى الخلق و عرض الإسلام على أبىبكر آمن أبوبكر ثمّ ذهب و عرض الإسلام على طلحة و الزّبير و عثمان و جماعة آخرين من أجلّه الصّحابة و الكّل آمنوا على يديه ثمّ أنّه جاء بهم الىٰ رسول اللّه بعد أيّام قلائل فكان هو

ثاني إثنين في الدَّعوة الى اللّه و أيضاً كلمّا وقف رسول اللّه في غزوة كان أبوبكر يقف في خدمته و لا يفارقه فكانوا ثاني إثنين في مجلسه و لمّا مرض رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قام مقامه في إمامة النّاس للصّلاة فكان ثاني إثنين و لمّا توّفى صلّى الله عليه وآله وسلّم دفن بجنبه فكان ثاني إثنين هناك أيضاً و طعن بعض الحمقى من الرّوافض في هذا الوجه و قال كونه ثاني إثنين للرّسول لا يكون أعظم من كون اللّه تعالىٰ رابعاً لكلّ ثلاثة في قوله: **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**[1] ثمّ أنّ هذا الحكم عامّ في حقّ الكافر و المؤمن فلمّا لم يكن هذا المعنى منه تعالى دّالاً علىٰ فضيلة الإنسان فلان لا يدّل من النّبي علىٰ فضيلة الإنسان كان أولى و أجاب عنه فقال.

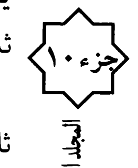
الجواب أنّ هذا تعسّف بارد لأنّ المراد هناك كونه تعالى مع الكلّ بالعلم و التّدبير و كونه مطّلعاً علىٰ ضمير كلّ أحدٍ

أمّا هنا فالمراد بقوله تعالىٰ: **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** تخصيصه بهذه الصّفة في معرض التّعظيم و أيضاً قد دلَّلنا بالوجوه الثّلاثة المتّقدمة علىٰ أنّ كونه معه في هذا الموضوع دليل قاطع على أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قاطعاً بأنّ باطنه كظاهره فأين أحد الجانبين من الآخر انتهىٰ.

أقول أمّا قوله أنّه تعالى سمّاه ثاني إثنين فجعله ثاني محمّد حال كونها في الغار.

ففيه إشارة أنّ التّسمية بذلك لا يدّل على أنّه ثاني محمّد و ذلك لأنّه لم يكن في الغار إلاّ إثنان فقال تعالى ثاني إثنين فلو كان هناك ثلاثة لا محالة يقول ثلاث ثلاثة مثلاً.

و ملخّص الكلام هو أنّ التّعبير بغيره لا يمكن أصلاً و بذلك لا يصير الإنسان ثاني محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و أمّا قوله و العلماء أثبتوا أنّه ثاني محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم في أكثر المناصب الدّينية ثمّ ذكر منها موارد.



١- المجادلة= ٧

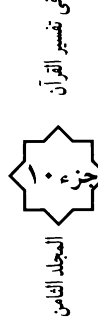
منها أنّه آمن بالرّسول بمجرّد عرض الإسلام عليه و هو عرض الإسلام على طلحة و الزّبير و عثمان و غيرهم فكأنّ الرّازي كان غافلاً أو متغافلاً عمّا ذكره المؤرخون و أرباب السّير في الباب و من أراد الإطّلاع على كذبه فعليه بالمراجَعة الى مظّانها و ذلك لأنّه بحث تاريّخي لا ربط له بما نبحث فيه فعلاً.

و على فرض ثبوته هو لا يدّل على أنّه ثاني إثنين في الدَّعوة لا غيره فأنّ جميع المسلمين بعد إسلامهم دعوا أقرباءهم و أحبّاءهم و أفراد القبائل بالإسلام و لم يكن هذا مختصّاً بأبىبكر و أن شئت قلت جميع المسلمين كانوا ثاني إثنين في الدَّعوة.

و أمّا قوله كلمّا وقف رسول اللّه في غزوة كان أبوبكر يقف في خدمته يفارقه فكان ثاني إثنين في مجلسه.

فنقول ما ذكره في المقام في إثبات الأفضّلية كان بالذَّم أشبه منه بالمدح إذ لقائلٍ أن يقول لم كان أبوبكر يقف في خدمته و لم يفارقه في الغزاوت ألم يكن الجهاد واجباً عليه فأن كان واجباً عليه و تخلّف عنه فهو عاصٍ و أن لم يكن واجباً عليه لمرضٍ أو جنونٍ أو سفهٍ أو غير ذلك فلا كلام لنا فيه و أن كان تقاعده عن القتال خوفاً من القتل فهو ناش عن ضعف إيمانه فالمستدلّ الّذي إعترف بأنّ أبابكر كان في خدمة الرّسول و لم يفارّقه كان واجباً عليه أن يبيّن علّة القعود عن الجهاد الّذي هو فرضٌ على جميع المسلمين في حضور الإمام فمن كان معرضاً عمّا يجب عليه لا يكون ثاني أثنين في مجلسه.

و أمّا مسألة إمامته للنّاس في الصّلاة فهي ممّا إدّعاه المستدلّ و أمثاله دليل له و لهم على اثبات ذلك و الحقّ أنّ أبابكر لم يكن إماماً للنّاس في صلاتهم عند مرض النّبي و لولا خوف الإطالة لأشبعنا الكلام فيه و هذه الأخبار المرّوية بطرقهم من مجعولات الكذّابين الوّضاعيين في صدر الإسلام لإثبات دعاويهم الباطلة و كم له من نظير و مع ذلك لو سلّمنا ما ذكره فهو لا يثبت مدّعاه و هو أنّه ثاني أثنين و ذلك لأنّ الإمامة في غيبة الرّسول لو كانت دليلاً على ما قالوه لكان



إبن أمّ مكتوم أيضاً ثاني أثنين بل هو أعظم من أبى‌بكر لأنّ نيابته للرّسول كانت ثابتة لم يختلف فيه أحد و أمّا أبوبكر فلا.

و أمّا قوله لمّا توَّفى دفن بجنبه فكان ثاني أثنين، فهو غريب لأنّا نقول:

أمّا أوّلاً: فهذا مما لا يثبت به شئ أصلاً و لا فضيلة فيه أبداً.

ثانياً: من دفنه بجنب الرّسول فأن قالوا أنّ الرّسول أوصى بذلك مثلاً فهذا كذب صريح بل تهمة على الرّسول و إن قالوا دفنه هناك عُمر و كان حاكماً و لم يقدر أحد على منعه فهو حَقّ إلاّ أنّه بذلك لا يصير ثاني أثنين بل يكون غاصباً ظالماً لو رضي به و إلاّ فوزره علىٰ من فعل ذلك و الحساب على اللّه.

فأن قالوا دفنه بجنب النّبي بأذن عائشة ففيه أنّ البيت لم يكن لعائشة لأنّهم قالوا أنّ الأنبياء لا يورث و على فرض ثبوت الإرث كما نحن نقول به فعائشة أيضاً لم تكن صاحب البيت بل لها التسّع من الثُّمن و فى الكلّ تصرّفت و للبحث فيه أيضاً موضع أخر.

و أمّا ما طعن به على الرَّوافض و عبَّر عنهم بالحمقى ثمّ ردَّ عليهم بزعمه فهو لا يليق بمقامه أن كان من أهل العلم و إلاّ فهو أليق به و العجب ممّن يدّعي العلم و هو يقول، أنّ قوله: **مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ** أنّ المعيّة فيه بالعلم و التّدبير.

و أمّا في قوله أنّ اللّه معنا فالمراد به هو تخصيص أبي بكر بهذه الصِّفة، أليس هذا من قبيل قول القائل بائك يجرّ و بائي لا يجرّ.

و ما الفرق بين المقامين و مجرّد الإدّعاء لا يكفي في الإستدلال فأن قال قائل بعدم الفرق و طالب الدّليل على وجود الفرق يعدّ من الحمقى و من يدّعي الفرق من غير دليلٍ و لا برهان يعدّ من العقلاء فإعتبروا يا أولي الأبصار.

الخامس: قال من التّمسك بهذه الآية ما جاء في الأخبار أنّ أبابكر لمّا حَزَن قال عليه الصّلاة و السّلام ما ظنّك بأثنين اللّه ثالثهما و لا شكّ أنّ هذا منصب عليّ و درجة رفيعة.

و الجواب عنه قد مرّ و قلنا أنّ اللّه تعالى ثالث كلّ أثنين كافرين أو مسلمين و ليست فيه فضيلة أصلاً.

ثمّ نقل عن والده شيئاً يشعر بأنّه كان مجنوناً أو جاهلاً عامّياً.

قال و اعلم أنّ الرّوافض في الدّين كانوا اذا حلفوا قالوا و حق خمسةٍ سادسهم جبرئيل و أرادوا به أنّ الرّسول و علّياً و فاطمة و الحسن و الحسين كانوا قد إحتجبوا تحت عباءة يوم المباهلة فجاء جبرئيل و جعل نفسه سادساً لهم فذكروا للشّيخ الإمام الوالد أنّ القوم هكذا يقولون.

فقال الوالد لكم ما هو خيرٌ منه يقوله ما ظنّك بأثنين اللّه ثالثهما المعلوم بالضّرورة هذا أفضل و أكمل انتهى.

أقول كان والده لم يعلم أنّ جبرئيل إفتخر بكونه سادساً منهم و اللّه تعالىٰ لم يفتخر بكونه معهما فأنّه مع جميع مخلوقه و الفرق بينهما أبعد من بين السّماء و الأرض هذا مضافاً الىٰ أنّ هذه النسّبة الىٰ الشّيعة أيضاً كذب و إفتراء اذ لم يقل أحد و حقّ خمسة و سادسهم جبرئيل فأنّ الشّيعة تقول بأفضلّية الخمسة من جميع ما سوى اللّه فلا نحتاج في حلفه بهم الىٰ ضمّ جبرئيل اليهم و هو من خدّامهم و خدّام شيعتهم و لذلك إفتخر به.

السّادس: أنّه تعالى وصف أبابكر صاحباً للرّسول و ذلك يدّل على كمال الفضل قال الحسين ابن الفُضيل البجلي من أنكر أن يكون أبوبكر صاحب رسول اللّه كان كافراً لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ المراد من قوله إذ يقول لصاحبه هو أبوبكر و ذلك يدّل على أنّ اللّه تعالى وصفه بكونه صاحباً له.

إعترضوا و قالوا أنّ اللّه تعالى وصف الكافر بكونه صاحباً للمؤمن:

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ لَهُ صٰاحِبُهُ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرٰابٍ**[1].

١- الكهف = ٣٧

و الجواب أنّ هناك و إن وصفه بكونه صاحباً له ذاكراً إلاّ أنّه أردفه بما يدّل على الإهانة و الإذلال قوله أكفرت أمّا هاهنا فبعد أن وصفه بكونه صاحباً له ذكرنا ما يدّل على الإجلال و التّعظيم و هو قوله: **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** فأيّ مناسبةٍ بين البابين لولا فرط العداوة انتهىٰ.

و الجواب أنّه لا شكّ أنّ اللّه وصف أبابكر بكونه صاحباً له و أمّا أنّه يدّل على كمال الفضل فيحتاج الىٰ الإثبات لأنّ الصّاحب في لغة العرب لم يجئ بمعنى الفضل فضلاً عن كماله.

و أمّا قول البجلي أنّ منكر كون أبى‌بكر صاحباً لرسول اللّه كافرٌ فهو غلط محض اللّهم إلاّ أن يرجع الإنكار بإنكار الآية و هو بإنكار القرأن و هو أمرٌ أخر مضافاً الىٰ أنّ الموضوع لا يحتاج الى فتوى البجلي و غيره و ذلك لأنّ جميع المسلمين إعتقدوا بذلك لوجود النّص في الكتاب إلاّ أنّ البحث في أنّ المصاحبة تدّل على الفضيلة أوّلاً و هو بحث أخر.

و أمّا جوابه عن الآية المذكورة فباطلٌ عاطل لأنّ البحث في كلمة الصّاحب و أنّ هذه الكلمة تدّل على المدّعى أم لا لا في مورد إستعمالها و أنت تعلم أنّ معنى الكلمة في الموردين واحد و بعد اللّتيا و الّتي ما ذكره لا يثبت مدّعاه.

و أمّا قوله لولا فرط العداوة فكلام يدّل علىٰ جهل قائله أو عناده اذ لا عداوة في البين أصلاً.

السّابع: في دلالة هذه الآية على فضل أبي بكر قوله: **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** و لا شكّ أنّ المراد من هذه المعيّة المعيّة بالحفظ و النُّصرة و الحراسة و المعونة و بالجملة فالرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم شرّك بين نفسه و بين أبى‌بكر في هذه المعيّة فأن حملوا المعيّة علىٰ وجهٍ فاسدٍ لزمهم إدخال الرّسول فيه و أن حملوها على محملٍ رفيع شريف لزمهم إدخال أبى‌بكر فيه و نقول بعبارةٍ أخرى دلّت الآية على أنّ أبابكر كان اللّه معه و كلّ من كان اللّه معه فأنّه يكون

من المتّقين المحسنين لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**(١) و المراد منه الحصر و المعنى أنّ اللّه مع الّذين إتّقوا لا مع غيرهم و ذلك يدّل على أنّ أبابكر من المتّقين المحسنين انتهىٰ.

والجواب أنّ المراد بالمعيّة أيّة معيّة كانت هو أنّ اللّه تعالى مع رسوله أي أنّ اللّه يحفظه و يحرسه و يعينه أو ما شئت فسمّه و هذا لا كلام لنا فيه.

و اذاكان اللّه حافظاًلنبيّه في الغار فهو حافظ لمن كان معه أيضاً فيه سواء كان أبوبكر أم غيره و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه حافظ رسوله بالإصالة و حافظ صاحبه بالتّبع فاللّه خير و هذا مسلّم و لكن يبقى السّؤال و هو أنّه أيّة فضيلة فيه و قد ثبت أنّ اللّه حافظ عبده و ناصرُه و معينه و هذا لا إختصاص له بفردٍ دون فرد.

قال اللّه تعالىٰ: **فَاللّٰهُ خَيْرٌ حافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ ٱلرّٰاحِمِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ حَفِظْنٰاها مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذٰلِكَ وَ كُنّٰا لَهُمْ حافِظِينَ**(٤)

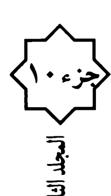
قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبّى عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ حَفيظٌ**(٥).

و غيرها من الأيات و ما نحن فيه من هذا القبيل

و أمّا إستدلاله بالآية الشّريفة فطريفٌ من الكلام جدّاً فكأنّه لم يسمع مثل المشهور، ثبّت العرش ثمّ أنقش، فأنّ الآية قد صرّحت به **إِنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** فجعل اللّه تعالىٰ لإثبات المعيّة شرطين:

أحدهما: التّقوىٰ لقوله: **مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا**.

الثّاني: كونه محسناً لقوله و الّذين هم محسنون فعلى المستّدل إثبات وجود الشّرطين في أبي بكر أوّلاً ثمّ الإستدلال بكون اللّه معه و مجرّد كونها موجودين في الرّسول لا يكفي أبابكر.



١- النحل = ١٢٨
٢- يوسف =٦٤
٣- الحجر =١٧
٤- الأنبياء =٨٢
٥- هود =٥٧

و العجب من شكل قياسه حيث قال دلّت الآية على أبا بكر كان الّـه مـعه و كلّ من كان اللّه معه فأنّه من المتّقين ينتج أنّ أبابكر من المتّقين.

و لا نعلم أنّ الرّازي بصدد إثبات التّقوى لأبـىبكر أو بـصدد إثـبات فـضيلة خاصّة و من المعلوم أنّ قياسه على فرض تماميّته يثبت أنّه من المـتّقين و أيّ ربط بينه و بين ما نحن بصدده هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ القياس لا يتمّ و لا يصّح لأنّ كلّ من كان اللّه معه فأنّه من المتّقين، هو أوّل الكلام و ذلك لأنّ اللّه قال في كتابه: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**[١] و لا شكّ أنّ الخطاب عاّم يشمل الكلّ و لازم ذلك أن يكون جميع النّاس من المتّقين، إذ لكلّ أحدٍ أن يقول، أنّ اللّه معي، و كلّ من كان اللّه معه فهو من المتّقين فأنا من المتّقين و لا يقول به عاقل و الحاصل أنّ المـتّقين كان اللّه معهم أي ينصرهم و يحفظهم و يتوجّه اليهم و لا عكس فهذا القـياس الذّي رتّبه بالمغالطة أشبه.

و أمّا قوله و المراد منه الحصر فهو أيضاً لا دليل عليه و هو واضح.

الثّامن: أنّ قوله: **إِنَّ اَللّٰهَ مَعَنٰا** يـدّل عـلى كـونه ثـاني إثـنين فـي الشّـرف الحاصل من هذه المعّية كما كان ثاني إثنين إذ هما في الغار و ذلك منصب فـي غاية الشّرف انتهىٰ.

أقول قد ظهر جوابه ممّا ذكرناه سـابقاً فأنّ دلائـله فـي بـعض المـوارد مـن المكرّرات و هذا منها و أيّ شرفٍ في هذه المعّية و كونه ثاني إثنين حتّى يقال أنّه منصب عالٍ.

التّاسع: أنّ قوله: : **لاٰ تَحْزَنْ** نهيٌ عن الحزن مطلقاً و النّهي يوجب الدّوام و التّكرار و ذلك يقتضي أن لا يحزن أبوبكر بعد ذلك ألبّتة قـبل المـوت و عـند الموت و بعده انتهىٰ.

١- الحديد =۴

و الجواب أنّ النّهي كالأمر لا يدّل إلاّ على الطّبيعة و المّرة و التّكرار خارجان عنها كما ثبت في الأصول و الفرق أنّ الأمر طلب إيجاد الطّبيعة و النّهي طلب تركها و قد فرغنا عن البحث في الأمر و النّهي في الأصول و أمّا قوله ذلك يقتضي أن لا يحزن أبوبكر بعد ذلك كلام كذب ولو كان أبوبكر حيّاً لما رضي به إذ كيف يقال أنّه لم يحزن قب الموت و عنده و بعده و هذا من الرّازي عجيب كان أبوبكر أفضل من الأنبياء و الأوصياء و قد ثبت حزنهم عند الموت و قبله و بعده حتّىٰ يقال كذا.

العاشر: قوله: **فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** الخ.

أقول يأتي الكلام في إنزال السّكينة عند تفسيرها و أنّ الضّمير يرجع الى الرّسول لا الىٰ أبي بكر كما زعمه هو و غيره.

الحادي عشَر: من الوجوه الدّالة علىٰ فضل أبىبكر من هذه الآية إطباق الكلّ علىٰ أنّ أبابكر هو الّذي إشترىٰ الرّاحلة لرسول اللّه و علىٰ أنّ عبد الرّحمٰن بن أبىبكر و أسماء بنت أبىبكر هما اللّذان كانا يأتيان بالطّعام.

روي أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لقد كنت أنا و صاحبي في الغار بضعة عشر يوماً و ليس لنا طعام إلاّ التّمر و ذكروا أنّ جبرئيل أتاه و هو جائع فقال هذه أسماء قد أتت بحيس ففرح رسول اللّه بذلک و أخبر به أبابكر و لمّا أمر اللّه رسوله بالخروج الى المدينة أظهره لأبىبكر فأتى إبنه عبد الرّحمٰن أن يشتري جملين و رحلين و كسوتين و يفصل أحدهما للرسّول صلّى الله عليه وآله وسلّم فلمّا مرّ بالمدينة وصل الخبر الى الأنصار فخرجوا مسرعين فخاف أبوبكر أنّهم لا يعرفون الرّسول فألبس رسول اللّه ثوبه ليعرفوه فلّما دنوا خرّوا له سجداً فقال لهم إسجدوا لربّكم و أكرموا أخا لكم أناخت ناقته بباب أبي أيوّب روينا هذه الرّوايات من تفسير أبىبكر الأصمّ انتهىٰ.

أقول ما نقله في هذا الوجه كلّه كذبٌ محض فهذه التّواريخ المعتبرة من العامّة و السّير و كتب الأخبار من الطّرفين كلّها يشهد بكذبه فإنّا لم نسمع الىٰ

الآن و لم نر في كتاب أو تفسير أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كان في الغار بضعة عشر يوماً بل الكلّ متّفقون على أنّ الرّسول كان في الغار ثلاثة ليال أو أيّام و عليه جميع المفسّرين و أرباب السّير.

و أمّا قوله: فلمّا دنوا خرّوا سجّداً له فقال لهم أسجدوا لرّبكم الخ.

فهذا أيضاً كذب و إفتراء على الأنصار إذ كيف خرّوا له سجدّاً، و هم كانوا مسلمين و المسلم لا يسجد لغير اللّه ثمّ كيف لم ينههم النّبي عن السجدّة و أبوبكر نهاهم عنها و هكذا ما ذكره في هذا الوّجه و لعلّه هو أيضاً علم كذبه حيث قال في آخر كلامه روينا هذه الرّوايات من تفسير أبى‌بكر الأصمّ فكأنّه قال العهدة على الرّاوي و نحن لا نعرف أبابكر الأصمّ واللّه أعلم.

و الّذي نقول للرّازي و أمثاله أن يجتنبوا من نقل هذه الموضوعات الّتي يحكم العقل ببطلانها و الأخبار الصّحيحة أيضاً تنكرها و محصّل الكلام هو أنّ ما ذكره خارج عن موضوع البحث إذ ليس البحث في أنّه من كان يأتيهما بالطّعام و الشّراب بل البحث في شئ آخر و هذه الأباطيل لا تُثبت مدّعاهم لو كان لهم عقل.

الثّاني عَشَر: أنّ رسول اللّه حين دخل المدينة ما كان معه إلاّ أبوبكر و الأنصار ما رأوا معه صلّى الله عليه و آله و سلّم إلاّ أبابكر و ذلك يدّل علىٰ أنّه كان يصطفيه لنفسه من بين أصحابه في السّفر و الحضر و أنّ أصحابنا زادوا عليه و قالوا لمّا لم يحضر معه في ذلك السّفر أحد إلاّ أبوبكر فلو قدّرنا أنّه توّفى رسول اللّه في ذلك السّفر لزم أن لا يقوم بأمره إلاّ أبوبكر و أن لا يكون و صيّه على أمتّه إلاّ أبوبكر و أن لا يبلّغ ما حدث من الوحي و التّنزيل في ذلك الطّريق الىٰ أمتّه إلاّ أبوبكر و كلّ ذلك يدّل علىٰ الفضائل العالية و الدّرجات الرّفيعة لأبى‌بكر انتهىٰ.

أقول أمّا ما ذكره من أنّ رسول اللّه حين دخل المدينة ما كان معه إلاّ أبوبكر فهو أيضاً خلاف ما نقله أرباب السّير فأنّ الرّسول لم يدخل المدينة إلاّ بعد

مجئ أمير المؤمنين و ذلك لأنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم توّقف خارج المدينة و قال لا أدخلها حتّىٰ يأتي علّي بن أبي طالب و من معه من أهل بيت الرّسول.

و لو سلّمنا أنّه دخلها مع أبي بكر وحده فهو أيضاً لا يثبت المدّعىٰ و أمّا قوله أنّه يدّل على أنّ الرّسول إصطفاه لنفسه فهو أيضاً عجيب إذ لازم ذلك أنّ القادم من السّفر مع غلامه يدّل على أنّ المولى إصطفى الغلام لنفسه فهو أفضل من غيره أليس لقائل أن يقول لعلّ المولى إختاره لخدمته فكيف يدّل هذا علىٰ فضيلته.

و أمّا قوله أنّ أصحابنا زادوا عليه و قالوا كذا و كذا فنقول في جوابه الوصاية و الخلافة للرسّول تتصوّر على قسمين:

أحدهما: أن يكون ذلك بالشّورى وبيعة أهل الحّل و العقل كما يقول به الرّازي و من تبعه.

ثانيهما: بالنّص من رسول اللّه على شخصٍ معيّن كما نقول به و هو علّي إبن أبي طالب و على التّقديرين لو قدّرنا أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم توفى في ذلك السّفر لا تصل الخلافة و الوصاية لأبى‌بكر لعدم النّص على مذهبنا و عدم وجود الشّورىٰ على مذهبهم فكيف يقول الرّازي لو كان كذا كان كذا و أيّ عاقل لو مات شخص في السّفر يقوم مقامه صاحبه منه و أعجب من الكلّ إدّعاءه أنّه لو مات الرّسول لا يبلّغ الوحى الى أمّته إلاّ أبوبكر و نحن نشكر اللّه على أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لم يمت في ذلك السّفر و إلاّ كان أبوبكر نبيًّا بزعمه هذا ما ذكره الرّازي في تفسيره.

و الجواب عنه و الكلام في المقام طويل و لكن أعرضنا عن ذكر سائر المقالات مراعاة للإختصار و أن لا يخرج الكتاب عن موضوعه و لنرجع الى تفسير بقيّة الألفاظ في الآية فنقول: **فَأَنْزَلَ ٱللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا** مرّ الكلام في معنىٰ السّكينة عند شرح اللّغات و قلنا أنّها عبارة عمّا تسكن به القلوب يقول اللّه: **فَأَنْزَلَ ٱللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** وأختلفوا في مرجع



الضّمير و أنّه الى من يعود فأكثر المفسّرين علىٰ أنّه يعود على رسول اللّه أي فأنزل اللّه سكينته على رسوله.

و قال بعضهم يعود على صاحب و هو أبو بكر أي أنزل سكينته على صاحب الرّسول و في المقام قول ثالث.

رأيته في بعض التّفاسير و هو أنّه يرجع اليهما قال و أفرده لتلازمهما، و الأشهر الأقوى هو الأوّل.

و أمّا القول الثّاني و الثّالث فأنّما إخترعوهما لأن يثبتوا بذلك فضيلةً لأبى‌بكر بن عمهم قال قال الرّازي أنّه يرجع الى أبى‌بكر لا الى الرّسول و إستدلّ على ما إدّعاه بوجوهٍ.

الأوّل: أنّ الضّمير يجب عوده الىٰ أقرب المذكورات و أقربها في هذه الآية هو أبوبكر لأنّه تعالىٰ قال: **إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ** و التّقدير إذ يقول محمّد لصاحبه أبى‌بكر لا تحزن و على هذا التّقدير فأقرب المذكورات السّابقة أبوبكر فوجب عود الضّمير اليه.

الثّاني: أنّ الحزن و الخوف كان لأبى‌بكر لا للرسّول فأنّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان آمناً ساكن القلب بما وعده اللّه أن ينصره على قريش فلمّا قال لأبى‌بكر لا تحزن صار آمناً فصرف السّكينة الى أبى‌بكر ليصير ذلك سبباً لزوال خوفه.

الثّالث: أنّه لو كان المراد إنزال السّكينة على الرّسول لوجب أن يقال أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان خائفاً قبل ذلك ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبى‌بكر لا نحزن أنّ اللّه معنا فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره و لو كان الأمر علىٰ ما قالوه لوجب أن يقال: **فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ** فقال لصاحبه لا تحزن أنّ اللّه معنا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذه الدّلائل الّتي ذكرها لا طائل تحتها و ذلك لأنّ جميع الكنايات قبل هذا و بعده راجعة الىٰ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألا ترى أنّ قوله: و **إِلَّا تَنصُرُوهُ** الهاء راجعة الىٰ النّبي بلا خلاف و قوله: **فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ** فالهاء أيضاً راجعة الىٰ

النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و قوله إذ أخرجه يعني النّبي، و إذ يقول لصاحبه يعني النّبي ثمّ قال تعالى بعد هذه المذكورات فأنزل اللّه سكينته على النّبي و قال بعده و أيدّه بجنودٍ يعني النّبي فلا يليق أن يتّخلل ذلك كلّه كناية عن غيره قاله الشّيخ في التّبيان و به قال جميع مفّسري الشّيعة.

أقول سياق الكلام و فصاحته يقتضي رجوع الضّمير الى الرّسول بمعنى أنّه تعالى قد ألقى في قلب رسوله ما سكن به و علم أنّهم أي الكفّار غير واصلين اليه و به قال الزّجاج أيضاً.

و أمّا قول الرّازي لو كان المراد إنزال السّكينة على الرّسول لوجب أن يقال أنّ الرّسول كان خائفاً قبل ذلك.

نقو في جوابه و أيّ إشكالٍ فيه و لا دليل لنا أنّ الأنبياء لم يخافوا ثمّ أنّ الخوف في قلب النّبي ليس نقصاً في نبّوته فلو لم يكن الرّسول خائفاً من الكفّار لم ترك بيته و خرج الى الغار هذا مضافاً الىٰ أنّه تعالىٰ قد صرّح في كتابه بوجود الخوف في قلوب المرسلين و حكم الأمثال واحد قال في قصّة موسىٰ عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَىٰ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ**[٥].

و قال في نوح و لوط و إبراهيم و غيرهم من الأنبياء مثل ذلك و قد صرّح بما ذكرناه حيث قال في موسىٰ عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**[٦].

١- طه =٢١ ٢- طه =٦٨

٣- النّمل =١٠ ٤- القصص =٣١

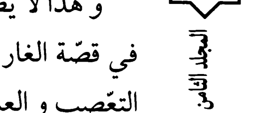
٥- ص =٢٢ ٦- القصص =١٨

قال اللّه تعالىٰ: **فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰآئِفًا يَـتَرَقَّبُ قٰـالَ رَبِّ نَـجِّني مِـنَ اَلْـقَوْمِ اَلظّٰالِمينَ**[١].

و الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم أيضاً كان من مصاديق هذه الآيات لأنه صلى الله عليه و آله و سلم خرج من مكّة خائفاً يترقّب كما خرج موسىٰ عليه السلام و قال ربّ نجنّا... نجّني من القوم الظّالمين كما قال موسى و محصّل الكلام هو أنّ مسئلة الخوف للبشر من أوضح المسائل و لا تحتاج الى الإثبات و إذا كان كذلك فأنزل اللّه سكينته أي رحمته على قلب الرّسول فأسكن بها قلبه و أزال الخوف منه اللّهم إلاّ أن يكون مراد الخصم من إصراره على إنزال اللّه سكينته على أبىبكر هو أنّه أي أبابكر لحزنه و وحشته و خوفه و إضطرابه في الغار من القتل كان يجزع جزعاً شديداً و بذلك جعل الرّسول في معرض الخطر فأنزل اللّه سكينته على قلب أبىبكر ليسكت و ينجو النّبي من شرّ إضطرابه و كان الغرض بذلك حفظ النّبي و إذا كان كذلك فإنزال السّكينة على قلب أبىبكر لا فضيلة فيه بل أنزلت لدفع المضرّة و لا يبعد أن يكون كذلك فأن كان غرضهم هذا فلا إشكال فيه لكنّهم لا يقولون به بل يقولون أنّ اللّه أنزل سكينته على قلب أبىبكر في الغار و لم ينزلها على قلب رسوله و لم يعلموا أنّ موت أبىبكر و حياته كانا سيّان بل موته كان حسن من حياته و العنايات الرّبانية تشمل الرّسول لا غيره إذ به قوام الدّين و بحياته هداية الخلق و أمّا قوله: **وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهٰا**.

معناه أنّ اللّه أيّد رسوله بجنودٍ و لعّل المراد بهم الملائكة الحافّين حول الغار حفظاً للنّبي صلى الله عليه و آله و سلم و أمّا قولهم أنّ المراد بقوله هذا هو قصّة بدر فأنّه تعالى أيدّ رسوله فيها بالملائكة و قد مضى الكلام فيها.

و هذا لا يصّح و لا يمكن لنا التّعويل عليه و كيف يعقل أن يكون صدر الآية في قصّة الغار و ذيلها في قصّة بدر و ليت شعري ما الّذي دعاهم الى ذلك لو لا التعّصب و العناد فأنّهم يقولون لو قلنا بعود الضّمير في قوله: **وَ أَيَّدَهُ**.



١- القصص =٢١

الى الرّسول في قصّة الغار فلابّد لنا من القول برجوع الضّمير في، سكينته، الى الرّسول بمقتضى العطف و حيث أنّ الضّمير في سكينته الى أبى‌بكر ففي، قوله: **وَ أَيَّدَهُ** الى الرّسول في بدر لا في آية الغار إنظروا يا أهل الإنصاف الىٰ هذه التّأويلات الباردة الّتي لا يقبلها العقل و محصّل الكلام هو أنّ المراد بالجنود ما ذكرناه أو أنّ المراد تقوية الملائكة، لقلبه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالبشارة بالنّصر من ربّه و من إلقاء اليأس في قلوب المشركين حتّىٰ إنصرفوا خائبين **وَ جَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَ كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَ ٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** قيل أنّ كلمة الّذين كفروا، الشّرك و كلمة اللّه، توحيد و المعنى جعل اللّه التّوحيد أعلى من الشّرك.

و قال بعضهم، المراد بكلمة الكفر هو ما تغامزوا عليه من قتله و من كلمة اللّه العليا ما وعده ربّه من النّصر و النّجاة و كيف كان لا شكّ أنّ الكافر و ما يقول به لا يقاس بالمؤمن و ما يقول له فكلمة الكافر بأيّ معنى كان هي السُّفلى و كلمة الحّق هي العُليا:

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**(٣).

و لنختم الكلام في تفسير الآية الشّريفة بما ورد من أهل البيت فيها من الأخبار.

و منها ما رواه الصّدوق قدّس سرّه في كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: أنّ أبا طالب أظهر الكفر و

١- فاطر =١٠
٢- إبراهيم =٢٤
٣- إبراهيم =٢٦

ستر الإيمان فلما حضرته الوفاة أوحى اللّه عزّ وجلّ الىٰ الرّسول، أخرج منها فليس لك بها ناصر انتهىٰ.

و منها ما رواه في البحار بأسناده عن جعدة بن هبيرة عن أمّه أمّ هاني بنت أبي طالب عليها السلام: قالت لمّا أمر اللّه نبيّه بالهجرة و أنام عليّاً علىٰ فِراشه و سجّاه ببردٍ حضرّمي ثمّ خرج فإذا وجوه قريش على بابه فأخذ حفنةً من ترابٍ فذّرها على رؤوسهم فلم يشعر به أحد منهم و دخل علّى بيتي فلمّا أصبَح أقبل علّى و قال أبشري يا أمّ هاني فهذا جبرئيل يخبرني أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنجىٰ عليّاً من عدوّه قالت و خرج رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم مع جُناح الصّبح الىٰ غار ثور فكان فيه ثلاثاً حتّى سكن عنه الطّلب ثمّ أرسل الى عليٍّ عليه السلام و أمره بأمره و إداء الأمانة انتهىٰ.

و منها ما روى أنّ أمير المؤمنين و هند بن أبي هالة دخلا على رسول اللّه في الغار فأمر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم هنداً أن يبتاع له و لصاحبه بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ذلك يا نبّي اللّه راحلتين نرتحلهما الى يثرب فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم أنـي لا آخذهما و لا أحدهما إلاّ بالثّمن قال فهي لك بذلك فأمر عليّاً فأقبضه الثّمن ثمّ وصّاه بحفظ ذمّته و إداء أمانته و كانت قريش تدعوا محمّداً في الجاهّلية الأمين و كانت تستودعه و تستحفظه أموالها و أمتعتها و كذلك من يقدم مكّة من العرب في الموسم و جاءته النّبوة و الرّسالة و الأمر كذلك فأمر عليّاً أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً و عشّياً من كان له أمانة أو وديعة فليأت فلنؤّد اليه أمانته قال فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم أنهم لن يصلوا من الآن اليك يا علّي بأمرٍ تكرهه حتّىٰ تقدم عَّلى فأد أمانتي علىٰ أعين النّاس ظاهراً ثمّ أنّي مستخلفك على فاطمة إبنتي و مستخلف ربّي اليكما و مستحفظه فيكما فأمره أن

يبتاع رواحل له و للفواطم و من أزعم للهجرة معه من بني هاشم و ساق الحديث الىٰ أن قال و قال رسول اللّه لعلّي و هو يوصيه فإذا أبرمت ما أمرتك من أمرٍ فكن علىٰ أهبة الهجرة الى اللّه و رسوله و سرّ إلّي لقدوم كتابي عليك و لا تلبث و أنطلق رسول اللّه لوجهه يأم المدينة و كان مقامه في الغار ثلاثاً و مبيت علّيٍ على الفراش أوّل ليلةٍ.

قال عبيد اللّه بن أبي رافع و قد قال علّي بن أبي طالب يذكر مبيته على الفراش مقام رسول اللّه في الغار ثلاثاً:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصىٰ و من طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمّد لمّا خاف أن يمكروا به فوّقاه ربّي ذو الجلال من المكر
وبتُّ أراعيهم متى ينشروني وقد وطّنت نفسي علىٰ القتل والأسر
وبات رسول اللّه في الغار آمناً هناك وفي حفظ الإله وفي سترٍ
أقام ثلاثاً ثمّ زمّت قلائص قلائص يغرين الحصا أينما تفرىٰ

ولمّا ورد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المدينة نزل من بني عمرو بن عوف بقباء فأراده أبوبكر علىٰ دخوله المدينة فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أنا بداخلها حتّى يقدم إبن عمّي و أخي علّياً و إبنتي فاطمة عليها السلام و لم يدخلها حتّى ورد عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انتهىٰ.

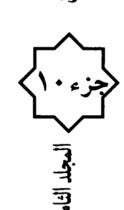
و من هذا الحديث و أمثاله يظهر كذب المعاندين كما يظهر مقام أمير المؤمنين عليه السلام و أنّه كيف يقاس كون أبي بكر في الغار من النّبي بمبيت علّيٍ عليه السلام على فراش رسوله و إداءه الأمانات الى أهلها من قبل النّبي و إعتماد رسول اللّه عليه في أهل بيته و لا سيّما قرّة عينه و مهجة قلبه فاطمة الزّهراء عليها السلام و هكذا و لسنا فعلاً بعدّ بيان فضائله التّي لا تحصىٰ هذا ما أردنا بيانه في تفسير الآية مع رعاية الإختصار و لنذكر ما ذكره الشّيخ قدّس سرّه في التبّيان بعين ألفاظه و عباراته.

قال‌قدس‌سره و ليس في الآية ما يدّل علىٰ تفضيل أبى‌بكر لأنّ قوله، ثاني إثنين، مجرّد الأخبار أنّ النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خرج و معه غيره و كذلك قوله: **إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ** خبر عن كونهما فيه.

و امّا قوله: **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** لا مدح فيه أيضاً لأنّ تسميته الصّاحب لا تفيد فضيلة ألا ترى أنّ اللّه تعالى قال في صفة المؤمن و الكافر: **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ**(١) و قد يسّمون البهيمة بأنّها صاحب الإنسان كقول الشّاعر:

و صاحبي بازل مشمول، و قد يقول الرّجل المسلم لغيره أرسل اليك صاحبي اليهودي و لا يدّل ذلك علىٰ الفضل وقوله: **لَا تَحْزَنْ** إن لم يكن ذّماً فليس بمدح بل هو نهيٌ محض عن الخوف و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** قيل أنّ المراد به النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و لو أريد به أبوبكر معه لم يكن فيه فضيلة لأنّه يحتمل أن يكون ذلك علىٰ وجه التّهديد كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لا تفعل أنّ اللّه معنا يريد أنّه متّلع علينا عالم بحالنا، و السّكنة قد بيَّنا أنّها نزلت على النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بما بيّناه من التّأييد بجنود الملائكة و أنّه كان مختصّاً بالنّبي فأين موضع الفضيلة للرّجل لولا العناد و لم نذكر هذا للطّعن علىٰ أبى‌بكر بل بيَّنا أنّ الإستدّلال بالآية على الفضل غير صحيحٍ انتهىٰ كلامه رفع مقامه فأنّه‌قدس‌سره قد أتى بما هو الحقّ مع إختصاره.

■



١- الكهف =٣٧

ٱنْفِرُوا خِفٰافًا وَ ثِقٰالاً وَ جٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿۴۱﴾ لَوْ كٰانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قٰاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنٰا لَخَرَجْنٰا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ ﴿۴۲﴾ عَفَا ٱللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿۴۳﴾ لاٰ يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ أَنْ يُجٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿۴۴﴾ إِنَّمٰا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ ٱرْتٰابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿۴۵﴾ وَ لَوْ أَرٰادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لٰكِنْ كَرِهَ ٱللّٰهُ ٱنْبِعٰاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقٰاعِدِينَ ﴿۴۶﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مٰا زٰادُوكُمْ إِلاّٰ خَبٰالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمّٰاعُونَ لَهُمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ ﴿۴۷﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ ٱلْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ ٱللّٰهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ ﴿۴۸﴾

◀ اللّغة

خِفٰافًا وَ ثِقٰالاً الخفيف بأزاء الثّقيل.

عَرَضًا بفتح العين والرّاء الغنيمة.

اَلشُّقَّةُ بضّم الشّين و فتح القاف المشّددة يحتمل أن يكون من الشّق و أن يكون من المشّقة.

وَ ٱرْتٰابَتْ، الإرتياب الإضطراب في الإعتقاد.

فَثَبَّطَهُمْ أي حبسهم و شغلهم.

خَبٰالاً، الخبال العناد و الباقي واضح.

◀ الإعراب

عَرَضًا قَرِيبًا إسم كان مُضمر تقديره و لو كان ما دعوتم اليه يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً من الضّمير في، يحلفون حَتّٰى يَتَبَيَّنَ حتّى متعلّقة بمحذوف دلَّ عليه الكلام تقديره هلاّ أخرّتهم الى أن يتّبين خِلاٰلَكُمْ ظرف لأوضعوا يَبْغُونَكُمْ حال من الضّمير في أوضعوا.

◀ التّفسير

اِنْفِرُوا خِفٰافًا وَ ثِقٰالاً وَ جٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

هذا أمرٌ من اللّه تعالى للمؤمنين أمرهم أن ينفروا الى جهاد الكفّار خفافاً و ثقالاً، أي شبّاناً و شيوخاً علىٰ قول المجاهد و الحسن و الجبائي و قيل معناه أغنياء و فقراء و هو قول صالح.

و قيل نشاطاً و غير نشاط قاله ابن عبّاس و قتادة و قيل ركباناً و مشاةً و هو قول أبىعمرو و قيل ذا ضعةٍ و غير ذي ضعةٍ، قاله ابن زيد.

و قال الحكم مشاغيل و غير مشاغيل، و قال الفرّاء ذو العيال و الميسرة نقل

الأقوال في التّبيان و الذّي نقول هو أنّ الخفيف بأزاء الثّقيل و يقال ذلك.

تارةً بإعتبار المضايقة بالوزن و قياس الشّيئين أحدهما بالأخر نحو درهم خفيف و درهم ثقيل.

و أخرى بإعتبار مضايقة الزّمان نحو فرس خفيف و فرس ثقيل اذا عدا أحدهما أكثر من الأخر في زمانٍ واحدٍ.

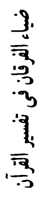
و هنا إعتبار ثالث و هو إطلاق الخفيف على ما يستحيلّه النّاس و إطلاق الثّقيل علىٰ ما يستّوخمه فيكون الخفيف مدحاً و الثّقيل ذمّاً و بعضهم زاد قسماً رابعاً و هو أنّه قد يقال خفيف فيمن يطيش و ثقيل فيما فيه وقار فيكون الخفيف ذمّاً و الثّقيل مدحاً.

و قسماً خامساً و هو أنّ الخفيف يقال في الأجسام التّي من شأنها أن ترجحن الى أسفل كالأرض و الماء و الثّقيل ضدّه اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **اَنْفِرُوا خِفٰافًا وَ ثِقٰالاً** معناه إنفروا على أيّ حالٍ من الحالات و الصّفات الى جهاد عدّوكم فهو كناية عن إجتماع المسلمين و إتّفاقهم على أمر الجهاد ثمّ أخبرهم أنّ الجهاد لا ينحصر بنوعٍ خاصّ بل جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل اللّه فأنّ الجهاد بالمال في بعض الموارد أنفع و أفيد للدّين من الجهاد بالنّفس وبالعكس كما أنّ خديجة الكبرىٰ عليها السلام جاهدت بمالها في سبيل اللّه و أمير المؤمنين جاهد بنفسه و ماله معاً.

و في قوله: **فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ** إشارة الىٰ أنّ المجاهد بالمال أو بالنّفس اذا كان جهاده في اللّه و للّه فهو و أن كان لغير اللّه و فى سبيل الهوىٰ فلا خير فيه و الى هذا المعنى أشار بقوله: **ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** معناه أنّ الجهاد بأقسامه اذا كان في سبيل اللّه فهو خير له أن كان عالماً به.

و بعبارةٍ أُخرىٰ يقول اللّه تعالىٰ لهم أن كنتم صادقين في إدّعاءكم الإيمان باللّه و رسوله فكونوا كذلك لأنّ المؤمن العالم لا يتقاعد عن الجهاد فأن لم تجاهدوا فلستم منهم.



وإعلم أنّ الجهاد بمعناه العامّ واجب عقلاً و شرعاً على كلّ مؤمنٍ و هذا لا يختصّ بزمانٍ دون زمان أو مكانٍ دون مكانٍ و هكذا نعم هو بمعناه الخاصّ له شرائط مقرَّرة في كتاب الجهاد و أنّما قلنا ذلك لأنّ فلسفة الجهاد هي الإعلاء لكلمة التّوحيد و نشر أحكام الدّين و الدّفاع عنه في مقابل المخالف و عليه فلا معنى لقول بعض المفسّرين أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كٰافَّةً**(١) و ذلك لأنّ النّفر كافّةً لا ربط له بوجود أصل الحكم و معنى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أي أن كنتم تعلمون الخير في الجملة فأعلموا أنّ هذا خير لكم في الدّنيا و الأخرة لأنّه يوجب العزّة في الدّنيا و الثّواب في الأخرة.

لَوْ كٰانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قٰاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ

قيل نزلت الآية في قوم تخلّفوا عن النّبي و لم يخرجوا معه الى غزوة تبوك واللّه تعالى بيَّن في هذه الآية سبب تقاعدهم و تخلَّفهم فقال لو كان عرضاً قريباً أي لو كان ما دعوا اليه غنيماً قريباً سهل المنال و سفراً قاصداً أي وسطاً مقارباً لأتَّبعوك **وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ** أي المسافة الطّويلة في غزو الرُّوم و الشقّة بالضمّ من الثّياب والشُّقّة أيضاً السَّفر البعيد و ربما قالوه بالكسر قاله الجوهري.

و قيل الشّقة الغاية الّتي تقصد و قال ابن عيسى الشقّة القطعة من الأرض يشقّ ركوبها و قال ابن فارس هي المسير الىٰ أرضٍ بعيدة **وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ** أي أنّ المنافقين المتّخلفين عن الجهاد سيحلفون باللّه **لَوِ ٱسْتَطَعْنٰا لَخَرَجْنٰا مَعَكُمْ** سدَّ مسدّ جواب القَسَم والحاصل أنّهم يعتذرون عن تقاعدهم و يقسمون بأنّا لم نستطيع أي لم نقدر علىٰ الخروج.

١- التّوبة =١٢٢

يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

أي يهلكون أنفسهم بالحلف الكاذب و يوقعونها في الهلاك به و الظّاهر أنّه إستئناف و إخبارٌ منه تعالىٰ و يمكن أن يكون المراد يهلكون أنفسهم بسبب التّقاعد عن الجهاد الواجب و التّمرد من أمر اللّه و رسوله و اللّه يعلم أنّهم لكاذبون في حلفهم و إعتذارهم بعدم الإستطاعة بل كانوا مستطيعين قادرين و فى الآية إشارة بل دلالة على أنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنّهم تخلّفوا عن القتال و الجهاد لأنّ المدعو اليه لم يكن عرضاً قريباً من الغنيمة و ما يطمعون فيه من المال و سفراً سهلاً من غير طولٍ في أخره و لأجل ذلك لم ينفروا فكيف يحلفون باللّه أن لو أستطعنا لخرجنا معكم.

بلى أنّهم كانوا مستطيعين قادرين على الخروج و لكن لم يخرجوا لما ذكرناه و فيه إيماء أيضاً الى عدم إيمانهم واقعاً فأنّ المؤمن لا يكون كذلك أي لا يترك الجهاد الّذي أمره اللّه به لأجل الدُّنيا و مصالحها

قال بعض المفسّرين في الآية دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل لأنّهم لا يخلون من أحد أمرين:

إمّا أن يكونوا مستطيعين من الخروج و قادرين عليه و لم يكونوا قادرين عليه و أنّما حلفوا أنّهم لو قدروا في المستقبل لخرجوا فأن كان الأوّل فقد ثبت أنّ القدرة قبل الفعل و أن كان المراد الثّاني فقد أكذبهم اللّه في ذلك و بين أنّه لو فعل لهم الإستطاعة لما خرجوا و فى ذلك أيضاً تقدّم القدرة على المقدور و ليس لهم أن يحملوا الإستطاعة على ألة السّفر وعدّة الجهاد لأنّه ترك الظّاهر من غير ضرورةٍ فأنّ حقيقة الإستطاعة القُدرة.

أقول ما ذكره موافق لما إستدلّ به أبوعلّي الجبائي فأنّه إستدلّ بها على أنّ الإستطاعة بها قبل الفعل و تبعه عليه الكعبي أيضاً بل عليه جميع المعتزلة.

و أمّا الأشاعرة فأنّهم حملوا الإستطاعة على الزّاد و الرّاحلة و هو بعيد و صرف اللّفظ عن ظاهره.

عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ

هذا خطاب للرّسول صلى الله عليه و آله و سلم و فيه بعض العتاب له صلى الله عليه و آله و سلم في إذنه من إستأذنه في التّأخر فأذِن له فأخبر اللّه بأنّه كان الأولى عدم الإذن حتّىٰ إذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم لأنّه متى أذن لهم ثمّ تأخّروا لم يعلم أنّ تأخّرهم كان بالنّفاق أو بغيرهم و كان الذّين إستأذنوه منافقين و حقيقة العفو الصَّفح عن الذّنب و مثله الغفران.

قال بعض المفسّرين أنّما قال عفى اللّه عنك على غير لفظ المتكلّم لأنّه أفخم من الكناية لأنّ هذا الإسم من أسماء التّعظيم كما أنّ قولك أنّ رأي الأمير أفخم من قولك أنّي رأيت انتهىٰ.

إعلم أنّ ظاهر الآية مشعر بصدور الذّنب من النّبي صلى الله عليه و آله و سلم اذ لو لم يصدر منه ذنب فلا معنىٰ لقوله: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** فأنّ العفو هو الصّفح عن الذّنب.

قال أبو علّي الجبائي في الآية دلالة علىٰ أنّ النّبي كان وقع منه ذنبٌ في هذا الإذن قال لأنّه لايجوز أن يقال لم فعلت ما جعلت لك فعله كما لا يجوز أن يقول لم فعلت ما أمرتك بفعله ذكره في التّبيان.

ثمّ أجاب الشّيخ قدس سره عنه بأنّ قوله عفى اللّه عنك أنّما هي كلمة عتاب له صلى الله عليه و آله و سلم و معناه لم فعل ما كان الأولى أن لا يفعله لأنّه و أن كان له فعله من حيث لم يكن محظوراً فأنّ الأولى أن لا يفعله كما يقول القائل لغيره اذا رآه يعاتب أخاً له لم عاتبته و كلمّته بما يشقّ عليه و كيف يكون ذلك معصية و قد قال اللّه في موضع أخر.

فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ[۱].

و أنّما أراد اللّه أنّه كان ينبغي أن ينتظُر تأكيد الوحي فيه و من قال هذا ناسخ لذلك فعليه الدّلالة انتهىٰ كلامه.

۱- النور= ۶۲

و قال بعض المحققين، ذهب ناس الىٰ أنّ النّبي ﷺ معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل كان له أن يفعل وأن لا يَفعل حتّىٰ ينزل عليه الوحي كما قال ﷺ لو إستبقت من أمري ما إستدبرت لجعلتها عمرة لأنّه كان له أن يفعل و أن لا يفعل و قد قال اللّه: **تُرْجِي مَنْ تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَ تُـْوِيۤ إِلَيْكَ مَنْ تَشَآءُ**(١) لأنّه كان له أن يفعل ما يشاء ممّا لم ينزل عليه فيه وحي و إستأذنه المخلّفون في التّخلف و إعتذروا، إختار أيسر الأمرين تكرّماً و تفضّلاً منه ﷺ فأبان اللّه تعالى أنّه لو لم يأذن لهم لأقاموا للنّفاق الّذي في قلوبهم و أنّهم كاذبون في إظهار الطّاعة و المشاورة فعفى اللّه عنك عنده إفتتاح كلام أعلمه اللّه به أنّ لا حرج عليه فيما فعله من الإذن و ليس هو عفواً عن ذنب أنّما هو أنّه تعالى أعلمه أنّه لا يلزمه ترك الإذن لهم كما قال ﷺ عفى اللّه لكم عن صدقة الخيل و الرّقيق و ما وجبا قطّ و معناه ترك أن يلزمكم ذلك انتهىٰ كلامه.

و وافقه عليه قوم و قالوا أنّ العفو هنا لم يكن عن تقدّم ذنبٍ و أنّما هو إستفتاح كلام جرت عادة العرب ان تخاطب مثله لمن تعظمه و ترفع قدره يقصدون بذلك الدّعاء له فيقولون أصلح اللّه الأمير كان كذا و كذا فعلىٰ هذا صيغته صيغة الخبر و معناه الدّعاء انتهىٰ.

أقول و ممّن أنكر كون العفو مسبوقاً بالذّنب الفخر الرّازي فأنّه قال إحتجّ بعضهم بهذه الآية على صدور الذّنب عن الرّسول من وجهين:

الأوّل: أنّه تعالىٰ قال: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** و العفو يستدعي سابقة الذّنب.

الثّاني: أنّه تعالىٰ قال: **لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ** و هذا إستفهام بمعنى الإنكار فدّل هذا علىٰ أنّ ذلك الإذن كان معصيةً و ذنباً.

قال قتادة و عمرو بن ميمون أثنان فعلهما الرّسول لم يؤمر بشيءٍ فيها إذنه للمنافقين و أخذه الفداء من الأسارى كما تسمعون.

١- الاحزاب = ٥١

والجواب عن الأوّل لا نسلّم أنّ قوله: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** يوجب الذّنب و لم لا يجوز أن يقال أنّ ذلك يدّل على مبالغة اللّه في تعظيمة و توقيره كما يقول الرّجل لغيره اذا كان معظّماً عنده عفى اللّه عنك ما صنعت في أمري و رضي اللّه عنك ما جوابك عن كلامي و عافاك اللّه ما عرفت حقّي فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلاّ مزيد التّبجيل والتّعظيم.

قال علّي بن الجهم فيما يخاطب به المتوكّل و قد أمر بنفيه:

عفىٰ اللّه عنك ألا حُرمة تعود بعفوك أن أُبعدا

ألَم ترا عبداً عدى طوره ومولىٰ عفى ورشيد الهدىٰ

أقلني أقالك من لم يَزَل يقيك ويصرف عنك الرَّدىٰ

والجواب عن الثّاني أن نقول لا يجوز أن يقال المراد بقوله: **لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ** الإنكار لأنّا نقول.

أمّا أن يكون صدر عن الرّسول ذَنب في هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب فأن قلنا أنّه ما صدر عنه ذنب إمتنع على هذا التّقدير أن يكون قوله: **لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ** إنكاراً عليه و أن قلنا أنّه كان قد صدر عنه الذّنب فقوله: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** يدلّ على حصول العفو عنه و بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجّه الإنكار عليه فثبت أنّه على جميع التّقادير يمتنع أن يقال أنّ قوله لم أذنت لهم، يدلّ على كون الرّسول مذنباً و هذا جواب شاف قاطع.

و عند هذا يحتمل قوله لم أذنت لهم، علىٰ ترك الأولى و الأكمل و لا سيّما و هذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلّق بالحروب و مصالح الدّنيا انتهى كلام الرّازي.

و قال القُرطبي قيل هو إفتتاح كلامٍ كما تقول أصلحك اللّه و أعزّك و رحمك كان كذا و كذا و على هذا التّأويل يحسن الوقف **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** و أخبره بالعفو ما قبل الذّنب لئلا يطير قلبه فرقاً و ساق الكلام الىٰ أنّ قال و قال بعض العلماء إنّما بدر منه ترك الأولى فقدّم اللّه له العفو على الخطاب الّذي هو في صورة العتاب إنتهىٰ.

و العجب من الزّمخشري حيث قال في الكشّاف ما هذا لفظه.

عنىٰ اللّه عنك، كناية عن الجناية لأنّ العفو رادف لها و معناه خطأت و بئس ما فعلت، لمن أذنت لهم، بيان لما كنّى عنه بالعفو إنتهى كلامه خذله اللّه فيّ تفسير كلامه اللّه هكذا، و من الّذي قال عفى اللّه عنك كناية عن الجناية من أهل اللّغة و الأدب إلاّ صاحب الكشّاف و على فرض كونه كذلك يمكن التّعبير بوجهٍ أحسن لا غفر اللّه له هذا ما قيل أو يقال حول الآية الشّريفة و الّذي يخطر بالبال هو أنّه لا شكّ في كون النّبي معصوماً و المعصوم لا يذنب و حيث أنّ ظاهر الآية يدّل على صدور الذّنب عنه ﷺ و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** و قال: **لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ** فلابّد لنا من التكلّم حولها ولو إجمالاً

فنقول قال الرّاغب في المفردات العفو هو التّجافي عن الذّنب.

و قال في الذّنب، الذّنب في الأصل الأخذ بذنب الشّئ يقال ذنبته أصبت ذنبه و يستعمل في كلّ فعلٍ يستوخم عقباه إعتباراً بذنب الشّئ، إنتهى.

و عليه فالعفو لا يكون إلاّ بعد الذّنب فإذا لم يكن ذنبٌ لم يكن عفو أصلاً إذا عرفت هذا فلا شكّ في وجود العفو في الآية و هو قوله: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ** و حيث ثبت أنّ العفو بعد الذّنب و متفرّعٌ عليه فنكشف من العفو أنّه كان هناك ذَنب لا محالة ثمّ أنّ الذّنوب علىٰ قسمين: كبيرة و صغيرة.

فالأولىٰ: مثل القتل و الزّنا، و شرب الخمر و أمثالهما و فى رأسها الشّرك باللّه.

الثّانية: ما دون ذلك و لا شكّ أنّ إطلاق الكبيرة و الصّغيرة على الذّنب ليس على الحقيقة بل هو أمرٌ نسّبي فرّب ذنبٍ يقال له الكبيرة بإعتبارٍ و صغيرة بإعتبارٍ آخر فلمس بدن المرأة أو تقبيلها صغيرة بالنّسبة الى الزّنا و كبيرة بالنّسبة الى النّظر اليها و الزّنا صغيرة بالنّسبة الى قتلها و كبيرة بالنّسبة الى مادونه من النّظر و اللّمس مثلاً و هكذا و لهذا قال بعضهم أنّ الكبائر لا تنحصر بعددٍ خاصّ ثمّ أنّ الذّنوب مطلقاً يعني الكبيرة منها و الصّغيرة تتنّوع بأنواع مختلفة

لأنّها قد تكون مالّية و قد تكون بدنيّة و البدّنية الى قولّية و فعلّية و الفعلّية تختلف بإختلاف الآلات الّتي تفعل بها.

منها – ما يغيّر النِّعم.

منها – ما ينزل النِّقم.

منها – ما يقطع الرّجاء.

منها – ما يديل الأعداء.

منها – ما يرّد الدّعاء.

منها – ما يستحقّ بها نزول البلاء.

منها – ما يحبس غيث السّماء.

منها – ما يكشف الغطاء.

منها – ما يعجّل الفناء.

منها – ما يظلم لاهواء.

منها – ما يورث النِّدم.

منها – ما يهتك العِصَم.

منها – ما يدفع القسم الىٰ غير ذلك من أنواع الذّنوب من حيث الأثار المترتّبة عليها اذا عرفت معنى الذَّنب و أنواعها و أقسامها فلنرجع الىٰ أصل البحث و نقول:

لا شكّ أنّ الأنبياء لعصمتهم لم يرتكبوا الكبيرة قطعاً بلا خلاف الصَّغيرة فأن كانت من سنخ ترك الأولى فلا إشكال فيه و أن كانت من سنخ غيره فهو أيضاً ينافي العصمة.

و المراد بترك الأولى هو أنّ التَّرك أولى من الفعل و أحسن و أن كان الفعل أيضاً حسن و هذا كما في قصّة أبينا أدم حيث أكل من الشّجرة المنّهية مع أنّ تركه كان أولى و قد يعبّر عن هذا القسم من النّواهي بالنّهي التّنزيهي و قد أجاز القوم هذا القسم من الذّنب في حقّ الأنبياء عليهم السّلام و ما نحن فيه من هذا

القبيل فقوله تعالىٰ: **عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ** إشارة الىٰ أنّ عدم الإذن كان أولى منه و هذا لا إشكال فيه و لا يضّر بمقام العصمة و فـي قـوله: **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا** الخ إشارة الى نّ التّأني في الأمور خير من العَجَلة فيها و اللّه تعالى يؤدّب رسوله و يرشده الىٰ ما هو بصلاحه أو لا مانع منه عقلاً و شرعاً و نظائره كثيرة في القرأن كما ستعرفها إن شاء اللّه تعالىٰ.

و في الآية لطيفة أخرى و هـى أنّ النّاس عـبيد الدّنيا والدّيـن لعق عـلى ألسنتهم فإذا مـحصّوا بـالبلاء قـلَّ الدّيـانون فـينبغي للـعاقل أن لا يـغتَّر بـظاهر الشّخص و كلامه قال اللّه تعالى و قليل من عبادي الشّكـور والىٰ هـذه النّكـتة أشار اللّه تعالىٰ بقوله.

لا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ أَنْ يُجٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

أخبر اللّه تـعالىٰ نـبيّه فـي هـذه الآيـة بأنّ المـؤمن بـاللّه و بـاليوم الأخـر لا يستأذنك فى التّأخر و التّقاعد عن الجهاد و ذلك لأنّ إيمانه يـمنعه مـنه لعـلمه بأنّ الطّاعة واجبة عليه فاذا قال الرّسول يجب إطاعته لأنّه لا يـقول إلاّ مـن اللّـه تعالىٰ و أنّما يستأذنك المنافق الذّي لم يؤمن بقلبه و أمن بلسانه و فيه إيماء الىٰ أنّ الميزان في معرفة المنافق وتمييزه عن المؤمن هو هذا.

ثمّ قال: **وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** أي أنّ اللّه تعالىٰ يعلم من يتّقي معصيته و يخاف عقابه و من لا يتّقيه، و أنّ اللّه عالم بالضّمائر كما هو عالم بالظّواهر واذا كان كذلك فلا يعرف المنافق إلاّ هو لأنّ النّفاقل أمر قلبّي لا يطّلع عليه أحد إلاّ اللّه و الى هذا المعيار و الميزان الّذي ذكرناه في معرفة المنافق أشار اللّه تعالىٰ بقوله حيث قال:



إِنَّمٰا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ ٱرْتٰابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ

بكلمة، «أنّما» التّي تفيد الحصر للدّلالة علىٰ أنّ الأمر لا يكون غيرها ما ذكرناه و هو أنّ المستأذنين في التّأخر عن الجهاد هم المنافقون الّذين لا يؤمنون باللّه و اليوم الأخر و إرتابت قلوبهم يعني إظطربت و شكّت فأنّ الإرتياب هو الإضطراب في الإعتقاد بالتّقدم مرّة و التّأخر أخرىٰ و الرِّيبة شكّ مع التُّهمة واللّه تعالىٰ أشار بذلك الىٰ علّة نفاقهم أي أنّ علّة نفاقهم هي إرتياب قلوبهم و إضطراب عقيدتهم فهم في ريبهم و شّكهم يتردّدون و يتحيّرون أي يذهبون و يرجعون.

و في هذا الكلام دلالة علىٰ أنّ المعارف ليست ضرّورية بل هي كسبيّة اذ لو كانت ضرّورية فلا معنى للتّحير و الترّدد فيها.

وَ لَوْ أَرادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لٰكِنْ كَرِهَ ٱللّٰهُ ٱنْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقاعِدِينَ

بيَّن اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ المستأذنين في عدم الخروج لم يريدوا الخروج أصلاً فكذبوا في إستئذانهم عدم الخروج و ذلك لأنّهم لو أرادوا الخروج معك لأعدُّوا له عدّة، أي لأعدّوا للخروج معك ما يتّهيأ لهم معها الخروج و لكن لم يكن لهم في ذلك نيّة بل كان قصدهم علىٰ أنّ النّبي لو لم يأذن لهم فى الإقامة فخرجوا ثمّ أفسدوا عليه و ضربوا بين أصحابه و أفسدوا قلوبهم فكره اللّه خروجهم علىٰ هذا الوجه لأنّ ذلك كفر و معصية واللّه لا يكره الخروج الّذي أمرهم به و هو أن يخرجوا لِنصرة نبيّه و قتال عدّوه والجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك فثبَّطهم اللّه أي حبسهم اللّه بالجبن.

يقال ثبطه عن الأمور اذا حبسه و أشغله عنها و المعنى فحبسهم اللّه بالجبن عن الخروج الّذي عرفوا عليه لِلإفساد و لكن لم يحبسهم عن الخروج بالحقّ الّذي أمرهم به كسائر المؤمنين لأنّ الأولى كفر والثّاني طاعة.

و أمّا قوله: وَ قِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ يمكن أن يكون القائل هو النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و أنما قال صلّى الله عليه و آله و سلّم لهم علىٰ وجه التّهديد لا علىٰ الوجه الإذن و يمكن أن يكون القائل بعض أصحابهم الّذين نهوهم عن الخروج مع النّبي نصرة له و رغبةً في الجهاد.

و إحتمل بعض المفسّرين أن يكون حكاية عن قول اللّه في سابق قضاءه.

عن الزّمخشري أنّه قال جعل إلقاء اللّه تعالىٰ في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود.

و قيل هو من قول الشّيطان بالوسوسة.

أن قُلت كيف جاز أن يوقع اللّه في نفوسهم كراهة الخروج الى الغز و قبيحة و تعالى اللّه عن إلهام القبيح.

قلتُ خروجهم كان مفسدة لقوله تعالىٰ: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً و مصلحةً انتهىٰ ما قاله الزّمخشرى.

أقول لا نحتاج الى هذا السّؤال والجواب لأنّ الخروج اذا كان فيه مفسدة كما هو المفروض في المقام فعدم إلقاء الكراهة من اللّه قبيح لا إلقاءها فقوله كيف جاز لا معنى له.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ المنافقين لم يريدوا الخروج معكم عند أنفسهم و مع ذلك أنّ اللّه تعالى أيضاً كره إنبعاثهم أفادَ في هذه الآية أنّهم لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً و إفساداً أو موتاً فأنّ الخبال الفساد و الإضطراب في الرّأي جاء بمعنىٰ الموت أيضاً و المقصود أنّه لا نفع في خروجهم إلاّ الضّرر.

و قوله: **وَ لَأَوْضَعُوا خِلاٰلَكُمْ** الإيضاع الإسراع في السّير بطرح العلق، قال الشّاعر:

أرانا موضعين لأمر غيبٍ ونسحر بالطّعام وبالشّراب

و ربّما قالوا للرّاكب وضع بغير ألف و منه وضعت النّاقة تضع وضعاً و أوضعتها إيضاعاً قيل و معنى إيضاعهم هاهنا هو إسراعهم في الدّخول بينهم للتّضريب بنقل الكلام على وجه التّخويف.

و قال الحسن مشوا بينكم بالنَّميمة لإفساد ذات بينكم و ملخصّ الكلام أنّهم لنفاقهم يفسدون عليكم و يقلّبون الأمور فعدمهم خير من وجودهم كيف و فيكم أيّها لمؤمنون سمّاعون لهم أي فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم: **وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ** عالم بمن يستأذن النّبي في التّأخر شّكاً في الإسلام و نفاقاً.

قال بعض المفسّرين لمّا خرج رسول اللّه ضرب عسكره على ثنية الوداع و ضرب عبد اللّه بن أُبي عسكره أسفل منها و لم يكن بأقلّ العسكرين فلمّا سار تخلّف عنه عبد اللّه فيمن تخلّف فنزلت بعرىٰ اللّه و رسوله الىٰ قوله: **وَ هُمْ كٰارِهُونَ**.

و إختلفوا في الإستثناء في قوله: **إِلاّٰ خَبٰالاً** فقيل هو متّصل و هو مفرع اذ المفعول الثّاني، لزاد لم يذكر و قال قوم هو منقطع و تقديره ما زادوكم قوّة طلبوا لكم الخبال و يتحمل أن يكون المعنى أنّهم علىٰ خبالٍ في الرّأي فيعقده حتّى يصير خبالاً فعلى هذا يكون متّصلاً والمعنىٰ واضح ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الىٰ أنّ المنافق يطلب الفتنة دائماً فقال:

لَقَدِ اِبْتَغَوُا اَلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ اَلْأُمُورَ حَتّٰى جٰاءَ اَلْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اَللّٰهِ وَ هُمْ كٰارِهُونَ

اللاّم للقسم و قيل للتّأكيد فعلى الأوّل أقسم اللّه تعالىٰ أنّ هؤلاء المنافقين إبتغوا الفتنة أي طلبوا إفساد ذات بعضكم و إفتراق كلمتكم من جعل و هو يوم أحد حتّى إنصرف عبد اللّه بن أبّي بأصحابه و ترك النّبي و كان هو وجماعة أخرى من المنافقين يبغون للإسلام الغوائل قبل هذا فسلَّم اللّه المؤمنين من فتنتهم و صرفها عنهم و قلَّبوا لك الأمور.

قال إبن عبّاس بغوا لك الغوائل و قال بن جريح وقف أثني عشر من المنافقين على الثّنية ليلة العقبة كي يفتكوا به.

و قال أبو سليمان الدّمشقي إحتالوا في تشتيت أمرك و إبطال دينك و تقليب الأمور هو تدبيرها ظهر البطن و النّظر في نواحيها و أقسامها و السّعي بكل حيلة و قيل طلب المكيدة من قولهم هو حول قلب و قوله: **حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَ هُمْ كَٰرِهُونَ.**

أشار بذلك أنّهم بعد ظهور الحقّ و هو الإسلام و إعلاء كلمة التّوحيد خافوا على أنفسهم فسكتوا ظاهراً و هم في قلوبهم كارهون ظهور الحقّ بحيث لو قدروا على إطفاء نوره لأطفأوه و لكن اللّه يتمّ نوره ولو كره الكافروه و فيه تنبيه على أنّه لا تأثير لمكرهم و كيدهم و مبالغتهم في إثارة الشّر فأنّهم مذ راموا ذلك ردّه اللّه في نحرهم و قلب مرادهم و أتى بضدّ مقصودهم فكما كان ذلك في الماضي كذا يكون في المستقبل.

إعلم أنّ بعض المفسّرين أورد في المقام سؤالاً وجواباً لا بأس بالإشارة اليهما.

أمّا السّؤال فحاصله أنّ خروج هؤلاء المنافقين مع الرّسول ما كان فيه مصلحة بدليل أنّه تعالىٰ قد صرَّح بكونه خبالاً و فساداً وزاد في هذه الآية أنّهم لقد إبتغوا الفِتنة من قبل و قلبّوا لك الامور و من كان كذلك فالمصلحة في عدم خروجه قطعاً و اذا كان كذلك أي كان الأصوب الأصلح عدم الخروج فلم



عاتب رسوله في الإذن و قال له عفى اللّه عنك، لم أذنت لهم، علىٰ ما مرّ الكلام فيه.

وأجاب عنه بأنّه لا دليل لنا على أنّ العتاب كان في إذنه صلى الله عليه و آله و سلم للقعود و عدم الخروج كما عليه القوم بل يحتمل أن يكون العتاب على إذنه لهم في الخروج و بعبارةٍ أخرى لعلّه صلى الله عليه و آله و سلم أذن لهم في الخروج فعاتبه اللّه عليه بدَليل هذه الأيات و عليه فالمعنى لم أذنت لهم بالخروج معك و قد ثبت كونهم منافقين و المنافق مفسد و اللّه أعلم بحقيقة كلامه فأنّ الأقوال في تفسير الأيات كثيرة في التّفاسير.

■

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَيٰنَا وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِۦ وَ لَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَىٰ وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَآ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

◀ اللّغة

وَ لَا تَفْتِنِّيٓ أي لا توقعني في الفِتنة.
تَرَبَّصُونَ مضارع ماضيه تَرَبَّص و التَّربُّص الإنتظار.

تَزْهَقَ، الزُّهوق الخروج بسهولةٍ.

◀ الإعراب

هَلْ تَرَبَّصُونَ والأصل تتربّصون فسكن التّاء الأولى و أدغمها و وصلها بما قبلها و كسرت اللاّم لإلتقاء السّاكنين أَنْ يُصِيبَكُمْ مفعول فتربّص أَنْ تُقْبَلَ في موضع نصب بدلاً من المفعول في منعهم أَنَّهُمْ كَفَرُوا في موضع الفاعل ويجوز أن يكون الفاعل فسح اللّه، و أنّهم كفروا، مفعوله أي إلاّ أنّهم كفروا.

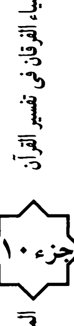
◀ التّفسير

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي وَ لاَ تَفْتِنِّيٓ أَلاَ فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ

قيل أنّ هذه الآية نزلت في الجد بن قيس و أنّ رسول اللّه امّا أمر بالغزو الى بلاد الرّوم قال للجد بن قيس هل لك العامِ في جلاد بني الأصفر و قال له و للنّاس أغزوا تغنموا بنات الأصفر فقال الجد أئذن لي في التّخلُف و لا تفتّني بذكر بنات الأصفر فقد علم قومي أنّي لا أتمالك عن النّساء إذا رأيتهنّ و تفتّني و لا تفتّني هو قول إبن عبّاس و مجاهد و قيل و لا تفتّني أي و لا تصعب علّي حتّىٰ أحتاج الى مواقعة معصيتك فسّهل أنتَ علّى و دعني غير مختلج و هو قوله قتادة و الحسن قالوا ألا تكسبني الأثم بأمرك أيّاي بالخروج و هو غير متيّسرٍ لي فآثم بمخالفتك.

و قال الضّحاك لا تكفرني بإلزامك الخروج معك.

و قيل لا تفتّني في الهلكة فأني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي و الأقوال كثيرة و الجامع بينها أنّه أي الجد بن قيس أو غيره خاطب الرّسول بقوله و لا تفتّني أي لا توقعني في الفتنة و لا تؤثمني بأن تكلّفني المشّقة في ذلك فأني لا أريد الخروج و لكن إذا أمرتني به و لا أخرج كنت عاصياً و يعلم من



ذلك نفاق القائل لأنّ المؤمن لا يقول أئذن لي في القعود عن الجهاد و أيضاً لا يعبّر عن الجهاد في سبيل اللّه بالفتنة ثمّ ردّ اللّه تعالى عليه وقال: **أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا**.

و المقصود من هذا الكلام هو أنّ القائل و أمثاله يضرّون من الفتنة بزعمهم و لم يعلموا أنّهم سقطوا فيها و أيّ فتنةٍ أعظم و أشدّ من فتنة النّفاق و عدم قبول الحقّ واقعاً و يظهر من هذا الكلام بقرنية السّياق أنّ المراد بالفتنة هو الهلكة و ذلك لأنّ الجهاد قد يكون فيه الموت و القتل و الأسر و هذه الأمور و أن لم تكن في الواقع من الهلكة بل هي من مصاديق الحياة الأبدية إلاّ أنّها بزعم المنافق الّذي لا يعتقد بالآخرة و ما فيها تُعدّ من الهلكة و قوله: **وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** يدّل على أن المنافق في حكم الكافر من حيث العذاب بل هو أشدّ منه بحسب الأيات و الأخبار و فى قوله: **لَمُحِيطَةٌ** إشارة الى نكتة خفّية و هي أنّ الكافر و المنافق لا يمكن له الفرار من العذاب فيها لأنّ معنى الإحاطة هو الإستيلاء علىٰ المُحاط من جميع الجوانب والجهات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**(٥).

و المعنى أنّ اللّه تعالى غالبٌ عليهم و الىٰ هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه‌السلام حيث قال و لا يمكن الفرار من حكومتك لأنّ فرار المحاط عن

١- النّساء =١٢٦
٢- هود =٩٢
٣- البقرة =١٩
٤- فصلّت =٥٤
٥- العنكبوت =٥٤

المحيط غير معقولٍ اللّهم إلاّ أن يكون المحيط ناقصاً في إحاطته و حيث أنّ جهنّم كاملٌ فيها فالكافر يبقىٰ فيها أبداً.

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ

هذا خطاب من اللّه تعالىٰ لنبيّه بأنّ هؤلاء المنافقين ان تصبك حسنة تسؤهم، أي تصبك نعمةٌ من اللّه أو ظفر بالأعداء أو غنيمةٌ في الحرب ساءهم ذلك و أحزنهم لبخلهم و حسدهم عليك و إن تصبك مصيبة أيّ مصيبةٍ كانت يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل و معناه قد حذّرنا و أحترزنا و قيل معناه أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة فسلمنا ممّا و قعوا فيه.

و قال إبن عبّاس الحسنة في يوم بدر و المصيبة يوم أحد و الحقّ أنّ اللّفظ عامّ في كلّ مكروهٍ و محبوبٍ.

نعم سياق الحمل يقتضي أن يكون ذلك في الغزو و لذلك قالوا الحسنة الظّفر و الغنيمة و المصيبة الخيبة و الهزيمة مثل ما جرى في أوّل غزوة أُحد و يحتمل أن يكون المراد، بأمرنا، الّذي نحن متسّمون به من الحذر والتّيقظ و العمل بالجزم في التّخلف عن الغزو من قبل ما وقع من المصيبة و قوله: **يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ** يحتمل أن يكون التّولي حقيقة أي و يتولّوا عن مقام التّحديث بذلك و الإجتماع له الى أهليهم و هم مسروورون، و قيل معناه أعرَضوا عن الايمان.

و قيل عن الرّسول فيكون التّولي مجازاً.

أقول و لعلّه من دأب كلّ إنسانٍ بالنسّبة الىٰ عدُّوه و لا يعلم أنّ ما يصيب الإنسان من قبل اللّه فهو متعلّق بالقضاء و القدر و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَيٰنَا وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

أي قل لهؤلاء المنافقين الشّامتين الّذين يفرحون بمصائب المؤمنين، لن يصيبنا من قبل اللّه تعالىٰ إلاّ ما كتب اللّه لنا، خيراً كان أو شراً فهو ممّا كتبه اللّه في اللّوح المحفوظ وليس على ما تظّنون و تتّوهمون من إهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا الى تدبير ربّنا هذا قول الحسن.

و قال الجبائي و الزّجاج يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في غاية أمرنا إلاّ ما كتب اللّه لنا في القرآن من النّصر الّذي وعدنا.

و قيل يجوز أن يكون، كتب، بمعنىٰ، علم أو حكم، و قوله: **هُوَ مَوْلَيٰنَا** أي هو ناصرنا و حافظنا، أو مالكنا و سيّدنا فيتّصرف كيف شاء فيجب الرّضا بما يصدر من جهته.

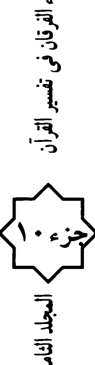
قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**(٢).

و التّوكل تفويض الأمر اليه و الرّضا بتدبيره و الثقّة بحسن إختياره.

قال الرّاري في قوله: **لَنْ يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** أقوال

أحدها: أن المعنى أنّه لا يصيبنا خيرٌ و لا شّر و لا خوف و لا رجاء و لا شدّة و لا رخاء إلاّ و هو مقدّر علينا مكتوب عند اللّه و كونه مكتوباً عند اللّه يدلّ على كونه معلوماً عند اللّه مقضيّاً به عنده فأنّ ما سواه ممكن و الممكن لا يتّرجح إلاّ بترجيح الواجب و الممكنات بأسرها منتهية الىٰ قضاءه و قدره.



و أعلم أنّ أصحابنا يتّمسكون بهذه الآية في أنّ قضاء اللّه شامل لكلّ المحدثات و أنّ تغيير الشّئ عمّا قضىٰ اللّه عليه محال و تقرير هذا الكلام من وجوه.

١-آل عمران = ١٢٢ ٢- الطلاق = ٣

أحدها: أنّ الموجودات أمّا واجبٌ و أمّا ممكنٌ و الممكن يمتنع أن يترّجح أحد طرفيه علىٰ الآخر لنفسه فوجب انتهاءه الىٰ ترجيح الواجب لذاته سواه فواجبٌ بإيجاده و تدبيره و تأثيره و تكوينه و لهذا المعنىٰ قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم **جَفّ القَلم بما هو كائن الىٰ يوم القيامة.**

ثانيها: أنّ اللّه لمّا كتب جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فلو وقع الأمر بخلافها لزم إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصدّق كذباً و كلّ ذلك محال انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره من أنّ ما سواه ممكنٌ و الممكن لا يتّرجح إلاّ بترجيح الواجب الىٰ آخر ما قال لا كلام لنا فيه إلاّ أنّ قوله و أنّ تغيير الشّيْ عمّا قضى اللّه عليه فمحال.

فأن أراد به تغيير الشّيْ عمّا قضىٰ اللّه عليه بيد غيره من المخلوقات مثلاً فهو محال قطعاً و أن أراد به عدم إمكان تغييره ذاتاً حتّى أنّ اللّه أيضاً لا يقدر على تغيير ما قضى عليه سابقاً فهو يحتاج الى الإثبات و ذلك لأنّ اللّه تعالى إذا قضى بشيْ لا مانع له من تغييره إذا شاء و الدّليل عليه من العقل أنّه تعالى فاعلٌ بالإختيار لاً فاعلٌ موجب يعني بالإيجاب والقادر المختار يتّعرف في قضاءه بما شاء، و من النّقل قوله تعالىٰ: **يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتٰابِ**[1] و أن شئت زيادة توضيح في ذلك فأعلم أنّ للّه كتابين أو لوحين، كتاب القضاء و القدر الّذي يعبّر عنه باللّوح المحفوظ، و كتاب المحو و الإثبات المعبّر عنه باللّوح المحو والإثبات، فيثبت في الأوّل و يمحوا في الثّاني نعم تغيير اللّوح المحفوظ مختّصٌ به تعالى و هذا ممّا لا شكّ فيه.

و أمّا قوله: أنّ اللّه لمّا كتب جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فهو صحيحٌ.

١- الرعد= ٣٩

و أمّا قوله: فلو وقع الأمر بخلافها لزم الإنقلاب يعني إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصِّدق كذباً وكلّ ذلك محال.

فنقول في جوابه أنّه تعالى كما علم ما في اللّوح المحفوظ و حكم به علم بتغييره و أنّ الأمر سيقع بخلافه و اذا كان كذلك فلا يلزم إنقلاب العلم جهلاً حكم الصِّدق كذباً نعم لو كان عالماً بما في اللّوح المحفوظ و جاهلاً بتغييره لزم منه ما ذكره من المحاذير و لا نقول به.

و أمّا الحديث الّذي رواه عن النّبي على فرض صحته و صدوره عنه فهو لا يدلّ على ما ذكره في البا و رضي به لأنّ معناه أنّ ما هو كائن و ثابت في علمه الأزلي لا يتّغير و لا يتّبدل و هذا ممّا لا كلام لأحدٍ فيه و أين هذا ممّا إدَّعاه المستّدل فأنّ الحديث لا يدلّ على أنّ ما علمه و كتبه في اللّوح المحفوظ كائن الى يوم القيامة كما هو المدّعى بل يدلّ على أنّ علمه الأزلي بشئ لا يتّغير و المفروض أنّه تعالى عالم بعلمه الأزلي بأنّ ما كتبه في اللّوح المحفوظ لا يبقى بل يمحو و يثبت شيئ أخر و لكنّ المستدلّ حيث أنّه من الأشاعرة القائلين بالجبر غيّر كلام اللّه وكلام رسوله على طبق مسلكه.

و ليت شعري لو كان الأمر كما ذكره فما معنى قوله تعالىٰ: **يَمْحُوا اللّٰهُ مَا يَشَآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهٗٓ أُمُّ الْكِتَابِ** من أيّ شيئٍ يمحو و فى أيّ شيئٍ يثبت هذا ورد في كثير من الأخبار أنّ الإحسان بالوالدين مثلاً يزيد في العمر و قتلهما ينقص فيه.

أن قلت فما معنى قوله: **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللّٰهُ لَنَا.**

قُلتُ معناه لن يصيبنا إلاّ ما كتبه اللّه بعلمه الأزلي و بعبارةٍ أخرى لن يصيبنا إلاّ ما علم اللّه لنا سواء كان في اللّوح المحفوظ أم كان في المحو و الإثبات و ذلك لأنّ اللّه تعالى هو مولانا أي هو أولى بالتّصرف فينا كيف يشاء بالفقر و الغنى و الموت و الحياة و الشدّة و الرخاء و غير ذلك فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و اذا كان كذلك فلا جرم عليه



يتوكّل المؤمنون أي يفوّضون أمورهم اليه في جميع الشّئون كما هو وظيفة العبد الحقيقي بالنسبة الى مولاه و السّر فيه هو أنّ اللّه عالم بكلّ الأشياء و قادر على كلّ شئ و اذا عرف المؤمن ذلك المعنى فالعقل يحكم بتفويض الأمر اليه فأنّه أعرف بمصالح العباد منهم و لا يحكم في حقّهم إلاّ بما هو خير لهم في الدّنيا و الأخرة.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ

التَّرَبُّص، الإنتظار و قيل التّربص التّمسك بما ينتظر به مجئ حينه و لذلك قيل ترّبص بالطعام، وقرأ بعضهم **تَربّصُون** بتشديد التّاء و أنّ الأصل فيه، تَتَّربصُون، فأدغم أحد التّائين في الأخرى، أمر اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء المنافقين هل ترّبصون بنا أي ما ينتظرون بنا إلاّ إحدى الحسنيين أي إحدى العاقبتين كلّ واحدةٍ منهما هي الحسنى من العواقب إمّا النُّصرة و أمّا الشّهادة فالنُّصرة مألها الى الغلبه و الإستيلاء، و الشّهادة مألها الى الجنّة.

و قال إبن عبّاس إنّ المراد بالحسنيين الغنيمة و الشّهادة، و قيل الأجر و الغنيمة و قيل الشّهادة و المغفرة و نحن نتَّربص أي ننتظر بكم أن يصيبكم اللّه بعذابٍ من عنده.

و إختلفوا في المراد به فقيل هو هنا الصَّواعق قاله ابن عبّاس، و قيل الموت و قيل قارعة من السّماء تهلكهم كما نزلت على عاد و ثمود و قيل المراد به عذاب الأخرة.

و قوله: **أَوْ بِأَيْدِينَا** أي بالقتل على الكفر، فتَّربصوا صورته صورة الأمر و المراد به التهديد:

قال اللّه تعالى: **اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ**(١).

١- الفصلت =٤٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَسْتَفْزِزْ مَنِ اَسْتَطَعْتَ**[1].

إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أي منتظرون و حاصل المعنى هو انّ اللّه تعالى أمَرَ رسوله بأن يقول بهم ما تنتظرون بنا فهو خير لنا لأنّه إحدى الحسنيين و أمّا ما ننتظر بكم فهو العذاب من اللّه و بأيدينا فتّربصوا أنّا معكم متّربصون، أي فأنتظروا أنّا معكم من المنتظرين ففي الآية دلالة على أنّ المؤمن المجاهد في سبيل اللّه لا يخلو حاله إمّا أن يقتل في سبيل اللّه أو يغلب على العدّو وكلاهما خيرٌ.

و أمّا الكافر و المنافق فليس كذلك سواء قتل في المعركة أم لا فعلى التّقديرين هو مخذولٌ مطرودٌ أمر اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء المنافقين أنفقوا صورته صورة الأمر و فيه ضربٌ من التّهديد و التّوبيخ.

و قال صاحب الكشّاف هو أمرٌ في معنى الخبر كقوله تعالى قل من كان في الضّلالة فليمدد له الرّحمن مدّاً، و معناه لن يتّقبل اللّه منكم الإنفاق أنفقتم طوعاً أو كرهاً و نحوه قوله تعالىٰ: **اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** وعن بعضهم غير هذا بأنّ معناه الجزاء و الشّرط أي أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً لن نتّقبل منكم و قيل أنفقوا أمرٌ في ضمنه جزاء، و كلمة لَن لنفر الأبد و قوله: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فاسِقِينَ** بمنزلة التعليل لعدم القبول و فيه إيماء الى أنّ اللّه يتّقبل من المتّقين.

و أمّا الفاسقون فلا لأنّ شرط القبول الإيمان و الفاسق لكونه متّمرداً عن طاعة اللّه لا يقبل منه و لعلّ الوجه فيه هو أنّ الفاسق و الكافر أنّما ينفق ماله للرّياء و دفعاً عن نفسه و لا يطلب به رضى اللّه ثمّ أوضح اللّه تعالى كلامه بقوله:

وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ

---

[1] ١- الأسرىٰ =٦٤

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية السَّبب الّذي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم و هو الكفر و أتبعه بما هو ناشٍ عن الكفر و مستلزم له و هو دليل عليه و ذلك هو إتيان الصّلاة وهم كسالى و إيتاء النَّفقة و هم كارهون فقال.

وَ لا يَأْتُونَ اَلصَّلٰوةَ إِلاّٰ وَ هُمْ كُسٰالىٰ وَ لاٰ يُنْفِقُونَ إِلاّٰ وَ هُمْ كٰارِهُونَ

و كلمة ما، في قوله: **وَ مٰا مَنَعَهُمْ** نافية أي ليس عدم قبول نفقاتهم إلاّ ما ذكرناه و المنع أمرٌ يضّاد الفعل و ينافيه.

و قال بعضهم معناه أنّ هؤلاء المنافقين منعوا أنفسهم أن يفعل بهم قبول نفقاتهم كما يقول القائل منعته برّي و عطاني انتهىٰ.

أقول يستفاد من الآية أنّ المانع من قبول نفقاتهم من قبل أنفسهم و بعبارةٍ أنّهم بإختيارهم أوجدوا المانع و هو الكفر باللّه و برسوله الخ.

و قيل تقدير الكلام و ما منعهم اللّه أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ الكفر باللّه و برسوله الخ أي أن لم يكونوا كذلك فأنّ اللّه تعالى يتَّقبل منهم كما يتَّقبل من غيرهم من المؤمنين، و هذا الوجه ضعيف اذ لا نحتاج الىٰ التّقدير مع أنّه خلاف الأصل و المانع أنّما هو كفرهم و أمّا أنّ اللّه منعهم فلا دليل عليه و محصّل الكلام في المقام هو أنّ اللّه تعالىٰ أخبر بها عن حقيقةٍ هي الأصل في قبول الأعمال و الطاعات و النّفقات و هى أن لايكون فاعلها متَّصفاً بالفسق و الكفر و أمثال ذلك و مجرّد الإتيان بالصّلاة و إعطاء الأموال لا يكفي في القبول اذا لم تكن الصّلاة عن نشاطٍ و رغبة و الإنفاق بغير كراهةٍ فأنّ العمل اذا صدر عن فاعله عن كسالةٍ و كراهةٍ فهو كالعدم.

و إعلم أنّ هاهنا كلام لابدّ لنا من الإشارة اليه و الجواب عنه و هو أنّ الجبائي قال، دلّت الآية على أنّ الفسق يحيط الطاعات لأنّه تعالى بيَّن فيها أنّ نفقتهم لا تقبل البتّة و علَّل ذلك بكونهم فاسقين و معنى التَّقبل هو الثّواب و المدح و اذا لم يتَّقبل ذلك كان معناه أنّه لا ثواب و لا مدح فلمّا علَّل ذلك بالفسق دلّ على

أنّ الفسق يؤثّر في إزالة هذا المعنى و حيث أنّ الفسق يوجب الذّم و العقاب الدّائمين و الطّاعة توجب المدح و الثّواب كذلك و الجمع بينهما محال فكأنّ الجمع بين الإستحقاقين محالاً.

و قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

و إعلم أنّه كان الواجب عليه أن لا يذكر هذا الإستدلال بعد ما أزال اللّه هذه الشّبهة على أبلغ الوجوه و هو قوله: **وَ مٰا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقٰاتُهُمْ إِلاّٰ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُولِهِ** فبيَّن تعالى بصريح هذا اللّفظ أنّه لا مؤثر في منع قبول هذه الأعمال إلاّ الكفر و عند هذا يصير هذا الكلام من أوضح الدّلائل على أنّ الفسق لا يحبط الطّاعات لأنّه تعالىٰ لمّا قال: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فٰاسِقِينَ** فكأنّه سأل سائل و قال هذا الحكم معلّل بعموم كون تلك الأعمال فسقاً أو بخصوص كون تلك الأعمال موصوفة بذلك الفسق فبيَّن تعالى ما أزال هذه الشُّبهة و هو أنّ عدم القبول غير معلّلٍ بعموم كونه فسقاً بل بخصوص وصفه و هو كون ذلك الفسق كفراً فثبت أنّ هذا الإستدلال باطل انتهىٰ.

أقول أنّ هذا النّزاع بين الجبائي والرّازي لا يرجع الىٰ محصّل و ذلك لأنّ الفسق المذكور في الآية في قوله: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فٰاسِقِينَ** ليس مقابلاً للكفر في قوله: **إِلاّٰ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ** و ذلك لأنّ المراد بالفسق الّذي عُلّق عليه عدم قبول الإنفاق منهم هو الفسق الحاصل لا مطلق الفسق.

و من المعلوم أنّ الفسق بهذا المعنى مانع من قبول الطّاعات و يعضده قوله تعالى و ما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم أي الفسّاق كفروا باللّه و أن شئت قلت الفسق علىٰ ضربين:

قسمٌ منه يقابل الكفر بمعنى أنّ الفاسق لا يدخل في الكفر و ذلك كفسّاق المؤمنين و قسمٌ يجامع الكفر كفسّاق الكّفار و الّذي أشير اليه في المقام هو الثّاني دون الأوّل و اذا كان كذلك فلا نزاع في البين هذا ما أفاده بعض المحقّقين.

و لقائلٍ أن يقول اذا كان الفسق بمعنى الفسق بالكفر فما تقولون في قوله: وَ لَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إلاّ و هم كسالى أليس مفهوم هذا الكلام أنّهم يصلّون و من المعلوم أنّ الكافر لا يصلّي أصلاً كسالى و غير كسالى،

و يمكن الجواب عنه بأنّ المراد بالكفر ليس كفر المصطلح أعني به إنكار التّوحيد و النبوّة و الأخرة بل المراد هو كفر النعمة و ذلك لأنّ الفسق يجمع معه و أمّا الكفر بمعنى الإرتداد أو الإنكار فهو فوق الفسق و الكافر بهذا المعنى يصلّي و يصوم و يحجّ و هكذا و عليه فقول القائل المراد بالفسق هو الفسق بالكفر يحمل على ما ذكرناه.

و أمّا الكافر بالكفر الأصلي فلا يصلّي هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بمراده.

و أمّا قول الجبائي بالإحباط فهو مردود و الإحباط باطل و لتفصيل الكلام فيه محلّ أخر سيأتي إن شاء اللّه تعالىٰ.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَآ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ

لمّا قطع اللّه رجاء المنافقين عن جميع منافع الأخرة بيَّن في هذه الآية أنّ الأشياء التّي تظنّونها من منافع الدّنيا لهم كالأموال و الأولاد و المقام و أمثال ذلك جعلها اللّه تعالى أسباباً ليعذّبهم بها في الدّنيا فالمعنى لا يعجبك أيّها السّامع أموالهم و أولادهم أنّما يريد اللّه ليعذّبهم بها في الحياة الدّنيا و تزهق أنفسهم أي تخرج أرواحهم عن أجسادهم حين الموت و هم كافرون، **الواو** للحال أي و الحال أنّهم كافرون و الزّهق الخروج بصعوبةٍ و شدّةٍ و هذا عذابهم في الدّنيا و أمّا العذاب في الأخرة فهو على حاله.

وإعلم أنّ اللّه تعالى ذكر قبائح أفعال المنافقين و فضائح أعمالهم أوّلاً.

و ذكر ما لهم في الأخرة من العذاب الشّديد و فى الدّنيا وجوه المحنة و البلّية ثانياً.

و ذكر بعد ذلك أنّ ما يفعلونه من أعمال البّر من الإنفاق و غيره لا ينتفعون به يوم القيامة ثالثاً.

ثمّ ذكر في هذه الآية أنّ ما يظنّون أنّه من منافع الدّنيا كالأموال و الأولاد فهو في الحقيقة سبب لعذابهم و بلاءهم في الدّنيا و الأخرة و عند هذا يظهر أنّ النّفاق أمّ الأفات في الدّنيا و الأخرة و مبطل لجميع الخيرات فيهما اذا عرفت هذا فلابدّ لنا من بيان كون الأموال و الأولاد سبباً للعذاب فنقول:

الاعجاب السُّرور بالشّئ مع نوع من الإفتخار به و إعتقاد أنّه ليس لغيره ما هو له و قد ورد في الحديث أنّ رسول اللّه ﷺ قال ثلاث مهلكات شحٌّ مطاعٌ و هوىً متَّبع و إعجاب المرء بنفسه.

نقل عن بعض المحقّقين أنّه قال الموجودات بحسب القسمة العقليّة علىٰ أربعة أقسام:

الأوّل: أن يكون الموجود أزليّاً و أبديّاً أي لا أوّل و لا أخر له و هو اللّه جلّ جلاله.

الثّاني: الموجود الّذي لا يكون أزليّاً و لا أبديّاً عكس الأوّل و هو الدنيّا فيها

الثّالث: الموجود الّذي يكون أزليّاً و لا يكون أبديّاً و هذا محال لأنّه ثبت بالدليل أنّ ما ثبت قدمه إمتنع عدمه.

الرّابع: ما يكون أبديّاً و لا يكون أزليّاً و هو الأخرة فأنّ الأخرة لها أوّل لكن لا أخر لها و كذا المكلّف مطيعاً كان أو عاصياً فله أوّل و لا أخر له و بذلك تثبت المناسبة بين المكلّف و بين الأخرة أشدّ من المناسبة بينه و بين الدنيّا و يظهر منه أنّ الإنسان خلق للأخرة لا للدُّنيا و يؤيده قوله ﷺ خلقتم للبقاء لا للفناء فينبغي أن لا يميل قلبه الى الدُّنيا لعدم المناسبة فأنّ المسكن الأصلي هو الأخرة.

ثمّ أنّ الأموال و الأولاد لا شكّ أنّها من نعم الدنيّا و زينتها قال اللّه تعالىٰ: **اَلْمَالُ وَ اَلْبَنُونَ زِينَةُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا** واذا كان كذلك فكيف تكون الأموال و الأولاد سبباً للعذاب في الدّنيا و الأخرة.

قال بعضهم أمّا كونها سبباً للعذاب في الدنيّا فلأنّ الإنسان يحبّ أولاده و أمواله حبّاً شديداً و قد ثبت أنّ كلّ من كان حبّه للشّئ أشدّ و أقوى كان حزنه و تألّم قلبه على فواته أعظم و أصعب و هذا أي الخوف على فواتها عذابٌ لصاحب المال و الأولاد في الدُّنيا فكلّما كانت التّعلقات أكثر كان العذاب النّاشئ عن الفوات أشدَّ هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الإنسان يحتاج في تحصيل المال و الأولاد الى تعب شديد و مشقّةٍ عظيمة ثمّ بعد حصولها يحتاج في حفظها الى متاعب أشدّ و أصعب لأنّ حفظ النِّعمة أصعب من إكتسابه فالمشغوف بها يكون في تعب الحفظ أبداً و مع ذلك لا ينتفع إلاّ بالقليل منها فالتّعجب كثير و النّفع قليل و أيٌّ عذابٍ أشدَّ منه في الدُّنيا و قد ذكروا وجوهاً آخر غير ما ذكرناه و لكنّ الإنصاف أنّه لا يرجع الى محصّلٍ و ذلك لأنّ المال و الأولاد في كثير من الموارد لا يكون موجباً لهذه الآلام فالقول بأنّ المال و الأولاد يوجب العذاب في الدنيّا على وجه الكليّة و الإطلاق لا دليل عليه.

نعم يكون كذلك بالنسبة الى بعض الأفراد كالمنافقين مثلاً و الآية نزلت فيهم لا فيهم و غيرهم كائناً من كان و لا شكّ أنّ المنافق و الكافر و بالجملة كلّ من لم يؤمن باللّه و باليوم الآخر يكسب هذه النعم من غير طريقها و يصرفها كذلك و إذا كان المال قبلاً حاصلاً للإنسان من طريق الحرام فهو موجب للعذاب في الدّارين.

أمّا في الدّنيا فلأنّها تبقى بعده و لا يبقى لصاحبها إلاّ الحسرة و الندامة حين الموت.

و أمّا في الآخرة فلأنّها حصلت له من غير طريقة فلا يبقى له إلاّ الوزر و الوبال و ما كان كذلك فعدمه أولى من وجوده و هذا بخلاف المؤمن فأنّه يكتسب المال من طريقه المأذون شرعاً و عقلاً و يصرفه كذلك فالمال يكون سبباً لترفيع مقامه في الآخرة و كونه محبوباً عند النّاس في الدنيّا و السّر فيه هو

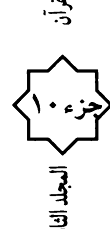
أنّ المؤمن موّفق من عند اللّه و أمّا المنافق و الكافر فلا و محصل الكلام هو أنّ المال بل و كلّ نعمةٍ من حيث ذاتها و طبيعتها خير و أنّما الكلام في تحصيلها و إستعمالها فهى بالنّسبة الى المنافق سبب للعذاب و بالنسبة الى المؤمن سبب للرحمة و التّقرب و قوله: **وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ** معناه أنّهم حال الموت يكونون بصفة الكفر و هذا إخبار منه تعالى بأن هؤلاء المنافقين يموتون كافرين.

أمّا قول الأشاعرة و هو أنّ معنىٰ الآية أنّ اللّه تعالىٰ أراد إزهاق نفسهم مع الكفر و من أراد ذلك فقد أراد الكفر، فهو باطل لأنّ **الواو** و في قوله: **وَ هُمْ كٰافِرُونَ** للحال أي أنّهم يموتون في حال كفرهم الّذي كانوا عليه مدّة عمرهم و هذا واضح.

و أمّا أنّه تعالىٰ أراد منهم الكُفر في حال موتهم فالكلام لا يدلّ عليه أصلاً هذا كلّه مضافاً الى أنّه لو أراد منهم الكفر فلم يعذبهم في الآخرة لأنّ المفروض أنّه خلقهم للكفر أو أراد منهم الكفر و ما شاء اللّه و أراد فهو واقع لا محالة فأيّ ذنبٍ للمخلوق الّذي أوجده كذلك.

وَ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مٰا هُمْ مِنْكُمْ وَ لٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ عن المنافقين أنّهم يقسمون باللّه أنّهم من المؤمنين أي أنّهم يدّعون الإيمان و يبطنون الكفر كما هو شأن المنافق، و ما هم منكم، أي و الحال أنّهم ليسوا منكم واقعاً **وَ لٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** أي و لكنّ المنافقين قوم يفرقون، من إظهار الكفر لئّلا يقتلوا و الفرق إنزعاج النّفس بتّوقع الضّرر، و قيل معناه يخافون إطّلاع اللّه المؤمنين على بواطنهم فيحلّ بهم ما حلّ بالكفّار.



و الحاصل أنّهم يتظاهرون بالإسلام تقيّةً و أعلم أنّ ضرر النفاق أكثر من ضرر الكفر لأنّ الكافر يعرف حاله و المنافق لا يعرف و لأجل ذلك قد حذَّر اللّه المؤمنين عنهم في كثير من الأيات ألا ترىٰ أنّ الأيات النّازلة في شأنهم أكثر ممّا

ورد في شأن الكفّار و لزوم الإجتناب منهم و قد قال اللّه تعالى فيهم: **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ**(۱) و لم يقل هذا في حقّ الكفّار أعاذنا اللّه من شرورهم بحق محمّد و آله.

■

۱-النساء = ۱۴۵

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ اٰتيٰهُمُ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَ ٱلْمَسَاكِينِ وَ ٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ ٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي ٱلرِّقَابِ وَ ٱلْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَ مِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

◀ اللّغة

مَلْجَـًٔا، المَلجا بفتح الميم إسم مكان من لجأ و هو الموضع الّذي يتحصّن فيه و مثله المعقل و الموئل.

مَغٰارٰاتٍ بفتح ميم جمع مغارة و هى المدخل السّاتر لمن دخل فيه معناها الغيران.

مُدَّخَلًا بضمّ الميم وفتح الدّال المسلك الّذي يتدّسس بالدّخول فيه و أصله، متدخل.

لَوَلَّوْا إِلَيْهِ يَجْمَحُونَ الجماح مضّي الماء مسرعاً على وجهه لا يردّه شئ عنه.

يَلْمِزُكَ بفتح الياء و سكون اللاّم و ضمّ الميم و كسرها و هما لغتان و اللّمز العيب على وجه المساترة.

يَسْخَطُونَ السّخط الغضب.

رٰاغِبُونَ الرّغبة الميل.

اَلرِّقٰابِ جمع رقبة.

اَلْغٰارِمِينَ جمع غارم.

أُذُنٌ يعني كثير الإستماع.

يُحٰادِدِ اَللّٰهَ المحادّة مجاوزة الحدّ.

◀ الإعراب

إِذٰا هُمْ إذا هنا للمفجأة و هى ظرف مكان و جعلت في جواب الشّرط كالفاء لما فيها من المفاجأة و ما بعدها إبتداء و خبر و العامل في إذا، يسخطون، فَرِيضَةً حال من الضّمير في الفقراء أي مفروضة و قيل هو مصدر و المعنى فرض اللّه ذلك فرضاً قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ أذن خبر مبتدأ محذوف أي هو و قد يقرأ بالإضافة أي مستمع خير و يقرأ بالتّنوين و رفع خير على أنّه صفة لأذن، و التّقدير، أذن ذو خير و يجوز أن يكون بمعنى أفعل أي أذن أكثر خيراً لكم يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ في موضع رفع صفة أيضاً وَ رَحْمَةٌ بالرّفع عطف على أذن، أي هو أذن و رحمة و يقرأ بالجرّ عطفاً على خير فيمن جّر خيراً وَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ مُبتدأ

و أَحَقُّ خبره و الرّسول مبتدأ ثانٍ و خبره محذوف دلّ عليه خبر الأوّل و قيل، أحقّ، خبر الرّسول و خبر الأوّل محذوف و هو أقوى إذ لا يلزم منه التّفريق بين المبتدأ و خبره أَلَمْ يَعْلَمُوٓا يجوز أن تكون المتعديّة الى مفعولين و تكون، أنّه، و خبرها سدَّ مسَّد مفعولين و يجوز أن تكون المتعديّة الى واحدة و مَنْ شرطيّة موضع مبتدأ و الفاء جواب الشّرط و أمّا أنّ الثانيّة فالمشهور فتحها و فيها أوجه:

أحدها: أنّها بدل من الأولى.

الثّانى: أنّها كرّرت توكيداً و الفاء على هذا جواب الشّرط.

الثّالث: أنّ، مبتدأ و الخبر محذوف أي فلهم أن لهم.

الرّابع: أن تكون خبر مبتدأ محذوف أي فجزاؤهم أنّ لهم أو فالواجب أنّ لهم و يقرأ بالكسر على الإستئناف.

◀ التّفسير

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغٰارٰاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ

قرأ يعقوب أو **مُدخَلاً** بفتح الميم و تخفيف الدّال و سكونها و قرئ شاذاً بضمّ الميم و سكون الدّال و المشهور ضمّ الميم و فتح الدّال المشدّدةالمصاحف و عليه فالأصل فيه، متدخل، فأدغمت التّاء في الدّال.

و قال بعضهم الأصل فيه مدتخل، مفتعل من، أدخل، و هو بناء تأكيد و مبالغة و معناه السرب و النَّفق في الأرض، و معنى الأية، لو يجدون هؤلاء المنافقين ملجأً أي موضعاً للتّحصن فيه أو مغارات و هى جمع مغارة المدخل السّاتر من دخل فيه.

و قيل المراد بها الغيران و الغار النّقب الواسع في الجبل و منه غارت العين من الماء إذا غابت في الأرض، أو مدّخلاً أي مسلكاً، أو نفقاً في باطن الأرض لولّوا اليه أي للجأوا اليه و إعتصموا به و هم يجمحون، أي يسرهون إسراعاً لا

يردّهم شئ و محصّل الكلام هو أنّهم لم يجدوا شيئاً دخلوا فيه و تمسّكوا به و لو وجدوا ذلك لأسرعوا اليه إسراعاً لا يرّدهم عنه شئ.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذاٰ هُمْ يَسْخَطُونَ قرأ يعقوب **يلمزك** بضمّ الميم و الباقون بكسرها و هو الأشهر و هما لغتان و فی الآية إخبارٍ بأنّ من جملة المنافقين الّذين ذكرهم اللّه من يلمز الرّسول في الصدّقات و اللّمز العيب على وجه المساترة.

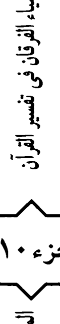
قيل اللاّمز هو حرقوص بن زهير التّميمي و هو إبن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يقسم غنائم حنين فقال أعدل يا رسول اللّه الحديث.

و قيل اللاّمز هو إبن الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون الى صاحبكم أنّما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم.

و قيل هو ثعلبة بن حاطب كان يقول أنّما يعطي محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قريشاً.

و قيل رجل من الأنصار أتى الرّسول بصدقةٍ يقسمها فقال ما هذا بالعدل.

و قد روي عن إبن عبّاس أنّه قال كانت غنائم هوازن يوم حنين إذ جاءه إبن ذي الخويصرة التّميمي وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج فقال أعدل يا رسول اللّه فقال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل فقال عمر يا رسول اللّه أئذن لي فأضرب عنقه فقال النّبي صلّی اللّه عليه و آله و سلّم دعه فأنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلوته مع صلوٰتهم و صومهم مع صومه يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرميّة فينظر في قذذه فلا يوجد في شئ ثم ينظر في رصافه فلا يوجد في شئ ثمّ ينظر في لضله فلا يوجد في شئ و قد سبق الفرث و الدّم صاحب رأيتهم رجل أسود في إحدىٰ قدميه أو قال في إحدىٰ يديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون علىٰ فترةٍ من النّاس.



و في حديثٍ آخر فإذا خرجوا فأقتلوهم ثمّ إذا خرجوا فأقتلوهم فنزلت وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ.

قال أبو سعيد الخدري أشهد أنّي سمعت هذا من رسول اللّه و أشهد أنّ عليّاً حين قتلهم و أنا معه جئ بالرّجل على النّعت الّذي نعته رسول اللّه رواه الثّعلبي بأسناده في تفسير نور الثّقلين(١).

و أمّا قوله تعالىٰ: **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهٰا رَضُوا** فالمقصود أنّ المنافقين لا يرضون منك إلاّ ان تعطيهم ما أرادوا و شاءوا و لا يرضون بما شاء اللّه و رسوله و هو كذلك لأنّهم بسبب عدم إيمانهم واقعاً يطلبون أكثر من حقّهم لعدم إعتقادهم بعدالة الرّسول في تقسيمه الغنائم و الحقّ أنّ أكثر النّاس لحرصهم على جمع الأموال لا يقنعون بحقوقهم المقرّرة لهم و هذا لا يختّص بزمانٍ دون زمانٍ فالآية على عمومها و أن كان موردها خاصّاً.

كما روي في الكافي بأسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبد اللّه عليه السلام كم ترى أهل هذه الآية إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون.

قال، ثمّ قال عليه السلام هم أكثر من ثلثي النّاس انتهى.

تنبية

قال أبو عبيدة، يلمزك، معناه، يعيبك و قال معناه، يطعن عليك و الهمز الغيبة و منه قوله تعالىٰ: **هَمّٰازٍ مَشّٰآءٍ بِنَمِيمٍ**(٢).

وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مٰآ آتٰيهُمُ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ قٰالُوا حَسْبُنَا ٱللّٰهُ سَيُؤْتِينَا ٱللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنّٰآ إِلَى ٱللّٰهِ راٰغِبُونَ

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ٢٢٧ ٢- القلم =١١

هذا وصفٌ لحال المستقيمين في دينهم أي ولو أنّهم رضوا قسمة اللّه و رسوله و قالوا كفانا اللّه و علّقوا أمالهم بما سيؤتيه اللّه إيّاهم و كانت رغبتهم الى اللّه لا الىٰ غيره و جواب لو، محذوف تقديره لو كانوا كذلك لكان خيراً لهم في دينهم و دنياهم، وكان ذلك الفعل منهم دليلاً على إنتقالهم من النّفاق الى محض الإيمان لأنّ ذلك تضّمن الرّضا بقسم اللّه و الإقرار باللّه و بالرّسول اذ كانوا يقولون: **سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ**.

و قيل جواب، لو، هو قوله و قالوا الخ على زيادة **الواو** و هو قول كوني.

و قال الزّمخشري و المعنى و لو أنّهم رضوا ما أصابهم به الرّسول من الغنيمة و طابت به نفوسهم و ان كلّ نصيبهم و قالوا كفانا فضل اللّه تعالى و صنعه حسبنا ما قسّم اللّه لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فسيؤتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أكثر ممّا أتانا اليوم إنّا الى اللّه في أن يغنمنا و يخولنا فضله راغبون انتهى.

و قال إبن عبّاس، راغبون فيما يمنحنا من الثّواب و يصرف منّا من العقاب.

و قال بعضهم راغبون في أن يوسّع علينا من فضله فيغنينا عن الصّدقة و غيرها ممّا في أيدي النّاس.

و قيل المعنى، ما أتاهم اللّه بالتّقدير و رسوله بالقسم و إعلم أنّه تعالى أتى أوّلاً بمقام الرّضا فقال و لو أنّهم رضوا، أي الرّضا فعلٌ قلبيٌّ يصدر عمّن علم أنّه تعالى منزّه عن العتب و الخطأ عليمٌ بالعواقب فكلّ قضاءه سواب و حقّ لا اعتراض عليه و هو أي مقام الرّضا من أعلى المقامات و أرفعها بل لا مقام فوقه لأنّ السّالك اذا وصل اليه فقد كمل في سلوكه و وصل الى ما أراد منه لأنّه بالرّضا بقضاءه و قدره و قد فوَّض أمره اليه تعالى و لا يرى لإرادته شيئاً فلا يريد إلاّ ما أراد اللّه له و لا يشاء إلاّ ما شاء اللّه و قد يعبّر عنه بمقام الفناء في اللّه ذاتاً وصفةً.

ثمّ أردفه بإظهار أثار الوصف القلبي و هو الإقرار باللّسان بقوله حسبنا اللّه و ذلك لأنّ الكلام مظهرٌ عمّا في القلب.

ثمّ أتى ثالثاً بأنّه تعالى ما داموا في الحياة الدّنيا ما دلّهم بنعمه و إحسانه فهو إخبار حسن اذ ما من مؤمنٍ إلاّ و نعم اللّه مترادفة عليه حالاً و مآلاً إمّا في الدنيّا و إمّا في الأخرة.

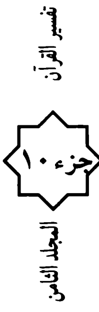
ثمّ أتى رابعاً بالجملة المقتضيّة للإلتجاء الى اللّه لا الى غيره و الرّغبة اليه فلا يطلب بالإيمان أخذ الأموال و الرّئاسة في الدنيّا، ولمّا كانت الجلمتان متغايرتان أعني بهما ما تضمّن الرّضا بالقلب و ما تضمّن الإقرار باللّسان تعاطفتا، ولمّا كانت الجملتان الأخيرتان من أثار قولهم حسبنا اللّه، لم تتعاطفا إذ هما كالشّرح لقولهم حسبنا اللّه فلا تغاير بينهما.

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ ٱلْمَسَاكِينِ وَ ٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ ٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي ٱلرِّقَابِ وَ ٱلْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الصّدقات و هى زكاة الأموال خاصّة للفقراء و المساكين الخ و هم ثمانية أصناف:

الأوّل: قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ** و **الصّدَقات** بفتح الصّاد و الدّال جمع صدقة، قال بعضهم هي عطيّة يراد بها المثوبة لا المكرمة.

و قال في المفردات، الصَّدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزّكاة لكن الصَّدقة في الأصل يقال للمتَّطوع به و الزّكاة للواجب و قد يسمّىٰ الواجب صدقة اذا تحرّى صاحبها الصّدق في فعله انتهى.



و قال في المجمع ما أعطي الغير به تبّرعاً بقصد القربة و غير هديّة فتدخل فيها الزّكاة و المنذورات و الكفّارة و أمثالها و عرّفها بعض الفقهاء بالعطيّة المتّبرع بها من غير نصاب للقربة و امّا **الفقراء** فهي جمع فقير بفتح الفاء و هو في الأصل بمعنى المحتاج فكلّ محتاج يقال له الفقير و أنّما سمّي به لأنّه مكسور الفقار يقال فقرته فاقرة أي داهيةٌ تكسر الفقار و قيل هو من الفقرة أي

الحفرة و منه قيل لكلّ حفيرةٍ يجتمع فيها الماء فقير و قد فرَّقوا بينه و بين المسكين بأنّ الفقير هو المتَّعفف الّذي لا يسأل و المسكين الّذي يسأل لأنّه مستبق من المسكنة بالمسألة.

و قال قتادة الفقير ذو الزّمانة من أهل الحاجة و المسكين من كان صحيحاً محتاجاً و قال قوم هما بمعنى واحد قال الشّاعر:

أنا الفقير الّذي كانت هلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

و كيف كان لا خلاف عندهم في إستحقاقهم الصَّدقات كما هو صريح الأية.

الثّانى: **المساكين** و هي جمع مسكين بكسر الميم وقد مرّ الكلام فيه قيل و سمّي المسكين بذلك تشبيهاً بأنّ الحاجة كأنّها سكنة عن حال أهل السّعة و الثّروة قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ**[1].

فمن قال المسكين أحسن حالاً إحتجّ بهذه الآية و من قال هما سواء قال السَّفينة كانت مشتركة بين جماعة لكلّ واحدٍ منهم الشّئ اليسير.

الثّالث: و العاملين عليها، قيل المراد بهم سعاة الزّكاة وجباتها و هو قول الزّهري و ابن زيد و غيرهما.

الرّابع: المؤلّفة قلوبهم قيل المراد بهم أقوام أشراف كانوا في زمن النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم فكان يتألفهم على الإسلام و يستعين بهم على قتال غيرهم و يعطيهم سهماً من الزّكاة ثمّ أنّهم إختلفوا في أنّ هذا الحكم هل هو ثابت في جميع الأحوال أم في وقتٍ دون وقتٍ.

فقال بعضهم أنّ هذا كان خاصّاً على عهد رسول اللّه رواه جابر عن أبي جعفر محمّد بن علي علیه السلام.

و قال الجبائي أنّه ثابت في كلّ عصر إلاّ أنّ من شرطه أن يكون هناك إمام عدل يتألفهم على ذلك و نسب الى الشّافعي أنّه قال العامل و المؤلّفة قلوبهم مفقودان في هذا الزّمان بقيت الأصناف السّتة فالأولى صرفها اليهم و ذهب

١- الكهف =٧٨

أيضاً الى أنّه يعتبر في كلّ صنف ما دلّ عليه لفظه أن كان موجوداً فلابدّ في كلّ صنف من ثلاثة لأنّ أقلّ الجمع ثلاثة فأن دفع سهم الفقراء الى فقيرين ضمن نصيب الثّالث و هو ثلث سهم.

و قال أبو حنيفة يجوز أن يعطي زكاته مسكيناً واحداً و به قال مالك في زكاة الفطرة.

أقول ما ذهب اليه الشّافعي لا دليل عليه لا عقلاً و لا نقلاً و قوله أقلّ الجمع ثلاثة مجرّد إدّعاء فقد قال قوم أنّ أقلّ الجمع أثنان و مع ذلك فالحكم يتعلّق بالجمع من حيث هو بل الحكم تعلّق بجنس الفقير ألا ترى أنّ المولى اذا أمر بإكرام العلماء فقال أكرم العلماء معناه أكرم كلّ عالمٍ من العلماء لا أنّه يجب إكرام العلماء اذا كانوا ثلاثة و هذا ظاهر بحسب متفاهم العرف و اللّغة و العجب ممّن يدعي العلم و هو يقول بهذه المقالة السّخيفة فإعتبروا يا أولي الأبصار.

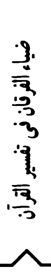
الخامس: و فى الرّقاب يعني المكاتبين.

قال الشّيخ في التّبيان، و أجاز أصحابنا أن يشتري به عبدٌ مؤمن اذا كان في شدّة و يعتق من مال الزّكاة و يكون ولاءه لأرباب الزّكاة و هو قول ابن عبّاس و جعفر بن مبشر.

السّادس: و الغارمين، و قد أجمع المفسّرون على أنّ المراد بهم في الآية الّذين ركبتهم الديون في غير معصيةٍ و لا إسرافٍ فتقضى عنهم ديونهم.

السّابع: و فى سبيل اللّه يعني الجهاد بلا خلافٍ و يدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين كبناء المساجد و القناطر و المدارس و يدخل فيه قضاء الدَّين عن أموات المؤمنين ونحو ذلك من الطّرق التّي يراد بها وجه اللّه سبحانه كمعونة الزّائرين و شراء الكتب و ما يحتاج اليه المشتغلون في ترويج الدّين و هكذا.

الثّامن: إبن السبيل، و هو المنقطع به في غير بلده و أن كان غنيّاً في بلده سمّي به لملازمته للسبيل أي الطّريق فكأنّها ولدته و هذا تفسير أكثر علماءنا و به قال بعض العامّة كأبي حنيفة و مالك.



و قال المفيد قدس سره قد جاءت رواية أنّه الضَّعيف أي من أضيف لحاجةٍ الىٰ ذلك و أن كان له في موضع أخر غناء و يسار و نحوه قال في المبسوط و المدارك.

قال بعض المحققين بعد نقله ما نقلناه و الرواية بدخول الضّيف في إبن السّبيل لم نقف عليها في شئٍ من الأصول و لا نقلها ناقل في كتب الإستدلال انتهى.

أقول لا يبعد أن يكون المراد بها ما ورد أنّ من دخل بلدةً فهو ضيفٌ لأهلها.

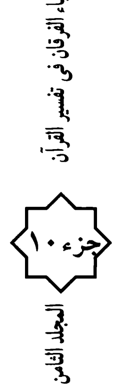
و قال إبن الجنيد هو المسافر في طاعة اللّه أو المنشئ السّفر كذلك و ليس عنده ما يكفيه لسفره اذا كان قصده فيه قضاء فريضة أو قياماً لسنّةٍ.

و فيه، أنّ المنشئ للسّفر كذلك لا يصدق عليه ذلك إلاّ مجازاً أي من باب تسمية الشّئ بما يَّؤل اليه اذا عرفت هذا فلنشر الى شطرٍ من الأخبار الواردة عن أهل البيت في مصارف الصّدقات في الأصناف الثمانيّة المذكورة فنقول:

ممّا روي في الفقراء، ما رواه في الكافي في الصّحيح عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السّلام أنّه سأله عن الفقير والمسكين فقال عليه السلام: الفقير الّذي لا يسأل و المسكين هو الذي يسأل (هو الّذي أجهد منه الّذي يسأل) انتهىٰ

و حسنة أبي بصير قال قلت لأبي عبد اللّه قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَ ٱلْمَسَاكِينِ قال عليه السلام: الفقير الّذي لا يسأل النّاس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم انتهى

و يدلّ عليه أيضاً ما رواه علّي بن إبراهيم في تفسيره من أنّ العالم بيّن الأصناف فقال أنّ الفقراء هم الّذين لا يسألون النّاس إلحافاً و المساكين هم أهل الزّمانة من العميان و العرجان و المجذومين و جميع أصناف الزّمناء الرّجال و النّساء و الصبيان انتهىٰ.



و روى في الكافي في الحسن عن إبن مسكان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ اللّه عزّ وجلّ جعل للفقراء في أموال الأغنياء ما يكفيهم انتهى.

و مثلها صحيحة ابن سنان عن مبارك العقرقوفي قال أبو الحسن عليه السلام أنّ اللّه عزّ وجلّ و صنع الزّكاة قوتاً للفقراء انتهىٰ.

و في رواية أخرىٰ عن أبي عبد اللّه عليه السلام: أنّ صدقة الخلف و الظّلف تدفع الى المتجملين من المسلمين و أمّا صدقة الذّهب و الفضّة و ما كيل بالقفيز ممّا أخرجت الأرض فللفقراء المدقعين انتهىٰ.

و أنت ترى أنّ هذه الرّوايات و نحوها تدلّ على دخول المساكين في الفقراء قطعاً فلولا الروايات الدالّة علىٰ الفرق لكان القول بالترادف غير بعيد.

و ممّا روي في المؤلّفة قلوبهم ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: المؤلّفة قلوبهم أبو سفيان بن حرب بن أميّة و سهيل بن عمرو أو مثالهما.

و منها، ما رواه في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه عزّ وجلّ المؤلّفة قلوبهم قال عليه السلام هم قومٌ وحدّوا اللّه عزّ وجلّ و خلصوا عبادة من يعبد من دون اللّه و شهد أن لا إلٰه إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه و هم في ذلك شكّاك في بعض ما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فأمر اللّه نبيّه أن يتّألفهم المال و العطايا لكي يحسن إسلامهم و يثبتوا على دينهم الّذي دخلوا فيه و أقرّوا به انتهىٰ.

و هذه الأخبار دالّة على صدق التّأليف على من هذا حاله في الإسلام و يظهر منها أنّ المؤلّفة قلوبهم لا يختّص بالكفّار بل تشمل المسلمين الشّاكين أيضاً.

و ممّا روي في الرّقاب ما رواه الشّيخ في الصّحيح عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الرّجل تجتمع عنده الزّكاة يشتري بها نسمة يعتقها فقال اذا يظلم قوماً أخرين حقوقهم ثمّ قال إلاّ أن يكون عبداً مسلماً في ضرورةٍ يشتريه و يعتقه انتهىٰ.

و منها ما رواه زرارة (عبيد بن زرارة) قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام: عن رجل أخرج زكاة ماله ألف درهم فلم يجد لها موضعاً يدفع ذلك اليه فنظر الى مملوكٍ يباع فإشتراه بتلك الألف الدّراهم الّتي أخرجت من زكاته فأعتقه هل يجوز ذلك قال نعم انتهىٰ.

و ممّا روي في الغارمين الّذين عليهم الدّيون الّتي أنفقوها في طاعة اللّه من غير إسرافٍ و أمّا الذّين أنفقوها في معصية اللّه و أنفقوها في طريق الإسراف فلا يتعلق بهم شئ فقد روي الشّيخ في الصّحيح عن عبد الرّحمٰن بن الحجّاج عن أبي الحسن في رجل عارفٍ فاضلٍ توّفى و ترك عليه ديناً قد إبتلى به لم يكن مسرفاً ولا مفسداً ولا معروفاً بالمسألة هل يقضىٰ عنه من الزّكاة الألف والألفان قال عليه السلام: نعم انتهىٰ.

و ممّا روي في سبيل اللّه، فقد روى علّي بن إبراهيم في التّفسير عن العالم عليه السلام أنّه قال: - في سبيل اللّه قوم يخرجون في الجهاد و ليس عندهم ما ينفقونه أو قومٌ من المسلمين ليس عندهم ما يحجُّون به أو في جميع سبيل الخير فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصَّدقات حتّى يقوّوا على الحجّ و الجهاد انتهىٰ.

و منها: مارواه ابن بابويه في الصّحيح عن علّي بن يقطين أنّه قال لأبي الحسن الرّضا يكون عندي المال من الزّكاة فأحجّ به موالّي و أقاربي قال عليه السلام نعم انتهىٰ.

و منها: ما رواه في معاني الأخبار بأسناده الى الحسين بن عمر قال قلت لأبي عبد اللّه أنّ رجلاً أوصى إلّي في السّبيل قال عليه السلام: أصرفه في الحجّ فأنّي لا أعرف سبيلاً من سبله أفضل من الحجّ انتهىٰ.

و في خبرٍ أخر عن العسكري قال عليه السلام: سبيل اللّه شيعتنا انتهىٰ.

و أمّا إبن السّبيل و هو المنقطع به في غير بلده و إن كان غنيّاً في بلده.

روى علّي بن إبراهيم عن العالم عليه السلام أنّهم أبناء الطّريق الّذين يكونون في الأسفار في طاعة اللّه فيقطع عليهم و يذهب مالهم فعلى الإمام أن يردّهم الى أوطانهم من مال الصّدقات انتهى.

أقول الأخبار الّتي نقلناها في المقام نقلناها عن كتاب أيات الأحكام للجزائري قدس سره.

و إعلم أنّ الأصحاب ذكروا للمستّحقين شروطاً لابدّ لنا من التّعرض لها تكميلاً للبحث.

أحدها: الإيمان أي الإسلام مع الولاية للأئمّة الأثني عشر عليهم السّلام و هو مجمع عليه بين الأصحاب كما حكاه في المنتهى حتّى أنّ المخالف لو إستبصر يجب عليه إعادتها اذا كان أعطاها غير أهل الولاية و أن لم يجب عليه إعادة غيرها من العبادات و يدلّ عليه أخبار كثيرة و مع عدم المستحقّ يجب عليه حفظها و الإيصاء بها عند الموت و يشتري بها نسمة و يعتقها إلاّ في الفطرة فقد روي أنّه يصرفها الى المستضعفين و هم الّذين لا يعاندون الحقّ من أهل الخلاف و بذلک أفتى جماعة من أصحابنا و ذهب الأكثر الى المنع أيضاًالأقوى و هذا الشّرط في غير المؤلّفة و بعض أفراد سبيل اللّه كالمجاهد في الجهاد.

الثّاني: العدالة و بذلك قال كثير من الأصحاب و إكتفى ابن الجنيد بمجانبة الكبائر خاصّة و إقتصر بعضهم على إعتبار الإيمان فقط و هو الأظهر لإطلاق

الآية و الروايات و عدم ما يصلح للتقييد إلاّ في العاملين و أمّا أطفال المؤمنين فيجوز إجماعاً.

الثّالث: أن لا يكون ممن تجب نفقته إجماعاً كالأبويم و أن علوا والأولاد و إن سفلوا و الزّوجة و المملوك.

الرّابع: أن لا يكون هاشميّاً أي من ولد هاشم و هو مجمع عليه و النّصوص به أيضاً مستفيضة و الّذي يطهر من الأخبار أنّ المحرّم عليه الزّكاة المفروضة خاصّة و أمّا زكاة الفطرة فيجوز للهاشمي إعطاءها لهاشمّي أخر و أمّا غير الهاشميّ فلا و بعبارةٍ أخرى زكاة الفطرة من هاشمي الى هاشميٍ أخر لا بأس به.

و أمّا قوله: **فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** فمعناه واضح أي تلك فريضة من اللّه و هو تعالى عليمٌ بأمور عباده حكيمٌ في وضعها مواضعها.

وَ مِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ من جملة المنافقين الّذين وصفهم و ذكرهم في الأيات السّابقة من يؤذي النّبي و الأذى هو ضرر ربما تنّفر منه النّفس في العاجل و أنّهم يقولون هو أي النّبي، أذن، أي أنّه يصغي الى كلّ أحدٍ فيقبل قوله.

قال الرّاغب في المفردات الأذن الجارحة و شبّه به من حيث المحلة أذن القدر و غيرها، و يستعار لمن كثر إستماعه و قوله لما يسمع و قيل أصله من أذن، إذ إستمع و كيف كان أنّهم أرادوا بذلك إيذاء النّبي و تنقيصه.

فأجاب اللّه تعالى عنهم بقوله قل، يا محمّد، أذن خيرٍ لكم، و قيل السَّبب في ذلك أنّ قوماً من المنافقين تكلّموا بما أرادوه و قالوا أن بلغه إعتذرنا اليه فأنّه أذن يسمع ما يقال له.

و قال بعض المفسّرين كان قدام بن خالد و عبيد بن هلال بن سويد يؤذون النّبي فقال بعضهم لا تفعلوا فأنّا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا فقال الجلاس بل نقول بما شئنا فأنّ محمّداً أذنٌ سامعة ثمّ نأتيه فيصّدقنا فنزلت الآية فقوله تعالى، قل أذنٌ خيرٍ لكم، معناه قل يا محمّد لهؤلاء المنافقين أنّي أذن خيرٍ لكم لا أذن شرٍّ.

و في هذا الجواب منه تعالى إشارة الى أنّ مطلق الأذن ليس بمذمومٍ بل هو مذمومٌ اذا كان في طريق الشّر و أمّا اذا كان في طريق الخير فلا و توضيحه إجمالاً هو أنّ الأذن يستعار لمن كثر إستماعه و من المعلوم أنّ كثرة إستماع الخيرات و الأقوال الحقّة لا إشكال فيها عقلاً و شرعاً بل هي تدلّ على حرص صاحبه في طريق الخير و الصّلاح و النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان كذلك و لكنّ المنافقين لمّا أرادوا بقولهم، هو أذنٌ تنقيص النّبي و ذمّه تخيّلوا أنّه أي النّبي يسمع كلّ باطلٍ و كذب و يقبله وليس كذلك.

و أمّا قوله: **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** معناه أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لإيمانه باللّه يعمل بالحقّ فيما يسمع من غيره لا أنّه يعمل بكلّ يسمع حقّاً كان أو باطلاً و ذلك لأنّ المؤمن باللّه حقّاً يكون خائفاً منه والرّسول في رأس المؤمنين باللّه فكيف يعقل أنّه يقبل الباطل.

و قيل معنى الكلام أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يصغي الى الوحي من قبل اللّه و من كان كذلك لا يسمع الباطل، و قوله و يؤمن للمؤمنين، معناه يسمع منهم و يسلم لهم ما يقولون و يصدقهم لكونهم مؤمنين قيل دخلت اللاّم كما دخلت في قوله: ردف لكم، أي ردفكم، واللاّم معجمة و مثله لربّهم يرهبون، و معناه يرهبون ربّهم.

وقال قوم دخلت اللاّم للفرق بين إيمان التّصديق و إيمان الأمان، و قوله: **وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** معناه أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم رحمة للمؤمنين منكم خاصّة و وجه التّخصيص بهم مع أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم رحمة للكفّار أيضاً لقوله تعالى فيه

وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ[١] الشّامل للكفّار أيضاً، من حيث أنّ المؤمنين ينتفعون به دون غيرهم من الكفّار فهو من قبيل قوله تعالى في وصف الكتاب: **ذٰلِكَ ٱلْكِتٰابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**[٢] و لا شكّ أنّ القرآن يهدي الكُلّ ولأجل ذلك قال منكم.

نقل الشّيخ في التّبيان عن إبن إسحاق أنّه قال نزلت هذه الآية في نبتل بن الحارث كان يقول إنّي لأنال من محمّد ما شئت ثمّ عاتبه و أعتذر اليه و احلف له فيقبل فجاء جبرائيل الى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال أنّه يجلس اليك رجل أدلم ثائر شعر الرّأس أسفع الخّدين أحمر العينين كأنّهما قدران من صفر كبده أغلظ من كبد الحمل ينقل حديثك الى المنافقين فأحذره و كان ذلك صفة نبتل بن الحارث من منافقي الأنصار فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من أختار أن ينظر الى الشّيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث إنتهى.

أقول لو تّم ما ذكروه في مورد نزول الآية فهو يدلّ على أنّ موردها خاص كما هو شأن كثيرٍ من الأيات النازلة في الكتاب و هو لا ينافي عموم معنى الآية و لا سيّما إذا قلنا أنّ **الواو** في قوله: **ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ** رسول اللّه لهم عذابٌ أليمٌ، للإستئناف كما هو الأقوى في النّظر وكيف كان فقد أفاد الكلام أنّ المؤذي لرسول اللّه حكمه كذا، سواء كان الإيذاء جسماً و روحاً فمن ضرب رسول اللّه فقد آذاه و من شتمه و أهانه فهو أيضاً آذاه بل نقول من خالفه في أفعاله و أقواله فهو أيضاً ممّن آذاه و محصّل الكلام أنّ الموجب للعذاب هو تحّقق الإيذاء و وجوده في الخارج كيف إتّفق و عليه فالمسلمون الّذين خالفوا قوله و نكثوا عهده بعد وفاته لهم عذابٌ أليم بل من آذى أولاده بأيّ نحو من الإيذاء فهو داخل في الحكم و هذا الحكم جارٍ في الأمّة الى يوم القيامة أعاذنا اللّه منه.

يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُٓ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كٰانُوا مُؤْمِنِينَ

١- الانبيا= ١٠٧ ٢- البقرة = ٢

الظّاهر الخطاب في قوله: **لَكُمْ** و قوله: **لِيُرْضُوكُمْ** لجميع المسلمين و المعنىٰ أنّهم يحلفون أي يقسمون باللّه لكم أيّها المسلمون ،ليرضوكم أي يقسمون لكم أنّهم على دينكم و طريقتكم لتحمدوهم عليه، ولم يعلموا أنّ اللّه و رسوله أحقّ أن يرضوه أن كانوا مؤمنين، أي مصدقين باللّه و مقرين بنبّوة نبّيه و المعنى أنّ المؤمن ينبغي أن يطلب في إيمانه رضا اللّه و رسوله لا رضا الناس لأنّ الإيمان باللّه و رسوله غير الإيمان بالناس فهؤلاء المنافقين حيث أنّهم كانوا يطلبون رضا الناس و إغفالهم و لم يطلبوا رضا اللّه و رسوله، لم يكونوا من المؤمنين حقّاً إذ المؤمن لا يكون كذلك بل هو شأن المنافق بعينه حيث يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

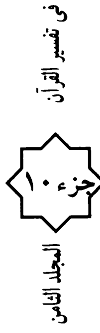
و قال، بعض المفسّرين أنّ الضّمير في قوله: **يَحْلِفُونَ** عائد على الّذين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنون إعتذروا و حلفوا و أعتلّوا.

قاله إبن السّائب و أختاره البهيقي و كانوا ثلاثة و ثمانين حلف منهم ثمانون فقبل الرّسول أعذارهم و أعترف منهم بالحقّ ثلاثة فأطلع اللّه رسوله علىٰ كذبهم و نفاقهم و هلكوا جميعاً بآفات و نجى الّذين صدقوا.

و قيل عائد على عبد اللّه بن أبّي و من معه حلفوا أن لا يتخلفوا عن رسول اللّه و ليكونوا معه على عدّوه إنتهى.

أقول الحقّ أنّ المراد جميع المنافقين الّذين كانوا يحلفون للرّسول و المؤمنين أنّهم معهم في الدّين و فى كلّ أمرٍ و حربٍ و كانوا يبطنون النّفاق و يتربصون بالمؤمنين الدوائر و هذا هو المشهور بين المفسّرين، و أفرد الضّمير في قوله أن يرضوه.

لأنّهما أي اللّه و رسوله، في حكم مرضّي واحدٍ إذ رضا اللّه هو رضا الرّسول.



و قيل في الكلام حذف و التّقدير و اللّه أحقّ أن يرضوه و رسوله أحقّ أن يرضوه فهما جملتان حذفت الأولىٰ لدلالة الثانيّة عليها ومنه قول الشّاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راضٍ والرّأي مختلف

أي نحن بما عندنا راضٍ و أنت بما عندك راض.

و قال المبّرد أنّ في الكلام تقديماً و تأخيراً و تقديره و اللّه أحقّ أن يرضوه و رسوله، و قدره الزّمخشري و اللّه أحقّ أن يرضوه و رسوله كذلك، و المعنى واضح لا خفاء فيه.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ

المحّادة مجاوزة الحّد بالمشّاقة و مثله المباعدة، و الإستفهام في قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا** للإنكار أي علموا قطعاً و المعنى ألم يعلموا هؤلاء المنافقين و قيل أنّ الكلام خرج مخرج التهديد و التقريع و التّوبيخ لهؤلاء المنافقين و المآل واحد لأنّ المعنى يرجع الى أنّهم علموا أنّ من يحادد اللّه و رسوله أي يتجاوز حدود اللّه الّتي أمر اللّه المكلّفين بها من الأوامر و النواهي فأنّ له، أي للمتجاوز، نار جهنّم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم، الخزي بكسر الخاء الهوان بما يستحى منه.

قال أبو مسلم المحّادة مأخوذة من الحديد حديد السّلاح.

و قال إبن عبّاس المخالفة، و قيل المحاربة، و قيل المعاندة و قيل المعاداة وقيل مجاوزة الحدّ في المخالفة و أنت ترى أنّ هذه الأقوال متقاربة.

و أعلم أنّ الجمهور على فتح الهمزة في قوله: **فَأَنَّ** و ذهب الزّجاج على جواز الكسر فيها لكنّه خلاف المشهور لم يذهب اليه غيره و لذلك تفصيل لا يسعه المقام.

■

يَحْذَرُ ٱلْمُنٰافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمٰا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللّٰهَ مُخْرِجٌ مٰا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمٰا كُنّٰا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّٰهِ وَ اٰيٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لاٰ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ ايمٰانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طٰٓائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طٰٓائِفَةً بِأَنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنٰافِقِينَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتِ وَ ٱلْكُفّٰارَ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كٰانُوٓا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاٰقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خٰاضُوٓا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخٰاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرٰاهِيمَ وَ أَصْحٰابِ مَدْيَنَ وَ ٱلْمُؤْتَفِكٰاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

◀ اللّغة

تُنَبِّئُهُمْ الإنباء الإخبار أي تخبرهم.

نَخُوضُ الخَوض دخول القدم فيما كان مانعاً من الماء و الطين ثمّ كثر إستعماله في مطلق الدخول حتى صار في كلّ دخولٍ منه أذى و تلويث.

نَلْعَبُ اللَّعب فعل ما فيه سقوط المنزلة لتحصيل اللّذة من غير مراعاة الحكمة كفعل الصّبى.

يَقْبِضُونَ القبض ضدّ البسط.

فَاسْتَمْتَعُوا الإستمتاع طلب المتعة و هى فعل ما فيه اللّذة من المآكل و المشارب و المناكح.

بِخَلَاقِهِمْ الخلاق، النَّصيب سواء كان عاجلاً أو آجلاً.

ٱلْمُؤْتَفِكَاتِ قيل هي ثلاث قريّات لقوم لوط. قال الزّجاج إئتفكت بأهلها إنقلبت.

مَدْيَنَ إبن إبراهيم إسم له.

◀ الإعراب

أَنْ تُنَزَّلَ في موضع نصب بيحذر على أنّها متعديّة بنفسها و يجوز أن يكون بحرف الجرّ أي من أن تنّزل فيكون موضعه نصباً أو جرّاً على إختلافٍ فيه أَبِاللَّهِ الباء متعلقة بيستهزؤن و قد قدّم معمول خبر كان عليها و هذا ما يدلّ على جواز التقديم فيه بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مبتدأ و خبر أي بعضهم من جنس بعضٍ في النّفاق يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ مستأنف مفسّر لما قبلها كَالَّذِينَ الكاف في موضع نصب لمصدرٍ محذوف كَمَا ٱسْتَمْتَعَ أي إستمتاعاً كإستمتاعهم كَالَّذِي خَاضُوا الكاف في موضع نصب أيضاً وفي الَّذِى وجهان.

أحدهما: أنّه جنس و التّقدير خوضاً كخوض الذين خاضوا.

الثّانى: أن، الّذي، هنا مصدريّة أي كخوضهم و هو نادر.
قَوْمِ نُوحٍ بدل من الذين.

◀ التّفسير

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ

كان المنافقون يعيبون الرّسول و يقولون عسى اللّه أن لا يفشي سرّنا فنزلت قاله مجاهد.

و قال السّدي قال بعضهم ودتْ أن جلد مائة و لا ينزل فينا شئ يفضحنا فنزلت و قال بعضهم وقف جماعة منهم للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في ليلةٍ مظلمةٍ عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به فأخبره جبرئيل عليه السلام فنزلت.

و قيل قالوا في غزوة تبوك أيرجو هذا الرّجل أن يفتح له قصور الشّام و حصونها هيهات فأنزل اللّه: **قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟**.

و الظّاهر أنّ قول: **يَحْذَرُ** خبر و يدلّ عليه قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ**.

و به قال الحسن و مجاهد و إختاره الجبائي فقالوا أنّ معناه الخبر عنهم بأنّهم كانوا يحذرون أن تنزّل فيهم آية يفتضحون بها لأنّهم كانوا شاكيّن.

و قال الزّجاج أنّه تهديد و معناه ليحذروا و حسن ذلك لأنّ موضوع الكلام على التّهديد و الحذر إعداد ما يتقي الضّرر و مثله الخوف و الفزع، وكيف فقد أخبر اللّه تعالى بأنّ المنافقين كانوا على حذرٍ و خوفٍ من أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم و تخبرهم عمّا في قلوبهم من النّفاق و وجه الحذر معلوم و هو أنّ نزول السُّورة يوجب الإفتضاح و كشف الضّمائر و هو خلاف مقصودهم.

و قال صاحب الكشّاف الضّمير في عليهم، و تنبّئهم، للمؤمنين و الضمير في قلوبهم للمنافقين و المعنى أنّ نزول السُّورة يوجب إطّلاع المؤمنين عمّا في قلوب المنافقين **قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** الظّاهر أنّ

الأمر بالإستهزاء أمر تهديدٍ و وعيدٍ كقوله: **اعْمَلُوا مٰا شِئْتُم** و معنى مخرج ما تحذرون، أنّ اللّه تعالى مبرز و مظهرٌ الى حيّز الوجود ما تحذرونه بسبب إنزال السّورة.

قال بعضهم أنّهم كانوا سبعين رجلاً أنزل اللّه أسماءهم و أسماء آباءهم في القرآن ثمّ رفع ذلك و نسخ رحمةً و رأفةً منه على خلقه لأنّ أبناءهم كانوا مسلمين.

أقول ما ذكره القائل لا دليل عليه بل الدّليل ثابت على خلافه إذ لم يرفع شئ من القرآن بعد نزوله.

و الحقّ أنّ المعنى أنّ اللّه تعالى وعد رسوله أن يبيّن له باطن المنافقين و سوء حالهم و قد فعل فقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مٰا تَحْذَرُونَ** ليس معناه ما زعم بل المعنى أنّ اللّه مخرجه لرسوله و لا شكّ أنّ الرّسول كان يعرفهم بأسماءهم و أسماء آباءهم و ما أضمروا في قلوبهم و لكنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن مأموراً بإظهاره كما وردت الآثار به.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في خطبة الغدير عند قوله تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**(١) ما هذا لفظه.

و سألت جبرائيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك اليكم أيّها النّاس لعلمي بقلّة المتقين و كثرة المنافقين و إدغال الآثمين و حيل المستهزئين بالإسلام الّذين وصفهم اللّه في كتابه بأنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و يحسبونه هيّناً و هو عند اللّه عظيم وكثرة إذا هم لي غير مرّةٍ حتى سمّوني أذناً و زعموا أنّي كذلك لكثرة ملازمة علّي إيّاي (ملازمته) و إقبالي عليه حتّى أنزل اللّه عزّ وجلّ في ذلك و منهم الّذين يؤذون النّبي و يقولون هو أذن، قل أذن، علّي الّذين يزعمون أنّه، أذن، خير لكم الآية ولو شئت أن أسمّي بأسماءهم

١- المائدة= ٦٧

لسمّيت و أن أومي اليهم بأعيانهم لأومأت و أن أدلّ عليهم لدلّلت و لكنّي و اللّه في أمورهم قد تكرّمت وكلّ ذلك لا يرضي اللّه منّي إلاّ أن أبلّغ ما أنزل إلّي ثمّ تلاﷺ : **يآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ** و الغرض من نقل هذه الكلمات هو أنّ الرّسولﷺ كان عالماً بأسماء المنافقين و أوصافهم و مشخصّاتهم من قبل اللّه تعالى فقوله: إنّ مخرج ما تحذرون، هو أنّ اللّه يصرّفكم لرسوله و يبيّن له باطن حالكم و نفاقكم هذا ما وصل اليه فهمي القاصر في تفسير الأية.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّٰهِ وَ اٰياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ

أي و لأنّ سألتهم عمّا قالوا في حقّك و حقّ أصحابك من قول بعضهم أنظروا الى هذا الرّجل يريد أن يفتتح قصور الشّام و قول بعضهم كأنّكم غداً في الجبال أسرى لبني الأصفر و قول بعضهم ما رأيت كهؤلاء لا أرغب بطوناً و لا أكثر كذباً و لا أجبن عند اللّقاء فإطلع اللّه نبيّه على ذلك فعنّفهم فقالوا يا نبّي اللّه ما كنّا في شئٍ من أمرك و لا أمر أصحابك أنّما كنّا في شئٍ ممّا يخوض فيه الرّكب كنّا في غير حدٍ قل أباللّه، تقرير على إستهزاءكم و ضمنه الوعيد لم نعبيا بإعتذارهم لأنّهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنّهم معترفون بإستهزاءهم و بأنّه موجود منهم حتّى و بخّوا بأخطاءهم موضع الإستهزاء حيث جعل المستهزء به على حرف التّقرير و ذلك أنّما يستقيم بعد وقوع الإستهزاء و ثبوته قاله الزّمخشري.



أقول ما ذكره لا بأس به فأنّ المنافق يقول و ينكر ما قال كما هو شأنه و الآية لا تدلّ على أكثر من ذلك.

و أمّا قولهم أنظروا الى هذا الرّجل يريد أن يفتتح قصور الشّام الى آخر ما قالوا فلا دليل عليه.

و أمّا قوله: **تَسْتَهْزِءُونَ** فالهَزء في الأصل إيهام أمرٍ على خلاف ما هو به إستصغاراً لصاحبه.

قال أبو علّي ذكر الإستهزاء هاهنا مجاز لأنّه جعل الهزء بالمؤمنين و بآيات اللّه هزء باللّه.

و أعلم أنّ هؤلاء المنافقين لمّا وقفوا على خطاءهم و قبح أفعالهم و أقوالهم شرعوا في الإعتذار عمّا قالوا و فعلوا فرَّد اللّه عليهم و قال:

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ

نهاهم اللّه عن الإعتذار لكونهم كاذبين فيه فهو لا ينفع لهم ثمّ قال، قد كفرتم بعد إيمانكم، أي أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان و ذلك لأنّ المنافقين كانوا يسّرون الكفر و يظهرون الإيمان كما هو شأن المنافق ثمّ بعد ذلك أظهروا الكفر بإستهزاءهم و إنكارهم و هذا هو المراد بالكفر بعد الإيمان.

و أمّا قوله: **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ** فالوجه فيه هو إنّ المنافقين كانوا صنفين:

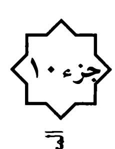
صنفٌ منهم كانوا مأمورين بالجهاد معهم كما قال تعالىٰ: **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ** [1] و هم رؤوساءهم المعلنون بالأراجيف فعذّبوا بإخراجهم من المسجد و إنكشاف معظم أحوالهم.

و صنفٌ ضعفة مظهرون الإيمان و إن أبطنوا الكفر لكنّهم لم يؤذوا الرّسول فعفي عنهم.

و هذا العذاب و العفو في الدّنيا ثمّ علل ذلك بأنّهم كانوا مجرمين.

و قيل المعفوّ عنهما من علم اللّه أنّهم سيخلصون من النّفاق و يخلصون الإيمان و أمّا المعذّبون فهم من مات على نفاقه.

و قيل المعفوّ عنه رجل واحد إسمه مخشي بن خمير كان مع الّذين قالوا أنّما كنّا نخوض و نلعب.



۱- التوبة = ۷۳

و قيل كان منافقاً ثمّ تاب توبةً صحيحة و قيل غير ذلك.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير الآية و الحقّ أنّ الّذين عفى اللّه عنهم من المنافقين، إشارة الى المعتذرين واقعاً و ذلك لأنّ الإعتذار عبارة أخرى عن التّوبة فمن إعتذر حقّاً فقد تاب و اللّه تعالى يقبل التوبة عن عباده.

و أمّا الّذين كان إعتذارهم ظاهراً لا واقعاً فلا عفو لهم لكونهم من المستهزئين و لذلك عبَّر عنهم بالمجرمين.

و أمّا تخصيص العذاب بالدنيّا فلا وجه له بعد ظهور الآية في العموم بل العذاب منصرف الى الأخرة.

و لذلك قال بعض المفسّرين معناه أنّما يعذّب الطّائفة التّي يعذّبها لكونها مجرمة مذنبة مرتكبة لما يستحق به العقاب في الأخرة أو فيهما، و الإجرام الإنقطاع عن الحقّ الى الباطل وكيف كان ففي الآية دلالة على أنّ اللّه تعالى يعفوا عن المعتذر التّائب اذا كان الإعتذار كاشفاً عن النّدامة و هو كذلك.

اَلْمُنافِقُونَ وَ اَلْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اَللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ اَلْمُنافِقِينَ هُمُ اَلْفاسِقُونَ

حكم اللّه تعالى على المنافقين ذكورهم و أناثهم أنّهم على وتيرةٍ واحدة في النّفاق و الشّقاق فأنّ قوله تعالىٰ: **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** معناه أنّهم من سنخٍ واحد فى الحكم و المنزلة و النّفاق و إن شئت قلت أنّهم على دينٍ واحدٍ فليس المعنى على التّبعيض حقيقةً لأنّ ذلك معلوم.



ثمّ وصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون في الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، فقال فيهم أنّهم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و ذلك لأنّ المنافقين كانوا يأمرون بالكفر و عبادة غير اللّه من الأوثان و الأصنام والمعاصي و أيّ منكرٍ أنكر منه، و ينهون عن الإيمان و متابعة الرّسول و من كان كذلك فهو على خلاف المؤمن فكيف يكون مؤمناً.

و أمّا قوله: **يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ** أي يمسكون أموالهم عن إنفاقها في طاعة اللّه فأنّ قبض اليد كناية عن البخل و الإمساك كما أنّ بسطها كناية عن الجود و الإنفاق.

و قيل قبض اليد في المقام كنايه عن القعود في الجهاد في سبيل اللّه و عليه فالمعنىٰ يمسكون أيديهم عن الجهاد في سبيل اللّه.

أقول: الألى أن يقول معنى الكلام أنّهم يمسكون أيديهم عن الخيرات ليشمل الكلّ ثمّ قال تعالىٰ: **نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** قيل معناه، تركوا أمر اللّه يعني صار بمنزلة المنسي.

و قال قتادة نسوا من الخير و لم ينسوا من الشّر.

و قال الزّمخشري أغفلوا ذكره فنسيهم أي فتركهم من رحمتة و فضله و يعبّر بالنسيان عن التّرك مبالغة في أنّه لا يخطر ذلك ببالٍ، و قوله: **هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ** أي هم الكاملون في الفسق الّذي هو التّمرد في الكفر و الإنسلاخ من كلّ خيرٍ و كفرٍ المسلم زاجراً أن يلّم بما يكسب هذا الإسم الفاحش الذّي وصف اللّه به المنافقين.

أقول النّسيان في الاصل ترك الإنسان ضبط ما إستودع، أمّا لضعف قلبه، و أمّا عن قصدٍ حتّى ينحذف عن القلب ذكره قاله الرّاغب في المفردات فالنسيان لا يتحقق إلاّ لمن كان له قلب و هو في الإنسان ممّا لا كلام فيه.

و أمّا في حقّ اللّه تعالى فهو مجاز فمعناه فيه تعالى هو إعراضه عن العبد و إيكاله الى نفسه حقيقة و قوله فنسيهم مجاز و أمّا قوله: **إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ** فهو بمنزلة التعليل لقوله: **فَنَسِيَهُمْ** فكأنّه قيل لم نسيهم اللّه فقال لفسقهم و الفاسق لا يصلح للرّحمة و العناية إلاّ أن يتوب عنه.

قال بعض المحققين اذا نسب النسيان الى اللّه فهو تركه إيّاهم إستهانةً بهم و مجازاةً لما تركوه.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَ ٱلْمُنَافِقَاتِ وَ ٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّه وعد المنافقين و المنافقات و الكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم، أي النّار حسبهم و لعنهم اللّه أي أبعدهم عن مقام الرّحمة و العناية و لهم عذابٌ مقيمٌ أي دائمٌ لا يزول و هو عبارة أخرى عن الخلود.

قيل المراد بالكفّار هنا المعلنون بالكفر ففي الآية مبالغة في عظم عذابهم إذ عذابهم شئ لا يزاد عليه ولعنهم أهانهم مع التّعذيب و جعلهم مذمومين ملحقين بالشّياطين الملاعين كما عظم أهل الجنّة و ألحقهم بالملائكة المقرّبين.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالاً وَ أَوْلاداً

هذا إلتفات من ضمير الغيبة الى ضمير الخطاب قيل التشبيه من جهة الفعل أي فعلتم كأفعال الّذين من قبلكم و عليه فتكون **الكاف** في قوله: **كَالَّذِينَ** في موضع نصب والتقدير أحذروا أن يحلّ بكم من العذاب و العقوبة كالّذين من قبلكم.

و قيل الكاف في موضع رفع و التّقدير أنتم كالّذين من قبلكم و التشبيه وقع في الإستمتاع و الخوض و قوله كانوا أشدّ تفسير لشبههم بهم وتمثيل لفعلهم بفعلهم و فى الكلام إيماء و إشارة الى أنّهم قد إغترّوا بأموالهم و أولادهم و قوّتهم و شوكتهم و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى قاهر فوق عباده و هو على كلّ شئٍ قدير و لذلك قال لهم على سبيل القهر و الغلبة.

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا

الإستمتاع هو طلب المتعة و هى فعل ما فيه اللّذة من المأكل و المشارب و المناكح و معناه أنّهم تمتَّعوا بنصيبهم من الخير و الباطل و باعوا بذلك الخير الاجل فهلكوا بشّر إستبدالٍ، و الخلاق النَّصيب و الحَظّ أي ما قدر لهم و الخوض بفتح الخاء الدّخول في الماء.

قال الرّاغب في المفردات الخوض هو الشّروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور و معنى الآية أنّهم أي الأمم السّالفة إستمتعوا بخلاقهم أي تمتَّعوا بنصيبهم في الدنيّا فإستمتعتم أيّها المنافقون بخلاقكم في الدنيّا كهؤلاء الماضيين من قبلكم و خضتم في الباطل و الكذب على اللّه و رسوله كالّذي خاضوا من قبلكم.

أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْأٓخِرَةِ وَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

فكذلك أنتم إذ حكم الأمثال واحد فاذا كانوا أشدّ منكم قوّة و أعظم منكم مالاً و عشيرةً و مع ذلك هلكوا لمّا عصوا فأنتم أحرى بالإهلاك لمعصيتكم و ضعفكم فالمعنى عجّلوا حظّهم و تركوا باب الأخرة فإتبعتموهم أنتم.

قال بعض المفسّرين لمّا بيّن اللّه تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك الكفّار المتّقدمين في طلب الدنيّا و الإعراض عن طلب الأخرة بيَّن حصول المشابهة بين الفريقين في تكذيب الأنبياء و فى المكر و الخديعة و الغدر بهم فقال و خضتم كالّذي خاضوا، فالّذي،صفة مصدر محذوف دلّ عليه الفعل ثمّ قال تعالىٰ: **أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ** أي بطلت حسناتهم في الدنيّا بسبب الموت و الفقر و الإنتقال من العزّ الى الذّل من القوّة الى الضّعف و فى الأخرة بسبب أنّهم لا يثابون بل يعاقبون أشدَّ العقاب و أولئك هم الخاسرون، حيث أتعبوا أنفسهم في الرَّد على الأنبياء و الرُّسل و تكذيبهم فما وجدوا من تكذيبهم إلاّ فوات الخيرات في الدّنيا و الأخرة انتهىٰ.

وإعلم أنّ الخوض و أن كان في الأصل هو الشّروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور كما نقلناه عن المفردات إلاّ أنّه أكثر ما ورد في القرأن ورد فيما يذّم الشّروع فيه.

قال اللّه تعالىٰ: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ اٰياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما كُنّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا**.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ ٱلْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الإستفهام إنكارّي و المعنى قد أتاهم نبأ الّذين من قبلهم و المقصود أنّ اللّه تعالى لمّا شبَّه المنافقين بالكفّار المتقدمين في الرّغبة في الدنيّا و الرّكون اليها و تكذيبهم الانبياء و كان لفظ، الّذين، فيه إبهام نصَّ على طوائف بأعيانها ستّة و ذلك لأنّهم كان عندهم شيء من أنباءهم وكانت بلادهم قريبة من بلاد العرب كانوا أكثر الأمم عدداً و أنبياءهم أعظم الأنبياء فمنهم نوح النّبي و هو أوّل الرُّسل، و إبراهيم الأب الأقرب للعرب و ما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشّدة و كثرة المال و الولد فقوم نوح أهلكوا بالغرق و قوم عاد بالرّيح و قوم ثمود بالصيحة و قوم إبراهيم لسلب النِّعمة منهم حتّي سلّطت البعوضة على نمرود و كان ملكهم و أصحاب مدين بعذاب يوم الظُّلة، و المؤتفكات بجعل أعالي أرضها أسافل و إمطار الحجارة عليهم و السَّبب في الكلّ هو عصيانهم و تمَّردهم و تكذيبهم الأنبياء.

١- الانعام = ٩١ ٢- الانعام = ٦٨

و حيث كان المنافقون أيضاً موصوفين بهذه الصّفة و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد فلا جرم كان ينبغي لهم ترك التّكذيب والعصيان ولأجل ذلك هدَّدهم اللّه و أخافهم ممّا وقع على من قبلهم من العصاة.

و قال بعض المفسّرين الإستفهام في قوله: **أَلَمْ يَأْتِهِمْ** للتّقرير و التّحذير لأنّ الإحتجاج بما يلزمهم الإقرار به فقوله تعالىٰ: **أَلَمْ يَأْتِهِمْ**الخ أنّما هو على وجه الإحتجاج عليهم ليتَّعظوا لأنّ الأمم الماضية اذا كان اللّه أنّما أهلكها و دمَّرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كلّ أمّةٍ يساوونهم في هذه الأحوال و لازم ذلك ألاّ يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك.

و قد نقل عن الرّماني أنّه قال الحكمة تقتضي إستحقاق العقاب في صورة التّساوي فلا يجوز العفو عن بضعضٍ دون بعضٍ مع تساويهم في الأحوال و أنّما يجوز العدول من قومٍ الى قومٍ في الواحد منّا للحاجة و قد أجيب عنه بأنّ هذا يتّم على قول من يقول بالأصلح.

و أمّا من لا يقول به و يقول بالتّفضل فيقول هو تعالى متَّفضل بذلك فله أن يتَّفضل على من يشاء و لا يلزم أن يفعل ذلك بكلّ مكلّفٍ انتهىٰ.

أقول لا منافاة بين التّهديد و التّخويف و عدم فعليّة العذاب و ذلك إمّا.

أوّلاً: فلأنّ اللّه تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد:

قال اللّه تعالىٰ: **يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**(٢) و أمثال ذلك من الأيات.

ثانياً: نقول أنّ اللّه تعالى رفع عن هذه الأمّة العذاب في الدنيّا لأجل الرّسول كما.

١- أل عمران =١٢٩ ٢- البقرة =٢٨٤

قال اللّه تعالیٰ: **وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ**[١].

وأمّا في الأخرة فالعذاب لهم مسلّم أن لم يتوبوا في الدنيّا قبل الموت.

قال اللّه تعالیٰ: **وَ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ اَلْعَذٰابِ**[٢].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ**[٣].

و محصّل الكلام هو أنّ المنافقين في صدر الإسلام و أن كانوا في إيذاء الرّسول و تكذيبه كم كان قبلهم أو أشدَّ منهم إلاّ أنّ اللّه تعالى أخرَّ عنهم العذاب فى الدنيّا لما ذكرناه أو لمصلحةٍ رأها لأنّه لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

و إعلم أنّهم اؤختلفوا في المؤتفكات، فقال الحسن و قتادة هي ثلاث قريّات لقوم لوط جمعها بالألف و التّاء و قال تعالى في موضع آخر **وَ اَلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوىٰ**[٤] فجاء به على طريق الجنس.

و قال الزّجاج، معناه، إئتفكت بأهلها إنقلبت و به قال الواحدي فأنّه قال و المؤتفكات صفة للقرى الّتي أئتفكت بأهلها فجعل أعلاهاً أسفلها و المؤتفكات مدائن قوم لوط.

و قال بعضهم هي قريات قوم لوط و هود و صالح و أنتفاكهن إنقلاب أحوالّهن عن الخير الى الشّر، و قيل هي أهل القرى الأربعة و قيل التسعة الّتي بعث اليهم لوط و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة نوح و هود و صالح و غيرهم من الأنبياء في مواضعها إنشاء اللّه تعالیٰ.

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

١- الأنفال =٣٣
٢- البقرة =٨٥
٣- البقرة =١٠
٤- النّجم =٥٣

إشارة الىٰ أنّ العقاب من اللّه تعالىٰ إنّما يصّح بعد تماميّة الحجّة و أمّا قبلها فلا و قد تمّت الحجّة ظاهراً و باطناً.

أمّا ظاهراً فلأنّه أرسل الرسل اليهم و أمّا باطناً فلأنّه تعالى أعطاهم العقل و هو الحجّة باطناً و بهما قد تمّت الحجّة على النّاس فلا عذر لهم في عصيانهم و خلافهم عند اللّه عقلاً و شرعاً و عليه فالعقاب وقع في محله لأنّه بعد البيان و في قوله: **فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** ألخ إشارة الى أنّ العقاب الواقع بهم بعد الحجّة و البرهان هو عين العدل و مع ذلك فالعبد هو الباعث عليه لأنّه أوجب السَّبب الباعث له بطغيانه و عصيانه و فى قوله: **وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** إشارة الى أنّهم لم يظلموا على اللّه بل ظلموا على أنفسهم لأنّه تعالى لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه لكونه غنيّاً بالذّات عن طاعتهم آمناً من معصيتهم فمن عصاه ظلم على نفسه و قد أشار اللّه تعالى الى هذا المعنى في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَ لَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**(٦).

و الأيات بهذه المضامين كثيرة و أصرح من الكُّل:

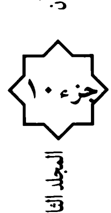


١- البقرة =٥٧ ٢- الرّوم =٩
٣- العنكبوت =٤٠ ٤- آل عمران =١١٧
٥- الأعراف =١٦٠ ٦- الأعراف =١٦٢

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَ لٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[۱].

و الوجه فيه واضح و هو أنّه تعالى عادل و قد ثبت عقلاً و شرعاً أنّ الظّلم من القبائح و القبح لا يليق بساحة قدسه لأنّه نقصٌ و عيبٌ و هو منّزه عنه كما ثبت في محله.

■



۱- يُونس =۴۴

وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْـمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ يُطِيعُونَ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللّٰهُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿۷۱﴾ وَعَدَ ٱللّٰـهُ ٱلْـمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ مَسٰاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّٰاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ ٱللّٰهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿۷۲﴾ يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جٰاهِدِ ٱلْكُفّٰارَ وَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿۷۳﴾ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا وَ لَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا وَ مٰا نَقَمُوٓا إِلّآ أَنْ أَغْنٰيهُمُ ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللّٰهُ عَذٰابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ مٰا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ ﴿۷۴﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ عٰاهَدَ ٱللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰـينٰا مِـنْ فَـضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصّٰالِحِينَ ﴿۷۵﴾ فَلَمّآ اٰتٰيهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِـهِ وَ تَـوَلَّوْا وَ هُـمْ مُعْرِضُونَ ﴿۷۶﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفٰاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلٰى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمآ أَخْلَفُوا ٱللّٰهَ مٰا وَعَدُوهُ وَ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ ﴿۷۷﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰيهُمْ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ عَلاّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿۷۸﴾

◀ اللّغة

وَ ٱغْلُظْ الغِلضة عدم الرِّقة وإحلال الألَم.

مَأْوىٰهُمْ المأوىٰ المكان.

يَنَالُوا النَّيل لُحوق الأمر.

◀ الإعراب

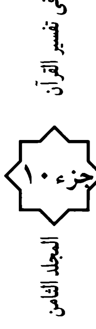
وَ رِضْوانٌ مِنَ ٱللّٰهِ مبتدأ و أَكْبَرُ خبره مٰا قٰالُوا هو جواب قسم و يحلفون قائم مقام القسم وَ مٰا نَقَمُوٓا إِلآّ أَنْ أَغْنیٰهُمُ ٱللّٰهُ أن و ما عملت فيه مفعول، نقمّوا أي و ما كرهوا إلاّ إغناء اللّه إيّاهم و قيل هو مفعول لأجله و المفعول به محذوف أي ما كرهوا الإيمان إلاّ ليغنوا لَئِنْ آتانا من فضله، فيه وجهان:

أحدهما: تقديره، عاهد فقال لئن آتانا.

الثّانی: أن يكون عاهد بمعنى قال إذ العهد قول نَجْوىٰهُمْ الأسرار إخفاء المعنى في النّفس و النّجوى رفع الحديث بإظهار المعنى لمن يسلم عنده من إخراجه الى عدوّ فيه لأنّه من النّجاة و قوله، سرّهم، مفعول ليعلم و النَّجوى معطوف عليه.

◀ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالى المنافقين و المنافقات و ما هم عليه من الأوصاف القبيحة و الأعمال الفاسدة النّاشئة عن نفاقهم ذكر المؤمنين و المؤمنات فقال: **وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰآءُ بَعْضٍ** إنّما قال تعالىٰ في المنافقين بعضهم من بعض، و فی المؤمنين بعضهم أولياء بعضٍ إمّا لأنّ المنافقين لا ولاية بينهم و لا شفاعة و لا يدعوا بعضهم لبعضٍ فكان المراد هنا الولاية في اللّه خاصّة.



و إمّا لأنّ نفاقهم و كفرهم حصل بسبب التقليد دون الإستدلال و البرهان و هذا بخلاف الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فأنّها إنّما حصلت بسبب المشاركة في الإستدلال و التّوفيق و الهداية هكذا قيل و الحّق أن يقال أنّ المؤمن أخو المؤمن و الأخوة إنّما تحصل بسبب الإيمان قد ثبت أنّ اللّه تعالى ولّي المؤمنين لقوله تعالىٰ: **اللّٰه وَلّي الَّذينَ اٰمَنُوا.**

وإذا ثبت الولاية من اللّه فلا جرم بعضهم أولياء بعض و هذا بخلاف المنافق الّذي وليّه الشيطان، لقوله تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ**[١].

فالمنافق لا يدخل تحت ولاية اللّه لأجل نفاقه و إذا كان كذلك فلا ولاية للّه عليهم فلا ولاية لبعضهم على بعض إذ المفروض إنتفائها في حقّه بالكليّة و كيف كان فقد ذكر اللّه تعالى بعد ذلك ما هو يجري كالتّفسير و الشّرح لما ذكره من ولاية بعضهم على بعضٍ فقال: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ** هذا هو الوجه الأوّل و الثّاني من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية التّي يتَّميز بها المؤمن عن المنافق لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر و ينهي عن المعروف.

و ذلك لأنّ النّفاق عبارة عن مخالفة الباطل للظّاهر فلو كان المنافق أمراً بالمعروف و ناهياً عن المنكر مع علمه بهما باطناً فكيف يكون منافقاً و المفروض موافقة الباطن للظّاهر و أن كان أمراً و ناهياً بهما مع جهله واقعاً فهو جاهل لا منافق لعدم مخالفة الباطن للظّاهر و بعبارةٍ أخرى الأمر بالمعروف و النّاهي عن المنكر، إمّا أن يأمر و ينهي بهما ظاهراً مع علمه بهما واقعاً فهو مؤمن.

و إمّا أن يأمر و ينهى عنهما ظاهراً و لا يعلم بهما واقعاً فهو جاهل.

و أمّا أن يأمر بالمعرف و ينهى عن المنكر ظاهراً على خلاف باطنه فهو منافق و عليه فالمنافق قد يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر إلاّ أنّه غير معتقدٍ بكلامه واقعاً.

١- البقرة = ٢٥٧

فقول بعضهم في تفسير الكلام أنّ المنافق لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف لا نفهم معناه لأنّا نرى أنّ المنافقين أيضاً يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ظاهراً كيف لا يكون كذلك و من المعلوم أنّ المنافق لو أمر بالمنكر و ينهى عن المعروف صريحاً يردّ عليه و لا يقبل قوله و اذا كان كذلك فلا نفع لقوله قطعاً فالحقّ أن يقال في تفسير الآية أنّ المؤمن يأمر بالمعروف و ينهىٰ عن المنكر ظاهراً و باطناً أي يأمر به و ينهى عنه عن إعتقادٍ و هذا بخلاف المنافق لأنّه يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ظاهراً و هو غير معتقدٍ بما يقول كما هو شأن النّفاق اذا عرفت هذا فنقول:

الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر من الواجبات بل هما من أوجب الواجبات و أصلها و أساسها فلو قلنا أنّ الدّين عبارة عن الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر كان حقّاً و ذلك لأنّ الأحكام الخمسة التكليفية من الوجوب و الحرمة و النّدب و الكراهة و الإباحة ترجع اليها فأنّ الوجوب و النّدب و الإباحة داخلٌ في المعروف و الحرمة و الكراهة من المنكر و توضيح الكلام إجمالاً:

هو أنّ المعروف يقال لما في فعله مصلحة، و المنكر يقال لما في فعله مفسدة و حيث أنّ الحرمة و الكراهة في فعلهما مفسدة نهىٰ الشّارع عن فعلهما فهما من المنكرات.

و أمّا الوجوب و النّدب و الإباحة ففي فعلها مصلحة و لذلك أمر الشّارع بها و هذه في الأحكام الفرعيّة أعني بها الخمسة التكليفية لا كلام لنا و لغيرنا فيه لوضوعه كما عرفت.

و أمّا الإعتقادات من التّوحيد و النّبوة والمعاد والإمامة و غيرها فهي أيضاً ترجع الى ما ذكرناه لأنّ الإعتقاد الصّحيح المأمور به داخل في المعروف و الباطل منه كالشّرك و النّفاق و الكفر و الإلحاد داخل في المنكر و هذا معنىٰ

قولنا أنّ الدّين عبارة عنهما و لأجل ذلك قد حثّ اللّه عليهما في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ ٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ**[٣].

و الأيات كثيرة و أمّا الأخبار الواردة في شأنهما فلا يخفى على أحد و قد أشرنا الى شطرٍ منها في سورة أل عمران و سيجئ الكلام فيهما في المستقبل أيضاً.

و الذّي نقول في المقام هو أنّ اللّه تعالى جعلهما من خصائص المؤمن تمييزاً بينه و بين المنافق و لعلّ وجه الإختصاص هو أنّ المؤمن لإيمانه باللّه يحبّ الخيرات و يبغض المنكرات لأنّ الأوّل مأمورٌ به و الثّاني منّهيٌ عنه و أن شئت قلت أنّه يحبّ المعروف لأنّ اللّه تعالى يحبّه و ينكر المنكر لأنّ اللّه ينكره و المفروض أنّه تابع لموحده و خالقه في أوامره و نواهيه و اذا كان كذلك فلا محالة يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر بلسانه أيضاً كما هو شأن المؤمن.

و أمّا المنافق فلعدم إيمانه باللّه يكون على العكس ممّا ذكرناه فهو دائماً يحبّ الفحشاء و يبغض المنكرات و القبائح فلا محالة يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف.

١- أل عمران =١٠٤ ٢- أل عمران =١١٠

٣- لقمان =١٧

الوجه الثّالث: من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية قوله تعالىٰ: **وَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ** أي أنّ المؤمنين يقيمون الصّلوة.

إن قلت المنافق أيضاً يصلّي فالصّلاة مشتركة بين المؤمن و المنافق فكيف جعلها اللّه من خواصّ المؤمن.

قلت فرقٌ واضح بين فعل الصّلاة كيف إتّفق و بين إقامتها أي الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها من النّية و حضور القلب و الطّهارة و إباحة المكان و غيرها فأنّ إقامة الصّلاة عبارة عن الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها الباطنيّة و الظاهريّة و المنافق لا يصلّي كذلك فأنّ قصد القربة مثلاً لا يتمشى منه لنفاقه و عدم إيمانه باللّه و لعلّه لهذه الدقيقة قال تعالى و يقيمون الصّلاة و لم يقل، و يصلّون، مثلاً.

و قيل أنّ المراد بإقامتها إشاعتها في النّاس و هى تحصل بعد ترغيب النّاس و تحريصهم عليها و هو أيضاً لا يكون من شأن المنافق لأنّه لا يحبّ كثرة المصلّين و إعتناءهم بالدّين و كيف كان لا شكّ أنّ الإتيان بها غير إقامتهايكفي في وجه إختصاصها بالمؤمن.

و قد ورد في زيارة الحسين عليه السلام **أشهد أنك قد أقمت الصّلاة و أتيت الزّكاة و أمرت بالمعروف و نهيت عن المنكر الخ... .**

الوجه الرّابع: منها قوله: **وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ** و أنّما خصّ الزّكاة بالذّكر من الواجبات لأنّها أهمّ منها بعد الصّلاة الّتي هي عمود الدّين و لذلك ترى ذكرها بعد الصّلاة في أكثر الموارد.

قال اللّه تعالىٰ: **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَ إِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ آتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ**[2].

١- النّور =٣٧
٢- التّوبة =٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْصٰنِي بِالصَّلٰوةِ وَ الزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلٰوةِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰوةِ**(٢).

والأيات في الباب كثيرة دالّة على عظم شأن الزّكوة.

ثمّ أنّ الزّكاة في الأصل النّمو الحاصل عن بركة اللّه و يعتبر ذلك بالأمور الدُّنيويّة و الاخرويّة يقال زكا الزَّرع يزكو اذا حصل منه نمّو و بركة و قد حثَّ الأخبار على وجوبها و رفعة شأنها بل يستفاد منها أنّ قبول الصّلاة موقوف على إخراجها و قد ورد عن الصّادق عليه السلام أنّه قال ما فرض اللّه على هذه الأمّة شيئاً أشدَّ عليهم من الزّكاة و فيها تهلك عامتهم انتهىٰ.

و قد ورد في الأخبار أنّ مانع الزّكاة يخرج عن الإسلام و أمثال ذلك من الأخبار كثيرة و قد مضى شطر منها في سورة البقرة و سيأتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

روي في الكافي في الحسن عن زرارة و محمّد بن مسلم و أبي بصير و بريد و الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: و أبي عبد اللّه عليهما السّلام قالا فرض اللّه الزّكاة مع الصَّلاة في الأموال و سنَّها رسول اللّه في تسعة أشياء و عفى عمّا سواهنّ.

في الذّهب و الفضّة و الإبل و البقر و الغنم و الحنطة و الشّعير و التّمر و الزّبيب و عفى رسول اللّه عمّا سوى ذلك.

و نحو ذلك أخبار كثيرة و ما تضّمنه من الوجوب في التّسعة فجمع عليه و تستَّجب فيما عداها من الحبوب كما دلَّت عليه الأخبار و لها أحكام و شروط و تفصيل الكلّ في الكتب الفقهية و هى من ضروريّات الدّين بالإجماع.

الوجه الخامس: منها قوله تعالىٰ: **وَ يُطِيعُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** أي يمتثلون أمرهما و يتّبعون إرادتهما و رضاهما.

١- مَريم =٣١ ٢- الأنبياء =٧٣

أن قلت الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و أقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة كلّ ذلك لا يكون إلاّ على سبيل الطّاعة للّه و رسوله و ذلك لأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمرنا بذلك عن اللّه تعالى فمن لا يطيع اللّه و رسوله كيف يصّلي و يؤدّي الزّكاة و عليه فقوله تعالى: **وَ يُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** بعد ذكر الأربعة مستدرك غير لازم.

قلت لعلّ الوجه فيه هو أنّ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و أقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة بل و غيرها من الواجبات مشروطة بقصد القربة و لا نعني بالقربة إلاّ كون الفعل على سبيل الطّاعة و الإنقياد للّه و رسوله فقوله: **وَ يُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** إشارة الى أنّ الوجوه الأربعة المتقدمة أنما تفيد إذا كانت على سبيل الطّاعة و الخلوص المعبّر عنه بالتّقرب اليه تعالى و عليه فقوله: **وَ يُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** ليس بمستدرك بل لابدّ من ذكره ليحصل المقصود هذا و يتحمل أن يكون المراد بقوله: **وَ يُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** يطيعون اللّه و رسوله في جميع الأمور من الواجبات و المحرّمات و عليه فقوله هذا، هو أصلٌ مستقل كالأربعة السابقة و المعنى أنّ الرّحمة الإلهية شاملة لمن راعى هذه الوجوه الخمسة المذكورة.

ثمّ أشار اللّه تعالى بما يتّرتب على الإيمان المتّحقق في الخارج في الصّلاة و الزّكاة و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر بقوله: **أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أي هؤلاء الموصوفين بالصّفات المذكورة في الآية سيرحمهم اللّه، في الآخرة بأن يدخلهم في بحار رحمته و مغفرته فأنّ اللّه تعالى عزيز حكيم أي قادر لا يغلبه أحد من الكفّار و المنافقين و غيرهم، حكيمٌ في عقابه و ثوابه ثمّ أردف كلامه بقوله:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

و أعلم أنّ اللّه تعالىٰ أخبر بهذه الآية بأنّه كما وعد الكفّار و المنافقين بنار جهنّم و الخلود فيها كذلك وعد اللّه المؤمنين و المؤمنات المعترفين بوحدانيّته و صدق رسله و أنبياءه قلباً و المقرّين بها لساناً و العاملين بأحكام اللّه أركاناً الخلود في الجنّات الّتي تجري من تحتها الأنهار و التّقدير تجري من تحت أشجارها الأنهار الجنّة أخاديد في الأرض فلذلك قال من تحتها، و أنّهم فيها خالدون أي دائمون و أمّا المساكن الطَّيبة، فقيل أنّها قصور من اللّؤلوء و الياقوت الأحمر و الزَّبرجد الأخضر مبنيّةٌ بهذه الجواهر.

و عن إبن عبّاس هي دور المقرّبين، و قيل دور في جنّات عدنٍ مختلفة في الصّفات بإختلاف حال الحالين فيها.

و قيل هي قصور من زبرجد و درّ و ياقوت يفوح طيبها من مسير خمس مائة عام في أماكن إقامتهم و قيل غير ذلك و الكلّ محتمل عقلاً إذ لا دليل على ما ذكروه في الباب و اللّه أعلم بحقيقتها و كيفيّتها.

و أمّا قوله: **وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ** ففيه أيضاً أقوال.

منها ما نقله صاحب التّبيان قدس سره عن الرّماني أنّه قال الرّضوان معنىٰ يدعو الى الحمد بالإجابة يستّحق مثله بالّطاعة فيما تقتضيه الحكمة.

و قال الحسن معناه، وصل الى قلوبهم برضوان اللّه من اللذَّة و السُّرور ما هو ألذّ عندهم و أقرّ لاعينهم من كلّ شيئٍ أصابوه من لذَّة الجنّة.

و قال إبن عطيّة هو إشارة الى منازل المقرّبين الشّاربين من نسيم.

و قال الزّمخشري رضاه تعالى سبب لكلّ فوزٍ و سعادةٍ و أنت ترى أنّ هذه الأقوال أيضاً من المحتملات الّتي لا يمكن الإعتماد عليها ضرورةً أنّ الأخبار و الحكاية عمّا وراء عالم الطبيعة كمّاً و كيفاً يحتاج الى النّص من الكتاب و السُّنة و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ النّص في المقام لا يدلّ على أكثر من وجود الجنّة و النّار و ما فيهما من النِّعم و النّقم و أمّا كيفيّة النّعمة و العقاب في الجنّة و

النّار و أنّ أقسام الجنّة ما هي و كيف هي و هكذا دركات السّقر فأنّها تحتاج الىٰ نصٍّ معتبر من الكتاب و السُّنة إذ لا سبيل للعقل اليها قطعاً و محصّل الكلام في المقام و أمثاله هو متابعة النّص المعتبر فأن وجد فهو و إلاّ فالسّكوت أولىٰ، و الّذي ثبت لنا أنّ الجنّة واحدة و النّار واحدة إلاّ أنّهما تختلفان بإعتبار مراتبهما و منازلهما و كثرة الأسامي لا تدلّ على كثرة المسّمى فما ذكره الرّازي و أمثاله من العامة نقلاً عن أبي هريرة و أمثاله من الكذابين في وصف الجنّة و النّار لا يعتمد عليه أصلاً.

نعم قد ورد في الآثار أنّ للجنة ثمانية أبواب و للنّار سبعة أبواب و الأصل فيه هو نصّ الكتاب قال اللّه تعالى في النّار: **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**(١).

و قال في وصف الجنّة: **جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ اَلْأَبْوٰابُ**(٢).

فقد روي المجلسي ﷺ في البحار عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: لمّا أسري بي الى السّماء قال لي جبرئيل قد أمرت الجنّة و النّار أن تعرض عليك فرأيت الجنّة وما فيها من النّعيم و رأيت النّار و ما فيها من العذاب، و الجنّة فيها ثمانية أبوب على كلّ بابٍ منها أربع كلمات كلّ كلمةٍ خير من الدنيّا و ما فيها لمن يعلم و يعمل بها وللنّار سبعة أبواب على كلّ بابٍ منها ثلاث كلمات كلّ كلمةٍ خير من الدنيّا وما فيها لمن يعلم و يعمل بها فقال لي جبرئيل عليه السلام يامحمّد إقرأ ما على الأبواب فقرأت ذلك.

أمّا أبواب الجنّة فعلى أوّل باب فيها مكتوب، لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه عليٌ ولّي اللّه لكلّ شئٍ حيلة و حيلة العيش أربع خصالٍ، القناعة و بذل الحقّ و ترك الحقد و مجالسة أهل الخير.

١- الحجر =٤٤

٢- ص =٥٠

علىٰ الباب الثّانى: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه لكلّ شئٍ حيلة و حيلة السُّرور في الأخرة أربع خصالٍ، مسح رؤوس اليتأمى و التَّعطف على الأرامل و السَّعي في حوائج المؤمنين و التَّفقد للفقراء و المساكين.

علىٰ الباب الثّالث: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه لكلّ شئٍ حيلة و حيلة العصمة في الدنيا أربع خصالٍ، قلّة الكلام و قلّة المنامٍ و قلّة المشي و قلّة الطّعام.

علىٰ الباب الرّابع: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه، من كان يؤمن باللّه و اليوم الأخر، فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن باللّه و اليوم الأخر فليكرم جاره، و من كان يؤمن باللّه و اليوم الأخر فليكرم والديه، و من كان يؤمن باللّه و اليوم الأخر فليقل خيراً أو يسكت.

علىٰ الباب الخامس: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه، من أراد أن لا يظلم فلا يشتم ومن أراد أن لا يذلّ فلا يذلّ و من أراد أن يتَّمسك بالعروة الوثقى في الدنيا و الأخرة فليقل لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه.

علىٰ الباب السّادس: لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه من أراد أن يكون قبره و سيعاً فسيحاً فليبن المساجد و من أراد أن لا تأكله الدّيدان تحت الأرض فليسكن المساجد ومن أحبَّ أن يكون طرّياً مطراً لا يبلى فليكنس المساجد و من أحبّ أن يرى موضعه في الجنّة فليكسي المساجد بالبسط.

علىٰ الباب السّابع: مكتوبٌ لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه بياض القلب في أربع خصالٍ، عيادة المريض و إتّباع الجنائز و شراء الأكفان و ردَّ القرض علىٰ.

الباب الثّامن: مكتوب لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه من أراد الدّخول من هذه الأبواب فليتّمسك بأربع خصالٍ، السّخاء، و حسن الخلق و الصَّدقة و الكّف عن أذى عباد اللّه.

و رأيت على أبواب النّار مكتوب:

علىٰ الباب الأوّل: ثلاث كلمات، من رجا اللّه مسعدٌ و من خاف اللّه أمن والهالك المغرور من رجا غير اللّه و خاف سواه.

علىٰ الباب الثّانى: مَن أراد أن لا يكون عرياناً يوم القيامة فليكسي الجلود العارية في الدّنيا و من أراد أن لا يكون عطشاناً يوم القيامة فليسق العطّاش في الدّنيا ومن أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً فليطعم البطون الجائعة في الدّنيا.

علىٰ الباب الثّالث: لعن اللّه الكاذبين، لعن اللّه الباخلين، لعن اللّه الظّالمين.

على الباب الرّابع: مكتوب ثلاث كلمات أذلّ اللّه، من أهان الإسلام أذلّ اللّه من أهان أهل البيت أذلّ اللّه من أعان الظّالمين علىٰ ظلمهم للمخلوقين.

علىٰ الباب الخامس: مكتوب ثلاث كلمات، لا تتَّبعوا الهوى فالهوى يخالف الإيمان و لا تكثر منطقك فيما لا يعنيك فتسقط من رحمة اللّه، ولا تكن عوناً للظّالمين.

علىٰ السّادس: مكتوب أنا حرام على المجتهدين أنا حرام علىٰ المتّصدقين أنا حرام على الصّائمين.

علىٰ السّابع: مكتوب ثلاث كلمات، حسابوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و نجّوا أنفسكم قبل أن توَّبخوا و أدعوا اللّه عزّ وجلّ قبل أن تردوا عليه ولا تقدروا على ذلك انتهىٰ[1].

١- بحار الأنوار ج ٣ ط كمباني ص ٣٣٢

أقول أنّما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من المواعظ لمن كان له قلب.

و أمّا قوله تعالى في أخر الأية: **ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** فمعناه أنّ هذه النّعيم المشار اليها في الآية هي النّجاح العظيم الّذي لا شئ فوقه و لا أعظم منه و هو ظاهر لا خفاء فيه اذ أيُّ شئٍ أعظم و أنفع من رضا الرَّب و التَّقرب اليه.

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جٰاهِدِ ٱلْكُفّٰارَ وَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

أمر اللّه تعالى نبيّه في هذه الآية أن يجاهد الكفّار و المنافقين و الجهاد على ما قيل هو ممارسة الأمر الشّاق لأنّه مشتّق من الجهد و هو قد يجب باليد و قد يجب باللّسان و قد يجب بالقلب و قد يجب بالجميع فمن أمكنه الجميع وجب عليه جميعه و من لم يقدر باليد فباللّسان فأن لم يقدر فبالقلب.

ثمّ أنّهم إختلفوا في كيفيّة جهاد المنافقين و الكفّار.

فقال ابن عبّاس جهاد الكفّار بالسّيف و جهاد المنافقين باللّسان و الوعظ و التَّخويف و هو قول الجبائي.

و قال الحسن و قتادة جهاد الكفّار بالسّيف و جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم.

و قال إبن مسعود هو بالأنواع الثّلاثة حسب الإمكان فأن لم يقدر فليكفر في وجوههم و هو الأعم.

و روي في قراءة أهل البيت و جاهد الكفّار بالمنافقين قاله الشّيخ في التّبيان.

و أمّا قوله: **وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** قالوا الغليظ ضدّ الرِّقة و المراد خشونة الكلام و تعجيل الإنتقام على خلاف ما أمر به في حقّ المؤمنين في قوله: **وَ ٱخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**[١] و قالوا و كلّ من وقف منه على فسادٍ في العقائد فهذا حكمه يجاهد بالحجّة و يستعمل معه الغلظ ما أمكن.

١- الحجر = ٨٨

أقول في هذه الآية مسائل:

الأولىٰ: أمر اللّه تعالىٰ نبيّه بالجهاد و هذا ممّا لا كلام لنا فيه لأنّ الجهاد من الأصول المسلّمة في الإسلام كالصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها و تفصيل الكلام فيه و فى أقسامه و شرائطه و كيفيّته مسطور في الكتب الفقيهيّة و من المعلوم أنّ الجهاد مع الكفّار في بعض الأحيان من أوجب الواجبات اذ به يحصل شرف الإسلام و أنّه يعلوا و لا يعلى عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: اَمّا بَعْدُ فَاِنَّ الْجِهٰادَ بٰابٌ مِن اَبْوٰابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخاصَّةِ اَوْلِيٰائِهِ، وَهُوَ لِبٰاسُ التَّقْوىٰ وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ اَلْبَسَهُ اللهُ ثَوبَ الذُّلِّ وَشَمْلَةَ الْبَلاءِ، وَدُيِّثَ بِالصَّغٰارِ والقَماء، وضُرِبَ علىٰ قَلبِهِ بِالأسهٰابِ، وأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهٰادِ وَسِيمَ الْخَسْفُ ومُنِعَ النِّصْفُ[١].

و قال عليه السلام: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإِيْمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهادُ فِى سَبِيلِهِ[٢].

و قال عليه السلام: اَوْهِ عَلَىٰ إِخْوانِى الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَاَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَاَقَامُوهُ اَحْيُوا السُّنَّةَ وَاَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَاَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ[٣].

و قال عليه السلام: اَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا اِلَى الاِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوُ الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا اِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا[٤].



و الحاصل أنّ أصل الجهاد ممّا لا ريب في وجوبه و مدحه أنّما الكلام في أنّ الآية قد صرّح بوجوبه مع الكفّار و المنافقين و المخاطب بها و أن كان رسول اللّه في ظاهر الأمر إلاّ أنّ الأمّة بعد الرّسول أيضاً مخاطبون بها و اذا كان

١- خ ٢٧
٢- خ ١١٠
٣- خ ١٨٢
٤- خ ١٢١

كذلك فما وظيفة الأمّة بعد الرّسول هل يجب عليهم الجهاد أم لا و الّذي نقول به و نذهب اليه هو وجوبه بمعناه العامّ الشّامل لجميع أقسام الجهاد سوىٰ الجهاد بالسّيف و السّنان فأنّه مشروط بوجود المعصوم و أمره به و أمّا في زمان الغيبة كزماننا هذا فلا يجب و للبحث فيه مقام أخر اذا عرفت هذا فنقول:

ما ذهب اليه ابن عبّاس و تبعه على ذلك جميع العامّة في كتبهم و تفاسيرهم من أنّ الجهاد مع الكفّار بالسّيف و مع المنافقين باللّسان و شدّة الزّجر و التّغليظ فنحن لا نقول به بل هو مردودٌ و عندنا و ذلك لعدم الفرق بين الكافر و المنافق في وجوب الجهاد معهما في زمان المعصوم و مجرّد كون المنافق متّلبساً بلباس الإسلام ظاهراً لا يوجب ترك الجهاد معه بالسّيف و السّنان.

و الدّليل على المدّعى هو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جاهد النّاكثين و القاسطين و المارقين مع أنّ معاوية و أصحابه و هكذا أصحاب الجمل و النّهروان كانوا متظاهرين بالإسلام و لا سيّما الخوارج فتخصيص الجهاد بالسّيف و السّنان للكفّار و باللّسان و القلب بالمنافقين ممّا لا وجه له.

المسألة الثّانية: في تفسير قوله: **وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** قلنا أنّ الغلظ ضدّ الرّأفة و الرّقة و ظاهر الكلام أنّ الغلظ يجب على الكفّار و المنافقين و لا يجوز العفو عنهم و التّرحم عليهم كما صرّحوا به في تفاسيرهم لهذه الآية و هذا أيضاً لا يستقيم على إطلاقه لأنّ الإسلام دين الرّأفة و الرّحمة و أمّا الغلظة و الخشونة فلا محلّ لها في الإسلام قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيّه **لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**[١] مضافاً الىٰ أنّ العقل أيضاً يحكم ببطلان الخشونة.

أن قلت فما معنى الكلام، قلت معناه و أغلظ عليهم اذا كانوا مصّرين علىٰ كفرهم و نفاقهم و عنادهم و قتالهم و من المعلوم أنّ الرّأفة و الرّقة عليهم في هذه الحالة قبيح عقلاً ممنوعٌ شرعاً بل تعدّ من الظّلم كما قال الشّاعر بالفارسية:

١- آل عمران = ١٥٩

تَرَّحُم بر پلنگ ستيز دندان ستم كارى بود بر گوسفندان

و محصّل الكلام هو أنّ الإسلام بريءٌ من الخشونة و الغلظة و النّبي صلى الله عليه و آله و سلم بحكم الآية لم يكن غليظ القلب و اللّسان فالغلظة في بعض الأحيان نشأت من عمل الكفّار و المنافقين و أن شئت قلت أنّ الغلظة عليهم عين الرّحمة و الرّأفة ولو كانوا يعلمون.

و حيث إنّجر الكلام الى الغلظة فلا بأس بنقل ما رواه البخاري و مسلم في صحيحهما في مناقب عمر بن الخطّاب قالا إستأذن عمر بن الخطّاب على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و عند نسوة من قريش يكلّمنه و يتكثرنّه عالية أصواتهنّ على صوته، فلمّا إستأذن عمر قمن فبادرن الحجاب فأذن له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فدخل عمر و رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يضحك فقال عمر أضحك اللّه سنّك يا رسول اللّه فقال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم عجبت من هؤلاء اللاّتي كنَّ عندي فلمّا سمعن صوتك إبتدرن الحجاب فقال عمر أنت أحقّ أن يهبن يا رسول اللّه ثمّ قال عمر يا عدّوات أنفسهنَّ أتهبنني و لا تهبن رسول اللّه فقلن نعم أنت أفظّ و أغلظ من فقال رسول اللّه إيهاً يابن الخطّاب و الّذي نفسي بيده ما لقيك الشّيطان سالكاً فجّاً إلاّ سلك فجّاً غير فجّك انتهىٰ نقلنا الحديث عن تفسير القرطبي[1] و قد نقله غير واحدٍ من العامّة و هو من المشهورات عندهم.

و أنت ترى ما فيه من تنقيص الرّسول و الإهانة به و كأنّهم أرادوا من جعل هذا الحديث إثبات فضيلة لعمر و أنّه كان من الغيرة و الحميّة فوق الرّسول أنّ النّساء يهبن عمر ولم يهبن الرّسول و أيضاً أثبتوا بذلك أنّ الرّسول كان فظّاً غليظاً إلاّ أنّ عمر كان أفظّ منه و أغلظ كما هو مقتضى أفعل التّفضيل و قد نفى اللّه تعالى الغلظة عنه صلى الله عليه و آله و سلم في قوله:

لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.

وقوله تعالىٰ: **أِنَّكَ لعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ.**

١- ج ٨ ص ٢٠٥

أعجب من الكلّ قوله في أخر الحديث إيهاً يابن الخطّاب و الذّي نفسي بيده ما لقيك الشّيطان سالكاً الى أخره فزعموا أنّ هذا الكلام يدلّ على فضيلة عمر و أنّ الشيطان كان مأيوساً من إضلاله و لذلك سلك فجّاً غير فجّه ولم يعلموا أنّ الكلام على فرض صحته لا يدلّ على ذلك بل هو بالذّم أشبه منه بالمدح لأنّ الشّيطان لا يضّل الشّيطان لأنّه من قبيل تحصيل الحاصل فاذا رأىٰ شيطان شيطاناً أخر لا جرم يسلك مسلكاً غير مسلكه و لا سيّما اذا كان الأخر أعلم بطرق الإضلال منه و عليه فأن صحَّ الحديث فهو في ذمّ عمر لا في مدحه هذ كلّه مع ما في ألفاظ الحديث من الفصاحة و الشّناعة ما لا يخفى على العاقل اللّبيب فإعتبروا يا أولي الأبصار.

المسألة الثّالثة: قوله تعالىٰ: **وَ مَأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** المأوىٰ المكان و المعنىٰ أنّ هؤلاء الكفّار و المنافقين اذا قالوا على الكفر و النّفاق ولم يرجعوا عمّا كانوا عليه في الدّنيا فلا جرم مأواهم جهنّم و لا شكّ أنّ طريق النّار من أخوف الطّرق و أقبحها لأنّها تنتهي الى العذاب الدّائم أعاذنا اللّه منه عذا تمام الكلام في تفسير الأية.

و قد ظهر ممّا ذكرناه أنّ الآية ليست بناسخة كما زعمه القرطبي و أمثاله حيث قال و هذه الآية نسخت كلّ شيئ من العفو و الصُّلح و ذلك لأنّ الآية تختّص بما اذا كان الكافر أو المنافق مصّراً على كفره و نفاقه محارباً للإسلام و المسلمين لا مطلقاً و عليه فالعفو و الصُّلح و الصّفح في محلّه.

ألا ترى أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يغلظ علىٰ كفّار يوم الفتح بل عفى عنهم بقوله أذهبوا أنتم الطُّلقاء هذا.

و قد روي في قراءة أهل البيت جاهد الكفّار بالمنافقين قالوا لأنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن يقاتل المنافقين و لكن كان يتألفهم ولأنّ المنافقين لا يظهرون الكفر و علم اللّه بكفرهم لا يبيح قتلهم اذا كانوا يظهرون الإيمان.

و قد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قرأ جاهد الكفّار بالمنافقين قال عليه السلام: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يقاتل منافقاً قطّ أنّما كان يتألفهم.
وفي تفسير علّي بن إبراهيم قال أنّما نزلت يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَ ٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ لأنّ النّبي لم يجاهد المنافقين بالسّيف.
و قد روي أبو بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: جاهد الكفّار والمنافقين بإلزام الفرائض.
و عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله: يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَافِقِينَ قال عليه السلام: هكذا نزلت فجاهد رسول اللّه الكفّار و جاهد علّي المنافقين فجهاد علّي جهاد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.
و في آمالي شيخ الطّائفة بأسناده الىٰ إبن عبّاس قال لمّا نزلت يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَ ٱلْمُنَافِقِينَ قال النّبى صلى الله عليه و آله و سلم: لأجاهدن العمالقة يعني الكفّار و أتاه جبرئيل و قال أنت أو علّي عليه السلام:[1]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوٓا إِلَّآ أَنْ أَغْنَيٰهُمُ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ

إختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقيل أنّها نزلت في الخلاس بن سويد بن الصّامت بأنّه قال فأن كان ما جاء به محمّد حقّاً لنحن شرٌّ من الحمير ثمّ حلف باللّه أنّه.

قال القرطبي أنّ هذه الآية نزلت في الجلاّس بن سويد بن الصّامت و وديعة بن ثابت وقعوا في النّبي و قالوا و اللّه لئن كان محمّد صادقاً على أخواننا الّذين

١- تفسير نُور الثّقلين ج ٢ ص ٢٤١

هم ساداتنا و خيارنا لنحن شرّ من الحمير فقال له عامر بن قيس أجل واللّه أنّ محمّداً لصادق مصّدق و أنك لشرّ من حمارٍ و أخبرها بذلك النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و جاء الجّلاس فحلف باللّه عند منبر النّبي أنّ عامراً لكاذب و حلف عامر لقد قال و قال اللّهم أنزل على نبيّك الصّادق شيئاً فنزلت.

وقيل أنّها نزلت في عبد اللّه ابن أبّي، لمّا قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرّجن الأعّز منها الأذّل و أراد به الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فسمع زيد بن أرقم ذلك و بلغه الى الرّسول فجاء عبد اللّه و حلف أنّه لم يقل.

و قيل نزلت في رجلين إقتتلا أحدهما من جهينة و الآخر من غفّار فظهر الغفاري على الجهيني الى آخر القصّة.

و قال الرّازي في تفسير لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه.

قال القاضي يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الوقائع و ذلك لأنّ قوله: **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ** الىٰ آخر الآية كلّها صيغ الجموع و حمل صيغة الجمع على الواحد خلاف الأصل.

فأن قيل لعّل ذلك الواحد قال ف محفلٍ و رضي به الباقون.

قلنا هذا أيضاً خلاف الظّاهر لأنّ إسناد القول الى من سمعه و رضي به خلاف الأصل ثمّ قال بل الأولى أن نحتمل هذه الآية على ما روي أنّ المنافقين همّوا بقتله عند رجوعه من تبوك و هم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته الى الوادي و كان عمّار بن ياسر آخذاً بالجطام على راحلته و حذيفة خلفها يسوقها فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل و قعقعة السّلاح فألتفت فإذا قوم متلّثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء اللّه فهربوا و الظّاهر أنّهم لمّا إجتمعوا لذلك الغرض فقد طعنوا في نبّوته و نسبوه الى الكذب و التّصنع في إدّعاء الرّسالة و ذلك هو قول كلمة الكفر و هذا القول إختيار الزّجاج انتهى ما أردنا ذكره عنه.

أقول هذا القول الأخير الّذي إختاره الزّجاج و القاضي هو المختار عندنا وقد نقله الألوسي أيضاً في روح المعاني من جملة الأقوال أخرجه البهيقي في الدّلائل عن حذيفة بن اليمان إلاّ أنّه قال فإذا أنا بإثنى عشر راكباً قد إعترضوا فيها.

و نقله القرطبي في تفسيره و الزّمخشري في تفسيره و السّيوطي في الدّر المنثور بطرق مختلفة و الحاصل أنّ أقوى الأقوال في نزول الآية هو هذا القول و ضمائر الجمع فيها أيضاً تدلّ عليه كما قال القاضي و أمّا تفاسير الشيعة، فقد نقل الشيخ في التبيان و الطبرسي في المجمع و الفيض في الصافي و غيرهم في غيرها الأقوال كلّها و منها هذا القول، إلاّ أنّهم نقلوا قولاً آخر و هو أنّها نزلت في الّذين تحالفوا في الكعبة أن لا يردّوا هذا الأمر في بني هاشم فهي الكفر ثمّ قعدوا لرسول اللّه في العقبة.

إذا عرفت هذا إجمالاً فنقول لا إشكال و لا خلاف بين المفسّرين من العّامة و الخاصّة في أصل وقوع الحلف منهم بأنّهم ما قالوا شيئاً فمّا نسب اليهم و الحال أنّهم قد قالوا كلمة الكفر و بذلك كفروا بعد إسلامهم.

و أنّما الخلاف في الحالف و تعيين كلمة الكفر و حيث أنّ الحالف لم يكن شخصاً واحداً بدليل قوله يحلفون بصيغة الجمع تقطع بصدور الحلف عن جماعةٍ فلا جرم يقوي في النّفس أنّ الآية نزلت في أصحاب العقبة دون غيرهم و أنّهم حلفوا أوّلاً ثمّ فعلوا ما فعلوا.

و أمّا المراد بكلمة الكفر في الآية هو إنكارهم الرّسالة من اللّه تعالى و أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قال ما قال أو فعل ما فعل من عند نفسه مع قطع النّظر عن كونه رسولاً من عند اللّه و من المعلوم أنّ إنكار الرّسالة كفرٌ مع أنّهم كانوا قد أسلموا ظاهراً قبل التوطئة و بذلك قال اللّه تعالىٰ: **كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ** و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا** أي قصدوا بما لم يصلوا اليه فمعناه أنّهم قصدوا



قتل الرّسول ليلة العقبة ولكنّهم لم ينالوا اليه لأنّ اللّه تعالى قد أخبر نبيّه بما قصدوه في حقّه **وَ مَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَيٰهُمُ ٱللَّهُ وَ رَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ** معناه لا وجه لنقمتهم هذا إلاّ أن أغناهم اللّه و رسوله من فضله بعد كونهم محتاجين.

قال الرّاغب في المفردات نقمت الشّئ و نقمته إذا نكرته أمّا باللّسان بالعقوبة و النّقمة العقوبة، و المقصود أنّ اللّه تعالى قد أغناهم بما فتح عليهم من الفتوح بواسطة الرّسول و ذلك لأنّهم كانوا قبل طلوع الإسلام من الفقراء و المساكين ثمّ صاروا ببركة الإسلام من الأغنياء و لازم ذلك هو الشّكر لا النّقمة فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و حيث أنّهم نقموا بدل الشّكر فقال تعالى في حقّهم ما قال فهو من قبيل قول الشّاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهّن فلولٌ من قراع الكتائب

و قول القائل:

مالي عندك ذنبُ إلاّ أني أحسنت اليك

فأنّ فعلهم تدلّ على أنّهم كانوا لئاماً

قال الشّاعر:

و لا عيب فينا غير عرقٍ لمعشرٍ كرام و أنّا لا نحطّ على النّمل

و محصّل الكلام أنّهم لأيّ شئٍ فعلوا ما فعلواً **فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ** أي أن يتوبوا و يرجعوا عمّا فعلواً فهو خير لهم **وَ إِن يَتَوَلَّوْا۟** أي أن يعرضوا عنها و لم يتوبوا و ماتوا على كفرهم.

يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْءَاخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَ لَا نَصِيرٍ

كما هو شأن المرتّد عن الإسلام.

قال بعض المفسّرين عذابهم في الدّنيا بأن يحلّ قتالهم و قتلهم و سبي أولادهم و أزواجهم و غنم أموالهم.

و أمّا في الآخرة فبالعذاب الّذي أعدَّه اللّه للكافرين و من المعلوم أنّ من خذله اللّه لا ناصر له في الأرض هذا تفسير ألفاظ الآية على ما يقتضيه النّظر.

و أمّا الأخبار الواردة في الباب ففي تفسير القمي بأسناده عن جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال، لمّا أقام رسول اللّه أمير المؤمنين يوم غدير خم كان بحذائه سبعة نفر من المنافقين و هم فلان و فلان و عبد الرّحمٰن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و أبو عبيدة و سالم مولى أبي حذيفة و المغيرة بن شعبة.

قال الثّاني أما ترون عينيه كأنّما عينا مجنون يعني النبي السّاعة يقوم و يقول قال لي ربّي فلمّا قام قال أيّها النّاس من أولى بكم من أنفسكم قالوا اللّه ورسوله قال صلى الله عليه وآله وسلم اللّهم فأشهد ثمّ قال ألا من كنت مولاه فعلّي مولاه و سلّموا عليه بأمرة المؤمنين فنزل جبرائيل و أعلم رسول اللّه بمقالة القوم فدعاهم و سألهم فأنكروا و حلفوا فأنزل اللّه **يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ.**

ثمّ ذكر البخلاء و سماهم منافقين وكاذبين الحديث.

و قال الفيض قدس سره في الصّافي نقلاً عن تفسير العياشي عن الصّادق عليه السلام لمّا قال النّبي ما قال في غدير خم و صاروا بالأخبية مرّ المقداد بجماعةٍ منهم يقولون إذا دنا موته و فنيت أيّامه و حضر أجله أراد أن يولّينا عليّاً من بعده أما و اللّه ليعلمن قال عليه السلام فمضى المقداد و أخبر النّبي فقال الصّلاة جامعة قال عليه السلام فقالوا قد رمانا المقداد فقوموا نحلف عليه فجاؤوا حتّى جثوا بين يديه فقالوا بآباءنا و أمهاتنا يا رسول اللّه و الّذي بعثك بالحقّ و الّذي كرّمك بالنبوّة ما قلنا ما بلغك و الّذي إصطفاك على البشر:

فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، يحلفون باللّه ما قالوا و لقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم و همّوا يا محمّد ليلة العقبة وما أنكروا و ما عابوا إلاّ أن أغناهم اللّه و رسوله من فضله،قال كان أحدهم يبيع الرؤوس و آخر يبيع الكراع و يقتل القرامل فأغناهم اللّه برسوله ثمّ جعلوا حدّهم و حديدهم عليه انتهىٰ ما أردنا نقله.

أقول يظهر من هذه الأخبار أنّ ليلة العقبة كانت بعد وقعة غدير خم لا بعد غزوة تبوك و يظهر من بعضٍ آخر أنّها كانت بعد رجوعه عليه‌السلام من غزوة تبوك و هو الّذي إختاره الطّبرسي في تفسيره فأنّه قال نزلت في أهل العقبة فأنّهم أضمروا أن يقتلوا رسول اللّه في عقبة عند خروجهم من تبوك الى آخر ما قال و هذا هو الّذي إختاره جميع المفسّرين من العّامة و على هذا لا خلاف في أصل القضيّة و هو أنّها نزلت في أهل العقبة و أنّما الخلاف في زمان الحادثة و أنّها كانت بعد غزوة تبوك أو بعد غدير خم و اللّه أعلم.

و.قد روي صاحب تفسير نور الثّقلين عن تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال، لمّا أقام النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً بغدير خمّ و بلّغ فيه عن اللّه ما بلّغ ثمّ نزل إنصرفنا الى رحالنا و كان الى جانب خبائي خباء نفرٍ من قريش و هم ثلاثة و معي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة يقول، و اللّه أنّ محمّداً لأحمق أن كان يرى أنّ الأمر يستقيم لعلّيٍ من بعده و قال الآخر أتجعله أحمق الم تعلم أنّه مجنون و قد كاد أنه يصرع عند إمرأة بن أبي كبشة.

و قال الثّالث دعوه إن شاء أن يكون أحمق و أن شاء أن يكون مجنوناً و اللّه ما يكون ما يقول أبداً فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه اليهم و قال فعلتموها و رسول اللّه بين أظهركم و وحي اللّه ينزل اليكم و اللّه لأخبرّنه بكرةً مقالتكم فقالوا له يا عبد اللّه و أنّك لهيهنا و قد سمعت ما قلنا أكتم علينا فأنّ لكلّ جوارٍ أمانة فقال لهم ما هذا من جوار الأمانة و لا مجالسها، ما نصحت اللّه و رسوله أن أنا طويت عنه هذا الحديث فقالوا له يا عبد اللّه فأصنع ما شئت فواللّه لنحلّفن أنّا لم نقل و انّك قد كذبت الينا (علينا) إفتراءً يصّدقك و يكذّبنا و نحن ثلاثة فقال لهم أمّا أنا فال أبالي اذا أدّيت النّصيحة الىٰ اللّه و رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا ثمّ مضى حتّى أتى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و علّيٌ الى جانب محتّب بحمايل سيفه أخبره بمقالة القوم فبعث اليهم رسول

اللّه فأتوه فقال لهم ماذا قلتم فقالوا و اللّه ما قلنا شيئاً فأن كنت أبلغت عنّا شيئاً فمكذوبٌ علينا فهبط جبرئيل بهذه الآية يحلفون باللّه ما قالوا الآية.

و قال عليّ عند ذلك ليقولوا ما شاءوا و اللّه أنّ قلبي بين أضلاعي و أنّ سيفي لفي عنقي و لئن همّوا لأهمن فقال جبرئيل للنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبر الأمر الّذي هو كائن فأخبر النّبي عليّاً بما أخبر به جبرئيل فقال اذاً أصبر للمقادير انتهىٰ.

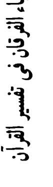
أقول ثمّ نقل صاحب التّفسير ما نقلناه عن تفسير الصّافي.

و نقل أيضاً عن أبان بن تغلب قال لمّا نصب رسول اللّه عليّاً يوم غدير خمّ فقال من كنت ملواه فعلّيٌ مولاه فهّم رجلان من قريش رؤوسهما (حدهما) و اللّه لا نسلّم له ما قال أبداً فأخبر النّبي فسألهما عمّا قالا فكذبا و حلفا باللّه ما قالا شيئاً فنزل جبرئيل على رسول اللّه **يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا** الآية

قال أبو عبد اللّه عليه السلام لقد توليّا و ماتا إنتهى[1] و الأخبار في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لمن أنصف و تدّبر في الأية.

و ذلك أنّ الآية تدلّ على أنّ الحلف كان مسبوقاً بكلمة الكفر لأنّهم قالوا بها أوّلاً ثمّ حلفوا بأنّهم ما قالوا و اذا كان كذلك فلقائلٍ أن يقول، لم قالوا كلمة الكفر، و ما الباعث على التّقول بها لولا أنّ الرّسول أتى بشئٍ على خلاف ميلهم و رضاهم و من المعلوم أنّ غزوة تبوك كانت مثل غيرها من الغزوات فلم لم يقولوا بها في غيرها و هذا بخلاف نصب أمير المؤمنين في غدير خمّ فأنّ هذه الحادثة كانت غير مترقبة و لأجل ذلك قالوا ما قالوا.

و حيث أنّ الأمر في المقام يدور بين الأمرين، غزوة تبوك، و قصّة غدير خم فاذا إنتفى الأوّل بقي الثّاني على قوّته و هو المطلوب.





وَ مِنْهُمْ مَنْ عٰاهَدَ اَللّٰهَ لَئِنْ آتٰانٰا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصّٰالِحِينَ

١- ج ٢ ص ٢٤٣ و ص ٢٤٥

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ بعض المنافقين الّذين تقدّم ذكرهم كان كذلك قيل نزلت الآية في بلتعة بن حاطب كان محتاجاً فنذر لئن إستغنىٰ ليصَّدقن فأصاب أثني عشر ألف درهم فلم يتَّصدق فلم يكن من الصّالحين هكذا قال الواحدي.

و قال إبن إسحاق هما بلتعة و مقنب بن قثير و قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب و كان من الأنصار فقال للنّبي أدع اللّه أن يرزقني مالاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه أما لك بي أسوة حسنة و الذّي نفسي بيده لو أردت أن تصير الجبال معي ذهباً و فضّة لصارت ثمّ أتاه بعد ذلك فقال يا رسول اللّه أدع اللّه أن يرزقني مالاً و الَّذي بعثك بالحقّ لئن رزقني اللّه مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقٍّ حقّه فقال صلى الله عليه وآله وسلم اللّهم أرزق ثعلبة مالاً قال فإتَّخذ غنماً فنمت كما ينموا الدُّود فضاقت عليه المدينة فتّنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثمّ كثرت حتّى تباعد عن المدينة فإشتغل بذلك عن الجمعة و الجماعة و بعث رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم اليه المصدق ليأخذ الصَّدقة فأبى و بخل و قال ما هذه إلاّ أخت الجزية فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة و أنزل اللّه الأيات.

و قيل نزلت في رجال من المنافقين ثبل بن الحارث وجدب بن قيس و ثعلبة بن حاطب و معتب بن قثير عن الضّحاك ذكره الطّبرسي قدس سره في المجمع.

و كيف كان يظهر من الآية وجوب الوفاء بالعهد فأنّ المؤمن اذا وعد وفى، و حلف العهد من علائم النّفاق ولهذا عدَّ اللّه تعالى من نزلت الآية في حقّه من المنافقين.

و قال و منهم، أي من المنافقين، ثمّ أردف كلامه بقوله:

فَلَمَّآ اٰتیٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

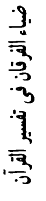
أي فلمّا أتاهم من فضله من الأموال بخلوا بتَّصدقه و توّلوا و أعرضوا عمّا قالوا و عاهدوا اللّه عليه كما هو شأن المنافق.

و قيل قوله معرضون إخبارٌ منه تعالى بأنّهم معرضون عن الحقّ بالكليّة و كيف كان لا شكّ أنّ المنافق في الحقيقة لا قول له و لا عهد لأنّ الإلتزام بالقول و العهد من شئون المؤمن.

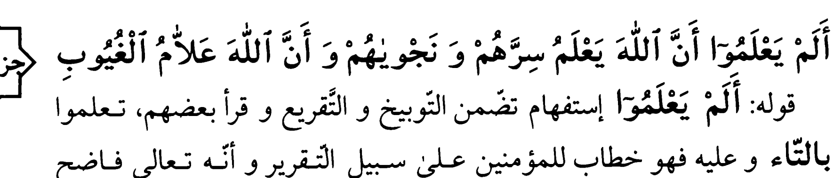
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

أي فأعقبهم اللّه نفاقاً في قلوبهم بيّن اللّه تعالى أنّه أعقب هؤلاء المنافقين أي أورثهم و أدَّاهم الى نفاقٍ في قلوبهم بخلهم بما أتاهم اللّه من فضله مع الإعراض عن أمر اللّه.

و قال مجاهد معناه أعقبهم ذلك بحرمان التّوبة كما حرم إبليس و جعل ذلك إمارة و دلالة على أنّهم لا يتوبون أحداً لأحد شيئين فمن قال أعقبهم بخلهم ردَّ الضّمير في أعقبهم الى البخل و عليه فالمعنى يلقون جزاء بخلهم و من ذهب الى أنّ الّه أعقبهم ردّ الضّمير الى إسم اللّه و يمكن الجمع بين القولين بأنّ الضّمير يرجع الى إسم اللّه ظاهراً أي أنّ اللّه أعقبهم و لكن سبب ذلك بخلهم بما وعدوا اللّه و كذبهم في قولهم.



و قال الزّمخشري خذلهم اللّه حين نافقوا و تمّكن من قلوبهم نفاقهم فلا ينّفك عنها الى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا اللّه من التّصدق و الصّلاح و كونهم كاذبين و منه خلف الموعد ثلث النّفاق انتهىٰ.



أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَيٰهُمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ

قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا** إستفهام تضّمن التّوبيخ و التّقريع و قرأ بعضهم، تعلموا **بالتّاء** و عليه فهو خطاب للمؤمنين علىٰ سبيل التّقرير و أنّه تعالى فاضح المنافقين و معلم المؤمنين أحوالهم الّتي يكتمونها شيئاً فشيئاً سرّهم و نجواهم إشارة الى إحاطة علم اللّه تعالىٰ بهم و أنّه لا يخفى عليه شئ.

و الظّاهر أنّ الآية تشمل جميع المنافقين من عاهد و أخلف و خصّتها فرقة بمن عاهد و أخلف.

قيل سرّهم ما يسّار بعضهم بعضاً و نجواهم ما تحدّثوا به جهراً بينهم و المعنى واضح.

■



ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ وَ ٱلَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ إِلاّٰ جُـهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللّٰهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذاٰبٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرْ لَـهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللّٰهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱللّٰهُ لاٰ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفاٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاٰفَ رَسُولِ ٱللّٰـهِ وَ كَـرِهُوٓا أَنْ يُـجاٰهِدُوا بِأَمْواٰلِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ قاٰلُوا لاٰ تَنْفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ ناٰرُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كاٰنُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزٰآءً بِماٰ كاٰنُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللّٰهُ إِلٰى طآئِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقاٰتِلُوا مَعِىَ عَـدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَـعَ ٱلْخاٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَ لاٰ تُصَلِّ عَلٰىٓ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماٰتَ أَبَدًا وَ لاٰ تَقُمْ عَلٰى قَبْرِهِۤ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِـاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماٰتُوا وَ هُمْ فاٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَ لاٰ تُعْجِبْكَ أَمْواٰلُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّماٰ يُرِيدُ ٱللّٰهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِـهاٰ فِـى ٱلدُّنْـيا وَ تَـزْهَقَ أَنْـفُسُهُمْ وَ هُـمْ كاٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

◀ اللّغة

يَلۡمِزُونَ، لَمَزه يَلمُز لَمزاً اذا إنتقصه و عابه.

ٱلۡمُطَّوِّعِينَ على ميزان المتَّفعلين و تقديره المُتَّطوعين فأُدغمت التّاء في الطّاء و معناه المُتَّنقلين من طاعة اللّه بما ليس بواجب عليهم.

جُهۡدَهُمۡ بالضمّ والفتح كالضَّعف و الضُّعف **والوَجد و الوُجد**. قال الشّعبي الجُهد في العمل و الجهد في القوت.

سَخِرَ قال الرّاغب سخرت منه و إستخرتُه للهزء منه، السخّرية الإستهزاء و السُّخرية و السَّخرية لفعل السّاخر.

ٱسۡتَغۡفِرۡ الإستغفار طلب المغفرة من اللّه تعالىٰ بالدّعاء بها و المغفرة ستر المعصية برفع العقوبة عليها.

فَرِحَ الفرح ضدّ الغمّ و الغمّ ضيق الصّدر بفوت المشتهى.

فِى ٱلۡحَرِّ الحرّ ضدّ البرد و المراد به في المقام هو حرارة الشّمس و الباقي واضح.

◀ الإعراب

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ مبتدأ و مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حال من الضّمير في المُطّوعين و فِى ٱلصَّدَقَٰتِ متعلّق بيلمزون لا بالمطّوعين لئلا يفصل بينهما بأحبني وَ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ معطوف على الّذين يلمزون و قيل علىٰ المطّوعين و قيل على المؤمنين وخب الأوّل على هذه الوجوه فيه وجهان:

أحدهما: فَيَسۡخَرُونَ.

الثّانى: أنّ الخبر سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ و قيل الخبر محذوف و تقديره منهم الّذين يَلمزون سَبۡعِينَ مَرَّةً هو منصوب علىٰ المصدر و العدد يقوم مقام المصدر كقولهم ضربتهم عشرين ضربة بِمَقۡعَدِهِمۡ أي بقعودهم و خِلَٰفَ

ظرف بمعنى خلف رَسُولِ ٱللَّهِ أي بعده و العامل فيه مقعد و يجوز أن يكون العامل فيه، فَرِح و قيل هو مفعول من أجله قَلِيلًا أي ضحكاً قليلاً أو زمناً قليلاً و جَزَآءً مفعول له أو مصدر على المعنى فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ هي متعدّية بنفسها و مصدرها، رجع و تأتي لازمة و مصدرها الرّجوع مِنْهُمْ صفة لأحدٍ و مَاتَ صفة أخرىٰ و يجوز أن يكون منهم حالاً من الضّمير في ماتَ.

◀ **التّفسير**

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ

قيل نزلت الآية في علية بن زيد الحارث و زيد بن أسلم العجلاني فجاء علية بصاع من تمرة فنثره في الصَّدقة و قال يا رسول اللّه عملت في النّخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً قرضته ربّي و جاء زيد بن أسلم بصدقة فقال معتب بن قيثر و عبد اللّه بن نهيك أنّما أراد الرّياء و قال قتادة و غيره من المفسرين أنّ هذه الآية نزلت في حجاب بن عثمان لأنّه أتى النبّي بصاع من تمرٍ و قال يا رسول اللّه أنّي عملت بصاعين في النّخل من تمرٍ فتركت للعيال صاعً و أهديت للّه صاعاً و جاء عبد الرّحمن بن عوف بأربعة الآف دينار و هي شطر ماله للصدّقة فقال المنافقون أنّ عبد الرّحمن لعظيم الرّياء و قالوا في الآخر أنّ اللّه لغنى عمّا أتى به فأنزل اللّه تعالىٰ الآية فقال: **ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ** أي ينسبونهم الىٰ النّقص في النّفس الخ قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين من العامّة نزلت الآية فيمن عاب المصدّقين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حثّ علىٰ الصدّقة فتصدّق عبد الرّحمٰن بن عوف بأربعة الآف و أمسك مثلها فبارك له الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما أمسك و فيما أعطى و تصدّق عمر بنصف ماله و عاصم بن عدي بمائة وسق و عثمان بصدقة عظيمة و أبوعقيل الأرتشي بصاع تمرٍ و ترك لعياله صاعاً، و رجلٌ بناقة عظيمة قال هي و ذو بطنها صدقة يا رسول اللّه و ألقى الى الرّسول خطامها فقال المنافقون ما تصدّق

هؤلاء إلاّ رياءً و سمعة الى آخر ما قال و الحقّ أنّ ما ذكروه من المتّصدقين لا دليل عليه و الّذي نقطع به هو وجود المتصدّقين و الآخرين **وَ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** قلنا أنّ الجهد و الجهد لغتان بمعنى واحد و قد قُرأ اللّفظ بهما.

و قال القتبي هو بالضمّ الطّاقة و بالفتح المشقة.

و قال الآخر هو بالضمّ في الطّاعات و بالفتح في تحصيل الرّزق و غيره.

و قال الآخر هو بالضمّ القوت و بالفتح العمَل ثمّ أنّ قوله: **وَ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ** معطوف على الّذين يلمزون ذكره أبو البقاء و إعترض عليه بأنّه غير ممكنٍ لأنّ المعطوف علىٰ المبتدأ مشارك له في الخبر و لا يمكن مشاركة الّذين لا يجدون إلاّ جهدهم مع الّذين يلمزون إلاّ أن كانوا مثلهم منافقين، و الحقّ أنّه معطوف على المطوّعين كأنّه قيل يلمزون الأغنياء و غيرهم من الّذين لا يجدون إلاّ جهدهم وقوله: **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** يعني أنّ المنافقين يهزؤن بالمطّوعين **سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ** أي يجازيهم اللّه علىٰ سخريتّهم بأنواع العذاب، و لهم عذابٌ أليم، أي مؤلم موجع و لمّا كان ضرر سخريّتهم عائداً اليهم جاز أن يقال سخر اللّه منهم لا أنّه تعالىٰ يفعل السُّخرية و ذلك كقوله تعالىٰ: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللَّهُ وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ**[1] أي و مكروا و جازاهم اللّه بِمَكرهم لا أنّه تعالى مكر بهم و يستفاد من الآية أنّ اللّمز أي نسبة النّقص في نفوس المطوّعين في الحقيقة من الإستهزاء و السُّخرية فكأنّهم أي المنافقين يهزؤون بالمطّوعين في بذل أموالهم و التَّصدق بهما و يعدّونهم من السُّفهاء و لذلك:

وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

١- آل عمران = ۵۴

قال صاحب الكشّاف سئل عبد اللّه بن أبّي رسول اللّه و كان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل فنزلت الآية فقال رسول اللّه أنّ اللّه قد رخّص لي فسأزيد على السّبعين فنزلت سواء عليهم إستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم إنتهىٰ.

و المراد بالسّبعين المبالغة لا العدد المخصوص و يجري ذلك مجرى قول القائل لو قلت ألف مرّة ما قبلت فالمراد نفي الغفران جملة، والّذي نقول في سبب نزول الآية هو أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان إذا مات ميّت من المسلمين صلّى عليه و أستغفر له بحكم ظاهر الإسلام لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن مأموراً بالواقع فأعلمه اللّه تعالىٰ أنّ في جملة من تصلّي عليهم من هو منافق و أنّ إستغفاره له لا ينفع قَلّ ذلك أم كثر ثمّ نَهىٰ اللّه نبيّه أن نصّلي على أحدٍ منهم و أن يستغفر له حين عرفه إيّاهم فقال: **وَ لَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ** و علّل ذلك بقوله: **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِۦ وَ ٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ** و الكافر الفاسق إذا مات على كفره وفسقه من غير توبة فهو لا يصلح للمغفرة هذا.

وأعلم أنّ ما ذكره صاحب الكشّاف من أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قال فسأزيد على النّبيين فنزلت الآية لا يلتفت اليه و ذلك لأنّ ما ذكره مأخوذٌ ممّا رووه عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال **واللّه لأزيّدن علىٰ السّبعين** و هو خبر واحد لو لم يكن مجعولاً لا يلتفت اليه و كيف يقول النّبي ذلك و هو صلّى الله عليه وآله وسلّم كان عالماً بأنّ عدد السّبعين للمبالغة و الكثرة و لا يراد به العدد المخصوص و بعبارةٍ أخرى خصوصّية العدد لا دخل لها في المقصود حتّى يقال فسأُزيد علىٰ السّبعين و إذا كان كذلك فما ذكره صاحب الكشّاف و تبعه عليه غيره لا معنىٰ له و قال بعض آخر منهم أنّ الظّاهر أنّ المراد بهذا الكلام التّخيير و هو الّذي روي عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و قد قال له عمر كيف تستغفر لعدّو اللّه و قد نهاك اللّه عن الإستغفار لهم فقال النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ما نهاني و لكنّه خيّرني فكأنّه قال له عليه السلام أن

شئت فأستغفر و أن شئت فلا تستغفر ثمّ أعلمه أنّه لا يغفر لهم و أن إستغفر سبعين مرّة، و هذا القول أيضاً لا يرجع الى محّصلٍ أذ لا يستفاد منه التّخيير أصلاً و التّخصيص أن قوله إستغفر لهم صيغة صيغة الأمر و هذا ممّا لا كلام فيه و المراد به المبالغة في الأياس من المغفرة أنّه لو طلبها طلبة المأمور بها أو تركها ترك المنّهي عنها لكان ذلك على حّدٍ سواء في أنّ اللّه لا يفعلها كما قال في موضع آخر من كتابه: **سَوآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللّٰهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفٰاسِقِينَ**[١] والقرآن يُفسّر بعضه بعضاً و محصّل الكلام أنّ المقصود هو أنّ هٰؤلاء الّذين كفروا باللّه و رسوله و ماتوا على ذلك لن يغفر اللّه لهم أبداً و إنّما قال لن يغفر و لم يقل لا يغفر أنّ كلمة، لن، تُفيد، نفي الأبدكان كذلك فالإستغفار و عدمه بالنّسبة اليه على حّد سواء و يظهر منه أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان مأموراً مأذوناً بالصّلاة على كلّ مسلمٍ مات بحكم ظاهر الشّريعة ثمّ أعلمه اللّه تعالى بأنّ الصّلاة و الإستغفار علىٰ هؤلاء المانفقين لا تنفعهم أبداً و سيأتي مزيد بيان في هذا الباب في سورة المنافقين إنشاء اللّه تعالىٰ.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱللّٰهُ لا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفٰاسِقِينَ

هذا الكلام بمنزلة التّعليل لقوله فلن يغفر اللّه لهم، فكأنّه قيل و لم لن يغفر اللّه لهم فقال تعالى لكفرهم باللّه و رسوله.

و الظّاهر أنّ الكفر في المقام هو كفر الجحود أي جحدوا نعمه و جحدوا نبوّة الرّسول لا كفر الإرتداد أو الكفر الأصلي و ذلك لأنّ الكلام في المنافقين لا الكفّار فالمقصود أنّهم كفروا باللّه و رسوله واقعاً و أن أظهروا الإسلام ظاهراً قوله: **وَ ٱللّٰهُ لا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفٰاسِقِينَ** فمعناه أنّه تعالىٰ لا يهديهم الى طريق الجنّة و الثّواب فأمّا الهداية الى الإيمان بالإقرار بالتّوحيد و الإعتراف بنبوّة

١- المنافقون =٦

النّبي فقد هدىٰ اللّه اليه كلّ متمكّن من النّظر و الإستدلال بأن نصب له على ذلك الدّلالة و أوضحها له قاله بعض المفسّرين و هو كذلك.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ

قيل أنّ جماعة من المنافقين خلفّهم النّبي في المدينة و لم يخرجهم الى تبوك و ذلك لأنّهم إستأذنوه في التّأخر عن الخروج مع الرّسول فأذن لهم الرّسول في القعُود ففرحوا بذلك لأنّهم **كَرِهُوٓا۟ أَنْ يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** هذا الكلام بمنزلة التّعليل للخروج أي أنّهم إستأذنوه في التأخّر لكراهتهم أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه.

ولم يعلموا أنّ التّخلف عن الجهاد من غير عذرٍ من أكبر الذّنوب كما أنّ الجهاد في سبيل اللّه بالأموال و الأنفس من أعظم القربات و أشرف الفضائل فكيف يفرح المسلم بترك الجهاد، و أشنع منه منعهم نظرائهم أيضاً عن الخروج مع الرّسول كما قال تعالىٰ: **وَ قَالُوا۟ لَا تَنْفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ** أي و قال هؤلاء المنافقين المتّخلفين عن الجهاد لغيرهم من نظرائهم و أمثالهم لا تنفروا في الحرّ أي لا تخرجوا في الوقت الحاّر فقال اللّه لنّبيه قل لهم نار جهنّم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون.

و المعنىٰ أنّهم تخلّفوا عن الجهاد في الدّنيا لأجل الحرّ و لم يعلموا أنّهم وقعوا بذلك التّخلف في حرارة جهنّم الّتي لا يقاس بحرارة الشّمس في الدّنيا و بعبارةٍ أخرى فرّوا عن حرارة الشّمس و وقعوا في حرارة النّار في جهنّم بتركهم الجهاد، و هو دليل علىٰ عدم تفقّهم في الدّين و أنّهم أوقعوا نفوسهم في الهلاكة من حيث لا يحتسبون و لا يشعرون.

روي أنّ رسول اللّه ﷺ لقى الحرّ بن قيس (جدّ بن قيس خ ل) فقال له يا أبا وهب ألا تنفروا معنا في هذه الغزاة لعلّك أن تحتقد من بنات الأصفر فقال يا رسول اللّه و اللّه أنّ قومي ليعلمون أنّه ليس فيهم أحد أشدّ عجباً بالنّساء منّي

و أخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتّني و أئذن لي أن أقيم و قال لجماعةٍ من قومه لا تخرجوا في الحرّ فقال إبنه تردّ علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و تقول ما تقول ثمّ تقول لقومك لا تنفروا في الحرّ واللّه لينزّلن اللّه تعالى في هذا قرآناً يقرأه النّاس الى يوم القيامة.

فأنزل اللّه تعالىٰ على رسوله في ذلك و منهم من يقول أئذن لي، و نزل فيه أيضاً قوله: **فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ.**

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

قوله: **فَلْيَضْحَكُوا** صيغته صيغة الأمر و معناه معنى التّهديد و ليس أمراً بالضحّك و ذلك لأنّ اللاّم فيه ساكنة ولو كانت لام الأضافة لكانت مكسورة لأنّها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها.

و قال القرطبي و الأصل أن تكون اللاّم مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها.

قال الحسن معناه، فليضحكوا قليلاً في الدّنيا و لبيكوا كثيراً في الأخرة في جهنّم و قيل هو أمرٌ بمعنى الخبر أي أنّهم سيضحكون قليلاً و يبكون كثيراً و قوله: **جَزَآءً** أي للجزاء فهو مفعول من أجله و قيل هو منصوب على المصدر أي تجزون على معاصيكم ذلك جزاء علىٰ أفعالكم الّتي إكتسبتموها ثمّ شدّد النّكير علىٰ المنافقين المتخلّفين عن رسوله في الجهاد.

فَإِن رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا

يعني إن ردّك اللّه تعالىٰ الىٰ طائفةٍ يعني جماعةٍ من هؤلاء المنافقين فأستئذنوك للخروج الىٰ الجهاد فقل في جوابهم لن تخرجوا معي الى الجهاد أبداً و لن تقاتلوا معي عدّواً و ذلك **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ** و المعنىٰ واضح لا خفاء فيه.

و محصّل الكلام هو أنّ هؤلاء لنفاقهم لا يعتمد عليهم فتركهم أولى و أصلح للإسلام والمسلمين.

وَ لَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ

هذا نهيٌ من اللّه تعالىٰ لنبيّه عن الصّلاة علىٰ المنافقين بعد موتهم و القيام علىٰ قبورهم بأن يتولّى الرّسول دفن المنافق

روي أنّ هذه الآية نزلت في شأن عبد اللّه بن أبّي بن سلول و صلواة النّبي ﷺ عليه فقال بعضهم أنّ النّبي صلّى عليه ثمّ نزلت الآية.

و قال الأخر أنّ النّبي لمّا تقدّم ليصلّي عليه جاءه جبرائيل فحبذ ثوبه وتلا عليه و لا تصّل على أحدٍ منهم مات أبداً فأنصرف رسول اللّه و لم يصلّ عليه و المشهور عند العامّة هو أوّل القولين.

و قد نقل القُرطبي في تفسيره عن البخاري عن إبن عبّاس أنّه قال فصلّىٰ عليه رسول اللّه ﷺ ثمّ أنصرف فلم يمكث إلاّ يسيرا حتّىٰ نزلت.

قال القرطبي و نحوه عن إبن عمر خرّجه مسلم قال إبن عُمر لمّا توّفى عبد اللّه بن أبّي بن سلول جاء إبنه عبد اللّه الىٰ رسول اللّه فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه ثمّ سأله أن يصلّي عليه فقام رسول اللّه ﷺ ليصلّي عليه فقام عُمر و أخذ بثوب رسول اللّه فقال يا رسول اللّه أتصلّي عليه نهاك اللّه أن تصلّي عليه فقال رسول اللّه ﷺ أنّما خيّرني اللّه تعالى فقال: **اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** و سأزيد على سبعين قال أنّه منافق فصلّي عليه رسول اللّه فأنزل اللّه و لا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً و لا تقم علىٰ قبره فترك الصّلوة عليهم و قال بعضهم أنّما صلّى النّبي ﷺ علىٰ عبد اللّه بن أبّي بناءً على الظّاهر من لفظ إسلامه ثمّ لم يكن يفعل ذلك لمّا نهي عنه انتهىٰ.

و قال الطّبري في تفسيره نقلاً عن قتادة أنّه أرسل عبد اللّه عبد اللّه بن أبّي بن مسلول و هو مريض الى النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم فلمّا دخل عليه قال له النّبي أهكلك حُبّ اليهود قال يا رسول اللّه أنّما أرسلت اليك لتستغفر لي و لم أرسل اليك لتؤنبني ثمّ سأله عبد اللّه أن يعطيه قميصه أن يكفّن فيه فأعطاه أيّاه و صلّىٰ عليه و قام علىٰ قبره فأنزل اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِنْهُمْ** و قال في حديث آخر بعث عبد اللّه إبن أُبّي الىٰ رسول اللّه و هو مريض ليأتيه فنهاه عن ذلك عُمر فأتاه النّبي فلمّا دَخل عليه قال له أهكلك حُبّ اليهود فقال عبد اللّه أنّي لم أبعث اليك لتؤنبني و لكن بعثت اليك لتستغفر لي و سأله قميصه أن يكفّن فيه فأعطاه أيّاه فأستغفر له رسول اللّه فمات فكفن في قميص رسول اللّه و نفث في جلده و دّلا في قبره فأنزل اللّه: **وَ لَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا.**

ثمّ قال الطبري أنّ نبّي اللّه كلّم في ذلك فقال و ما يغني عنه قميصي من اللّه و صلاتي عليه و أنّي لأرجو أن يسلم به ألف من قومه انتهىٰ كلامه.

أقول لا كلام لنا و لهم في أنّ اللّه تعالىٰ نهى نبيّه عن أن يصلّي على أحدٍ من المنافقين أو يقوم على قبره بمعنى أن يتولّى دفنه أو ينزل في قبره لأنّهم كفروا باللّه و رسوله وماتوا على الكفر و الفسق.

هذا هو الّذي يستفاد من الآية الشّريفة و هذا حكمٌ من اللّه تعالى كغيره من الأحكام و لا يحتاج الى شأن نزولها من أنه صلّی الله علیه و آله و سلّم صلّى علىٰ عبد اللّه بن أبّي أو أراد أن يصلّي فنزل جبرئيل و جذب ثوبه (جَبَذ ثوبه) تلا عليه الآية أو أنّ عُمر أخذ بثوب رسول اللّه و قال له أتصلّي عليه و قد نهاك اللّه أن تصلّي عليه كلّ ذلك لا يعتمد عليه و ذلك لأنّ الرّسول كان يصلّي علىٰ كلّ مسلم قبل ذلك منافقاً كان أو مؤمناً لأنّه صلّی الله علیه و آله و سلّم كان مأموراً بظاهر الشّريعة إلاّ أنّ اللّه تعالى منعه بعد نزول الآية و النّبي لم يصلّ بعد نزولها قطعاً و أمّا أنّ جبرئيل جبذ ثوبه لمّا تقدّم ليصلّي علىٰ عبد اللّه أبيّ فهو إهانة بالرّسول و تحقير له وهكذا أخذ عمر

بثوبه اذ لقائلٍ أن يقول لناقل الحديث كان أخَذ عُمر بثوب رسول اللّه قبل نزول الآية أو بعده.

فعلى الأوّل كان عُمر عاصياً مخالفاً لحكم الشّرع اذ لا يجوز لأحدٍ أن يمنع عن الصّلاة على الميّت المسلم مضافاً الىٰ أنّ منع الرّسول عن شئٍ بمنزلة الرّد عليه و هو في حكم الكفر و أن كان بعد نزُول الآية فكيف أقدم الرّسول على الصّلاة عليه و قد نهاه اللّه تعالى عنها كما هو المفروض.

و بعبارةٍ أخرى أن كان أخذ عمر بثوب رسول اللّه و نهيه إيّاه عن الصّلاة قبل نزول الآية فهو أي عمر كان عاصياً راداً علىٰ اللّه و رسوله و أن كان بعده يلزم أن يكون الرّسول صلّی الله علیه و آله و سلّم عاصياً لإقدامه على الصّلاة المنّهي عنها.

لا سبيل الى الشّق الثّاني فالأوّل مسلَّم هذا إن قلنا بصحّة ما رووه في الباب و حيث أنّهم لا يرضون بعصيان عُمر فالحديث مجعول لا أصل له المطلوب.

و قد أجاب القرطبي بزعمه عن هذا الإشكال في تفسيره فقال:

الثّانية: أن قال قائل فكيف قال عمر أتصلّي عليه و قد نهاك اللّه أن تصلّي عليه و لم يكن تقدّم نهيٌ عن الصّلاة عليهم.

قيل له يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره و يكون من قبيل الإلهام و التّحدث الّذي شهد له به النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم و قد كان القرأن ينزل علىٰ مراده كما قال وافقت ربّي في ثلاث و جاء في أربعه و قد تقدّم في البقرة فيكون هذا من ذاك انتهىٰ ما أردنا نقله عنه.



أقول أمّا ما نقله في البقرة فهذا لفظه:

الثّانية: روي إبن عُمر قال قال عمر وافقت ربّي في ثلاث في مقام إبراهيم و في الحجاب و فى أسارى بدر خرّجه مسلم و خرّجه البخاري.

عن أنس قال قال عُمر وافقت اللّه في ثلاث أو وافقني ربّي في ثلاث الحديث و أخرجه أبو داود الطّيالسي في مسنده.

فقال حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا علّي بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال عُمر وافقت ربّي في أربع، قلت يا رسول اللّه لو صلّيت خلف المقام فنزلت هذه الأية:

وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى(١).

و قلت يا رسول اللّه لو ضَربت علىٰ نساءك الحجاب فأنّه يدخل عليهنّ البّر و الفاجر فأنزل اللّه:

وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعًا فَاسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰآءِ حِجابٍ(٢).

و نزلت هذه الأية:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ(٣).

فلمّا نزلت قلت أنا تبارك أحس الخالقين فنزلت:

فَتَبارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ(٤).

و دخلت علىٰ أزواج النّبي فقلت لتنتهنّ أو ليبّدلنه اللّه بأزواجٍ خير منكنّ فنزلت الأية:

عَسىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ(٥).

قال القُرطبي قلتُ ليس في هذه الرّواية ذكر للأسارىٰ فتكون موافقة عُمر في خمس انتهىٰ كلامه(٦).

أقول لسنا فعلاً بصدد الجواب عن هذه الأراجيف و الأباطيل الّتي إدّعوها في المقام و أمثاله لأنّ العمر أعزّ و أشرف من صرفه في ردّ هذه الكلمات بل المقصود من نقلها أن يعلم المسلم المنصف أنّهم هكذا يفسّرون القرأن و يوجّهون الأحاديث المجعولة فيدّعون أنّ عمر كان ملهماً من عند اللّه دون رسوله و لم يعلموا أو لم يبالوا بأنّ هذا تحقيرٌ لرسول اللّه و تنقيصٌ لنبوّته وأنيّ

١- البقرة = ١٢٥
٢- الاحزاب = ٥٣
٣- المؤمنون = ١٢
٤- المؤمنون = ١٤
٥- التحريم = ٥
٦- ج ٢ ص ١١٢

لا أظنّ أنّ من أمن باللّه و برسوله يرضى به و كيف يرضى المسلم فضلاً عن المؤمن أنّ نساء النّبي كان يدخل عليهنّ البّر و الفاجر و أنّي أعتقد أنّ هذه التّعبيرات الموهنة من عُمر أو من أيّ شخصٍ كان لو صحّت لا تلائم الإسلام أصلاً فضلاً عن أن يكون القائل ملهماً.

و محصّل الكلام في المقام هو ما ذكرناه من أنّ الآية نزلت على رسول اللّه و قد نهى اللّه رسوله بنزولهما عن الصّلاة على المنافقين و التّولي لأمور أمواتهم من التّكفين و التّدفين و الإستغفار و هذا هو المطلوب.

و أمّا الأقاصيص المنقولة فلا يعتمد عليها أصلاً والعجب كلّ العجب من الرّازي و هو كيف حكم بصحّة القصّة و أثبت بها فضيلة لعُمر قال.

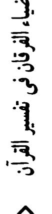
وإعلم أنّ هذا يدّل على منقبةٍ عظيمة من مناقب عمر و ذلك لأنّ الوحي نزل على وفق قوله في أيات كثيرة ثمّ عدَّ منها ما نقلناه عن القرطبي في حديثه من أمر النّسوان و أسارى بدر و أضاف اليها أية تحريم الخمر ثمّ قال.

خامسها: هذه الآية فصار نزول الوحي على مطابقة قول عمر منصباً عالياً و درجة رفيعة في الدّين و لهذا قال عليه الصّلاة و السّلام في حقّه، لو لم أبعث لبعث يا عمر انتهى كلامه.

أقول هذا رجلٌ يدّعي الفلسفة و التّوغل فيها و هذا الذّي نقلناه عنه يدّل علىٰ أنّه لم يكن عاقلاً فضلاً عن كونه فيلسوفاً و ذلك لأنّ الحديث الّذي ذكره في أخر كلامه ينادي بأعلى صوته أنّه مجعول بل هو بكلام المجانين أشبه منه بكلام العاقل فإعتبروا يا أولى الأبصار.

و لقائلٍ أن يقول اذا كان حال المنافق هكذا فلم مكّن اللّه بعضهم بالأموال و الأولاد في الدّنيا أليس هذا التّمكن ممّا يزيد أو يعين على أعمال النّفاق.

فأجاب اللّه تعالىٰ بقوله: **وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ**



الخطاب في ظاهر الأمر للنّبي و فی الحقيقة لكلّ مخاطبٍ من أفراد أمّته لأنّ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان عالماً بمفاد الآية قطعاً و لم يكن من المعجبين و معنىٰ الآية أنّ كثرة الأموال و الأولاد في الدّنيا لا تدلّ على أنّ صاحبها محبوبٌ عند اللّه و أنّه يليق بها.

ألا ترى أنّ أكثر الكفّار من عبدة النيران والأوثان متّنعمون متّمكنون بأنواع النِّعم في كلّ عصرٍ و زمانٍ حتّى زماننا هذا فضلاً عن المنافقين بل كثرة النّعم في المؤمن لا تزيد إلاّ شكراً للّه تعالى و فی الكافر و المنافق و الفاسق لا تزيد إلاّ خسارةً و وبالاً و كفراناً و عذاباً في الدّنيا و الأخرة و الى هذه الدقيقة أشار اللّه تعالى في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **اِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لاَ أَوْلادُهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ شَيْئًا وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنّارِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ شَيْئًا وَ أُولٰئِكَ أَصْحابُ ٱلنّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**[٣].

أن قلت يمكن أن يعذّب اللّه الكفّار في الدّنيا و فی الأخرة لكفرهم فقط لأنّه في الحقيقة موجبٌ للعذاب من غير ن يعطيهم الأموال والأولاد.

قلت أنّ العذاب على الفعل و هو لا يتّحقق إلاّ بأسبابه و مقدماته و من أسبابه الأموال و الأولاد اذ بها يتمّكن الفاعل على أفعالٍ لا يتمّكن عليها بغيرها فأنّ من ليس له ولد و لا مال في دار الدنيّا لا يقدر على كثير من المعاصي بخلاف صاحب المال والأولاد فأنّه يقدر على أكثر ممّا يقدر عليه

١- أل عمران =١٠
٢- أل عمران =١١٦
٣- أل عمران =١٧٨

الفقير مثلاً و لعلّه لذلك الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله ليزدادوا إثماً أي أنّ القدرة الماليّة و الأعوان و الأنصار توجب الإزدياد في الإثم آناً فآناً و هو معلوم مشاهد لكلّ أحدٍ في عصره و زمانه.

و قد سبق الكلام في هذا الباب عند قوله تعالىٰ:

فَلاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِى اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ[1].

فأنّ الآية قد ذكرت في موضعين من هذه السُّورة و قد تكلّمنا فيها هناك فلا نعيد الكلام بإعادته ثانياً.

قال بعض المفسّرين أنّ المراد بتعذيبهم في الدّنيا هو أنّهم لا ينفقون الأموال في طاعة اللّه و لا يخرجون حقّ اللّه منها و هذا عذاب لهم لو كانوا يعلمون.

و قال بعضهم يجوز أن يعذّبهم في الدنيّا بما يلحقهم فيها من المصائب و العموم و بما يأخذه المسلمون على وجه الغنيمة و بما يشقّ عليهم من إخراجها في الزّكاة و الإنفاق في سبيل اللّه مع إعتقادهم بطلان الإسلام وتشدّد ذلك عليهم و يكون عذاباً لهم و أنّ نفوسهم تزهق أي تهلك بالموت و هم كافرون أي في حال كفرهم فلذلك عذّبهم اللّه في الأخرة.

أقول و يمكن أن يكون المراد بقوله: **أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِى اَلدُّنْيٰا** هو تحريصهم على جمع الأموال كيف إتّفق و حفظهم الأولاد للدنيّا من دون أن ينتفعوا بها فيها و لا شكّ أنّ فيه مشقّة عظيمة و عذاب أليم لمن كان له أدنى بصيرة و ذلك لأنّه قد جمع الأموال لغيره في الحقيقة و هو واضح.

■

١- التّوبة =٥٥

وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ «۸۶» رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ «۸۷» لٰكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۸۸» أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «۸۹» وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «۹۰» لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضىٰ وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۹۱» وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ «۹۲» إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ «۹۳»

◀ اللّغة

أُولُوا ٱلطَّوْلِ بفتح الطّاء أي ذوي الغنى و الثّروة.

ذَرْنا بفتح الّذال أي أتركنا.

مَعَ ٱلْخَوالِفِ جمع خالفة و هم أصحاب الأعذار من النّساء و الصّبيان و الرّجال و قيل هي جمع خالفة في الرّجال اذا كان غير نجيب يقال فلان خالفة أهله اذا كان دونهم.

ٱلْمُعَذِّرُونَ بفتح العين و تشديد الذّال و قد قرأ بسكون العين و تخفيف الذّال و لكلٍّ وجه.

ٱلضُّعَفٰآءِ جمع ضعيف و المرضى جمع مريض.

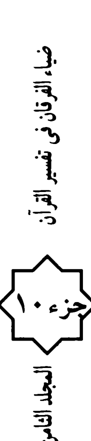
حَرَجٌ بفتح الحاء و الرّاء معناه الضّيق و المشقّة.

حَزَنًا الحزن بفتح الحاء و الزّاء ألم في القلب لفوت أمرٍ.

يَسْتَأْذِنُونَكَ يطلبون منك الإذن.

◀ الإعراب

أَنْ ءامِنُوا أي أمنوا والتّقدير يقال فيها أمنوا و قيل أنّ هنا مصدّرية تقديره أنزلت بان أمنوا أي بالإيمان إِذٰا نَصَحُوا العامل فيه معنى الكلام أي لا يخرجون حينئذٍ وَ لا عَلَى ٱلَّذِينَ هو معطوف على الضُّعفاء فيدخل في خبر ليس و أن شئت عطفته على المحسنين فيكون المبتدأ من سبيل وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ الجملة في موضع الحال ؤ حَزَنًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو منصوب على المصدر بفعلٍ دلّ عليه ما قبله.



◀ التّفسير

وَ إِذآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءامِنُوا بِاللّٰهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

بيّن اللّه تعالى أنّه اذا أنزل سورة من القرأن و حكم اللّه فيها بالإيمان و

الجهاد و الخطاب للجميع لأنّ جميع المسلمين كانوا مأمورين بالإيمان و الجهاد و مع ذلك يعتذر المنافق و يقول كذا وكذا و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ** أي يطلبون منك ترك الجهاد خصَّ اللّه بالإستئذان من الرّسول أولي الطَّول منهم أي ذوي الغنى و الثَّروة دون الفقراء لأنّ الجهاد فيه فظّنته القتل و الخرج و من المعلوم أنّ ذوي الغنى لإعتيادهم بالتَّرفه و التَّنزه لا يقدمون على مافيه القتل و الجرح والمشّقة بخلاف الفقراء فأنّهم ليسوا كذلك.

ثانياً: أنّ الفقير يختار الّدين للدّين و الغني يختاره لحفظ ماله و نفسه ألا ترى أنّ كلّ نبّي من الأنبياء في دعوته الى الحقّ كان مستظهراً بالفقراء في باديء الأمر ثمّ تبعهم الأغنياء بعد ذلك لمّا ذكرناه من حفظ المال و النّفس و لذلك نقول أنّ أكثر الأغنياء الّذين آمنوا به ظاهراً كانوا من المنافقين و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلا جرم يفرُّون ممّا فيه ضررٌ على أنفسهم و أموالهم ولو إحتمالاً و حيث أنّ الجهاد فيه فظنّة الضّرر بزعمهم قالوا لرسول اللّه ذرنا أي أتركنا نكن مع القاعدين من الصّبيان و ألزمني و المرضى الّذين لا يقدرون على الخروج هذا.

و قال بعض المفسّرين هذا خطاب للمؤمنين و أمر لهم بأن يدوموا على الإيمان و يتمسَّكوا به في مستقبل الأوقات ويدخل فيه المنافق و يتناوله الأمر بأن يستأنف الإيمان و يترك النّفاق ثمّ يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم و أموالهم لأنّه لا ينفعهم الجهاد مع النّفاق.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ

أي هؤلاء الّذين إستأذنوك من المنافقين و قالوا ذرنا مع القاعدين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالف و هم النّساء والصّبيان والمرضى والقعاعدون و فى هذا الكلام إشارة الى دنائتهم و ذلتّهم و ذلك لأنّهم أذلّوا نفوسهم و حقّروها

بهذا الإستئذان و القعود في بيوتهم كالنسّاء و الصّبيان و غيرهما من ذوي الأعذار و فى قوله: **وَ طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** في قولان:

أحدهما: أنّ تعالى يجعل نقطة سوداء في قلب المنافق و الكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنّه لا يفلح أبداً.

الثّاني: أن يكون المراد بذلك الذّم لها بأنّها كالمطبوع عليها فلا يدخلها خير و لا ينتفي عنها شرٌّ و الطّبع في اللّغة هو الختم النتهى.

أقول أمّا الوجه الأوّل فلا معنى له لأنّه تعالى لم يقل طبع اللّه على قلوبهم بل قال طبع بصيغة المجهول.

فالقول بأنّ اللّه يجعل في قلب المنافق نقطة سوداء لا معنى له مضافاً الى أنّه مستلزم للجبر و ذلك لأنّه تعالى لو فعل ذلك في قلب المنافق فلا يقدر على التّوبة و إصلاح نفسه و الرّجوع عن نفاقه قطعاً و من كان كذلك فهو مجبورٌ مقهورٌ في نفاقه فكيف يعاقب عليه يوم القيامة.

و عليه فالوجه الثّاني هو الأقوى عندي و اللّه أعلم.

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

في هذه الآية أخبر اللّه تعالى عن حال المؤمنين المجاهدين مع الرّسول بأموالهم و أنفسهم فحكم بأنّ لهم الخيرات و أنّهم هم المفلحون و ذلك لأنّ هؤلاء آمنوا باللّه و رسوله أوّلاً ثمّ جاهدوا معه ولم يقولوا ذرنا نكن مع القاعدين و المراد بجهاد الأموال إنفاقها في مرضاة اللّه و بجهاد النّفس مقاتلتهم الكفّار بالسّيف و السّنان و غيرهما من آلات الحرب ثمّ أخبر اللّه تعالى عمّا يتّرتب على جهادهم من الجزاء فقال أولئك لهم الخيرات في الجنّة و نعيمها و خيراتها و أنّهم المفلحون أي الفائزون بكرامة اللّه فأنّ الفلاح هو النّجاح بالوصول الى البغية و هو مأخوذ من نجح الحاجة أي قضاؤها.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

أي أنّ اللّه تعالى أعدَّ لهؤلاء المؤمنين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في الأخرة جنّات أي بساتين تجري من تحتها الأنهار، معناه من تحت أشجارها و لا شكّ أنّه الفوز العظيم لأنّها باقية غير نافية مشحونة بالسُّرور و الفرح لا تصيبها الافات و الغموم و الفوز هو النّجاة من الهلكة الى حال النّعمة.

وَ جَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قرأ بعضهم، **المعذرون** بسكون العين و تخفيف الذّال و الباقون بفتح العين و تشديد الذّال و هو الأشهر الأقوى و عليه المصاحف فمن قرأ بالتّخفيف أراد أنّهم جاءوا بعذرٍ و من قرأ بالتّشديد أنّه أراد المعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن أو أنّه أراد المقصّرون و المعذّر المقصّر و أمّا المعتذر فأنّه يقال لمن له عذر و لمن لا عذر له قال لبيد:

الى الحول ثم إسم السّلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً إعتذر

أي جاء بعذر و قال بعضهم يجوز أن يكون المعذرون هم المعتذرون فيوهمون أنّ لهم عذراً و لا عذر لهم وكيف كان فمعنى الآية أنّ قوماً من الأعراب أظهروا الإيمان للنّبي ولم يكن لهم منه نصيب و لا في الجهاد رغبة و إستأذنوا النّبي ليأذن لهم في التّخلف عنه فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التّخلف عن الجهاد و قعد الّذين كذبوا اللّه و رسوله يعني المنافقين عن الجهاد فيما كانوا يظهرون من الإيمان فقال اللّه تعالىٰ: **سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** أي ينالهم عذابٌ مؤلِمٌ موجعٌ في الأخرة وحاصل الكلام في الآية هو أنّه قعد قوم عن الجهاد بعذرٍ أظهروه عند النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قعد قوم آخر بغير عذرٍ أظهروه جرأةً على رسول اللّه و هم الّذين أخبر اللّه عنهم بقوله:

وَ قَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فلم يبق في البين إلاّ المؤمنون الخالصون الصّادقون المطيعون للّه و رسوله و أولئك هم المهتدون حقّاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[١].

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَ لاٰ عَلَى ٱلْمَرْضٰى وَ لاٰ عَلَى ٱلَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ مٰا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ مٰا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

إعلم أنّ اللّه تعالى لا يكلّف نفساً إلاّ بقدر وسعها فمن عجز عن الفعل لا تكليف له قال اللّه تعالىٰ: **لاٰ يُكَلِّفُ ٱللّٰهُ نَفْسًا إِلاّٰ وُسْعَهٰا**[٢] و هو مقتضىٰ العَدل.

فأنّ التّكليف بما لا يطاق ظلمٌ قبيح و عليه فمن كان له عذر يختلف فتارة يكون بالمرض وتارةً بالضَّعف وتارةٍ بشيءٍ آخر إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ اللّه تعالى لمّا بيَّن الوعيد و العذاب في حقّ من لا عذر له واقعاً و أن كان يوهم العذر بزعمه ذكر في هذه الآية أصحاب الأعذار الحقيقيّة و بيَّن أنّ التكليف بالجهاد ساقط عنهم و هم على أصناف.

الأوّل: الضُّعفاء جمع ضعيف و هو الّذي في بدنه الضّعف مثل الشُّيوخ و من خلق فى أصل الخلقة و الفطرة ضعيفاً نحيفاً و الى هؤلاء أشار بقوله: **لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ** و هم لا يقدرون على الجهاد لضعفهم و عجزهم.

الثّاني: المرضى، جمع مريض قيل ويدخل فيهم أصحاب العمي و العرج و الزّمانة و كلّ من كان موصوفاً بمرضٍ يمنعه من التّمكن و القدرة على المحاربة و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ لاٰ عَلَى ٱلْمَرْضٰى.**

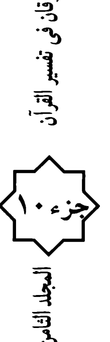
الثّالث: الّذين لا يجدون الزّاد و الرّاحلة و سائر ما يحتاجون اليه في حرب العدّو و ذلك لأنّ حضور الغازي في الحرب ينفع اذا قدر على الإنفاق على نفسه من مال نفسه أو من يعينه عليه فأن لم تحصل هذه القدرة صار كلاً و وبالاً

١- سبا = ١٣
٢- البقرة= ٢٨٦

على المجاهدين و هو كما ترى يمنعهم من الإشتغال بالمقصود قال بعض المفسّرين أنّه تعالى لمّا ذكر هذه الأقسام الثّلاثة حكم بأنه لا حرج عليهم في المقصود عن الجهاد و معناه الجواز لا اوجوب أي بمقتضى عدم الحرج هو عدم الوجوب و أمّا أنّه لا يجوز عليهم الخروج فلا يستفاد من الآية فإذا خرج الواحد أو أكثر منهم للغزو تحت عنوان الإعانة و النُّصرة لجيش المسلمين بقدر ما أمكن له مثل حفظ متاعهم أو تكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاًّ و وبالاً عليهم كان ذلك طاعة مقبولة إنتهىٰ.

و الحّق أنّ ما ذكره لا فائدة فيه لأنّ قوله تعالىٰ: **وَ لٰا عَلَى ٱلَّذِينَ لٰا يَجِدُونَ مٰا يُنْفِقُونَ** حكمٌ عام يشمل جميع ما ذكره و ما لم يذكره لأنّ الإنفاق أعّم من الإنفاق بالمال أو البدن أو بغيرهما اللّهم إلاّ أن يقال بإختصاص الإنفاق في المقام بالمال و كيف كان فالأمر واضح و المقصود الأصلي في عدا الوجوب هو وجود الغدر العقلي أو الشّرعي و لذلك يعمم الحكم بالمحبوس و المعنى عليه و الممنوع عن الخروج و غيرها من الموانع ثمّ أنّه ذكر في الآية شرطاً معنيّاً لنفي الحرج عنهم و هو قوله: **إِذٰا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ** أي أنّ هٰؤلاء المذكورين يجوز لهم التّخلف عن الجهاد اذا نصحواللّه و رسوله بمعنى أنّهم اذا أقاموا في البلد سعوا في ايصال الأخبار الى المجاهدين و قيل معناه أن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم و قيل غير ذلك مّما هو داخل تحت الحكم و قال بعض المفسّرين معناه أن تكون نيّاتهم و أقوالهم سّراً و جهراً خالصة للّه من الغِّش ساعية في إيصال الخير للمؤمنين داعية لهم بالنّصر و الظّفر على الأعداء فأنّ من رضي بفعل قومٍ فهو منهم.

وقد روى العامّة عن سنن أبي داود عن رسول اللّه ﷺ: أنّه قال لأصحابه لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقةٍ ولا قطعتم وادياً إلاّ و هم معكم فيه قالوا يا رسول اللّه وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة قال ﷺ حسبهم العذر انتهىٰ.



مٰا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كلمة، ما، للنّفي أي ليس علىٰ من فعل الحسن الجميل طريق، و الإحسان هو إيصال النَّفع الى الغير لينتفع به مع تعرّيه من وجوه القبح و المقصود أنّ فعل هؤلاء القاعدين حسن لمطابقته العقل و الشّرع و من كان كذلك فلا سبيل عليه من لائمةٍ تناط به أو عقوبةٍ تعاقب عليها و اللّه غفورٌ رحيمٌ قيل الواو للحال أي لا سبيل عليهم و الحال أنّ اللّه غفورٌ رحيم و قيل للإستئناف و المأل واحد.

تنبيهٌ

ذكر الرّازي في المقام ما لا يخلو نقله عن فائدة و نحن ننقل ما ذكره بألفاظه و عباراته.

قال: و قوله تعالىٰ: **مٰا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** يقتضي نفي جميع المسلمين فهذا بعمومه يقتضي أنّ الأصل في حال كلّ مسلم براءة الذّمة و عدم توجه مطالبة الغير عليه ف نفسه وماله فيدلّ على أنّ الأصل في نفسه حرمة القتل إلاّ لدليلٍ منفصلٍ و الأصل في ماله حرمة الأخذ إلاّ لدليلٍ منفصلٍ و أن لا يتّوجه عليه شيئ من التّكاليف إلاّ لدليلٍ منفصلٍ فتصير هذه الآية بهذا الطّريق أصلاً معتبراً في الشّريعة في تقرير أنّ الأصل براءة الذّمة فأن ورد نصّ خاصّ يدلّ على وجوب حكمٍ خاصّ في واقعةٍ خاصّة قضينا بذلك النّص الخاصّ تقديماً للخاصّ على العامّ و إلاّ فهذا النّص كافٍ في تقرير البراءة الأصليّة.



و من النّاس من يحتجّ بهذا على نفي القياس قال لأنّ هذا النَّص دلّ على أنّ الأصل هو براءة الذّمة و عدم الإلزام و التّكليف فالقياس أمّا أن يدلّ على براءة الذّمة أو على شغل الذّمة.

والأوّل: باطل لأنّ براءة الذّمة لمّا ثبت بمقتضى هذا النّص كان إثباتها بالقياس عبثاً.

الثّاني: أيضاً باطل لأنّ على هذا التّقدير يصير ذلك القياس مخصصّاً لعموم هذا النّص و أنّه لا يجوز لما ثبت أنّ النّص أقوى من القياس قالوا و بهذا الطّريق تصير الشّريعة مضبوطة معلومة ملخّصة بعيدة عن الإضطراب و الإختلافات الّتي لا نهاية لها و ذلك لأنّ السلطان اذا بعث واحداً من عمّاله الى سياسة بلده فقال له أيّها الرّجل تكليفي عليك و على أهل تلك المملكة كذا وكذا وعدَّ عليهم مائة نوعٍ من التكاليف مثلاً ثمّ قال و بعد هذه التكاليف ليس لأحدٍ عليهم سبيل كان هذا تنصيصاً منه على أنّه لا تكليف فيما وراء تلك الأقسام المائة المذكورة.

و لو أنّه كلّف ذلك السلطان بأن ينص على ما سوى تلك المائة بالنّفي على سبيل التّفصيل كان ذلك محالاً لأنّ باب النّفي لا نهاية له بل كفاه في النّفي أن يقول ليس لأحدٍ سبيل إلاّ فيما ذكرت و فصَّلت فكذا هاهنا أنّه تعالى لمّا قال ما على المحسنين من سبيلٍ يقتضي أن لا يتوجه على أحدٍ سبيل.

ثمّ أنّه تعالى ذكر في القرأن ألف تكليف أو أقلّ أو أكثر كان ذلك تنصيصاً على أنّ التّكاليف محصورة في ذلك الألف المذكور و أمّا فيما وراءه فليس للّه على الخلق تكليف و أمرٌ و نهيٌ و بهذا الطّريق تصير الشّريعة مضبوطة سهلة المؤنة كثيرة المعونة و يكون القرأن وافياً ببيان التّكاليف و الأحكام قوله:

اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[1].

لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[2].

حقّاً ويصير قوله: **لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**.

حقّاً و لا حاجة البتّة الى التّمسك بالقياس في حكمٍ من الأحكام أصلاً فهذا ما يقرّره أصحاب الظواهر مثل داود الأصفهاني و أصحابه في تقرير هذا الباب انتهى كلام الرّازي.



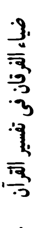
١- المائده = ٣　　٢- النحل = ٤٤

و أنا أقول يظهر من نقل الرّازي ما نقلناه عنه أنّه تلّقى ما ذكره بالقبول لأنّه لم يردّ عليه بل إكتفى بالنّقل فقط و اذا كان كذلك فنقول ما ذكره في بطلان القياس حقّ لا مرية فيه و هذا هو مذهب الشيعة في الأحكام الشرعية لأنّ القياس يوجب إدخال ما ليس من الدين فى الدين و هو بدعة و صاحبها في النّار و هذا ممّا لا شكّ فيه عندنا.

و أمّا ما ذكره في أواخر كلامه و هو بمنزلة النّتيجة لمّا ذكره من أنّ التّكاليف محصورة في القرأن و أمّا فيما وراءه فليس للّه على الخلق تكليف و أمرٌ و نهيٌ فهو على إطلاقه باطل و ذلك لأنّ كون التّكاليف أو جميع الأحكام محصورة في القرأن لا يوجب ما ذكره من أنّه ليس على الخلق تكليف فيما وراءه ممّا لا خفاء فيه على المتأمل المنصف لأنّ المراد يبكونها محصورة في القرأن هو وجودها فيه بحسب الواقع فهو مسلّم مقطوع به لقوله تعالىٰ: **لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبينٍ**[1].

و إن كان المراد بكونها محصورة فيه هو ذكر الأحكام و بيانها فيه ظاهراً على وجه التّفصيل فهو ممنوعٌ اذ ليست الأحكام موجودة فيه بهذا المعنى و لأجل ذلك قرن الرّسول و العترة بالقرأن في قوله: **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما أن تمّسكتم بها لَن تضّلوا أبداً** فلو كانت الأحكام الشرعيّة موجودة في القرأن على وجه التّفصيل فأيّ إحتياجٍ بالعترة في المقام و لا معنى لقوله ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً فما ذكره الرّازي على إطلاقه لا يصحّ إلاّ على مذهبه الّذي أخذه من عمر حيث قال.

حسبنا كتاب اللّه و منه يظهر فساد قوله و يكون القرأن وافياً ببيان التكاليف و الأحكام نعم هو وافٍ لها لمن أنزله اللّه عليه و هو الرّسول و أهل بيته الطاهرين الّذين قرنهم اللّه بالكتاب على لسان رسوله.





١- الانعام = ٥٩

و محصّل الكلام هو أنّ إستنباط الأحكام و إستخراجها من القرأن مختص بالرّسول و أهل بيته الّذين عصمهم اللّه من الزّلل و أمّا غيرهم كائناً من كان فلا يقدر على ذلك و لذلك ترى الإختلاف في الفروع الفقهيّة بين المسلمين و تشّتت الأراء بين المفسرين في تفسير كلام اللّه و لتفصيل الكلام في الباب موضع أخر هذا كلّه مضافاً الى أنّ قوله: **«مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ»** لا ربط بهذه المباحث الخارجة عن تفسير الأية.

لأنّ معنى الكلام بقرنية السيّاق و المقام هو أنّ القاعدين عن الجهاد المعذورين في قعودهم النّاصحين للّه و رسوله لكونهم من المحسنين لا سبيل عليهم من الذّم على القعود في الدنيّا و العذاب عليه في الأخرة لأنّهم كانوا معذورين فيه عقلاً و شرعاً.

ثمّ ذكر اللّه قسماً رابعاً من المعذورين فقال:

وَ لَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ

الحمل هو إعطاء المركوب من فرسٍ أو بعيرٍ أو غير ذلك و هذه الآية عطف على الآية السابقة و هى قوله ليس على الضّعفاء الآية و المعنى كما أنّه لا حرج على الضُّعفاء و المرضى كذلك لا حرج على الّذين اذا ما أتوك لتحملهم أي يطلبون منك المركوب و أنت تقول لهم لا أجد ما أحملكم عليه، أي ليس لي مركوبٌ أحملكم عليه، تولّوا، أي أعرضوا و اعينهم تفيض من الدّمع حزناً على عدم و جدانهم ما ينفقون.

أن قلت أليس أنّ هؤلاء داخلون تحت قوله و لا على الّذين لا يجدون ما ينفقون فما الفائدة في إعادته.

قلت قوله: **ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ** في الاية السّابقة هم الفقراء الّذين ليس معهم دون النَّفقة، و أمّا الآية الأخيرة فالمراد بهم الّذين ملكوا قدر النّفقة إلاّ أنّهم لم يجدوا المركوب هكذا قيل.

و الحقّ في الجواب أن يقال أنّ النّفقة عبارة عن الزّاد فقط و ليست عبارة عمّا يحتاج اليه المجاهد من زادٍ و مركوبٍ و سلاح و الذّي يحتاج اليه المجاهد في جهاده هو جميعها لا النّفقة و الزّاد فقط ففي الاية السّابقة نفي الجميع.

و في المقام أثبت الزّاد و نفي المركوب و بعبارةٍ أخرىٰ بعضهم قعدوا عن الجهاد لفقرهم وبعضهم لعدمِ المركب من فرسٍ و بعير و قد حكم اللّه تعالى بنفي الحرج عنهما و فى قوله تعالى تفيض أعينهم، إشارة الى أنّ قلوبهم كانت مع الرّسول و لذلك كانوا يبكون و هو كاف لقبول عذرهم.

قال القرطبي نزلت في عرباض بن سارية و قيل نزلت في عائذ بن عمرو و قيل نزلت في بني مقرّن و عليه جمهور المفسرين و كانوا سبعة أخوة كلّهم صحبوا النّبي ﷺ و ليس في الصحابة سبعة أخوة غيرهم و هم النّعمان و معقل و عقيل و سويد و سنان و عبداللّه و عبدالرّحمٰن.

و قيل نزلت في سبعة نفر من بطون شتّى و هم البّكاءون أتوا رسول اللّه في غزوة تبوك ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه فتَّولوا و أعينهم تفيض من الدَّمع، و هم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، و علية بن زيد أخو بني الحارثة و أبو ليلى عبد الرّحمٰن بن كعب من بني مازن ابن النّجار، و عمر و بن الحمام من بني سلمة و عبد اللّه بن المغفل المزني و هرمّي بن عبد اللّه أخو بني واقف و عرباض ابن سارية الفزاري هكذا سمّاهم أبو عمرو في كتاب الدّر له و فيهم إختلاف انتهى كلام القرطبي في المقام.

قال القيشري، معقل بن يسار و صخر بن خنساء و عبد الّه بن كعب الأنصاري و سالم بن عيمرة و ثعلبة بن غنمة و عبد اللّه بن فضل و أخر قالوا يا نبّي اللّه لقد ندبتنا للخروج معك فأحملنا على الخفاف المرفوعة و النّعال المخصوفة نغز معك فقال ﷺ لا أجد ما أحملكم عليه، فتَّولوا و هم يبكون.



و قال ابن عبّاس سألوه أن يحملهم على الدّواب و كان الرّجل يحتاج الى بعيرين بعيرٌ يركبه وبعيرٌ يحمل ماءه و زاده لبعد الطّريق.

و قال الحسن نزلت في أبي موسى و أصحابه أتوا النّبي ليستحملوه و وافق ذلك منه غضباً فقال صلى الله عليه وآله وسلم و اللّه لا أحملكم و لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا يبكون فدعاهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و أعطاهم ذوداً فقال أبو موسى ألست حلفت يا رسول اللّه فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّي إن شاء اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلاّ أتيت الّذي هو خير و كفرت عن يميني.

أقول الّذي يستفاد من الاية هو أنّ بعض المسلمين أتوا رسول اللّه و سألوه ما سألوه من الحمل و قال لهم رسول اللّه لا أجد ما أحملكم عليه، و هذا القدر مسلّمٌ لا إشكال فيه و أمّا أنّهم أيّ شئ قصدوا بهذا الكلام و أيّ شئ طلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم وكم كانت عدّتهم و من كان السّائل فلا نعرف منها شيئاً و الاية ساكتة عنها و ما رووه في المقام لا يعتمد عليه و أمّا قوله: **وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ** الى أخر الكلام ففيه إشارة الى أنّهم كانوا محزونين حيث لم يوّفقوا على الجهاد و بهذا يظهر لنا أنّهم كانوا مؤمنين مخلصين فأنّ المنافق لا يتأثر يتأسف في أمثال المقام و الدّليل على ما ذكرناه هو نفي الحرج عنهم لأنّهم بمنزلة قبول العذر منهم و هو واضح.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوالِفِ وَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

كلمة أنّما تفيد الحصر و المقصود أنّ احلرج الّذي هو طريق للعقاب ثابت للأغنياء الّذين لا عذر لهم في التّخلف لتّمكنهم من الجهاد في سبيل اللّه و لكنّهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف و هم النّساء و الصّبيان و من لا حراك به.

و أمّا قوله: **وَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** معناه وسم قلوبهم بسمةٍ تعرفها الملائكة فيميزون بينهم و بين غيرهم من المؤمنين.

و قيل المراد من الطّبع أنّ قلوبهم بمنزلة المطبوع في أن لا يدخلها الإيمان كما لو طبعوا على الكفر و مثله قوله تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ** فهم لترك تلفّظهم بالحقّ و عدولهم عن سماعه و إنصرافهم عن النّظر الى الصّحيح كأنّهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، و هم لا يعملون ذلك و لا يدرون الى ما يصير أمرهم من عقاب الأبد.

و قال بعضهم، معناه لإلفهم للخلاف و المعصية كأنّهم لا يعلمون و الحاصل أنّهم قد فتحوا على أنفسهم أبواب العذاب و العقاب **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[1].

أقول قد مضىٰ الكلام في هذا الباب عند قوله: **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** فلا يفيد الكلام بذكره ثانياً.

وقد ذكر الرّازي في المقام ما يوهم الجبر المنّفي في الشريعة المقدّسة موافقاً لمذهب الأشاعرة القائلين به و هو منهم فقال، و طبع على قلوبهم يعني أنّ السّبب في نفرتهم عن الجهاد هو أنّ اللّه طبع على قلوبهم فلأجل ذلك الطّبع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدّين و الدّنيا انتهى.



و هو كما ترى ينادي بأنّ العلّة و السّبب في نفرتهم و تخلّفهم عن الجهاد هو أنّ اللّه طبع على قلوبهم و بذلك صاروا من الجهّال الّذين لا يعلمون منافع الجهاد و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذنبهم في التّخلف عنه و لا نعني بالجبر إلاّ هذا أعني عدم قدرة العبد على الفعل و هو كما ترى و الحقّ أن يقال أنّه إشارة الى ما أجرى اللّه به العادة أنّ الانسان اذا تناهى في إعتقادٍ باطلٍ أو إرتكاب محظورٍ و لا يكون منه تلَفّتٌ بوجهٍ الى الحقّ يورثه ذلك هيئةً تمرّنه على إستحسان المعاصي و كأنّما يختم بذلك على قلبه.

١- الفصلت ٤٦=

و من المعلوم أنّ التّناهي في الباطل و عدم التّلفت الى الحقّ ليس خارجاً عن إختياره و قدرته و اذا كان كذلك فالعبد في الحقيقة يوجد في نفسه ما يمنعه من قبول الحقّ و الإعراض عن الباطل و يعبّر عنه بالطّبع فكأنّما طبع و ختم بذلك على قلبه و على ما ذكرناه فكلمة الطّبع، في قوله: **وَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** كناية و إستعارة.

و على هذا النّحو إستعارة الإغفال:

في قوله تعالىٰ: **وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا**(١).

و إستعارة الكنّ:

في قوله: **وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**(٢).

وإستعارة القساوة:

في قوله: **وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً**(٣).و أمثال ذلك كثيرة.

و أمّا ما نقلوه عن الجبائي من أنّ اللّه يجعل ختماً على قلوب الكفّار ليكون دلالةٍ للملائكة على كفرهم فلا يدعون لهم، فليس ذلك بشيءٍ لأنّ هذه الكتابة لا يحتاج الملائكة اليها لإطّلاعهم على إعتقاداتهم من قبل اللّه تعالى فهم مستغنية عن الإستدلال هذا تمام الكلام في تفسير الآية.

و أخر الكلام في الجزء العاشر من كتابنا و تيلوه جزء الحادى عشر اوله تعيذرون اليكم و المرجو هذا و المرّجو منه تعالى أن يوَّفقنا لإتمام سائر الأجزاء إن شاء اللّه و أن يرزقنا الإخلاص في العمل ليكون ذخراً ليومٍ لا ينفع فيه مال و لا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم بحقّ محمّدٍ وأله الطّاهرين.

■

١- الكهف = ٢٨
٢- الانعام = ٢٥
٣- المائدة = ١٣

الجزء
الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْويٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

◀اللّغة

يَعْتَذِرُونَ: الإعتذار طلب قبول العذر.

نَبَّأَنَا ٱللَّهُ: النّباء الخبر أي أخبرنا اللّه.

سَيَحْلِفُونَ: الحلف القسم.

ٱنْقَلَبْتُمْ: أي رجعتم.

رِجْسٌ: الرِّجس بكسر الرّاء النّتن.

مَأْوٰيهُمْ: المأوى المكان.

أَجْدَرُ: أي أخلق و أولى و أقرب.

مَغْرَمًا: أي غرماً من قولهم غرمته غرماً و غرامةً.

يَتَرَبَّصُ: التّربص التّمسك بالشّيء لعاقبةٍ و منه التّربص بالطّعام لزيادة السِّعر.

ٱلدَّوٰآئِرَ: بفتح الدّال جمع دائرة و هى العواقب المذمومة.

قُرُبٰاتٍ: بضمّ الرّاء و إسكانها و فتحها، جمع، قربة و هى طلب الثّواب و الكرامة من اللّه تعالى بحسن الطّاعة و هى تدني من رحمة اللّه.

◀الإعراب

جَزٰآءً مصدر يجزون بذلك أو هو مفعول له بِكُمُ ٱلدَّوٰآئِرَ الباء تتعلّق بيترّبص و يجوز أن يكون حالاً من الدّوائر دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ بضمّ السّين و هو الضّرر و هو مصدر في الحقيقة و قد يقرأ بفتح السّين و هو الفساد و الرّدائة قُرُبٰاتٍ مفعول ثانٍ ليتّخذ و عِنْدَ ٱللّٰهِ صفة لقربات أو ظرف لها أو ليتّخذ، وَ صَلَوٰاتِ ٱلرَّسُولِ معطوف على ما ينفق تقديره و صلوات الرّسول قربات.

◀التّفسير

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذٰا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لٰا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبٰارِكُمْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الاية رسوله و الّذين جاهدوا معه عن حال هؤلاء القوم الّذين تأّخروا عن الجهاد في سبيل اللّه ولم يخرجوا مع النّبي من غير عذرٍ فقال لهم أنّ القاعدين المتّخلفين يعتذرون اليكم عن تأّخرهم بالأباطيل و الكذب بعد رجوعكم اليهم و يقولون كذا وكذا قل يا محمّد لهم لا تعتذروا فإنّا لا نصدّقكم على ما تقولون و تعتذرون لأنّ اللّه تعالى قد أخبرنا من أخباركم و أعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم و أنّكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم كما هو شأن المنافق في أقواله و أفعاله: **وَ سَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ** قالوا في معناه أي سيعلم اللّه فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه.

و قيل المراد أنّه يحلّ في الظُّهور محلّ ما يرى و قال بعضهم (سيرى اللّه) توّعدٌ أي سيراه في حال وجوده فيقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشّراً.

و قال الزّمخشري و سيرى عملكم أتنيبون أم تثبتون على الكفر، و قيل كانوا يظهرون للرّسول عند تقريرهم معاذيرهم حبّاً و شفقةً فقيل و سيرى اللّه عملكم هل تبقون على ذلك أم لا.

و قال الألوسي في تفسيره أي سيعلمه سبحانه علماً يتعلّق به الجزاء فالرّؤية علميّة انتهى.

أقول ما ذكره الألوسي لا نفهم معناه و أظّن أنّه تكلّم بما لم يعلم معناه فأنّ الرّؤية العلميّة في حقّه تعالى لا معنى لها.

و قال النيّشابوري في تفسيره المسّمى بغرائب القرآن، و سيرى اللّه عملكم، يعني رؤية وقوع أي سيقع أنّكم هل تبقون على الحالة التي تظهرونها أم لا انتهىٰ.

و قال الطّبري يقول اللّه تعالى و سيرى اللّه و رسوله فيما بعد عملكم أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه انتهىٰ.



و قال الرّازي معناه هل تبقون بعد ذلك على هذه الحالة الّتي تظهرونها من الصدّق و الصّفاء أو لا تبقون عليها انتهى.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير الكلام و الّذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المنافقين لمّا إعتذروا عمّا فعلوا من تخلّفهم عن الجهاد و رأوا قبح ذلك فقالوا لرسول اللّه في مقام الإعتذار بخلاف ما في قلوبهم و ذلك لأنّهم كانوا راضين بما فعلوا من التّخلف واقعاً ولكنّهم قالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال اللّه تعالى لنبيّه فسيرى اللّه و رسوله عملكم فيما بعد هل تمشون على النّفاق أم لا و أنّما قال لهم ذلك لأنّ القصد و النيّة يظهر بالعمل و أمّا قبله فلا يعلمه إلاّ اللّه و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالى كان عالماً بضمائرهم و أنّهم يكذبون ولكنّه تعالى قال ما قال ليقف النّاس على نفاقهم بعد ظهوره في أعمالهم في عالم الخارج فتعالى اللّه.

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

في هذا الكلام إشارة الى أنّ الجزاء يوم القيامة متفرعٌ على العمل في الدنيا لا على النّية و القصد فقط و لذلك قال فينبّئكم أي فيخبركم بما كنتم تعملون أي في الدّنيا ولم يقل بما كنتم تقصدون و تضمرون مثلاً و لعلّه لهذا السِّر قال تعالىٰ: **وَ سَيَرَى ٱللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ** أي أنّ اللّه تعالى لا يعاقب العبد على ما قصده و باطنه ما لم يظهره في العمل و ذلك من ألطافه الخفيّة.

و أنّما سميّت الآخرة بعالم الغيب لأنّها غائبة عن الحوّاس هذا إذا قلنا بفتح اللاّم.

و أمّا إذا قلنا بكسرها كما عليه المصاحف غالباً فالمقصود أنّكم ترجعون الى اللّه الّذي يعلم السِّر و ما يخفى فهو تعالى عالم بالظّواهر و عليه فاللّه تعالىٰ عالم الغيب و الشّهادة و هو المطه.

تذنيبٌ

إعلم أنّ الإعتذار و هو اظهار ما يقتضي العذر يمكن أن يكون صحيحاً و يمكن أن يكون فاسداً و ما نحن فيه من قبيل الثّاني و هو ظاهر ثمّ أنّ الفرق بين الإعتذار و التّوبة هو أنّ التّوبة إقلاع عن سيئّةٍ وقعت و الإعتذار إظهار ما يقتضي أنّها لم تقع و لذلك يجوز أن يتوب العبد الى اللّه و لا يجوز أن يعتذر اليه.

و أمّا الإعتذار الصحيح الّذي له وجه عقليّ فهو ما كان صاحبه محقّاً هذا. ثمّ أنّ اللّه تعالى أخبر عن هؤلاء المنافقين المعتذرين بالباطل.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

و المقصود أنّ المنافقين لا يقنعون بالإعتذار فقط كما أشار اللّه تعالى اليه في الآية السّابقة بل يؤّكدون تلك الإعتذار بالحلف و اليمين فيحلفون باللّه لكم إذا إنقلبتم أي رجعتم اليهم أي يحلفون باللّه تعالى بأنّ إعتذارهم حقٌّ و أنّهم كانوا معذورين واقعاً و عرضهم بذلك أنّما هو أن تصفحوا عنهم و تعرضوا عن ذمّهم و توبيخهم و تعنيفهم، **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ** أي أتركوهم و لا تلوموهم،لأنّهم رجسٌ، أي معتذرون بما إنطووا عليه من النّفاق فتجب مباعدتهم و إجتنابهم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا**(٢).

و أنّما أطلق عليهم الرِّجس في الأصل الشّئ القذر يقال رجلٌ رجس و رجال أرجاس ثمّ أنّ على أربعة أوجه:

إمّا من حيث الطّبع.

١- سورة الحجّ=٣٠ ٢- التّوبة=١٢٥

و إمّا من حيث العقل.

و إمّا من حيث الشَّرع.

و إمّا من حيث المجموع.

والأوّل: كالقاذورات مثل الدَّم و البول و المني و أمثالها.

الثّاني: كالبخل و الحسد و الخيانة و الظّلم و غيرها.

الثّالث: كالخمر و الميسر.

الرّابع: كالميتة فأنّها رجس طبعاً و عقلاً و شرعاً إذا عرفت الرّجس و أقسامه فقد علمت أنّ المنافق أمره يدور بين أن يكون رجساً عقلاً أو شرعاً.

و أمّا القسّمان الأخران فلا يطلقان عليه و ذلك لأنّه مسلم ظاهراً و بعد التّوبة عن النّفاق يكون مؤمناً فهو لا يكون رجساً بحسب الطّبع كالقاذورات الّتي لا تقبل التطهير.

و هكذا الكافر على قولٍ لأنّه أيضاً يقبل التّطهير بسبب الإسلام.

و أمّا كون المنافق رجساً بحسب الشّرع و العقل فواضح لا خلاف فيه.

و من الممعلوم أنّ المراد هو الرّجس الروّحاني لا الجسماني و كيف كان لا شكّ أنّ الرجل المتصّف به لا تنفع فيه المعاتبة و اللّوم و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** و يحتمل أن يكون سبب الحلف مخافتهم أن يعرضوا عنهم فلا يقبلوا عليهم و لا يوادّوهم فأمر تعالى بالإعراض عنهم و عدم تولّيهم و بيَّن العلَّة في ذلك برجسيَّتهم و بأنّ مآل أمرهم الى النّار و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله و مأواهم جهنّم، أي مستّقرهم فيها، بما كانوا يكسبون في دار الدّنيا من النّفاق و العمل به، و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال، فأعرضوا عنهم، أي لا تكلّموهم.

أقول ما نقلوه عنه مع بعده لا يساعده اللّفظ.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ.

قال مقاتل نزلت في عبد اللّه بن أبّي حلف باللّه الّذي لا إله إلاّ هو أن لا يتخلف عنه بعدها و حلف إبن أبي سرح لنكونن معه على عدّوه و طلب من الرّسول أن يرضى عنه فنزلت و هنا حذف المحلوف به و فى قوله: **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ** أثبت و لا فرق بين حذفه و إثباته في إنعقاد ذلك يميناً و غرضهم في الحلف هو رضا الرّسول و المؤمنين منهم لنفعهم في دنياهم لا أنّ مقصدهم وجه اللّه تعالى ثمّ أنّ الفرق بين الحلف في الآية السّابقة و هذه الآية هو أنّ الحلف هناك لأجل الإعراض والصّفح عنهم و الإجتناب عن توبيخهم و لومهم فجاء الأمر بالإعراض نصّاً فقال: : **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** وأمّا في هذه الآية ذكر الحلف لأجل الرّضا و هو أمرٌ قلبيّ و لذلك أبرز النّهي عن الرّضا في صورة شرطيّة فقال تعالىٰ: **فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ** و لم يقل لا ترضوا عنهم صريحاً.

و من المعلوم أنّهم لا يرضون عمّن لا يرضى اللّه عنه فقوله: **عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ** كأنّه نصٌّ على أنّ إنتفاء الرّضا لأجل فسقهم و منه يعلم أنّ النفّاق فسق و هو كذلك.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى أحوال الأعراب و أصحاب البوادى.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قال الرّاغب في المفردات العرب ولد إسماعيل عليه السلام و الأعراب جمعه في الأصل و صار ذلك إسماً لسكّان البادية.

و قيل في جمع الأعراب أعاريب و الأعرابي في التّعارف صار إسماً للمنسوبين الى سكان البادية انتهى.

أقول يظهر من كلامه أنّ الأعراب فى أصل اللّغة يطلق على ولد إسماعيل سواء كانوا من أهل البوادي أم من أهل الحضر و البلاد إلاّ أنّه في التّعارف يطلق

على سكان البادية و على هذا المعنى أطلق المفسّرون قوله: **ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا** و قالوا المراد بالأعراب في الآية هو سكّان البادية حول المدينة و غيرها.

و قال بعضهم نزلت في أعراب، أسد و غطفان و تميم و أعراب حاضري المدينة و حكم بأنّهم أشدّ كفراً و نفاقاً من غيرهم من أهل الحضر و أنّما كانوا كذلك لتوحشّهم و إستيلاء الهواء الحّار عليهم فيزيد في تيههم و نخوتهم و فخرهم و طيشهم و تربيتهم بلا سائسٍ و لا مؤدب و لا ضابط فنشأوا كما شاؤوا لبعدهم عن مشاهدة العلماء و معرفة كتاب اللّه و سنّة رسول اللّه و لبعدهم عن مهبط الوحي كانوا أطلق لساناً بالكفر والنّفاق من منافقي المدينة و ذلك لأنّ هؤلاء المنافقين من أهل الحضر كان الخوف من المؤمنين مستوليّاً عليهم و لذلك كان كفرهم سرّاً و لا يتظاهرون به إلاّ تعريضاً.

و أمّا قوله: **وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ** معناه أنّهم أي الأعراب أعني بهم سكّان البوادي أحقّ بالجهل بكتاب اللّه و سنّة رسوله.

و قيل المراد بحدود اللّه الفرائض وكيف كان فالأمر واضح لا خفاء فيه بل نقول هذا الحكم لا يختّص بالأعراب بل هو من الأحكام العّامة الشّاملة لجميع أهل البوادي من الأعراب و غيرهم ألا ترى أنّ سكّان البوادي من العجم أيضاً كذلك و لذلك قيل عليكن بالمدن لا بالبوادي.

وقد روي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنّه قال عليكم بالسّواد الأعظم و المقصود البلاد الكبيرة فأنّ البلاد الصّغيرة في حكم البوادى.

و لنعم ما قيل بالفارسية:

ده نشيني مرد را أحمق كند مرد حقّ را كافر مطلق كُند

روي أنّ زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة و كان قاعداً يوماً يروي الحديث و الى جانبه إعرّابي فقال له أنّ حديثك يعجبني و أنّ يدك تريبني فقال أنها الشّمال فقال و اللّه ما أدري اليمين يقطعون أو الشّمال فقال زيد صدق اللّه وقرأ: **ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا** و موضع أن، في قوله

ألاّ يعلموا، نصب لأنّ تقديره أجدر بأن لا يعلموا فحذف الباء فأنتصب و التّقدير أجدر بترك العلم غير أنّ الباء لا تحذف مع المصدر الصّريح و أنّما تحذف مع، أن، للزوم العلم بها و حملها على التأويل و أجدر مأخوذ من جدر الحائط تعالىٰ: **عَلِيمٌ حَكِيمٌ** معناه هو عالم بأحوالهم و بواطنهم، حكيمٌ فيما يحكم به عليهم.

وَ مِنَ ٱلْأَعْرٰابِ مَنْ يَتَّخِذُ مٰا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوٰآئِرَ عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَ ٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قرأ بعضهم دائرة السُّوء بضّم السّين و الباقون بفتحها فمن فتحها أراد المصدر و إنّما أضاف الدّائرة الى السّوء تأكيداً كما يقال عيني رأسه و شمس النّهار:

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا كٰانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ**(٢).

و كلمة، من، للتّبعيض أيالأعراب أي بعضهم من يتّخذ ما ينفق مغرماً، أي غرماً.

قيل أنّها نزلت في إعراب أسد و غطفان و تميم لأنّهم كانوا يتّخذون ما يؤخذ منهم من الصّدقات و قيل من الزّكاة و لذلك قال بعضهم ما هي إلاّ جزية أو قريبة من الجزية و قيل كلّ نفقةٍ لا تهواها أنفسهم و هى مطلوبة شرعاً و المعنى منهم من يتّخذ ما ينفقه في سبيل اللّه من الجهاد و غيره، مغرماً، أي غرامة و خسران لأنّهم كانوا يعتقدون كذلك و ذلك لأنّهم كانوا لا ينفقون إلاّ تقيّةً أو رياءً لا لوجه اللّه و إبتغاء مرضاته و من المعلوم أنّ من أنفق ماله لا لِوجه اللّه بل لأجل الخوف و التقيّة و الرّياء لا يرى إنفاقه إلاّ من مصاديق الغرامة و الخسران و أمّا قوله: **وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوٰآئِرَ عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ**.

١- مريم = ٢٨
٢- الفتح =١٢

معناه ينتظر بكم الموت و القتل أي ينتظر أن تنقلب الأمور عليكم بموت الرّسول و يظهر عليكم المشركون ثمّ أنّه أعاده عليهم فقال عليهم دائرة السَّوء، و الدّائرة تستعمل في آفةٍ تحيط بالإنسان كالدّائرة بحيث لا يكون له منها فخلص و قال إبن فارس المغرم ما لزم أصحابه و الغرام اللاّزم و منه الغريم للزومه و إلحاحه و التَّربص الإنتظار و الدّوائر هي المصائب الّتي لا مخلص منها تحيط به كما تحيط الدّائرة.

و قيل تربّص الدّوائر هنا موت الرّسول ﷺ و ظهور الشِّرك قال الشّاعر:

تَرَّبص بها ريب المَنُون لعّلها تطلق يوماً أو يموت جليلها

و تربّص الدّوائر ليخلصوا من إعياء النّفقة و قوله: **عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ** دعاء معترض دعاء عليهم بنسبة ما أخبر عنهم كقوله: **وَ قالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**[١] والدّعاء من اللّه إنجاب الشّئ لأنّه تعالى لا يدعوا على مخلوقاته و هى في قبضته.

و قال الكرماني عليهم تدور المصائب و الحروب الّتي يتّوقعونها علىٰ المسلمين و هنا وعدٌ للمسلمين و إخبار و قوله: **وَ ٱللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** معناه أنّه تعالى عالم بالمسموعات عليمٌ بالظّواهر و الضّمائر فلا يخفى عليه شئ أصلاً.

وَ مِنَ ٱلْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ ٱللّهِ وَ صَلَواتِ ٱلرَّسُولِ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ من الأعراب أي بعضهم من يتّخذ ما ينفق مغرماً أخبر في هذه الآية بأنّ بعضاً آخر منهم بخلاف ذلك بسبب إيمانهم باللّه و اليوم الآخر فهم يتّخذون ما ينفقونها في سبيل اللّه قربات عند اللّه أي أنّهم يتقربون بذلك الى اللّه و ليس ذلك إلاّ لإخلاصهم و إيمانهم باللّه ورسوله.

قال الزّجاج يجوز في، قربات، ثلاثة أوجه:

١- المائدة = ٦٤

ضمّ الرّاء و إسكانها وفَتحها، و ما قرئ إلاّ بالضّم و القربة في الأصل هي طلب الثّواب و الكرامة من اللّه بحسن الطّاعة و هى تدني من رحمة اللّه و التّقدير أنّهم يتّخذون نفقاتهم و صلوات الرّسول أي إدّعائهم له قربة الى اللّه و قيل معنى، و صلوات الرّسول، إستغفار لهم.

و قال قتادة معناه دعاءه بالخير و البركة قال الأعشي:

تقول بِنتي وقد قرّبت مرتحلاً يا ربّ جنّب أبي الأوصاب و الوجعا
عليك مثل الّذي صلّيت فأغتمض نوماً فأنّ لجنب المرء مضطجعاً

ثمّ قال تعالىٰ: **أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** الضّمير يرجع الى صلوات الرّسول أي أنّها وسيلة الى تقربهم الى ثواب اللّه و يتحمل أن يكون المراد أنّ نفقتهم قربة الى اللّه تعالى قال بعض المفسرين نزلت الآية في بني مقرن من مزنية قاله مجاهد.

و قال عبد الرّحمن بن فضل بن مقرن، كنّا عشرة ولد مقرن فنزلت: **وَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** يريد السّتة و السبعة الأخوة على الخلاف في عددهم و بنيهم و كيف كان أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الأصل الّذي يترّتب عليه إنفاق المال في القربات هو الإيمان باللّه و اليوم الآخر اذ جزاء ما ينفق إنّما يظهر ثوابه الدائم في الآخرة و أنّه تعالى قد إكتفى في قصّة أولئك بذكر نتيجة الكفر و عدم الإيمان و هو إتّخاذه ما ينفق مغرماً و تربّصه بالمؤمنين الدّوائر، و الأجود تعميم القربات من جهادٍ و صدقة هذا و الّذي يختلج بالبال في معنىٰ الآية هو أنّهم جعلوا ما أنفقوا في سبيل اللّه من أموالهم و صلوات الرّسول عليهم بالخير و البركة و الإستغفار قربات عند اللّه فشهد اللّه لهم بأنّه كذلك فقال إلاّ أنّها قربة لهم ثمّ أكّد هذه الشّهادة بحرف التّنبيه و هو قوله: **أَلَآ** و بحرف التّحقيق وهو، أنّها، ثمّ زاد في التّأكيد وقال: **سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** و من أصدق من اللّه قيلاً.

■

وَ ٱلسّٰابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهٰاجِرِينَ وَ ٱلْأَنْصٰارِ وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰآ أَبَدًا ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿۱۰۰﴾ وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرٰابِ مُنٰافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفٰاقِ لاٰ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلىٰ عَذٰابٍ عَظِيمٍ ﴿۱۰۱﴾ وَ اٰخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صٰالِحًا وَاٰخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۱۰۲﴾ خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ ٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿۱۰۳﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَأْخُذُ ٱلصَّدَقٰاتِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلتَّوّٰابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿۱۰۴﴾ وَ قُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۱۰۵﴾ وَ اٰخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللّٰهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿۱۰۶﴾

◀اللّغة

وَٱلسَّـٰبِقُونَ السَّبق كون الشّئ قبل غيره و منه قيل في الخيل السّابق.

حَوْلَكُمْ، حَول الشّئ المحيط به هم الّذين يسكنون البادية اذا كانوا مطبوعين على العربيّة.

مَرَدُوا، يقال مرد على الشّئإذ إعتا و طغى و أعيا خبثاً و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀الإعراب

وَٱلسَّـٰبِقُونَ مبتدأ ٱلْأَوَّلُونَ خبره و قيل خبره مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَ ٱلْأَنْصَارِ و قيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ و مِمَّنْ من بمعنى الّذي و مُنَـٰفِقُونَ مبتدأ قدّم الخبر على المبتدأ فقوله ممّن حولكم من الأعراب، خبره مَرَدُواصفة لمبتدأ محذوف تقديره و من أهل المدينة قومٌ مردوا و قيل، مردوا، صفة لمنافقون و قد فصّل بينهما و من أهل المدينة خبر مبتدأ محذوف تقديره من أهل المدينة قوم كذلك لَاتَعْلَمُهُمْ صفة أخرى مثل مردوا وَ ءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا هو معطوف على، منافقون و يجوز أن يكون مبتدأ، و أعترفوا صفة و خَلَطُوا خبره وَءَاخَرَ سَيِّئًا معطوف على عملاًعَسَى ٱللَّهُ جملة مستأنفة خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ يجوز أن تكون متعّلقة، بخذ، و أن تكون حالاً من صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ و تطهرهم في موضع نصب صفة لصدقة و يتحمل أن يكون مستأنفاً و التّاء للخطاب أي تطهرهم أنت إِنَّ صَلَوٰتَكَ يقرأ للأفراد و الجمع سَكَنٌ بمعنى مسكون اليها فلذلك لم يؤنّثه و هو مثل القبض بمعنى المقبوض هُوَ يَقْبَلُ مبتدأ و يقبل الخبر.

◀التّفسير

وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

إعلم أنّ اللّه تعالى قد أخبر بهذه الآية أنّ السّابقين من المهاجرين و هم الّذين هاجروا معه الى المدينة، و الأنصار و هم أهل المدينة الّذين نصروا دين اللّه بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة و التّابعين و هم الّذين تبعوا هؤلاء بأفعال الخير و الدّخول في الإسلام و سلوكهم مناهجهم.

قال الفرّاء يدخل في ذلك من يحيي بعدهم الى يوم القيامة فحكم اللّه تعالى في الآية بأنّه رضي عنهم و رضوا عنه ثمّ قال: **وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** و أختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية.

فقال أبو موسى و سعيد بن المسّيب،نزلت فيمن صلّى القبلتين.

و قال الشّعبى: نزلت فيمن بايع بيعة الرّضوان و هى بيعة الحديبيّة من أسلم بعد ذلك و هاجر فليس من المهاجرين الأوّلين.

و قال أبو علّي نزلت في الّذين أسلموا قبل الهجرة نقل هذه الأقوال في التّبيان و أختلفوا أيضاً في المراد بالسابقين الأوّلين.

فقال إبن بحر، السّابقون بالموت أو بالشّهادة من المهاجرين و الأنصار سبقوا الى ثواب اللّه و حسن جزائه قال و المراد بالمهاجرين و الأنصار أهل العقبة أوّلاً و كانوا سبعة و أهل العقبة الثانيّة و كانوا سبعين و الّذين أمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب إبن عمير فعلّمهم القرأن.

و قال إبن عطيّة ولو قال قائل أنّ السّابقين الأولين هم جميع من هاجر الى أن إنقضت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللّفظ وتكون من، لبيان الجنس و الّذين إتّبعوهم بإحسانٍ هم سائر الصّحابة ويدخل في هذا اللّفظ الباقون و سائر الأمّة لكن شرط الإحسان و قد لزم هذا الإسم الّذي هو التّابعون من رأى النّبي صلّى اللّه عليه و آله وسلّم انتهى كلامه.

و قال الرّازي الصّحيح عندي أنّهم السّابقون في الهجرة و فى النُّصرة و الّذي يدلّ عليه أنّه ذكر كونهم سابقين و لم يبيّن أنّهم سابقون فيماذا فبقي اللّفظ مجملاً إلاّ أنّه وصفهم بكونهم مهاجرين و أنصاراً فوجب صرف ذلك اللّفظ الى ما به صاروا مهاجرين و أنصاراً و هو الهجرة و النُّصرة فوجب أن يكون المراد منه السّابقون الأوّلون في الهجرة و النُّصرة إزالةً للإجمال عن اللّفظ انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و كيف كان لمّا تقدّم ذكر المنافقين و الكفّار عقبّه سبحانه بذكر السّابقين الى الإيمان فقال و السّابقون الأوّلون،الى الإيمان و الطّاعات و أنّما مدحهم بالسَّبق لأنّ السّابق الى الشّئ يتبعه غيره فيكون متبوعاً و غيره تابع له فهو إمام فيه وداع له الى الخير يسبقه اليه و كذلك الشّر فأنّ من سبق الى الشّر يكون أسوأ حالاً ممّن يتبعه فيه لهذه العلّة.

مِنَ ٱلْمُهٰاجِرِينَ وَ ٱلْأَنْصٰارِ الظّاهر أنّ المراد بالمهاجرين من هاجر من مكّة الى المدينة و الى الحبشة قاله الطّبرسي في المجمع.

و أنَا أقول أن كان المراد بالمهاجرين من هجر من بلده الىٰ بلدٍ أخر فالحقّ ما ذكرهﷺ و أن أريد به الهجرة من الباطل الى الحقّ أو من الكفر الى الإيمان فهو يشمل من هاجر مع الرّسول الى الشّعب أي شعب أبي طالب على ما ذكره أهل السِّير.

نعم الأنصار أعني بهم أهل المدينة كانوا بمعزلٍ عنها و محصّل الكلام هو أنّ المراد بالمهاجرين أهل مكّة و بالأنصار أهل المدينة و حيث أنّ الأنصار لم تتّحقق منهم الهجرة قطعاً فالمقصود من الآية هو السبق الى الإيمان و الطّاعة و عليه فمعنى الآية أنّ الذّين سبقوا الى الإيمان باللّه و رسوله من المهاجرين أعني بهم أهل مكّة الّذين هاجروا منها الى المدينة مع النّبي، و الأنصار و هم أهل المدينة و الّذين إتّبعوهم بإحسانٍ أي بأفعال الخير و سلوك منهاجهم رضي اللّه عنهم و رضوا عنه.

و يستفاد من الآية أنّ اللّه تعالى رضي عنهم لسبقهم الى الإسلام و الإيمان و فعل الطّاعات و النُصرة لدين اللّه و هذا هو الّذي صار سبباً للرّضا و اذا كان الملاك ما ذكرناه فكلّ من كان من المهاجرين و الأنصار أقدم إسلاماً و أسبق نصرة لدين اللّه فهو أحبَّ الى اللّه تعالى لأنّ المفروض أنّ علّة الرّضا هي السَّبق الى الإيمان باللّه و رسوله.

اذا عرفت هذه الدّقيقة فإعلم أنّ أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام أوّل من أمن باللّه و رسوله على ما هو المشهور بين العامّة و الخاصّة.

و قيل أوّل من أمن خديجة ثمّ بعدها أمير المؤمنين و الحقّ هو الأوّل لقوله عليه السلام فأنّي ولدت على الفطرة و سبقت الىٰ الإيمان و الهجرة و قد جمع بعضهم بين الأخبار التّي وردت في الباب في تقديم إسلام خديجة على إسلامه و بالعكس بأنّ خديجة كانت أوّل من أمن من النّساء و علّيٌ كان أوّل من أمن من جنس الذّكور وكيف كان فالخلاف أنما هو في سبق إسلام أحدهما على الأخر و أمّا بالنّسبة الى غيرهما من المسلمين فلا خلاف في تقديم إسلامهما عليهم.

قال إبن هشام في السّيرة و هو من أعيان العامّة و أعرفهم بالأثار و الأخبار الواردة في الباب نقلاً عن إبن إسحاق الذّي كان إمام الكلّ في معرفة السّيرة و هو أوّل من كتب السّيرة ما هذا لفظه:

قال إبن إسحاق ثمّ كان أوّل ذكرٍ من النّاس أمن برسول اللّه صلى الله عليه و آله وسلم و صلّي معه و صدَّق بما جاءه من اللّه تعالى علّي بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم رضوان اللّه وسلامه عليه و هو يومئذٍ إبن عشر سنين و كان ممّا أنعم اللّه به على علّي إبن أبي طالب عليه السلام أنّه كان في حجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله وسلم قبل الإسلام و ساق الكلام الىٰ أن قال فلم يزل علّيٌ مع رسول اللّه حتّى بعثه اللّه تبارك و تعالى فأتبعه علّي عليه السلام و أمن به و صدَّقه.

ثمّ قال و ذكر بعض أهل العلم أنّ رسول اللّه كان اذا حضرت الصّلاة خرج الى شعاب مكّة وخرج معه عليّ بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب و من جميع أعمامه و سائر قومه فيصلّيان الصّلاة فيها فاذا أمسيا فمكثا كذلك ما شاء اللّه انتهى موضع الحاجة من كلامه[١].

و قال الحافظ الحسكاني الحنّفي اليّسابوري و هو من أعلام القرن الخامس الهجري في كتابه القيّم شواهد التّنزيل في ذيل الآية الشّريفة بأسناده عن حميد بن القاسم بن حميد بن عبد الرّحمٰن بن عوف في قوله تعالىٰ: **وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ** هم ستّة من قريش أوّلهم إسلاماً علي بن أبي طالب انتهىٰ.

و بأسناده عن الزّبير بن عدّي عن الضّحاك وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ علّي بن أبي طالب و حمزة و عمّار و أبو ذرّ و سلمان و مقداد انتهىٰ.

و بأسناده عن محمّد بن خالد الضّبي و عبد اللّه بن شريك العامري عن سليم بن قيس عن الحَسن بن عليّ عليه السلام أنّه حَمد و أثَنىٰ عليه وقال: وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ فكما أنّ للسّابقى فَضلهم علىٰ مَن بَعدهم كذلك لأبي علّي بن أبي طالب فضيلة علىٰ السّابقين بسَبقه السّابقين انتهىٰ.

و بأسناده عن ابن عبّاس في قوله: وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ أنّه قال نزلت في علّيٍ سَبق النّاس كلّهم بالإيمان باللّه و برسوله و صلّي القبلتين و بايَع البَيعَتين و هاجر الهَجرتين ففيه نزلت هذه الأية[٢].

و قال الشّيخ سليمان الحَنفي البلخي في كتابه الموسوم يَنابيع المودّة ما هذا لفظه الباب الثّاني عشر في سبق إسلام علّي كرّم اللّه وجهه، التّرمذي بسنده عن أنس بن مالك قال بُعث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم

١- سيرة ابم هشام ج ١ ص ٢٦٢ ٢- ص ٢٥٤

الأثنين وصلّي عليٌ يوم الثلاثاء هذا حديث غريب انتهىٰ إبن ماجة القزويني و أحمد في مسنده و أبو نعيم الحافظ و الثّعلبي و الحمويني أخرجوا جميعاً بأسانيدهم عن عباد بن عبد اللّه قال قال أبا عبد اللّه و أخو رسول اللّه و أنا الصّديق الأكبر لا يقولهما بعدي إلاّ كذّاب ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي أيّوب الأنصاري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم صلَّت الملائكة علَّي و على علّيٍ سبع سنين لأنّه لم يكن من الرّجال غيره انتهىٰ.

و بأسناده عن ابن عبّاس أنّه قال أوّل من أسلم من النّاس بعد خديجة علّي بن أبي طالب و قد أنشد بعض أهل الكوفة أيّام صفّين في مدحه شعراً:

أنت الإمـام الّـذي نـرجو بـطاعته ... يـوم النّشور مـن الرّحمٰن غفراناً
أوضحت من ديننا ماكـان مشـتبهاً ... جــزاك ربّك مـنّا فـيه إحسـاناً
نـفسي الفـداء لأولى النّـاس كـلّهم ... بـعد النّـبي عـلّي الخـير مـولانا
أخي النّبي و مـولى المـؤمنين مـعاً ... و أوّل النّـاس تـصديقاً و إيـماناً

و بأسناده عن مجاهد عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: **ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ** قال سبق يوشع بن نون، و سبق مؤمن أل فرعون الىٰ موسىٰ و سبق صاحب يٰس الى عيسى و سبق علّي عليه السلام الىٰ محمّد صلّى اللّه عليه وآله انتهىٰ[1].

و الأحاديث هناك كثيرة جدّاً بل لا يبعد كون المسألة من ضروريّات الدين فأني لم أر مخالفاً فيها من العلماء من العامّة إلاّ شرذمة قليلة من الجهّال المعاندين الّذين لا يعتنى بقولهم لخروجهم عن قاعدة الإنصاف و دخولهم في

١- ص ٥٢

ورطة البغي و الإعتساف و ذلك لأنّ سبق علّيٍ عليه السلام في الإيمان باللّه و برسوله على من سواه كائناً من كان إلاّ خديجة الكبرى على قولٍ ممّا لا خلاف و لا نزاع فيه عند أهل الفّن ولولا مخافة التّطويل و خروج كتابنا عن موضوعه لأشبعنا الكلام في هذا الباب و لكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب و من أراد الوقوف على أكثر منه فعليه بمراجعة الكتب الموضوعة لهذا الفّن و عليه فلا عبرة بما نقله الرّازي في تفسيره لهذه الآية حيث.

قال بعد الوجوه الدّالة على أنّ السّبق الى الهجرة و النُصرة من أفضل القربات و أعظم الطّاعات ما هذا لفظه فإذا ثبت هذا فنقول.

أنّ اسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر لأنّه كان في خدمة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم و كان مصاحباً له في كلّ مسكنٍ و موضعٍ فكان نصيبه من هذا المنصب أعلى من نصيب غيره و علّي بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين الأوّلين إلاّ أنّه هاجر بعد هجرة الرّسول و لا شكّ أنّه أنّما بقى بمكّة لمهّمات الرّسول إلاّ أنّ السّبق الى الهجرة أنّما حصل لأبي بكر فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر فإذا ثبت صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضي اللّه عنه و رضي هو عن اللّه و ذلك في أعلى الدّرجات من الفضل و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذ لو كانت إمامته باطلة لأستّحق اللّعن و المقت ينافي حصول مثل هذا التّعظيم،فصارت هذه الآية من أدلّ الدّلائل على فضل أبي بكر و عمر و على صحّة إمامتهما انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله أنّ أسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر.

ففيه أمّا أوّلاً: أنّه من أين ثبت له أنّ أبا بكر كان أسبق النّاس الى الهجرة.

نعم هو كان مصاحباً له صلى الله عليه وآله وسلم في الغار و بعده حتّى ورد المدينة و من المعلوم أنّ المصاحبة أعمّ من الهجرة فأنّ الهجرة عبارة عن الخروج من دار الكفر الى دار الايمان لحفظ الدّين و النُصرة له.

و أمّا مجرّد السّفر و السّير من بلدٍ الى بلدٍ آخر إذا لم يكن مسبوقاً بـالإيمان فلا يعدّ منها و إذا كان كذلك فمن أين ثبت له أنّ أبا بكر هاجر مع الرّسول لنصرة دين اللّه و إعلاء كلمته إذ لا يبعد أن يكون غرضه شيئاً آخر خفي على الرّازي و أمثاله مثل أن يكون عيناً للمشركين مثلاً أو أنّ الرّسول إتخذه مصاحباً لنفسه لئّلا يخبرهم بخروجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن مكّة و أمثال ذلك من الإحتمالات و إذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال.

نعم لو ثبت أنّ أبا بكر كان مؤمناً باللّه و برسوله حقّاً و على هذا الأساس صار مصاحباً له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتّم ما ذكره و أنّى له بإثبات ذلك.

و أمّا ثانياً: أنّ الآية ناظرة الى سبق الإيمان و أمّا سبق الهجرة فالآية ساكتة عنه و ذلك لأنّ قوله: **وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ** معناه و السّابقون الأوّلون في الإيمان لا في الهجرة مع قطع النظّر عن الإيمان، فلمّا مدحهم اللّه كأنّه قيل و من هم فقال من المهاجرين و الأنصار هذا إذا قلنا أنّ كلمة، من، بيانيّة.

و أمّا أن قلنا أنّها تبعيضيّة فالمعنى أنّ السابقين الأولين في الإيمان بعض المهاجرين و الأنصار لا جميعهم و عليه فالأمر أوضح و محصّل الكلام هو أنّ الفضل ثابت لمن سبق الى الإيمان على غيره و قد ثبت بالضّرورة أنّ السابق في الإيمان بقولٍ مطلق هو أمير المؤمنين علّي بن أبى طالب و هو المطلوب.

و بذلك ظهر لك فساد ما علّل الحكم بقوله لأنّه كان في خدمة الرّسول و مصاحباً له فكان نصيبه أعلى من نصيب غيره وجه الفساد أنّ مجرّد كون أبي بكر مصاحباً له لا يثبت مدّعاه لما ذكرناه.

و أمّا قوله و علّي بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين إلاّ أنه أنّما هاجر بعد هجرة الرّسول.

فنقول أنمّا هاجر علّيّ عليه السّلام بعد هجرة الرّسول ظاهراً لأنّه بات على فراشه صلّى اللّه عليه و آله في ليلة المبيت بأمرٍ من اللّه و رسوله كما هو المسلّم عند الكلّ بلا خلاف فيه و لذلك قال اللّه تعالى في مدحه: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ**

اَبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اَللّٰهِ[1] و قصّته مشهورة بحيث لا تخفى على أحدٍ حتّى على العجائز و المخدّرات في الحجال فكيف خفيت على الرّازي فضيلة تلك الليلة الّتي قد باهى اللّه ملائكته المقرّبين على ما هو مسطور في التّواريخ و السِّير.

و قول جبرائيل من مثلك يا بن أبي طالب فأنّ اللّه قد باهى بك على الملائكة المقرّبين.

قال بعض المحقّقين و لنعم ما قال عليّ عليه السلام سبق الكلّ بالإيمان ثمّ بالهجرة الى الشّعب ثمّ بالجهاد و أمّا أبو بكر فقد هاجر الى المدينة و ذلك أنّ النّبي أخرجه مع نفسه أو خرج هو لعلّةٍ، و أمّا أمير المؤمنين فقد تركه الرّسول للمبيت باذلاً مهجته فبذل النّفس أعظم من الإتّقاء على النّفس في الهرب الى الغار.

و قد روي أبو المفضل الشّيباني بأسناده عن مجاهد قال فخرت عائشة بأبنها و مكانه مع رسول اللّه في الغار فقال عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد فأين أنتِ من علّي بن أبي طالب حيث نام في مكانه و هو يرى أنّه يقتل فسكتت ولم تحر جواباً و شتّان بين قوله: **وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ اَبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اَللّٰهِ** وبين قوله: **لا تَحْزَنْ إِنَّ اَللّٰهَ مَعَنٰا**[2] وكان النّبي معه يقوي قلبه ولم يكن مع علّيٍ لم يصبه وجع و علّيّ يرمىٰ بالحجارة و هو مختفٍ في الغار و علّيّ ظاهر للكفّار و مع هذا كلّه يقول المعاند فكان نصيب غيره فكأنّه أي الرّازي نسي قوله و الصّحيح عندي أنّهم السّابقون في الهجرة و النُّصرة لا في الهجرة فقط فيقال له و أيّة نصرةٍ أعظم و أفضل من نداء النّفس طلباً لمرضات اللّه ثمّ أيّة نصرةٍ لدين اللّه أعظم من طاعة الرّسول و الإنقياد له و حيث أنّ نوم علّي على فراش رسول اللّه لم يكن إلاّ لنصرة دين اللّه و إعلاء كلمة التّوحيد و طاعة الرّسول فالفضل له قطعاً فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا علّي أنّ اللّه قد أذن لي بالهجرة و أنّي آمرك أن تبيت على فراشي و أنّ قريشاً إذا رأوك لم يعلموا بخروجي، و

١- البقرة = ٢٠٧ ٢- التوبة = ٤٠

عليٍ عليه السلام قد أطاع الرّسول و بات على فراشه و أيّ فضيلةٍ أفضل من ذلك، و لنعمً ما قيل:

ونـام عـلى الفـراش له نـداء   و أنتم في مضاجعكم رقـودُ

و قال الآخر:

ولمّـا سـرىٰ الهـادي النـبّي مـهاجراً   و قـد مكـر الأعـداء و اللّـه أمكـر
و نـام عـليٌ فـي الفـراش بـنفسه   وبـات ربـيط الجأش مـا كـان يـذعر
فـوافـى بـياتاً و الدُّجـىٰ مـتقوّض   وقد لاح مـعروفُ مـن الصّبح أشـقر
فألفـوا أبـا شـبلين شـاكي سلاحه   له ظـفرُ مـن صـاتك الدَّم أحـمرُ
فـصال عـليٌ بـالحسام عـليهم   كما صال في العريّس ليثُ غضنفرُ
فـولّوا سـراعـاً نـافرين كأنّـما   هـم حمرُ من قسور الغـاب تـنفر
فكـان مكـان المكـر حـيدرة الرّضا   مـن اللّـه لمّـا كـان بـالقوم يـمكر

و قال الأخر:

بـاهى بـه الرّحـمٰن أمـلاك العلى   لمّا إنـثنى مـن فـرش أحـمد يـهجع
يـا جـبرئيل و مـيكائيل فأنّـني   آخـيت بـينكما و فـضلي أوسـع
أفأن بـدا فـي واحـدٍ أمـري فـمن   يـفدي أخـاه مـن المنون ويـقنع
فـتوثقاكـلُّ يـضُن بـنفسه   قـال الإله أنـا الأعـز الأرفـع
أنّ الوصّـي فـدى أخـاه بـنفسه   ولفـعله زلفـى لدّي و مـوضع
فـلتهبطا ولتـمنعا مـن رامـه   أم مـن له بـمكيدة يـتّسرع

و قال الأخر:

عـليٌ فـي مـهاد المـوت عـارٍ   و أحـمد مكـنسُ غـار إغترابُ
يـقول الرّوح بـخ بـخ يـا عـلّي   فقد عـرّضت روحك لإنـتهاب

و الأشعار كثيرة جدّاً و المقصود من ذكرها هو أنّ الموضوع كان في صدر الإسلام من المسلّمات هذا كلّه مع أنّ مجّرد الخروج و المصاحبة مع الرّسول لو كان من أعلى المناصب و الفضائل لكان عبد اللّه بن أرقط أيضاً مصاحباً

للرّسول لأنّه كان دليلهما على الطّريق فهو مثل أبي بكر في الفضل بل هو أفضل لأنّ الدّليل مقّدم على المدلول و لا يقول به عاقلاً فضلاً عن فاضل و أعجب من هذا كلّه.

قوله فإذا ثبت هذا صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضى اللّه عنه و رضي هو عن اللّه و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول اللّه.

و نحن نقول أمّا أوّلاً أنّ الهجرة لا ربط لها بالخلافة و الإمامة فقوله وجب أن يكون إماماً حقّاً، لا نعلم أنّ هذا الوجوب عقلّي أو شرعّي أو عرفّي أمّا العقل فأنّه لا يحكم بهذا الوجوب أصلاً و أمّا الشّرع فهو معلوم البطلان إذ لا دليل شرعاً على أنّ مصاحب الرّسول يجب أن يكون إماماً لأنّ الإمامة إمّا بالنّص من الرّسول كما نقول به أو بمشورة أهل الحّل العقد كما يقولون به و أمّا مجّرد المصاحبة فلم يقل به أحد إلاّ الرّازي و لم يعلم أنّ مجّرد المصاحبة لو كان كافياً في الإمامة فعبد اللّه إبن أرقط الّذي كان دليلهما و مصاحبهما كان أولى بالإمامة من أبي بكر و لا أقّل من أن يكون مثله و الخصم لا يقول به.

و أمّا قوله إذ لو كانت إمامته باطلة لإستَّحق الّعن و المقت و ذلك ينافي حصول مثل هذا التّعظيم فالجواب عنه واضح اذ لم يثبت في الآية تعظيم له و أين هذا التَّعظيم و الآية أثبتت الفضيلة و التّعظيم للسّابقين الأوَّلين في الإيمان باللّه و رسوله و إثبات هذا المعنى لأبي بكر أوّل الكلام.

و أمّا مجرّد كونه مصاحباً للرّسول مع قطع النّظر عمّا ذكرناه يفيد التّعظيم فعلى المدّعي الإثبات مع أنّه على فرض ثبوته ثابت لعبد اللّه بن أرقط أيضاً.

و أمّا في قوله لو كانت إمامته باطلة لإستَّحق كذا وكذا فنحن نقول ببطلانها بعد رسول اللّه في غير علّيٍ و الأئمّة المعصومين من ولده كائناً من كان و الحمد للّه ربّ العالمين علىّ هذه النّعمة.

ثمّ أنّ الرّازي أطال الكلام في المقام الى أن قال أنّا بينّا أنّه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين و ذلك يقتضي أنّ المراد كونهم سابقين في الهجرة

ثمّ لمّا وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التّعظيم و هو قوله رضي اللّه عنهم و رضوا عنه و السّبق في الهجرة وصف مناسب للتّعظيم و ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلاً بكونهم سابقين في الهجرة و العلّة ما دامت موجودة وجب ترّتب المعلول عليها و كونهم سابقين في الهجرة وصف دائم في جميع مدّة وجودهم فوجب أن يكون ذلك الرّضوان حاصلاً في جميع مدّة وجودهم الىٰ أخر كلامه.

و أنا أقول ليست الهجرة علّة لصدور الحكم بل العلّة هي السّبق الى الإيمان كما أشرنا اليه سابقاً و الهجرة من أثار الإيمان و هو معلوم من الآية ألا ترى أنّ الآية ساكتة عنها و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالعلّة هي الإيمان و المعلول مترتب عليها ما دامت موجودة فقوله تعالى رضي اللّه عنهم الى أخر الآية أنّما هو ثابت لمن كان باقياً على الإيمان ماذا زال الايمان زال المعلول قطعاً مهاجراً كان أو غير مهاجر فقولهم تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعليّة لاكلام لنافيه.

إلاّ أنّا نقول أنّ الوصف الّذي نعبّر عنه بالعلّة هو ما تسبق بالإيمان الّذي من أثاره الهجرة مع الرّسول و الإنقياد و الطّاعة و غير ذلك و عليه فَن أمن بالرّسول و أطاعه في جميع أوامره و نواهيه مدّة وجوده فالحكم المذكور في الآية ثابت له و أمّا من أمن به ثمّ إرتّد عن دينه فلا لأنّ المعلول ينتفي بإنتفاء العلّة فكلامه بالمغالطة أشبّه منه بالبرهان فالسّابقون الأوّلون من المهاجرين و الأنصار من بقي منهم على إيمانه الى أخر عمره يشمله الحكم بالرّضا عنه الى أخر الآية.

و أمّا من لم يبق منهم على إيمانه في حياة النّبي أو بعد موته فجزاءه جهنّم خالداً فيها هذا ما إستفدناه من الآية الشريفة بعون اللّه و توفيقه.

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ

كلمة، مِن في قوله تعالىٰ: **مِمَّنْ** للتّبعيض وكلمة، مَن موصولة بمعنى الّذي و التّقدير و من الّذين حولكم أي حول مدينتكم و حول الشّئ المحيط به من الأعراب، من بيانيّة و الأعراب هم الذّين يسكنون البوادي و المعنىٰ من الأعراب الّذي يسكنون البادية حول المدينة منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق أي أقاموا على النّفاق أي أنّ النّفاق لا يختّص بأهل البادية و لا بأهل المدينة فكما أنّ أهل البادية بعضهم من أهل النّفاق وبعضهم ليس كذلك هكذا أهل المدينة بعضهم سلك مسلك الطّغيان و دخل في النّفاق.

لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ الخطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أي أنت لا تعلم و نحن نعلم و ذلك لأنّ النّفاق من الأمور القلبيّة التّي لا يعلمها إلاّ هو و من المعلوم أنّ النّبي لا يعلم إلاّ ما علّمه اللّه تعالىٰ: **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلٰى عَذابٍ عَظِيمٍ** إختلفوا في معنىٰ قوله مرّتين، فقال بعضهم معناه في الدّنيا بالقتل و السَّبي و فى القبر.

و قال إبن عبّاس تعذيبهم في الدّنيا بالفضيحة لأنّ النّبي ذكر رجالاً منهم و أخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته و قال أخرجوا فأنّكم منافقون، و العذاب الثّاني في القبر.

و قال بعضهم إقامة الحدود عليهم في الدّنيا و عذاب القبر بعد الموت.

و قال بعضهم يحتمل أن يكون لا يراد بها شفع الواحد بل يكون المعنى على التّكثير كقوله تعالىٰ: **ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**[1] أي كرَّةً بعد كرّةً كذلك يكون معنى هذا سنعذّبهم مرّةً بعد مرّةً.

و أمّا قوله: **ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلٰى عَذابٍ عَظِيمٍ** فالمراد به عذابهم في جهنّم بعد عذاب الدّنيا و عذاب القبر و أنّما وصفه بالعظمة اذ لا عذاب أشدّ و أوجع من عذاب جهنّم أعاذنا اللّه منه ففي الآية إشارة الى أنّ المنافق يعذّب في الدنيا و

١- الملک = ۴

الأخرة و هو دليل على أنّ النّفاق أعظم من الكفر و المنافق أخبث من الكافر و هو كذلك و السّر فيه هو أنّ المنافق في الحقيقة كافر في لباس الإسلام و الكافر كافر و هو في لباس الكفر و بينهما بونٌ بعيد.

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله و من أهل الدينة أي و من أهل المدينة مردوا على النّفاق و بقوا عليه الى أن قالوا و أخرون منهم إعترفوا بذنوبهم فرجعوا عمّا كانوا عليه من خلطهم العمل الصّالح بالسَّئ فدخلوا في التَّوابين فتاب اللّه عليهم أنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ.

قيل نزلت في عشرة رهطٍ تخلّفوا عن غزوة تبوك فلمّا دنا الرّسول من المدينة وثق سبعة منهم و قيل كانوا ثمانية منهم كردم و مرداس و أبو قيس و أبو لبابة.

و قال أبو جعفرعليه السلام نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره و كان سبب نزولها فيه ما جرى منه في غزوة بني قريظة حين إستشاروه في النّزول على حكم سعد فأشار هو لهم الى حلقه يريد أنّ الرّسول يذبحهم إنّ نزلوا على حكمه فلمّا إفتضح تاب و ندم و ربط نفسه في سارية في المسجد و أقسم أن لا يطعم و لا يشرب حتّى يعفو اللّه عنه أو يموت فمكث كذلك حتّى عفى اللّه عنه و الأقوال في شأن نزولها كثيرة لا يهمّنا البحث فيها فأنّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد.

و الذّي يستفاد منها هو أنّ النّاس بالنّسبة الى التّكاليف الشرعيّة على ثلاثة أصناف:

الّصنف الأوّل: المطيعين للّه و رسوله العاملين بأحكام اللّه المقرّرة لهم و هم الأقلّون.

الثّاني: العصاة و الطُّغاة و الكفّار و الفسّاق الّذين لا يعملون بالأحكام لعدم إيمانهم باللّه و رسوله.

الثّالث: من يطيع تارةً و يعصي أخرى و هم أكثر المسلمين و نحن منهم.

أمّا الصّنف الأوّل و الثّاني فلا كلام لنا معهم فعلاً و الآية الشريفة غير ناظرة اليهما و أنّما الكلام في الثّالث و الآية نزلت فيه و هم الّذين خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً ثمّ إعترفوا بذنوبهم فتابوا عنها.

ففي الآية إشارة الى أنّ العاصي إذا أراد أن يتوب عن معصيته ينبغي له أن يعترف بذنبه أوّلاً قبل التّوبة ثمّ يتوب عنها إذ لو لم يعترف به فعن أيّ شئٍ يتوب فإذا إعترف به و تاب عنه عسى اللّه أن يتوب عليه أي يجب لأنّ التَّرجي لا معنى له في حقّه تعالى و هذا الوجوب عقلّي لا شرّعي و فى الآية أبحاث لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً.

أحدها: أنّ الإعتراف علىٰ ما قيل عبارة عن الإقرار بشيءٍ عن معرفةٍ فمعناه أنّهم أقرّوا بذنوبهم و أنّهم بئسما فعلوا في تخلّفهم عن الجهاد أو مطلق المعصية.

ثانيها: أنّ الإعتراف و الإقرار بالذّنب لا يكون إلاّ إذا إقترن به النَّدم على ما مضى و العزم على تركه في المستقبل و كان هذا النَّدم و التَّوبة لأجل كونه منهيّاً عنه من قبل اللّه تعالى فكان هذا المجموع توبة قاله بعض المفسّرين.

ثالثها: أنّ قوله تعالى: **خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** قالوا أنّه إشارة الىٰ خروجهم مع الرّسول في الغزوات و تخلّفهم عن غزوة تبوك فعبَّر عن الخروج بالعمل الصّالح و عن التّخلف بالسّيّ و أنت ترى أنّ حمل الآية علىٰ العموم أولى و عليه فالمعنى أنّ من النّاس من يعصي تارةً و يطيع تارةً أخرىٰ كما هو حال أكثر النّاس.

رابعها: أنّ في الآية دلالة بل صراحة علىٰ أنّ العاصي ينبغي أن يتوب عن ذنبه فأنّ التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له و لأجل ذلك قد حثّ اللّه تعالى عباده عليها في كثير من الأيات منها.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلاٰ يَتُوبُونَ إِلَى اَللّٰهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ اَلَّذِي يَقْبَلُ اَلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ اَلسَّيِّئٰاتِ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اَللّٰهِ تَوْبَةً نَصُوحاً**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**(۴).

و الأيات كثيرة و سيأتي منّا البحث في التّوبة مفصّلاً في المستقبل إن شاء اللّه.

خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أمر اللّه تعالى نبيّه في هذه الآية بأن يأخذ من أموالهم صدقةً و أنّها توجب التّطهير و التّذكية ثمّ أمره تعالى بالصّلاة عليهم أعني بها الدُّعاء لهم و أنّها أي الصّلاة من الرّسول تسكن بها نفوسهم و تطيب بها قلوبهم.

فالبحث في الآية يقع في مقامين:

الأوّل: قالوا أنّ الضّمير في قوله: **أَمْوٰالِهِمْ** يرجع الى الّذين خلطوا، قالوا يا رسول اللّه هذه أموالنا فتصدّق بها و طهّرنا عن الذّنب الّذي صدر منّاالتّخلف عن الجهاد فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فأخذ الرّسول ثلث أموالهم مراعاةً لقوله خذ من أموالهم أي بعض أموالهم فأنّ كلمة، من، للتبعيض.

و قال آخرون و منهم إبن عبّاس الضّمير عائد الى المتخلّفين عن الجهاد دون الخالطين لأنّهم تابوا عمّا فعلوا و خلطوا.

۱- المائدة=۷۴
۲- الشّورىٰ=۲۵
۳- التّحريم=۸
۴- هُود=۹۰

و في المقام قول ثالث و هو أنّها نزلت في الزّكاة المفروضة و كيف كان يظهر من الآية أنّ الصّدقات توجب التّطهير و التزكيّة و هذا ممّا لا خلاف فيه سواء كانت الصدّقة مفروضة أم غير مفروضة.

أن قلت ما الفرق بين التّطهير و التّذكية فقد قال قوم تبرأوا منهما و أنّ معناهما واحد.

قلت ليس كذلك لأنّ الطّهارة مشتّقة من الطُّهر يقال طهرت المرأة و طهرت خلاف طمثت فالطّهارة ضدّ الخباثة و النّجاسة و القذارة و أمثالها و هى ضربان، طهارة جسم و طهارة نفسٍ.

الثّانى: هو المرادُ في الآية و أمثالها فأنّ قوله: **تُطَهِّرُهُمْ** أي تطهّر نفوسهم عن الأرجاس الباطنية المعبّر عنها بالملكات الرّذيلة و الإعتقادات و الصّفات الخبيثة.

فقوله تعالىٰ: **فِيهَآ أَزْوٰجٌ مُطَهَّرَةٌ**[1] معناه مطّهرات من درن الدنيّا و أنجاسها أو من الأخلاق السّيئة بدليل قوله، عرباً أتراباً، و قوله في صفة القرآن مرفوعة مطّهرة، أي من المعايب و قوله: **وَ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرٰهِيمَ وَ إِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ**[2] أي من الأوثان فأنّها من الأرجاس و هكذا.

وأمّا الزّكاة فأنّها عبارة عن النّمو الحاصل من بركة اللّه فتذكية النّفس هي نموّها الحاصل عن بركته إذا عرفت هذا.

فقوله: **تُطَهِّرُهُمْ**إشارة الى ما ذكرناه في معنى الطّهارة النّفسية و تزّكيهم، إشارة الى النّمو الحاصل للنّفس ببركة الصدّقة فالصّدقة توجب تطهير النّفس و تزكيتها و هو المطلوب.

المقام الثّانى: أنّ قوله: **وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** معناه أدع لهم بعد أخذ الصّدقة منهم و ذلك لأنّ دعائك سكنٌ لهم أي تسكن اليه نفوسهم و تطيب به لأنّه كاشف عن قبول صدقتهم عند اللّه.

١- البقرة = ٢٥ ٢- البقرة = ١٢٥

قال بعض المحقّقين أنّ صلوات الرّسول و صلٰواة اللّه للمسلمين هو في التّحقيق تزكية أيّاهم و من الملائكة هي الدّعاء و الإستغفار.

قال الرّازي في قوله: **إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ.**

أقول أنّ روح محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت روحاً قوّياً مشرقة صافية باهرة فإذا دعى محمّد لهم و ذكرهم بالخير فاضت آثار من قوّته الرّوحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السّبب أرواحهم وصفت أسرارهم و أنتقلوا من الظّلمة الى النّور و من الجسمّانية الى الرّوحانية انتهى كلامه.

وأنا أقول لا شكّ لنا و لا لأحدٍ من المسلمين في قوّة روحه صلّى الله عليه وآله وسلّم ألاّ أنّ هذا الموضوع خارج عن مورد البحث و تفسير الكلام لا يحتاج الىٰ هذه التّأويلات الباردة الّتي لا يفهم معناها و أظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال و الحقّ أنّ يقال أنّ الرّسول تقرُّبه الى اللّه و وساطته الى الخلق من جانب خالقه فأنّ دعاءه عليه السلام في حقّهم في الحقيقة دعاء اللّه تعالىٰ و إذ قلنا أنّ الدّعاء منه بمعنى الرّحمة كما هو الحقّ و قلنا أنّ دعاءه دعاء اللّه فالمعنىٰ أنّ الرّحمة من اللّه تشملهم بواسطة الرّسول و لا شكّ أنّ عناية و رحمته توجب الطّمأنينة و السّكون في قلوب عباده كما قال تعالىٰ: **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**[1].

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَ يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

الألف في قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟** للإستفهام والمراد بها التّنبيه علىٰ ما يجب أن يعلم المخاطب إذا رجع الى نفسه و فكر فيما نبّه عليه وجوباً و أنّما وجب أن يعلم أن اللّه يقبل التّوبة لأنّه إذا علم كان ذلك داعياً له الى فعل التّوبة و التّمسك بها و المسارعة اليها قاله الشّيخ قدس سره في التّبيان.

١- الرعد = ٢٨

و نقل عن أبي مسلم أنّه قال، قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا** و أن كان بصيغة الإستفهام إلاّ أنّ المقصود منه التّقرير في النّفس و من عادة العرب في إزالة الشكّ عن المخاطب أن يقولوا أما علمت أنّ من علّمك يجب خدمته، أما علمت أنّ من أحسن أليك يجب عليك شكره فبشّر اللّه تعالى هؤلاء التّائبين بقبول توبتهم ثمّ زاده تأكيداً بقوله: **هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** انتهىٰ.

ثمّ أنّ الظّاهر من قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوٓا** بصيغة الغيبة أنّ الضّمير عائد الىٰ هؤلاء الّذين تابوا يعني ألم يعلموا هؤلاء قبل أن يتاب عليهم و تقبل صدقاتهم، أنّ اللّه يقبل التّوبة الصّحيحة عن عباده و يقبل الصّدقات الصّادرة عن خلوص النّية كذلك، و يتحمل أن يكون الضّمير عائداً الى غير التّائبين في المقام ترغيباً له في التّوبة.

و ذلك لما روي عن رسول اللّه ﷺ أنّه لمّا حكم بصّحة توبتهم قال الذّين لم يتوبوا، هؤلاء الّذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلّمون و لا يحاسبون فنزلت هذه الأية.

و قال صاحب الكشّاف، ألم يعلموا، بالياء و التّاء، والوجه فيهما ظاهر.

قال الزّمخشري في الكشّاف و قيل معنى التّخصيص في هو، أنّ ذلك ليس الى رسول اللّه ﷺ أنّما اللّه سبحانه هو الّذي يقبل التّوبة و يردّها فأقصدوه بها و وجّهوها اليه انتهىٰ.

أقول مراده بالتّخصيص هو الّذي يستفاد من قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ** و قد ثبت أنّ تقديم المسند اليه يوجب الحصر فكأنّما حصر القبول في الآية لنفسه و هو كذلك و أنّما أتى بكلمة، هو، بعد كلمة، اللّه، لتأكيد الحصر أي أنّ قبول التّوبة منحصرٌ به تعالى و السّر فيه هو أنّ العبد قد عصى ربّه ثمّ ندم على ما فعل فاذا تاب يحتاج الى القبول و القبول لا يعقل إلاّ ممّن عصى العبد إيّاه و هو اللّه لا غيره فالقبول ينحصر به.

و أمّا قوله: **وَ يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ** مع أنّ الأخِذ هو الرّسول فالوجه فيه هو أنّ الرّسول خليفة اللّه فما أخذه الرَّسول أخذه اللّه في الحقيقة كما أنّ أمره أمر اللّه و نهيه نهي اللّه و طاعته طاعة اللّه و معصيته معصية اللّه و هذا ظاهر.

و أمّا قوله: **هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** فذكر الرّحيم، بعد الثّواب فيه إشارة الىٰ نكتة خفيّةٍ و هى أنّ منشأ قبول التّوبة هو الرَّحم و الشَّفقة و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ ليس مجبوراً علىٰ قبول توبة العبد بل هو مختار إن شاء قبل و أن لم يشاء فلا إلاّ أنّه يقبل لأنّه رحيمٌ بعباده وهذه الرّحمة توجب قبول التّوبة و هذا من لطائف الكلام.

وَ قُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يقول لهم أي للمعتذرين التّائبين من المتّخلفين على قولٍ و للمعتذرين الّذين لم يتوبوا علىٰ قولٍ أخر، و للمؤمنين و المنافقين جميعاً على قولٍ ثالث (إعمَلوا) بما أمركم اللّه به من الطّاعة و إجتنبوا معاصيه فأنّ اللّه سيرى عملكم و رسوله و المؤمنون.

و قيل هو أمرٌ ضمنه الوعيد و التَّهديد و المعنى إعملوا ما شئتم فسيرى اللّه عملكم و رسوله و إختلفوا في معنى الرّؤية فقيل هي بمعنى العلم الّذي هو المعرفة و لذلك عدّاه الى مفعولٍ واحدٍ ولو كان بمعنى العلم الّذي ليس بمعرفةٍ لتعدّى الى مفعولين و عليه فالمعنى فسيعرف اللّه عملكم و رسوله.

و إستّدلوا علىٰ ذلك بأنّه لو كان المراد بها العلم لعدّاه الى الجملة و ذلك أنّ العلم الذّي تعدّى الى مفعولين ما كان بمعنى الظّن و هو لا يجوز علىٰ اللّه و أنّما يجوز عليه ما كان بمعنىٰ المعرفة هذا.



أقول و على هذا المعنى حملوا ما روي في الخبر من أنّ أعمال العباد تعرض على النّبي في كلّ أثنين و خميس فيعلمها و كذلك تعرض على الأئمّة فيعرفونها و هم المعنّيون بقوله و المؤمنون.

إن قلت لم قال فسيرى اللّه علىٰ وجه الإستقبال و هو عالم بالأشياء قبل وجودها.

قلتُ لأنّ المراد بذلك أنّه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة فكونه عالماً بوجودها اذا وجدت لا يجدّد حال له بذلك.

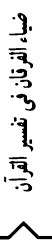
و قوله: **وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ** الى أخر الأية. معناه سترجعون الى اللّه الّذي يعلم السِّر و العلانية فينبئكم أي فيخبركم بأعمالكم في دار الدّنيا و يجازيكم عليه.

وإعلم أنّ الرّازي في تفسير الآية سلك مسلكاً أخر فقال ما هذا لفظه:

المسألة الثّانية: دلّت الآية علىٰ مسائل أصولّية:

الحُكم الأوّل: أنّها تدّل على كونه تعالى رائياً للمرئيّات لأنّ الرّؤية المعدّاة الى مفعولٍ واحدٍ هي الإبصار و المعدّاة الى مفعولين هي العلم كما تقول رأيت زيداً فقيهاً و هاهنا الرّؤية معدّاة الى مفعولٍ واحدٍ فتكون بمعنى الإبصار يدّل علىٰ كونه مبصراً للأشياء.

كما أنّ قول إبراهيم لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر يدّل على كونه تعالىٰ مبصراً و رائياً للأشياء و ممّا يقوّي أنّ الرّؤية لا يمكن حملها هاهنا علىٰ العلم أنّه تعالىٰ وصف نفسه بالعلم بعد هذه الآية فقال: **وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ** و لو كانت هذه الرّؤية هي العلم لزم التّكرار الخالي عن الفائدة باطل انتهىٰ.



أقُول أمّا ما ذكره من أنّ المراد بها ليس العلم فأن كان مراده بالعلم العلم المصطلح فلا كلام لنا فيه وأن كان العلم المطلق فهو أوّل الكلام فأنّ العلم بمعنى المعرفة تطلق الرّؤية عليه و هو المراد في المقام.

سلَّمنا لكن نقول أنّ اللّه تعالى مبصرٌ للأشياء و هو ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً.

الحكم الثّاني: قال مذهب أصحابنا أنّ كلّ موجودٍ فأنّه يصّح رؤيته و إحتّجوا عليه بهذه الآية و قالوا قد دلّلنا علىٰ أنّ الرّؤية المذكورة في هذه الآية معدّاة الى مفعولٍ واحدٍ و القوانين اللّغوية شاهدة بأنّ الرّؤية المعدّاة الى المفعول الواحد معناها الإبصار فكانت هذه الرّؤية معناها الإبصار ثمّ أنّه تعالى عدّى هذه الرّؤية الى عملهم و العمل منقسم الى أعمال القلوب كالإرادات و الكراهات و الأنظار الى أعمال الجوارح كالحركات و السكنّات فوجب كونه تعالىٰ رائياً لِلكّل و ذلك يدّل علىٰ أنّ هذه الأشياء كلّها مرئيّة للّه تعالىٰ أنتهى.

و الجواب أنّ قوله كلّ موجودٍ فأنّ يصّح رؤيته، أن كان مراد بالرّؤية بالبَصر كما في حقّ المخلوق.

فهو أوّل الكلام و عليه بالإثبات و أن كان المراد بها الرّؤية العلّمية أعني بها المعرفة فهو صحيح و بعبارةٍ أخرى كون الرُّؤية المعدّاة الى المفعول الواحد معناها الأبصار بالعين و الحّاسة فهو ممّا لم يثبت و لا هو قابل للإثبات و كيف يقال أنّ كلّ موجودٍ فأنّه يصّح رؤيته بالبصر.

و نحن نعلم أنّ النّفس موجودة و العقل موجود و الملك موجود واللّه تعالى موجود مع أنّ الرّؤية بالبصر في أمثال ذلك محال أليس من شرائط تحقّق الرّؤية بالبصر محاذاة المبصر للمبصر و كون المبصر في الواضع و الجهة مثلاً فإذا كان الموجود خارجاً عن شرائط تحقّق الأبصار فكيف يقال تصّح رؤيته.

نعم الرّؤية بمعنى المعرفة محقّقة قطعاً و هو المطلوب.

فمعنى الأبصار في حقّه تعالىٰ هو علمه أي معرفته بالمبصرات كما أنّ معنى السَّمع في قوله: **سَميعٌ** مثلاً هو علمه بالمسموعات و معنى رؤيته تعالى هو علمه أي معرفته بالمرّئيات و هكذا فأن كان مراد بالأبصار هو هذا المعنى فهو متين و أن كان مراد من الأبصار الرؤيّة نجاسّة البصر فنعوذ باللّه منه.

ثمّ أنّه نقل عن حكماء الإسلام أنّهم قالوا فسيرى اللّه عملكم، إشارة الى الثّواب الرّوحاني، و أوضح هذا الكلام بما لا فائدة فيه.

أقول ما نقله عن حكماء الإسلام لا نفهم معناه و لا نعرف حكيماً قال بذلك و العهدة عليه و لكن نقول هذا الّذي ذكره خلاف ظاهر الآية بل هو أجنبيٌّ عنه فلا يصحّ تفسير كلام اللّه به و اللّه أعلم بحقائق الأمور.

وَ ءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

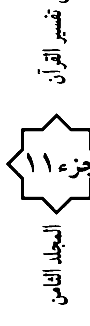
قرأ أهل المدينة (مُرجون) بغير همزة، و الباقون بالهَمزة و الوجه فيهما أنّهما لغتان يقال أرجئت و أرجيت بمعنى واحد إعلم أنّ اللّه تعالى قسّم المتخلفين عن الجهاد مع رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم على أقسام:

أوّلهم: المنافقون الّذين مردوا على النّفاق

الثّاني: التّائبون و هم المرادون بقوله: **ءَاخَرُونَ** إعترفوا بذنوبهم و بيّن تعالىٰ أنّه قبل توبتهم.

و القسم الثّالث: الّذين بقوا موقوفين و هم المذكورون في هذه الآية و الفرق بين القسم الثّاني و الثّالث أنّ أولئك سارعوا الى التّوبة فتابوا و هؤلاء لَم يسارعوا اليها هكذا قيل ثمّ أنّ هذه الآية عطف على قوله و من أهل المدينة مردوا على النّفاق.

و آخرون إعترفوا بذنوبهم و المعنى، وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم، إمّا يعذّبهم، يعذّبهم اللّه أن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، و أمّا يتوب عليهم، أن تابوا قيل و هم ثلاثة، كعب بن مالك، و هلال بن أميّة، و مرارة بن الرّبيع أمر رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أصحابه أن لا يسلّموا عليهم و لا يكلّموهم ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة و أصحابه من شدّ أنفسهم على السّواري و إظهار الجزع و الغّم فلّما علموا أنّ أحداً لا ينظر اليهم فوضّوا أمرهم الى اللّه و أخلصوا نيّاتهم و نصحت توبتهم فرحمهم اللّه قاله في الكشّاف.

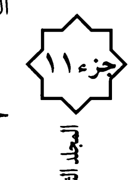


و عن مجاهد و قتادة أنّها نزلت في هلال بن أميّة و فزارة بن ربعي وكعب بن مالك من الأوس و الخزرج و كان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعونٍ عليه و أنّما تخلّف توانياً عن الإستعداد حتّى فاته المسير و إنصرف رسول اللّه و لم يعتذر اليه بالكذب و قال و اللّه مالي عذر فقال صلى الله عليه وآله وسلم صدقت فقم حتّىٰ يقضي اللّه فيك و جاء الرّجلان الأخران فقالا مثل ذلك و صدقا فنهى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن كلامهم بعد ما عذر المنافقين و جميع المتّخلفين وكانوا نيّفاً و ثمانين رجلاً فأقام هؤلاء الثّلاثة علىٰ ذلك خمسين ليلة حتّى هجرهم ولدانهم و نساءهم طاعةً لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بأمره و بنىٰ كعب خيمة على سلع يكون فيها وعده ثمّ نزلت التّوبة عليهم في اللّيل فأصبح المسلمون يتبذرونهم ويبشّرونهم قال كعب فجئت الى رسول اللّه في المسجد و كان اذا سرَّ يستبشر كأنّ وجهه فلقة قمر فقال لي و وجهه يبرق من السّرور أبشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمّك قال كعب فقلت له أمن عند اللّه أو من عندك يا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال فقال من عند اللّه و تصّدق كعب بثلث ماله شكراً للّه على توبته.

و أنا أقول و نحن أيضاً من مصاديق هذه الآية فأنّا قد تخلّفنا عن الجهاد النّفساني و كنّا مأمورين به و لا نعلم أنّ اللّه تعالى يعذّبنا أو يتوب علينا فأن عذَّبنا فبعدله و إن عفى عنّا فبفضله و حيث ثبت أنّه تعالى دائم الفضل على البَّرية نرجو منه العفو و اللّه عليمٌ حكيمٌ.

عليمٌ بما يؤل اليه حالنا، حكيمٌ بما يفعله بنا يوم القيامة و الأمر اليه و لا حول و لا قوّة إلاّ به.

■



وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنٰى وَ ٱللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿۱۰۷﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوٰى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ ٱللّٰهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿۱۰۸﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلٰى تَقْوٰى مِنَ ٱللّٰهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلٰى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ ٱللّٰهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰلِمِينَ ﴿۱۰۹﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿۱۱۰﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ ٱشْتَرٰى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرٰيةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ وَ ٱلْقُرْاٰنِ وَ مَنْ أَوْفٰى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿۱۱۱﴾ ٱلتَّآئِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْاٰمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ ٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ ٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللّٰهِ وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۱۲﴾

◀ اللّغة

ضِرارًا بكسر الضّاد أي مضّارة والضّرار هو طلب الضّر ومحاولته كما أنّ الشّقاق محاولة ما يشّق تقول ضارّة مضّارة ضراراً.

شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ، الشّفا بفتح الشّين الحرف والشّفير وجرف الوادي جانبه الّذي يتّحضر أصله بالماء و تجرفه السّيول فيبقىٰ واهياً، و الهار الهائر و هو المتّصدع الّذي أشفى على التّهرم و السّقوط و ألفه ليست بألف فاعل أنّما هي عينه و أصله هور و المعنى كأنّه أسسَّ بنياناً على شفا جرفٍ من أودية جهنّم فإنهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها.

رِيبَةً، الرَّيبة بفتح الرّاء الشكّ.

◀ الإعراب

وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا هو معطوف علىٰ قوله (و أخرون مرجون) أي الّذين إتَّخذوا و قيل هو مبتدأ و الخبر قوله أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ أي منهم فحذف العائد للعلم به و قد يقرأ بغير واو و عليه فهو مبتدأ و الخبر ما تقدّم ضِرارًا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لإتّخذوا و كذلك ما بعده و هذه المصادر كلّها واقعة موضع إسم الفاعل أي مضّراً أو مفترقاً و يجوز أن تكون كلّها مفعولاً له لَمَسْجِدٌ اللاّم لام الإبتداء و قيل جواب قسم محذوف و أُسِّسَ نعتٌ له مِنْ أَوَّلِ يتعلّق بأسسَّ و الخبر أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ و فِيهِ الأولى تتعلّق بتقوم و التّاء خطاب لرسول اللّه ﷺ فِيهِ رِجَالٌ صفة لمسجد جاءت بعد الخبر عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ في موضع الحال من الضّمير في، أسسَّ أي على قصد التّقوى جُرُفٍ بالضّم و الإسكان و هما لغتان و فى هَارٍ وجهان:

أحدهما: أصله هور أو هير.

الثّانى: أن يكون أصله هاوراً و هايراً وَعْدًا مصدر أي وعدهم بذلك وعداً و

حَقًّا صفة ٱلتَّٰٓئِبُونَ بالرّفع أي هم التّائبون و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر ٱلْأٰمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ و ما بعده.

◀التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرارًا وَكُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصٰادًا لِمَنْ حٰارَبَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

قرأ ابن عامر و أهل المدينة الّذين إتّخذوا، بإسقاط الواو و الباقون بإثباتها فمن أثبتها عطفه على ما تقدّم من الأيات و تقديره و منهم الّذين إتّخذوا مسجداً ضراراً، و من أسقطها إبتدأ الكلام و حذف الخبر لطول الكلام و المشهور إثباتها و عليه المصاحف في زماننا هذا.

قيل نزلت هذه الآية في أثني عشر رجلاً من المنافقين.

قال الفّراء كانوا من بني عمرو بن عوف من الأنصار و قال غيره كانوا من بني غنم بن عوف من الأنصار و قيل كانوا خمسة عشر رجلاً منهم عبد اللّه بن نفيل.

و قال ابن إسحاق هو نفيل بن الحارث ولم يذكر عبد اللّه و هذا الاختلاف في إسمه هو الذّي كان ينتقل حديث النّبي الى المنافقين.

فإعلم أنّ اللّه بيّنه ذلك و أخبر عنهم أنّهم بنوا المسجد الذّي بنوه ضراراً أي مضّارة قاله في التّبيان.

أقول لمّا أخبر اللّه تعالى عن أحوال المنافقين و بيّن لرسوله أوصافهم الذّميمة و أنّهم على أصنافٍ و أقسامٍ ذكر أنّ منهم من بالغ في الشّر حتّى إبتنىٰ مجمعاً للمنافقين يدّبرون فيه ما شاءوا من الشّر و سمُّوه مسجداً و ذلك بعد ما بنى عمرو بن عوف مسجد قباء.

و قد نقل الطّبري في تفسيره بأسناده عن إبن إسحاق عن الزُّهري و يزيد بن رومان و عبد اللّه بن أبي بكر و عاصم بن عمرو بن قتادة و غيرهم قالوا: أقبل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من تبوك حتّى نزل بذي أوان، بلد بينه و بين مدينة ساعة

من نهار و كان أصحاب مسجد الضّرار قد كانوا أتوه و هو يتّجهز الى تبوك فقالوا يا رسول قد بنينا مسجداً لذي العلّة و الحاجة و اللّيلة المطيرة و اللّيلة الشّاتية و أنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّي على جناح سفر و حال شغل ولو قدمنا أتيناكم إن شاء اللّه فصّلينا لكم فيه فلمّا نزل بذي أوانٍ أتاه خبر المسجد فدعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن الدّخشم أخا بني سالم بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال إنطلقا الىٰ هذا المسجد الظّالم أهله و أهدماه و حرّقاه فخرجا سريعين حتّى أتيا بني سالم بن عوف و هم رهط مالك بن الدّخشم فقال مالك لمعن أنظرني حتّى أخرج اليك بنارٍ من أهلي فدخل على أهله فأخذ سعفاً من النّخل فأشتعل فيه ناراً ثمّ خرجا ليشتّدان حتّى دخلا المسجد و فيه أهله فحرّماه و هدماه و تفرّقوا عنه و نزل فيهم من القرآن ما نزل **وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرارًا** و كان الّذين بنوه إثني عشر رجلاً، خذام بن خالد بن عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف و من داره أخرج مسجد الشقاق، و ثعلبة بن حاطب من بني عبيد، و هو الي بني أمّية بن زيد، و معتب بن قيشر من بني ضبيعة بن زيد، و أبو جيئية بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد و عباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من عمرو و جارية بن عامر و إبناه مجمع بن جارية و زيد بن جارية و نبتل بن الحرث و هم من بني ضبيعة و نجدج و هو الي بني ضبيعة و بجاد بن عثمان و هو من بني ضبيعة و وديعة بن ثابت و هوالٍ بني أميّة رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

ثمّ قال الطّبري فتأّويل الكلام، و الّذين إبتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول اللّه و كفراً باللّه لماحدتّهم بذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و يفرّقوا به المؤمنين ليصلّي فيه بعضهم دون مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و بعضهم في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فيختلفوا بسبب ذلك و يفترقوا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وَ إِرْصادًا لِمَنْ حارَبَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

إشارة الیٰ قصّة أبي عامر الكافر الّذي خالف اللّه و رسوله و كفر بهما وقاتل رسول اللّه ﷺ من قبل بناءهم ذلك المسجد و ذلك أنّ أبا عامر كان حزب الأحزاب لقتل رسول اللّه فلمّا خذله اللّه لحق بالرُّوم يطلب النَّصر من قيصر ملك الرُّوم على نبيّ اللّه و هو الّذي كتب الى أهل مسجد الضّرار و أمرهم ببناء المسجد ليصلّي فيه إذا رجع اليهم ففعلوا ذلك و هذا معنى قوله و إرصاداً لمن حارب اللّه و رسوله من قبل **وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ** أي و ليحلّفن بانوه إن أردنا أي ما أردنا إلاّ الحسنى أي ما أردنا من بناءنا المسجد إلاّ الرِّفق بالمسلمين و المنفعة و التَّوسعة على أهل الضّعف و العلّة و من عجز عن المسير الى مسجد رسول اللّه ﷺ للصّلاة فيه و تلك هي الفعلة الحسنة فقال تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ** في حلفهم ذلك و قولهم ما بَنيناه إلاّ و نحن نريد الحسنى و لكنّهم بنوه يريدون به السّواي ضراراً لمسجد رسول اللّه ﷺ و كفراً باللّه و تفريقاً بين المؤمنين و إرصاداً لأبي عامر الفاسق هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

و أعلم أنّ اللّه تعالى ذكر هذه القصّة و غيرها من القصص في كتابه العزيز، لنكتةٍ و هی تنبيه المسلمين و إرشادهم بأن يعتبروا بها و اليها الإشارة بقوله: **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ** (١) إذا عرفت هذا فنقول. لا شكّ لنا و لا لأحدٍ من أهل العلم و الفهم من المسلمين أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه لكونه جامعاً لما يحتاج اليه البشر الى يوم القيامة فهو أكمل الأديان و أفضلها و أشرفها و أحقّ بالإتّباع من جميع الأديان:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**(٣).

١- يُوسف=١١١ ٢- آل عمران = ١٩
٣- آل عمران=٨٥

و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ الإسلام من بدو ظهوره كانت له أعداء من اليهود و النّصارى و المجوس و عبدة الأوثان و بالجملة جميع فرق الكفّار والمعاندين الّذين بقوا علىٰ كفرهم و عنادهم و لم يؤمنوا باللّه وبرسوله بل حاربوا رسول اللّه في بدر و أخذوا حنين و غيرها من الغزاوت حتّى خذلهم اللّه و شردَّهم أو قتلهم بسيف أمير المؤمنين و سائر المسلمين كلام لنا فيهم فعلاً.

و أنّما الكلام فيمن أسلم منهم ظاهراً لمّا عجزوا عن القتال أو علموا أنّ القتال لا نفع لهم فيه فدخلوا في الإسلام ليحاربوا المسلمين في لباس الإسلام وهؤلاء يعبّر عنهم بالمنافقين الّذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فيحاربون الدّين بالدّين و القرآن بالقرآن و الصّلاة بالصّلاة و المسجد بالمسجد و هكذا سيرة خبيثة شيطانيّة إستمرت من صدر الإسلام الى زماننا هذا و الظّاهر أنّها تكون كذلك الى يوم ظهور الحجّة المنتظر سلام اللّه عليه.

و إذا كان الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو كان لا يعرفهم لقوله تعالىٰ: **لاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**[1] فما ظَّنك بسائر النّاس الّذين أكثرهم لا يعقلون أعاذنا اللّه من شرور آفاتهم بحقّ محمّد و آله.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

و هو مسجد قبا أسَّسه رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و صلّى في أيّام مقامه و بقاء و هى يوم الأثنين و الثّلاثاء و الأربعاء و الخميس و خرج يوم الجمعة و قيل المراد به مسجد الرّسول لأنّه روي عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم لمّا سأل عن المسجد الّذي أسَّس على التّقوى، قال صلّى الله عليه و آله و سلّم هو مسجدي هذا و الظّاهر أنّ المراد مسجد قباء لأنّ الموازنة بيم مسجد قباء و مسجد الضّرار أوقع منها بين مسجد الرّسول و مسجد الضّرار يهمّنا البحث فيه لأنّ مسجد الرّسول أيضاً كذلك و لا فرق

۱- التوبة = ۱۰۱

بينهما من هذه الجهة **أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** أي أنّ المسجد الّذي أسّس على التّقوى أحقّ و أجدر أن يقوم في للصّلاة و ذلك لأنّ فيه رجال يحبُّون أن يتطّهروا من الذُّنوب بالماء من الغائط و البول و اللّه يحبّ المطّهرين من الذُّنوب و كذلك المتطّهرين من النّجاسة بالماء.

و رُوي عن النّبي أنّه قال لأهل قباء، ماذا تَفعلون في طهركم فأنّ اللّه أحسن اليكم الثّناء قالوا نغسل الغائط فقالﷺ أنزل اللّه فيكم و اللّه يحبّ المطّهرين و في الآية نكات لا بأس بالإشارة اليها.

الأوّلیٰ: قوله **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** قالوا القيام هذا الصّلاة إذ قد يعبّر عنها به يقال فلان يقوم باللّيل أو قائم اللّيل أي ليصلّي فيه و منه الحديث من قام رمضان إيماناً و إحتساباً غفر له ما تقدَّم من ذنبه، و من هذا الباب قولهم من أقام الفرائض فله كذا و عليه فقوله: **لَا تَقُمْ فِيهِ** معناه لا تصلّي فيه و أمّا قوله أبداً دائماً لأنّه ظرف زمانٍ و ظرف الزّمان على قسمين:

ظرفٌ مقدّر كاليوم، و ظرف مبهم كالحين و الوقت و الأبد من هذا القسم و كذلك الدّهر قال بعضهم أنّ أبداً و أن كانت ظرفاً مبهماً لا عموم فيه و لكنّه إذا إتّصل بلا النّافية أفاد العموم فلو قال لا تقم لكفى في الإنكفاف المطلق فإذا قال أبداً فكأنّه قال في وقت من الأوقات و لا في حينٍ من الأحيان.

و أمّا النّكرة في الإثبات إذا كانت خبراً عن واقع لم تعمّ.

الثّانی: قوله **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** قيل أي بنيت جدره و رفعت قواعده و الأسّس أصلُ البناء و كذلك الأساس، على التّقوىٰ أي الإخلاص متقرّباً اليه تعالى و بعبارةٍ أخرى، أن يكون قصد الباني المؤسّس ترويج الّدين و إعلاء كلمة التّوحيد و تعظيم الشّعائر و الجامع أن يكون قصده رضا اللّه تعالى لا الرّياء و النّفاق و تفريق الكلمة و إيجاد الإختلاف بين المسلمين كما عرفت من مسجد الضّرار و هذا أي بناء



العمل على التّقوى لا يختصّ بالمسجد بل هو مطلوب في جميع الأعمال لقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**(١) و فى قوله: **مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** إشارة الىٰ أنّ المسّس ينبغي له مراعاة التّقوى من يوم الشّروع الى آخر الأمر و فى قوله: **أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** إشارة الى أنّ فعل النّبي حجّة فلو صلّى في مسجد الضّرار مثلاً يعلم منه صحّة الصّلاة فيه و هو كما ترى و يشير الى هذا المعنىٰ كلمة، أحقّ، أي أجدر و أليق بمقام الرّسول و هو الأسوة في فِعله و قوله و تقريره هو عدم القيام فيه للصلاّة، واللاّم في قوله: **لَمَسْجِدٌ** لام قسم و قيل لام الإبتداء كما تقول لزيداً أحسن النّاس قولاً أو فعلاً و هى مقتضية للتأكيد.

الثّالثة: قوله **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** هذا كلام بمنزلة التّعليل للحكم فكأنّه قال قائل لم يكون القيام للصّلاة في المسجد الّذي أسّس على التّقوى أحقّ و أجدر فقال تعالىٰ فيه رجال الخ.

و التّقدير لأنّ فيه رجالاً كذلك و قوله يحبّون أن يتطّهروا معناه يحبّون أن يتطهّروا من الذّنوب و الخطايا فأنّها من الأرجاس و الخبائث الباطّنية و تركها و الإجتناب منها بمنزلة التّطهير كيف و هو تطهير النّفس عن الرذائل.

و من المعلوم أنّ تطهير النّفس أنفع و أفضل من تطهير الجسد و الدّليل على ما قلناه هو قوله تعالىٰ: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**(٢) ولاشكّ أنّ ذكر الطّهارة بعد التّوبة دليل على ما ذكرناه أي أنّ التّوبة توجب التّطهير من الذّنوب.

الرّابعة: قوله **وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** أي أنّ اللّه تعالىٰ ينعم عليهم لأنّ محبّة اللّه للعبد إنعامه عليه و محبّة العبد له طَلب الزُّلفى لديه فاذا كان العبد مطيعاً للّه تعالى متّصفاً بالصّفات الحسنة المطلوبة للشّارع فاللّه تعالىٰ يُحبّه أي يكرمه و ينعم عليه في الدّنيا و الأخرة و اذا كان مطيعاً للشّيطان عاصياً ربّه

١- المائدة= ٢٧ ٢- البقرة =٢٢٢

متّصفاً بالصّفات الذّميمة و الأخلاق الرّديئة الخبيثة فهو تعالىٰ يبغضه أي لا ينعم عليه بل يكله الىٰ نفسه و لذلك ترىٰ في القرأن ما يشير الىٰ ما ذكرناه و أصلّناه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يُحِبُّ ٱلصّٰابِرِينَ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ**[۵].

و قال في العاصين:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلظّٰالِمِينَ**[۶].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يُحِبُّ مَنْ كٰانَ مُخْتٰالًا فَخُوراً**[۷].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يُحِبُّ مَنْ كٰانَ خَوّٰاناً أَثِيماً**[۸].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ**[۹].

و الأيات كثيرة فمن شاء أن يكون محبوباً له تعالىٰ فليتّخذ الى ربّه سبيلاً.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلٰى تَقْوٰى مِنَ ٱللّٰهِ وَ رِضْوٰانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلٰى شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ فَانْهٰارَ بِهِ فِي نٰارِ جَهَنَّمَ وَ ٱللّٰهُ لاٰ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمِينَ

قرأ نافع و إبن عبّاس أُسِّسَ بضّم الهَمزة و كسر السّين و رفع النّون في بنيانه، و الباقون بفتح الهَمزة و نصب النّون من بنيانه.

۱- التوبة= ۴
۲- البقرة = ۱۹۵
۳- آل عمران = ۱۴۶
۴- آل عمران = ۱۹۵
۵- المائدة۴۲=
۶- آل عمران = ۷۵
۷- النساء= ۳۶
۸- النساء= ۱۰۷
۹- المائدة = ۶۴

و قرأ إبن عامر **جُرُفٍ** بسكون الرّاء و الباقون بضّمها، فمن قال في أسَسَّ، بفتح الهَمزة جعل قوله: **بُنْيٰانَهُ** مفعولاً فلاجرم فتح النّون و عليه فالخير يرجع الىٰ المؤسِّس لا الىٰ المؤسَّس أعني به المسجد و هكذا في الجملة الثّانية و عليه فالمعنىٰ أنّ من أسسَّ بنيان المسجد على تقوىٰ من اللّه و رضوان خيرٌ أَم من أسسَّ بنيان المسجد على النّفاق مثلاً هذا معنىٰ الكلام بناءً علىٰ الفتح بناءً على الضَّم فالخير يرجع الىٰ المؤسّس أعني به المسجد و المعنى أنّ المسجد الّذي بني على التّقوىٰ خيرٌ أو المسجد الّذي بني على شفا جرفٍ هارٍ.

و أنت ترى أنّ المعنى الثّاني أعنى به ضمّ الهَمزة لا يستقيم لأنّ المسجد ليس من ذوي العقول بل هو داخل في غير ذوي العقول فلو كان المعنى ما ذكروه و كان اللاّزم أن يقال أفما أسسَّ، بدل قوله أفمن أسسَّ و لم يقل ذلك اللّهم إلاّ أن يقال في معنى الكلام أفمن أسسَّ بنيانه أي بنيان المؤسسّ لا بنيان المسجد أي أنّ المؤسسّ المتّقي خير من المتّقى و هذا التّفسير و أن كان ممكناً في ظاهر الأمر إلاّ أنّه عند الدِّقة أيضاً لا يستقيم في المقام لأنّ الّذين بنوا مسجد رسول اللّه كانوا كمن بنى مسجد الضّرار من هذه الجهة أي من حيث البنيان و الأصل أي أصل الولادة و ملخّص الكلام هو أنّه بناء على ضمّ الهَمزة فالهاء في قوله: **بُنْيٰانَهُ** بم يرجع.

فأن قالوا يرجع الىٰ المسجد الّذي مضىٰ ذكره في الآية السّابقة في قوله لمسجدٌ أسسَّ على التّقوىٰ، كما هو الظّاهر فكان حقّ العبارة أن يقال أفَما أسسَّ بنيانه على التَّقوىٰ، لتكون كلمة، ما، كناية، عن المَسجد و مرجعاً للضّمير الرّاجع اليه.

و أن قالوا يرجع الىٰ، من، في قوله: **أَفَمَنْ** فيصير المعنى أفمن أسسَّ بنيانه أي بنيان المؤسّس و المفروض أنّ كلّهم من هذه الجهة كانوا على حدٍّ سواء أي إنعقدت نطفتهم على الشّرك اللّهم إلاّ أن يراد بالبُنيان شيئاً أخر لا نفهم معناه فثبت و تحقّق أنّ الحقّ هو فتح الهَمزة.

نعم على قول من يقول بأنّ كملة، من، تشمل ذوي العقول و غير ذوي العقول فتطلق على المسجد كما تطلق على باني المسجد فلا إشكال في تلك القراءة و ليس هذا القول بعيداً من الصّواب لأنّ العرب يقول من كان ناطقاً خير ممَّن لم يكن كذلك و كيف كان فالقراءة على الفتح أولى منها على الضّم كما هو الأشهر و عليها المصاحف ولنرجع الىٰ تفسير الآية و نقول:

قوله: **أَفَمَنْ أَسَّسَ** به صورة الإستفهام و معناه التّقرير و الإنكار أي ليس كذلك، لأنّ من أسسَّ بنيان المسجد على تقوى من اللّه و الرّضوان، ليس كمن أسسَّ بنيان مسجده على النّفاق و الظّلم و تفريق الكلمة و هذا معلوم إلاّ أنّه لابدّ لنا من توضيح بعض كلمات الأية:

منها، قوله: **بُنْيَانَهُ** البُنيان بضّم الباء علىٰ ما قيل مصدر و هو جمع و الواحد بنيانة، قال الشّاعر:

كبنيانة القّرى موضع رحلها وأثار نعيها من الدَّف أبلقُ

و جاء بناء المصادر على هذا المثال في غير هذا الحرف نحو الغفران قالوا و ليس بنيان جمع بناء.

و قال بعضهم البناء و البنية مصدران و من ثمّ قوبل به الفراش في قوله تعالىٰ: **اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ فِرٰاشًا وَ اَلسَّمٰآءَ بِنٰآءً**(١).

و منها، قوله: **شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ** الشَّفا بفتح الشّين الحرف و الحدّ قال الشّاعر:

نحن حضرنا للحجيج سجله نابتة فوق شفاها بقلة

يقال أشفى على الشّيئ أي أشرف عليه ومنه أشفى المريض على الموت و ما بقي منه إلاّ شفاً، أي قليل والأصل في شفا، شفوا ولهذا يكتب بالألف يمال.

قال الأخفش لمّا تجر فيه الإمالة عرف أنّه من الواو.

و منها، و قوله: **جُرُفٍ** بضّم الرّاء و إسكانها مثل شغل و شغل و الرُّسل و الرسّل يعني جرفاً ليس له أصل و الجرف ما يتجرّف بالسّيول من الأودية



١- البَقرة =٢٢

جوانبه الّتي تنحصر بالماء و أصله من الجرف و الإجتراف و هو إقتلاع الشّئ من أصله (هارٍ) أي ساقط يقال تهور البناء اذا سقط و أصله هائر فهو من المقلوب يقلب و تؤخّر ياؤها فيقال هارٍ.

و منها، قوله: **فَانْهٰارَ بِهِ فِي نٰارِ جَهَنَّمَ** فاعل إنهار الجُرف كأنّه قال فإنهارَ الجُرف بالبنيان في النّار لأنّ الجرف مذّكر و يجوز أن يكون الضّمير في (به) يعود علىٰ (مَن) و هو الباني و التّقدير فإنهار من أسسَّ بنيانه علىٰ غير تقوى و هذه الآية ضرب مثلٍ لهم أي من اسسّ بنيانه على الإسلام خير أم من أسسَّ بنيانه على الشِّرك و النّفاق و بيّن فيها أنّ بناء الكافر كبناء على جرف جهنّم يتهوّر بأهله فيها ولاشفا الشَّفير و أشفى علىٰ كذا أي دنا منه.

اذا عرفت معنىٰ اللّغات فيها فيصير معنىٰ الآية هكذا، أفمن أسسَّ بنيانه على تقوىٰ من الّله و رضوان خيرٌ أم من أسسَّ بنيانه علىٰ شفا جُرفٍ هارٍكناية عن أنّ بانيه كان غير متّقٍ فإنهار به في نار جهنّم و الإنهيار السّقوط و الّله لا يهدي القوم الظّالمين و على هذا فشّبه الّله تعالىٰ بنيان هؤلاء المنافقين مسجد الضّرار ببناء يبنى على شفير جهنّم فإنهار ذلك البناء بأهله فيها.

لاٰ يَزٰالُ بُنْيٰانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرأ إبن عامر و حمزة و حفص و أبو جعفر و يعقوب **تَقَطَّع** بفتح التّاء و الباقون بضّمها، أي لا يزال بناء المبنى الّذي بنوه ريبةً في قلوبهم أي شكّاً فيها فيما كان من إظهار إسلامهم و ثباتاً علىٰ النّفاق الى أن تقطّع قلوبهم بالموت والبلىٰ.

و قال إبن عبّاس معناه لا يزالون شاكّين و قيل حسرةً و ندامة لأنّهم ندموا على بنيانه.

و قال الرّازي جعل نفس البنيان ريبة لكونه سبباً لها و كونه سبباً لها أنّه لمّا أمر بتخريب ما فرحوا ببناءه ثقل ذلك عليهم و إزداد بغضهم له و إرتيابهم في نبوّته.

و قرأ الحسن و يعقوب و أبو حاتم الىٰ أنْ تَقطَّع على الغاية و عليه فالمعنى لا يزالون في شكّ منه الى أن يموتوا.

و محصّل الكلام هو أنّهم كانوا شاكّين في هذا الأمر كما هو شأن المنافق و هذا الشكّ ثابت في قلوبهم الى أن يموتوا.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ

لمّا بيّن اللّه تعالى فيما مضى من الأيات أوصاف المنافقين شرع في بيان أوصاف المؤمنين و هم الذّين أمنوا باللّه و برسوله حقّاً ظاهراً و باطناً و أثبتوا إيمانهم بأعمالهم فقال: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ** من المعلوم أنّ حقيقة الإشتراء لا يجوز على اللّه تعالىٰ لأنّ المشتري يشتري ما لا يملك و هو تعالى مالك الأشياء كلّها و لّما كان اللّه تعالى رغب في الجهاد و قتال الأعداء و ضمن على ذلك الثّواب عبَّر عن ذلك بالإشتراء فجعل الثّواب ثمناً و الطّاعات مثمناً علىٰ ضربٍ من المجاز و كما أنّ في مقابلة الطّاعة الثّواب فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أنّ الثّواب مقترن بالإجلال و الإكرام و العوض خالٍ منهما هكذا قيل و عليه فقوله هذا من قبيل قوله تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**[1] مع أنّه تعالىٰ غنّي بالذّات يحتاج الىٰ الاستقراض.

ثمّ أنّ المشترى في الآية الأنفس و الأموال والوجه فيه هو أنّ الجهاد يحتاج الى النّفس و المال و لا يتحقّق بغيرهما فاذا كان المؤمن باذلاً نفسه و ماله في إعلاء كلمة الحقّ و إذلال أعداءه فهو المجاهد حقّاً، و يتحمل أن يكون الوجه في إختصاصهما بالذّكر أنّ أعزَّ الأشياء عند الإنسان نفسه ثمّ ماله لأنّه يفدي بماله لحفظ نفسه ثمّ جعل اللّه ثمن هذه المعاملة الجنّة فقال بأنّ لهم الجنّة ثمن أعلى منها.



١- البقرة أية ٢٤٥

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ

أي أنّهم يقاتلون الكفّار فيقتلونهم أو يقتلون بأيدي الكفّار و كلاهما حسنٌ لأنّ الجنّة ثابت لهم على التّقديرين.

وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَيٰةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ وَ ٱلْقُرْاٰنِ

وعداً، نصب على المصدر بما دلَّ عليه إشترى اذ يدّل على أنّه وعد و الوعد خبرٌ بما يفعله المخبر من الخير بغيره كما أنّ الوعيد خبرٌ بما يفعله المخبر من الشّر بغيره.

قال الزّمخشري أخبر بأنّ هذا الوعد الذّي وعده للمجاهدين في سبيله وعدٌ ثابت قد أثبته في التّوراة و الإنجيل و القرأن انتهىٰ.

أقول قوله: **حَقًّا** أيضاً منصوب على المصدر أو على أنّه حال أي أنّ الثّواب حقّ لهم في كلّ عصرٍ و زمانٍ بحكم جميع الأديان.

وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فيه إشارة الى أنّ اللّه تعالى أولى بوفاء العهد من غيره فالاحد أحقّ بالوفاء به منه و الدّليل على أنّه أحقّ بالوفاء به من غيره أنّ نقض العهد قبيح عقلاً و هو منّزه من القبائح و أنّما قلنا نقض العهد قبيح عقلاً لأنّه كاشف عن الكذب و النّفاق و يمكن أن يقال أنّ عدم الوفاء بالعهد قد يكون للعجز و قد يكون للنّفاق و كلاهما في حقّه تعالى غير معقولٍ لأنّ العجز ينافي وجوب الوجود و أنّه على كلّ شئٍ قدير و النّفاق و الكذب أيضاً في حقّه محال لأنّه منزّهٌ عن جميع النّقائص و العيوب و كيف كان لا شكّ في أنّه تعالى يفي بعهده و لا يمكن له التّخلف عنه و لذلك قال: **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِۦ وَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** الفاء للتّفريع أي اذا كان الأمر على هذا المنوال أي أنّه تعالىٰ وعد الثّواب على الجهاد و هو أوفى بعهده من غيره، فإستبشروا، أيّها المؤمنون المجاهدون في سبيل اللّه ببيعكم الّذي بايعتم به، يعني ذلك الشّراء و البيع فأنّه الفلاح العظيم الذّي لا يقارنه شئ فأنّ في هذه المعاملة ربحٌ عظيم.

قالوا في سبب نزول الآية أنّها نزلت في البيعة الثّانية و هى بيعة العقبة الكبرى و هى التّي أناف فيها رجال الأنصار على السّبعين و كان أصغرهم سنّاً عبد اللّه بن رواحة فقال عبد اللّه يا رسول اللّه اشترط لربّك و لنفسك ماشئت قال صلى الله عليه وآله وسلم أشترطُ لربّي أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً و أشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال صلى الله عليه وآله وسلم لكم الجنّة قالوا ربح البيع لا نقيل و لا نستقيل و مرَّ برسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أعرابي يقرأوها فقال كلام، من، قال كلام اللّه، قال بيعٌ و اللّه مربح لا نقيله و لا نستقيله فخرج الىٰ الغزو فإستشهد.

و قد روي عن الصّادق عليه السلام أنّه لمّا نزلت الآية قام رجل الىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا نبيّ اللّه أرأيتك الرّجل يأخذ سيفه فيقاتل حتّى يقتل إلاّ أنّه يقترف من هذه المحارم أشهيدٌ هو فأنزل اللّه علىٰ رسوله.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

ففسّر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم المجاهدين من المؤمنين الّذين هذه صفتهم و حليتهم بالشّهادة و الجنّة و قال: **ٱلتَّٰٓئِبُونَ** من الذّنوب، **ٱلۡعَٰبِدُونَ** الّذين لا يعبدون إلاّ اللّه و لا يشركون به شيئاً، **ٱلۡحَٰمِدُونَ** الّذين يحمدون اللّه على كلّ حالٍ في الشّدة و الرّخاء **ٱلسَّٰٓئِحُونَ** الصّائمون **ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ** الّذين يواظبون على الصّلٰوات الخمس الحافظون لها و المحافظون عليها برحوعها و سجودها و الخشوع فيها و فى أوقاتها **ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ** بعد ذلك و العاملون به وَ **ٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ** والمنتهون عنه **ٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ** في أوامره و نواهيه فبشِّر من قتل و هو قائم بهذه الشّرائط بالشّهادة والجنّة هذا و أعلم أنّه قيل في إرتفاع.

قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ الخ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه إرتَفع بالمدح و التّقدير هم التائبُون.

الثّاني: بالإبتداء و خبره محذوف بعد قوله: ﴿ٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ لهُم الجَنّة.

الثّالث: على أن يكون بدلاً من الضّمير في يقاتلون أي أنّما يقاتل من هذه صفته و قيل هو كقوله: لكن الرّسول، و الّذين معه الخ.

التّائبون هذا على القول بالرّفع كما هو المشهور و قرأ أبّي و عبد اللّه بن مسعود و الأعمش بالنّصب على أنّه صفة للمؤمنين و يظهر من بعض الأخبار الواردة في الآية الشّريفة عن أهل البيت عليهم السّلام رجحان النصّب بل هو الحقّ لا غيره.

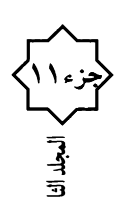
فعن روضة الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أي قال الرّاوي، تلوث التابّعون العابدون، فقال عليه السلام لا، إقرأ التّابعين العابدين الى آخرها فسأل عن العلّة في ذلك فقال عليه السلام إشترى من المؤمنين التّابعين العابدين انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه عزّ وجلّ أنّ اللّه إشترى مِن المؤمنين الآية قال عليه السلام: يعني في الميثاق ثمّ قرأت عليه التّائبون العابدون، فقال أبو جعفر، لا، و لكن إقرأها التّابعين العابدين الىٰ آخر الأية.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال عليه السلام: نزلت في الأئّمة انتهىٰ.

و قد ذكر صاحب تفسير نور الثّقلين بعد نقله ما نقلناه عنه عن بعض رجاله أنّه قال - لقى الزُّهري علّي بن الحسين عليه السلام في طريق الحجّ فقال له يا علّي بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته و أقبلت



على الحجّ و لنيته أنّ اللّه تعالىٰ يقول: إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فقال له علّي بن الحسين أنّما هم الأئمّة فقال التّائبون العابدون الآية فقال له علّي بن الحسين عليه‌السلام إذا رأينا هؤلاء الّذين هذه صِفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ انتهىٰ.

و قد نقل عن علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام أنّه قال عليه‌السلام لقى عباد البَصري علّي بن الحسين في طريق مكّة ثم ساق الحديث كما مَرّ[1].

و أنا أقول يستفاد من الأيتين أنّ قبول الجهاد و ترتّب الثّواب الموعود عليه أنّما هو مشروط بالشّرائط المذكورة في الآية و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ رتَّب الثّواب و هو الجنّة على الجهاد الصّادر عن المؤمن لا على مطلق الجهاد من أيّ شخصٍ صدر و لذلك قال في صدر الأية **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ** و لم يقل أنّ اللّه إشترى من المجاهدين.

و من المعلوم أنّ المؤمن الحقيقي لا يكون فاقداً لهذه الأوصاف المقرّرة المذكورة لأنّ الإيمان لا يتحقّق، بالإقرار فقط أو به مع الإعتقاد بل يتحقّق بهما مع العمل الصّالح و العمل يتحقّق بالتّوبة و العبادة و الحمد و الصّوم و الصّلاة و الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر و الحفظ لحدود اللّه في أوامره و نواهيه و هذه مفاد الآية.

نعم على مسلك المخالف يتحقق الإيمان بدون العمل و لا كلام لنا فيه فعلاً.

■

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٢٧٢

مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كٰانُوٓا أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَ مٰا كٰانَ
ٱسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰآ
إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرٰاهِيمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَ مٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ إِنَّ
ٱللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مٰا لَكُمْ
مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لٰا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تٰابَ
ٱللّٰهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَ ٱلْمُهٰاجِرِينَ وَ ٱلْأَنْصٰارِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُ فِي سٰاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مٰا كٰادَ يَزِيغُ
قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا
حَتّٰىٓ إِذٰا ضٰاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ وَ
ضٰاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوٓا أَنْ لٰا مَلْجَأَ مِنَ
ٱللّٰهِ إِلّٰآ إِلَيْهِ ثُمَّ تٰابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ
ٱلتَّوّٰابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّقُوا
ٱللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ ٱلصّٰادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مٰا كٰانَ لِأَهْلِ
ٱلْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرٰابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ ٱللّٰهِ وَ لٰا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ
ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لٰا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لٰا نَصَبٌ وَ لٰا

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ لَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

◀ اللّغة

لَأَوّاهٌ أي توّاب و أصله من التّأوُّه و هو التّوجّع و التّحزن.

يَزِيغُ، الزَّيغ ميل القلب عن الحقّ.

ضاقَتْ، الضَّيق ضِّد السّعة و منه ضيق الصَّدر.

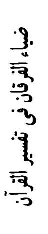
◀ الإعراب

مِنْ بَعْدِ مٰا كٰادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ إختلفوا في فاعل، كاد، علىٰ ثـلاثة أوجه:

أحدهما: ضمير الشّأن والجملة يعده في موضع نصب.

الثّانى: فاعله مُضمر تقديره من بعد ما كاد القوم و العائد على هذا الضّمير في منهم.

الثّالث: فاعله القلوب، و يزيغ في نـيّة التّأخير و فـيه ضـمير فـاعل و إنّـما يحسن ذلك علىٰ القراءة بالتّاء و أمّـا عـلى القـراءة بـالياء فـيضعف أصـل هـذا التّقدير.



وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ معطوف علىٰ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أي تاب علىٰ النّبي و علىٰ الثّلاثة، و قيل معطوف علىٰ، عليهم، أي تاب عليهم و على الثّلاثة **لٰا مَلْجَأَ مِنَ ٱللّٰهِ** خبر، لا، من اللّه، **إِلّٰآ إِلَيْهِ** إستثناء مثل لا إله إلاّ اللّه.

◀التّفسير

مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كٰانُوٓا أُولِي قُرْبىٰ كلمة، ما للنفي أي ليس للنّبي و غيره من المؤمنين أن يستغفروا للمشركين أي يطلبوا المغفرة لهم و المشرك هو الذّي يعبد مع اللّه إلٰهاً أخر و قيل المشرك من لا يوّحده و لا يقّر بإلوهيّته سواء يعبد مع اللّه إلٰهاً أخر أم لا و الحقّ هو القول الأوّل كما هو المستفاد من لفظ المشرك.

أمّا القَول الثّانى: فهو معنى الكفر اللّهم إلاّ أن يقال بعدم الفرق بين المعنيين و هو كما ترىٰ ألا ترىٰ أنّ اللّه تعالىٰ فرّق بينهما في الأيات فتارةً عبّر بالكافر و أخرىٰ بالمشرك فكلُّ مشركٍ كافر و لا عكس ثمّ أنّ الشِّرك في الدّين على قسمين:

أحدهما: الشِّرك العظيم و هو إثبات شريكٍ للّه تعالى و هو الّذي لا يُغفر:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰآءُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّةَ**(٤)

والأيات كثيرة.

الثّاني: الشِّرك الصّغير و هو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور و قد يعبّر عنه بالرّياء و النّفاق و اليه الإشارة بقوله: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**(٥) فلفظ الشِّرك من الألفاظ المشتركة و قد جمع المعنيين في قوله: **وَ لاٰ يُشْرِكْ بِعِبٰادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**(٦).

١- النّساء = ۴۸
٢- لقمان =١٣
٣- النّساء =١١۶
۴- المائدة =٧٢
۵- سورة يوسف أية ١٠۶
۶- الكهف =١١٠

و أمّا الكفر، فهو في اللّغة ستر الشّيء و أعظم الكفر جحود الوحدّانية أو الشّريعة أو النبّوة اذا عرفت الشّرك و الكفر فنقول:

أنّ اللّه تعالى منع نبيّه و الّذين أمنوا معه أن يستغفروا للمشركين بالشّرك العظيم و أمّا المشركون الشّرك الصّغير فلا و هكذا الكفّار نعم من قال بأنّ الكفر قسمٌ مِن الشِّرك فهو داخل في المنع و كيف كان فقد منع اللّه رسوله عن ذلك فقالو: **وَ لَوْ كٰانُوٓا أُولِي قُرْبىٰ** أي ولو كان المشرك من أقرباء الرَّسول و المؤمنين فأنّ الحكم عامّ يشمل الكلّ **مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ اَلْجَحِيمِ** أي من بعد ما ظهر لهم أي للمستغفرين، أنّهم أي المشركين من أصحاب الجحيم.

فَمَفهوم الآية أنّ قبل التبيّن لا إشكال و لا منع في الإستغفار و هو كذلك لأنّ النّاس في سعة ما لا يعلمون ثمّ أنّهم إختلفوا في نزُول الآية.

قال الطّبرسي رحمه الله في المجمع أنّ المسلمين قالوا للنّبي ألا تستغفر (نستغفر) لأباءنا الّذين ماتوا في الجاهلّية فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية و بيَّن أنّه لا ينبغي لنبيٍ و لا مؤمنٍ أن يدعو للكافر و يستغفر له نقله الطّبرسي عن تفسير الحسن و منه يَظهر أنّه ليس رأيه في شأن نزول الآية و هو الحقّ فأنّ الآية نزلت في منع النّبي و من تبعه من المؤمنين عن الإستغفار للمشركين الذّين ماتوا على الشِّرك و هذا ممّا لا كلام فيه و به قال جميع المفسّرين من الشّيعة.

و أمّا العامّة فقال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

و إختلف أهل التّأويل في السّبب الّذي نزلت الآية فيه، فقال بعضهم نزلت في شأن أبي طالب عمّ النّبي لأنّ النّبي أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه اللّه عن ذلك.

حدّثنا محمّد بن عبد الأعلىٰ قال حدّثنا محمّد بن ثور عن مُعمّر قال لمّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و عنده أبو جهل و عبد اللّه بن أبي أُمّية فقال صلى الله عليه وآله وسلم يا عمّ قُل لا إله إلاّ اللّه كلمة أحاج بها لك عند اللّه فقال له أبو جهل و عبداللّه بن أبي أُمّية يا أبا طالب

أترغب عن ملّة عبد المطّلب فقال النّبي لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنه فنزلت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ و نزلت: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ[١] انتهىٰ.

ثمّ نقل بعد ذلك عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال لمّا حضرت أبا طالب الوفاة و ساق الحديث كما مرَّ و هكذا و هكذا.

ثمّ قال الطّبري و قال أخرون بل نزلت في سبب أُمّ رسول اللّه و ذلك أنّه أراد أن يستغفر لها فَمُنع من ذلك.

قال حدَّثنا محمّد بن إسحاق (أحَمد بن إسحاق) قال: حدّثنا أبو أحَمد قال: حدّثنا فضيل عن عطّية قال: لمّا قدم رسول اللّه ﷺ مكّة وقف علىٰ قبر أمّه حتّىٰ سخنت عليه الشّمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها حتّىٰ نزلت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ انتهىٰ.

ثمّ روى بأسناده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ النّبي ﷺ أتىٰ رسماً قال: و أكثر ظنّي أنّه فال قبراً فجلس لايه فجعل يخاطب ثمّ قام مستعبراً فقلت يا رسول اللّه أنّا رأينا ما صنعت قال أنّي إستأذنت ربّي في زيارة قبر أمّي فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار لها فلم يأذن لي فما رؤي باكياً أكثر من يومئذٍ انتهىٰ.

ثمّ ذكر الطّبري حديثاً أخر بأسناده عن قتادة في قوله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ذكر لنا أنّ رجالاً من أصحاب النّبي ﷺ قالوا يا نبيّ اللّه إنّ من أباءنا من كان يحسن الجوار و يصل الأرحام ويفّك العاني و يوفي بالذّمم أفلا نستغفر لهم قال: فقال النّبي واللّه لأستغفرنّ لأبي كما إستَغفر إبراهيم لأبيه قال فأنزل اللّه تعالىٰ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ حتّى بلغ الجحيم انتهىٰ.

١- القصص = ٥٦

أقول ما نقلناه عن الطّبري في الباب من الأخبار قليل من كثير فأنّه قد أطنب الكلام في نقل الأحاديث الدّالة على مدّعاه بزعمه و من أراد الإطّلاع على أكثر ممّا ذكرناه عنه فعليه بمراجعة كتابه.

و أمّا غيره من مفسّري العامّة فقد سلكوا مسلكه فنسجوا على منواله و تابعوه على ذلك حذو النّعل بالنّعل من غير تدّبرٍ و تعمُّقٍ كما هو شأن المقلّد الّذي لا رأي له.

فقال الزّمخشري في الكشّاف ما هذا لفظه:

قيل قال ﷺ لعمّه أبي طالب أنتَ أعظم النّاس علّى حقّاً و أحسنهم عندي يداً فقُل كلمةً تجب لك بها شفاعتي فقال لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت الآية.

و قيل لمّا إفتتح مكّة سأل أيُّ أبويه أحدث به عهداً فقيل أمّك أمنة فزار قبرها بالأبواء ثمّ قام مستعبراً فقال أنّي إستأذنت ربّي في زيارة قبر أمّي فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار لها فلم يأذن لي فنزلت و هذا أصحّ لأنّ موت أبي طالب كان قبل الهجرة و هذا أخر ما نزل بالمدينة.

و قيل إستغفر لأبيه و قيل قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لأباءنا وذوي قرابتنا و قد إستغفر إبراهيم لأبيه و هذا محمّد يستغفر لعمّه فنزلت انتهىٰ كلامه.

و نقل القرطبي في تفسيره عن مسلم عن سعيد بن المسّيب عن أبيه قال لمّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول اللّه ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد اللّه بن أبي أمّية و ساق الحديث الى أخر كما نَقلناه عن الطّبري.

و قال الألُوسي في روح المعاني و الآية على الصّحيح نزلت في أبي طالب فقد أخرج أحمد و إبن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النّسائي و إبن جرير و إبن المنذر و البيهقي في الدّلائل و أخرون عن المسّيب بن حزن قال لمّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النّبي و ساق الحديث كما نقلناه عن الطّبري و القرطبي ثمّ أنّه زاد في الطّنبور نغمةً أُخرىٰ.



فقد روي عن إبن سعد و إبن عساكر عن علّي عليه السلام أنّه قال أخبرت الّرسول بموت أبي طالب فبكى و قال إذهب فغسّله و كفنّه و واره غفر اللّه له ففعلتُ و جعل رسول اللّه يستغفر له أيّاماً و لا يخرج من بيته حتّىٰ نزل عليه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية ثمّ ذكر الألوسي في أخر كلامه عن إبن مسعود أنّه خرج النّبي يوماً الى المقابر فجاء حتّىٰ جلس الى قبرٍ منها فناجاه طويلاً ثمّ بكى فبكينا لبكاءه ثمّ قام فصلّى ركعتين فقام اليه عُمر فدعاه ثمّ دعانا فقال ما أبكاكم قلنا بكينا لبكاءك قال أنّ القبر الّذي جلست عنده قبر أمنة و أنّي إستأذنت ربّي في زيارتها فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار لها فلم يأذن لي و أنزل علّي ما كان للنّبي الخ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرّقة فذاك الّذي أبكاني انتهىٰ.

ثمّ قال و لا يخفى أنّ الصّحيح في سبب النّزول هو الأوّل.

نعم خبر الإستئذان في الإستغفار لامّه و عدم الإذن جاء في رواية صحيحة لكن ليس فيها أنّ ذلك سبب النّزول انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و نظير ذلك ما رواه السّيوطي في الدُّر المنثور و البيضاوي في تفسيره و الرّازي في تفسيره و الحقّي في روح البيان و غيرهم من مفسّري العامّة فأنّهم قد أجمعوا و إتّفقوا على أنّ الآية نزلت في أبي طالب أو آمنة امّ النّبى.

و قال بعضهم عبد اللّه اب النّبى وقوله: **لَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ** إشارة الىٰ أقرباء النّبي أوّلاً و الى أقرباء المؤمنين ثانياً و العجب أنّهم لم يتّفقوا علىٰ شيءٍ مثل إتّفاقهم على هذا و لا سيّما أبو طالب فأنّ أكثر تعرّضاتهم له و أنّ الآيةَ نزلت في أبي طالب لمّا مات على كفره وأنّما أطلنا الكلام فيه بنقل رواياتهم لأنّ أبا طالب عليه السّلام بزعمهم مات كافراً و لذلك منع اللّه النّبي عن الإستغفار له و حيث إنّجر البحث الىٰ هذا المقام فالواجب علينا التّكلم حَول هذه القصّة المختلفة المجعولة النّاشئة عن عداوتهم لأمير المؤمنين عليه السلام.

و عندنا أنّ أبا طالب عليه السلام لا ذنب له إلاّ كونه حامياً لرسول اللّه و أعظم منه كونه أباً لأمير المؤمنين عليه السلام و إلاّ فالآية بمعزلٍ عن هذه الأراجيف قطعاً فنقول مستعيناً باللّه و متوكّلاً عليه أنّ ما ذكروه في المقام باطلٌ من وجوهٍ:

أحَدها: أنّ الأحاديث المذكورة في تفاسيرهم من المجعولات التّي لا يقبلها العقل السّليم و ذلك لأنّ النّاس قبل البعثة كانوا علىٰ دين المسيح عليه السلام رأسهم أقرباء النّبي و قد روي أنّ عبد المطّلب كان من الأوصياء فكيف يحكم بكفر من مات قبل البعثة فلو فرضنا أنّ كثيراً منهم أو أكثرهم في عهد الجاهليّة كانوا فسّاقاً بل كفّاراً كما هو كذلك لا يجوز لنا و لا لغيرنا أن يحكم بكفر الجميع و أنّهم ماتوا عليه فأنّ أقرباء النّبي كانوا من المؤمنين الموّحدين خرج عنهم من خرج بالدّليل و الباقي داخل تحت الأصل و حيث أنّ البحث يدور مدار أبي طالب و أمنة و عبد اللّه فنقول:

أمّا أمنة وعبد اللّه فأنّهما ماتا قبل البعثة فأنّ أمنة ماتت و قد مضىٰ من سنّ رسول اللّه خمس سنين أو أقلّ أو أكثر و أمّا عبد اللّه فقد مات قبل ولادة النّبي على الأشهر و من المسلَّم المقطوع به أنّ الدّين الإلٰهي الّذي كان النّاس مأمورين بإتّباعه هو دين المسيح قبل الإسلام و حيث أنّ أمنة و عبد اللّه ماتا قبل البعثة فلم يكونا مأمورين بمتابعة النّبي الّذي لم يولد أو ولد و هو صغير و عليه فأن دلّ الدّليل على أنّهما ماتا على الكُفر و لم يتبعا دين المسيح فهو وإلاّ فلا و على المستّدل الإثبات و إلاّ فالحكم بكفر من مات قبل البعثة كائناً من كان تحكمٌ و بهتان و لا ينبغي لمن يدّعي الإسلام و العقل، أن يحكم بكفر كلّ من مات قبل البعثة ما لم يدّل دليل على أنّه مات كافراً فثبت و تحقّق أنّ آمنة و عبد اللّه لما ماتا قبل البعثة و كان الدّين المرّضي عند اللّه في عهدهما هو دين المسيح و لم يدّل على أنّهما تركاه و كفرا به ماتا مسلمين مؤمنين و يجب على مدّعي الكفر الإثبات و إذ ليس فليس و لا أقلّ من السُّكوت و التّوقف في

الحكم بالكفر و الإيمان في حقّ من مات قبل البعثة فكيف يحكم الخصم بكفرهما و أنّهما قد ماتا عليه ألم يعلم أنّ دين المسيح قبل النّسخ باق على قوّته هذا بالنّسبة اليهما.

و أمّا أبو طالب فهو كا حيّاً بعد البعثة و نسخ الشّريعة السّابقة و مات قبل الهجرة و كان مأموراً بإتّباع النّبي كغيره من النّاس و أهل السُّنة يقولون بأنّه لم يؤمن باللّه و برسوله و مات على كفره كما عرفت من كلماتهم و أحاديثهم فنزلت الآية في حقّه و أمّا أهل الحقّ و هم أتباع أهل البيت أجمعوا و إتّفقوا على إيمان أبي طالب تبعاً لأئمتّهم فأنّ أهل البيت أدرى بما في البيت إلاّ أنّه لم يكن متظاهراً به على رؤوس الأشهاد بل كان مختفياً به لنصرة النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كما هو مذكور مسطور في أخبار أهل البيت فكان حاله حال مؤمن آل فرعون الّذي كان يكتم إيمانه لمصلحة الّدين و يدّل على ما ذكرناه أشعار أبي طالب مصافاً الىٰ الأخبار فمن الأشعار قوله:

واللّه لن يصلوا اليك بجمعهم حتّىٰ أوسدّ في التّراب دَفينا
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ و أنشر نداك و قَّر منك عيوناً
ودعوتني و زعمت أنّك ناصحُ فلقد صدقتَ وكنت قبلُ أميناً
و عرضت ديناً قد عرفت بأنّه من خير أديان البّرية دِيناً
لولا المخافة أن يكون معرّةً لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

و قال أيضاً:

يقولون لي دع نصر من جاء بالهدىٰ
وغالب لنا غلاّب كلّ مغالبٍ
و سلّم الينا أحمداً وأكفلن لنا
نبّياً ولا تَحفل بقول المعاتِب
فقلت لهم اللّه ربّي وناصري
على كلّ باغٍ من لُؤّي بن غالبٍ

و قال أيضاً:

حـميت الرّسـول رسـول الإلٰـه بـبيضٍ تـلألأ مـثل البـروق
أذّب وأحـمي رسـول الإلٰـه حـماية عـمٍّ عـليه شـفيق

و لمّا أسلم حمزة بن عبد المطّلب سَّر أبو طالب بإسلامه وأنشأ يقول:

صـبراً أبـا لعـلي عـلى ديـن أحـمد وكـن مـظهراً للّـدين وفّـقت صـابراً
وحط مـن أتـىٰ بـالّدين من عـند ربّـه بـصدقٍ وحـقٍّ لا تكُـن حـمز كـافراً
فـقد سـرَّني إذ قـلت أنّك مـؤمنٌ فكـن لرسـول اللّـه فـي اللّه نـاصراً
فـناد قـريشاً بـالّذي قـد أتـيته جـهاراً وقـل مـا كـان أحمَد ساحراً

و لمّا حصن رسول اللّه الشّعب كان أبو طالب يحرسه باللّيل والنّهار و هو الّذي يقول.

ألم تـعلموأنّا وجـدنا مـحمّداً نـبّياً كموسىٰ خطّ فـي أوّل الكتب
أليس أبـونا هـاشم شـدّ أزره وأوصـى بـنيه بـالطّعان وبـالضّرب
و أنّ الذّي عـلقتم مـن كـتابكم يكـون لكُـم يـوماً كـراعية التّعب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحضر الثّرىٰ ويصبح من لم يَجن ذنباً كـذِي الذّنب

و كان النّبي إذا أخذ مضجعه ونامت العيون جاء أبـو طـالب فأنـهضه عـن مضجعه و أضجع علّياً مكانه و وكلّ عليه ولده وُولد أخيه فـقال عـلّى عليه‌السلام يـا أبتاه أنّي مقتول ذات ليلة فقال أبو طالب:

إصبرن يا بنّي فالصّبر أحجىٰ كـلّ حـيٍ مـصيره لشُعوبٍ
قَـد بـلوناك والبـلاء شـديدٌ لفداء النَّجيب و إبن النَّجيب
لفـداء الأعـزّ ذي الحسَب والثـاقب والفـناء الرَّحـيب

و قال أيضاً:

أتأمـرني بـالصّبر فـي نصر أحـمد و والله ما قـلت الّـذي قلت جازعاً
و لكـنّني أحـببت أن تـر نُـصرتي وتـعلم أنّـي لم أزل لك طـائعاً
وسعىٰ لوجـه اللّه فـي نـصر أحـمدٍ نـبّي الهدىٰ المحمود طفلاً ويـافعاً

و الأشعار المّروية عنه في مدح رسول اللّه كثيرة و لا سيّما قصيدته المشهورة باللاّمية الّتي يقول فيها:

وأبيَض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

الى آخر القصيدة و حيث أنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذا الفنّ أعرضنا عن ذكرها و ذكر غيرها ممّا يدّل على إثبات المدّعى صريحاً أو تلويحاً فهذا أبو طالب الّذي يقول المعاند بأنّه مات على الكفر فأن كان الأمر كما ذكره الخصم فما معنى هذه الأشعار التّي صرَّح في كثيرٍ منها بأنّه رسول اللّه أو يقول هو فينا كموسىٰ بن عمران و ما معنىٰ قوله حميت الرّسول رسول الإله، و قوله، أذّب و أحمي رسول الإله الىٰ آخر ما قال و كيف يصرّح الكافر في كلامه بأنّه رسول الإله هذا كلّه مضافاً الى حمايته عن رسول اللّه و ذبَّه المشركين عنه و كيف يقول:

أنت الأمين أمين اللّه لا كذب والصّادق القول لا لهوُ ولا لعِبُ

أنت الرّسول رسول اللّه نعلمه عليك تنزل من ذي الغزّة الكتب

و لو كان كافراً فما الّذي دعاه الى إنشاء هذه الأشعار و النُّصرة لرسول اللّه بقدر الإمكان أليس أبولهب من أعمام الرّسول و قد فعل ما فعل أليس عبّاس و سائر أعمامه أحياء و لم ينصروه أصلاً بل خالفوه و نصروا أعداءه أمِن الإنصاف أن يتَّهم الانسان و لا سيّما من يدّعي الإسلام أبا طالب بالكفر و أنّ اللّه منع رسوله أن يستغفر له فأقض ما أنت قاض إن كنت من أهله و العجب كاّ العجب من الألوسي الحنفي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأحاديث المجعولة نقلناها عنه و عن غيره حيث قال فلّما تقارب لأبي طالب الموت نظر العبّاس اليه يحرّك شفتيه فأصغى اليه بأذنه فقال يا بن أخي لقد قال أفي الكلمة الّتي أمرته بها فقال صلى الله عليه وآله وسلم لم أسمع قال و أحتج بهذا و نحوه من أبياته المتضّمنة للإقرار بحقّية ما جاء به و شدّة حنوه عليه و نصرته له، الشّيعة الذّاهبون الى موته مؤمناً و قالوا أنّه المرّوي عن أهل البيت و أهل البيت أدرىٰ

و أنت تعلم قوّة دليل الجماعة فالإعتماد على ما روي عن العبّاس دونه ممّا تضحك منه الثّكلىٰ و الأبيات على إنقطاع أسانديها ليس فيها النّطق بالشّهادتين و هو مدار فلك الإيمان و شدّة الحنوة و النُّصرة ممّا لا ينكره أحد إلاّ أنّها بمعزلٍ عمّا نحن فيه و أخبار الشِّيعة عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت و أنّه لأوهن البيوت انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و نحن نقول كأنّ الألوسي لشدّة تعصُّبه و عناده صار من المجانين الّذين لا يعلمون ما يقولون و ذلك لأنّه يقول نظر العبّاس اليه يحرّك شفتيه فأصغىٰ اليه بأُذنه فقال يا بن أخي لقد قال أخي الكلمة الّتي أمرته أن يقولها، فهذا الكلام إقرارٌ من الألوسي بأنّ أبا طالب مات مؤمناً بشهادة العبّاس.

ثمّ يقول بعد سطرين فالإعتماد على ما روي عن العبّاس و دونه ممّا تضحك منه الثّكلى فيقال له أن كان الإعتماد على ما روي عن العبّاس كما تقول و ثّق به فما معنى قولك و أخبار الشّيعة عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت و المفروض أنّ أخبار الشّيعة مصرّحة بأنّه مات مؤمناً كما نقلته عن العبّاس هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الشّيعة لم تحتّج في إيمان أبي طالب به وبالأبيات فقط بل أنّ إيمانه في حياته و مماته من المسلّمات عندهم بحسب الأخبار الواردة عن أهل البيت و أرباب السيّر و قوله أنّ أخبار الشّيعة عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت كلامٌ لا يصدر عن عاقل فضلاً عمّن يدّعي الإسلام و الإيمان بل هذا الكلام و أمثاله من التّعابير بالنّسبة الى أهل البيت يدّل على خبث ذات القائل و عدم طهارة مولده.

و كيف يقول ولد الحلال أنّ أخبار أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت.

فأن كان الإسلام يقتضي هذا فعلى الإسلام السّلام و بعد اللّتيا و اللّتي.

نقول أيّها الألوسي أن كان أخبار أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت، فأين الأخبار الّتي أوثق منه في الإسلام حتّى نتمسّك بها، أترى أنّ ما تروون عن

أحمد و إبن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النّسائي و إبن جرير و إبن المنذر و أبو هريرة و أنس و أمثالهم أوثق من أخبار أهل البيت الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً.

و في خاتمة البحث نقول إذا كان الغراب دليل قوم، سيهديهم سبيل الهالكين، و لنختم الكلام في المقام وأنّما أطلنا الكلام لأنّ الّدفاع عن المظلوم واجب علىٰ كلّ من يقدر عليه و أبو طالب كان مظلوماً و قد ورث ذلك من إبنه أمير المؤمنين و اللّه تعالى يقضي بين العباد يوم القيامة و الحمد للّه ربّ العالمين.

فقد ثبت و تحقّق إنّ الآية الشّريفة أجنّبيةٌ عمّا حملوها عليه و هو الحقّ الحقيق بالاتباع و هو المطلوب.

وَ مٰا كٰانَ ٱسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰآ إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهٗ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِيمٌ

كلمة ما في قوله: **وَ مٰا كٰانَ** للنّفي فكأنّه جواب عن سؤال فقدّر و هو أنّه قال بعض المسلمين نستغفر لموتانا كما إستعغفر إبراهيم لأبيه فقال تعالىٰ في جوابهم:

وَ مٰا كٰانَ ٱسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰآ إِيّٰاهُ والمؤمن إذا وعد وفى بوعدَه فلمّا تبيّن له أي لأبراهيم أنّه عدّو اللّه أي لمّا ظَهر له أنّه لم يؤمن تبرّأ منه و لم يستغفر له بعد التّبين و المعنى لا حجّة لكم أيّها المؤمنون فيإستغفار إبراهيم لأبيه فأنّ ذلك لم يكن إلاّ عن عدة و أختلفوا في الواعد فقال بعضهم كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن باللّه و يخلع الإنداد فلمّا مات على الكفر علم إبراهيم أنّه عدّو اللّه فتبرّأ منه.

و قال الآخرون كان الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له فلمّا مات مشركاً تبرّأ منه.

قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله القولين و الّذي عندي و هو الأقوى أنّ أباه أظهر له الإيمان و صار اليه و كان وعده أن يستغفر له أن آمن فلمّا أظهر الإيمان إستغفر له فأعلمه اللّه أنّ ما ظهر منه بخلاف ما يبطنه، فتبرّأ منه و يقوي ذلك قوله: **وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**[1].

أي فيما مضى و يجوز أن يكون أظهر الكفر بعد الإيمان فلمّا تبيّن ذلك تبرّأ منه فأمّا مَن قال أنّ الوعد كان من إبراهيم فالسّؤال باق لأنّ لقائلٍ أن يقول و لم وعد كافراً أن يستغفر له فأن قلنا وعده بأن تستغفر له إن آمَن، كان الرّجوع الى الجواب الأخر انتهى كلامه رُفع مقامه.

و في تفسير العياشي بأسناده عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد اللّه ما يقول النّاس في قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ** قُلت يقولون إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال ليس هو هكذا أنّ إبراهيم وعده إن يسلم فأستغفر له فلمّا تبيّن له أنّه عدّو اللّه تبرّأ منه انتهىٰ.

و في حديثٍ آخر عن أبي عبد اللّه عليه السلام **قال لمّا مات تبيّن أنّه عدّوٌ للّه فلم يستغفر له.**

و في تفسير علّي بن إبراهيم قوله: : **وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ** قال قال إبراهيم لأبيه أن لم تعبد الأصنام أستغفر لك فلمّا لم يدع الأصنام تبرّأ منه **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** وقد نقل القُرطبي في تفسيره لهذه الآية عن القاضي أبوبكر بن العرّبي أنّه قال تعلّق النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في الإستغفار لأبي طالب بقوله تعالىٰ: **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**[2] فأخبره اللّه أنّ إستغفار إبراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبّين الكفر منه فلمّا تبيَّن له الكفر منه تبرّأ منه فكيف تستغفر أنت لعمّك يا محمّد و قد شاهدت موته كافراً انتهىٰ.

أقول أنظر الىٰ عناد هذا القوم لأولاد الرّسول و أقرباءه فأنّهم لا يرضون أنفسهم في أبي طالب بأقلّ من الكُفر و أنّه مات عليه و لا أدري لم يصّرون عليه، و

١- الشعراء=٨٦

٢- مريم = ٤٧

أيّ نفع يحصل لهم فيه أن مات على الكفر مع أنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ الآية آخر ما نزل من القرآن و مات أبوطالب قبل الهجرة و أمّا قوله أنّ إبراهيم لأوّاهٌ حليمٌ.

فقيل معناه أنّه الدعّاء الّذي يكثر الدُّعاء و قيل أنّه الرّحيم بعباد اللّه أنّه المؤمن و قيل أنّه المؤمن بلغة الحبشة و الأقوال كثيرة و الأقوىٰ هو الأوّل وأن كان لكُلٍّ منها وجه و قد نقلوا عن أبىذرّ الغفاري أنّه قال معناه أنّه المتأوّه و ذلك لأنّ إبراهيم كان كثيراً ما يقول، آه من النّار قبل أن لا تنفع آه و قوله: **حَلِيمٌ** أي كثير الحلم و هو الّذي يصفح عن الذّنوب و يصبر على الأذى و قيل، الّذي لم يعاقب أحداً إلاّ في اللّه و لم ينتصر لأحدٍ إلاّ اللّه.

وأعلم أنّ قوله تعالىٰ: **لِأَبِيهِ**.

قال بعض المفسّرين المراد به عمّه لأنّ الأب يطلق على العمّ و ليس المراد به أباه الّذي ولدّه لأنّ آباء الأنبياء لا يكونون إلاّ من الموحدّين الصّالحين الّذين لم يكفروا باللّه طرفة عينٍ قالوا و الدّليل على أن المراد بأبيه في الآية هو عمّه هو قوله تعالىٰ: **وَ إِذْ قَالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنٰامًا آلِهَةً**[1] مع أنّ أبا إبراهيم كان تازخ و آذر كان عَمّه و هو الّذي كان يتّخذ أصناماً آلِهة و قد تكلّمنا في هذا الموضوع هناك و أمّا في المقام فلا يفترق الحال كما هو ظاهر **وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدٰيٰهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مٰا يَتَّقُونَ إِنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**.

قيل في وجه إتّصال هذه الآية بما قبلها هو أنّه لمّا حرّم اللّه تعالىٰ على المؤمنين الإستغفار للمشركين أنّه لم يكن اللّه ليأخذكم به إلاّ بعد أن يدّلكم على تَحريمه وأنّه يجب عليكم أن تتقّوه.

و قال بعضهم، مات قومٌ كان عملهم على الأمر الأوّل كإستقبال بيت المقّدس و شرب الخمر فسأل قوم الرّسول بعد مجيئ النّسخ و نزول الفرائض على ذلك فنزلت.

١- الأنعام=٧۴

و قال الكرمانى، أسلم قومٌ من الأعراب فعملوا بما شاهدوا الرّسول يفعله من الصّلاة الى بيت المقدّس و صيام أيّام البيض ثمّ قدموا عليه فوجدوه يصليّ الى الكعبة و يصوم رمضان فقالوا يا رسول اللّه دنا بعدك بالضّلال أنّك على أمرٍ و إنّا على غيره فنزلت، و قيل خاف بعض المؤمنين من الإستغفار للمشركين دون إذنٍ من اللّه فنزلت الآية و كيف كان فمعنى الآية أنّ اللّه تعالى لا يحكم بضلال من عدل عن طريق الحقّ على وجه الذّم إلاّ بعد ان ينصب له على ذلك الدّليل و الحجّة و أمّا بعد البيان فيحكم، والوجه فيه هو قبح العقاب بلا بيان، و على هذا فمن إستغفر للمشركين قبل نزول الآية و شرب الخمر قبل نزول الحكم بحرمته و هكذا لا إشكال فيه و لا ذَّم عليه و علىٰ هذا المعنى فقوله: **لِيُضِلَّ** معناه ليحكم بضلاله.

أقول الظّاهر أنّ الآية بعد بيان حكم عَامٍ و هو أنّ اللّه تعالىٰ يجب عليه البيان قبل العقاب كما هو مقتضى العدلً فلقائل أن يقول لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ هدانا للإسلام بواسطة النّبي فالنّبي إمامٌ متّبع ما دام كونه حيّاً و أمّا بعد مَوته فمن الإمام فَهَل يجب علىٰ اللّه تعالى أن يبّين للأمّة ذلك أو لا يجب.

علىٰ الثّانى: لا يلزم العقاب يوم القيامة لأنّ اللّه تعالى لم يبّين لنا الإمام و القدوة بعد الرّسول لنأخذ عنه أحكام ديننا كما هو مقتضى الآية و صريح حُكم العقل.

علىٰ الأوّل: و هو وجوب التّعيين و التّبين كما هو الحقّ يثبت المطلوب لنا و نحكم ببطلان السّقيفة إذا عرفت هذا فنقول لا يَبعُد أن تكون الآية بِصدد بيان هذا الأصل الأصيل و الرّكن الرّكين أعني به الإمامة و الخلافة بعد النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و ذلك لوضوح أنّ شرب الخمر مثلاً قبل تحريمه من قبل الشّارع لا ذمّ فيه عقاب عليه و هذا لا يحتاج الى نزول الآية لأنّه من المقطوع به عقلاً ضرورة أنّ قاعدة قبح العتاب بلا بيان تكفي في هذه الموارد و لا يحتاج الى نصٍ خَاص من الشّارع و عليه فإختصاص الآية بأمثال هذه الموضوعات بعيد جدّاً و إذا

كان كذلك فلا نحتاج الى صرف الآية عن ظاهرها و نقول معنى ليضّل قوماً، لم يكن اللّه ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحقّ قبل الدّليل بل نأخذ الآية بظاهرها و نقول ترك التّبيين هو بعينه الإضلال أو موجب و سببٌ له و التّبيين يحتاج الى المبيّن و المبيّن الكتاب و السُّنة بعد النّبي بواسطة الإمام العارف بهما لا هما بذاتهما و إذا كان كذلك فالأمّة تحتاج بعد النّبي الى من يبّين الأحكام و يوضّحها لهم تفصيلاً إتماماً للحجّة و لا شكّ أنّ المبّين بهذا المعنى لا يكون إلاّ من كان عالماً عارفاً بهما و هو الإمام المعصوم لا غيره و يدلك على ما ذكرناه و أستنبطناه من الأية.

ما رواه علّي بن محمّد عن إسحاق بن محمّد شاهويه بن عبد اللّه قالكتب إلّي أبو الحسن في كتاب أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر و قلقت لذلك فلا تغنّم فأنّ اللّه عزّ وجلّ لا يضّل قوماً بعد إذ هديهم حتى يبيّن لهم ما يتّقون و صاحبكم بعدي أبو محمّد إبني و عنده ما تحتاجون اليه يقدّم ما يشاء اللّه و يؤّخر ما يشاء ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها قد كتبت بما فيه بيان و قناع لذي عقلٍ يقظان انتهىٰ.

و في كتاب التّوحيد بأسناده عن حمزة بن الطّيار عن ابي عبد اللّه عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: وَ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيٰهُمْ قال: حتّى يعرّفهم ما يرضيه و ما يسخطه انتهىٰ.

و فيه أيضاً عن حماد بن عبد الأعلىٰ قال: سألتُ أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيٰهُمْ قال عليه السلام: حتّىٰ يعرّفهم ما يرضيه و ما يسخطه انتهىٰ[1].

أقول ما يُرضيه و ما يسخطه أي ما يرضي اللّه و يسخط اللّه و قوله يعرّفهم، فالمعرّف هو الإمام إذ لا يقدر علىٰ ذلك غيره فثبت المطلوب.

۱- نور الثّقلين ج ۲ ص ۲۷۶

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** معناه أنّ اللّه يعلم حيث يجعل رسالته و أن شئت قلت أنّه تعالىٰ يعلم أنّ بيان الأحكام بعد النّبي مفوّض الىٰ باب مدينة علمه و الأئمّة الطّاهرين من ولده و هذا هو الصراط المستقيم في قوله: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** فأفهم فلو كان الأمر على غير هذا المنوال يلزم إضلال النّاس بعد إذ هدٰيهم الى الإسلام واللّه تعالىٰ أجلّ من ذلك هذا ما فهمناه من الآية واللّه أعلم.

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ

المُلك بضمّ الميم الحقّ الدّائم للّه **المِلك** بكسر الميم هو كالجنس للملك فكلّ **مُلكٍ مِلكٍ** و ليس كلّ **مِلكٍ مُلكاً** فقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** معناه ضبط الشّيء المتصّرف فيه بالحكم و مع ذلك تدخل فيه الملّكية أيضاً لما ذكرناه و قيل الملك إتّساع المقدور لمن له السّياسة و التّدبير و خزائن اللّه لا تفنى و ملكه لا يبيد و لا يبلى و إذا كان كذلك فهو تعالى يتصرّف في ملكه كيف يشاء بما يشاء و ليس لأحدٍ مَنعه منه.

و أمّا قوله: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** فهو من شؤن الملك و ذلك لأنّ الإحياء و الإماتة نوعٌ من التصّرف فله أن يتصرَّف في ملكه بالإحياء و الإماتة و قوله: **وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ** يظهر معناه ممّا ذكرناه في معنى الملك و ذلك لأنّ الإنسان داخل في السّمٰوات و الأرض فيدخل تحت ملكه فهو القادر القاهر فوق عباده لأنّه علىٰ كلّ شيٍ قدير و من زعم أنّ له ولّيٌ و ناصرٌ غير اللّه فقد أخطأ لأنّ غيره تعالىٰ كائناً من كان مخلوق له محتاج اليه في جميع شئونه و أن شئت قلت لا قدرة له من ذاته إلاّ ما أقدره اللّه عليه فالولّي و النّاصر في الحقيقة هو اللّه تعالىٰ والىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعًا وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لا حَيٰوةً وَ لا نُشُورًا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**(۳).

و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ الإنسان ينبغي له أن لا يعتمد إلاّ علىٰ اللّه و لا يستنصر إلاّ من اللّه و لا يستعين إلاّ به و هكذا و هذا هو رمز التّوحيد الخالص.

لَقَدْ تابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ

قيل أنّ اللاّم في قوله: **لَقَدْ** لام القسم بأنّه تعالى تاب على النّبي و المهاجرين و الأنصار بمعنى أنّه رجع اليهم و قبل توبتهم لأنّهم الّذين إتبّعوه في ساعة العسرة يعني في الخروج معه الى تبوك، و **الْعُسرة** بضمّ العين صعوبة الأمر و قيل الضِّيق و الشدّة و هذه أي غزوة تبوك هي جيش العسرة الّذي قال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهَّز جيش العسرة فله الجنّة و أنّما سمّيت بها لأنّه بلغت العسرة بهم الى أن كان العشرة منهم يعقبون على بعيرٍ واحد و الى أن قسمّوا التّمرة بين الرّجلين و كان النضّر يأخذون التّمرة الواحدة فيمصّها أحدهم و يشرب عليها الماء ثمّ يفعل بها كلّهم ذلك **مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** الزّيغ ميل القلب عن الحقّ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا**(۵).

۱- الفرقان = ۳
۲- الأسراء=۵۶
۳- فاطر=۱۳
۴- الصّف=۵
۵- آل عمران=۸

قيل أنّ من شدّة ما لحقهم همَّ كثيرٌ منهم بالرّجوع فتاب اللّٰه عليهم و قيل من بعد ما كان شكّ جماعةٍ منهم في دينه ثمّ تابوا فتاب اللّٰه عليهم أي قبل توبتهم أنّه تعالىٰ: **رَءُوفٌ رَحِيمٌ** و الرّأفة أعظم الرَّحمة.

قال كعب بن مالك الأنصاري:

نطيع نبّينا ونطيع ربّاً　　　هو الرّحمٰن كان بنا رؤفاً

و قال الآخر:

ترىٰ للمسلمين عليك حقّاً　　　كمثل الوالد الرّؤف الرّحيم

قال إبن هشام في السيّرة أنّ رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم أمَرَ أصحابه بالتهيّؤ لغزو الرُّوم و ذلك في زمان مِن عسرة النّاس و شدّةٍ من الحرّ وجدبٍ من البلاد و حين طابت الثمار و النّاس يحبّون المقام في ثمارهم و ظلالهم و يكرهون الشّخوص على احال من الزّمان الّذي هم عليه و كان رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله قلمّا يخرج في غزوة الاكنىٰ عنها و أخبر أنّه يريد غير الوجه الّذي يصمد له إلاّ ما كان من غزوة تبوك لبعد الشّقة و شدّة الزّمان و كثرة العدّو الّذي يعمد له ليتأهّب النّاس لذلك أهبته فأمر النّاس بالجهاز و أخبرهم أنّه يريد الرُّوم و ساق الحديث الى أن قال و خلف رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله علّي بن أبى‌طالب علىٰ أهله و أمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون و قالوا ما خلّفه إلاّ إستثقالاً له و تخفُّفاً منه فلّما قال ذلك المنافقون أخذ علّي بن أبي طالب عليه السلام سلاحه ثمّ خرج حتّىٰ أتى رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله و هو نازل بالجرف فقال يا نبّي اللّٰه زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني لأنّك إستثقلتني و تخفّفت منّي فقال صلّى اللّٰه عليه وآله كذبوا و لكنّني خلّفتك لما تركت ورائي فأرجع فأخلفني في أهلي و أهلك أفَلا ترضى: **يا علّي أن تكون منّي بِمَنزلة هٰرون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبّي بعدى** فرجع علّي عليه السلام الىٰ المدينة و مضى رسول اللّٰه على سفره ثمّ أنّ أبا خثيمة رجع بعد أن سار رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله أيّاماً، الىٰ أهله في يوم حّارٍ فوجد إمرأتين له في عرشين لهما

في حائطه قد رشّت كلّ واحدةٍ منهما عريشها و بردّت له فيه ماءٍ و هيّأت له فيه طعاماً فلّما دخل قام على باب العرش فنظر الى إمرأتيه و ما صنعتا له فقال رسول اللّه في الضِّح، (في الصّح) و الرّيح و الحَّر و أبو خثيمة في ظّلٍ باردٍ و طعامٍ مهّيأ وإمرأةٍ حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنِّصف ثمّ قال و اللّه لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتّى ألحقّ برسول اللّه صلى الله عليه وآله فهّيئا لي زاداً ففعلتا ثمّ قدم ناضحه فأرتحله ثمّ خرج في طلب رسول اللّه حتّىٰ أدركه حين نزل تبوك الى آخر القصّة و هو الّذي يقول:

لمّا رأيت النّاس في الدّين نافقوا	أتيت الّتي كانت أعّف و أكرما
وبايعت باليمنىٰ يدي لمُحّمدٍ	فلم إكتسب إثماً ولم أغّش مجرماً
تركت خفّيناً في العريش وحرمةً	صفايا كراماً بسرها قد تحمّما
وكنت إذا شكّ المنافق أسمجت	الىٰ الدّين نفسي شطره حيث يمّما

وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوٓا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ.

وَ عَلَى ٱلثَّلٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا عن التّوبة عن مجاهد وأبي مالك، وعن غزوة تبوك عن قتادة و قيل معنى خلّفوا، تُركوا، و قرأ بعضهم، خلَفوا بالتّخفيف أي أقاموا بعقب رسول اللّه وقرأ بعضهم خالفوا، و قيل، خلّفوا بفتح اللاّم أي أرجئوا و أخّروا عن المنافقين فلم يقضوا منهم بشئٍ و هٰؤلاء الثّلاثة الّذين خُلّفوا هم كعب بن مالك، و مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمّية الواقفي و كلّهم من الأنصار قيل أنّهم لم يتخلّفوا عن نفاقٍ لكن عن توانٍ ثمّ ندموا على ما فعلوا من التّخلف فلما ورد النّبي جاءوا و أعتذروا فلم يكلّمهم النّبي و تقدّم الىٰ المسلمين بأن لا يكلّمهم أحدٌ منهم فهجرهم النّاس حتّى الصّبيان و أهاليهم و جاءت نسائهم الى رسول اللّه تعتزلهم فقال لا و لكن لا يقربونّكن

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا الى رؤوس الجبال فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطّعام و يتركونهم و لا يكلّمونهم فقال بعضهم لبعضٍ قد هجرنا النّاس و لا يكلّمنا أحد فهلاّ نتهاجر نحن أيضاً فتفرّقوا و لم يجتمع منهم إثنان و ثبتوا على ذلك نَيِّفاً و أربعين يوماً و قيل سنة يضّرعون الى اللّه تعالى و يتوبون اليه فقبل اللّه حينئذٍ توبتهم و أنزل فيهم هذه الآية فقوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** فالضّيق ضدّ السّعة و منه ضيق الصّدر خلاف إتّساعه و قوله: **بِمَا رَحُبَتْ** أي بما إتسعت **وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ** ضيق النّفس هاهنا بمعنى ضيق الصّدر بالهّم الّذي حصل فيها و قوله: **وَ ظَنُّوٓا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ** قيل ظنّ هاهنا بمعنى، علم، أي علموا و تيقّنوا أنّه لا مَلجأ و لا معتصم من اللّه إلاّ به **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا** أي جعل لهم التّوبة لِيَتوبوا بها و المخرج ليخرجوا به و قيل لطف لهم في التّوبة كما يقال في الدّعاء**تاب اللّه عليهم**

و قيل معناه، قبل توبتهم ليمسّكوا بها في المستقبل **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** معناه واضح.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ

أمر اللّه المؤمنين في هذه الآية بتقوى اللّه و الكون مع الصّادقين و إنّما خَّص الخطاب بهم ولم يقل يا أيّها النّاس مثلاً لأنّ التّقوىٰ و الكون مع الصّادقين لا يتحقّق إلاّ من المؤمن باللّه و رسوله ثمّ أنّ التّقوىٰ لا خفاء فيها و أمّا الكون مع الصّادقين فأختلفوا فيه فقال بعضهم المراد بالصدّق هاهنا صدق الحديث.

و قال الآخر الصّحة في الدّين و التّمكن في الخير.

و قال الآخر معناه كونوا مَعَ محمّد و أبىبكر و عُمر و خيار المهاجرين الّذين صدقوا اللّه في الإسلام.

و قيل هم الثّلاثة أي كونوا مثل هٰؤلاء في صدقهم و ثباتهم.

و قال صاحب الكّشاف هم الّذين صدقوا في إيمانهم و معاهدتهم اللّه و رسوله من قوله: **رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اَللّهَ عَلَيْهِ**[١] وهُم الّذين صَدَقوا في دين اللّه نيّة و قولاً و عملاً إنتهىٰ.

أقول ما ذكره الزّمخشري، لا بأس به و هو أحسن الأقوال المذكورة و لكن لا مِصداق له بين المسلمين بعد رسول اللّه إلاّ أوصيائه و خلفائه الإثني عشرفهم الّذين صدقوا إيمانهم و معاهدتهم اللّه و رسوله و هم الّذين صدقوا في دين اللّه نيّة و قولاً و عملاً و لم يوجد و لن يوجد من يتّصف بها إلاّ المعصوم قطعاً و عليه فقوله: **وَ كُونُوا مَعَ اَلصّادِقِينَ** أي كونوا مع المعصومين و قد تنّبه الرّازي و هو إمام أهل السُّنة و أعلمهم و أشهرهم لهذه النكتة الخفّية إلاّ أنّه قال ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة و نحن نذكر عين عباراته ثمّ نتكلّم في كلامه قال الرّازى.

الرّابع: و هو أنّ قوله: **يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اَللّهَ** أمر لهم بالتّقوىٰ و هذا الأمر إنّما يتناول من يصّح منه أن لا يكون متّقياً و إنّما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ فكانت الآية دالّة على أنّ ما كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العِصمة و هم الّذين حكم اللّه تعالىٰ بكونهم صادقين فهذا يدّل علىٰ أنّه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ حتّى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ و هذا المعنى قائم في جميع الأزمان فوجب حصوله في كلّ الأزمان ان قلت لم لا يجوز أن يكون المراد هو كون المؤمن مع المعصوم الموجود في كلّ زمانٍ قلنا نحن نعترف بأنّه لابّد من معصومٍ في كلّ زمانٍ إلاّ إنّا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة و أنتم تقولون ذلك المعصوم واحد.

١- الاحزاب = ٢٣

فنقول هذا الثّاني باطل لأنّه تعالىٰ أوجب على كلّ واحدٍ من المؤمنين أن يكون مع الصّادقين و إنّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنّ ذلك الصّادق من هو لا الجاهل بأنّه من هو، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليف ما لا يطاق و أنّه لا يجوز و لكّنا لا نعلم إنساناً موصوفاً بوصف العصمة و العلم بإنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة فثبت أنّ قوله و كونوا مع الصّادقين ليس أمراً بالكون مع شخصٍ معيّن و لّما بطل هذا بقى أنّ المراد منه الكون مع مجموع الأمّة و ذلك يدّل على أنّ قول مجموع الأمّة حقّ و صواب و لا معنى لقولنا الإجماع حجّة إلاّ ذلك إنتهىٰ كلامه.

وأنا أقول أنت ترىٰ أنّ الرّازي تفطّن لهذه الدّقيقة إلاّ أنّ تعصّبه و عِناده منعه عن بيان الحقّ و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ حّب الدّنيا رأس كلّ خطيئة و هو الّذي يعمي و يصمّ و أوّل من سلك هذا المسلك أعني إنكار الحّق مع وضوحه و علمه به هو أبوبكر بن أبي قحافة حيث أنّه تصّدى لمنصب الخلافة مع علمه بأنّ الخلافة حّق أمير المؤمنين علّي بن أبىطالب و قد تمّسك هو و أتباعه في ذلك بإجماع الأمّة و إنمّا قلنا بأنّه كان عالماً.

لقول أمير المؤمنين في الخطبة الشّقشقية:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمصَّهٰا ابْنُ اَبِى قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى.

و إذا كان أبوبكر مع مصاحبته للنّبي مدّة عشرين سنة أو أقّل أو أكثر كذلك فلا عجب من أتباعه و أشياعه أن يحذوا حذوه و يسلكوا مسلكه فأن قال قائل أنّ أبابكر أو عُمر أو عثمان و من تابعهم في صدر الإسلام كانوا من العوام الّذين لا يعلمون الحّر من البرد فلو كان حُّب الدّنيا غالباً عليهم كغيرهم من العوام فهو مطابق للأصل لأنّ الأصل فيهم أنّهم أبناء الدّنيا مغلوبين للشّهوات و أمّا الرّازي و أمثاله مع توغلّهم في العلوم العقّلية كيف يتكلّمون علىٰ خلاف العقل.

نقول في جوابه حُب الدّنيا غالب علىٰ العقل أيضاً فلا فرق في ذلك بين العالم و الجاهل و الّذي يعجبني من كلامه هو قوله (نحن نعترف بأنّه لابّد من معصوم في كلّ زمانٍ) إلاّ أنّا نقول ذلك المعصوم هو مجموع الأمّة الخ.

وجه التّعجب من كلامه هو أنّا لا نعلم و لا نفهم ما أراد بذلك القول و هو أنّ المعصوم مجموع الأمّة فأنّه كلامٌ لا طائل تحته و لا يفهم معناه أحدٌ حتّىٰ القائل به و ذلك لأنّ مجموع الأمّة عبارة عن جميع المسلمين و عليه فالمعنىٰ يا ايّها الّذين أمنوا إتّقوا اللّه و كونوا مع المسلمين أو مع الأمّة و هذا الكلام لا ينبغي أن يصدر من أحاد النّاس فضلاً عن اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّ المؤمن المتّقي كيف يكون خارجاً عن الأمّة أو من المسلمين اذ لو كان خارجاً منهم و لم يكن معهم لا يكون مؤمناً مسلمٍ و المفروض أنّ الخطاب للمؤمنين.

ثانياً: لو كان الأمر كما ذكره فحقّ العبارة أن يقول كونوا مع المسلمين أو كونوا مع الأمّة و لم يقل ذلك بل قال كونوا مع الصّادقين.

ثالثاً: أنّ مجموع الأمّة منهم صادق و منهم كاذب و عليه فالمعنى كونوا مع الصّادقين و الكاذبين و ظاهر الآية يأباه لأنّ المعيّة إختّصت بالصّادقين.

رابعاً: أنّ المجموع من حيث هو هو من الأمور الإنتزاعيّة التّي لا وجود لها في الخارج بل وجوده يدور مدار الإنتزاع و تعلّق الحكم بأمرٍ لا وجود له في الخارج غير معقول و أشنع منه قوله فنقول هذا الثّاني باطل لأنّه تعالىٰ أوجب علىٰ كلّ أحدٍ من المؤمنين أن يكون مع الصّادقين وجه الشّناعة أنه أيّ إشكالٍ في هذا الوجوب.

قوله و أنّما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأنّ ذلك الصّادق من هو لا الجاهل بأنّه من هو.

نقول تحصيل هذا العلم أمرٌ سهل لكلّ أحدٍ كما أنّه يعلم أنّ الرّسول من هو و بعبارة أخرى معرفة الصّادق معرفة الرّسول بعينه لأنّه رأس الصّادقين و

رئيسهم فكما أنّ المكلّف يقدر على معرفة الرّسول كذلك يقدر على معرفة شخص المعصوم بعد الرّسول في كلّ عصرٍ و زمانٍ و لا فرق بين المعرفتين أصلاً.

قوله بأنّ ذلك تكليفٌ بما لا يطاق و أنّه لا يجوز كلامٌ بلا محصّل لأنّ الجاهل على قسمين، جاهلٌ يقدر علىٰ رفع جهله و جاهل لا يقدر عليه كالمجانين و أمثالهم و من المعلوم أنّ القسم الثّاني رفع عنهم القلم ما داموا كذلك فلم يكلّفوا بمعرفة الرّسول فضلاً عن المعصوم بعده.

أمّا القسم الأوّل: فأنّهم مكلّفون بمعرفة اللّه و معرفة الرّسول و معرفة الوّصي و معرفة الدّين و هكذا و ذلك لأنّ رفع الجهل مقدور لهم بحسب إستعدادهم و مراتبهم و هو ظاهر و قوله لكنّا لا نعلم إنساناً معيّناً موصوفاً بوصف العصمة و العلم بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة.

فالحقّ أنّه من تجاهل العارف فأنّ الرّازي و أمثاله من الفحول كالغزالي و التّفتازاني و الطّبري و السّيوطي و القُرطبي و هكذا لإطّلاعهم على الأخبار و الأثار الواردة لا يخفي عليهم هذا الأمر الّذي هو أظهر من الشّمس و أبين من الأمس ألم يعرفوا علّي ببن أبىطالب و أولاده المعصومين كالباقر عليه السلام و الصّادق عليه السلام و الرّضا عليه السلام و غيرهم من هُم أليس الرّازي يقول في تفسير سورة الفاتحة و لا شكّ في أنّه من إقتدى في دينه لعلّيٍ فقد إهتدىٰ و هل يجوز لعاقلٍ من المسلمين أن يقول و العلم بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضّرورة فضلاً عن الرّازي و أمثاله كيف تكون معرفة أبىبكر و عُمر و أبىهريرة و أبىحنيفة و الشّافعي و إبن حنبل و غيرهم ممكناً و معرفة ولاد رسول اللّه غير ممكنٍ أيجوز للمسلم أن يقول بهذه المقالة في مقام الإستدلال على إنكار الحقّ و حيث إنجرّ الكلام الىٰ هذا المقام.



فَنحنُ نُشير الىٰ شطرٍ ممّا ورد في المراد بالصّادقين من طرق العامّة و الخاصّة ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيىٰ مَن حيّ عنها فنقول:

قال الحافظ الحَسكاني وهو من مشاهير علماءهم في كتاب شواهد التّنزيل بأسناده عن محمّد بن أبي الصّلت قال حدّثني أبي عن جعفر بن محمّد عليه السلام في قوله إتّقوا اللّه وكونوا مع الصّادقين قال عليه السلام يعني مع محمّد وعلّي انتهىٰ.

و بأسناده عن الكلبي مع أبي صالح عن إبن عبّاس في قوله إتّقوا اللّه و كونوا مع الصّادقين، قال: نزلت في علّي بن أبى طالب خاصّة انتهىٰ.

و بأسناده عنه عن إبن عبّاس أيضاً بطريقٍ أخر في هذه الآية يا أيّها الذّين أمنوا إتّقوا اللّه و كونوا مَع الصّادقين، قال مع علّي و أصحاب علّي انتهىٰ

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر و هو الباقر عليه السلام في قوله و كونوا مع الصّادقين، قال عليه السلام: مَعَ أل محمّدٍ انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي سعيد البلخي عن مقاتل بن سليمان عن الضّحاك عن إبن عبّاس في قوله: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: يعني مع علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و بأسناده عن أبان بن تغلب عن أبي جعفر في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: مَع علّي بن أبي طالب.

و بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: مَع علّي و أصحاب علّي انتهىٰ.

و بأسناده عن نافع عن عبداللّه بن عمر في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: أمر اللّه أصحاب محمّد أن يخافوا اللّه ثمّ قال لهم وكونوا مع الصّادقين يعني محمّداً وأهَل بيته انتهىٰ.

و في كتاب غاية المرام روي عن صدر الأئمّة عند المخالفين أخطب خوارزم أبو المُؤيّد موّفق بن أحَمد من أعيان علماء العامّة في كتاب الفضائل بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن موّفق بن أحمد بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن إبراهيم بن محمّد الحمويني من أعيان علماء العامّة بأسناده عن أبي صالح عن إبن عبّاس في هذه الآية قال: مع علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن أبي نعيم أحمد بن عبد اللّه بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصفهاني في كتابه بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قال هو علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

أبو نعيم هذا بأسناده عن جعفر بن محمّد في قوله تعالىٰ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال: محمّد و علّي عليهما السّلام انتهىٰ والأحاديث من طُرق العامّة في الباب كثيرة جدّاً.

و أمّا الأخبار الواردة في الباب من طريق الخاصّة فأكثر من أن تُحصىٰ ونحن نشير الىٰ قليل منها تكميلاً للبحث

منها، ما رواه في غاية المرام عن محمّد بن يعقوب بأسناده عن يزيد بن معاوية العجلي قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الّه عزّ وجلّ: يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال عليه السلام إيّانا عني.

و عنه بأسناده عن إبن أبي نصر عن أبي الحَسَن الرّضا عليه السلام قال: سَألتُه عن قول اللّه عزّ وجلّ: ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال الصّادقون هم الأئمّة الصّديقون بطاعتهم انتهىٰ.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ قال عليه السلام: مَع علّي بن أبي طالب انتهىٰ.

و عن محمّد بن الحسن الشّيباني في نهج البيان في معنىٰ الآية قال: روي عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه أنّ الصّادقين هاهنا هم الأئمّة الطّاهرون من أل محمّد قال و روي أيضاً أنّ النّبي سئل عن الصّادقين هاهنا فقال صلّى الله عليه وآله هُم علّي و فاطمة و الحسن و الحسين و ذرّيتهم الطّاهرون الىٰ يوم القيامة انتهىٰ.

و عن سليم بن قيس الهلالي في كتابه في حديث المناشدة قال أمير المؤمين فأنشدكم اللّه أتَعلمون أنّ اللّه عزّ وجلّ أنزل: يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ فقال سلمان يا رسول اللّه أم عامّة هي أم خاصّة قال صلّى الله عليه وآله: المأمورُون فالعامّة مع المؤمنين أمروا بذلك وأمّا الصّادقون فخاصّة لأخي علّيٍ والأوصياء من بعده الىٰ يوم القيامة انتهىٰ.

و عن تفسير العيّاشي بأسناده عن هشام بن عجلان قال قلت لأبي عبد اللّه أسَألك عن شئ لا أسأل عنه أحداً بعدك أسَألك عن الإيمان الّذي لا يَسع النّاس جهله، قال عليه السلام: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه والإقرار بما جاء به من عند اللّه و إقام الصّلاة و إيتاء الزّكاة و حجّ البيت و صوم شهر رمضان و الولاية لنا و البراءة من عَدّونا مَع الصّديقين انتهىٰ.

أقول فهذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ المراد بالصّديقين في الآية هم الأئمّة بعد الرّسول أوّلهم علّي بن أبي طالب و أخرهم حجّة بن الحسن الإمام المنتظر عجّل اللّه تعالٰى له الفرج و جعلنا من أعوانه و أنصاره

بحقّ محمدٍ و أله الطّاهرين و لختم الكلام في تفسير الآية بما قاله بعض المحقّقين من المفسّرين أعلىٰ اللّه مقامه حيث قال قدس سره.

و قال بعضهم أراد بكونهم مع الصّادقين كونهم مع كعب بن مالك و أصحابه الذّين صدقوا في أقوالهم و لم يكذبوا في الإعتذار عن تخلّفهم في الجهاد ولم يعلموا أنّ الصّادق الحقيقي هو القائل بالحقّ العامل به لأنّها صفة مدح لا تطلق إلاّ على من يستحقّ المَدح على صدقه فأمّا من فسق بإرتكاب الكبائر والإصرار على الصّغائر فلا يطلق عليه إسم صادق و لذلك مدح اللّه الصّديقين و جعلهم قالين للنبيّين في قوله: **مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّنَ وَ ٱلصِّدِّيقِينَ وَ ٱلشُّهَدَآءِ وَ ٱلصَّالِحِينَ**(١).

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ لمّا أخبر اللّه تعالىٰ في الأيات السّابقة تأخر المتّخلّفين عن النّبي و الخروج معه الىٰ غزوة تبوك و إعتذارهم بعد ذلك و توبتهم منه وقبول توبتهم من اللّه تعالىٰ لرأفته و رحمته عليهم ذكر عقيب ذلك لأهل المدينة و من حولها من الأعراب علىٰ وجه التّوبيخ و الإزراء على ما فعلوه من التَّخلف و الإعتذار و التّوبة بعد ذلك فقال ما كان لأهل المدينة من المهاجرين و الأنصار و من حَول المَدينة من الأعراب و سكّان البوادي، أن يتَّخلفوا عن رسول اللّه أي لا يجوز لهم ذلك لأنّ التّخلف عنه صلى الله عليه وآله هو التّخلف عن الإسلام بعينه و معصيته معصية اللّه، و لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي و لا أن يطلبوا نفع نفوسهم و بعبارةٍ أُخرى لا يجوز لهم أن يعرضوا عن رسول اللّه و ذلك لأنّ كلمة (رغب) اذا تعدّيت بعن فمعناها الإعراض يقال رغبت عنه أي أعرضتُ عنه واذا تعدّيت بغيرها معناً الميل يقال رغبت اليه أو به أي ملت اليه و تشوقت اليه و هى هاهنا من قسم الأوّل

١- النّساء = ٦٨

لأنّ التّقدير و لا يرغبوا عن نفسه بأنفسهم وأظنّ أنّ في تقديم بأنفسهم على نفسه دلالة على هذا المعنى حيث أنّهم قدّموا أنفسهم على نفس رسول اللّه في التّخلّف و هذا لا يجوز.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** ثمّ أوضح اللّه تعالىٰ ما ذكره بقوله:

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ لَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

أي كانت علّة تخلّفهم عن الجهاد أن لا يصيبهم ظمأ و هو شدّة العطش و لا نصبٌ، أي تعبٌ و مشقّة و لا مخمصةٌ، يعني محاجة و أصله خمور البطن للمجاعة و منه رجلٌ خميص البطن و إمرأة خصمانة و الحاصل أنّهم تقاعدوا عن الجهاد لأجل هذه الأمور **فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** و بعبارةٍ أخرىٰ أنّهم لم يرضوا بتحمّل المشّاق في سبيل اللّه و هو الجهاد مع أنّ المؤمن الحقيقي لا يكون كذلك و العجب أنّهم رضوا بتحمّل المشّاق في حقّ رسول اللّه فقدّموا نفوسهم علىٰ نفسه.

وَ لَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

الواو في قوله: **وَ لَا يَطَؤُنَ** للحال أي أنّهم كانوا كذلك و الحال أنّهم لا يخطون خطوة توجب غيظ الكفّار و لا ينالون نيلاً أي و لا يصيبون من **المشركين أمراً من قتلٍ أو جرحٍ أو ما يغمّهم ويغيظهم إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** أي إلاّ و يكتب اللّه لهم به عملاً صالحاً أنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين، أي أجر من فعل الأفعال الحسنة الّتي يستحقّ بها المدح و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما بال قوم يتّقاعدون عن الجهاد أو كلّ ما فيه تقوية الدِّين.

قال قتادة حكم هذه الآية مختصّ بالنّبي فأنّه صلى الله عليه و آله اذا غزا لم يكن لأحدٍ أن يتخلّف عنه فأمّا من بعده من الخلفاء فأنّ ذلك جائز.

و قال الأوزاعي و غيره أنّ هذه الآية لأوّل الأمّة و أخرها من المجاهدين في سبيل اللّه و قال إبن زيد هذا حين كان المسلمون قليلين فلمّا كثرو أنسخ بقوله: **وَ مٰا كٰانَ اَلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً**[1].

قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله الأقوال المذكورة عنهم و هذا هو الأقوى لأنّه لا خلاف أنّ الجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كلّ أحدِ النّفر لصار من فروض الأعيان إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقُول و فيه بحثٌ لا يسعه المقام وموضعه الكتب الفقهية.

■

۱- التوبة= ۱۲۵

وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴿۱۲۱﴾ وَ ما كانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿۱۲۲﴾ يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿۱۲۳﴾ وَ إِذا مآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هٰذِهِۦٓ إِيمانًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيمانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿۱۲۴﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ ﴿۱۲۵﴾ أَوَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿۱۲۶﴾ وَ إِذا مآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴿۱۲۷﴾ لَقَدْ جآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿۱۲۸﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿۱۲۹﴾

◀اللّغة

لِيَنْفِرُوا، النَّفر بسكون الفاء الإنزعاج عن الشّيء و الى الشّيء كالفزع الىٰ الشّيء و عن الشّيء يقال نفر عن الشّيء نفوراً.

يَلُونَكُمْ أي يقربُون اليكم.

غِلْظَةً بكسر الغين و فتح الظّاء ضدّ اللّين خلاف الرّقة.

يُفْتَنُونَ، الفِتنة المحنَة (ما عنّت أي ما يلحقكم من الأذىٰ الّذي يضيق الصَّدر به.

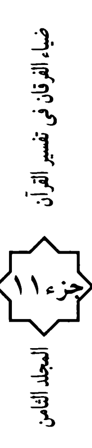
◀الإعراب

فِرْقَةٍ مِنْهُمْ قوله منهم صفة لفرقة و يجوز أن يكون حالاً من طائفة عَزِيزٌ عَلَيْهِ هو صفة لرسول و ماء، مصدّرية موضعها رفع بعزيز.

◀التّفسير

وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هذه الآية عطف على السّابقة أي و لا يطئون موطئاً يغيظ الكفّار و لا ينالون من عدّوٍ نيلاً، و لا ينفقون نفقةً صغيرةً و لا كبيرةً أي أنّ هؤلاء لا ينفقون في سبيل اللّه و جهاد أعداءه نفقةً صغيرة أو كبيرة يريدون بها التّقرب الى اللّه و إعزاز دينه و إعلاء كلمته و نفع المسلمين به و ذلك لأنّ الإنفاق متى كان للشّهوة أو للشُّهرة كان مباحاً و إن كان للرّياء و السُّمعة أو للمعاونة على الفساد كان معصية و أن كان خالصاً لوجه اللّه و متقرّباً اليه فهو الممدوح و حيث أنّهم لم ينفقوا و أن أنفقوا كان إنفاقهم من القسمين الأوّلين لا جرم حكم اللّه بعدمه لأنّ الإنفاق اذا لم يكن وسيلة للتّقرب اليه تعالى فهو كالمعدوم هذا كلّه بالنّسبة الىٰ الإنفاق.



و أمّا تحمل المشّاق في السّير الى الجهاد فهو أيضاً كذلك أي لا ينفع اذا لم يكن للّه تعالى فيصير محصّل المعنى أنّ ما بالهم لا ينفقون في سبيل اللّه يسيرون الى الجهاد مع أنّهم لو أنفقوا في سبيل اللّه و ساروا الى الجهاد يجزيهم اللّه أحسن ما كانوا يعملون ففي هذه الآية و سابقتها حثٌّ و ترغيبٌ الى الإنفاق و الجهاد و توبيخٌ على التّقاعد و التّخلف عنه.

وَ مَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

قوله: **فَلَوْلَا** معناه، هلاّ نفر لأنّها أي لولا للتّحضيض اذا دخلت على الفعل و أمّا اذا دخلت على الإسم فهي بمعنى إمتناع الشّيء لأجل وجود غيره و قيل في معنى الآية ثلاثة أوجه:

أحدها: ما قاله الحسن و هو أنّ اللّه تعالى حثّ الطّائفة النّافرة على التّفقّه لترجع الى المتخلّفة فتحذرها.

ثانيها: ما قاله قتادة أنّ المعنى أنّه لم يكن لهم أن ينفروا بأجمعهم في السّرايا و يتركوا النّبي بالمدينة وحده و لكن تبقى بقيّة لتّفقه البقيّة ثمّ تُنذر النّافرة.

ثالثها: قال أبو علّي الجبائي تنفر الطّائفة من كلّ ناحية الى النّبي لتسمع كلامه و تتفقّه عنه ثمّ يتبيّنوا ذلك لقولهم اذا رجعوا اليهم.

و قال مجاهد نزلت الآية في قوم خرجوا الى البادية ليفقّهوهم و ينالوا منهم خيراً فلمّا عاتب اللّه من تأخّر عن النّبي عند خروجه الى تبوك و ذمّ أخرين خافوا أن يكونوا منهم فنفروا بأجمعهم فقال اللّه، لا نفر بعضهم ليفقّه عن النّبي ما يجب عليهم و ما لا يجب و يرجعون فيخبرون أصحابهم بذلك ليحذروا هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال القُرطبي في تفسيره لها أنّ هذه الآية أصلٌ و في وجوب طلب العلم لأنّ المعنى و ما كان المؤمنون لينفروا كافّة و النّبي صلى الله عليه و آله في المدينة مقيمٌ لا ينفر فيتركوه وحده فلولا نَفر.

بعد ما علموا أنّ النّضير لا يسع جميعهم، من كلّ فرقةٍ منهم طائفة، و تبقى بقيّتها مع النّبي صلى الله عليه و آله ليتحمّلوا عنه الدّين و يتَّفقهوا فاذا رجع النّافرون اليهم أخبروهم بما سمعوا و علموهم و في هذا ايجاب التّفقه في الكتاب و السنّة و أنّه على الكفاية دون الأعيان انتهىٰ كلامه.

و قال الطّبري بعد نقله الأقوال في تفسير الأية، و أولىٰ الأقوال في تأويل ذلك بالصّواب أن يقال تأويله و ما كان المؤمنُون لينفروا جميعاً و يتركوا رسول اللّه و أنّ اللّه نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا الى غزو و جهادٍ و غير ذلك من أمورهم و يدعوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحيداً و لكن عليهم اذا سرى رسول اللّه صلى الله عليه و آله سرّية أن ينفر معها من كلّ قبيلة من قبائل العرب و هى الفرقة، طائفة و ذلك من الواحد الى ما بلغ من العدد ثمّ قال بعد أسطرٍ.

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

فأن أولىٰ الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال ليتَّفقه الطّائفة النّافرة بما تعاين من نصر اللّه أله دينه و أصحاب رسوله على أهل دينه و أصحاب رسوله على أهل عداوته و الكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة أمر الإسلام و ظهوره على الأديان فعلَّم بذلك من لم يكن فقّهه و لينذروا قومهم فحذَّروهم أن ينزل بهم من بأس اللّه مثل الّذي نزل بمن شاهدوا و عاينوا ممّن ظفر بهم المسلمون من أهل الشّرك اذا هم رجعوا اليهم من غزوهم لعلَّهم يحذرون انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال الرّازي يمكن أن تكون الآية من بقيّة أحكام الجهاد و يمكن أن تكون كلامٌ مبتدأ لا تعلّق لهما بالجهاد.

فعلى الأوّل: نقل عن إبن عبّاس أنّه قال كان الرّسول اذا خرج الى الغزو لم يتخلّف عنه إلاّ منافق أوصاحب عذر فلمّا بالغ اللّه سبحانه في عيوب المنافقين في غزوة تبوك قال المؤمنون و الّه لانتخلّف عن شئ من الغزوات مع الرّسول و لا عن سريّة فلمّا قدم الرّسول صلى الله عليه وآله المدينة و أرسل السّرايا الى الكفّار نفر المسلمون جميعاً الى الغزو و تركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية و عليه فالمعنىٰ لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكلّيتهم الى الغزو و الجهاد بل يجب أن تنفر طائفة و تبقى طائفة أخرىٰ في خدمة الرّسول للتّفقه في الدّين و حفظ التّكاليف و إبلاغها الى الغائبين بعد رجوعهم اليهم من الغزو و هاهنا إحتمالان:

أحدهما: أن تكون الطّائفة المقيمة هم الّذين يتّفقهون في الدّين بسبب أنّهم لا زموا خدمة الرّسول فينذرون الطّائفة النّافرة.

ثانيهما: أن التّفقه صفة للطّائفة النّافرة لأنّهم كانوا يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين.

على الثّاني: و هو أنّ الآية ليست من بقايا أحكام الجهاد بل هو حكمٌ مبتدأ فقد بيّن في هذه الآية عبادة التّفقه بعد ما بيّن في الأيات السّابقة عبادة الهجرة و الجهاد ثمّ قرّر ما أفاد بما لا مزيد عليه هذا كلامه ملخّصاً.

أنا أقول المستفاد من الآية الشّريفة هو لزوم التّفقه في الدّين أو وجوبه على سبيل الواجب الكفائي لا العيني و هذا ممّا لا خلاف فيه بين الكلّ.

و أيضاً يستفاد منها أنّ التّفقه مقدّمة لإنذار القوم و بعبارةٍ أخرىٰ أنّه ليس مطلوباً الاّ لأجل الإنذار و هذا أيضاً ممّا لا خلاف فيه عندهم و أمّا أنّ الآية من بقيّة أحكام الجهاد أو أنّها كلامٌ مبتدأ فلا يهمّنا البخث فيه.

به عبارةٍ أخرى يستفاد من الآية انّه يجب على المسلم التّفقه كفاية ثمّ الإنذار بعده و هذا حكمٌ عامٌ لا يختصّ بزمانٍ دون زمان و قد قلنا مراراً أنّ خصوصّية المورد لا تنافي عموميّة الحكم فلو فرضنا أنّ الآية نزلت في الجهاد لا يمنعنا ذلك عن حملها على العموم من حيث المعنى اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **فَلَوْلَا نَفَرَ** معناه فهلاّ نفر**مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ** أي من المسلمين، طائفة و هى في اللّغة الجماعة و قد تقع علىٰ أقلّ من ذلك حتّىٰ تبلغ الرَّجلين و للواحد على معنىٰ نفس الطّائفة و لا شكّ أنّ المراد بها هنا جماعة عقلاً و لُغةً.

أمّا العقل فلأنّ العلم لا يتحصّل بواحدٍ في الغالب.

و أمّا اللّغة فلقوله: **لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ** حيث جاء بضمير الجماعة.

و قيل أنّ الطّائفة هاهنا واحد و يعتضدون ذلك بالدّليل علىٰ وجوب العمل بخبر الواحد و فيه بحث و تفصيل الكلام فيه في الأصول**لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ** أي يتبصّروا و يتيقّنوا في أصول دينهم و فروعه و ما يتعلّق به من الأحكام بقدر الإمكان و الإستطاعة و القدرة.

وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

الإنذار ضدّ البشارة و الضّمير في قوله لينذروا يرجع الى المتفقهين المتّبصرين أي و لينذروا قومهم بعد الرّجوع اليهم، من الكفّار هذا على مسلك القوم.

و أمّا على المختار في معنى الآية فالمعنى، و لينذروا قومهم من عذاب اللّه و سخطه لعلّهم يحذرون أي لكي يحذروا من عذابه و لنذكر بعض ما ورد في التّفقه من الأخبار و منه يعلم تفسير الآية أيضاً.

عن أُصول الكافي بأسناده عن علّي بن حمزة قال سمعتُ أبا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: تفقهوا في الدِّين فانّ من لم يتفقّه منكم في الدّين فهو أعرّابي، أنّ اللّه يقول في كتابه: لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ انتهىٰ.

و بأسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلتُ لأبي عبد اذا أحدث علىٰ الإمام حدث كيف يصنع النّاس قال عليه السلام: أيَن قول اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ.

ثمّ قال عليه السلام: هم في عذرٍ ما داموا في الطّلب و هؤلاء الّذين ينتظرونهم في عذرٍ حتّى يرجع اليهم أصحابهم انتهىٰ

عن علّي بن إبراهيم بأسناده عن عبد الأعلى قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول رسول اللّه صلى الله عليه وآله من مات و ليس له إمام مات ميتةً جاهليّة، قال الحقّ و اللّه، قلت إماماً هلك و رجل بخراسان لا يعلم مَن وصّيه لم يسعه ذلك قال لا يسعه أنّ الإمام اذا هلك وقعت حُجّة وصّيه علىٰ من هو معه في البلد و حقّ النَّفر على من ليس بحضرته اذا بلغهم أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ

و عن محمّد بن يحيىٰ بأسناده عن محمّد بن مُسلم قال: قلتُ لأبي عبد اللّه أصلحك اللّه بلغنا شكواك و أشفقنا فلو أعلمتنا من، فقال عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام كان عالماً و العلم يتّوارث فلا يهلك عالمٌ إلاّ بقى مِن بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء اللّه قلت أفيسع النّاس اذا مات العالم أن لا يعرفوا الّذي بعده فقال أمّا أهل هذه البلدة فلا يعني المدينة، و أمّا غيرها من البلدان فبقدر مسيرهم أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: وَ مٰا كٰانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كٰآفَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طٰآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ الخبر انتهىٰ موضع الحاجة منه.

و عن عيون الأخبار في باب العلل الّتي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها مِن الرّضا عليه السلام فأن قال فلم أمر بالحجّ قيل لعلّه الوفادة و طلب الزّيادة الىٰ أن قال عليه السلام: مع ما فيه من التَّفقه و نقل أخبار الأئمّة عليهم السّلام الىٰ كلّ صقعٍ و ناحية كما قال اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلا نَفَرَ

مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذاَ رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ وليشهدوا منافع لهم انتهىٰ.

و عن كتاب عِلل الشّرائع بأسناده عن عبد اللّه بن المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد اللّه أنّ قوماً يروون أنّ رسول اللّه قال: إختلاف أمّتي رحمة، فقال صدقوا فقلت أن كان إختلافهم رحمة فإجتماعهم عذابٌ قال عليه السلام: ليس حيث تذهب و ذهبوا أنّما أرادوا قول اللّه عزّ وجلّ: فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ فأمرهم أن يَنفروا الىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله ويختلفوا اليه فيتَّعلموا ثمّ يرجعوا الىٰ قومهم فيعلّموهم أنّما أراد إختلافهم من البلدان لا إختلافاً في دين اللّه أنّما الدّين واحد انتهىٰ.

و بأسناده عن عبد الأعلىٰ قال قلتُ لأبي الحَسن عليه السلام أن بلغنا وفاة الإمام كيف نصنع قال عليكم النَّفير قلت النَّفير جميعاً قال عليه السلام: أنّ اللّه يقول: فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ.

و عن تفسير العيّاشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلتُ له اذا حدث للإمام حَدَث كيف يَصنع النّاس قال عليه السلام: يكون كما قال اللّه فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ قال قلتُ فما حالهم قال هم في عُذرٍ انتهىٰ و الأحاديث نقلناها عن تفسير نُور الثّقلين(١).

و قد نقل قدس سره كثيراً من الأخبار بهذا المضمون فمن شاء الإطّلاع علىٰ أكثر ممّا نقلناه فعليه بمراجعته و قد تحصَّل ممّا ذكرناه أنّ الآية أنّما نزلت لأجل التَّفقه في الدّين و هو لا ينافي أن يكون نزولها في الجهاد فأنّ المقصود حصول التَّفقه و الإنذار بعده و من المعلوم أنّ التّفر للتَّفقه من أعظم مصاديق الجهاد.

١- ج ٢ ص ٢٨٢

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ

قرأ عاصم، **غلظة**، بفتح الغين و الباقون بكسرها قيل قراءة الكسر هي العربّية و ذكر الزّجاج أنّ فيه ثلاث لغات الفتح و الضمّ و الكسر أفصحها و الكسر لغة أهل الحجاز و الضمّ لغة تميم.

أمر اللّه تعالىٰ المؤمنين أن يقاتلوا الكلفّار الّذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب.

قال بعض المفسّرين و ذلك يدّل على أنّه يجب على أهل كلّ ثغرٍ أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الإسلام اذا لم يكن هناك إمامٌ عادل و أنّما جاز من اللّه تعالىٰ أن يأمر بالقتال ليدعوهم الى الحقّ و لم يجز أن يمنعهم من الكفر لأنّ المنع ينافي التّكليف و من قاتل الأبعد من الكفّا و ترك الأقرب فالأقرب فأن كان بأذن الإمام كان مصيباً و أن كان بغير أمره كان مخطئاً انتهىٰ.

و هو حقّ لا مرية فيه لأنّ الدِّفاع لا يحتاج الى إذن الإمام و أمّا الجهاد فيحتاج الى اذنه.

و أمّا قوله: **وَ لْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً** معناه و ليخشوا منكم بالغلظة و هى ضدّ اللّين و خلاف الرّقة و معناها الشدّة في إحلال النّقمة.

و أمّا قوله: **وَ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ** فمعناه واضح و أعلم أنّه نُقل عن الحسن أنّه قال أنّ الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافّة ثمّ أنّهم صارت منسوخة بقوله قاتلوا المشركين كافّة.

و قد أجمع أهل التّحقيق على خلافة و ذلك لأنّه تعالى لمّا أمرهم بقتال المشركين كافّة أرشدهم الى الطّريق الأصوب الأصلح و هو أنّ القتال ينتقل من الأقرب فالأقرب الى الأبعد فالأبعد و ذلك لأنّ أمر الدَّعوة يقع على هذا التَّرتيب هكذا قيل.

و الحقّ أنّا لا نحتاج الىٰ هذه التّخريجات في عدم النّسخ بل نقول الآية ناظرة الى الدِّفاع عن بيضة الإسلام و حفظ نواميس المسلمين و أموالهم و أنفسهم و هذا ممّا يتقبل به العقل السّليم و لا يحتاج الىٰ إذن الإمام و اذا كان كذلك فهو غير قابلٍ للنّسخ فأنّ حكم العقل لا نسخ فيه.

ألا ترى أنّه تعالىٰ يقول: **قٰاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفّٰارِ** فأنّ مفهوم الكلام هو عدم القتال في غيرهم لأنّه محتاج الىٰ إذن الإمام.

وَ إِذٰا مٰآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زٰادَتْهُ هٰذِهِ ايمٰانًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا فَزٰادَتْهُمْ ايمٰانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه متى نزلت سورة مِن القرأن فمنهم، أي من المنافقين من يقول على وجه الإستهزاء و الإنكار أيّكم زادته هذه إيماناً، أي أيُّ شخصٍ منكم زيد في إيمانه بسبب نزول السُّورة و غرضهم من هذا الكلام هو أنّ القرأن لا يزيد في إيمانكم فلا فرق في نزول السُّورة و عدمه وهذه مقالة المنافقين المستهزئين فأمّا الّذين أمنوا باللّه و رسوله حقّاً فلا يقولون ذلك بل يعترفون و يعتقدون بأنّ السُّورة تزيد في إيمانهم و هم يستبشرون به أي و الحال أنّهم يستبشرون به و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ المنافق لنفاقه و عدم إعتقاده و إيمانه باطناً دائماً بصدد الإستهزاء للدّين و إنكار الحقائق و المؤمن بخلافه و هذا معلوم من حالهما و لا حاجة الىٰ تفصيل الكلام في المقام هذا حال المنافقين الّذين ليس في قلوبهم مرض و نعبّر عنهم بالمتوسّطين.



و أمّا الّذين في قلوبهم مرض كما أشار اللّه تعالىٰ اليهم بقوله: **وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** قالوا يعني شكّ و نفاق من الإسلام و يتحمل أن يراد به العناد فأنّ المنافقين علىٰ صنفين:

معاند، و غير معاندٍ فالآية السّابقة ناظرة الى غير المعاندين و هذه الآية ناظرة الى المنافقين المُعاندين و هم الّذين يقول اللّه فيهم: **مَرَضٌ فَزٰادَتْهُمْ**

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ أي نفاقاً و كفراً الى كفرهم و ذلك لكونهم شّاكين في دينهم بل منكرين للّدين واقعاً و هذا فساد في القلب يحتاج الى العلاج كالفساد في البدن يحتاج الى مداواة و مرض القلب أعضل و علاجه أعسر **والرِّجس** بكسر الرّاء و النَّجس واحد و سمّي الكفر رجساً لأنّه يجب تجَّنبه كما يجب تجنُّب الأنجاس قيل أنّما أضاف الزّيادة الى السوّرة لأنّهم يزدادون عندها و مثله قولهم كفىٰ بالسّلامة داء قال الشّاعر:

أرىٰ بصري قد رابني بعد صحّةٍ و حسبك داءً أن تصّح و تسلماً

و أمّا قوله: **وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ** فالوجه فيه أنّ المرض القلبي يؤدّي صاحبه الى الموت على شرّ حالٍ لأنّها تسوق الىٰ النّار دائماً قال ماتوا و لم يقل يموتون لأنّه عطف على زادتهم رجساً الى رجسهم و إلاّ فالمعنى أنّهم يموتون و هم كافرون.

أَوَ لاٰ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاٰ يَتُوبُونَ وَ لاٰ هُمْ يَذَّكَّرُونَ

قرأ حمزة و يعقوب، بالتّاء و الباقون بالياء و عليه المصاحف و هو الأشهر أي أولا ترون الّذين في قلوبهم مرض **أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ** الفتنة المحنة بالقتل و السَّبي و نصر اللّه لنبيّه ﷺ حتّىٰ يستعلى علىٰ كلّ من ناواه في قول الحسن و قتادة و قال مجاهد، هي بالقحط و الجوع، و قيل هي بالمزض الّذي ينزل بهم.

أقول الإفتنان الإختبار فقوله يفتنون أي يختبرون و لا شكّ أنّ الإختبار تارّةً يكون بالقحط و تارّةً بشيوع الأمراض و تارّةً بالآلام و المصائب و تارّةً بالغنى و الثّروة و هكذا و يستفاد من الأيات و الأخبار أنّ اللّه تعالىٰ يختبر جميع النّاس في مدّة حياتهم:

قال اللّه تعالىٰ: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً**[٣].

أن قلت إذا كان كذلك فما الفرق بين المؤمن و المنافق.

قُلتُ من هذه الجهة لا فرق بينهم و إنّما الفرق في أنّ المؤمن يتذّكر و يتوب الىٰ اللّه و المنافق لا يتوب و لا يتذّكر بل يدوم على ما هو عليه و الى هذا المعنى أشار بقوله ثمّ يتوبون و لا هم يذكرون.

وَ إِذاٰ مَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أي نَظَر المنافقين الىٰ بعضٍ.

قال بعض المفسّرين أي إذا حضروا الرّسول و هو يتلوا قرآناً أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم الىٰ بعضٍ نظر الرُّعب على جهة التّقدير يقول: **هَلْ يَرىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ** إذا تكلّمتم بهذا فينقله الىٰ محمّد صلى الله عليه وآله و ذلك لجهلهم بنبوّته و أنّ اللّه يطّلعه على ما يشاء من غيبه.

و قد حكى الطّبري عن بعضهم أنّه قال، نظر، في هذه الآية موضع قال أي كأنّه قال بعضهم لبعض و الى هذا المعنىٰ ينظر من قال أنّ، نظر، في هذه الآية بمعنى، أنبأ**ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا صَرَفَ ٱللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** أي ثمّ يقومون فينصرفون صرف اللّه قلوبهم، عن رحمته عقوبةً لهم بأنهم قومٌ لا يفقهون، مواعظ اللّه و أوامره و نواهيه و أنّما قال ذلك في حقّهم مع أنّهم كانوا عقلاء يفقهون الأشياء لأنّهم لم ينظروا فيه حقّ النّظر و لم يتدبّروا في القرآن و مواعظ الرّسول حقّ التّدبر و لذلك لم يعملوا بموجبه فصاروا كأنّهم لم يفقهُوه كما يقال لمن لا ينتفع بما يسمع و يبصر**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ** مع أنّ الحجّة قد تمّت عليهم بمجيئ الرّسول و اليه الإشارة بقوله:

١- العنكبوت =٢ ٢- الدّخان =١٧

٣- الأنبياء =٣٥

لَقَدْ جٰآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ

قيل اللاّم في قوله: **لَقَدْ جٰآءَكُمْ** للقسم و عليه فأقسم اللّه في الآية بأنّه قد جاءكم رسولٌ من أنفسكم، و الخطاب متعلّق الى جميع الخلق لأنّه الرّسول صلى الله عليه و آله قد بعث الى كافّة الخلق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا كٰآفَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا**(١).

و قوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** أي من جنس البشر فالمعنى أنّكم ترجعون الىٰ نفسٍ واحدة:

كما قال تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**(٢).

و قيل أنّ المراد بقوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** أي من العرب و على هذا فيكون الخطاب متوجّهاً الى العرب خاصّة.

و نقل القرطبي أنّ عبد اللّه بن قسيط المكّي قرأ من **أَنْفَسَكَم**، بفتح الفاء من النّفاسة و عليه فالمعنى جاءكم رسولٌ مِن أشرفكم و أنفسكم أي أفضلكم من قولك شئ نفيس إذا كان مرغوباً فيه.

و قيل أي أكثركم طاعةً، و لكلٍّ وجهٌ وجيه و مع ذلك لا يخفى عليك أنّ ضمّ الفاء أولى و عليه جميع المصاحف و المعنى هو بشرٌ مثلكم لِتفهموا عنه و تأتّموا به إذ لو كان من جنس الملك مثلاً لم تحصل بينكم ألفة أو مؤانسته لعدم السّنخية بين الملك و البشر و قوله: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ** أي يعزّ عليه مشقتّكم و العنت المشّقة، و، ما، في ما عنتم مصدّرية و هى إبتداء و عزيزٌ خبر مقدّم و قيل: **مٰا عَنِتُّمْ** فاعل بعزيز، و عزيز صفة للرّسول و كذا قوله: **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** و كذا رؤفٌ رحيمٌ، رفع علىٰ الصفّة، و معنى حريصٌ عليكم أنّ الرّسول حريصٌ على أن تؤمنوا باللّه و رسوله و تدخلوا الجنّة و هو يدّل على كمال رأفته و علاقته بالمؤمنين.

١- سَبأ=٢٨
٢- الكهف=١١١

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ.

الفاء للتّفريع و المعنى و أن أعرضوا عن الحقّ و إتبّاع الرّسول و ما يأمرهم به فقل يا محمّد حسبي اللّه أي كفاني اللّه فأنّي لا أحتاج الى إيمانكم و ذلك لأنّ نفع الإيمان يرجع اليكم في الدّنيا و الأخرة و لا أعتمد عليكم بل توكلّت و أعتمدت على اللّه و هو ربّ العرش العظيم و من كان اللّه تعالى مغنيه و ناصره فهو غنّيٌ عن غيره فأنّ اللّه على كلّ شيٍ قدير و محصّل الكلام في الآية و سابقتها هو أنّ اللّه تعالى بمنّه و كرمه و لطفه و عنايته بعباده قد أرسل رسله اليهم في كلّ عصر و زمانٍ و قد جعل الأنبياء من جنس البشر و أنزل معهم الكتاب و الميزان ليقوم النّاس بالقسط مع العلم بعدم إحتياجه تعالىٰ اليهم في خلقهم و لا في عبادتهم لأنّه لا تنفعُه طاعة من أطاعه و لا تضّره معصية من عصاه بل خلقهم علىٰ أساس جوده و كرمه و كلّفهم و أرسل اليهم الرُّسل بمقتضى لطفه و رحمته و على هذا فمن تولىٰ و أعرض عن الحقّ فأنّه لا يضُرّ اللّه شيئاً و من إهتدىٰ و عمل بما قرَّره الشّارع من الأوامر و النّواهي فهو سعيدٌ في الدّنيا والأخرة.

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**[٢].

و مِن المعلوم أنّ الدّاعي الى الحقّ وظيفته الدَّعوة فقط قال تعالىٰ: **مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ**[٣] و هذا آخر الكلام في تفسير سورة التّوبة و الحمد للّه ربّ العالمين.

* * *

١- الشوريٰ=٤٨ ٢- النّسا=٨٠

٣- المائدة= ٩٩

سورة يونس

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنٰآ إِلٰى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ ٱلنّٰاسَ وَ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قٰالَ ٱلْكٰافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلّٰا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيٰآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ ذٰلِكَ إِلّٰا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلٰافِ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ

فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱطْمَأَنُّوا بِهٰا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيٰاتِنٰا غٰافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ ٱلنّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوٰيهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ ٱللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰيهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿١٠﴾

◀ اللّغة

أَوْحَيْنٰآ الوحي في الأصل الإشارة السّريعة و لتضّمن السُّرعة قيل أمرٌ وحيٌّ و ذلك يكون بالكلام علىٰ سبيل الرّمز و التَّعريض.

لَسٰاحِرٌ السِّحر الخداع و تخييلات لا حقيقة لها.

بِالْقِسْطِ أي بالعدل.

حَمِيم و هُو الّذي أسخِن بالنّار أشدّ إسخانٍ.

مَأْوٰيهُمُ المأوىٰ المكان.

◀ الإعراب

أَكٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنٰآ؛ أَوْحَيْنٰآ إسم كان و خبرها عجباً، ولِلنّاس حال من عجب و التّقدير، أكان عجباً للنّاس أَنْ أَنْذِرِ ٱلنّٰاسَ يجوز أن تكون، أن، مصدّرية فيكون موضعها نصباً، بأوحينا، و أن تكون بمعنى، أي، فلا يكون لها موضع يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يجوز أن يكون مستأنفاً، و أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون

حالاً وَعْدَ ٱللَّهِ هو منصُوب على المصدر بفعلٍ دلَّ عليه الكلام و هو قوله: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ و حَقًّا مصدر آخر تقديره حقّ ذلك حقّاًإِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ الجمهور على كسر الهَمزَة على الإستئناف و قريً بفتحها والتّقدير حقّ أنّه يبدأ فهو فاعل بِمَا كَانُوا في موضع رفع صفة أخرى، لعذاب و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً مفعولان و يجوز أن يكون، ضياء، حالاً و جعل بمعنى خلق و التّقدير ذات ضياء وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا أي ذا نُورٍ و قيل المصدر بمعنىٰ الفاعل أي منيراً (وقَدَّره منازل) أي و قدّر له منازل فحذف حرف الجرّ التّقدير ذا منازل إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ خبر، أن، أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ فأُولئك مبتدأ و مأواهم مبتدأ ثان و النّار خبره و الجملة خبر، أولئك، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً من ضمير المفعول في، يهديهم، فِي جَنَّاتِ يجوز أن يتعلّق بتجري و أن يكون حالاً من الأنهار و أن يكون متعلّقاً بيهدي و أن يكون حالاً من ضمير المفعول في، يهدي، و أن يكون خبراً ثانياً، لأن دَعْوَىٰهُمْ مبتدأ وسُبْحَٰنَكَ منصوب علىٰ المصدر و هو تفسير الدّعوىٰ لأنّ المعنىٰ قولهم سبحانك اللّهم و(فيها) متعلّق بتحيّةٍ أَنِ ٱلْحَمْدُ أن مخفّفة من الثّقيلة و قد يقرأ، أنّ بتشدّيد النّون و هى مصدّرية و التّقدير آخر دعواهم فيها حمد اللّه.

◀التّفسير

الٓرٰ

ليست به آيةٍ مستقّلة وأنّما لم تعدّ آية كما عدّ **ألم** في عدد الكوّفيين آية لأنّ آخره لا يشاكل رؤوس الأي الّتي بعده ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى هذه الحروف الّتي في أوّل السّور و قد تكلّمنا فيه في أوّل سورة البقرة و أنّها أسماء السُّور و لا يعلم معناها إلاّ اللّه تعالى لأنّها من الرُّموز فكلّ ما قيل أو يقال في معناها إستخراجات ظنّية لا مأخذ لها من الشّرع **تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ** إختلفوا في المشار اليه بقوله تلك، فقال قوم المعنىٰ الأيات الّتي تقدَّم ذكرها.

و قيل إشارة الى الكتاب المحكم الّذي هو مخزون مكتوب عند اللّه ومنه نسخ كلّ كتابٍ كما قال بل هو قرآن مجيد في لَوح محفوظ.

و قيل إشارة الىٰ، ألرا و أخواتها من حروف المعجم أي تلك الحروف المفتتح بها السُّور و أن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المثال و هى آيات الكتاب بها يتلّىٰ و ألفاظه اليها ترجع، و قيل، تلك، بمعنىٰ هذه و المشار اليه حاضرٌ قريب و الأقوال فيها كثيرة و المراد بالكتاب في الآية القرآن و أنّما وصِف بأنّه حكيم لأنّه دليل علىٰ الحقّ كالنّاطق بالحكمة و لأنّه يؤدي الىٰ المعرفة الّتي يميز بها طريق الهلاك من طريق النّجاة.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ

الألف في قوله: **أَكَانَ** ألف إستفهامٍ و المراد به الإنكار أي ليس كذلك قيل عجبت العرب و قريش أن يبعث اللّه فيهم نبيّاً فأنزل اللّه الآية.

و قال الحسن معناه ليس بعجب ما فعلناه في ذلك و المعنى ألم يبعث اللّه رسلاً من أهل البادية و لا من الجِنّ و لا مِن الإنس و العجب تغيُّر النّفس بما لا يعرف سببه ممّا خرج عن العادة الى ما يجوزكونه.

و قيل معناه لا عجب في ذلك فهي عادة اللّه في الأمم السّالفة و قوله: **أَنْ أَوْحَيْنَآ** اليه الى الرّجل المبعوث و الوحي بفتح **الواو** الإشارة السّريعة و لتضّمن السّرعة قيل أمرٌ وَحيٌ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز و التَّعريض يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب و بأشارةٍ ببعض الجوارح و بالكتابة و قد حمل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ حكايةً عن زكريا.

قال اللّه تعالىٰ: **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا**[1].

۱- مريم=۱۱

فقد قيل،رمزاً و قيل إعتبار و قيل كتب و علىٰ هذه الوجوه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ اَلْإِنْسِ وَ اَلْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ إِنَّ اَلشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ**(٢).

فذلك بالوسواس المشار اليه:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْ شَرِّ اَلْوَسْوٰاسِ اَلْخَنّٰاسِ**(٣).

و قوله صلى الله عليه و آله أنّ للشيّطان لمَّة الخير و يقال للكلمة الإلٰهية الّتي تلقى الىٰ أنبياءه و أولياءه وحيٌ، و ذلك على أقسامٍ حسب ما دلّ عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ**(۴)

و ذلك إمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل النّبي في صورةٍ معيّنةٍ و أمّا بسماع كلامٍ من معانيه كسماع موسى كلام اللّه.

و أمّا بالقاءٍ في الرُّوح كما ذكر عليه السّلام، إنّ روح القُدس نفث في روحي.

و إمّا بإلهامٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ**(۵).

و أمّا بتسخيرٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى اَلنَّحْلِ**(۶).

أو بمنامٍ كما قال صلى الله عليه و آله إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن فالإلهام و التّسخير و المنام دلَّ عليه قوله: **إِلاّٰ وَحْياً** و سماع الكلام معاينة دلَّ

١- الأنعام=١١٢
٢- الأنعام=١٢١
٣- ناس=٣
۴- الشّورىٰ=۵١
۵- القصص=٧
۶- النّحل =۶٨

عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ** و تبليغ جبرئيل في صورةٍ معيّنة دلَّ عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ**[٢].

اذا عرفت الوحي و أقسامه فقد ظهر لك معنى الآية و أنّه لا عجب من وَحي اللّه تعالى الى رجلٍ خاصّ الّذي يسمّى بالنّبي اذ لا إشكال فيه بل هو أمرٌ جرى على السّيرة المستّمرة في جميع الأنبياء.

و أمّا قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا** فهو مفاد الوحي و محتواه فكأنّه قيل و لِمَ أوحى اللّه تعالىٰ الى رجلٍ من البشر و ما الفائدة فيه فقال تعالىٰ أن أنذر الآية أي أوحينا اليه أن أنذر النّاس من عذاب اللّه و سخطه في الدّنيا و الأخرة و بشّر المؤمنين **أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ** أي عرّف لهم ما فيه السّرور و الخلود في نعيم الجنّة علىٰ وجه الإكرام و الإجلال بالأعمال الصّالحة لأنّ لهم سابقة إخلاص الطّاعة كإخلاص الصِّدق من شائبة الكذب.

و قال الزّمخشري، قَدم صِدقٍ عند ربّهم، أي سابقةً و فضلاً و منزلةً رفيعة فأن قلت لم سمّيت السّابقة قدماً.

قُلتُ لمّا كان السّعي و السّبق بالقدم سمّيت المسعاة الجميلة و السّابقة قدماً كما سمّيت النّعمة، يداً لأنّها تعطى باليد و باعاً لأنّ صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدمٌ في الخير و إضافته الى صدقٍ دلالة علىٰ زيادة فضل و أنّه من السّوابق العظيمة.

و قيل مقام صدقٍ، هذا الكتاب و ما جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله انتهىٰ كلامه.

قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُبِينٌ أي قال الكافرون باللّه ورسوله أنّ هذا أي النّبي ساحرٌ مبين أي مظهر أو ما أتى به سحرٌ مبين على إختلاف

١- الشّورىٰ =٥١ ٢- الأنعام =٩٣

القراءات فعلى قراءة السّاحر يكون هذا، إشارة الى النّبي و على قراءة السِّحر إشارة الى القرأن أو ما جاء به النّبي من المعجزات و السّحر يقال على معانٍ:

الأوّل: الخداع و تخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يدٍ و ما يفعله النّمام بقولٍ مزخرفٍ عائقٍ للأسماع و على ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ**(١).

الثّاني: إستجلاب معاونة الشّيطان بضَربٍ من التّقرب اليه وعلىٰ ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ**(٢).

الثّالث: ما يذهب اليه الإغتام و هو إسم لفعلٍ يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصُّور و الطّبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند أهل الفهم و الدّراية و سيأتي البحث منّا فيه و فى أنواعه في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ و لا شكّ أنّ نسبة السِّحر الى النّبي كذبٌ محض ينشأ من عجز الكاذبين فأنّ العاجز يكذب و يتهمّ غيره بأنواع التُّهم و هذا لا يختصّ بنبىّ الإسلام بل كان شائعاً في الأمم الماضية أيضاً كما سيأتى.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

أصل «سِتّة» سدسة أبدل من أحدى السّينين تاء و أدغم في الدّال لأنّك تقول في تصغيرها سديسة و الجمع أسداس و الجمع و التّصغير يردّان الىٰ أصولها بيّن اللّه تعالى في هذه الآية مسائل:

الأُولىٰ: أنّ ربّكم و هو الذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة الّذي خلق أي أوجد السّموات و الأرض في ستّة أيّام فقال بعضهم أي من أيّام الأخرة كلّ يومٍ ألف سنة.

١- الأعراف =١١٦ ٢- البقرة =١٠٢

و قال مجاهد و غيره من أيّام الدّنيا و إختلفوا في وجه إختصاص الخلق بالسّتة مع أنّه تعالى لو أراد خلقها في لحظةٍ لفعل لأنّه على كلّ شيئٍ قدير علىٰ قولين:

أحدهما: أنّ في إظهارهما كذلك مصلحة للملائكة و عبرة لهم.

الثّانى: لما فيه من الإعتبار اذا أخبر عنه بتصرّف الحال كما صرّف اللّه الإنسان من حالٍ الى حالٍ لأنّ ذلك أبعد من توّهم الإتّفاق فيه.

و في المقام قول ثالث، و هو أنّه تعالى أراد أن يعلم العباد الرّفق و التّثبت في الأمور و لتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيئٍ و أمّا كيفيّة خلق السّموات و الأرض فقد تكلّمنا فيها سابقاً بقدر وسعنا واللّه تعالى أعلم بحقيقة الحال.

الثّانية: قوله **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** الإستواء الإستيلاء بإنشاء التّدبير كما يستوي الملك على سرير ملكه بالإستيلاء على تدبيره قال الشّاعر:

ثمّ إستوىٰ بشرٌ على العراق من غير سيفٍ ودم مهراقٍ

و قوله: **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** فالتّدبير تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها مأخوذ من الدّبر فتجري على أحكام الدّابر في البارئ.

و إعلم أنّ **العَرْش** بفتح العين و سكون الرّاء في الأصل شيءٌ سقّف وجمعه عروش.

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ كَالَّذي مَرَّ عَلٰى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خٰاوِيَةٌ عَلٰى عُرُوشِهٰا**[١].

و منه قيل عرشت الكرم و عرشته اذا جعلت له كهيئة السّقف و قد يقال لذلك المعرش.

قال اللّه تعالىٰ: **وَهُوَ اَلَّذيَ أَنْشَأَ جَنّٰاتٍ مَعْرُوشٰاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشٰاتٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ دَمَّرْنٰا مٰا كٰانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مٰا كٰانُوا يَعْرِشُونَ**[٣].

١- البقرة =٢٥٩ ٢- الأنعام =١٤١
٣- الأعراف =١٣٧

و سمّي مجلس السّلطان عرشاً إعتباراً بعلّوه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**[٢].

اذا عرفت معنى العرش و موارد إطلاقاته بحسب العرف فنقول:

أنّ عرش اللّه ممّا لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالإسم و ليس كما تذهب اليه أوهام العامّة فأنّه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالىٰ عن ذلك لا محمولاً و اللّه تعالىٰ يقول:

إِنَّ ٱللّٰهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَ لَئِنْ زٰالَتٰآ إِنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ[٣].

فقال قوم هو الفلك الأعلى و الكُرسي فلك الكواكب و قيل أنّ العرش في حقّه تعالىٰ هو إشارة الى مملكته و سلطانه لا الى مقرٍ له يتعالىٰ عن ذلك.

و في بعض الأخبار، قلب المؤمن عرش الرّحمٰن، و كيف كان لا شكّ عند العلماء أنّ العرش بالمعنى اللُّغوي أو المتعارف عند العوام لا يمكن إطلاقه على عرش الرّحمٰن لتّنزهه تبارك و تعالى عن كونه في المكان أو في جهةٍ من الجهات.

قال القُرطبي في تفسيره عند قوله تعالىٰ:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهٰارَ[۴].

ما هذا لفظه و الأكثر من المتقدّمين و المتأخّرين أنّه اذا وجب تنزيه البارئ سبحانه عن الجهة و التّخير فمن ضرورة ذلك و لواحقه اللاّزمة عليه عند عامّة العلماء المتّقدمين و قادتهم من المتّأخرين تنزيهه تبارك و تعالىٰ عن الجهة

١- يوسف =١٠٠
٢- النّمل =٣٨
٣- فاطر =۴١
۴- الأعراف =۵۴

فليس بجهة فوقٍ عندهم لأنّه يلزم من ذلك عندهم متى إختصّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيّزٍ و يلزم على المكان و الحيّز الحركة و السّكون للمتّحيز و التّغيُر و الحدوث هذا قول المتكلّمين و قد كان السَّلف الأوّل لا يقولون بنفي الجهة و لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم و الكافّة بإثباتها للّه تعالىٰ كما نطق كتابه و أخبرت رسله و لم ينكر أحدٌ من السّلف الصّالح أنّه إستوى على عرشه حقيقةً و خصّ العرش بذلك لأنّه أعظم مخلوقاته و أنّما جهلوا كيفيّة الإستواء فأنّه لا تعلم حقيقته.

قال مالك، الإستواء معلوم يعني في اللّغة و الكيف مجهول و السّؤال عن هذا بدعة و كذا قالت أمّ سلمة و هذا القدر كافٍ و من أراد زيادةً عليه فليقف عليه في موضعه انتهىٰ كلامه.

وأنا أقول ما ذكره أوّلاً و نسبه الى المتكملّين لا كلام لنا فيه فأنّه قد ثبت عقلاً و نقلاً كونه تعالىٰ منزّهاً عن الجهة و المكان فليس له عرش بالمعنى المتعارف عند النّاس.

و أمّا ما نقله عن السَّلف الصّالح بزعمه من أنه تعالى إستوى علىٰ عرشه حقيقةً و أنّهم لم يقولوا بنفي الجهة عنه تعالى فهو كفرٌ محض و القائل به خارج عن حوزة الإسلام اللّهم إلاّ أن يقال أنّ السَّلف الصّالح لم يفهموا و لم يعلموا ما يقولون و هو أمرٌ أخر.

إن قلت فما معنىٰ قوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** قلت معناه إستولى عليه لتدبير أمور مملكته و يدّل عليه قوله يدّبر الأمر.



المسألة الثّالثة: قوله**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** و هذا ممّا لا كلام لأحدٍ فيه و قد مرَّ الكلام في الشّفاعة و أنّها لا تكون إلاّ بإذنه تعالىٰ عند قوله: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**[1].

١- البقرة =٢٥٥

المسألة الرّابعة: قوله **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ذلكم إشارة الىٰ ما مرَّ ذكره و بيانه أي أنّ الّذي خلق السّموات و الأرض في ستّة أيّام ثمّ إستوى على العرش الى أخره ذلكم اللّه ربّكم فأعبدوه و الفاء للتّفريع أي فهو الّذي يستحقّ العبادة لا غيره ممّن لا يقدر علىٰ شئٍ و اليه الإشارة بقوله: **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** الإستفهام للتّوبيخ ففيه حثٌّ على التذّكر و التّفكر و على تعرّف صحّة ما أخبرهم به.

قال بعضهم أنّما ذكر الشّفيع في الآية و لم يجر له ذكر لأنّ المخاطبين بذلك كانوا يقولون الأصنام شفعاؤهم عند اللّه كما سيأتي فقال تعالىٰ: **مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** ثمّ قال في أخر كلامه، أفلا تذّكرون، أشار بذلك الىٰ أنّ الأصنام الّتي لا تعقل فكيف تكون شافعة مع أنّه لا شفيع عنده إلاّ من إرتضاه اللّه.

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ الرّب الّذي ينبغي أن يعبد هو الموصوف بهذه الصّفات و أمّا غيره كائناً ما كان فهو مخلوق مثلكم مردودٌ اليكم و العقل السّليم لا يحكم بعبادة المخلوق لمخلوقٍ أخر مثله ثمّ أعقب الكلام بقوله:

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا

أي الى الرّب الموصوف بالصّفات المذكورة مرجعكم جميعاً أي يرجع اليه جميع النّاس موّحداً كان أم غيره وعَد اللّه حقّاً، مصدر أن أي وعد اللّه ذلك وعداً و حقَّقه حقّاً صِدقاً لا خلف فيه و من أصدق مِن اللّه قيلاً.

إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ و هذا هو الوعد الّذي وعده و حقّقه حقّاً أي وعد اللّه حقّاً أنّه يبدأ الخلق ثمّ يعيده أي هو الّذي أنشأ الخلق إبتداءً و هو الّذي يعيدهم بعد موتهم النّشأة الأخرى و فيه إشارة الى أنّه تعالىٰ قادرٌ على الإعادة كما كان قادراً على الإبتداء مع أنّ الإبتداء أصعب و أشكل من الإعادة إرجاع الشّئ الى ما كان عليه فهو مسبوقة بالوجود بخلاف الإبتداء فأنّه إيجاد

الشّئ بعد أن لم يكن موجوداً و من المعلوم أنّ إخراج الشيى من ورطة العدم المحض الى الوجود أصعب من إرجاع الموجود الى ما كان عليه من الوجود مع بقاء المادّة الأصّلية كما ستعرف تفصيل الكلام في هذه المباحث في أواخر الكتاب إن شاء اللّه تعالىٰ.

و حيث كانت هاهنا فطّنة سؤالٍ و هو أنّه ما الفائدة في الإعادة فقال تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ** واللاّم في قوله: **لِيَجْزِىَ** للغاية أو للعلّة فعلىٰ الأوّل يكون الجزاء غاية للإعادة.

و على الثّاني هو علّة و سبب لها و على التّقديرين معنى الكلام واضح أنّ اللّه تعالىٰ يعيد الخلق ليجزيهم بما عملوا في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍّ فيجزي الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات بالقسط و العدل أي أنّ العدل الّذي هو وضع الشّئ في محلّه يقتضي أن يجزيِ النّاس علىٰ أعمالهم **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ** أي أنّ الّذين أنكروا التّوحيد و النبّوة و جحدوا بآيات اللّه لهم شرابٌ من حميم، و هو الّذي أسخن بالنّار أشدّ إسخانٍ و عذابٌ أليم أي مولم بما يكفرون أي بسبب كفرهم إشارة الى أنّ هذا الجزاء ليس خارجاً عن القسط و العدل بل هو عين العدل لأنّ السيّئة لا تجزى إلاّ بمثلها فالسَّبب فيه هو الكفر و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيٰاءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ ذٰلِكَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ في الآية مسائل.

الأولىٰ: قوله **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيٰاءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** أي أنّ اللّه تعالى جعل الشّمس و القمر كذلك لا غيره و يستفاد منه الحصر لأنّ تقديم المسند اليه أعني به (هو) يفيد الحصر لا ترىٰ أنّ قول القائل هو القائم يفيد حصر القيام فيه بخلاف قوله هو و كذلك في المقام فأنّه تعالىٰ مال هو الّذي

فعل كذا أو كذا معناه أنّ غيره لا يقدر عليه فقوله: **جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** معناه إنحصار الفعل فيه و هو المطلوب، **والجَعل** بفتح الجيم و سكون العين و اللاّم في إصطلاح الفلاسفة على قسمين، بسيطٌ و مركبٌ، و البسيط عبارة عن إيجاد الشّئ و المرّكب عبارة عن إيجاد الشّئ شيئاً آخر و توضيحه إجمالاً هو أنّ الوجود ينقسم الى الوجود الرّابط و الى الوجود النّفسي أي أنّه رابطٌ و نفسّيٌ، فالجعل البسيط ما كان متعلّقة الوجود النّفسي و الجعل المرّكب و قد يعبّر عنه بالتأليفي ما كان متعلّقة الوجود الرّابط فأنّ الأوّل جَعل الشّئ و إضافة نفس الشّئ و بلسان الأدباء الجعل المتعدّي لواحدٍ.

والثّانى: و هو المرّكب عبارة عن جعل الشّئ شيئاً و الجعل المتعدّي لأثنين و هذا الجعل أعني به المؤّلف أو المرّكب يختصّ بالعرضيّات المفارقة لخلّو الذّات عنها و لا يتصّور بين الشّئ و نفسه و لا بينه و بين ذاتياته و لا بينه عوارضه اللاّزمة كالإنسان إنسان و الأربعة زوج و الإنسان حيوان لأنّها نسب ضرّورية و أنّما قالوا ذلك لأنّ ثبوت الشّئ لنفسه و ذاتّياته ضرّوري و سلبه عن نفسه و هكذا سلب ذاتّياته عنه محال فأنّ الإنسانيّة للإنسان و الحيوانيّة له و الزّوجية للأربعة و الفرّدية للثلاثة و الرّطوبة للماء و هكذا ضرّوريّ لا يمكن سلبها عنه و الى هذا المعنى أشار الشّيخ الرّئيس أبو علي سينا، حيث قال ما جعل اللّه المشمش و لكن أوجده.

و أنّما قال ذلك لأنّ المشمشيّة للمشمش ضرّوري لا يمكن سلبها عنه فهو أي المشمش غير قابل للجعل التّأليفي فلا محالة يكون مجعولاً بالجعل البسيط أعني به صرف الإيجاد لا جعل الشّئ شيئاً أخر اذا عرفت معنى الجعل فنقول:

قوله: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُورًا** أن قلنا أنّ الضَّوء لِلشّمس و النُّور للقمر ذاتّيٌ لهما بحيث لا يمكن مفارقتهما عنهما كالزّوجية للأربعة و الفرّدية للثّلاثة فهما مجعولان بالجعل البسيط و المعنى أنّ اللّه أوجد الشّمس والقَمَر.



و إن قُلنا بأنّ الضَّوء مثلاً من العوارض المفارقة للشّمس و ليس ذاتّياً لها فهي أي الشّمس مجعولة بالجعل المرّكب أي أنّ اللّه تعالىٰ أوجد الشّمس و جعلها ذات ضياء و القمر ذا نورٍ و بعبارةٍ أخرى جعل الشّمس مضيئة و القمر منيراً و عليه فالاضاءة لها من إفاضات الجاعل الموجد لا من ذاتها والّذي يؤدّي اليه النّظر هو أنّ الجعل في الآية تركيبيّ تأليفي لأنّ اللّه تعالى يقول: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً** و فيه إيماء الى أنّ الضَّوء ليس عين الشّمس و لا من ذاتّياتها اذ لو كان كذلك لقال هو الّذي جعل الشّمس و القمر و لم يقل ذلك.

ألا ترىٰ أنّه لا يقال هو الّذي جعل الإنسان إنساناً و يقال هو الّذي جعل الإنسان ضاحكاً، ماشياً متكلّماً و هكذا و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ خلق الشّمس و أفاض عليها الضَّوء و خلق القمر و أفاض عليه النُّور و لو بالإكتساب مِن الشّمس فهو من جعل الشّيء شيئاً أخر و هو اطلوب.

و الشَّمس يقال للقرصة و للضَّوء المنتشر عنها و القمر معلومٌ واللّه تعالىٰ أثبت للشّمس ضياءً و للقمر نوراً.

والضّياء بكسر الضّاد جمع **ضَوء** بفتحها مثل سوط و سياط و حوض و حياض و روض و رياض أو مصدر ضاء **ضَوءً وضياءً** مثل قام يقوم و قياماً و صام يصوم و صياماً.

ثمّ أنّ الضَّوء في الأصل ما إنتشر من الأجسام النّيرة يقال ضاءت النّار و أضاءت و أضاءها غيرها.

قال اللّه تعالىٰ: **يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ**(٣).

١- البقرة =٢٠ ٢- البقرة =١٧
٣- القصص =٧١

والنُّور بضّم النّون الضَّوء المنتشر الذّي يعين على الإبصار و هو علىٰ ضربين معقولٌ و محسوس.

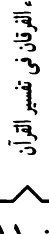
فالأوّل: كنُور العقل ونُور القرأن ونور العلم قال عليه السلام العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء.

والثّاني: ما إنتشر من الأجسام النَّيرة كنور القمر و النّجوم و النَّيرات و هذا هو المراد به في المقام فأنّ نور القمر من الأنوار المحسوسة و عليه فيصير معنىٰ الكلام هو الَّذي جعل الشّمس ذات ضياء و القمر ذا نورٍ و قد ثبت أنّ القمر يكتسب نور من الشّمس فهو في حدّ ذاته لا نور له و لعلّه لذلك أثبت الضّياء لها و النُّور له أي أنّ الضَّوء المنتشرة في الشّمس حيث أنّه من ذات الشّمس فيعبّر عنه بالضّياء و أن لم يكن كذلك فهو نُور.

و قال الرّازي إعلم أنّ النُّور كيفيّة قابلة للأشدّ و الأضعف فأنّ نور الصّباح أضعف من النّور الحاصل في أوّل النّهار قبل طلوع الشّمس و هو أضعف من النّور الحاصل في أفنية الجدران عند طلوع الشّمس و هو أضعف من النّور السّاطع من الشّمس على الجدران و هو أضعف من الضّوء القائم بجرم الشّمس فكمال هذه الكيفيّة المسمّاة بالضَّوء أقوى من الكيفيّة القائمة بالشّمس فهو من مواقف العقول.

و إختلف النّاس في أنّ الشّعاع الفائض من الشّمس هل هو جسم أو عرض و الحقّ أنّه عرض و هو كيفيّة مخصوصة و اذا أثبت أنّه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشّمس أو لأجل أنّ اللّه تعالىٰ أجرى عادته بخلق هذه الكيفيّة في الأجرام المقابلة لقرص الشّمس على سبيل العادة فهي مباحث عميقة و أنّما يليق الإستقصاء فيها بعلوم المعقولات و اذا عرفت هذا فنقول:

النُّور إسمٌ لأصل هذه الكيفيّة و أمّا الضَّوء فهو إسم لهذه الكيفيّة اذا كانت كاملة تامّة قوّية و الدّليل علىٰ أنّه تعالى سمّى الكيفيّة القائمة بالشّمس ضياءً و



الكيفيّة القائمة بالقَمر نوراً و لا شكّ أنّ الكيفيّة القائمة بالشّمس أقوى و أكمل من الكيفيّة القائمة بالقمر انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله أنّ النُّور كيفيّة قابلة للأشدّ و الأضعف فهو متين و لا كلام لنا فيه لإتّفاق الفلاسفة عليه.

قال السّبزواري في المنظومة:

مـراتـباً غـنىً و فـقراً تـختلف　　　كالنُّور حيثما يقوّي وضعف

و أمّا قوله أنّ الشّعاع الفائض من الشّمس عـرض فـهو مـردودٌ و قـد ثـبت خلافه في هذا العصر بدَليلٍ قاطع و البحث فيه خارج عن موضوع الكتاب.

و قوله النُّور إسمٌ لأصل هذه الكيفيّة و الضَّوء إسمٌ لها اذا كانت كاملة قـوّية، يحتمل أن يكون صحيحاً إلاّ أنّـا لم نسـمع هـذا الكـلام مـن غـيره فـلعلّه مـن إستخراجاته و إستظهاراته و لا إشكال فيه أن ساعده الدّليل و عليه فالفرق بـين الضَّوء و النُّور بالشدّة و الضّعف و حيث أنّ النُّور في الشّـمس أقـوى و أكـمل فسُمّي بالضّياء و فـى القـمر أضـعف فسـمّي بـالنُّور فـالفرق بـينهما بـالشدّة و الضّعف و الكمال و النَّقص و كيف كان ففي الآية دلالة قوّية على التّوحيد فأنّ القادر على هذا الخلق و الجعل منحصرٌ به فهو اللّه الّذي لا إلٰه إلاّ هو.

و أمّا قوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ** أي و قدَّر مسيره منازل و قيل المعنىٰ قدَّره ذا منازل و إختلفوا في الضّمير في، قدَّره علىٰ قولين:

أحدهما: أنّه يرجع الى كلّ واحـدٍ مـن الشّـمس و القـمر و وحـيد الضّـمير للإيجاز و إلاّ فهو في معنى التّثنية إكتفاءً بالمعلوم لأنّ عَدد السّنين و الحسـاب أنّما يعرف بسير الشّمس و القمر نظيره قوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّـهُ وَ رَسُـولُهُ أَحَـقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**[1].

١- التوبة = ٦٢

ثانيهم: أنّه يرجع الى القمر و حده لأنّ بسير القمر تعرف الشّهور لأنّها مبنيّةٌ على رؤية الأهلّية و السَّنة المعتبرة في الشّريعة هي الشسّنة القمّرية كما قال تعالىٰ: **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱثْنٰا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتٰابِ ٱللّٰهِ**[١] و هذا هو الأقوى في النّظر و أوفق بسياق النّظم و الأدب، و فيه إشارة الىٰ أنّ المقدّر هو اللّه تعالى أي أنّ اللّه جعله كذلك و تقدير اللّه الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

الثّاني: بأن يجعلها على مقدارٍ مخصصو و وجهٍ مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة و ذلك أنّ فعل اللّه ضربان:

ضربٌ أوجده بالفعل بأن أبدعه كاملاً دفعةً بحيث لا تعتريه الزّيادة و النّقصان الى أن يشاء أن يفنيه أو يبدّله كالسّموات و ما فيها.

و ضربٌ جعل أصوله موجوده بالفعل و أجزاءه بالقوّة و قدّره على وجهٍ لا يتأتى منه غير ما قدَّره فيه كتقديره في النّواة أن ينبت منها النَّخل دون التّفاح و الزّيتون و تقدير منّي الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات فتقدير اللّه تارةً بالحكم منه أن يكون كذا و لا يكون كذا أمّا على سبيل الوجوب و أمّا على سبيل الإمكان و على ذلك قوله: **قَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**[٢].

و تارةً بإعطاء القدرة عليه و منه قوله تعالىٰ: **فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ ٱلْقٰادِرُونَ**[٣].

اذا عرفت هذا فقوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ** ليس من إعطاء القدرة للقمر بل هو من القسم الثّاني أعني جعله على مقدارٍ مخصوصٍ و وجهٍ مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة فيه، و المنازل هي البروج و كانت العرب تَنسب اليها الأنواء و هي ثمانية و عشرون منزلة الشّرطين و البطين و الثّريا و الدّبران و الهقعة و الهنعة و الذّراع و النَّثرة و الطّرف و الجبهة و الدّبرة و الصِّرفة و العَواء،

١- التوبة = ٣٦ ٢- الطّلاق =٣
٣- المُرسلات =٢٣

و السّمالك و الغفر و الزّبانان و الإكليل و القلب و الشّولة، و النّعائم و البلدة، و سعد الذّابح، و سعد بلغ، و سعد السّعود، و سعد الأخبتية، و الفرع المؤخّر، و الرَّشاء و هو الحوت.

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ

و اللاّم متعلّق بقوله: **وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ** أي قدّره فيها لتعلموا عدد السِّنين و ذلك لأنّ السّنين جمع سنة و كلّ سنةٍ أثني عشر شهراً و أن شئت قلت معرفة السّنة تتوقّف على معرفة الشّهور و الشّهر لا يوجد إلاّ بعد رؤية الهلال فلولا وجود القمر لم يعرف الشَّهر و لم يعرف السَّنة و هذا معلوم لا يحتاج الى مزيد بيان و منه يعرف أنّ الحساب أيضاً يتوقّف على الشَّهر كالسَّنة فلولا الشَّهر و لا سَّنة لم يعرف الحساب أصلاً.

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و المعنى ما خلق اللّه الشّمس و القمر و ما قدّر فيهما إلاّ بالحقّ يفصّل الأيات أي يميز بعضها من بعضٍ لقومٍ يعلمون و يصّح منهم الإستدلال دون البهائم و من لا عقل له كالمجنون و ذلك لأنّ العاقل يعلم ما فيهما من الفوائد والمنافع التّي لا يمكن التَّعيش بدونها فالشّمس سلطان النّهار و القمر سلطان اللّيل و بسبب وجود الشّمس تنقسم السَّنة الى الفصول الأربعة و بها تنتظم مصالح هذا العالم و بحركة القمر تحصل الشّهور و السّنين و الحساب و بالحركة اليّومية تحصل النّهار و اللّيل فالنّهار للتَّكسب و الطَّلب و اللّيل يكون زماناً للنّوم و الرّاحة و كلّ ذلك يدّل على كثرة رحمة اللّه على الخلق و عظم عنايته بهم.

و حيث قد ثبت في موضعه أنّ الأجسام متساوية فكلّ جسم بشكله المعيّن و وضعه المعيّن و حيّزه المعيّن و صفته المعيّنة و أثاره المختلّفة ليس إلاّ بتدبير مدّبرٍ حكيم رحيم قادرٍ قاهرٍ و به يظهر أنّ جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم أنّما هو بسبب حركات الأفلاك و الأثار المترتّبة عليها بتدبير خالقها المدّبر الحكيم سبحانه و تعالى و هو المطلوب.

إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

قالوا الإختلاف ذهاب كلّ واحدٍ من الشّيئين في غير جهة الأخر و عليه فإختلاف اللّيل و النّهار ذهاب أحدهما في جهة الضّياء و الأخر في جهة الظّلام و لا شكّ أنّ جهة الضّياء غير جهة الظّلام و اللّيل جمع ليلة كتمر و تمرة و هو عبارة عن إبتداء غروب الشّمس الى طلوع الفجر الثّاني كما أنّ النّهار عبارة عن إتّساع الضّياء من طلوع الفجر الثّاني الى غروب الشّمس و هو و اليوم بمعنى واحد.

وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

أصل الخلق التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ إحتذاءٍ و قد يستعمل في إيجاد الشّئ من الشّي.

فَمِن الأوّل قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(١).

من الثانى قوله: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا**(٥).



و غيرها من الأيات و ليس الخلق بالمعنى الأوّل و هو الإبداع إلاّ لِلّه تعالى.

و أمّا الخَلق بالمعنى الثّاني و هو إيجاد الشّئ من الشّئ فلا يختصّ به تعالىٰ

١- البقرة= ١١٧ ٢- الأعراف =١٨٩

٣- النّحل =٤ ٤- المؤمنون =١٢

٥- الفرقان =٥٤

و الى الفرق بين الخلقين أشار اللّه تعالى بقوله: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**(١) أي أفمن لا يخلق كذلك.

و أمّا الخَلق الّذي يكون بالإستحالة فقد جعله اللّه لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْني**(٢) اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَ ما خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضِ** إشارة الىٰ الموجودات الّتي خلقها اللّه فيهما من الملائكة و الإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و الجنّ و غيرها ممّا يصدّق عليه المخلوق فأنّ في ذلك لأياتٍ لقومٍ يتّقون والآية العلامة و المعنى أنّ المخلوقات كلّها علامات للتّوحيد و معرفة الخالق للمتّقين كما قال الشّاعر:

وفي كلّ شيءٍ له أيةٌ تدّل علىٰ أنّه واحدُ

و أنّما خصَّ ذلك بالمتّقين لأنّهم هم المنتفعون بها دون غيرهم من الغافلين عن أسار التّوحيد و أمّا تفصيل الكلام فيما خَلق اللّه في السّموات والأرض فهو خارج عن قُدرة البشر و مع ذلك خارجٌ عن موضوع الكتاب قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوها**(٣).

وأنا أقول كما أنّ النِّعم غير قابلة للإحصاء كذلك المخلوقات الموجودة غير قابلةٍ لنا للإحصاء و لا سيّما في النّباتات و الحيوانات و لذلك نرى في زماننا هذا كلّ يوم يكشف فيه ما كان مجهولاً عندهم قبل اليوم و أظنّ أنّ هذه السّيرة مستمّرةً الى أخر الدُّنيا هذا كلّه من جهة الإحصاء.

و أمّا من جهة أنّ المخلوق كائناً ما كان فهو أيةٌ و علامةٌ للتّوحيد و معرفة الخالق فالأمر فيها أوضح من أن يخفى على العاقل اللّبيب.

١- النحل = ١٧
٢- المائدة = ١١٠
٣- ابراهيم = ٣٤

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ ٱطْمَأَنُّوا بِهٰا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ اٰيٰاتِنٰا غٰافِلُونَ

اللِّقاء بكسر اللاّم الملاقاة و هو في الأصل مقابلة الشّئ ومصادفته معاً و قد يعبّر به عن كلّ واحدٍ منهما يقال لقيه لقاءً و يقال ذلك في الإدراك بالحسّ و بالبصر و بالبصيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ لَقِينٰا مِنْ سَفَرِنٰا هٰذٰا نَصَبًا**[۲].

و الحاصل أنّ اللّقاء و الملاقاة لا يختصّ بالحسّ أو بالبصر أو بالبصيرة بل يقال في مطلق الإدراك هذا ثمّ أنّ ملاقاة اللّه عزّ وجلّ عبارة عن المصير اليه يوم القيامة و اليه الإشارة بقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا ٱللّٰهِ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلٰى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاٰقِيهِ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**[۶].

اذا عرفت معنى اللِّقاء فنقول:

قال بعض المفسّرين أنّ الّذين لا يرجون لقاءنا، يحتمل أمرين:

أحدهما: لا يخافون عقابنا كما قال الهذلي:

اذا لسعته النَّحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت ندب عواسل

الثّاني: معناه لا يطمعون في ثوابنا و منه قول الشّاعر:

أيرجو بنو مروانٍ سمعي وطاعتى وقومي تميمُ والفلاة وراءيا

۱- أل عمران =۱۴۳ ۲- الكهف =۶۲
۳- البقرة =۲۲۳ ۴- البقرة =۲۴۹
۵- الإنشقاق =۶ ۶- البَقرة =۴۶

أي يطمع بنو مروان كذا و الحال أنّ قومي تميم الخ و عليه فالرّجاء يكون بمعنى الخوف و الطَّمع أي لا يخافون عقاباً و لا يرجون أي لا يطمعون ثواباً، و جعل لقاء العذاب و الثّواب لقاء اللّه تفخيماً لهما.

قال القُرطبي و قيل يجري اللّقاء على ظاهره و هو الرُّؤية أي لا يطمعون في رؤيتنا.

أقول هذا الّذي ذكره القرطبي من حمل اللّقاء على ظاهره و هو الرّؤية فهو على مسلكه و مذهبه من أنّ اللّه تعالىٰ سيرى يوم القيامة برؤية البصر مذهب أكثر العامّة و قد أقيمت الدّلائل على بطلان الرّؤية في حقّه تعالى في الدّنيا و الأخرة عقلاً و نقلاً بما لا مزيد عليه كما سبق ذكره و بيانه و سيأتي البحث في هذا الباب بوجهٍ أبسط في موضعه إن شاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا قوله: **وَ رَضُوا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها** فمعناه أنّهم قَنعُوا بالحياة الدُّنيا عن الأخرة، و إطّمأنوا بها، أي ركنوا اليها على وجه التّمكين فيه و من كان على هذه الصّفة فهو مذموم لإنقطاعه بها عن الواجب من أمر اللّه.

و الوجه فيه هو أنّ الحياة الدّنيا فانية زائلة و الحياة بعد الموت باقية دائمة لا زوال فيها و لا شكّ أنّ الباقي خير من الفاني فمن رجَّح الفاني على الباقي فهو مذمومٌ.

ثانياً: أنّ الحياة الدُّنيوية محفوفة بالألام و الهموم و حياة الأخرّوية محفوفة بالسّرور لا ألم فيها و لا غمّ و لا همّ، فمن رجَّح المحفوفة بالهموم و الألام على المحفوفة بالسّرور و اللّذات فهو مذموم و اذا كان كذلك فكيف يطّمئن العاقل بما لا بقاء له و لا لذة فيه بل هو بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و يترك الحياة الدّائمة الّتي لا بلاء فيها و لا فناء و قد ذمّ اللّه تعالى الدّنيا و حياتها و مدح الأخرة و بقاءها في كثير من الأيات فتارةً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**[١].

١- أل عمران =١٨٥

و تارةً يعبّر عنها باللّهو واللّعب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا**(٢).

كما مدح الأخرة و الحياة فيها في كثير من الأيات أيضاً.

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَلدّارُ ٱلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ**(٣).

منها قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَتاعُ ٱلدُّنْيا قَلِيلٌ وَ ٱلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقىٰ**(۴).

منها قال اللّه تعالىٰ: **تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيا وَ ٱللّٰهُ يُرِيدُ ٱلْاٰخِرَةَ**(۵).

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَدارُ ٱلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ ٱلْمُتَّقِينَ**(۶).

منها قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ**(٧).

منها قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولىٰ**(٨).

و الأيات كثيرة جدّاً و اذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يرجّح العاقل الدّنيا علىٰ الأخرة و يطّمئن بها و يغفل عنها و هذا من الواضحات.

و أمّا قوله: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ اٰياتِنا غافِلُونَ** ففيه إشارة الىٰ الغافلين عن الأيات التّكوينية و التّشريعية الّتي تدلّ على وجود خالقها و أنّما ذكر هذا بعد قوله و رضوا بالحياة الدّنيا، لنكتة دقيقة و هى أنّ منشأ الغفلة عن الأيات و التدّبر فيها أنّما هو حبّ الدّنيا و إختيارها على الأخرة و الإطمئنان بها و من كان كذلك فلامحالة يكون غافلاً عن اللّه تعالى فضلاً عن أياته فأنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ و منشأ كلّ غفلةٍ و بالجملة فيه خسران الدّنيا و الأخرة أعذنا اللّه منه.

١- الأنعام =٣٢ ٢- الأنعام =٧٠
٣- الأنعام =٣٢ ۴- النّساء =٧٧
۵- الأنفال =۶٧ ۶- النّحل =٣٠
٧- الرّوم =٧ ٨- الضّحىٰ =۴

أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ ٱلنّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

قيل الكاف في أُولئك حرف الخطاب مثل الكاف في قولهم أنا ذاك و لهذا لم يجز تأكيده و لا البدل منه و أولاء مبنّي على الكسر لتًّضمنه معنى الإشارة الى المعرفة و يستعمل هؤلاء لما قرب، و أولئك لما بعد كما تقول في هذا للقريب و ذاك للبعيد لأنّ ما بعد يقتضي التّعريف بالخطاب.

و أمّا ما قرب يكفي فيه التّنبيه و المعنى أولئك الّذين تقدّم وصفهم في الآية السّابقة أعني بهم الذّين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدّنيا و غفلوا عن أياتنا، مأواهم النّار، أي مصيرهم اليها بما كانوا يكسبون، الباء للسَّبب أي بسبب ما كانوا يكسبون بأيديهم ففيه إشارة الى أنّهم بإختيارهم و إرادتهم و وقعوا فيما وقعوا فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد و من المعلوم أنّهم لو تابوا و رجعوا عمّا كانوا عليه يتوب اللّه عليهم و هو واضح.

إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِاِيمٰانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ ٱلنَّعِيمِ

لمّا بيَّن اللّه تعالىٰ فيما مضى أنّ مصير أولئك الى النّار بيَّن في هذه الآية أنّ مصير المؤمنين الى الجنّة، فقال: (أنّ الذّين أمنوا باللّه و برسوله و عملوا الصّالحات) و فيه إشارة الى أنّ الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالعمل الصّالح فهو مشروط به و هو الحقّ خلافاً للعامّة حيث لم يشترطوا فيه العمل و قالوا أنّه يتحقّق بمجرّد الإعتقاد و قد تكلَّمنا فيه سابقاً بما لا مزيد عليه و قلنا أنّ الآثار مترتّبة على الوجود الخارجي.

و أمّا الوجود الذّهني فلا يترتّب عليه شئ و الإيمان في الخارج يتحقّق بالعمل.

و أمّا قوله: **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِاِيمٰانِهِمْ** فالباء للسَّبب أي يرشدهم ربّهم بسبب إيمانهم فالإرشاد منه تعالى بمنزلة الجزاء على الإيمان و قيل وصفهم بالهداية

جزاءً على إيمانهم به تعالى و تقدير الكلام يهديهم ربّهم بإيمانهم الىٰ الجنّة و ذلك لأنّ قوله: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ** يدّل على ما ذكرناه و يوضحه قوله: **فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ و عليه** فالمعنى يهديهم ربّهم بسبب إيمانهم الىٰ الجنّة الّتي تجري من تحتها الأنهار الّتي فيها النّعيم يعني أنواع اللّذات و المنافع الّتي يتّنعمون بها فيها.

و قال صاحب الكشاف يهديهم ربّهم بإيمانهم، أي يسدّدهم بسبب إيمانهم للإستقامة على سلوك السّبيل المؤدّي الى الثّواب و لذلك جعل **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ** بياناً له و تفسيراً لأنّ التمسّك بسبب السّعادة كالوصول اليها و يجوز أن يريد يهديهم في الأخرة بنور إيمانهم الى طريق الجنّة انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف لا بأس به و يؤيده ما ورد في الأخبار الواردة عن أهل البيت مِن أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ يضّل الظّالمين يوم القيامة عن دار كرامته و يهدي أهل الإيمان و العمل الصّالح الىٰ جنّته كما قال تعالىٰ: **وَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ**(١).

و يفعل اللّه ما يشاء و قال عزّوجلّ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ.**

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ



لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ المؤمنين في جنّات النّعيم أشار في هذه الآية الىٰ دعاء المؤمنين للّه فيها و هو أنّهم يقولون، سبحانك اللّهم، معناه أنّا نسبّحك كقول القانت في دعاء القنوت اللّهم أيّاك نعبد و لك نصلّي و نسجد، هذا إذا قلنا بأنّ الدعّاء في قوله: **دَعْوَاهُمْ** نداء اللّه و يتحمل أن يكون

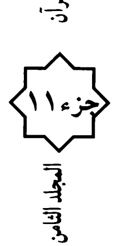
١- ابراهيم = ٢٧

الدّعاء بمعنى العبادة، كقوله تعالىٰ: **وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ**[1] أي ما تعبدون من دون اللّه و حيث لا تكليف في الجنّة فيكون ذلك على سبيل الإبتهاج و الإلتذاذ و أطلق عليه العبادة مجازاً أو أنّ عبادتهم فيها تسبيح و تحميد و قوله و تحيتهم فيها سلام.

قيل التَّحية مأخوذة من قولهم أحياك اللّه حياةً طيّبةً و المعنى تحيّة بعضهم لبعضٍ فيها سلامٌ، أي سلمت و آمنت ممّا إبتلىٰ به أهل النّار و آخر دعوايٰهم أي خاتمة دعوايٰهم فيها الحمد للّه ربّ العالمين.

و (أن) هي المُخفّفة من الثّقيلة و الميم في اللّهم بمعنىٰ، يا، كأنّه قال يا اللّه، و حَقٌّ لهم أن يختموا دعائهم بذلك لأنّهم إذا مرَّ بهم الطَّير يشتهونه قالوا سبحانك اللّهم، فيؤتون به فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا الحمد للّه ربّ العالمين.

■



١- مريم = ۴٨

وَ لَوْ يُعَجِّلُ ٱللّٰهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لٰا يَرْجُونَ لِقٰآءَنٰا فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿۱۱﴾ وَ إِذٰا مَسَّ ٱلْإِنْسٰانَ ٱلضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قٰاعِدًا أَوْ قٰآئِمًا فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰآ إِلٰى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿۱۲﴾ وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جٰآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿۱۳﴾ ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلٰآئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿۱۴﴾ وَ إِذٰا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ ٱلَّذِينَ لٰا يَرْجُونَ لِقٰآءَنٰا ٱئْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذٰآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مٰا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحٰىٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿۱۵﴾ قُلْ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لٰآ أَدْرٰيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِۦٓ أَفَلٰا تَعْقِلُونَ ﴿۱۶﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرٰى عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِاٰيٰاتِهِۦٓ إِنَّهُ لٰا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿۱۷﴾ وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَضُرُّهُمْ وَ لٰا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰٓؤُلٰآءِ شُفَعٰآؤُنٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللّٰهَ بِمٰا لٰا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ لٰا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحٰانَهُ وَ

تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَ مٰا كٰانَ ٱلنّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمٰا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَ يَقُولُونَ لَوْلاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

فِي طُغْيٰانِهِمْ، الطّغيان بضمّ الطّاء تجاوز الحدّ في العصيان.

يَعْمَهُونَ العمه التردّد في الأمر من التّحير.

ٱلضُّرُّ بضمّ الضّاد سوء الحال إمّا في نفسه و أمّا في بدنه.

لِجَنْبِهِ بفتح الجيم في الأصل الجارحة و جمعه جنوب.

خَلاٰئِفَ بفتح الخاء جمع خَليفة، و خُلفاء جمع خَليف.

◀ الإعراب

ٱلشَّرَّ مفعول يعجل و ٱسْتِعْجٰالَهُمْ تقديره تعجيلاً مثا إستعجالهم فحذف المصدر وصفة المضافة و أقيم المضاف اليه مقامهما و قيل هو منصوب بتقدير حرف الجرّ أي كأستعجالهم و هو بعيد إذ لو جاز ذلك لجاز زيد غلام عمرو أي كغلام عمرو فَنَذَرُ هو معطوف على فعلٍ محذوف تقديره و لكن نمهلهم فنذر لِجَنْبِهِ في موضع الحال أي دعاناًمضجعاً و مثله قٰاعِدًا أَوْ قٰائِمًاوقيل العامل في هذه الأحوال هو، مسّ، كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا في موضع الحال من الفاعل في، مرَّ، مِنْ قَبْلِكُمْ متّعلق بأهلكنا وليس بحالٍ من القرون لأنّه زمان و جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يجوز أن يكون حالاً أي و قد جاءتهم و يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ، ظلموا.

◀التّفسير

وَ لَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ

كلمة لَو شرّطية و جوابها، لقضي اليهم أجلهم و قرأ إبن عامر و يعقوب، لقضى اليهم، بفتح القاف و الباقون بضمّها على ما لم يسمّ فاعله، و الشَّر و الخير ضدّان، و الشَّر يقال لما يرغب عنه الكلّ كما أنّ الخير هو الّذي يَرغب فيه الكلّ فالجهل و الظّلم و الخيانة و الكذب و أمثالها شرور، و العلم و الأمانة و العدالة و الصِّدق و أمثالها خيرات، ثمّ أنّ الخير مطلق و هو أن يكون مرغوباً فيه بكلّ حالٍ و عند كلّ واحدٍ كما وصف عليه السّلام به الجنّة فقال لا خير بخير بعده النّار و لا شرّ بشَّرٍ بعد الجنّة و قد يكونان مقيّدان و هو أن يكون خيراً لواحدٍ و شرّاً لآخر كالمال الّذي ربمّا يكون خيراً لزيد و شرّاً لعمرو و لذلك وصفه اللّه تعالى بالأمرين فقال في موضع:

اَلْمَالُ وَ اَلْبَنُونَ زِينَةُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيَا[١].

و قال في موضع آخر.

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّمَآ أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى اَلْخَيْرَاتِ**[٣].

ثمّ أنّ الخير يقابل به الشّر مرّةً والضرّورة أخرىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**[٤]

إذا عرفت معنىٰ الخير و الشَّر فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية.

١- الكهف = ٤٦
٢- الانفال = ٢٨
٣- المؤمنون = ٥٥/٥٦
٤- الأنعام=١٧

وَ لَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ

قيل في معناه أي ما يدعون به مِن الشّر على أنفسهم و أولادهم في حال ضجرٍ و بطرٍ و شدّةٍ لو يعجّل اللّه تعالى لهم العقوبة كما يستعجلون الثّواب و الخير لماتوا و بعبارةٍ أخرىٰ دعاء الإنسان لا يخلو إمّا أن يدعو بخيرٍ و أمّا أن يدعو بشّرٍ في الحالين يطلب من اللّه الإجابة و لكنّ اللّه يؤّخر إجابة الشّر و يسرع في إجابة الخَير و ذلك لمصلحةٍ ذكرها في الآية و هو أنّه تعالى لو عَجَّل لهم العقوبة في دعاء الشّر كما يعجلّ في جانب الخير **لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ** و إنقضاء الأجل كنايةٌ عن الموت أي لو كان الإستعجال في المقامين علىٰ حدٍّ سواء لماتوا.

قال بعض المفسّرين أنّه خاّص بالكافر أي و لو يعجّل اللّه للكافر العذاب على كفره كما عجَّل له خير الدنيّا من المال و الولد لعجَّل له قضاء أجله ليتعجّل عذاب الأخرة.

و قال مقاتل هو قول النضّر بن الحارث: **اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ ٱلسَّمٰاءِ**[١] و قال مجاهد نزلت في الرّجل يدعوا على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب، اللّهم أهلكه، اللّهم لا تبارك له فيه و ألعنه أو نحو هذا فلو أستجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي اليهم أجلهم فالآية نزلت ذامّةً لخلقٍ ذميم هو في بعض النّاس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثمّ يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدّعاء في الشّر فلو عجلّ لهم لهلكوا.

قال بعضهم التعجيل من اللّه و الإستعجال من العبد.

و قال أبو علّي هما من اللّه و فى الكلام حذف أي و ليعجّل اللّه للنّاس الشّر تعجيلاً مثل إستعجالهم بالخير، ثمّ حذف تعجيلاً و أقام صفة مقامه ثمّ حذف

١- الأنفال=٣٢

صفة و أقام المضاف اليه مقامه **فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** معناه نترك الّذين لا يخافون لقاءنا أو لا يطمعون فيه بمعنى أنّهم لا يخافون عقاب معاصينا و لا يطمعون في ثواب طاعتنا في طغيانهم يعمهون، الطُّغيان الغُلو و تجاوز الحدّ في ظلم العباد و العمه الحيرة و التَّردد و المعنى نتركهم في طغيانهم يتَّحيرون و أنّما نتركهم ليتوبوا من ذلك

و قيل المعنى نتركهم في الأخرة يتَّحيرون في جزاء طغيانهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ

المَسّ بفتح الميم كاللَّمس وزناً و معنىً لكنّ اللَّمس قد يقال لطلب الشّئ و أن لم يوجد و المسّ يقال فيما معه إدراك بحاسّة اللَّمس و كنّي به عن النكاح.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ**(١).

وكنيّ به عن الجنون فى.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ**(٢).

والمسّ يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى

قال اللّه تعالىٰ: **مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَ ٱلضَّرَّآءُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**(٤).

والضُّر بضمّ الضّاد سوء الحال و هو إمّا في نفسه لقلّة العلم و الفضل و العفّة.

و إمّا في بدنه لعدم جارحةٍ أو نقصٍ منه.

و أمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّة مالٍ و جاهٍ و الضُّر في المقام محتمل للأقسام الثّلاثة.

١- البقرة=٢٣٧
٢- البقرة=٢٧٥
٣- البقرة=٢١۴
۴- القَمَر=۴٨

فقد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال الإنسان إذا ناله الضُّر أيٌّ ضرٍّ كان و عن قلّة صبره في المكروهات الواردة عليه سواء كان قائماً أو قاعداً إذا أطاقه أو على جنبه من شدّة المرض فهو في هذه الحالة يجتهد في الدعّاء فيدعو اللّه و يطلب منه العافية و أنّما غرضه في ذلك زوال ما هو فيه من الالام و ليس غرضه نيل الثّواب للأخرة فإذا كشف ذلك الضُّر و أعطاه العافية مرَّ معرضاً عن شكر ما وهبه اللّه من العافية و لا يتّذكر ما كان من الآلام و صار في ذلك بمنزلة من لم يدع اللّه كشف ألمه و لا سأله إزالة الضّرر عنه الّذي كان به **كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** و المزّين لهم هو الشّيطان أي أنّه زيَّن لهم أعمالهم السيّئة ،و إغواءهم بها و بترك شكر نعم اللّه الّذي يجب على المنعم عليه عقلاً و شرعاً.

و المقصود من الآية أنّه ينبغي لمن وهب اللّه له العافية بعد المرض أو الفقر أو مطلق الشّدة أن يتّذكر حسن صنع اللّه اليه فيشكره على ذلك فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و مع ذلك فيه تنبيهٌ على أنّه يجب عليه الصّبر في الشدّائد و الآلام و ترك الجزع عند إحتساب الأجر و طلب الثّواب في الصَّبر على ذلك و أن يعلم أنّ اللّه محسنٌ اليه بذلك و ليس بظالم له أعاننا اللّه عليه هذا كلّه بمقتضى ظاهر الآية بالنسبة الى الضُّعفاء و المتّوسطين من المؤمنين المؤمن الحقيقي الّذي وصل الى مقام الرّضا و التسليم فهو يعلم أنّ ما قدرّه اللّه له من الصحّة و المرض و الفقر و الغنّى و الشّدة و الرّخاء كلّ ذلك بمقتضى مصلحته و حكمته و أنّه لا يحبّ للعبد إلاّ ما هو خير له و أن كان العبد، جاهلاً له.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اَللّٰهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**[٢].

١- البقرة=٢١٦ ٢- النّساء=١٩

و محصّل الكلام أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعيّة و لا فرق في ذلك بين الأحكام الشرعيّة من الأوامر و النواهي و غيرها من المقدّرات المعلوم أنّ العلم بالمصالح و المفاسد مختص به تعالى.

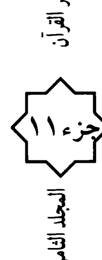
و أيضاً لا شكّ أنّ اللّه تعالى رؤوفٌ بعباده كما وصف نفسه بذلك في كثير من الأيات و إذا كان الأمر على هذا المنوال فهو بمقتضى علمه و رأفته لا يحكم بما فيه مفسدة في حقّ العبد كما أنّه لا يظلم عليه أبداً و عليه فكلّ ما أعطاه للعبد خيرٌ له قطعاً و أن كان في نظر العبد شرّاً و إذا كان العبد راضياً بحكمه تسليماً لقضاءه فقد يكون شاكراً له على كلّ حالٍ إلاّ أنّ هؤلاء الأخيار أعزّ من الكبريت الأحمر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِىَ ٱلشَّكُورُ**(١).

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ.

قيل اللاّم في قوله: **وَ لَقَدْ** للقسم و القُرُون بضمّ القاف جمع قرن بفتحها و سميّ أهل كلّ عصرٍ قرناً لمقارنة بعضهم لبعضٍ و القرن هو المقاوم لقرينه في الشدّة و الظُّلم وضع الشّئ في غير محلّه.

و أن شئت قلت هو التّجاوز عن الحدّ، أقسم اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أهلك من كان قبل هذه الأمّة من القرون و علّل ذلك بأنّهم ظلموا بعد ما جاءتهم الرسُّل من قبل اللّه اليهم بالبيِّنات من المعجزات و الكرامات الدالّة على صدق دعوايهم و فى قوله و ما كانوا ليؤمنوا، إشارة الى عنادهم و ثباتهم على ما كانوا عليه من الظّلم و قوله: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**(٢) إشارة الىٰ أنّ حكم الأمثال واحد أي أنّ الإهلاك لم يكن مختّصاً بهم بل هو ثابت لكلّ مجرمٍ



١- سبا = ١٣

٢- الانعام= ٨٤

ظالمٍ من أيّة أمّةٍ كان و ذلك لأنّ علّة الإهلاك هي ظلمهم بعد تماميّة الحجّة بواسطة الرسّل و هذه العلّة أينما وجدت يترتب عليها وجود المعلول الإهلاك و هو المطلوب.

فهذا تفسير ألفاظ الآية و أن شئت الإطّلاع على كيفيّة إهلاك القرون و سببه فعليك بمراجعة التّواريخ.

و قد أشار اللّه تعالى الى شطرٍ منه في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ اَلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عٰاداً اَلْأُولىٰ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّٰاهُمْ فِي اَلْأَرْضِ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثٰاثاً وَ رِءْياً**(۶).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ**(۷).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا أَشْيٰاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**(۸).

قال اللّه تعالىٰ: **فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ فَهِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا**(۹).

و الأيات كثيرة جدّاً.

۱- القصص=۷۸ ۲- النّجم=۵۰
۳- الأنعام=۶ ۴- الحجر=۴
۵- الإسراء=۱۷ ۶- مريم=۷۴
۷- مَريم=۹۸ ۸- القمر=۵۱
۹- الحج=۴۵

تَنبيهٌ

و أعلم أنّ المستفاد من الآية الشّريفة هو أنّ الظُّلم صار سبباً لإهلاك القرون كما هو الظّاهر منها و من المعلوم أنّه أعمّ من الكفر و لكن بعض المفسّرين أرادوا بالظّلم الكفر قال الزّمخشري و أنّ اللّه قد علم منهم أنّهم يصرّون على كفرهم و قال القرطبي، لمّا ظلموا أي كفروا و أشركوا.

و به قال الرّازي و غيره من مفسّري العامّة ولعلّ الوجه فيه هو أنّهم إستفادوا ذلك من قوله: **وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا** فعبّروا في كلماتهم عن عدم إيمانهم بالكفر و هذا كما ترى لا يساعد ظاهر الآية ولو كان المراد من الظُّلم أو عدم الإيمان هو الكفر فحقّ الكلام أن يقال فيه لمّا كفروا، بدل قوله: **لَمّٰا ظَلَمُوا**.

و أن يقال و ما كانوا ليسلموا بدل قوله: **لِيُؤْمِنُوا** ولم يقل ذلك و إذا كان كذلك فليت شعري ما الدّاعي لهم على حمل الكلام على خلاف ظاهره مع إمكان حمله على ظاهره هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ قول بعضهم أنّها نزلت في كفّار مكّة و أنّه تعالى كان يخوفهم من العذاب بتكذيبهم محمّداً صلّى الله عليه وآله، لا دليل عليه بل الآية باقية على عمومها و أنّها بصدد بيان حكم كلّي عَام و هو أنّ الأمم الماضية لما أهلكوا بسبب ظلمهم فكذلك هذه الأمّة لو سلكت مسلكهم و ظلموا يترتّب على ظلمهم العذاب و الإهلاك و هذا هو السِّر في نقل قصص القرآن فالملاك كلّ الملاك في الإهلاك هو الظُّلم بمعناه العّام الشّامل للكفر أيضاً بل قلنا أنّ الكافر العادل خارج عن مصداق الآية لا إشكال فيه إذ ليس كلّ كافرٍ ظالم على غيره نعم أنّه ظالم على نفسه و الآية ظاهرة في الظُّلم على الغير و كيف كان فحمل الآية على ظاهرها و هو الظُّلم بمعناه العّام هو المعتمد و المخالف يحتاج الى الدّليل و إذ ليس فليس و على ما أخترناه في تفسير الآية فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ حذَّر النّاس عن الظُّلم بل هددّهم عليه و أفاد أن مآل الأمّة الظّالمة بعد تماميّة الحجّة الى

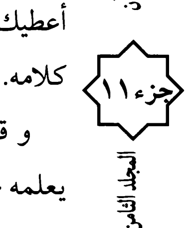
الهلاك و الفناء في الدنيّا و العذاب في الآخرة و هذا هو جزاء المجرم العاص لا غير، نعم في الآية موعظة و تذكير بأنّ حكم الأمثال واحد.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَآئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

قلنا أنّ الخلائف جمع خليفة و الخطاب في الآية لهذه الأمّة الإسلامية و كلمة، ثمّ تفيد التّأخير و المعنىٰ أنّا أخرّناكم عن القرون من قبلكم في الحياة الدّنيا و جعلناكم خلائف لهم في الأرض من بعد موتهم و هلاكهم بسبب ظلمهم لننظر كيف تعملون.

أن قيل كيف جاز النّظر على اللّه تعالى و فيه معنى المقابلة، يقال في الجواب هو مستعار للعلم المحقّق الّذي هو العلم بالشّئ موجوداً شبه بنظر النّاظر و عيان المعاين في تحقّقه قاله في الكشّاف.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** فيه دلالة لهم على أنّي أفعل بكم هذين، الثّواب أن أمنتم و أطعتم و العذاب أن كفرتم و عصيتم و إستعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله أهل اللّغة على هذا المعنى لأنّهم لا يعلمون ما يكون من المكلّفين و ما يفعل بهم من الثّواب و العقاب و هو عالمٌ بذلك و مثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الإنسان يقول القائل لغلامه الّذي يأمره، أنّي سأعاقبك و أضربك لأنظر كيف صبرك و أعطيك مالاً لأنظر كيف تعمل، و أن كان عالماً بما يؤل اليه الأمر في ذلك انتهىٰ كلامه.



و قال الأخر معناه ليقع منكم ما تستحّقون به من الثّواب و العقاب ولم يزل يعلمه غيباً، و قيل يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل.

و قيل النَّظر راجع الى الرّسل أي لينظر رسلنا و أولياءنا كيف أعمالكم، و كيف نصب بقوله تعملون لأنّ الإستفهام له صدر الكلام انتهى.

و قال الرّازي أنّه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله: **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** [١] و قد مرَّ نظائر هذا رسول اللّه ﷺ أنّ الدنيّا خضرة حلوة و أنّ اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون.

و قال قتادة صدق اللّه ربّنا ما جعلنا خلفاء إلاّ لينظر الى أعمالنا فأروا اللّه من أعمالكم خيراً باللّيل و النّهار انتهىٰ.

أقول فهذه أقوالهم في المسألة و أنا أقول:

النَّظر في الأصل تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشّئ و رؤيته و قد يراد به التّأمل و الفحص و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص و هو الرّؤية يقال نظرت فمل تنظر أي لم تتأمل و لم تتّرو فقوله تعالىٰ: **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰاتِ** [٢] أي تأمّلوا فيها و إستعمال النَّظر في البصر أكثر عند العامّة البصيرة أكثر عند الخاصّة، **فَمن الأوّل**:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا مَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ** [٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ أَغْرَقْنَآ اٰلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** [٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** [٥].

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** [٦].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** [٧] و غيرها من الأيات.

من الثّاني: أعني به إستعماله في البصيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** [٨].

أى أفلا يتّأملون في خلقها.



١- هود = ٧
٢- يونس = ١٠١
٣- التّوبة =١٢٧
٤- البقرة =٥٠
٥- البقرة =٥٥
٦- أل عمران =١٤٢
٧- الواقعة =٨٣/٨٤
٨- الغاشية =١٧

قال اللّه تعالىٰ: **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ, فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**[٣].

فهذه الأيات وأمثالهما ممّا أستعمل فيها بمعنى البصيرة و التّأمل في المنظور اليه اذا عرفت هذا و علمت أنّ النّظر يستعمل في لغة العرب في كلا المعنيين فنقول:

النّظر في حقّه تعالى الى عباده معناه إحسانه اليهم و إفاضة نعمه عليهم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُكَلِّمُهُمُ ٱللّٰهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **كَلّآ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**[٥].

معناه منع إحسانه اليهم أو عدم إعتناءه بهم و الحاصل هو أنّ نظر اللّه الى عباده هو كناية عن توّجه المعبود اليهم بنظر الرَّحمة و الرّأفة و العناية و عليه فيصير معنى الآية ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم أي من بعد القرون الّذين أهلكناهم لينظر كيف تعملون، يأ لتظهر أعمالكم من الخير و الشّر و هل تستحقّون بها الرّحمة أو العذاب ففيه إختبارٌ لهم ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و هو واضح.

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ ٱلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذٰآ أَوْ بَدِّلْهُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار اذا قرأ النّبي عليهم أيات اللّه و بيّناته قال الّذين لا يرجون لقاءنا، أي لقاء عذاب اللّه إن عصوه أو ثواب اللّه إن

١- الصّافات =٨٨/٨٩
٢- الأعراف =١٨٥
٣- يوسف =١٠٩
٤- آل عمران =٧٧
٥- المطفّفين =١٥

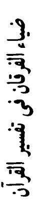
أطاعوه، أئت بقرآنٍ غير هذا الّذي تتلوه علينا، أو بدّله أي بدّل القرآن بغيره و التّبديل لا يكون إلاّ برفعه **قُلْ مٰا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحٰىٓ إِلَيَّ** أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار ليس لي أنّ أبدّله من تلقاء نفسي أي من جهة نفسي و ناحية نفسي، وليس لي أن أتّبع إلاّ الّذي يوحى إليَّ، و كلمة، ما، و كلمة، إن، للنّفي بمعنى ليس **إِنِّيٓ أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي** في إتّباع غيره **عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** يعني يوم القيامة.

قال بعضهم أنّ الآية تدلّ على أنّ نسخ القرآن بالسنّة لا يجوز لأنّه يوجب التّبديل و لم يعلم أنّ السنّة لا يقولها النّبي إلاّ بوحيٍ من اللّه لا من تلقاء نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ اَلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْيٌ يُوحىٰ**(١).

هذا تفسير ألفاظ الآية و فيها مسائل يجب التّنبيه عليها:

الأُولىٰ: لم قالوا أئت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله و ما الفرق بين المقامين، أقول أنّما قالوا ذلك لأنّ بعض الأيات كان مخالفاً لأميالهم و شهواتهم النفسانيّة مثل أية الرّباء و الزّنا و شرب الخمر و القمار و أمثال ذلك من الأيات الّتي نزلت في المحرّمات بل أكثر الواجبات مثل الصّوم و لا زكاة و الجهاد و غيرها و ذلك لأنّ النّاس عبيد الدنيّا و الدّين لثقٌ على ألسنتهم الخ.



و لمّا كان كذلك فقالوا ما قالوا و أمّا الفرق بين قولهم أئت بقرآنٍ غير هذا و قولهم بدّله، فهو أنّ الإتيان بغيره قد يكون معه و أمّا التّبديل فلا يكون إلاّ برفعه.



الثّانية: أنّ وصفهم بكونهم لا يرجون لقاء اللّه قيل أريد به كونهم مكذّبين بالحشر و النّشر منكرين للبعث و القيامة و لأنّ من لا يرجو لقاء ربّه معناه لا يرجو لقاء ما وعد الله من الثّواب و من كان كذلك لا يخاف أيضاً ما يوعده به من العقاب و بعبارةٍ أخرى من لا يرجو ثواب اللّه لا يخاف عقابه أيضاً و هو

١- النّجم =٤

كاشف عن إنكاره الحشر و النّشر و الثّواب و العقاب و جمع ذلك يرجع الى إنكار اللّه تعالى فثبت وتحقق أنّ الّذين لا يرجون لقاء اللّه هم الكفّار المنكرين للتّوحيد و النّبوة و المعاد.

الثّالثة: قوله: **قُلْ مٰا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** فيه إشارة الىٰ أنّ القرأن كلام اللّه تعالى لا كلام النّبي و لا كلام غيره من المخلوق و ذلك لأنّه لو كان من كلام النّبي لم يقل: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** فأنّ معنىٰ هذا الكلام هو أنّ النّبي كان تابعاً للوحي فيه

ومن المعلوم أنّ تبديل ما كان بالوحي لا يمكن إلاّ بالوحي و أمّا ما كان بغير وحيٍ فتبديله لا يحتاج اليه و حيث أنّه صلى الله عليه وآله قال: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيَّ** نكشف عنه أنّ القرأن كلام اللّه و قد أوحى اللّه تعالى به الى نبيّه و هو المطلوب. و يدلّ على ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمٰآ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰٓ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(٦) والأيات كثيرة.

١- النّجم =٤
٢- يوسف =٣
٣- يونس =١٠٩
٤- الكهف =١١٠
٥- طه =١٣
٦- سورة الزّخرف أية ٤٣

الرّابعة: قوله **إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** فيه إشارة الىٰ أنّ التّصرف في كلام اللّه من تلقاء النّفس معصية و العاصي يعذّب غداً يوم القيامة و هو كذلك و لا فرق في ذلك بيّن النّبي و غيره من أحاد النّاس فأنّ المعصية معصية سواء صدرت عن النّبي أو صدرت من غيره بل هي منه أعظم و عذابه أشدّ و اذا كان النّبي ﷺ و هو يقول: **إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** و ما ظنّك بمن سواه كائناً من كان و يستفاد من مجموع ما ذكرناه في تفسير الآية وجوب حفظ الأيات عن التّحريف و التّغير بأيّ نحوٍ كان و حتّى التّحرز عن تفسيرها بالرّأي لأنّه أيضاً داخل في التّغير و التّبديل بل هو الأصل فيهما فأنّ اللّفظ يجب مراعاته تحفظاً على المعنى و إلاّ فهو مع قطع النّظر عن المعنى ليس بشئٍ و لذلك قال رسول اللّه ﷺ من فسّر القرأن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار.

قُلْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَآ أَدْرَىٰكُمْ بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الّذين يقولون كذا و كذا لو شاء اللّه ما أرسلني اليكم فتلوت عليكم القرأن و لا أدريكم به أي أعلمكم اللّه و لا أخبركم به فقد لبثت فيكم عمراً، و هو أربعون سنة من قبله أي من قبل أن أبعث أو من قبل أن أتلو عليكم الأيات أفلا تعقلون.

روي أنّ قريشاً قالت لرسول اللّه ﷺ إئتنا بقرأنٍ غير هذا فأنّ هذا شئٌ تعلّمته من اليهود و النّصارى قال اللّه عزّ وجلّ: **قُلْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ** أي قد لَبثتُ فيكم أربعين سنة قبل أن يوحى إليّ لم أتكم بشئٍ منه حتّى أوحي اللّه إليّ به، و في قوله: **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** إشارة الىٰ نكتة دقيقةٍ و هى أنّ المنكرين و الكفّار زعموا أنّ القرأن ليس من عند اللّه و لا هو كلامه بل هو من كلام الرّسول و قد تعلّمه من اليهود و النّصارى و لذلك قالوا له

انت بقرآنٍ غير هذا أو بدلّه، فأمر اللّه تعالى رسوله أن يقول لهم ليس لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلاّ ما يوحى الخ.

و حيث أنّهم لم يقنعوا بهذا الجواب أمره اللّه تعالى ثانياً أن يقول لهم.

قُلْ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰيكُمْ بِهِ

أي أنّي تلوته عليكم بمشيّئة اللّه و إرادته فقد لبثت فيكم عمراً أفلا تعقلون، أي أنّكم عرفتموني في مدّة أربعين سنة و علمتم أنّي ما طالعت كتاباً و لا رأيت أستاذاً و لا تعلّمت من أحدٍ ثمّ بعد مضيّ أربعين سنة جئتكم بهذا الكتاب الّذي يشتمل على نفائس الأصول و دقائق الأحكام و لطائف علم الأخلاق و بالجملة جميع ما يحتاج اليه البشر في الدنيّا و الأخرة و قد عجز عن معارضته العلماء و الخطباء و الفصحاء.

و العاقل لا يشكّ أنّ مثل هذا لا يحصل إلاّ بالوحي إذ لو كان من كلام البشر لما عجز عن معارضته البلغاء هذا كلّه مضافاً الى أنّكم ما سمعتم في مدّة أرعين سنة منّي كذباً و لا رأيتم منّي خيانة.

فكيف تزعمون أنّ الكتاب من إختلاقي و إفتعالي، أفلا تعقلون،قوله: **أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ** على سبيل الإستفهام الإنكاري دلالة على عنادهم ولجاجهم كما هو دأب كثيرٍ من أبناء الدّنيا و المغرورين بها فأنّهم اذا رأوا شيئاً مخالفاً لمقاصدهم و أمالهم أنكروه اذ لا حرب لهم في قتالهم مع الحقّ إلاّ الإنكار.

و الدّليل على ذلك هو قوله تعالى حكايةً من أهل الكتاب.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰآءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ**(۲).

۱- البقرة =۱۴۶ ۲- النّحل =۸۳

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**[١] و غيرها من الأيات.

فقوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ليس علىٰ سبيل الإستفهام الحقيقي لعلم الرّسول بأنّ المنكرين كانوا من عقلاء زمانهم و لكنّ العقل اذا صار مقهوراً مغلوباً للشّهوات وهو كالعدم أعاذنا اللّه منه.

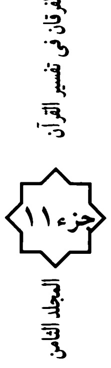
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ.

قوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ** كلمة مَن إستفهامية و المراد هنا الإستعظام و الإخبار به أي أنّه لا أحد أظلم ممّن إخترع كلاماً أو خبراً ثمّ أضافه الى اللّه و يريد به النّبي نفسه لو كان فعل أو كذّب بأياته و هم الكفّار و المكذّبون لأنّهم كذّبوا بأياته.

و من المعلوم أنّه لا يفلح المجرمون، و هذه الآية ناظرة الى الآية السّابقة فقوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا** ناظرٌ الىٰ النّبي و قوله أو كذّب بأياته الخ الىٰ الكفّار المنكرين.

و تقريره هو أنّكم أيّها الكفّار تقولون أنّ القرأن ليس من عند اللّه فالنّبي إفترى على اللّه كذباً حيث قال أنّه من عند اللّه و يلزم من ذلك أن يكون النّبي من أظلم النّاس لإفتراءه على اللّه و لا يقول به عاقل.

و أمّا أنتم فلتكذيبكم أيات اللّه تعدّون من المجرمين و المجرم لا يفلح و بعبارة أخرى من أظلم من المفتري على اللّه و من المكذّب أيات اللّه و لمّا كان الإفتراء من أقبح الظّلم و لا سيّما الإفتراء على اللّه فالنّبي صلّى اللّه عليه وآله منزّهٌ عنه فما قاله النّبي لكم حقّ لا مرية فيه و أمّا التّكذيب لأيات اللّه فهو ثابت لكم فأنتم من المجرمين الذّين لا يفلحون و أنّما قال لا أحد أظلم ممّن هذه صفة لأنّه ظلم كفرٍ و هو أعظم من ظلم غيره من أقسام الظّلم.



١- البقرة =٨٩

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاۤؤُنٰا عِنْدَ اَللّٰهِ

العبوديّة إظهار التّذلل و العبادة أبلغ منها لأنّها غاية التّذلل و لا يستّحقها إلاّ من له غاية الإفضال و هو اللّه تعالى و العبادة ضربان:

عبادةٌ بالتّسخير و عبادة بالإختيار و هى لذوي النُّطق و هى المأمور بها في الدّين و ما نحن فيه من هذا القبيل فقوله: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ** يعني يعبدونه بالإختيار و الإرادة.

و العبادة بهذا المعنى يتّرتب عليها الثّواب أو العقاب فأن كانت له تعالى يثاب فاعلها و أن كانت لغيره يعاقب عليها و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار يعبدون بإختيارهم من دون اللّه من الأصنام و الأوثان التّي لا تضُّر و لا تنفع لهم بمعنى أنّ وجودها كالعدم و ما كان كذلك لا ينبغي أن يعبد.

إن قلت كيف يصحّ ذمّهم على عبادة الوثن الّذي لا يضُّر و لا ينفع مع أنّه لو نفع و ضرّ أيضاً لم تجز عبادته.

قلت اذا كان من يضُّر و ينفع قد لا يستّحق العبادة اذا لم يقدر على أصول النِّعم فمن لا يقدر على النَّفع و الضَّر أبعد من أن يستّحق العبادة، هكذا قال بعض المفسّرين.

إن قلت الأصنام و الأوثان بل وكلّ ما يعبد من دون اللّه و إن لا ينفع إلاّ أنّه يضُّر لأنّه يوجب العذاب في الأخرة و يضيع العمر في الدنيّا و أيَّ ضرّرٍ أعظم من خسران الدنيّا و الأخرة و اذا كان كذلك فما معنى قوله تعالىٰ: **لاٰ يَضُرُّهُمْ**.

قلت أنّ عابد الوثن مثلاً أنّما يستَّضر بعبادته من جهة العبادة و بعباةٍرِ أخرى الإستضرار من جهة عبادته إيّاه لا من جهة الوثن لأنّه جماد و لا يعقل النّفع و الضّر من ناحيته و أمّا قوله: **وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاۤؤُنٰا** معناه أنّا نعبُد الأصنام لتشفع لنا عند اللّه و لم يعلموا أنّ الجماد لا يشفع فأنّ الشّفيع لا يكون إلاّ عاقلاً و هو ظاهر و كيف يشفع ما لا يضُّر و لا ينفع.



قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

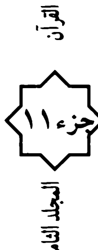
أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم أتنبّئون أى أتخبرون اللّه بما لا يعلم من حسن عبادة الأوثان و كونها شافعة لأنّ ذلك لو كان صحيحاً لكان اللّه به عالماً و لمّا نفى العلم بذلك نفى المعلوم سبحانه و تعالى عمّا يشركون تنزّيهً منه تعالى لنفسه و تنزّيهً من أن يُعبَد مَعه إله أو يتّخذ من دونه معبود و زبعبارةٍ أخرى أتخبرون اللّه أنّ له شريكاً في ملكه أو شفيعاً بغير إذنه و اللّه تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً في السّموات و الأرض لأنّه لا شريك له فلذلك لا يعلمه لأنّ نفي المعلوم يستلزم نفي العلم كما يقال أنّ اللّه تعالى لا يعلم لنفسه شريكاً معناه أنّه لا شريك له و فيه دلالة على أنّ العلم لا يتّعلق بالمعدوم.

وَ مَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

الأمّة الجماعة التّي على معنى واحد في خلق أو ما يستمّر على عبادته بالظّاهر فعلى هذا النّاس أمّة و الطّير أمّة قيل و المراد هاهنا أنّها كانت على دينٍ واحدٍ ثمّ أنّهم إختلفوا في الدّين الّذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الإختلاف بينهم على أقوالٍ.



فقيل أنّهم كانوا على الشّرك لقوله تعالى: **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ**(۱) و قيل أراد بذلك العرب الّذين كانوا قبل مَبعث النبي صلى الله عليه و آله فأنّهم كانوا مشركين فلّما بعث النّبي آمن به قومٌ و كفر به آخرون، و قيل أنّهم كانوا على الإسلام في عهد آدم و ولده و أختلفوا عند قتل أحد بنيه الإبن الثّاني.



۱- البقرة =۲۱۳

وقيل أنّهم كانوا على الكفر و أنكره قومٌ بدليل قوله تعالىٰ: **فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً**[1] فلو كانوا على الكفر لما كان فيهم شهيد أصلاً هذه الأقوال نقله الشّيخ في التّبيان.

وقال صاحب الكشّاف و ما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدة، أي حنفاء متفقين على ملّةٍ واحدة من غير أن يختلفوا بينهم و ذلك في عهد آدم الى أن قتل قابيل هابيل.

و قيل بعد الطّوفان حين لم يذر اللّه من الكافرين ديّاراً.

و قيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام الى أن غيّره عمرو بن لحى و على هذا القول فالمراد بقوله: **وَ ما كانَ النّاسُ إِلاّٰ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** العرب خاصة.

أقول الأقوال المذكورة و غيرها ممّا هو مسطور في التّفاسير على نمطٍ واحدٍ و هو أنّهم كانوا على الإيمان فأختلفوا أو على الكفر فأختلفوا فآمن بعضٌ و كفر بعض و هذا هو حاصل الأقوال المذكورة لكن لا يساعده العقل و النّقل.

أمّا العقل فلأنّ المقصود من الأمّة أعني بها الجماعة هو جماعة النّاس ممّا لا خلاف فيه بينهم و لا يعقل أن تكون الأمّة جميعاً على الكفر بعد ما ثبت وتحقّق أنّ الأمّة في كلّ عصرٍ و زمانٍ لا تخلوا من حجّةٍ لقوله عليه السلام **لولا الحُجّة لَساخت الأرض بأهلها**، و لا على الإيمان لأنّ الشّيطان كان موجوداً في جميع الأزمنة بعد خلق البشر و كان له أتباعاً و أعواناً لا محالة قّل أو كثر فالحّق أنّ الأمّة من بدو الخلق الى زماننا هذا كان بعضهم كافر أو بعضهم مؤمناً فحمل الآية أعني قوله: **وَ ما كانَ النّاسُ إِلاّٰ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** علىٰ أحد الشّقين من الكفر و الإيمان دون الآخر ترجيح من غير مرجّح و هو خلاف العقل.

١- النّساء =٤١

و أمّا النّقل فلأنّ الآثار و الأخبار و التّواريخ حاكية عن أنّ النّاس في كلّ عصر كانوا بين مؤمنٍ و كافر ولم نر فيها ما يدلّ على أنّهم كانوا في برهةٍ من الزّمان على الكُفر فقط أو على محض الإيمان و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلابّد لنا من حمل الكلام على معنى آخر غير ما ذكروه و الّذي يختلج بالبال هو أن يكون المراد و ما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدة بحسب الفطرة الأوليّة و هى التّوحيد فأختلفوا، أي فأختلفوا في الدنيّا بعد ماكانوا مخلوقين عليها بسبب الشّيطان و النّفس الأمّارة بالسُّوء و يؤيّد هذا الإحتمال قوله صلى الله عليه وآله كلّ مولودٍ يولد على الفطرة و إنّما أبواه يهودانه و ينصرانه و يمجّسانه، و نعبّر عن الكفر بالفطرة الثّانوية و هذا الّذي ذكرناه و أحتملناه يؤيدّه العقل السليم و ذلك لأنّ اللّه تعالى بمقتضى عدله لا يخلق مخلوقاً على الكفر ثمّ يعاقبه على كفره في القيامة ضرورة أنّ المخلوق على الكفر لا يصلح للإيمان و هذا ظلمٌ قبيح و لأجل ذلك لا نقول بالجبر و نحكم بكفر من يقول به و اذا لم يخلق على الكفر فلا محالة يخلق على ضّده لعدم الواسطة بين الكفر و الإيمان و اذا كان كذلك فمنشأ الإختلاف في العقائد هو الأسباب الخارجيّة الّتي كانت ما ناحية الخلق لا من ناحية الخالق فقوله: **فَاخْتَلَفُوا** حيث أنّه تعالى نسب الإختلاف اليهم دليل على كونه منهم لا منه تعالى.

و أمّا قوله: **وَ لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمْا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** فالمراد بها المشيّئة أي لولا أنّ مشيّئة الحّق سبقت من ربّك قبل إيجادهم بإختيارهم في دار الدنيّا و أنّها دار عملٍ و لا حساب لقضي بينهم فيما فيه يختلفون، أي لجعلهم مثل الملائكة، و يتحمل أن يكون المعنى لقضي بينهم في دار الدنيّا بتعجيل الحساب العقاب، و قيل أنّ المراد بالكلمة في الآية هو التكليف الّذي كلّفهم اللّه به في دار الدنيّا و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه و محّصل الكلام هو أنّ المصلحة أوجبت الإختيار و تأخير العذاب و هذا ما

فهمناه من الآية و لا ندّعي أنّه حّق فأنّ كلام الخالق لا يفهمه إلاّ من خوطب به و هو النّبي صلى الله عليه وآله و عترته و الحمد للّه ربّ العالمين.

وَ يَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ.

أي يقولون هؤلاء الكفّار هلاّ أنزل عليه أي على محمّدٍ صلى الله عليه وآله آية قيل أراد بها ما يضطّرهم الى المعرفة بحيث لا يحتاجون معها الى النّظر و الإستدلال و لم يطلبوا معجزة يستدلّ بها على صدقه و ذلك لأنّه قد كان أتاهم بالمعجزات الّتي تدلّ على صدقه و بعبارةٍ أخرى كانوا يقولون هلاّ أنزل عليه آية أي معجزة غير ما أتى به فيجعل لنا الجبال ذهباً و يحيي لنا من مات من آبائنا و قال الضّحاك عصا كعصا موسىٰ و امثال ذلك.

قال الزّمخشري في الكشّاف أرادوا آية من الآيات الّتي كانوا يقترحونها و كانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة الّتي لم ينزّل على أحدٍ من الأنبياء مثلها و كفى بالقرآن وحده آية باقيةٍ على وجه الدّهر بديعةً غريبةً في الآيات الى آخر ما قال.

أقول و الّذي يظهر من كلماتهم حول الآية هو أنّ الكفار أرادوا بذلك نزول آية خاصة من قبل اللّه تعالى دالّة على نبّوته سوى ما أنزل عليه من المعجزات و الكرامات أن قلنا أنّ المراد بها الأيات التّكوينية و سوى ما أنزل عليه من الأيات القرآنيّة إن قلنا بأنّ المراد بهما الأيات التشريعيّة.

و أمّا قوله: **فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ** أي هو المختّص بعلم الغيب المستأثر به و لا علم لي و لا لأحدٍ به يعني أنّ الصّارف عن إنزال الأيات المقترحة أمرٌ مغيب لا يعلمه إلاّ هو.

أن قلت لم لم ينزل اللّه تعالى عليهم أيةٌ و هم طلبوها.

قلتُ لأنّه تعالى كان عالماً بعنادهم و كذبهم و أنّهم لا يقبلونها كما لم يقبلوا الأيات النّازلة قبل ذلك فقوله: **فَانْتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْـمُنْتَظِرِينَ** أي فإنتظروا نزول ما إقترحتموه أنّي معكم من المنتظرين، لما يفعل اللّه بكم لعنادكم و جحودكم الأيات قيل سلّط اللّه القحط على أهل مكّة سبع سنين حتّى كادوا يهكلون ثمّ رحمهم فلمّا رحمهم طفقوا يطعنون في أيات اللّه و يعادون رسول اللّه صلّى الله عليه وآله.

■



وَ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنْجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَ ٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ٱزَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَ ٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

◀اللّغة

أَذَقْنَا، الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل.

ضَرَّآءَ بفتح الضّاد يقابل بالسّراء و النَّعماء.

مَكْرٌ، المَكر بفتح الميم مصدر و هو صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ.

ٱلْفُلْكِ بضّم الفاء و سكون اللاّم السَّفينة و يستعمل للواحد و الجمع.

رِيحٌ عَاصِفٌ أي كاسر.

يَبْغُونَ البغي التَّعدي و الخروج عن الحدّ.

زُخْرُفَهَا، الزُّخُرف بضّم الزّاء الزّينة المزَّوقة و منه قيل للذّهب زخرف.

حَصِيدًا أصل الحصد قطع الزّرع.

يَرْهَقُ يقال رهقه الأمر أي غشيه بقهرٍ.

قَتَرٌ، القَتَر تقليل النَّفقة و هو بإزاء الإسراف.

◀الإعراب

وَ إِذَآ أَذَقْنَا جواب، إذا، الأولى (إذا الثانيّة) الثانيّة للمفاجأة والعامل في الثّانية الإستقرار الّذي في لَهُمْ و قيل اذا الثّانية زمانيّة و هى و ما بعدها جواب الأولى إِذَا هُمْ جواب لما و هى للمفاجأة بَغْيُكُمْ مبتدأ و فى الخبر وجهان:

أحدهما: عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ و على متّعلقة بمحذوف أي كائن لا بالمصدر لأنّ الخبر لا يتعلّق بالمبتدأ مَتَاعَ خبر مبتدأ محذوف أي هو متاع، أو خبر بعد خبر و قيل أنّ الخبر متاع، و على أنفسكم متعلّق بالمصدر و يقرأ متاع بالنَّصب فعلى هذا، على أنفسكم خبر المبتدأ و متاع منصوب على المصدر أي يمتّعكم بذلك متاع.

و قيل هو مفعول به و العامل فيه، بغيكم و يكون البغي بمعنى الطَّلب أي طلبكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيّا فعلى هذا على أنفسكم ليس بخبر لأنّ

المصدر لا يعمل فميا بعد خبره بل على أنفسكم متعلق بالمصدر و الخبر محذوف تقديره طلبكم متاع الحياة الدنيّا ضلالٌ و يقرأ متاع، بالجرّ على أنّه نعتٌ للأنفس و التّقدير ذوات متاع **فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** الباء للسَّبب أي إختلط النّبات بسبب إتّصال الماء به **مِمَّا يَأْكُلُ** حال من النَّبات **وَ ازَّيَّنَتْ** أصله تزَّينت **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** المسّ يراد به هنا الماضي لا حقيقة أمس الّذي قبل يومك و اذا أريد به ذلك كان معرباً و كان بلا ألف و لام و إضافة نكرة **وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ** الجملة مستأنفة و يجوز أن يكون حالاً و العامل فيه الإستقرار فى الّذين و لا يجوز أن يكون معطوفاً علىٰ الحسنى لأنّ الفعل اذا عطف على المصدر إحتاج الى أن، ذكراً أو تقديراً و هو غير مقدرة لأنّ الفعل مرفوع.

◄التّفسير

وَ إِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا

قلنا في شرح اللّغات أنّ الذَّوق وجود الطَّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل اذا عرفت هذا فنقول:

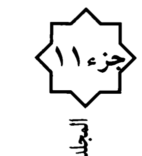
أنّ لفظ الذَّوق قد يستعمل في العذاب و هو الأكثر و قد يستعمل في الرّحمة و هو الأقل كلّ ذلك على سبيل المجاز و الإستعارة.

فَمِن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَذَاقَهُمُ اللّهُ الْخِزْيَ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُرِدْ فيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَليمٍ**[٣].



١- الأنفال =١۴ ٢- الزّمر =٢۶

٣- الحجّ =٢۵

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذابًا كَبِيرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذابًا شَدِيدًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ ٱلسَّعِيرِ**[٣] من الأيات الكثيرة.

من الثّانى: أعني به إستعماله في الرّحمة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذآ أَذَقْنَا ٱلنّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّآ إِذآ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْمآءَ بَعْدَ ضَرّآءَ مَسَّتْهُ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**[٧].

و غيرها من الأيات ثمّ أنّه تعالىٰ أخبر في هذه الآية بأنّه اذا أذاق النّاس يعني الكافرين رحمةً من بعد ضرّاء أي بعد شدّةٍ كانوا فيها من جدبٍ و ضيقٍ نالتهم مكروا في أياتنا و قوله: **مَسَّتْهُمْ** إشارة الى الأذى لأنّ المَس يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا**[٨].

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِذا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّآ إِيّاهُ**[٩].

و كيف كان ففي الآية إشارة الى أنّ الإنسان كفورٌ بنعمة ربّه فاذا كان في الشّدة يدعو ربّه و يتّضرع اليه و اذا خلص منها و صار مشمولاً لرحمة ربّه نسي ما كان فيه فلا يحمده و لا يشكره و هذا لا يختّص بالكافر فتخصيص الآية

١- الفرقان =١٩
٢- فُصلّت =٢٧
٣- سبأ =١٢
٤- الرّوم =٣٦
٥- الشّورىٰ =٤٨
٦- هُود =١٠
٧- سورة الرّوم أية ٤٦
٨- الأنبياء =٤٦
٩- الإسراء =٦٧

بالكفّار لا وجه له بل الآية شاملة للكافر و المسلم و من إستَّدل في تخصيصها بالكافر بقوله: **إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا** و المسلم لا يمكر في أيات اللّه فقد أخطأ و ذلك لأنّ الأيات في الباب كثيرة و لا يمكن لنا حملها على الكفّار ظاهر و لتوضيح ذلك نقول:

المكر على ما قاله في المفردات هو صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ ضربان مكرٌ محمود و ذلك يتّحرى بذلك فعل جميل، و مذموم و هو أن يتَّحرى به فعل قبيح انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و عليه فالمكر المذموم من العبد لا يختّص بالكفّار فأنّ أكثر المسلمين متَّصفون به فقوله تعالى إذا لهم مكرٌ في أياتنا معناه إذاً للنّاس مكرٌ في أياتنا فأنّ الضّمير في لهم، يرجع الى النّاس في صدر الآية و العجب أنّ اللّه تعالى قال: **وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ** ولم يقل و إذا أذقنا الكفّار و مع ذلك قال المفسّرون أنّ الآية ناظرة الى الكفّار و لعلّ نظرهم الى أنّها نزلت فيهم لا أنّ المعنى يختّص بهم قلنا مراراً أنّ خصوص المورد في النّزول لا ينافي عمومه بحسب المعنىٰ.

قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا المكر من اللّه تعالى إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدّنيا و الى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **من وُسّع عَليه دُنياه ولَم يَعلم أنّه مُكِرَ به فهو مخدُوعٌ عن عقله**، و يتحمل أن يكون المراد بمكر اللّه في الآية هو القسم الممدوح منه و بمكر النّاس المذموم منه فالمعنى في قوله: **إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا** أنّهم بعد خروجهم عن الشّدة التّي كانوا فيها يتَّشبثون بأقسام الحيل المذمومة لدفع أيات اللّه و إنكارها.

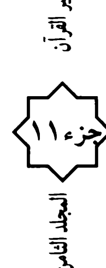
و قيل مكرهم إستهزاء هم و تكذيبهم لها، و أمّا قوله: **قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا** أي أسرع إمهالاً أو أسرع أن يفعل بهم ما يليق بمكرهم و قوله: **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** معناه أنّا نعلم ما تمكرون و فيه دلالة على أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ و المراد بالرُّسل هاهنا هو الملائكة المعبّر عنهم بالكرام الكاتبين.

قال بعض المفسّرين أنّما سمّي جزاء المكر مكراً لأنّهم اذا نالهم العذاب على مكرهم لا يحتسبونه و لا يتّوقعونه فكأنّه مكر بهم هذا تفسير الآية على ما يقتضيه الظّاهر و اللّه أعلم بمراده.

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ البحر في الأصل يقال لكلّ مكانٍ واسع جامعٍ للماء الكثير ثمّ أنّهم سمّوا كلّ متّوسعٍ في شئٍ بحراً حتّى قالوا فرسٌ بحر بإعتبار سعة جريه و يقال للمتّوسع في علمه بحرٌ و التّبحر في العلم التّوسع و المراد منه في الآية هو معناه الأصلي أعني به الماء الكثير بدليل مقابلته للبّر، و السّير بفتح السّين و سكون الياء المضّي في الأرض و مرجع الضّمير في، هو، اللّه تعالى و المعنى أنّ اللّه تعالى هو الّذي يسيّركم في البّر و البحر، أي أقدركم على السّير فيهما.

حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ و هو السّفينة و يستعمل للواحد و الجمع و المراد به هاهنا الجمع بدليل قوله: **وَ جَرَيْنَ بِهِمْ** فأنّ الضّمير في جرين للفلك لأنّه جمع فلك كالأسد و أسد و فى قوله: **وَ جَرَيْنَ بِهِمْ** ألخ عدول عن الخطاب الى الغيبة تصّرفاً في الكلام مع أنّه خطاب لمن كان في تلك الحال و العدول عن الخطاب الى الغيبة و بالعكس من محسّنات فنّ البلاغة، و المعنى اذا ركبتم السَّفينة و هى تجري على الماء و جرين بهم أي بمن ركب السَّفينة ريحاً طيّبة معتدلة ثمّ جاءتها ريحٌ عاصفٌ شديد و جاءهم الموج من كلّ مكانٍ و ظنّوا أي أيقنوا أنّه أي الموج أحيط بهم.



و قيل أي ظنّوا أنّهم هالكون لما أحاط بهم الأمواج ففي هذه الحالة دعوا اللّه مخلصين له الدّين أي يدعوهم على وجه الإخلاص و لم يذكروا الأوثان و

الأصنام لعلمهم بأنّها لا تنفع هاهنا شيئاً و قالوا **لئن أنجَيتنا** من هذه الورطة لنكونَّن من الشّاكرين لك فلمّا أنجاهم اللّه منها كفروا بربّهم و لم يشكروا له.

ومحصّل الكلام في الآية هو أنّ كفران النّعمة من أقبح الظُّلم و لا يليق بمن يدّعي العقل أن يكون كذلك لأنّه قسمٌ من العناد و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله **فَلَمَّآ أَنْجيٰهُمْ إِذاٰ هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** أي فلمّا أنجاهم اللّه عمّا كانوا فيه من الشّدة و المحنة أعرضوا عن شكره تعالى بل سلكوا مسلك الطّغيان و الخلاف و عادوا الى البغي و هو الإستعلاء بالظُّلم بغير الحقّ.

قيل أي بالتّكذيب و الأولى أن يقال أي بالباطل و ذلك لعدم الواسطة بين الحقّ و الباطل فما ليس بحقٍّ فهو باطل و البغي في الأصل الطّلب أي يطلبون الإستعلا بالفساد بغير الحقّ.

قال بعض المفسّرين، إن قيل فما معنى قوله: **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** و البغي لا يكون بحقٍّ أبداً.

قلنا البغي قد يكون بالحقّ و هو إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة و هدم دورهم و إحرق زورعهم و قطع أشجارهم كما فعل رسول اللّه ﷺ ببني قريظة إنتهى كلامه و أنا أقول في كلامه نظر.

أمّا أوّلاً: فلأنّ إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّىٰ من البغي بل هو من الغلبة على العدّو و كلّ غلبةٍ لا يسمّى بغياً لأنّ البغي على ما عرَّفوه طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتّحرى تجاوزه يقال بغيت الشَّئ إذا طلبت أكثر ما يجب و بعبارةٍ أخرى البغي هو أن يطلب الباغي ما ليس من حقّه فأن طلب الحقّ و وصل إليه بسبب الإستيلاء على الظّالم، لا يكون باغياً لأنّه إستولى على الظّالم أو غيره و أخذ حقّه منه فظهر أنّ مجّرد إستيلاء المسلمين على أرض الكفرة لا يسمّى بغياً.

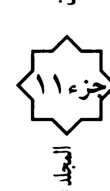
ثانياً: هدم دورهم و إحراق زروعهم و قطع أشجارهم لم يثبت في الأخبار المعتبرة و أنّما نقله المؤرّخون في بعض التّواريخ و نحن لا نعتمد عليه و على فرض ثبوته فهو ليس من البغي بل هو من الظُّلم و الظُّلم لا يكون بحقٍّ أبداً و أيّ ذنبٍ للدُّور و الزّروع و الأشجار حتّى يحكم بإفنائها و إحراقها و شخريها.

و إن شئت قلت الجماد و النَّبات لا ذنب لهما و أنّما الذّنب لصاحب الجماد و النَّبات و لا تزر وازرةٌ وزر أخرى و قد قال رسول اللّه ﷺ **أطلُب النَّصر بالجَور و عليه** فكيف حكم بهدم دورهم و إحراق زروعهم و قطع أشجارهم لأجل الوصول إلى المقصد و الهدف و هو الغلبة على العدُو و محصّل الكلام هو أنّ قبح البغي و الظُّلم و الكذب و الخيانة و أمثالها عقلّيٌ و أحكام العقل غير قابلةٍ للتّخصيص و التّقييد هذا مضافاً الى أنّ الإسلام دين الرّأفة و الرّحمة و العطوفة و رسول الإسلام نبّي الرَّحمة و هذه المنقولات لا يعتمد عليها بل لا يبعد أن تكون من الإسرائيليات لتضعيف الإسلام و أنّه دين الخشونة و الغلظة و إذا كان كذلك فقول الرّازي أنّه من البغي بالحّق لا معنى له لأنّ البغي لا يكون بحّقٍ أصلاً.



قلت فما معنىٰ قوله يبغون في الأرض بغير الحّق.

قلت معناه إنّهم بعد النّجاة عن الشّدة الّتي كانوا فيها كانت و ظيفتهم الشُّكر بمقتضى العقل فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً، و الخلاص من الشّدة و المحنة من أعظم النّعم إلاّ أنّهم بدّلوا الشّكر بالبغي فبغوا في الأرض و هذا العمل منهم كان باطلاً عاطلاً يحكم بفساده العقل و النّقل فقوله بغير الحقّ معناه بطلان البغي كأنّه قيل البغي في الأرض يكون بغير الحقّ و لا يكون بحقّ أصلاً.



قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقْتُلُونَ اَلنَّبِيّنَ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ**[١] معناه أنّ قتل النّبي لايكون بحقٍّ و قد يكون بغير الحقّ، و أنّما وقعوا في هذا الإشتباه لأنّهم زعموا أنّ

١- البقرة =٦١

مفهوم قوله: **يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** أنّه قد يكون البغي بالحقّ ولم يعلموا أنّ هذا الكلام لا مفهوم له ألا ترى أنّ قوله تعالىٰ: **فَلَا تَقُلْ لَهُمَآ أُفٍّ**(١) لا مفهوم له فلا يقال نهي اللّه عن الأف و أمّا غيره من الضّرب و الشّتم لا إشكال فيه هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن بغيهم بعد النّجاة من الشّدة (فإذا بغىٰ) هذا الكلام أنّ البغي يرجع إليهم لا إلى غيرهم فقال أنّما بغيكم على أنفسكم و تصدير الكلام بكلمة، أنّما، التّي تفيد الحصر يدلّ على ما ذكره بطريق الإنحصار و المقصود من البغي تبعاته و ما يترتب عليه من خسران الدنيّا و الأخرة.

و أمّا قوله: **مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** فقد قرأه حفص بنصب العين في، متاع، على المصدر و قرأ الباقون برفع العين بأنّه خبر المبتدأ أعني به قوله: **بَغْيُكُمْ** أي بغيكم متاع الحياة الدنيّا، و يمكن أن يكون البغي مبتدأ، و قوله على خبره و رفع متاع على الحياة الدنيّا و الرّفع هو الأشهر و عليه المصاحف و عليه فالمعنى و أنّما بغيكم على أنفسكم هو متاع الحياة الدنيّا أو ذلك متاع الحياة الدنيّا أي حبّكم للدنيّا صار سبباً للبغي أو متاع الحياة الدنيّا صار سبباً له أو أنّ البغي عبارة عن متاع الحياة الدنيّا و كيف كان فالكلام يدلّ على أنّ الباغي لا يريد إلاّ الدنيّا و متاعها و هو كذلك لأنّ الباغي لا يريد ببغيه الأخرة و الوصول إلى درجاتها بل يريد الدنيّا و زخارفها و البقاء فيها و محصّل الكلام هو أنّ الوزر و الوبال في كلّ عملٍ فاسدٍ يرجع إلى صاحبه كما أنّ الثّواب في كلّ عملٍ صالح يرجع إليه فأنّ الجزاء يتّرتب على نفس العمل إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً.

١- الاسرا = ٢٣

و هذا الحكم لا يختّص بالبغي بل هو حكمٌ كلّي عامّ يشمل جميع الأعمال.

قال اللّٰه تعالىٰ: **مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**(١).

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**(٢).

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ مَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ**(٣).

قال اللّٰه تعالىٰ: **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**(٤).

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ**(٥) والأيات كثيرة.

ولأجل ذلك.

قال اللّٰه تعالىٰ: **مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**(٦).

قال اللّٰه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**(٧).

و هذا ممّا لا كلام فيه و الذّي ينبغي التّوجه إليه هو أنّ منشأ جميع المعاصي هو حبّ الدنيّا و الرّكون إليها و الإعتماد عليها إذ لم يعص اللّه أحدٌ و لن يعصيه أحدٌ إلى أخر الدنيّا لأجل الأخرة و لذلك قال متاع الحياة الدنيّا.

قال رسول اللّه ﷺ **حُبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة.**

و أمّا قوله: **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ** الخ ففيه إشارة إلى أنّ الدنيّا فانية و الحياة فيها غير دائمة و التّنعم بمتاعها زائلة داثرة و الموت ممّا لابّد منه لكلّ مخلوق و

١- الإسراء =١٥
٢- القمان=١٢
٣- الفاطر= ١٨
٤- الأنعام = ١٠٤
٥- النّساء =١١١
٦- فصّلت = ٤٦
٧- الأنفال =٥١،آل عمران =١٨٢

الرّجوع إلى اللّه الّذي خلقنا و أوجدنا قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٓا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** ولا مَفَّر لأحدٍ من ذلك.

قال اللّٰه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ اَلْمَوْتَ اَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1].

قال اللّٰه تعالىٰ: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْفِرٰارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ اَلْمَوْتِ أَوِ اَلْقَتْلِ**[2].

و الحاصل أنّكم تطلبون بالبغي التّمتع في الحياة الدنيّا ثمّ بعد ذلك ترجعون إلىٰ اللّه بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ما عملتموه و ما استحققتم به من أنواع العقاب كلّ ذلك بما كسبت أيديكم في دار الدنيّا فإعتبروا يا أولي الأبصار.

إِنَّمٰا مَثَلُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا كَمٰآءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ اَلسَّمٰآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ اَلْأَرْضِ مِمّٰا يَأْكُلُ اَلنّٰاسُ وَ اَلْأَنْعٰامُ

إعلم أنّه تعالى شبّه الحياة الدُّنيا بماءٍ أنزله من السّماء و وجه الشّبه في التّشبيه هاهنا هو المصير إلى الزّوال في النبّات و الدُّنيا فكما أنّ مصير النّبات المختلط بالماء إلى الزّوال لأنّه ممّا يأكله النّاس و الأنعام فكذلك الدنيّا مصيرها إلى الزّوال، و قيل شبّه الحياة الدنيّا بالماء فيما يكون به الإنتفاع ثمّ الإنقطاع.

ثالث الأقوال: أنّه شبّه الحياة الدنيّا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف و قال صاحب الكشّاف شبّهت حال الدنيّا في سرعة تقضيّها و إنقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه و ذهابه حطاماً بعد ما إلتّف و تكاثف و زيَّن الأرض بخضرته و رفيفه، فإختلط به، أي فإشتبك بسببه حتّى خالط بعضه بعضاً **أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ اَزَّيَّنَتْ** كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التّمثيل بالعروس إذا أخذت الثّياب الفاخرة من كلّ لونٍ فإكتستها و تزّينت بغيرها من ألوان الزّين و أصل، إزيّنت، تزيّنت فأدغم و بالأصل قرأ

١- الجمعة =٨ ٢- الأحزاب =١٦

عبد الله وَ **ظَنَّ أَهْلُهٰآ أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَيْهٰآ** أي و ظنَّ أهل الدنيّا أنّهم متمكّنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لعلّتها **أَتيٰهٰآ أَمْرُنٰا لَيْلًا أَوْ نَهٰارًا فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِيدًا** شبيهاً بما يحصد من الزّرع في قطعه و إستئصاله **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** أي كأن لم يغن زرعها أي لم ينبت إنتهىٰ كلام صاحب الكشّاف.

و أنا أقول لاشكّ أنّ في الكلام تشبيهاً بدليل قوله: **كَمٰآءٍ أَنْزَلْنٰاهُ** فأنّ الكاف من أداة التشبيه يقال زيد كالأسد و هو معلوم، و لا شكّ أيضاً أنّ الدُّنيا و الحياة فيها مشّبه و الماء المختلط به نبات الأرض الخ مشّبه به و هذا ممّا لا خلاف فيه بين المفسّرين و أنّما الخلاف في وجه الشُّبه و قد ذكروا فيه وجوهاً كثيرة منها ما ذكرناه.

و منها، ما ذكره بعضهم و هو أنّ عاقبة الدنيّا كعاقبة هذا النّبات في تحقّق اليأس بعد الرّجاء.

و منها، أنّ الزَّرع عاقبته غير محمودة فكذلك الدنيّا.

و منها، كما أنّ السَّعي في هذا الزّراع باطل بسبب حدوث الأسباب المهلكة فكذلك سعي المغترّ بالدنيّا.

و منها، أنّ مالك الزّرع بعد فنائه يعرض له العناء الشّديد في حصول الزّرع فلمّا صار الزّرع في معرض الزّوال يحصل في قلبه حسرات فكذلك طالب الدنيّا حال موته يحصل في قلبه حسرات.

أقول ما ذكروه في وجه الشبه يرجع إلى أصلٍ واحدٍ و هو عدم البقاء و الدّوام و ما لا بقاء له لا يعتمد عليه العاقل و إن شئت قلت كما أنّ نضارة الزّرع و لطافته و حسن منظره لا بقاء له كذلك الدنيا و ما فيها من المال و الأولاد و الجاه و غيرها و هذا أمرٌ محسوس لا يشكّ فيه أحد.

قال بعضهم إيّاك و الإغترار بالدنيّا و الرّكون إليها فأنّ أمانتها كاذبة و آمالها خائبة و عيشها نكد وصفوها كدر و أنت على حظرٍ، إمّا بليّةٍ نازلة و إمّا مصيبةٍ موجعة و إمّا منيّةٍ مفجعة و ما كان كذلك كيف يعتمد عليه و لنعم ما قيل.



تنافس في الدنيّا و نحن نعيبها وقد حذّرتناها لعمري خطوبها
وما نحسب السّاعات نقطع مدّة علىٰ أنّها فينا سريع ربيبها
كأنّي برهطي يحملون جنازتي إلى حفرةٍ يحشى علّي كثيبها
و باكيةٍ حرّى تنوح و إنّني على غفلةٍ من صوتها لا أجيبها
أيا هادم اللّذات مامنك مهربُ يحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفسٍ ونفسي سيأتي بعد ذاك نصيبها

فقوله تعالىٰ: **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** أي حسنها و زينّتها و الزّخرف كمال حسن الشّئ و منه قيل للذّهب زخرف **وَ ٱزَّيَّنَتْ** أي و إزيّنت الأرض بالحبوب و الثّمار و الأزهار **وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ** أي يظنّ أهل الدنيّا **أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ** أي على حصادها و الإنتفاع بها **أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا** أي أمرنا بهلاك الزّرع **لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا** أي محصودة مقطوعة و لذلك لم يؤنّث لأنّه فعيل بمعنى مفعول **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** أي كأن لم تكن عامرة **كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** أي كذلك نبيّن الأيات لقومٍ يتّفكرون و يعتّبرون بها فهذا تفسير ألفاظ الأية.

وَ ٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ حياة الدنيّا محفوفة بالأفات و البليّات و مع ذلك لا دوام لها و لا بقاء، ذكر في هذه الآية وصف الأخرة و الحياة فيها و بيّن أنّها دار السّلام لسلامتها عن الأفات و الحوادث و البلّيات و المصائب فقال تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ** أي يفعل الألطاف التّي تدعوهم إلى طريق الحقّ.

و قيل معناه الأخذ بهم في الأخرة إلى طريق الجنّة و قال أبو علّي يريد به نصب الأدلّة لجميع المكلّفين دون الأطفال و المجانين و أمّا الإستقامة فهي المرور في جهةٍ تؤدّي إلى البغية.

و إعلم أنّ الدّعوة هي طلب الفعل بما يقع لأجله و الدّاعي إلى الفعل خلاف الصّارف عنه و الفرق بين الأمر و الدُّعاء أنّ في الأمر ترغيباً في الفعل و زجراً عن تركه و له صيغة تنبئ عنه و الدّعاء وليس كذلك وكلاهما طلب و أيضاً الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة و الدّعاء يقتضي أن يكون فوقه.

قال في المفردات السَّلم و السّلامة التَّعري من الأفات الظّاهرة و الباطنة و لذلك أنّ السّلامة بمعناها الواقعي لا توجد في الدنيّا و هى في الحقيقة ليست إلاّ في الجنَّة إذ فيها بقاء بلا فناء و غنى بلا فقر و عزٌّ بلا ذلّ و صحّةٌ بلا سقم، و هذه الأمور كلّها من مختّصات الدّنيا إذ فيها بقاء مع الفناء و غنى مع الفقر و عزّ مع الذلّ و صحّة مع السُّقم و ماكان كذلك فهو دار الأفات لا دار السّلام و من المعلوم أنّ اللّه تعالى لا يدعوا الى دار الأفات و الشُّرور بل يدعوا الى دار السّلام.

و قال بعضهم السَّلام هو اللّه تعالى فقوله: **دَارِ ٱلسَّلَامِ** أي دار اللّه ليست إلاّ الجنّة و أمّا قوله: **وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فالهداية منه تعالى ليست إلاّ الألطاف الّتي تدعوهم الى طريق الحقّ.

و قيل هي نصب الأدلّة لجميع المكلّفين دون الأطفال و المجانين.

و أعلم أنّ الهداية في الأصل دلالة بلطفٍ ومنه الهدية و هو ادي الوحش أي متّقدماتها الهادية لغيرها و أمّا هداية اللّه تعالى للإنسان على ما قيل على أربعة أوجه:

الأوّل: الهداية الّتي عمَّ بجنسها كلّ مكلّفٍ من العقل و الفطنة و المعارف الضرورية الّتي أعمَّ منها كلّ شئ بقدرٍ فيه حسب إحتماله.

قال اللّه تعالىٰ: **ربّنا الّذى أعْطىٰ كلَّ شئٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ**[١].

١- طه=٥٠

الثّانى: الهداية الّتي جعل للنّاس بدعاءه أيّاهم على ألسنة الأنبياء و إنزال القرآن و نحو ذلك و هو المقصود:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا**[١].

الثّالث: التّوفيق الّذي يختّص به من إهتدىٰ و هو المعنّى.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى وَ اٰتيٰهُمْ تَقْوٰيهُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَه**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**[٥].

الرّابع: الهداية في الأخرة الى الجنّة:

قال اللّه تعالىٰ: **سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهارُ وَ قالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي هَدٰينا لِهٰذا**[٧].

إذا عرفت معنى الهداية و أقسامها فقد علمت أنّ قوله: **يَهْدِي مَنْ يَشآءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ** من القسم الثّالث أعني به التّوفيق الشّامل للعبد من قبل اللّه تعالى يوفّق من يشاء الى صراطٍ مستقيم و الصّراط المستقيم ليست إلاّ صراط أهل البيت وطريقهم في الدّين و الدنيّا.

روي الحافظ الحسكاني و هو من أعيان علماء العّامة في كتابه المسّمىٰ بشواهد التّنزيل بأسناده عن عبد اللّه بن عبّاس في تفسير قوله تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يَدْعُوٓا إِلىٰ دارِ ٱلسَّلامِ** يعني به الجنّة، و يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم يعني به ولاية علّي بن أبي طالب عليه السلام.

١- الأنبياء=٧٣
٢- محمّد=١٧
٣- التّغابن=١١
٤- يُونس=٩
٥- العنكبوت=٦٩
٦- محمّد=٥
٧- الأعراف=٤٣

و أيضاً بأسناده عن فضيل بن الزُّبير قال قال زيد بن علّي في هذه الآية: **وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** قال الى ولاية علّي بن أبى طالب عليه السلام.

و في المناقب عن تفسير وكيع بن الجرّاح عن سفيان الثّوري عن السُّدي عن أسباط عن مجاهد عن عبد اللّه بن عبّاس في قوله: **اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ**.

قال قولوا معاشر العباد أرشدنا الى حبّ النّبي و أهل بيته انتهى

و عن تفسير الثّعلبي و كتاب إبن شاهين عن رجاله عن مسلم بن حيّان عن بريدة في قوله: **اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ** قال صراط محمّدٍ و آله و الأحاديث كثيرة.

و أمّا عندنا فهو من المسلّمات و لا نحتاج الى نقل الأخبار الواردة في الباب لوضوح المطلب و لنعم ما قال الحميري:

و أنت صراطه الهادي اليه   و غيرك ما ينجّي الماسكينا

و قال آخر:

إما في صراط اللّه منهاج قصده   إذا ضلّ من أخطأ الصواب عن السُّبل

و قال:

علّيٌ ذا صراط هدى   فطوبى لمن اليه هدى

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالىٰ: **وَ اَبْتَغُوا إِلَيْهِ اَلْوَسِيلَةَ**[1] أنا وسيلته.

و قال الحميري:

سمّاه جبّار السّماء   صراط حقٍّ فسما
فقال في الذّكر وما   كان حديثاً يفترى
هذا صراطي فأتبعوا   وعنهم لا تخدعوا

١- المائدة = ٣٥

فـــخالفوا مـــا ســمعوا والخـلف مـمّن شـرعوا
و إجــتمعوا و إتّــفقوا و عــاهدوا ثــمّ إلتـقوا
إن مـات عـنهم و بـقوا أن يـهدموا مـا قـد بـنوا

قال النبي صلّى الله عليه وآله مَن أحبَّ أن يتمسّك بالعروة الوثقى فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب، اللّهم إجعلنا من المتمسّكين بحبّه و ولايته آمين.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

الإحسان يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: الأنعام علىٰ الغير يقال أحسن الىٰ فلان أي أنعم عليه.

الثّاني: إحسان في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل حسناً و الىٰ هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **النّاس أبناء ما يُحسنون**، أي منسوبون الى ما يعملون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة و الإحسان أعمّ من الأنعام و هو فوق العدل و ذلك لأنّ العدل هو أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له، و الإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل فتَّحري العدل واجب و تّحري الإحسان ندبٌ و تطّوع.

و أمّا **الحُسنىٰ** بضمّ الحاء فهي ضدّ السوأي يقال أحسن اليه كما يقال أساء اليه و قيل أنّها العاقبة الحسنة.

و قيل هي من أسماء اللّه كالكريم و الرّحيم و قيل هي الجنّة.

و قوله: **وَ لَا يَرْهَقُ** يقال رهقه الأمر غشيه بقهرٍ، أي لا يغشى وجوههم قتر.

و قيل معناه يلحق و منه قيل غلامٌ مراهق إذا لحق بالرّجال.

و قيل معناه، يعلو و الكلّ متقارب، و قوله: **قَتَرٌ** بفتح القاف و التّاء أي غبار و معنىٰ الآية أنّ للّذين يفعلون الحسن من الطّاعات التّي أمرهم اللّه بها جزاء على ذلك الحسنى، و هى الجنّة و لذّاتها و قيل جامعة المحاسن من السُّرور و

اللّذات على أفضل ما يكون و هى تأنيث الأحسن، و زيـادة، أي و لهـم زيـادة التّفضل عـلى قـدر المستّحق عـلى طـاعاتهم مـن الثّـواب و هـى المـضاعفة المذكورة في قوله تعالىٰ: **فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها**[١].

و عن أبي جعفرعليه السلام أنّه قال المراد بالزّيادة مـا أعـطاهم اللّـه فـي الدنـيّا لا يحاسبهم به في الأخرة.

و أمّا قوله: **وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ** قالوا معناه لا يلحق وجوهم غبارٌ و لا ذلّة و هى صغر النّفس بالإهانة و الذِّلة نقيض العزّة **أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** أي هؤلاء الّذين أحسنوا الخ.

أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ ففيه إخبار بأنّ الّذين وصفهم اللّه أصحاب الجنّة على وجه الخلود فيها و لا زوال لذلك عنهم.

و أعلم أنّ المفسّرين إخـتلفوا فـي مـعنى الحسـنى، و زيـادة فـقال بـعضهم الحسنى، الجنّة و قوله زيادة أي ما يزيد عـلى المـثوبة تـفضّلاً لقـوله تـعالىٰ: **وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**[٢] و قيل الزّيادة غرفة من لؤلؤةٍ واحدة.

و قال الطّبري، الحسنى عامّ في كلّ حسن فهو يعمّ جميع ما قيل و وعد اللّه في جميعها بالزيّادة و يؤيد ذلك قوله: **أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ** ولو كان معنى الحسنى الجنّة لكان في القول تكرير في المعنى.

و قال مجاهد الزيّادة مغفرة من اللّه و رضوان، و قالت المـجبّرة و المشـبّهة أنّ الزّيادة النَّظر الى وجه اللّه و الحقّ ما ذكرناه.

■



١- الأنعام=١٦٠ ٢- النساء = ١٧٣

وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَآ أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَيٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيٓ

إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

◀اللّغة

تَرْهَقُهُمْ أي تلحقهم و قد مرّ أنّ الرَّهق لحاق الأمر.

عَاصِمٍ أي حافظٍ أو مانعٍ.

قِطَعًا بفتح الطّاء و سكونها و هما لغتان هو بعض الليل تقول أتيته لقطعٍ من اللّيل أي ساعةٍ منه.

فَزَيَّلْنَا هو من قولهم زلت الشّيء عن مكانه أزيله و زيَّلنا للكثرة من هذا اذا نحيّته عن مكانه و زايلت فلاناً اذا فارقته و قيل هو مأخوذ من زال يزول غلط.

تَبْلُوا من البلاء أي تختبر و قد قرأ بالتّاء من التّلاوة.

تُؤْفَكُونَ أي تصرفون عن الحقّ و الإفك الكذب

◀الإعراب

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا مبتدأ و فى الخبر وجهان:

أحدهما: هو قوله: **مَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** أو قوله: **كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ** أو قوله **أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ** الخ و يكون جزاء سيّئة بمثلها، معترضاً بين المبتدأ و خبره.

ثانيهما: أنّ الخبر حزاء سيّئةٍ و جزاء مبتدأ و الخبر بمثلها والباء زائدة و قيل الباء متّعلقة بجزاء و الخبر محذوف أي و جزاء سيّئةٍ بمثلها واقعٌ و **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** هو معطوف على كسبوا، و هو ضعيف لأنّ المستقبل لا يعطف على الماضى.

و قيل الجملة حال قطعاً بكسر القاف و فتح الطّاء جمع قطعة و هو مفعول ثان لأغشيت وَمِنَ ٱلَّيْلِ صفة لقطع ومُظْلِمًا حال من اللّيل، و أمّا على قول من قرأ بسكون الطّاء فيكون مظلماً صفة لقطع أو حالاً منه أو حالاً من الضمير في، من، أو حالاً من اللّيل مَكَانَكُمْ هو ظرف مبنّي لوقوعه موقع الأمر أي ألزموا و فيه ضمير فاعل و أنتم، توكيد له والكاف والميم في موضع الجرّ عند قوم و للخطاب عند أخرين و شركاءكم، عطف على الفاعل لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا في موضع المصدر أي إغناء و يجوز أن يكون مفعولاً، ليغني و من الحقّ حال منه.

◀التّفسير

لمّا ذكر اللّه تعالى فيما مضى ما أعدّه للّذين أحسنوا و حالهم يوم القيامة و أنّ مألهم الى الجنّة ذكر في هذه الآية ما أعدّه للعصاة و بيَّن حالهم و مآلهم في القيامة فقال تعالىٰ: وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا السّيئات جمع سيّئة و هى الفعلة القبيحة كما أنّ الحسنة هي الفعلة الممدوحة عقلاً و شرعاً.

و قيل أنّ الحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسُّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السّيئة تضّادها.

قال الرّاغب في المفردات الحسنة و السَّيئة ضربان:

أحدهما: بحسب إعتبار العقل و الشّرع:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**(٢).

ثانيهما: بحسب إعتبار الطّبع و ذلك ما يستَّخفه الطّبع و ما يستثقله.

١- الانعام = ١٦٠
٢- الانعام = ١٦٠

قال اللّٰه تعالىٰ: **فَإِذا جاءَتهُمُ الحَسَنَةُ قالُوا لَنا هٰذِهِ وَ إِن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَن مَعَهُ**[١].

قال اللّٰه تعالىٰ: **ثُمَّ بَدَّلنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ**[٢].

قال اللّٰه تعالىٰ: **إِنَّ الخِزيَ اليَومَ وَ السُّوءَ عَلَى الكافِرِينَ**[٣] انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

و إعلم أنّ الكسب فعل يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر و قد يكتسب الإنسان الحسنة و قد يكتسب السّيئة ولهذا لا يوصف اللّه تعالى بالكسب و ذلك لأنّ جلب المنفعة أو دفع المضَّرة لا يعقل في حقّه تعالى لأنّه لا ينتفع بشئ كما لا يستَّضر به و أمّا الإنسان فليس كذلك لفقره و ضعفه فقوله: **وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ** إشارة الىٰ أنّ الإنسان قد يكسب السّيئات بإختياره و إرادته فأنّ الكسب لا يكون إلاّ كذلك و لازم ذلك أنّه يقدر على تركه أيضاً اذ لو لم يقدر على تركه لا يقدر على فعله أيضاً و المفروض أنّه قادر عليه فهو قادر على تركه و ليس هذا إلاّ لكونه مختاراً في الفعل وتركه فثبت و تحقق أنّ كسب السَّيئات و الحسنات تحت قدرة العبد و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثلِها** يعني قدر ما يستحقّ عليها من غير زيادةٍ كما هو مقتضي العدل فأنّ الزّيادة على قدر المستحقّ من العقاب ظلمٌ و ليس كذلك الزيّادة على قدر المستحقّ من الثّواب لأنّ ذلك تفضُّل يحسن فعله إبتلاءً و على هذا فالمثل في الآية المراد به هو مقدار المستحقّ من غير زيادةٍ نقصانٍ لأنّ الزيّادة على قدر الإستحقاق في السّيئات توجب الظّلم القبيح عليه تعالى مضافاً الى أنّه تعالى لو فعله ليطل الوعد والوعيد و التَّرهيب و التّحذير لأنّ الثِّقة بذلك أنّما تحصل اذا ثبت حكمته تعالى و لو فعل الظّلم

١- الاعراف = ١٣١ ٢- الاعراف = ٩٥
٣- النحل = ٢٧

لبطلت حكمته تعالى عن ذلك علّوا كبيراً و الىٰ هذه الدقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **جَزٰآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهٰا**.

قال في الحسنات فله عشر أمثالها **وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** أي يلحقهم هوانٌ في أنفسهم **مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ** أي ليس لهم مانعٌ من عقاب اللّه فهو الّذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و فيه إشارة الى عموم قدرته تعالى و ضعف ما سواه كائناً ما كان فلو كان هناك مانعٌ من عذاب الله يمنعه منه فهو أقدر منه تعالى و هو خلاف الفرض و أنّه على كلّ شئٍ قدير.

كَأَنَّمٰآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اَللَّيْلِ مُظْلِمًا شبّه اللّه تعالىٰ سواد وجوههم بقطع من اللّيل المظلم و ذلك لمّا ألبست وجوههم السّواد و قال كأنّما أغشيت وجوههم ولمّا كانت ظلمة اللّيل نهاية في السّواد شبّه سواد وجوههم بقطع من اللّيل حال إشتّداد ظلمته فالمشبَّه به في الحسّ أقوى من المشبَّه فثبت التَّشبيه.

قال الرّازي و اعلم أنّ حكماء الإسلام قالوا المراد من هذا السّواد المذكور هاهنا سواد الجهل و ظلمة الضّلالة فأنّ العلم طبعه طبع النُّور والجهل طبعه طبع الظُّلمة فقوله: **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضٰاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**(١) المراد منه نور العلم و روحه و بشره و بشارته و قوله: **وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهٰا غَبَرَةٌ،تَرْهَقُهٰا قَتَرَةٌ**(٢) المراد منه ظلمة الجهل و كدورة الضّلالة انتهى كلامه.

أقول ليت شعري ما الذّي دعاه الى حمل كلام اللّه على هذه التّأويلات السَّخيفة في هذا المقام و غيره من الموارد في تفسيره و أي ربطٍ بين ما ذكره نقلاً عن الفلاسفة و بين الآية الشريفة و ليس في الآية ذكر من السّواد أصلاً.

و أنّما قال تعالى كأنّما أغشيت وجوههم الظلمة هذا أوّلاً و أمّا ثانياً فقوله فأنّ العلم طبعه طبع النُّور و الجهل طبعه طبع الظلمة فكأنّه أراد به أنّ الآية

١- عبس = ٣٨/٣٩ ٢- عبس = ٤٠/٤١

نزلت في الجهّال و المراد بالظّلمة ظلمة الجهل أي أنّ الّذين أغشيت وجوههم معناه أغشيت وجوههم بظلمة الجهل و هذا كلامٌ فاسد فأنّ الآية الشّريفة بصدد بيان حال العصاة لقوله تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** و لا فرق في هذا الحكم بين العالم و الجاهل بل هو في حقّ العالم أشدّ منه في حقّ الجاهل كما تظافرت به الرّوايات من العامّة و الخاصّة و محصّل الكلام هو أنّ حمل الظلمة على ظلمة الجهل لا دليل عليه و لا يساعده سياق الآية و قد ظهر بذلك أنّ الآية تشمل جميع العصاة ممّن يكسب السيئة و لا إختصاص لها بالكفار كما قال بعضهم و إحتَّج على مدعاه بأنّ سواد الوجه من علامات الكفر و ذلك لأنّ سواد الوجه من علائم المعصية من أيّ شخصٍ صدرت كافراً كان أو مسلماً و إختصاصه بالكفر لا دليل عليه بل نقول أنّ المنافق المسلم أسود وجهاً من الكافر.

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يوم يحشر الخلائق أجمعين و الحشر هو الجمع من كلّ أوب الى الموقف و أنّما يقومون من قبورهم الى أرض الموقف هكذا قيل و هو كذلك فأنّ قوله جميعاً يدلّ على أنّ الحشر للجميع من المسلم و المؤمن و الكافر و المنافق و غيرهم حتّى الوحوش:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ**(١).

والطُّيور:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ**(٢).



قال الرّاغب في المفردات الحشر إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها و يقال ذلك في الإنسان و فى غيره و لا يقال الحشر إلاّ في الجماعة انتهى كلامه.

١- التّكوير =۵ ٢- ص =١٩

قال الرّازي المسألة الأولى، إعلم أنّ هذا نوعٌ أخر من شرح فضائح أولئك الكفّار فالضمير في قوله: **وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ** عائد الى المذكور السّابق و ذلك هو قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** فلمّا وصف اللّه هؤلاء الذّين يحشرهم بالشّرك و الكفر دلّ على أنّ المراد من قوله و ٱلَّذين كسبوا ٱلسَّيئات الكفّار.

و حاصل الكلام أنّه تعالى يحشر العابد و المعبود ثمّ أنّ المعبود يتّبرأ من العابد الخ.

و أنا أقول الحقّ أنّ الضّمير في قوله: **نَحْشُرُهُمْ** يرجع الى الجميع من الّذين أحسنوا الحسنى و الّذين كسبوا السّيئات و ذلك لأنّ اللّه تعالى قد أشار فيما مضيو الى الفريقين فقال للّذين أحسنوا الحسنى الخ.

ثمّ قال والين كسبوا السّيئات عليهم كذا و كذا ثمّ قال بعد ذلك نحشرهم جميعاً فقوله: **جَمِيعًا** معناه جميع المحسنين و جميع العصاة و هذا هو الّذي يقتضيه سياق الآية و نظم الكلام و هو ظاهر على المتّأمل فيها و عليه فتَّخصيص الضمير بأحدى الفريقين دون الأخر لا دليل عليه هذا مضافاً الى أنّ الحشر ثابت لجميع النّاس و قد وافقنا على ذلك الطّبري و الألوسى.

فقال الطّبري يقول تعالى ذكره و يوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً ثمّ نقول حينئذٍ للّذين أشركوا باللّه الخ.

و قال الألوسي في روح المعاني في قوله: **نَحْشُرُهُمْ** و ضمير نحشرهم لكلا الفريقين من الّذين أحسنوا الحسنى و الّذين كسبوا السيئات لأنّه المتبادر من قوله تعالىٰ: **جَمِيعًا** ثمّ قال بعد سطرٍ ما لفظه:

و الإخبار بحشر الكلّ في تهويل اليوم أدخل و الى هذا ذهب القاضي البيضاوي و غيره فكون مراده بالفريقين فريقي الكفّار و المشركين خلاف الظّاهر جدّاً انتهى.

أقول قول البيضاوي، **وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا** يعني الفريقين جميعاً إنتهىٰ. و لم يبيّن مراده من الفريقين هل هو الكفّار و المشركين أو الّذين أحسنوا

الحسنى، و الّذين كسبوا السيئات و لأجل ذلك إختلفوا في معنى كلامه فمنهم من فهم منه المعنى الأوّل و منهم من حمله على المعنى الثّاني و حيث أنّ الألوسي فهم منه المعنى الثّاني فقال و كون مراده أي مراد البيضاوي بالفريقين الكفّار و المشركين خلاف الظّاهر.

و قال الشّيخ ﷺ في التّبيان أخبر تعالى في هذه الآية أنّه يوم يحشر الخلائق أجمعين و به قال الطّبرسي ﷺ و غيره و محصّل الكلام هو أنّ مرجع الضّمير عامّ و ما ذكره الرّازي لا يعتدّ به لأنّه متّفرد به فيما نعلم.

ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَآؤُكُمْ

أي بعد الحشر نقول للّذين أشركوا باللّه الألهة و الأنداد مكانكم أي أمكثوا مكانكم وقفوا في موضعكم أنتم أيّها المشركون و شركاءكم الّذين كنت تعبدونهم من دون اللّه من الألهة و الأوثان **فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** أي ففرّقنا بين المشركين باللّه و ما أشركوه به قاله الطّبري.

و قال الزّمخشري في معناه ألزموا مكانكم أي لا تبرحوا حتّى تنظروا ما يفعل بكم، و قال في قوله فزيّلنا بينهم، ففرّقنا بينهم و قطعنا أقرانهم و الوصل التّي كانت بينهم في الدّنيا أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف.

و قال في التّبيان مكانكم، نصب على الأمر كأنّه قال إنتظروا مكانكم حتّى نفصل بينكم و يقول المتّوحد لغيره مكانك فإنتظر و يستعمل ذلك في الوعيد و قوله: **فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** مأخوذ من قولهم زلت الشّيئ عن مكانه أزيله و ساق الكلام الى أن قال و المعنى فرّقنا بين المشركين باللّه و ما أشركوا به.

وَ قَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ قيل في معناه ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون و ما أمرناكم بعبادتنا، و قيل أنّ ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين و قال الطّبري **وَ قَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** و ذلك حين تبرّأ الّذين إتّبعوا من الّذين إتّبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب لما

قيل للمشركين إتّبعوا ما كنتمم تعبدون من دون اللّه و نصبت لهم آلهتهم قالوا كنّا نعبد هؤلاء فقالت الآلهة لهم ما كنتم إيّانا تعبدون إنتهى.

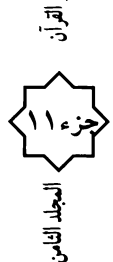
ثمّ أنّهم اختلفوا في المراد بهؤلاء الشُّركاء فقال بعضهم هم الملائكة بعضهم بل هي الأصنام و الدّليل عليه أنّ الخطاب مشتمل على التّهديد و الوعيد لا يليق بالملائكة المقربين و أمّا أنّ هذه الأصنام كيف نطقت و ذكرت هذا الكلام فلا إستبعاد فيه لأنّ اللّه تعالى أنطقها و هو على كلّ شيءٍ قدير.

و قيل المراد بهؤلاء الشُّركاء كلّ من عبد من دون اللّه من صنمٍ و شمسٍ و قمرٍ و إنسّي و جنّي و ملك.

أن قلت كيف قالوا: **مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ** و هم كانوا قد عبدوهم فكان هذا كذباً و ذهب كثير من العلماء الى أنّ أهل القيامة لا يكذبون.

قُلت ما ذهبوا اليه لا دليل عليه و على فرض ثبوته معنى الكلام أنكم ما عبدتمونا بأمرنا و إرادتنا و الدّليل عليه هو قوله:

فَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ فأنّ هذا أخبارنا من اللّه تعالى عن هؤلاء المشركين من الآلهة و الأوثان يوم القيامة حين قالوا إنّا إيّاكم كنّا نعبد و أنّهم يجحدون ذلك و يقولن حسبنا اللّه شاهدً بيننا و بينكم أيّها المشركون بأنّه تعالى عالم إنّا ما علمنا ما تقولون و إنّا كُنّا عن عبادتكم إيّانا غافلين لا نشعر به و لا نعلمه و إذا كان كذلك فلا كذب هناك و لا عقاب على المعبود لأنّه لم يكن راضياً بما فعلوه و لا مشعراً به و إنّما العقاب ثابت على العابد فقط و فى تفسير القُمي عن أبي جعفرعليه السلام في قوله: **فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ** قال عليه السلام يبعث اللّه ناراً تزيل بين الكفّار و المؤمنين إنتهى.



أقول و هو دليل على أنّ الحشر للجميع و لا يختص بالكفّار فقط كما زعم الرّازي و أمثاله في الآية و أمّا الكلام في كيفية الحشر و ما يتعلق به فموكولٌ الىٰ محله إنشاء اللّه تعالى.

هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوٓا إِلَى ٱللّٰهِ مَوْليٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً، تتلوا، بالتّاء من التّلاوة و الباقون بالباء من الإختبار و عليه المصاحف و أن كان المآل واحداً **هنالك** في موضع النّصب على الظّرف و معناه في ذلك المكان و هو الحشر يوم القيامة و هو يستعمل للبعيد كما أنّ، هنا، للقريب و **هناك** للمتوسط **تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ** أي تختبر كلّ نفسٍ ما أسلفت في الدنيّا من الأعمال أن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشّراً فأن قدم خيراً و شراً جرى عليه كما قال تعالىٰ:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(١).

و أمّا على قراءة التّاء فهو من التّلاوة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأُولٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتٰابَهُمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِقْرَأْ كِتٰابَكَ**(٣).

و قيل قد يكون، تتلوا، بمعنىٰ تتبع و يكون المعنى هنالك تتّبع كلّ نفسٍ ما أسلفت من حسنةٍ و سيّئةٍ فمن احسن جوزى بالحسنات و من اساء جوزى به فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء و هذا هو المراد من قولنا و أن كان المال واحداً.

و أمّا قوله: **وَ رُدُّوٓا إِلَى ٱللّٰهِ مَوْليٰهُمُ ٱلْحَقِّ** معناه هؤلاء ذهبوا عن أمر اللّه فأعيدوا اليه، فأنّ الرّد هو الرّجوع و قيل أنّ الرّد هنا بمعنى النّشأة الثّانية و عليه فالمعنى ردّوا الى الآخرة للحساب و الجزاء و لا شكّ أنّ هذا أليق بالمقام و قوله مولاهم الحّق بمنزلة التّفسير لقوله الى اللّه كأنّه قيل و من اللّه الّذي ردّوا اليه فقال هو مولاهم الحّق أي مولاهم حقّاًلأنّ اللّه تعالى خالق العبيد فهو

١- الزّلزال = ٧ - ٨ ٢- الأسرىٰ =٧١
٣- الأسرىٰ =١٤

مالكهم لا محالة أي يملك أمرهم بل هو أملك بهم من أنفسهم و من كان كذلك فهو مولاهم حقاً **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** أي ماكانوا يدعونهم بإفترائم من الشُّركاء مع اللّه يضلّون عنهم يوم القيامة و يبطلون و على ما ذكرناه فقوله مولاهم الحق في محلّ الخفض على العدل و الصِّفة و أمّا نصب الحق فعلى المدح و التقدير أعني الحّق أو ردّوا حقّاً ثمّ جيء بالألف واللاّم و يجوز فيه الرّفع على الإبتداء و الخبر و القطع ممّا قبل.

قال إبن عبّاس مولاهم الحّق أي الّذي يجازيهم بالحّق.

أن قيل كيف قال و ردّوا الى مولاهم الحقّ و قد أخبر اللّه تعالى بأنّ الكافرين لا مولى لهم، يقال في الجواب أنّه تعالى ليس بمولاهم في النّصرة و المعونة و هذا هو المنّفي في الأية، بل هو مولاهم في الخلق و الرزق و إدرار و النِّعم و أن كان الكافر لا يتوجّه اليه.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اَللّٰهُ فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ

اَللّٰهُ فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ لمّا بيَّن اللّه تعالى فيما مضى فضائح عبدة الأوثان و غيرهم من العصاة الطُّغاة أشار في هذه الآية أصول النِّعم التّي لا سبيل لأحدٍ من العقلاء إنكارها و أنّما قال ذلك تقريراً للحجّة عليهم لو كانوا يعقلون فأمر نبيّه أن يقول لهم ولغيرهم من خلقه **مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ** بإنزال المطر و الغيث **وَ اَلْأَرْضِ** بإخراج النّبات و أنواع الثّمار و التعبير بالرزق لأجل أنّه العطاء الجاري على المرزوق على سبيل الجود و لذلك نقول لا رازق في الوجود إلاّ هو تعالى حقيقة فإطلاقه على غيره تعالى كما يقال رزق السُّلطان الجند أنّما هو على سبيل المجاز لأنّه لو لم يطلقه على يد الإنسان لم يجئ منه شئ فالواحد منّا يرزق غيره مجازاً لا حقيقة فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و

ذلك كما لا يطلق الرّب بالإطلاق إلاّ في حقّه تعالى و أمّا في غيره فيقيّد فيقال ربّ الدّار و ربّ الفرس.

قال الرّاغب في المفردات الرّزق يقال للعطاء الجاري تارةً دنيويّاً كان أم أخرويّاً و للنصيّب تارة و لمّا يصل الى الجوف و يتّغذى به تارةً يقال أعطى السُّلطان رزق الجند و يقال رزقت علماً انتهىٰ.

أقول يظهر من كلامه أنّ الرّزق كما يطلق على المأكولات و المشروبات كذلك يطلق على المعقولات و المعنويّات و هو كذلك لأنّ الرزق هو العطاء الجاري و العطاء يطلق على الجميع يقال أعطاه المال و الغذاء و اللّباس كما يقال أعطاه العلم و الجاه و لا شكّ أنّ المعطي لجميع النِّعم ظاهراً أو باطناً ماديّاً أو معنويّاً في الحقيقة ليس إلاّ اللّه تعالى فهو الرازق المعطي بلا كلام إذا عرفت هذا فنقول الرّزق قسمان:

ماديٌّ و معنويٌّ فالأوّل مختّص بالجسم و الثّاني بالرُّوح.

فقوله تعالىٰ: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ** إشارة الىٰ الأوّل و قوله: **أَم مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ** الخ ناظر الىٰ المعنىٰ أعني بها النِّعم المعنويّة العقليّة.

أمّا القسم الأوّل: و هو المشار اليه بقوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ**.

قال بعض المفسّرين أمّا من السّماء فبنزول الأمطار الموافقة و أمّا من الأرض فلأنّ الغذاء أمّا أن يكون نباتاً أو حيواناً أمّا النبّات فلا ينبت إلاّ من الأرض معلوم.



و أمّا الحيوان فهو محتاج أيضاً الى الغذاء و لا يمكن أن يكون غذاء كلّ حيوانٍ حيواناً آخر و إلاّ لزم الذّهاب الى ما لا نهاية له و ذلك محالٌ فثبت أنّ أغذية الحيوانات يجب إنتهاؤها الى النبات و ثبت أنّ تولد النبات من الأرض فلزم القطع بأنّ الأرزاق لا تحصل إلاّ من السّماء و الأرض و معلوم أنّ مدبّر

السّموات و الأرضين ليس إلاّ اللّه سبحانه و تعالى فثبت أنّ الرّزق ليس إلاّ منه انتهى كلامه.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** أي يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهةٍ واحدة ليفيض عليكم نعمته و يوسّع رحمته انتهى.

أقول ما ذكراه في تفسير الآية لا بأس به و تبعهما عليه أكثر مفسّريهم أمثال الألوسي و البيضاوي و السّيوطي و غيرهم و هو الظّاهر من الآية الشّريفة إذ لاشكّ أنّ إحياء الأرض بسبب الأمطار فأنّ السّماء بمنزلة الفاعل و الأرض بمنزلة القابل و الإنسان يعيش في الأرض و يتّغذى من النبّاتات المتوّلدة منها و لولا تغذيته منها لم يقدر على إدامة حياته و هذا ظاهر لا خفاء فيه و أنّما الكلام في أنّ الرّزق من هو، و لا شكّ أنّ السّماء والأرض سببان لإيصال الرّزق الى الخلق لا أنّهما فاعلان و الدّليل على ذلك هو إنّا نرى في بعض السّنين قلة نزول البركات من السّماء أو عدمها و فى بعض السّنين بالعكس و هو يدلّ على أنّ المدّبر غيرهما.

ثانياً: نرى النظّم الخاّص من جهة الكميّة و الكيفيّة فيـنزول الأمطار دليل على أنّ الأمر بيد الرّازق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِمِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**(٣).

١- البقرة=٣٢ ٢- الجاثية=٥
٣- إبراهيم=٣٧

و أمــثال ذلك مــن الأيـات الدالة عـلى أنّ الرّزاق هـو اللّـه تـعالى و عـليه فالجواب.

عن قوله تعالىٰ: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ** أنّ الرّازق هو اللّهالمطلوب فهذا هو الحجّة الأولىٰ منه تعالىٰ على الخلق حيث أنّهم قد أقرّوا بعقولهم أنّ الرّازق هو اللّه تعالى.

الحجّة الثّانى: قوله**أَمْ مَنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ** قيل، أم، منقطعة بمعنى بل و الأضراب إنتقالي لا إبطّالي و فيه تنبيه عـلى كـفاية هـذا الإسـتفهام فيما هـو المـقصود أي مـن يستطيع خـلقهما و تسـويتهما عـلى هـذه الفـطرة العجيبة و من وقف على تشريحهما وقف على ما يبهر العقول، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها و سرعة إنفعالهما عن أدنى شيٍ يصيبهما، أو من يتّصرف بهما إذهاباً و إبقاءً و الملك على كلّ مجازٍ انتهى.

أقول أنّما خصّ السّمع و الأبصار بالذّكر من الحّواس لأنّهما أشرف و أفضل من سائر الحواس و الظّاهر أنّ المراد بالملك في الآية هو المالكيّة بسبب الخلق و التّدبير أي أنّه تعالى و هو المدّبر لهما و هو المالك لهما ولغيرهما فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه وكيف كان فالجواب عنه فثبت أيضاً أي هو اللّه تعالى و هذا هو الحجّة الثّالثة.

الحجّة الرّابعة: قوله:**وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ** كلمة، مَن أيضاً للإستفهام.



قال بعض المفسّرين في معناه، أنّه يـخرج الإنسـان و الطّـائر مـن النُّطفة و البيضة و يخرج الميّت من الحيّ أي يـخرج النّطفة و البـيضة مـن الإنسـان و الطّائر.

الوجه الثّانى: أنّ المراد منه أنّه تعالى يخرج المؤمن من الكافر و الكافر مـن المؤمن و الأكثرون على الأوّل و هو الى الحقيقة أقرب انتهى كلامه.

و قال الأخرون في قوله: **وَ مَنْ يُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ** معناه من الّذي يخلق الحيوان و يخرجه من أمّه حيّاً سوّياً إذا ماتت أمّه **وَ يُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ** يعني من يخرجه به غير تّام و لا بالغ حدّ الكمال انتهى.

و الحقّ أنّ الموت بحسب أنواع الحياة.

فالأوّل: ما هو بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الإنسان و الحيوان و النّبات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اَللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ اَلْخُرُوجُ**[٣].

الثّاني: زوال القوّة الحّاسة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقُولُ اَلْإِنْسٰانُ أَ إِذٰا مٰا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**[۴].

الثّالث: زوال القّوة العاقلة و هى الجهالة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ**[۵] وإيّاه قَصَد.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰاءَ**[۶].

الرّابع: الحزن المكّدر للحياة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَأْتِيهِ اَلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ**[٧].

نالخامس: المنام و لذلك قيل النّوم موتٌ خفيفٌ و الموت نومٌ ثقيل و على هذا النّحو سمّاهما اللّه توّفياً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰيكُمْ بِاللَّيْلِ**[٨].

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ اَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا**[٩].

١- الرّوم=١٩
٢- سورة الرّوم آية ۵٠
٣- ق = ١١
۴- مريم=۶۶
۵- الأنعام =١٢٢
۶- النّمل =٨٠
٧- إبراهيم =١٧
٨- الأنعام =۶٠
٩- الزّمر =۴٢

إذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ** إشارة الى جميع الأقسام المذكورة و ذلك لعدم المخصص فحمل الآية على العموم أولى و الجواب عنه أيضاً مثّبت و هو أنّ المخرج هو اللّه تعالىٰ.

الحُجّة الخامسة: قوله: **وَ مَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ** و فيه إشارة الى أنّ هذه المذكورات في الآية يحتاج الى مدّبر حكيم الّذي ينّزل الأمر على طبق مصلحةٍ رآها وليس هو إلاّ اللّه تعالى كما قال: **فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ** إذا سئلت هؤلاء عن الفاعل الخالق الرّازق المحيّي المدّبر، فسيقولون اللّه: **فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** أي فقل لهؤلاء المقّرين أفلا تتّقون أي فهلاّ تتّقون خلافه و تحذرون معاصيه و الآية تدلّ على التّوحيد لأنّها دلّت على وحدة المدّبر لهذا العالم يجوز أن يكون ذلك بحسب الإتّفاق لإحالة العقل ذلك و لا بالطبيعة لأنّها في حكم الموات فلم يبق بعد ذلك إلاّ أنّ الفاعل لذلك قادرٌ عالمٌ يدّبر الأمر على ما يشاء و يفعل و يحكم ما يريد و هو المطلوب.

تنبيهٌ

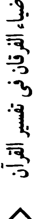
أنّما دخلت، أم، على، من، في قوله أممَّن لأنّ، من، ليست أصل الإستفهام بل أصله الألف فلذلك جاز الجمع بينهما هذا.

فَذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلاَّ ٱلضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ

الفاء

للتّفريع و ذلك إشارة الى إسم اللّه والكاف والميم للمخاطبين و أنّما جمع لأنّه أراد جميع الخلق.

قال الزّمخشري في الكشّاف، ذلكم، إشارة الى من هذه قدرته و أفعاله **رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ** الثّابت ربوبيّته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقّق النّظر **فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلاَّ ٱلضَّلاَلُ** يعني أنّ الحقّ و الضّلال لا واسطة بينهما فمن تخطّى الحقّ وقع



في الضّلال **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** عن الحقّ الى الضّلال و عن التّوحيد الى الشّرك و عن السّعادة الى الشّقاء انتهى كلامه.

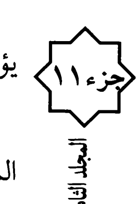
أقول معنى الآية أنّكم اذا إعترفتم بأنّ الرّزق و الإحياء و الإماتة و التّدبير كلّها بيد اللّه تعالى فذلكم اللّه ربّكم الحقّ، لأنّ الخيرات في الدّنيا و الأخرة أنّما تحصل من رحمة اللّه و إحسانه و أنّ هذه الأوثان لا تنفع و لا تضُر البتَّة و اذا كان الأمر على هذا المنوال أي عرفتم الحقّ و الباطل فماذا بعد الحقّ إلاّ الباطل أنّهما نقيضان و هما لا يجتمعان و لا يرتفعان فلا يكونان حقّين و لا باطلين فاذا كان أحدهما حقّاً و الأخر باطلاً فالإعراض عن الحقّ هو الدُّخول في الباطل بعينه فأنّى تصرفون أي كيف تعدلون عن الحقّ الى الباطل.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

قالوا الكاف في كذلك، للتّشبيه و هو في موضع نصب و الإشارة بذلك الى المصدر المفهوم من تصرفون مثل صرفهم عن الحقّ بعد الإقرار به في قوله: **فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ** حقّ العذاب عليهم أي جازاهم مثل أفعالهم إشارة الى الحقّ.

قال صاحب الكشّاف كذلك مثل ذلك الحقّ حقَّت كلمة ربّك و قال في التّبيان و الكاف في قوله: **كَذَٰلِكَ** في موضع نصب و التّقدير مثل أفعالهم جازاهم ربّك و قيل في الشّبه به وجهان:

أحدهما: المعنى أنّه ليس بعد الحقّ إلاّ الضّلالة فشبَّه به كلمة الحقّ بأنّهم لا يؤمنون في الصّحية.



الثّاني: ما تقدّم من العصيان شبّه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدار و أنّما أطلق في الّذين فسقوا أنّهم لا يؤمنون لأنّه أريد به الّذين تمَّردوا في كفرهم و **أَنَّهُمْ** في موضع نصب على قول الفّراء و التّقدير بأنّهم أو لأنهم لا يؤمنون فقوله: **أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** بدل من كلمة، ربّك انتهى.

قال الرّازي إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ الكفر بقضاء اللّه و إرادته و تقريره أنّه تعالى أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون فلو أمنوا لكان أمّا أن يبقى ذلك الخبر صدقاً أو لا يبقى و الأوّل باطل لأنّ الخبر بأنّه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقاً حال ما يوجد الإيمان منه.

الثّاني: أيضاً باطل لأنّ إنقلاب خبر اللّه تعالى كذباً محال فثبت أنّ صدور الإيمان منهم محال و المحال لا يكون مراداً فثبت أنّه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر و أنّه أراد الكفر منه ثمّ نقول أن كان قوله: **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** يدّل على صحّة مذهب القدريّة فهذه الآية الموضوعة بجنبه تدلّ على فساده انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول لا تدلّ الآية على أنّ الكفر بقضاء اللّه و إرادته أصلاً و الرّازي قد أتعب نفسه في إثبات ذلك و إستدلّ على مدعاه بما هو أوهن من بيت العنكبوت و ذلك لأنّه تعالى قد أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنّهم لا يؤمنون بإختيارهم و سوء سريرتهم لا بقضاء اللّه و قدره بمعنى أنّه تعالى لم يقض عليم بالكفر بل علمهم بكفرهم لأنّه علاّم الغيوب و العلم لا يكون علّة لفعل المكلّف قطعاً و ذلك مثل علم الطّبيب بموت من شرب السّم بإختياره.

و ما نحن فيه من هذا القبيل مع أنّ الخطأ في علم الطّبيب محتملٌ و هو في حقّه تعالى محال ثمّ قال الرّازي.

المسألة الخامسة: المراد من كلمة اللّه إمّا إخباره عن ذلك و خبره صدق لا يقبل التّغير و الزّوال أو علمه بذلك و علمه حقّ لا يقبل التغيّر و الجهل.

ثمّ قال و قال بعض المحققين علم اللّه تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و خبره تعالى تعلّق بأنّه لا يؤمن و قدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و إرادته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر فيه و أثبت ذلك في اللّوح المحفوظ و أشهد عليه ملائكته و أنزله على أنبياءه و أشهدهم عليه فلو حصل

الإيمان لبطلت هذه الأشياء فينقلب علمه جهلاً و خبره الصّدق كذباً و قدرته عجزاً و إرادته كرهاً و إشهاده باطلاً و إخبار الملائكة و الأنبياء كذباً و كلّ ذلك محال انتهى كلامه.

و أنا أقول أمّا قوله علم اللّه بأنّه لا يؤمن و خبره بأنّه لا يؤمن فهو صدق لا كلام لنا فيه و أمّا قوله: و قدرته لم تتعلّق بخلق الإيمان فيه بل بخلق الكفر و هكذا إرادته فيقال له هذا أوّل الكلام و من أين علم الرّازي أنّ قدرته و إرادته لم تتعلّق بخلق الإيمان بل تتعلّق بخلق الإيمان بل تتعلّق بخلق الكفر فيه.

و نحن نقول أنّ قدرته و إرادته لم تتعلّق بخلقهما جميعاً.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الإيمان و الكفر لا يصلحان لتعلّق القدرة بهما لأنّهما من الأمور الكسبيّة و لا معنى لأن يكون الإيمان مخلوقاً و هكذا الكفر الّذي هو عدم الإيمان هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول على فرض التّسليم و إمكان تعلّق القدرة بهما، من أين ثبت للمستدلّ أنّ القدرة تعلّقت بالكفر دون الإيمان.

و على فرض التسليم نقول لم تعلّقت القدرة بالكفر و لم تتّعلق بالإيمان مع أنّ المفروض إمكان تعلّقها بهما أليس هذا من الظّلم القبيح أو التّرجيح بلا مرّجح و محصّل الكلام أنّ نسبة القبائح الى اللّه تعالى إلحادٌ و زندقة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شٰاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ نٰاراً أَحٰاطَ بِهِمْ سُرٰادِقُهٰا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ، لِمَنْ شٰاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**[2].

و الحاصل أنّا لا ننكر قدرة اللّه و أنّه تعالى على كلّ شيءٍ قديرٍ فلو شاء أن يجبر العبد على شيءٍ من أفعاله لفعل إلاّ أنّا نقول أنّه تعالى لا يفعل القبيح و إجبار العبد على الفعل ثمّ عقابه عليه ظلمٌ قبيح و صدوره منه محال لمنافاته

۱- الكهف =۲۹ ۲- التّكوير =۲۷/۲۸

العدل الّذي وصف اللّه به نفسه حيث قال: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[١].

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

البدء و الإبداء تقديم الشّئ على غيره ضرباً من التّقديم و مبدأ الشّئ هو الّذي منه يتّركب أو منه يكون فالحروف مبدأ الكلام و الخشب مبدأ الباب و السّرير و النّواة مبدأ النّخل اذا عرفت هذا فإعلم أنّ اللّه تعالى هو المبدء المعيد أي هو السَّبب في المبدأ و النهاية و منه يقال رجع عوده على بدأه.

أمّا أنّه تعالى هو المبدء فلاكلام فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ**[٣].

و أمّا أنّه تعالى هو المعيد:

قال اللّه تعالىٰ: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**[٤].

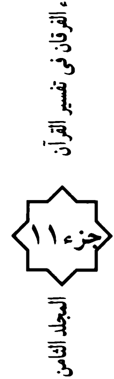
قال اللّه تعالىٰ: **كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٧].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**[٨].

و الأيات كثيرة هذا بالنّظر الى النّقل و هو ممّا لا كلام فيه لكلّ مسلم.



١- آل عمران = ١٨
٢- السّجدة =٧
٣- العنكبوت =٢٠
٤- الأعراف =٢٩
٥- الأنبياء =١٠٤
٦- يونس =۴
٧- الرّوم =١١
٨- الرّوم =٢٧

و أمّا بالنّظر الى العقل فقد يتَّوهم أنّ الموجود بعد موته لا يعاد و ذلك لأنّ إعادة المعدوم ممتنعة و قد برهنوا على إستحالتها بما لا مزيد عليه.

و قد مرَّ منّا مراراً أنّ الموجود لا ينعدم بموته و أنّ المادّة الأصلية باقية فالإعادة أهون و أسهل من الإبداء و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالىٰ: **وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء اللّه.

ثمّ أنّه تعالى أمر نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار المنكرين هل من شركاءكم من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، و الإستفهام للإنكار أي لا يكون، **قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** أي تصرفون و فى هذه الآية إشارة الى أنّ المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد هو الّذي خلقكم أوّلاً و يعيدكم ثانياً و حيث أنّ شركاءكم من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يقدرون على الخلق و الإعادة لكونها داخلين في سلسلة المحدثات و المخلوقات فكيف تقولون أنّها كذا وكذا.

ثمّ قال تعالى لنبيّه:

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

و هذا الإستفهام أيضاً إنكارّي أي ليس كذلك لأنّ الجماد الّذي لا شعور له كيف يهدي الى الحقّ قل، لهم، أنّ اللّه تعالى يهدي للحقّ

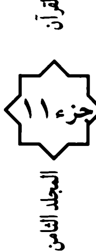
و من المعلوم أنّ من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتَّبع و يعبد ممّن لا يهدي اليه و الى هذا المعنى أشير بقوله **أَفَمَنْ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** وقوله: **أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيٓ** بفتح الياء و كسر الهاء و الدّال المشددة، أصله، يهتدي فقلّب حركة التّاء الى الهاء و أدغمت التّاء في الدّال هذا على قراءة من فتح الهاء في **لا يَهدّي** و أمّا من كسرها كما هو المشهور بين القرّاء و عليه المصاحف، فأنّهم كسروا الهاء لمّا أضطر الى الحركة حرّك بالكسر قالوا أنّ، أحقّ، ليست أفعل تفضيلٍ بل المعنى، حقيقٌ بأن يتّبع.

و محصّل الكلام في الآية الشّريفة هو أنّ الحقّ حقيقٌ بـالإتّباع دون البـاطل الّذي لا حقيقة له و لمّا كان الوصول اليه يحتاج الى الهادي و المرشد فلا محالة يكون الهادي اليه أيضاً أحقّ بالإتباع لما فيه من الإيصال الى المطلوب حكم اللّه تعالى بما حكم و قال ما قال و أنـما قال فـي أخـر الآيـة فـمالكم كـيف تحكمون، للإشارة إلى أنّ هذا الّذي قلناه و هـو متابعة الحـقّ ممّا تـحكم بـه العقول السليمة و لذلك أتى بكلمة، كيف، التّي تفيد الإستفهام و المـعنى كـيف تحكمون أيّها العقلاء.

و من المعلوم أنّ العقل السليم يحكم بأنّ الحقّ أحـقّ أن يـتّبع مـن البـاطل فالهادي اليه أيضاً كذلك.

قال بعض المفسّرين أنّ اللّه إستدلّ بالخلق و الهداية على وجود الصـانع و هما حالان للجسد و الروح و لمّا كان العقول يلحقها الإضطراب و الغـلط بـيّن تعالى أنّه لا يهديهما إلاّ هو بخلاف أصنامهم و معبوداتهم فأنّه مـا كـان مـنها لا روح فيه جماداً لا تأثير له و ما فيه روح فليس قادراً على الهداية بل اللّه تـعالى هو الّذي يهديه، و هدى تتّعدى بنفسها الى أثنين.

و الى الثّاني بالى وباللاّم، و يهدي الى الحقّ حذف مفعوله الأوّل و لا يصحّ أن يكون لازماً بمعنى يهتدي لأنّ مقابله أنّما هو متّعدٍ و هو قـوله: **قُـلِ ٱللَّـهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** أي يهدي من يشاء الى الحقّ و لمّا كانوا معتقدين بأنّ شركاءهم تهدي الى الحقّ و لا يسلمون حصر الهداية باللّه تعالى أمر اللّـه نـبيّه ﷺ بأن يبادر الى الجواب فقال.



قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ثمّ عاد في السّؤال بالهَمزة و أم بين من هو حقيق بالإتباع و من هو غير حقيق و جاء عـلى الأفـصح الأكـثر مـن فـصل، أم، مـمّا عطفت عليه بالخبر كقوله: **أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ** [1] بخلاف قوله: **أَقَرِيبٌ أَمْ**

١- الفرقان = ١٥

بَعِيدٌ مٰا تُوعَدُونَ[١] و سيأتي القول في ترجيح الوصل هنا في موضعه إن شاء اللّه تعالى انتهى كلامه.

و قال الرّازي في المقام، إعلم أنّ هذا هو الحجّة الثالثة و أعلم أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أوّلاً ثمّ بالهداية ثانياً عادةً مطرّدة في القرآن فحكى اللّه تعالى عن الخليل عليه السلام أنّ ذكر ذلك فقال:

اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ[٢].

و عن موسىٰ عليه السلام أنّه ذكر ذلك فقال:

رَبُّنَا اَلَّذِيَ أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ[٣].

و أمر محمّداً صلى الله عليه و آله بذلك فقال:

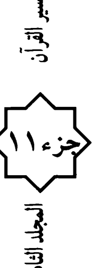
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ اَلْأَعْلَى، اَلَّذِي خَلَقَ فَسَوّىٰ،وَ اَلَّذِي قَدَّرَ فَهَدىٰ[۴].

و هو في الحقيقة دليل شريف لأنّ الإنسان له جسد و روحٌ فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و الإستدلال بأحوال الرّوح هو الهداية.

فهنا هنا أيضاً لمّا ذكر دليل الخلق في الآية الأولى و هو قوله: **مَنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** إتّبعه دليل الهداية في هذه الآية الى آخر ما قال انتهىٰ

أقول أمّا قوله أنّ الإستدلال على وجود الصّانع بالخلق أوّلاً، فهو حقّ لا مرية فيه إلاّ أنّ البحث فيه قد مضى في الآية السّابقة حيث قال: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** و لا كلام لنا فيه فعلاً.

و أمّا قوله ثم بالهداية ثانياً، فلا نعلم مقصوده بل لا نفهم معناه و أيُّ إستدلالٍ بالهداية على وجود الصّانع و المفروض أنّ الهداية لا تكون إلاّ بعد الوجود فلو كان الوجود أيضاً بالهداية لزم الدَّور و توضيحه أنّ الهادي معناه



١- الانبياء = ١٠٩
٢- الشعراء = ٧٨
٣- طه= ۵٠
۴- الاعلى = ١/٢/٣

ذاتٌ ثبت له الهداية و حيث أنّها صفة للّذات فلا محالة توجد بعد وجوده، مثلاً نقول أنّ اللّه يهدي للحقّ، فثبت الهداية له تعالى و لا شكّ أنّه موجود قبل الهداية لا بها للزوم الدَّور.

فقول الرّازي ثمّ بالهداية ثانياً لا معنى فأنّ الهداية لا تثبت بها وجود الصّانع.

و أن شئت قلت الهداية لا تكون بعد الوجود فلو كان الوجود ثبت بها يلزم الدَّور و عليه فالآية المبحوثة عنها ليست بصدد إثبات الصّانع أصلاً و أنّما هي بصدد إثبات أنّ الموصول الى الحقّ لا يمكن إلاّ بالهداية اليه من قبله تعالى و اليه الأشارة بقوله: **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ** و الفرق بين إثبات وجود الصّانع و بين الوصول الى الحقّ واضح.

و أمّا قول الرّازي لأنّ الإنسان له جسد و روح فالإستدلال على وجود الصّانع بأحوال الجسد هو الخلق و بأحوال الرّوح هو الهداية كلام بلا محصّل.

نعم لو قال تعالى في الرّوح ما قاله في خلق الجسد لتّم ما ذكره و لم يقل ذلك إذ ليس في الآية بحث في الرّوح بل البحث في الهداية و أعجب من ذلك قوله بعد ما نقلناه عنه و أعلم أنّ المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للرّوح الى آخر ما قال و لم يعلم أنّ حصول الهداية للرّوح لا ربط له بإثبات الصّانع بالهداية إذا عرفت هذا.

فنقول أنّ اللّه تعالى إستدلّ على بطلان مذهب المشركين بأمرين:

أحدهما: أنّ المعبود الحقيقي هو الّذي يبدأ الخلق ثم يعيده و هو منحصرٌ باللّه تعالى و ما سواه مخلوق له كائناً ما كان و حيث أنّ الأصنام و الأوثان و الشّمس و القمر و النُّجوم كلّها في سلسلة المخلوق و المخلوق لا يكون خالقاً فلا يكون معبوداً.

ثانيهما: مسألة الهداية و توضيحها أنّ الهداية الى الحقّ لا يتحقق إلاّ ممّن كان مع الحقّ و أمّا من كان باطلاً فكيف يهدي الى الحقّ و عليه فكلّ ما إتّخذوه



شركاء للحقّ فهو في حدّ نفسه باطل، إلاّ كلّ شيئ ما خلا اللّه باطل، و الباطل لا يهدي الى الحقّ و ما لا يهدي اليه لا يتّبع فالباطل لا يتّبع و هو المطلوب.

فهذه الآية ليست بصدد إثبات الصّانع بل هي بصدد إثبات أنّ الوصول الى الحقّ لا يمكن إلاّ بسبب الهداية اليه و اللّه تعالى هو الهادي اليه لا الأصنام و الأوثان، فكأنّ اللّه تعالى قال لنبيّه قل لهؤلاء المشركين إتّخذوا من يهديكم الى الحقّ و هو اللّه تعالى و أتركوا ما لا يهديكم اليه و هو جميع الأوثان و الأصنام و غيرها بعنوان المعبوديّة و هذا هو المستفاد من الآية الشريفة.

أن قلت ما معنى هداية اللّه و كيف يهدي الى الحقّ.

قلت معنى الهداية في حقّه تعالى هو إرشاده العباد الى الحقّ بسبب أنبياءه و أولياءه فأنّ هدى الرّسول هو هدى اللّه بعينه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مآ اٰتيٰكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[1] و هذا في حقّ الرّسول ممّا لا كلام فيه.

و أمّا بعد الرّسول فهل اللّه يهدي للحقّ أم لا.

و الجواب مثبت حقّاً و عليه نقول هداية اللّه و إرشاده الخلق بعد الرّسول بسبب خليفة الرّسول فالخليفة قائم مقام الرّسول في هداية الخلق بأمرٍ من اللّه تعالى و من كان هادياً الى الحقّ يكون مع الحقّ قطعاً لأنّ معطي الشّيئ لا يكون فاقداً له فخليفة الرّسول لابدّ من أن يكون مع الحقّ و هادياً اليه فالخلافة بعد الرّسول تحت عنوان الهداية تنحصر بأمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السّلام لأنّه كان مع الحقّ بشهادة الرّسول لقوله صلى الله عليه و آله فيه علّيٌ مع الحقّ و الحقّ معه يدور معه حيثما دار، و قد نقله جميع أرباب الحديث من العامّة و الخاصّة فهو من المتواتر بل فوق التواتر و إذا كان مع الحقّ و الحقّ معه فهو لا يهدي إلاّ الى الحقّ و من يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتّبع ممّن لا يهدى إلاّ أن يهدى بصريح الآية.

١- الحشر=٧

فمالكم كيف تحكمون فالآية دالّة على أنّ الإمام و الهادي بعد الرّسول هو علّي بن أبي طالب عليه السلام و يثبت هذا الحكم لغيره من الأئمّة المعصومين أيضاً لوجود الملاك فيهم و لعدم القول بالفصل هذا ما إستفدناه من الآية الشريفة و هو يكفى:

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللّٰهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**[٢].

ثمّ أنّهم ذكروا في الآية مسائل لابدّ من التنبيه عليها:

الأُولىٰ: قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً **يَهدي** بفتح الياء و سكون الهاء و تخفيف الدّال و قرأ أهل المدينة، إلاّ و رشاً بفتح الياء و سكون الهاء و تشديد الدّال وقَرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمر و ورش بفتح الياء والهاء و تشديد الدّال و قرأ يعقوب و حفص و الأعشىٰ و البرجمي بكسر الياء و كسر الهاء و تشديد الدّال و لكلٍّ وجهٌ وجيه.

الثّانية: هذه التّي إتّخذوها ألهة لا تهتدي و إن هديت لأنّها موات من حجارةٍ و أوثانٍ ونحو ذلك فكيف قال تعالىٰ: **أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَنْ يُهْدٰى**.

قيل في الجواب تقدير الكلام علىٰ أنّها إن هديت إهتدت و أن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنّهم لمّا إتّخذوها ألهة عبّر عنها كما يعبّر عن الّذي يجب له العبادة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ**[٤].

١- ق =٣٧
٢- النُّور =٤٠
٣- النّحل =٧٣
٤- سورة فاطر أية ١٤

فأجري عليه اللّفظ كما يجري على من يعلم كأنّه قال أم من لا يهدي إلاّ أن يهدى أي أم من لا يعلم حتّىٰ يعلم قالوا و أراد اللّه بذلك تعجيبهم من أنفسهم و تبيين جهلهم قلّة تمييزهم في تسويتهم من لا يعلم و لا يقدر باللّه القادر العالم كما أنّ الأمّة بعد رسول اللّه فعلت ذلك فلا فرق بين من فعل أو يفعل ذلك و بين المشركين الّذين أشركوا و سوّوا بين الخالق الهادي الى الحقّ و غيره ممّن لا يوصف به.

الثّالثة: قوله: **أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ** بفتح الياء و كسر الهاء و تشديد الدّال أصله يهتدي فأدغم التّاء في الدّال و هو واضح.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى منشأ هذا الإنحراف و الخطأ الّذي صدر منهم فقال:

وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

يَتَّبع بفتح الياء والتّاء المشدّدة من الإتّباع و الظَّن إسم لما يحصل عن إمارةٍ و متى قويت أدَت الى العلم و متى ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التَّوهم و الفرق بين الظَّن و الشكّ هو أنّ الشكّ إعتدال النَّقيضين عند الإنسان و تساويهما و ذلك قد يكون لوجود إمارتين متساويتين عند النَّقيضين أو لعدم الإمارة فيهما.

و أمّا الظَّن فهو رجحان أحد النَّقيضين عند الإنسان و عدم تساويهما و كلمة، ما، في قوله: **وَ مَا يَتَّبِعُ** للنَّفي بمعنى ليس أي ليس يتَّبع أكثر هؤلاء الكفّار إلاّ الظّن و أنّما قال: **أَكْثَرُهُمْ** ولم يقل جميعهم أو كلّهم مثلاً قيل لأنّ منهم من تبَّصر و رفضها كما قال:

أَرَبٌّ يَبُول الثَّعلبان برأسه لقد هانَ مَن بالَت عليه الثّعالب

و قيل المراد بأكثرهم جميعهم و المعنى ما يتَّبع أكثيرهم في إعتقادهم في اللّه و في صفاته إلاّ ظنّاً ليسوا متبّصرين و لا مستندين الى برهان أنّما ذلك شئ تلَّقفوه من أباءهم.

و قيل المعنى و ما يتّبع أكثرهم في جعلهم الأصنام ألهة و إعتقادهم أنّها تشفع عند اللّه و تقّرب اليه و بالجملة تضّمنت الآية التهديد و الوعيد على إتّباع الظّن و تقليد الأباء ففي الآية دلالة على عدم كفاية الظّن في العقائد هكذا قيل و قال الرّازى.

المسألة الأولى: تمّسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا العمل بالقياس عملٌ بالظّن فوجب أن لا يجوز لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا** أجاب فثبتوا القياس فقالوا الدليل الّذي دلّ على وجوب العمل بالقياس دليلٌ قاطعٌ فكان لوجوبٍ معلوماً فلم يكن العمل به مظنوناً بل كان معلوماً أجاب المستدلّ عنه فقال لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً للّه تعالى لكان ترك العمل به كفراً لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ**[١] ولمّا لم يكن كذلك بطل العمل به و قد يعبّرون عن هذه الحجّة بأن قالوا الحكم المستفاد من القياس إمّا أن يعلم كونه حكماً للّه تعالى أو يظّن أو لا يعلم و لا يظّن.

الأوّل: باطل و إلاّ لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ**[٢] و بالإتّفاق ليس كذلك.

الثّانى: باطل لأنّ العمل بالظّن لا يجوز لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا**.

الثّالث: باطل لأنّه اذا لم يكن معلوماً أو مظنّوناً كان مجرّد التّشهي و هو باطل لقوله تعالىٰ: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوٰاتِ**[٣] و أجاب فثبتوا القياس بأنّ حاصل هذا الدليل يرجع الى التّمسك بالعمومات و التّمسك بها لا يفيد إلاّ الظّن فلمّا كانت هذه العمومات دالّة على

١- المائدة= ٤٤
٢- المائدة= ٤٤
٣- مريم = ٥٩

المنع من التّمسك بالظّن لزم كونها دالّة على المنع من التّمسك بها و ما أفضى بثوبته الى نفيه كان متروكاً انتهىٰ.

أقول بطلان العمل بالقياس لا يحتاج الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ العقل السَّليم يدلّ على بطلانه فأنّ الدين لا يصاب بالعقول ولقوله تعالىٰ: : **وَ مٰآ اٰتٰيٰكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** و القياس ممّا لم يأت به الرّسول.

ثالثاً: أنّ الأحكام تابعة للمصالح و المفاسد الواقعية فلا يقاس حكمٌ منها بحكم أخر.

رابعاً: أنّ أوّل من قاس هو إبليس حيث قال: **خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**[1] فقاس النّار بالطّين و حكم بأنّها أفضل و أشرف منه فكيف أمره اللّه بالسّجود لادم و قد ورد في الحديث أنّه ليس من أمر اللّه أن يأخذ دينه بهوى و لا رأي و لا مقاييس.

قيل ذكر المقاييس بعد الرّأي من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لشّدة الإهتمام و محصّل الكلام هو أنّ اللّه قد ذمّهم على متابعة الظّن في الإعتقادات إيماءٌ الى أنّ الإعتقاد بالتوحيد و النّبوة و القيامة و الإمامة لابدّ من أن يكون على سبيل القطع و اليقين لا على سبيل الظّن و التّخمين و هذا ممّا أطبق عليه الكلّ من العامّة و الخاصّة و أمّا القياس فأنّه يؤخذ به في الفروع لا في الأصول فما ذكره الرّازي لا وجه له إلاّ على القول بأنّ الظّن في الآية لا يختّص بالأصول بل هو عامّ يشمل الأصول و الفروع و للبحث فيه مقام أخر و لنرجع الى تفسير الآية و نقول.

قوله: **وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا** أي أكثر الكفّار و الملحدين و أنّما قال أكثرهم و لم يقل جميعهم أو كلّهم لأنّ بعضهم رجع عن الكفر و الإنكار و أنّما قال ظنّاً على سبيل التّنكير ولم يقل إلاّ الظّن لإفادة النّوع أي و ما يتّبع أكثرهم

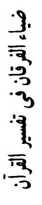
١- الاعراف =١٢

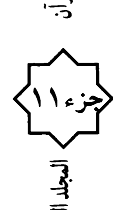
إلاّ نوعاً من الظّن بمعنى أنّه نوع خاصّ و ليس من الظّنون المعتبرة الّتي تقوم مقام القطع في بعض الموارد وقوله: **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا** ليس علىٰ إطلاقه لأنّه يقوم مقام العلم مع عدم إمكان وجوده.

نعم أنّه لا يقوم مقام العلم مع وجوده أو إمكان وجوده فالمعنى أنّ الظّن لا يغني من الحقّ شيئاً في أكثر الموارد و أمّا في بعضها فهو يقوم مقام العلم فيجب العمل به.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ففيه ضربٌ من التّهديد و التّخويف لأنّه تعالى أخبر في هذا الكلام أنّه يعلم ما يفعلونه و لا يخفى عليه منه شيئ فيجازيهم على جميعه على الطّاعة بالثّواب و على المعصية بالعقاب هذا تمام الكلام في تفسير الآية و للبحث في الظّن و أقسامه و ما هو حجّة منه و ما هو ليس بحجّة محلّ أخر يأتي في موضعه.

■





وَ مٰا كٰانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۳۷﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿۳۸﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمٰا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿۳۹﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿۴۰﴾ وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيٓءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿۴۱﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ ﴿۴۲﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يُبْصِرُونَ ﴿۴۳﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ ٱلنّٰاسَ شَيْئًا وَ لٰكِنَّ ٱلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿۴۴﴾

◀ اللّغة

يُفْتَرىٰ، الإفتِراء الإخبار على القطع بالكذب و هو مأخوذ من فري لأديم وهو قطعه بعد تقديره.

بَرِيٓءٌ البراءة قطع العلقة الّتي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدّين و البراءة من العيب في البيع.

تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ الأصّم المفسد السَّمع بما يمنع من إدراك الصَّوت و قد صمّ يصمّ صمماً، والسَّمع إدراك الشّيْ بما به يكون مسموعاً و الباقي واضح.

◀الأعراب

وَ مٰا كٰانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ هذا إسم كان و القرأن نعتٌ له أو عطف بيان و أَنْ يُفْتَرىٰ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه خبر كان أي و ما كان القرآن إفتراءً و المصدر هنا بمعنى المفعول أي مفترى.

الثّانى: التّقدير ما كان القرآن ذا إفتراء.

الثّالث: أنّ، أن، خبر كان محذوف و التّقدير ما كان هذا القرآن ممكناً أن يفترى و قيل التّقدير، لأن يفترى، و(تصديق) مفعول له أي و لكن أنزل للتّصديق.

تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ مثل التصديق لاٰ رَيْبَ فِيهِ حال من الكتاب و الكتاب مفعول في المعنى و يجوز أن يكون مستأنفاً مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ يجوز أن يكون حالاً أخرى، و أن يكون متعلّقاً بالمحذوف أي و لكن أنزل من ربّ العالمين كَيْفَ كٰانَ كيف خبر كان و عٰاقِبَةُ إسمها مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ الجمع محمول على المعنى أي على معنى، من، و الأفراد في قوله تعالى مَنْ يَنْظُرُ محمول على لفظها.

◀التّفسير

وَ مٰا كٰانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ نفى اللّه تعالى في هذه الآية أن يكون القرأن و هو مجموع ما بين الدَّفتين الّذي أنزل اللّه على نبيّه صلّى الله عليه وآله مفترى من دون اللّه و لا يبعد أن يكون هذا الكلام في جواب قولهم، إئت بقرأنٍ غير هذا أو بدّله و قد تقدّم الكلام فيه و كان من قوله أنّه إفتراء إفتراه



الرّسول على اللّه فقال تعالى في الجواب و ما كان هذا القرأن أن يفترى أي ما صحَّ و لا إستقام أن يكون هذا القرأن المعجز مفترى و فى الإشارة بهذا تفخيم المشار اليه وتعظيمه وكونه جامعاً للأوصاف التيّ يستحيل وجودها فيه أن يكون مفترى.

وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ

وقعت، لكن، هنا أحسن موقع اذا كانت بين نقيضين و هما الكذب و التّصديق المتّضمن الصّدق و الذّي بين يديه، الكتب الإلهية المتقدّمة من التوراة و الإنجيل و الصُّحف و غيرها فأنّ القرأن مصدّق لها.

و قيل و الذّي بين يديه هو أشراط الساعة و هو ضعيف لأنّ البرهان على قريش لا يقوم إلاّ بتصديق القرأن ما في التوراة و الإنجيل مع أنّهم كانوا يقطعون بأنّ الآتي به لم يطالع تلك الكتب و لا غيرها و لا هي في بلده و لا قومه لا بتصديق الأشراط لأنّهم لم يشاهدوا شيئاً منها.

و قوله: **وَ تَفْصِيلَ ٱلْكِتٰابِ** قيل هو تبيين ما فرض و كتب فيه من الأحكام و الشّرائع و ذلك لأنّ التّفصيل التّبيين أي يبيّن القرأن ما في كتب المتقدمة و الكتاب إسم للجنس و قوله: **لاٰ رَيْبَ فِيهِ** الهاء عائدة للقرأن أي لا شكّ في نزوله من قبل اللّه تعالى فهذا تفسير ألفاظ الآية.

و إعلم أنّه تعالى نفى في هذه الآية أن يكون هذا القرأن مفترى من دون اللّه و توضيح ذلك هو أنّ المفترى هو الذّي يأتي به البشر و القرأن معجز لا يقدر على الإتيان به بشر.

فلا محالة هو كلام اللّه و هو المطلوب.

فحاصل هذا الكلام أنّ هذا القرأن لا يقدر على الإتيان به أحدٌ من قبل نفسه إلاّ اللّه تعالى كما قال: **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلٰى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا**

اَلْقُرْاٰنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[١].

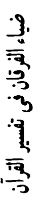
و ما كان كذلك لا يكون مفترى و إن شئت قلت لا شكّ في وجود القرأن و أنّه مرّكب من الحروف و الكلمات و كلّ كلام لابدّ له من متكلّم لأنّ التكلّم صفة و هي محتاجة الى الموصوف و المتكلّم بهذا الكلام أعنى به القرأن لا يخلو إمّا أن يكون الخالق و أمّا أن يكون المخلوق لا سبيل الى الثّاني فالأوّل ثابت المطلوب فلا معنى للإفتراء أصلاً.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ

قيل أم، هنا تقرير على موضع الحجّة بعد مضّي حجّةٍ أخرى و تقديره بل أتقولون إفتراه فالزموا على هذا الأصل الفاسد إمكان أ يأتوا بمثله فالهمزة تقرير لإلتزام الحجّة عليهم أو إنكار لقولهم و استبعاد و قالت فرقة أم هذه بمنزلة همزة الإستفهام.

و قال أبو عبيدة أم، بمعنى الواو أي و يقولون إفتراه و قيل الميم، صلة و التّقدير أيقولون، و قيل أم، هي المعادلة لِلهَمزة و حذفت الجملة قبلها و التّقدير أيقرّون به أم يقولون إفتراه.

و أمّا قوله: **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** فقال الزّمخشري، فأتوا جملة شرط محذوفة فقال أن كان الأمر كما تزعمون فأتوا أنتم على وجه الإفتراء بسورةٍ مثله فأنتم مثله في العربية والفصاحة.





أقول معنى الكلام واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنّهم إادّعوا الإفتراء و معنى الإفتراء الإخبار على القطع بالكذب أي أنّ إنتسابه الى اللّه كذبٌ و ليس من كلام اللّه و اذا كان كذلك فهو كلام المخلوق و أنتم أيضاً منهم و حكم الأمثال واحد فأتوا بسورةٍ مثله و حيث لا تقدرون عليه فيعلم أنّه ليس كلام المخلوق

١- الإسراء =٨٨

فإذن هو كلام اللّه و هو المطلوب و بعبارةٍ أخرى مجرّد الإنكار لا يكفي في مقام البرهان بل هو ناشٍ عن الضَّعف و العناد.

ثمّ أكمل الحجّة عليهم بقوله: **وَ ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي أن كنتم أيّها المكذّبون لا تقدرون على الإتيان بمثله فأدعوا من إستطعتم من العلماء و الفصحاء و البلغاء من دون اللّه إن كنتم صادقين في دعواكم و اذ ليس فليس و حيث إنجرّ الكلام الى هنا لا بأس بالإشارة الى ما لابدّ من ذكره في إعجاز القرأن فنقول:

روي المجلسي قدس سره في البحار في باب إعجاز القرأن ما أورده القطب الرّاوندي قدس سره في الباب و نحن نذكره في المقام فأنّه كافٍ شافٍ قال رضي الله عنه.

إعلم أنّ كتاب اللّه المجيد ليس مصّدقا لنّبي الرّحمة خاتم النبيين فقط بل هو مصدّق لسائر الأنبياء و الاوصياء قبله و سائر الأوصياء بعده جملة و تفصيلاً و ليس جملة الكتاب معجزة واحدة بل هو معجزات لا تحصى و فيه إعلام عدد الرّمل و الحصى لأنّ أقصر سورةٍ أنّما هو الكوثر و فيه الإعجاز من وجهين:

أحدهما: أنّه قد تضَّمن خبراً عن الغيب قطعاً قبل وقوعه فوقع كما أخبر عنه من غير خلفٍ فيه و هو قوله: **إِنَّ شٰانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ** لمّا قال قائلهم أنّ مُحمّداً اذا مات إنقطع ذكره و لا خلف له يبقى به ذكره فعكس ذلك على قائله و كان كذلك.

الثّانى: من طريق نظمه لأنّه على قلّة حدد حروفه وقِصر أياته يجمع نظماً بديعاً و أمراً عجيباً و بشارةً للرّسول و تعبّداً للعبادات بأقرب لفظٍ و أوجز بيانٍ.

ثمّ أنّ السُّور الطُّوال متضمّنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظماً و جزالةً و خبراً عن الغيوب و لذلك لا يجوز أن يقال أنّ القرأن معجزاً واحد و لا ألف معجز أضعافه الى أن قال ثمّ الإستدلال بأنّ القرأن معجز لا يتّم إلاّ بعد بيان خمسة أشياء:

أحدها: ظهور محمّد صلى الله عليه و آله بمكّة و إدّعاءه أنّه مبعوث الى الخلق و رسولٌ اليهم.

ثانيها: تحديّه العرب بهذا القرأن الذّي ظهر على يديه و إدّعاءه أنّ اللّه أنزله عليه و خصَّه به.

ثالثها: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

رابعها: أنّهم لم يعارضوه للتَّعذر و العجز.

خامسها: أنّ هذا التَّعذر خارق للعادة فاذا ثبت ذلك فإمّا أن يكون القرأن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته و لذلك لم يعارضوه أو لأنّ اللّه صرفهم عن معارضتهم و لولا الصَّرف لعارضوه و ساق الكلام الى أن قال.

و أمّا وجه إعجاز القرأن فإعلم أنّ المسلمين إتّفقوا على ثبوت دلالة القرأن على النّبوة و صدق الدَّعوة و إختلف المتكلّمون في وجه إعجاز القرأن على سبعة أوجه فقد ذهب قوم الى أنّه معجزٌ من حيث كان قديماً أو لأنّه حكاية للكلام القديم و عبارة عنه فقولهم أظهر فساداً من أن يختلط بالمذاهب المذكورة في إعجاز القرأن فأوّل ما ذكر من تلك الوجوه ما إختار المرتضى أنّ وجه الإعجاز في القرأن أنّ اللّه صرف العرب عن معارضته و سلبهم العلم بكيفيّة نظمه و فصاحته وفد كانوا لولا هذا الصَّرف قادرين على المعارضة متَّمكنين منها.

الثّاني: ما ذهب اليه المفيد رحمه الله و هو أنّه أنّما كان معجزاً من حيث إختّص برتبةٍ في الفصاحة خارقة للعادة قال لأنّ مراتب الفصاحة أنّما تتفاوت بحسب العلوم التّي يفعلها اللّه في العباد فلا يمتنع أن يجري اللّه العادة بقدرٍ من المعلوم فيقع التَّمكين بها من مراتب الفصاحة محصورة متناهية و يكون مازاد على ذلك زيادة غير معتادة معجزاً و خارقاً للعادة.

الثّالث: ما قال قوم و هو أنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرّة على النّظر و موافقة للعقل.

الرّابع: أنّ جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الإختلال و التّناقض على وجهٍ لم يجر العادة بمثله.

الخامس: ما ذهب اليه أقوام و هو أنّ جهة إعجازه أنّه يتَّضمن الإخبار عن الغيوب.

السّادس: ما قاله الأخرون و هو أنّ القرأن أنّما كان معجزاً لإختصاصه بنظمٍ مخصوص مخالفاً للمعهود.

السّابع: ما ذكره أكثر المعتزلة و هو أنّ تأليف القرأن و نظمه معجزات لأنّ اللّه أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد و قد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه لكن محال و قوعه منهم كإستحالة إحداث الأجسام و الألوان و إبراء الأكمه و الأبرص من غير دواء انتهى ما أردنا ذكره من كلامه و أن شئت الإطّلاع على تفصيل كلامه قدّس سرّه فعليك بالبحار باب وجوه إعجاز القرأن أو بكتابه الموسوم بالخرائج فأنّه قدّس سرّه قد حقَّق البحث فيه بما لا مزيد عليه و اذا عرفت الوجوه السَّبعة التّي ذكرها المتكلّمون فنقول:

ما ذكروه لا بأس به و الحقّ أنّ إعجاز القرأن لا يختصّ بوجه دون وجهٍ بل هو معجز من جميع الوجوه المذكورة و غيرها.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

أي أنّ الكفّار كذّبوا النبي في قولهم أنّ محمّداً إفترى هذا القرأن و لم ينزله اللّه عليه، بما لم يعلموه من كلّ وجوهه و فيه إشارة الى أنّ تكذيب القول أو تصديقه أنّما هو بعد إستماعه و معرفة مراد المتكلّم و أمّا قبل المعرفة فلا معنى للتكذيب أو التّصديق و هذا ممّا يحكم به العقل السليم و أمّا هؤلاء الكفّار فقد كذّبوا النّبي بما لم يحيطوا بعلمه أى لم يعلموا ما المراد منه و الجاهل بالمراد كيف يكذّب المتكلم.

و بعبارةٍ أخرى فهم المراد من القرأن يحتاج الى الفكر و الذَّوق و خلُّوا

الذّهن عن العناد و النّفاق و الرّجوع الى الرّسول في معرفة مراد المتكلّم و ذلك مثل المتشابه و الكفّار لمّا لم يعرفوا المراد بظاهره كذّبوا به و قالوا أنّه إفترى على اللّه كذباً و منشأ هذا التّكذيب ليس إلاّ الجهل المقرون بالعناد و هو خارج عن سيرة العقلاء في محاوراتهم و مباحثاتهم و مناظراتهم و الى هذه الدقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** أي أنّهم أخذوا بظواهر الألفاظ قبل الوقوف على تفسيرها و تأويلها ولم يعلموا أنّ كثيراً من الأيات من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و ليس هذا التّكذيب مختصّاً بهم بل هو دأب أكثر الجهّال المعاندين في كلّ عصرٍ و زمانٍ و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** من الأمم السّالفة كاليهود و النّصارى و المجوس و غيرهم ممّن كذّبوا الأنبياء و لم يؤمنوا بهم **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ** عبّر اللّه تعالى عن التّكذيب بالظّلم و هو كذلك و أيّ ظلمٍ أكبر من تكذيب الرسّل الّذي يوجب خسران الدّنيا و الأخرة.

قال بعض المفسّرين معناه أنّهم طلبوا الدّنيا و تركوا الأخرة فلمّا ماتوا فاتتهم الدّنيا.

و الأخرة و قال الآخر المراد منه عذاب الإستئصال و هو الّذي نزل بالأمم الّذين كذّبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيّا، و المعنى واضح.

تَنبيهٌ

نقل الرّازي عن بعض أهل التحقيق أنّه قال، قوله: **وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** يدلّ على أنّ من كان غير عارفٍ بالتأويلات وقع في الكفر و البدعة لأنّ ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الإنسان وجه التّأويل فيها وقع في قلبه أنّ هذا الكتاب ليس بحقٍّ أمّا إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأّويل فيصير ذلك نوراً على نورٍ يهدي اللّه لنوره من يشاء انتهى كلامه.

و **أنا أقول** ما ذكره من أنّ غير العارف بالتأويل يقع في الكفر و البدعة ممّا لا كلام فيه بل هو متينٌ جدّاً و أنّما الكلام في العارف بالتأويل و أنّه من هو، بعد رسول اللّه و هل يجوز لأحدٍ من علماء الأمة تأويل الأيات من عند نفسه أو لا يجوز بعد قوله تعالىٰ: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ**[1] و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قد خصّ علم التأويل بالراسخين في العلم.

و من المعلوم المسلم عند المنصف الّذي له فطرة مستقيمة أنّ الرّاسخين في العلم هم الذين قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حقهم علىٰ ما نقله الموافق و المخالف، **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما إن تَمسَّكتُم بها لَن تضلّوا أبَداً لَن يَفترَقا حتّىٰ يَردا علَّيَ الحَوض**، جعل الرّسول في هذا الحديث التّمسك بالكتاب و العترة موجباً لعدم الضّلالة فهو يدلّ مفهوماً على أنّ ترك التَّمسك بهما يوجب الضّلالة و الغواية و لا شكّ أنّ العترة وهم أهل بيته عليهم السّلام أعرف بالقرآن تفسيراً و تأويلاً و تنزيلاً من غيرهم كائناً من كان فقوله تعالىٰ: **وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** أي لمّا يأتهم تأويله من عند الرّسول أو من عترته و أهل بيته المعصومين فأن كان مراد الرّازي من نقله هذا المعنى فهو حقّ و أن كان مراده غيرهم فهو باطل مردود اليه فقوله من كان غير عارف بالتّأويلات وقع في الكفر و البدعة حقّ و لازم ذلك أنّ التّأويلات الّتي ذكرها غير أهل البيت كائناً من كان بعد رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم تكون باطلة و صاحبها وقع في الكفر و البدعة من حيث لا يحتسب و جميع المفسرين من العامة من هذا القبيل لأنّهم لم يتبعوا أهل البيت في تفسير القرآن و تأويله.

و الرّازي منهم و سيأتي لهذا البحث زيادة توضيح في موضعه إن شاء اللّه.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

۱- آل عمران = ۷

كلمة، مِن، في الموضعين للتَّبعيض أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ هؤلاء الكفّار الّذين كذّبوا بالقرآن و نسبوه الى الإفتراء بعضهم سيؤمن به في المستقبل وبعضهم لا يؤمن به بل يموت على كفره و الضّمير في قوله: **بِهِ** راجع الى القرآن لأنّه المكذّب على ألسنتهم واقعاً و قيل يرجع الى الرّسول و الأوّل أظهر مع أنّ المآل واحد فأنّ تكذيب أحدهما تكذيب الآخر و تصديق أحدهما تصديق الآخر.

و أمّا قوله: **وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** فالمراد بهم من يدوم على الكفر الّذي هو من أعظم الفساد في الأرض.

قال بعض المفسرين و أنّما جاز أن يقول، أعلم، و أن لم يكن هناك كثرة علوم لأحد أمرين:

أحدهما: أنّ الذّات تغني عن كلّ علمٍ.

الثّاني: أنّه يراد كثرة العلوم انتهى.

أقول لا نحتاج الى هذا الكلام أصلاً لأنّ معنى قوله: **أَعْلَمُ** أي أنّه تعالى أعلم بحال الطّائفتين في المستقبل منك و من غيرك لأنّه تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً و لا يعلم الغيب إلاّ هو و لا يطّلع على الضّمائر إلاّ هو و هذا واضح لا خفاء فيه فهو من قبيل قوله: **إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**.

قال القرطبي في قوله: **وَ مِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ** قيل المراد أهل مكّة قوله: **وَ مِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ** و المعنى و منهم من يصّر على كفره حتّى يموت كأبي طالب و أبي لهب و نحوهما، و قيل المراد أهل الكتاب و قيل هو عامّ في جميع الكفّار انتهى.

أقول أنظر الى هذا المعاند الخبيث حيث مثّل فيمن يصّر على كفره حتى يموت بأبي طالب و أبي لهب، فجعل أبا طالب كأبي لهب الّذي كان من أعداء اللّه و أعداء رسوله و قال تعالى في حقّه **تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَّ** الخ... و ليت شعري أيّ ذنبٍ كان لأبي طالب عند هؤلاء القوم المطرودين المبعدّين عن

جوار رحمة ربّ العالمين حيث يمثّلون بأبي طالب مع أنّ الكفّار الّذين بقوا على كفرهم و ماتوا عليه كانوا كثيرين جدّاً و من أين ثبت لهم كفره و البقاء عليه حتّى مات.

نعم له ذنبان لا محيص له عنهما بزعمهم.

أحدهما: أنّه تكفّل النبي صلّى الله عليه و آله في بيته و ساعده على دعوته و ذبَّ عنه أعداءه.

ثانيهما: أنّه والد أمير المؤمنين علّي بن أبى طالب عليه السلام الذي كان أوّل من آمن باللّه و رسوله و جاهد في سبيل اللّه حقّ جهاده و قتل الكفّار و المشركين حتّى إنتشر الإسلام في جزيرة العرب و غيرها و لعمري هذا من أعظم الذُّنوب عند مخالف الإسلام و معانده و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيٓءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

خاطب اللّه تعالى نبيّه فقال له و أن كذَّبوك هؤلاء الكفّار بعد تماميّة الحجّة عليهم كما هو شأن المعاند فأتركهم و قل لهم، لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل أي لا تقبلون عملي و لا تحكمون بصحته و أنا بريءٌ ممّا تعملون و فائدة ذلك الأخبار هي أنّه لا يجازي أحد إلاّ على عمله و لا يؤخذ أحدٌ بجرم غيره:

كما قال تعالىٰ: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**[1].

و أمّا البراءة فهي قطع العلقة الّتي توجب رفع المطالبة و ذلك كالبراءة من الدِّين و البراءة من العيب في البيع و هذا آخر الكلام في حقّ من لا يقبل النُّصح و الموعظة.

١- الأنعام=١٦٤

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ واٰحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنِ اَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْراٰمِي وَ أَنَا بَرِىٓءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ اَللّٰهَ وَ اَشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**[۴].

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ وَ لَوْ كاٰنُوا لاٰ يَعْقِلُونَ

كلمة، مِن، في منهم أيضاً للتّبعيض أي و من جملة هؤلاء الكفّار من يستمع اليك قيل التّاء في يستمعون للطلب أي منهم من يطلب الإستماع منك لكن لا للفهم بل للرّد فلذلك لزمهم الذّم فهم إذا سمعوه على هذا الوجه كأنّهم صمٌّ لم يسمعوه حيث لم ينتفعوا به فأنّ الإستماع الّذي لا إنتفاع فيه فهو كالعدم لأنّ ثمرة الإستماع الإنتفاع ونع عدم الإنتفاع فهو كالشّجر بلا ثمر.

ثمّ خاطب نبيّه فقال له أفأنت تسمع الصمّ، أي أنك لا تقدر عليه و الهمزة للإنكار و أنّما عبّر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفّار بالصمّ و الصُم في الأصل فقدان حاسّة السّمع و به يوصف من لا يصغى الى الحقّ و لا يقبله على سبيل المجاز و قد ورد في هذا اللّفظ في كثير من الموارد في القرآن.

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰياٰتِناٰ صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِى اَلظُّلُماٰتِ**[۶].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ شَرَّ اَلدَّوٰآبِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلصُّمُّ اَلْبُكْمُ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ**[٧].



١- الأنعام=١٩
٢- هود=٣٥
٣- هود=۵۴
۴- الشّعراء=٢١۶
۵- البقرة=١٧١
۶- الأنعام=٣٩
٧- الأنفال=٢٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا مٰا يُنْذَرُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعٰآءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلٰالٍ مُبِينٍ**(٣).

أقول ما ذكره اللّه تعالى في هذه الآية و غيرها حقّ لا مرية فيه: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ قِيلًا**(٤) فأنّ المكذّبين المعاندين لا يستمعون للفهم و التّدبر و الخروج من الجهل و العناد الى العلم و الرّشاد في كلّ عصر و زمانٍ و من لا يؤثّر فيه كلام اللّه وكلام رسوله كيف يؤثّر فيه كلام العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء و نحن نرى في زماننا هذا كثيراً من النّاس بهذه الصّفة مع إدّعائهم الإسلام و أنت تعلم أنّ الكفر لا خصوصيّة فيه من هذه الجهة و إنّما الذّم تعلّق بالصّفة مسلماً كان الموصوف أو كافراً فإذا كان المسلم متصفاً بها فهو من مصاديق الآية قطعاً ألا ترى أنّ أبا سفيان و معاوية و غيرهما ممّن كان مدّعياً للإسلام كانوا بهذه الصّفة أشّد من الكفّار فلم يؤثّر فيهم كلام اللّه و لا كلام رسوله مع أنّهم كانوا مستمعين للرّسول كغيرهم من المؤمنين فما الفرق بينهم و بين الكفّار في عدم قبولهم قول اللّه و قول رسوله فقوله تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ** يشمل الجميع بل المسلم إذا كان متصّفاً بهذه الصِّفة فهو أخبث و أضّل من الكافر لكونه من المنافقين و قد ثبت أنّهم أضّر على الإسلام من الكافر و الإنصاف أنّ أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا ممّن يستمعون الى الرّسول لا للفهم بل للرّد و الإستهزاء و الإنكار و قليل من عبادي الشّكور و لتوضيح ذلك نقول أيّ فرقٍ بين من أنكر دعوة الرّسول رأساً ولم يؤمن به ظاهراً و باطناً و من قبل دعوته

١- الأنبياء=٤٥
٢- الرّوم=٥٢
٣- الزّخرف=٤٠
٤- النساء= ١٢٢

ظاهراً و أنكرها قلباً و باطناً أليس الكُّل ممّن يستمع و لم ينتفع به و بعبارةٍ أخرى ما الفرق بين أبي جهل و أبي لهب و أمثالهما و أبو سفيان و معاوية و أمثالهما من جهة الإستماع و عدم الإنتفاع به حتّى يقال أنّ الآية مختصّة بالكفّار نعم موردها خاصّ بهم و أمّا معناها فعّامٌ بلا كلام و نحن نشاهد مصاديقها في زماننا هذا أكثر من أن تحصى.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ بعضهم ينظر اليك قيل أي ينظر الى أدلّتك و قيل ينظر الى وجهك و النَّظر يكون بمعنى الإعتبار و الفكرالموازنة بين الأمور حتّى يظهر الرّجحان أو المساواة.

قال، إبن عبّاس نزلت الآية و سابقتها في النَّضر بن الحرث و غيره من المستهزئين و قال، إبن الأنباري في قومٍ من اليهود و هذه الآية فيها تقسيم من لا يؤمن من الكفّار الى هذين القسمين بعد تقسيم المكذّبين الى من يؤمن لا يؤمن و الضّمير في يستمعون عائد على معنى، من، و فى قوله: **يَنْظُرُ إِلَيْكَ** الىٰ لفظ، من، و لذلك لم يخبر بلفظ الجمع لأنّه حمله على اللّفظ و اللّفظ لفظ الواحد و هو الأكثر في لسان العرب و المعنى أنّهم عمي فلا تقدر على هدايتهم لأنّ السّبب الّذي يهتدي به الى رؤية الدّلائل قد فقدوه و هذا قد جمع بين فقدان البصر و البصيرة و هذه مبالغة عظيمة في إنتفاء قبول ما يلقي الى هؤلاء إذ جمعوا بين الصُّم و إنتفاء العقل و بين العمى و فقد البصيرة.



أقول و العمري هذا أيضاً كثير في النّاس و لا يختصّ بالكفّار كما قلنا في الآية السّابقة حذو النّعل بالنّعل فأنّ النّظر إذا لم يكن على وجه الإستفادة فهو بمنزلة نظر الأعمى الّذي لا يبصر فكما لا يقدر الإنسان على أن يهدي الأعمى فكذلك هؤلاء لا ينتفعون بنظرهم فكأنّهم لا يبصرون فأنّ العمي آفة تمتنع من الرّؤية و هو على وجهين:

عمي القلب و عمي العين وكلاهما يصلح له هذا الحَّد.

قال القرطبى: في تفسيره لهذه الآية ما هـذا لفـظه أخـبر تـعالى أنّ أحـداً لا يؤمن إلاّ بتوفيقه و هدايته و هذا و ما كان مثله يردّ على القّدرية قولهم كما تقّدم في غير موضع و قال يستمعون على معنى، من، و يـنظر عـلى اللّـفظ و المـراد تسلية النّبي صلى الله عليه وآله أي كما لا تقدر أن تسمع من سلب السَّمع و لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان و قد حكم اللّه عليهم أن لا يؤمنوا إنتهى كلامه.

أقول قوله و قد حكم اللّه عليهم أن لا يؤمنوا، كفرٌ مـحّض و مـع ذلك غـير معقول لأنّ الحكم عليهم بأن لا يؤمنوا، ظلمٌ عليهم قطعاً إذ لقـائلٍ أن يـقول لم حكم اللّه عليهم بأن لا يؤمنوا و حكم على غيرهم بأن يـؤمنوا أليس هـذا مـن الظُّلم الفاحش القبيح على اللّه تعالى و قد وصف نفسه فـي كـثير مـن الأيـات بالعدل:

قال اللّه تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللّٰهُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱللّٰهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[٥].

و الآيات كثيرة و لا شكّ أنّ الحكم على أحدٍ بالإيمان و على الآخر بالكفّر ثمّ بعد ذلك ثبوت العقاب للكافر المحكوم بالكفر من أقبح أنواع الظُّلم فكيف ينسب اليه تعالى حكم عليهم بأن لا يؤمنوا، و أمّا أنّه غير معقول فلوجهين:



١- آل عُمران =١٨
٢- الأعراف =٢٩
٣- يُونس =٥٤
٤- آل عُمران =١٨٢ و الأنفال ٥١ و الحّج ١٠
٥- فصّلت =٤٦

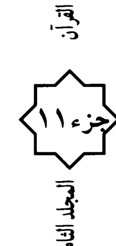
أحدهما: أنّ العقل يحكم بخلافه في حقّه تعالى و أنّه منّزه عنه و عن كلّ قبيح كما ثبت في محله.

ثانيهما: أنّ اللّه تعالى أرسل اليهم الرُّسل فلو حكم عليهم بعدم الإيمان فلم أرسل الرّسول اليهم و المفروض أنّهم محكومون بالكفر الى أن يموتوا ثمّ يسئل عنهم يوم القيامة عن كفرهم الّذي حكم عليهم و لا أظنّ أنّ العاقل يرضى به و العجب من هؤلاء الجّهال كيف حملوا كلام اللّه على هذه المحامل الرّديئة الباطلة أليس هذا منافياً للإسلام الّذي أسّسه اللّه على العدل، أليس هذا من التّفسير بالرّأي الّذي قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في حّق مفسّره، من فسّر القرآن برأيه فليتّبوأ مقعده من النّار و لأجل ما ذكرناه من نفي الجبر و ثبوت الإختيار عقلاً و شرعاً قال تعالى بعد ذلك الكلام:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

فهذه الآية و أمثالها بمنزلة الرَّد على المجَّبرة الّذين قالوا حكم اللّه بكفرهم، و ذلك لأنّ اللّه تعالى قد نفى الظُّلم عن نفسه و قال أنّ اللّه لا يظلم النّاس شيئاً فالحكم على الكفر بأنّهم لا يؤمنون، منفيّ بقوله، هذا و ذلك لما ثبت أنّ هذا الحكم ظلمٌ على العبد فيرجع المعني الى أنّ اللّه لا يحكم على أحدٍ بعدم الإيمان و أمّا قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** يدلّ على أنّ عدم قبول الإيمان و بقاءهم على الكفر أنّما هو بسوء سريرتهم و إختيار هم الكفر على الإيمان إذ لولا ذلك يلزم أن يكون قوله هذا كذباً إذ للعبد أن يقول لخالقه ما ظلمت نفسي لأنّ الكفر لم يكن بإرادتي و إختياري و أنّما أنت ظلمتني حيث حكمت علّي بالكفر فسلبت عنّي القدرة على الإيمان و إذا كان كذلك فما معنى قوله: **وَ لَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**.

قال الشّيخ في التّبيان أخبر اللّه في هذه الآية على وجه التّمدح به بأنّه لا يظلم أحداً شيئاً و أنّما النّاس هُو الّذين يظلمون أنفسهم بإرتكاب ما نهى اللّه



عنه من القبائح فيستَّحقون بها عقاباً فكأنّهم الّذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم و المعنىٰ هاهنا أنّ اللّه لا يمنع أحداً الإنتفاع بما كلفّهم الإنتفاع به من القرآن و أدّلته و لكنّهم يظلمون أنفسهم بترك النظّر فيه و الإستدلال به و تفويتهم أنفسهم الثّواب و إدخالهم عليها العقاب ففي الآية دلالة على أنّه لا يفعل الظّلم لأنّ فاعل الظُّلم ظالم كما أنّ فاعل الكسب كاسب و ليس لهم أن يقولوا يفعل الظّلم و لا يكون ظالماً به كما يفعل العلم و لا يكون به عالماً و ذلك أنّ معنى قولنا، ظالم أنّه فعل الظُّلم كقولنا ضارب أنّه يفيد أنّه فعل الضّرب و كذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظُّلم في غيره.

و أمّا ما قاله القرطبي من أنّ تقدير الشّقاء عليهم و سلب سمع القلب و بصره ليس ظلماً منه لأنّه تصَّرف في ملكه بما شاء و هو في جميع أفعاله عادلٌ، فهو يدلّ على قلّة علمه و سوء فهمه و أنّه لم تعلم معنى الظُّلم واقعاً و ذلك لأنّ الظُّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في موضعه و محلّه و العقل السّليم يحكم بقبحه حكماً قطعيّاً و لذلك يقال أنّ قبحه من المستقلات العقليّة كما أنّ حسن العدل أيضاً من المستّقلات العقليّة الحكم من العقل ثابت قبل حكم الشّرع و لذلك نقول أنّ حكم الشّرع بقبح الظُّلم تأييدٌ للعقل لا تأسيسٌ للقبح و إذا كان كذلك فلا فرق بين صدورٌ من العبد أو من الخالق لأنّ القبيح قبيح من أيّ فاعلٍ صدر كما أنّ الحسن حسنٌ كذلك.

و أمّا قوله لأنّه تصَّرف في ملكه بما شاء، فأنّه كلام باطل لا ربط له بالمقام إذ ليس البحث في القدرة و الإختيار بل البحث في جواز صدور القبيح منه و عدم جوازه و حيث قد ثبت قبح الظُّلم عقلاً و شرعاً فيرجع البحث الى أنّه تعالى هل شاء صدور القبيح أو لا وعلىٰ ما ذكره هذا القائل فيجوز عليه تعالى الكذب و الخيانة و عدم الوفاء بالعهد و أمثال ذلك من القبائح لأنّ اللّه تصَّرف في ملكه بما شاء، و لا يقول العاقل به فضلاً عمّن يدَّعي الإسلام.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى قالوا الآية دالّة على أنّ قلوب أولئك الكفّار بالنسبة الىٰ الإيـمان كـالأصمّ بـالنسبة الى إسـتماع الكـلام و كـالأعمى بـالنسبة الى إبـصار الأشياء و كما أنّه هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه قـالوا و الّـذي يـقوّي ذلك أنّ حصول العداوة الشديدة و كـذلك حـصول المـحبّة الشّـديدة فـي القـلب ليس بإختيار الإنسان لأنّ عند حصول العداوة الشّـديدة يـجد وجـدانـاً ضـروريّاً أنّ القلب يصير كالأصمّ و الأعمى في إستماع كـلام العـدّو و فـى مـطالعة أفـعاله الحسنة و إذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب و أيضاً لمّا حكم اللّه تعالى عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان فحنئذٍ يلزم من حصول الإيمان إنقلاب عـلمه جهلاً و خبره الصَّدق كذباً و ذلك محال انتهىٰ كلامه.

و أنا أقول ما ذكره أيضاً لا يرجع الى محصّلٍ و ذلك لأنّ حصول العـداوة و المحبّة في القلب معلولٌ لحصول الأسباب الموجبة لهما فإذا رأى الإنسان مـن غيره إحساناً أو حسن خلقٍ أو تواضعٍ فيحُّبه قهراً لوجود أسباب المـحبّة و إذا رأى منه التّكبر و سوء الخلق و أمـثالهما مـن القـبائح فـيبغضه لوجـود أسـباب البغض و العدواة.

و من المعلوم أنّ وجـود العـلّة يـقتضي وجـود المـعلول و وجـود السّـبب يقتضي وجود المسّبب فالمحبّة و العـداوة مـعلولان للأسـباب الخـاّرجـية و لا ربط لهما بالقضاء و القدر فأن أراد بقوله أنّهما ليسا بإختيار الإنسان هذا المعنىٰ فهو صحيح و إن أراد بعدم الإختيار أنّهما بقضاء و قدره فعليه بالإثبات.

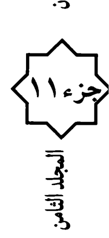
و أمّا قوله و أيضاً لمّا حكم اللّه حكماً جازماً بعدم الإيمان يلزم من حصول الإيمان إنقلاب علمه جهلاً فـهو طـريف مـنه مع إدّعـاءه التّـوغل فـي العـلوم العقليّة و ذلك لأنّ من علم اللّه تعالىٰ أنّه لا يؤمن فهو لا يُؤمن قطعاً فـلا يـلزم الإنقلاب.

و أمّا أنّ عدم إيمانه معلول لعلمه تعالى بأنّه لا يؤمن فهو ليس كذلك لأنّ العلم الأزلي ليس علّة للفعل الخارجي الّذي صدر من المكلّف لأنّ العلم كاشف عن أنواع الواقع لا علّة للفعل فمعنى كونه تعالى عالماً هو أنّه يعلم أنّ العبد بسوء سريرته و خبث طينته و إختياره و ارادته لا يؤمن و أمّا أنّه تعالى حكم عليه بعدم الإيمان بمعنى سلب القدرة عنه فهو غير معقول و لا مشروع بل تفوح منه رائحة الكفر فقوله لمّا حكم اللّه عليها حكماً جازماً بعدم الإيمان، من الإفتراء على اللّه و كذبٌ عليه.

إذ يقال لقائله، أين حكم اللّه به جازماً بعدم الإيمان.

نعم أنّه تعالى أخبر بعدم إيمانه و الإخبار بشئ غير الحكم به و العجب من هؤلاء المجبّرة حيث أنّهم يقولون في تفسير كلام اللّه ما يوافق مذهبهم و أن كان مخالفاً للعقل و الشّرع هذا ما فهمناه من الآية الشّريفة و اللّه تعالى يحكم بين العباد يوم القيامة.

■



وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سٰاعَةً مِنَ ٱلنَّهٰارِ يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقٰآءِ ٱللّٰهِ وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ ﴿۴۵﴾

والباقون بالنُّون و فى قوله: **كَأَنْ** لم يلبثوا ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون صفة اليوم.

الثّاني: أن يكون للمقدّر المحذوف.

الثّالث: أن يكون حالاً من الضّمير في يحشرهم فإذا جعلته صفة لليوم إحتمل أن يكون التّقدير كأن لم يلبثوا قبله إلاّ ساعة كما قال: **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**[1] أي أمسكوهنّ قبله و أن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التّقدير الّذي وصفناه و أن جعلته حالا من الضّمير المنصوب في يحشرهم، لم يحتج الى حذف شيءٍ في اللّفظ لأنّ الذّكر من الحال قد عاد الى ذي الحال و المعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث إلاّ ساعة و معنى يتعارفون، يحتمل أمرين:

أحدهما: أنّ المعنى يتعارفون مدّة إماتتهم الّتي وقع حشرهم بعدها و حذف للدّلالة عليه.

الثّاني: أن يكون يوم يحشرهم معمول ما دلّ عليه قوله: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا** لأنّ المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث فعمل في الظّرف هذا المعنى اذا عرفت هذا فنقول أنّ اللّه تعالى أخبر في هذه الآية عن المحشر و الموقف يوم يشحرهم اللّه الى المحشر **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سٰاعَةً** بزعمهم و ذلك لقلّة بقاءهم فيها و سرعة تصّرمها مع أنّ الأمر ليس كذلك واقعاً لأنّ وقوفهم يطول يوم القيامة و علمهم بدوام بقاءهم في الأخرة.

١- البقرة=٢٣١

قيل شبّه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النّهار لأنّ كلّ ماهو أت قريب واقعاً قال تعالىٰ: **اِقْتَرَبَتِ السّٰاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ**[1] و فيه إيماء الى أنّ الإنسان ينبغي أن لا يغتَّر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيّا و ذلك لأنّ عاقبة ذلك الى الزّوال و كلّ ما يزول فهو قريب واقعاً لا ينبغي الرّكون اليه و الّذي يختلج بالبال في معنى الآية هو أنّ قوله: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سٰاعَةً**، إشارة الى عالم البرزخ لا الى الموقف كما زعموه و ذلك لأنّ الحشر بعد عالم البرزخ و عليه فالمعنى يوم يحشرهم بعد البعث و الخروج من البرزخ الى الموقف: **كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سٰاعَةً** من النّهار بسرعة تصَّرمها أي كأن لم يلبثوا في الدنيّا أو في القبور و هو كناية عن قلّة لبثهم و ذلك لهول ما يعاينون من شدائد القيامة أو لطول يوم القيامة و وقوفهم للحساب.

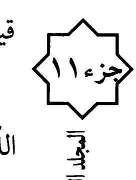
قال إبن عبّاس رأوا أنّ طول أعمارهم في مقابلة الخلود لساعة و أمّا قوله يتعارفون فقيل معناه يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم في الدنيّا اذا خرجوا من قبورهم و هو تعارف توبيخ و إفتضاح يقول بعضهم لبعضٍ أنت أضللتني و أغويتني و ليس تعارف شفقة ثمّ تنقطع المعرفة اذا عاينوا أهوال يوم القيامة.

و قيل يعرف بعضهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ و الكفر.

و قال الضّحاك تعارف تعاطف المؤمنين و أمّا الكافرون فلا أنساب بينهم و قيل للقيامة مواطن ففي موطنٍ يتعارفون و فى موطنٍ لا يتعارفون.

و أمّا قوله: **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا**[2] الى أخره فقيل أنّه جملة مستأنفة أخبر اللّه تعالى فيها بخسران المكذّبين بلقاءه.

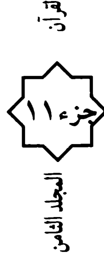
و قال الزّمخشري هو إستئناف فيه معنى التّعجب كأنّه قيل ما أخسرهم.



۱- القمر =۱ ۲- النعام = ۳۱

أقول الحقّ أنّ فيه إخبار بخسران المكذّبين بالبعث و النّشور و لقاء ثواب اللّه و عقابه في دار الدنيّا فأولئك الذين يخسرون أنفسهم بسبب تكذيبهم الرّسول و الخسران ذهاب رأس المال و أيّ مالٍ أكبر و أشرف من النَّفس و قوله: **وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ** أي الى طريق الجنّة لكونهم مستحقين للعقاب.

■



وَ إِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ ما يَفْعَلُونَ ﴿۴۶﴾ وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿۴۷﴾ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴿۴۸﴾ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسي ضَرًّا وَ لا نَفْعًا إِلّا ما شاءَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿۴۹﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتيٰكُمْ عَذابُهُ بَياتًا أَوْ نَهارًا ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿۵۰﴾ أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ اٰمَنْتُمْ بِهِ آلْاٰنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿۵۱﴾ ثُمَّ قيلَ لِلَّذينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿۵۲﴾ وَ يَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اي وَ رَبّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزينَ ﴿۵۳﴾ وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا ٱلْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿۵۴﴾ أَلا إِنَّ لِلّٰهِ ما فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿۵۵﴾ هُوَ يُحْيي وَ يُميتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿۵۶﴾

◀اللّغة

بَيَاتًا، البَيات هو إتيان الشّئ ليلاً يقال بَيَّته تَبييتاً و بياتاً و بَيتوتةً.
يَسْتَنبِئُونَكَ، الإستنباء الإستخبار أي يطلبون النَّبأ.
لَافْتَدَتْ به، الإفتداء إيقاع الشّئ بدل غيره لدفع المكروه.
أَسَرُّوا أي أخفوا.

◀الإعراب

مَاذَا مبتدأ ويَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الخبر آلْآنَ منصوب بفعلٍ مقدّر تقديره أمنتم الأن أَحَقٌّ هُوَ مبتدأ و هو مرفوع به و يجوز أن يكون هو، مبتدأ و أحقّ الخبر و موضع الجملة نصب يستنبونّك و اىٖ بمعنى نعم وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ مستأنف.

◀التّفسير

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قالوا نرينّك من رؤية العين لا من رؤية الإعلام اذ لو كان من رؤية الإعلام لتّعدى الى مفعولين و نون التّأكيد في الجزاء لا تجوز الاّ مع ما، كما لا يجوز الجزاء (اذ وحيث) إلاّ مع ما، و البعض شيئ يفصل من الكلّ و معنى الآية إن أريناك يا محمّد بعض ما نعد هؤلاء الكفّار من العذاب عاجلاً بأن ننزل عليهم ذلك في حياتك و إن أخّرنا ذلك عنهم الى بعد وفاتك و وفاتهم فأنّ ذلك لا يفوتهم **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ** أي لأنّه إلينا مرجعهم و اللّه شاهد بأعمالهم و قوله: **ثُمَّ** بمعنى الواو أي و اللّه شهيد على ما يفعلون فأنّ التّرتيب و التّأخير لا معنى له في حقّه تعالى.

و قال في تفسير بحر المحيط قال إبن عطية إمّا هي إن الشرطيّة زيد عليها، ما، و لأجلها جاز دخول النّون الثقيلة ولو كانت إن، وحدها لم يجز يعني أنّ

دخول النّون للتّأكيد أنّما يكون مع زيادة ما، بعد، إن، و هذا الّذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه.

ثمّ نقل عن إبن خروف أنّه قال أجاز سيبويه الإتيان بما، و إن لا يؤتى بها، و الإتيان بالنّون مع، ما، و إن لا يؤتى بها ثمّ قال و الإراءة هنا بصريّة و لذلك تعدى الفعل الى أثنين و الكاف خطاب للرّسول صلّى الله عليه و آله و بعض الّذي نعدهم، يعين من العذاب في الدنيّا و قد أراه اللّه تعالى أنواعاً من عذاب الكفّار في الدنيّا قتلاً و أسراً و نهباً للأموال و سبياً للذّراري و ضرب جزية و تشتيت شملٍ بالجلاء الى غير بلادهم و ما يحصل لهم في الأخرة أعظم لأنّه العذاب الدّائم الّذي لا ينقطع و الظّاهر أنّ جواب الشرط هو قوله: **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** كذا قاله الخوفي و إبن عطيّة انتهى كلامه.

و قيل معنى الآية الوعيد بالرّجوع الى اللّه تعالى أي إن أريناك عقوبتهم أو لم نركها فهم على كلّ حالٍ راجعون الينا للحساب و العذاب ثمّ مع ذلك، اللّه شهيدٌ على جميع أعمالهم فثمَّ هاهنا لترتيب الأخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

و قال صاحب الكشّاف، فإلينا مرجعهم، جواب نتَّوفينك و جواب نرينَّك محذوف كأنّه قيل، و أمّا نرينَّك بعض الّذي نعدهم فذاك أو نتَّوفينك فيل أن نريكه فنحن نريك في الأخرة انتهىٰ.

أقول حاصل ما يستفاد من الآية الشّريفة هو أنّه تعالى يري رسوله أنواعاً من ذلّ الكافرين و خزيهم في الدنيّا و سيزيد عليه بعدوفاته و هذا ممّا لا خفاء فيه.

جزء ١١

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذاٰ جاٰءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ

الأمّة الجماعة الّتي على دين واحدٍ و طريقةٍ واحدة كأمّة محمّد و أمّة موسى و عيسى أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ لكلّ أمّةٍ من الأمم رسولاً بعثه اللّه اليهم ليهتدوا به:

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**[1].

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَآءِ وَ الضَّرَّآءِ**[2].

و أنّما جعل اللّه لكلّ أمّةٍ رسولاً لأنّ قاعدة اللُّطف تقتضي ذلك و لئلا يقول النّاس يوم القيامة:

قال اللّٰه تعالىٰ: **لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ اٰيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ**[3].

و قوله: **فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** فقيل هو يوم القيامة و قال الحسن في الدنيّا بما أذن اللّه من الدّعاء عليهم و قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** معناه فصّل بينهم الأمر على الحتّم فأنّ اللّه تعالى يقضي بين الخصوم يوم القيامة أي يفصل بينهم فصلاً لا يرَّد بالقسط يعني بالعدل، و المقسط العادل، و القاسط الجائر و منه قوله: **وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**[4] والأصل واحد فالمقسط العادل الى الحقّ و القاسط العادل عن الحقّ و قوله: **وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ**.

أن قلت قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** يغني عن قوله: **وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** اذ مع وجود الظُّلم كيف يقال: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**.

قلت أجابوا عنه بأنّه يمكن أن يكون العدل في أوّله و الظُّلم في أخره فنفى بذلك نفياً عامّاً ليخلص العدل في كلّ أحوالهم انتهى.

و الحقّ أنّ التّكرير لأجل التّأكيد و المبالغة في نفي الظُّلم و ذلك لأنّ قوله: **قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** يدلّ على القضاء كذلك من الإبتداء الى الإنتهاء فلا يقال لمن حكم في أوَّل الأمر بالعدل و فى أخره بالظُّلم أنّه قضى بالقسط بقولٍ مطلق و عليه فالحقّ ما ذكرناه.

۱- فاطر =۲۴
۲- الأنعام =۴۲
۳- طه =۱۳۴
۴- الجنّ =۱۵

وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ

المراد بالوعد في الآية ما وعدهم اللّه على لسان أنبياءه بالبعث و النّشور و الثّواى على الطّاعة و العقاب على المعصية و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار يقولون متى هذا الوعد الّذي تعدوننا به من البعث و ما يتّرتب عليه من الحساب أن كنتم صادقين في وعدكم إيّانا و قوله: **مَتىٰ** سؤال عن الزّمان كما أنّ أين، سؤال عن المكان.

أن قلت أنّ الوعد خبر ما يعطي من الخير، و الوعيد خبر ما يعطي من الشّر فقوله حكايةً عنهم، متى هذا الوعد، ينافي ذلك لأنّ ما و عدوه كان شرّاً لهم لا خيراً فالمناسب للمقام هو إستعمال الوعيد لا الوعد.

قلت ما ذكروه في الفرق بين الوعد و الوعيد صحيح اذا فصّل الكلام و أمّا في صورة الأعمال فالوعد يقع على الجميع و ما نحن فيه كذلك ثمّ أمر اللّه تعالى نبيّه بأن يجيب لهم فقال:

قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعًا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ ٱللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين إستبطئوا ما وعدهم اللّه بقولهم متىٰ هذا الوعد أنّي لا أملك لنفسي ضرّاً و لا نفعاً من الثّواب و العقاب و البعث و النّشور إلاّ ما ملّكني اللّه فكيف أملك لكم أو كيف أطلّعكم على ما لم يطلّعني عليه اللّه.

و الحاصل أنّ الأمر ليس بيدي و أنّما هو بيد اللّه و تحت قدرته و هو الّذي وعدكم بما وعدكم و لكن لكلّ أمّةٍ أجل إنفرد بعلمه تعالى لا يعلم وقته إلاّ هو **إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ** أي لا يكون فيه التّقديم و التّأخير أبداً و حاصل الكلام هو أنّ الأمور بيده تعالى و ما وعدتم به أنّما وعدتم عن اللّه لا عن قبل نفسي فالبعث و النّشور و الثّواب و العقاب قد

أخبر اللّه بها و هو أعلم بوقتها و أمّا أنا فلا أملك لنفسي نفعاً و لا ضرّاً إلاّ ما شاء اللّه فالإستثناء متصل و قالت الأشاعرة هو منفصل و التقدير و لكن ما شاء اللّه من ذلك كائن، فعلى القول بالإتصال معنى الكلام أنّ العبد لا يملك لنفسه ضرّاً و لا نفعاً إلاّ الطاعة و المعصية فهذا الإستثناء يدلّ على إستقلال العبد بهما.

و أمّا على القول بالإنفصال فمعنى الكلام أنّ العبد لا يقدر على شئ و لكن ما شاء اللّه فهو كائن و التّقدير خلاف الأصل و الجبر خلاف العقل فالإتّصال هو الحقّ و أمّا **الأجَل** بفتح الجيم فهو الوقت المضروب لوقوع أمرٍ كأجل الدّين و أجل البيع و غيرهما من الأجال و لا شك أنّ أجل الموت لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذابُهُ بَياتًا أَوْ نَهارًا ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ

قال بعض المفسّرين أريتم، أي أعلمتم، لأنّها من رؤية القلب لأنّها دخلت على الجملة من الإستفهام.

و قال بعضهم أنّ العرب تضّمن، أرأيت معنى أخبرني و أنّها تتّعدى اذ ذاك الى مفعولين و أنّ المفعول الثّاني أكثر ما يكون جملة إستفهام ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ و خبر كقولهم أرأيت زيداً ما صنع، المعنى أخبرني عن زيد ما صنع و قبل دخول، أرأيت كان الكلام، زيد ما صنع و عليه، أفرأيتم هنا المفعول الأوّل لها محذوف و المسألة من باب الأعمال تنازع، أرأيت و أن أتاكم، على قوله، عذابه فأعمل الثّاني إذ هو المختار على مذهب البصريين و هو الّذي ورد به السّماع أكثر من إعمال الأوّل فلمّا أعمل الثّاني حذف من الأوّل ولم يضمر لأنّ إضماره مختص بالشّعر أو قليل في الكلام على إختلاف النحويين في ذلك وكيف فالمعنى قل لهؤلاء الكفار يا محمّد أخبروني من عذاب اللّه أن أتاكم أيّ شئٍ تستعجلون منه و ليس شئ من العذاب يستعجله عاقل إذ العذاب كلّه مرٌّ المذاق فوجب لنفار الطّبع منه فتكون جملة الإستفهام جاءت

على سبيل التَّلطف بهم و التنبيه لهم أنّ العذاب لا ينبغي أن يستعجل و يـجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التـعجب و التـهويل للـعذاب أي أيُّ شـيءٍ شديدٍ تستعجلون منه أي ما أشدّ و أهول ما تستعجلون من العذاب

قال صاحب الكشّاف، فأن قلت، هلاّ قيل ليلاً أو نهاراً، بدل قوله: **بَيٰاتًا أَوْ نَهٰارًا.**

قلت لأنّه أريد أن أتاكم عذابه وقت بيات فبيَّتكم و أنتم ساهون نـائمون لا تشعرون كما بيّت العدّو المـباغت، و البـيات بـمعنى التَّـبييت كـالسّلام بـمعنى التسليم و كذلك قوله: **نَهٰارًا** معناه في وقتٍ أنتم فيه مشتغلون بطلب المـعاش و الكسب و نحوه بياتاً و هم نائمون ضحىً و هم يلعبون انتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم القمّي عن أبي الجارود و عن أبي جـعفر عليه السلام فـي قوله تعالى: **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰيكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتًا أَوْ نَهٰارًا** قال عليه السلام فهذا عذاب ينزل في آخر الزّمان على فسَّقة أهل القبلة و هم يجحدون نزول العذاب عليهم انتهى.

أَثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ اٰمَنْتُمْ بِهِۦٓ آلْاٰنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.

دخلت ألف الإستفهام على، ثمّ، ليدلّ على أنّ الجملة الثانيّة بعد الأولى مع أنّ لِلألف صدر الكلام و كلمة **ثُمّ** للعطف خلافاً للطّبري حيث زعم أنّ مـعنى، ثمّ، هاهنا، هنالك، و لم يعلم أنّ ما يكون بمعنى، هنالك، هو، **ثَمّ** بـفتح الثّـاء لا بضمها و هذه مضمومة فلا تكون إلاّ للعطف.

قال صاحب الكشّاف قوله: **أَثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ اٰمَنْتُمْ بِهِۦٓ** جواب الشّرط أعني به قوله: **إِنْ أَتٰيكُمْ عَذٰابُهُ** و قوله: **مٰاذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ اَلْمُجْرِمُونَ** إعتراضاً و المعنى، إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيـمان و دخـول حرف الإستفهام على، ثـمّ، كـدخوله عـلى الواو و الفاء فـي قـوله: **أَفَأَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرىٰٓ**[1] أو أمن أهل القرى انتهى كلامه.

١- الاعراف = ٩٧

و قد ردَّ عليه بعض المفسّرين و قال أنّ جملة الإستفهام لا تقع جواباً للشرط إلاّ و معها فاء الجواب و ما نحن فيه ليس كذلك.

ثانياً: أنّ، ثمّ، هنا حرف عطفٍ تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها فالجملة الإستفهامية معطوفة و إذا كانت معطوفة لم يصحّ أن تقع جواب شرطٍ.

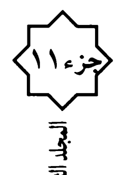
ثالثاً: قوله: **أَرَأَيْتُمْ** بمعنى أخبرني تحتاج الى مفعول و لا تقع جملة الشّرط موقعه انتهىٰ.

و كيف كان فالمعنى أتأمنون حلول العذاب بكم، ثمّ يقال لكم إذا وقع بكم العذاب و شاهدتموه الآن آمنتم به و كنتم به تستعجلون فمعنى الآية مرتبطة بما قبلها أي أنّ العذاب الّذي كنتم به تستعجلون إذا وقع عليكم آمنتم به الآن أي بعد وقوع العذاب و لا نفع فيه فلا ينتفع صاحبه بعد وقوع الحادثة كما لم ينتفع به فرعون بعد أن أدركه الغرق:

قال اللّه تعالىٰ: **اٰمَنْتُ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا اَلَّذيٓ اٰمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرآئيلَ وَ أَنَا مِنَ اَلْمُسْلِمينَ**[١].

فقال تعالىٰ في جوابه:

قال اللّه تعالىٰ: **آلْاٰنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ اَلْمُفْسِدينَ.فَالْيَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً وَ إِنَّ كَثيرًا مِنَ اَلنّاسِ عَنْ اٰياتِنا لَغٰافِلُونَ**[٢].



والفرق بين المقامين أنّ فرعون كان قبل وقوع العذاب من المفسدين و أنّ هؤلاء الكفّار كانوا قبله من المستعجلين.

و أمّا في عدم الإنتفاع بإيمانهم بعد وقوع العذاب فلا فرق بينهم و يستفاد من الآية الشّريفة أنّ العلاج لداء المعصية و الطغيان قبل الموت لا حينه فضلاً

١- يونس =٩٠
٢- يونس = ٩١/٩٢

عن بعده و عليه فالتّوبة عن الذّنب أيضاً حكمه كذا كما صرّحت بـه الأيـات و الأخبار.

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَنْفَعُ نَفْسًا ايمانُها لَمْ تَكُنْ امَنَتْ مِنْ قَبْلُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَيْسَتِ اَلتَّوْبَةُ لِلَّذينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّاٰتِ حَتّٰى إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قٰالَ إِنّى تُبْتُ اَلْاٰنَ وَ لاَ اَلَّذينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابًا أَليمًا**(٢).

و الحاصل أنّه لا فرق في الحكم بين الإيمان و التّوبة لأنّها من الإيمان قطعاً.

ثُمَّ قيلَ لِلَّذينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلّٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

ثمّ، عطف على الإيمان الّذي وقع في حال الإلجاء اليه و أنّما قيل لهم هـذا القول على وجه التّوبيخ و التّقريع لأنّها ليست حال إستدراك لما فات.

و المعنى أنّه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم و قيل لهم الآن و قد إستعجلتم، ذوقوا عذاب الخلد، يعني الدّائم الّذي لا آخر له و يـقال لهـم، هل تجزون، بعذاب العقاب إلاّ بما كنتم تكسبون من المعاصي و الذّوق طـلب الطّعم بالّفم في الإبتداء شبّهوا بالذّائق لأنّه أشدّ إحساساً.

و قيل لأنّهم يتجرّعون العذاب بدخوله في أجوافهم قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف، ثمّ قيل للّذين ظلموا، عـطف عـلى قـيل المُـضمر قبل الآن انتهى.

أقول و عليه فتقدير الكلام قيل: **آلْاٰنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ثُمَّ قيلَ لِلَّذينَ ظَلَمُوا** و قال بعض المفسّرين أي تقول لهم خزنة جهنّم هذا الكلام.

و الظّلم ظلم الكفر لا ظلم المعصية لأنّ من دخل النّار من عصاة المؤمنين لا يخلّد فيها.

١- الأنعام=١٥٨ ٢- النّساء=١٨

أقول ما ذكره من أنّ المراد بالظُّلم هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية لا دليل عليه بل الدليل من العقل و النّقل على خلافه.

أمّا العقل فلأنّ الظُّلم له مراتب كثيرة شدّة و ضعفاً فهو مقول على ما تحته من المصاديق على سبيل التّشكيك فهو يصدق على قاتل النّبي و الوصّي و الصلّحاء و المؤمنين كما يصدق على إيذاء المسلم باللّسان فمن سبَّ مؤمناً فهو ظالمٌ و من قتله بغير جرم فهو أيضاً ظالم و من خالف النّبي في حكم من أحكامه فهو ظالم و من أنكره أو قتله فهو أيضاً ظالم و العقل يحكم بالفرق قطعاً و لا فرق في حكم العقل بين الكافر و المسلم إذ لا تخصيص في العقليّات و لم يدلّ دليل من العقل على أنّ الظُّلم الذي يوجب الخلود في النّار هو ظلم الكفر لا غيره و على المدعي الإثبات بل العقل السليم يحكم بأنّ مناط الخلود في النّار هو بعض أقسام الظّلم و نعبّر عنه بالظُّلم الفاحش و لا فرق فيه بين الكافر و المسلم في الخلود و مجرّد الإسلام و الإيمان في ظاهر الأمر لا يكفي في المقام فهذا حكم العقل.

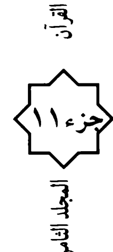
وأمّا النّقل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**(١).

فهذه الآية صَريحةٌ في أنّ قاتل المؤمن عَمداً، جزاءه جهنّم خالداً فيها مع أنّه ليس بكافر.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ اَلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**(٣).



١- النّساء=٩٣ ٢- النّساء=١٤
٣- البقرة=٨١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰآ أَبَدًا**(٢).

و الأيات كثيرة بل نقول أنّ بعض الظّالمين من المسلمين حتّى المؤمنين بزعم العامّة كان ذنبهم أشدَّ من ذنب الكفر فلا محالة يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الكفّار أمثال معاوية و يزيد و عبد الملك و إبن زياد و الحجّاج و الدّوانيقي و غيرهم من الظّلمة و المنافقين الّذين في الدَّرك الأسفل من النّار فقوله تعالىٰ: **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ** يشمل المستّحقين للخلود فيها من الكفّار و غيرهم.

و أمّا قوله: **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** ففيه إشارة الىٰ أنّ العذاب كيف كان مترتبٌ على العمل و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد فالإستفهام إنكاريٌ أي لا تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون و الى هذا المعنى أشير في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَيْهٰا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ اَلْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى اَلدّٰارِ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ**(۶).

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا يَكْسِبُونَ**(٧)

و الأيات كثيرة.

١- المؤمنون=١٠٣
٢- الجّن=٢٣
٣- الأنعام =١۶۴
۴- الرّعد =۴٢
۵- الزّمر =٢۴
۶- النّساء =١١١
٧- سورة البقرة أية ٧٩

وَ يَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اىِ وَ رَبّىٓ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

الإنباء الإخبار و منه النّبي لأنّه يخبر عن اللّه و المعنى يستخبره و رنك أي يطلبون منك النّبأ الّذي هو الخبر، أحقٌّ هو، يعني أحقٌّ هذا الوعيد الّذي أخبر اللّه به في هذه الآية و غيرها، قل لهم يا محمّد، إي و ربّي أي نعم و حقّ اللّه أنّه لحقٌّ و لا خلاف فيه فأنّ اللّه صادق في وعده و وعيده و من أصدق من اللّه قيلاً، و ما أنتم بمعجزين، أي لستم تقدرون على إعجاز اللّه عمّا يريده من إنزال العذاب بكم و الإستفهام في قوله، أحقٌّ هو، للإستهزاء و الإنكار من هؤلاء الكفّار.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** أي ما أنتم بفائتين العذاب و هو لاحق بكم لا محالة.

و قال الفرّاء أي ما أنتم ممّن يعجز من يعذّبكم أي إذا أراد اللّه أن يعذّبكم لن تقدروا على دفعه و منعه.

وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ.

اللّه تعالى في هذه الآية عن شدّة العذاب الّذي أعدّه لهم بسبب أعمالهم فقال ولو كان للظّالم جميع ما في الأرض من الأموال، لإفتدت به من هول ما يلحقه و يشاهده من العذاب و قوله و أسرُّوا النّدامة أي أخفوها و قيل أي أخلصوها و النّدامة الحسرة على ما كان يتّمنى أنّه لم يكن و المقصود أنّهم يندمون على ما فعلوا بعد رؤية العذاب إلاّ أنّهم يسّرون بها في قلوبهم قوله: **وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ** إشارة الى أنّ اللّه تعالى هو القاضي و الحاكم بين العباد و يوم القيامة و لمّا ثبت عقلاً و نقلاً أنّه قائم بالقسط والعدل فلا محالة لا يظلمون أبداً لأنّ الظّلم قبيح و هو تعالى منزه عن القبائح و أمّا الإفتداء فهو إيقاع الشّئ بدل يغره لدفع المكروه.

تنبيهٌ

قال أبو عبيدة، أسرُّوا، معناه أظهروا و قال الأزهري هذا غلط أنّما يكون بمعنى الإظهار ما كان بالشّين المنقطعة من فوق انتهى.

أقول ما ذكره أبو عبيدة حقٌّ و ذلك لأنّه أي، أسرَّ من الأضداد و هو يأتي بمعنى أظهر كما يأتي بمعنى أخفى و الى هذا المعنى أشار الفرزدق بقوله.

و لمّا رأىٰ الحجّاج جرَّد سيفه　　　أسرَّ الحروري الّذي كان أظهر

و قال الأخر:

فأسررت النّدامة يوم نادى　　　بردّ جمال غاضرة المنادى

نعم هو بمعنى أخفى أشهر و عليه يحمل ما في الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ**[٣].

و أمّا في المقام فيحتمل الوجهين و الإخفاء أشهر و عليه إجماع المفسّرين.

أَلآ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَلآ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ

ألا، كلمة، تستعمل في التنبيه قيل أصلها لا، دخلت عليها حرف الإستفهام تقريراً و تأكيداً فصارت تنبيهاً قالوا و كسرت، إن، بعد ألا، لأنّ لا، يستأنف ما بعدها لينبّه بها على معنى الإبتداء و لذلك وقع بعدها الأمر و الدُّعاء نبَّه اللّه عباده في هذه الآية على أمرين:

أحدهما: أنّه مالك السّموات و الأرض فأنّ اللّام في، لِلّٰه لام الملك و قيل لام الإختصاص و المأل فيها واحد.

١- النّحل =٢٣　　٢- النّحل =١٩

٣- الملك =١٣

الثّاني: أنّ وعد اللّه حقّ لا خلاف فيه و الدليل على أنّه مالك لها هو أنّه خلق السّموات و الأرض و كلّ خالقٍ فهو مالك لمخلوقه قهراً لأنّ المعلول رشحة من رشحات العلّة فلا يكون منفكاً عنها فالعلّة تتّصرف في معلولها كيف تشاء و لا نعني بالمالكيّة إلاّ هذا و اذا أثبت كونه مالكاً لهما ثبت كونه مالكاً لما فيهما من المخلوق كائناً من كان فثبت أنّه تعالى مالك لكلّ ما سواه و المالك يتّصرف في مملوكه بما يشاء و كيف يشاء و حيث ثبت عموم قدرته عقلاً و نقلاً فهو قادر على إيقاع ما توَّعد به و هو المطلوب و أمّا أنّ وعد اللّه حقّ فهو أيضاً مسلّمٌ لا شكّ فيه أمّا عقلاً فلأنّ عدم الوفاء به لا يخلو إمّا أن يكون منشأه عدم القدرة على الوفاء به و أمّا أن يكون الباعث عليه هو خبث الطينة و سوء السريرة كما هو كذلك في حقّ أكثر النّاكثين النّاقضين للعهد و كلاهما في حقّه تعالى محال.

أمّا الأوّل: فواضح اذ المفروض أنّه على كلّ شيٍ قدير فكيف لا يقدر عليه.

أمّا الثّاني: فلأنّه قبيح و هو تعالى منّزه عنه فثبت أنّ وعده حقّ أي ثابت لا يتّغير أو لا سبيل للبطلان عليه و هو المطلوب فالحاصل من الآية هو مالكيّته لما سواه لا خلاف في وعده و هو المطلوب.

و اذا كان كذلك فليحذر الّذين يخالفون أمره و نهيه فأنّه تعالى بالمرصاد.

و أمّا قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** معناه أنّ أكثر النّاس لا علم لهم بما ذكرناه فزعموا أنّ مالكيّته تعالى كمالكيّة غيره و وعده أيضاً كذلك.

هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي كيف لا يوصف بما ذكرناه و الحياة و الموت بيده و من أحيا و أمات أوّلاً فهو قادر على الإحياء ثانياً فأنّ حكم الأمثال واحد و هذا هو المراد بالرّجوع اليه تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**[1].



۱- البَقرة =۱۵۶

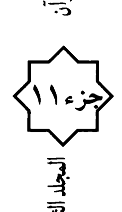
قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راٰجِعُونَ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ عَلٰى رَجْعِهِ لَقٰادِرٌ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[۳] والأيات كثيرة.

و من المعلوم فأنّ قوله: **وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فيه إشارة الى الثّواب و العقاب على الأعمال ضمناً إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً كما هو فلسفة الرّجوه اليه تعالى و تقديم المسند اليه أعين به كلمة هو، على الفعل لإفادة الحصر أي غيره تعالى لا يقدر على الإحياء و الإماتة واقعاً و مع ذلك فيها دلالة على كونه تعالى قادراً على الإعادة لأنّ من قد على النّشأة الأولى يقدر على النّشأة الثّانية أيضاً و سيأتي تفصيل الكلام في هذا الباب عند البحث في المعاد إن شاء اللّه تعالى.

■



۱- البقرة =۴۶
۲- الطّارق =۸
۳- فصّلت =۲۱

يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَآءٌ لِمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرامًا وَ حَلاٰلًا قُلْ ءَآللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللّٰهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَ مَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْاٰنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لاٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتٰبٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰتِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَ لاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

◀اللّغة

شِفٰآءٌ هو معنىً كالدّواء لإزالة الدّاء.

تَفْتَرُونَ الإفتراء الكذب.

شَأْنٍ،الشّأن و البال و الحال نظائر و جمعه شئون.

تُفِيضُونَ مأخوذ من فيض الإنٰاء اذا إنصَّب من جوانبه و منه قوله: **أفَضتُم مِن عَرفات** أي تفرَّقتم كتَّفرق الماء الَّذي ينصَّب من الإنّاء.

يَعْزُبُ، العُزُوب الذّهاب عن المعلوم و ضدّه حضور المعنى للنّفس يقال تعزَّب فلان إذا إنفرد عن أهله و قيل لا يعزب أي لا يغيب.

◀الإعراب

وَ شِفٰآءٌ هو مصدر في معنى الفاعل أي و شافٍ و قيل هو في معنى المفعول أي المشفي به فَبِذٰلِكَ: قيل الفاء الأوّل مرتبطة بما قبلها.

الثّانية: بفعلٍ محذوف تقديره فليعجبوا بذلك فليفرحوا و قيل الأولى زائدة و الجمهور على الياء بناءً على أنّه أمرٌ لغائب و هو رجوع من الخطاب الى الغيبة و يقرأ بالتّاء أيضاً فِي شَأْنٍ خبر كان مٰا تَتْلُوا ما نافية و مِنْ قُرْاٰنٍ مفعول تتلوا إِذْ تُفِيضُونَ ظرف لشهود مِنْ مِثْقٰالِ في موضع رفع بيعزب بضّم الزّاي و كسرها وَ لآٰ أَصْغَرَ وَ لآٰ أَكْبَرَ بفتح الرّاء في موضع جرّ صفة لذرّة أو لمثقال على اللّفظ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ الإستثناء منقطع اَلَّذِينَ اٰمَنُوا مبتدأ ولَهُمُ اَلْبُشْرىٰ خبره فِى اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا يجوز أن تتعلق بالبشرى و أن يكون حالاً منها و العامل الإستقرار و لاٰ تَبْدِيلَ مستأنف.

◀التّفسير

يٰٓا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفٰآءٌ لِمٰا فِى اَلصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

الخطاب لجميع المكلّفين من النّاس أخبر اللّه تعالى فيه بأنّه أتاهم موعظة من اللّه تعالى اليهم و الموعظة ما يدعوا الى الصّلاح و يزجر من القبيح بما يتّضمنه من الرّغبة و الرّهبة و يدعو الى الخشوع و النُّسك و يصرف عن الفسوق و الإثم و المراد بها القرأن و ما جاء به النّبي من الأحكام في الشّريعة و قوله: **وَ شِفَآءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ** إشارة الى ما يتّرتب على الموعظة من الأثار فالشّفاء بمنزلة الدّواء لإزالة داء الجهل الّذي هو أضرّ من داء البدن و علاجه أعسر و أطباءه أقلّ و الصُّدور جمع صدر موضع القلب قالوا و هو أجلّ موضعٍ في الحيّ لشرف القلب.

و قوله: **وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** قيل أنّه وصف للقرأن أي أنّ القرأن كذلك و التخصيص بالمؤمنين لأنّ غير المؤمن لا يتّعظ بالقرأن لكفره و عناده ومن المعلوم أنّ تأثير العلة في المعلول مشروط بقابليّته للتّأثر أعني بها عدم وجود المانع فيه و أمّا مع وجوده فيه فلا تؤثر العلّة فيه لا لنقصٍ في العلّة بل لوجود المانع في المعلول و حيث أنّ الكفر و الفسق يمنعان عن التّأثر فلا تأثير في المقام و لأجل ما ذكرناه قد خصّ اللّه تعالى الهداية و الرّحمة بالمؤمنين في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ ٱلْكِتٰابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ جِئْنٰاهُمْ بِكِتٰابٍ فَصَّلْنٰاهُ عَلٰى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**(٤).

١- البقرة =٢ ٢- النّساء =١٦٢
٣- الأسرىٰ =٩ ٤- الأعراف =٥٢

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذا بَصٰآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُنَزِّلُ مِنَ اَلْقُرْآنِ ما هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**(٣) و الأيات كثيرة.

محصّل الكلام في المقام هو أنّ المؤمنين ينتفعون بالقرأن لإيمانهم.

و أمّا الكفّار فلا ينتفعون به لكفرهم و هذا لا ينافي أن يكون القرأن هادياً للكلّ واقعاً فأن مقام القابليّة و الشّأنيّة غير مقام الفعليّة فالقرأن هاوٍ للكلّ لولا المانع و ليس كذلك مع وجوده.

قُلْ بِفَضْلِ اَللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ

أي قل يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله لهؤلاء المؤمنين بفضل اللّه و رحمته فبذلك.

قال الفّراء هو بدل من قوله بفضل اللّه و برحمته و الفضل هو زيادة النّعمة و إضافته الى اللّه بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى أنّه مالك له فليفرحوا، قيل الفاء زائدة لأنّ المعنى فإفرحوا بذلك و الفرح لذّة في القلب بإدراك ما يحبّ و أن شئت قلت هو لذّة في القلب بنيل المشتهي و قوله: **هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ** أي هو خير ممّا يجمعه غيركم من أعراض الدنيّا.

قال بعض المفسّرين فضل اللّه هو القرأن و رحمته هو الإسلام و خير ممّا يجمعون، هو الذّهب و الفضّة.

و عن أبي جعفر عليه السلام فَضل اللّه هو الإقرار بالرّسالة وبرحمته الإئتمام لعلّي عليه السلام وحَمل الآية علىٰ عمومها أولىٰ.

١- الأعراف =٢٠٣ ٢- النّحل =٩٠
٣- الإسراء =٨٢

أقول رُوي عن الصّادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: شِفَآءٌ لِمَا فِى ٱلصُّدُورِ أي من أمراض الخواطر ومُشتبهات الأُمور.

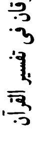
و قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ(١)

و في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله تعالىٰ: **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ** الفضل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و رحمته أمير المؤمنين عليه السلام و بذلك فليفرحوا، قال فليفرح شيعتنا هو خير ممّا أعطوا أعداءنا من الذّهب و الفضّة انتهى.

و عن الرّضا عليه السلام في هذه الآية قال عليه السلام: بولاية محمّد وأل محمّد هو خير ممّا يجمع هؤلاء من دنياهم.

و عن أمالي الصّدوق بأسناده الىٰ النّبي صلى الله عليه وآله والحديث طويل فيه يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله لعلّي عليه السلام و الّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً ما أمن بي من أنكرك ولا أقرّ بي من جحدك ولا أمن باللّه من كفر لك وأنّ فضلك لمن فضلي و أنّ فضلي لفضل اللّه و هو قول اللّه عزّ و جلّ، قل بفضل اللّه فبذلك فليفرحوا هو خير ممّا يجمعون، ففضل اللّه نبّوة نبيّكم و رحمته ولاية علّي بن أبي طالب (فبذلك) قال صلى الله عليه وآله: بالنّبوة والولاية فَلْيَفْرَحُوا يعني الشّيعة هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ يعني مخالفيهم من الأهل والمال و الولد في دار الدنيّا انتهى.





قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ

قيل نزلت الآية في المشركين و المراد بالرّزق هو إرزاق العباد من المطر الّذي ينزله اللّه فجعلوا منه حراماً و حلالاً، يعني ما حرّموا من السّائبة و

١- الخطبة = ١٠٩

الوصيلة و الحام و ما حرّموا من زروعهم فقال تعالىٰ: **آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللّهِ تَفْتَرُونَ** معناه أنّه لم يأذن لكم في شيءٍ من ذلك بل أنتم تكذبون في ذلك على اللّه و كلمة، **ما** إستفهاميّة.

و قيل بمعنى الّذي، فعلى الأوّل فهي منصوبة بأنزل

علىٰ الثّانى: **أَرَأَيْتُمْ** قالوا أرأيتم، هنا بمعنى أخبروني، ءاللّه أذن لكم في التحليل و التّحريم فأنتم تفعلون ذلك بأذنه أم تكذبون عليه في نسبته اليه تعالى، و قالوا أيضاً أنّ أنزل معناه خلق كقوله و أنزلنا الحديد، و قوله: **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ**[1].

و قيل هو على بابه و هو على حذف مضاف أي من سبب رزق و هو المطر.

و قال مجاهد هو مت حكموا به من تحريم البحيرة و السّائبة و الوصيلة و الحام.

و قال الضحاك هو إشارة الى قوله: **وَ جَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعامِ نَصيبًا**[2].

وَ ما ظَنُّ ٱلَّذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ

ما إستفهامية مبتدأ و خبرها، ظنّ، و المعنى، أيُّ شيءٍ ظَّن المفترين يوم القيامة أبهم الأمر على سبيل التهديد و الإبعاد يوم يكونُ الجزاء بالإحسان و الإساءة و يوم، منصوب، بظَّن قيل تقديره ما ظَّنهم أنّ اللّه فاعلٌ بهم أينجيهم أم يعذّبهم و بعبارةٍ أخرى لا ينبغي أن يظُّنوا أن يصيبهم على ذلك إلاّ العذاب و العقاب و المراد بالكذب المشار اليه في الآية هو ما مرَّ في الآية السابقة من جعلهم الحلال و الحرام في الرزّق و نسبتهم أيّاه الى اللّه تعالى و فى قوله: **إِنَّ ٱللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنّاسِ** إشارة الى ما أعطاهم من النِّعم و قد ثبت أنّه

١- الزمر= ٦ ٢- الانعام = ١٣٦

تعالى دائم الفضل على البريّة و لكن أكثرهم، أي أكثر النّاس لا يشكرون، بل يكفرون بها و يقولون أنّها من الطّبيعة و لم يعلموا أنّ الطبيعة لفظةٌ لا معنى لها و لا شعور لها فكيف تعطي الأرزاق فالإعطاء منه تعالى على خلقه ثبت الشّكر عليه فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً فمن شكر عمل بمقتضى عقله و من كفر أنكر عقله أخرج نفسه من نوع الإنسان و أدخلها في زمرة الحيوانات هذا مضافاً الى أنّ الشّكر يوجب إزدياد النعمة و الكفران يوجب سلبها و إنتفاؤها و العاقل لا يقدم على ضرر نفسه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**[٢].

و الأيات الواردة في البحث على الشّكر كثيرة جدّاً و من المعلوم عقلاً و شرعاً أنّه تعالى غنّيٌ عن الخلق و شكرهم لأنّه تعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه و لا تضرّه معصية من عصاه ذلك يحبّ أن يشكر ليكون العبد بذلك مقرّباً اليه محبوباً عنده لأنّه تعالى خلقهم و الخالق يحبّ مخلوقه قهراً فأنّ من أحبَّ شيئاً أحبَّ آثاره و هو تعالى محبٌّ لذاته فهو محبٌّ لآثاره المترتبة على ذاته و لا شكّ أنّ الخلق من آثار ذاته تعالى و لأجل ذلك أرسل اليهم الأنبياء و كلّفهم بالأحكام و هذا معنى قوله: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ** أي أنّ اللّه تعالى جعل أسباب القرب و البعد، بيد العبد فمن أطاعه صار مقرّباً و من عصاه فلا.

وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ

١- النّمل=۴٠ ٢- إبراهيم=٧

ما للنّفي في الموضعين بمعنى ليس أي ليس تكون و ليس تتلو و الهاء في، منه، كناية عن القرآن قبل الذّكر تفخيماً له فهو كقوله تعالىٰ: **إِنَّهُ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**[١].

و يحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشّأن و تقديره و ما يكون من الشّأن و الخطاب للنّبي صلى الله عليه و آله و المعنى ليس تكون في حالٍ من الأحوال لأنّ الشّأن و البال و الحال نظائر و ليس تتلو من القرآن و لا تعملون من عملٍ إلاّ كنّا عليكم شهوداً أي ليس يخفى على اللّه شيئاً من أعمالكم بل اللّه تعالى يعلمها و يشهدها إذ تفيضون فيه، الإفاضة الدّخول في العمل على جهة الإنصباب اليه و هو مأخوذ من فيض الإناء إذا إنصَّب من جوانبه و منه قوله: **أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ**[٢] و عليه فالمعنى أنّه تعالى يكون شهيداً أي حاضراً و ناظراً على أعمالكم إذ تشرعون أي تدخلون فيها و فيه إشارة الى إحاطة علمه تعالى بالأشياء قبل وجودها و بعده و لا يخفى عليه شئ و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** قرأ الكسائي، يعزب بكسر الزّاء و الباقون بضّمها و هما لغتان إلاّ أنّ الضّم أفصح و أشهر و أكثر، و العزوب الذّهاب عن المعلوم و ضدّه حضور المعنى للنفس.

يقال، تعزَّب، إذا أنفر عن أهله.

و قال إبن عبّاس معنى لا يعزب لا يغيب و قوله: **مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ** فالذَّر صغار النَّملِ واحدة ذرّة و هو خفيف الوزن جدّاً و معنى مثقال ذرّة، وزن ذرّة و قوله: **وَ لَآ أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** أي إلاّ و قد بيَّنه اللّه تعالى في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته و حفظوه.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية أنّ الأشياء المخلوقة على قسمين: قسمٌ أوجده اللّه تعالى إبتداءً من غير واسطة كالملائكة و السّموات و الأرض.

١- النّمل=٩

٢- البقرة=١٩٨

و قسمٌ آخر وجده اللّه بواسطة القسم الأوّل مثل الحوادث الحادثة في عالم الكون و الفساد و لا شكّ أنّ هذا القسم الثّاني قد يتباعد في سلسلة العلّية و المعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله: **وَ مٰا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّةٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِي اَلسَّمٰاءِ وَ لاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْبَرَ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ** أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرّة في الأرض و لا في السّماء إلاّ و هو في كتاب كتبه اللّه تعالى و أثبت صور تلك المعلومات فيه و متى كان الأمر كذلك فقد كان عالماً بها محيطاً بأحوالها و الغرض منه الرّد على من يقول أنّه تعالى غير عالم بالجزئيات و هو المراد من قوله: **إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1] انتهى كلامه.

أقول لا نحتاج في إحاطة علمه تعالى بجميع ما سواه كائناً ما كان الى هذه التّكلفات الباردة و التحزيحات الضعيفة الوَّهمية التي لا يساعده عقل و لا نقل بل نقول لا شكّ أنّه تعالى خالق لما سواه فما سواه كائناً ما كان معلول مخلوق له و كلّ علّةٍ حاوية لجميع مراتب المعلول و إلاّ لا تكون علّة له و إذا كان كذلك فهو عالم بجميع المعلولات و مراتبها و إن شئت قلت هو تعالى عالم بذاته و جميع ما سواه من آثار ذاته و العالم بالذّات عالم بالآثار المترتبة عليه قهراً.

ثالثاً: لو لم يكن عالماً بشئ ممّا سواه فهو جاهل به و الجهل نقصٌ و كلّ نقصٍ مساوق للإمكان و هو واجب الوجود و محصّل الكلام في هذه الآية هو إحاطة علمه تعالى بالأشياء و هو ثابت عقلاً و نقلاً.



أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اَللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ

الأولياء جمع ولّي و هو الّذي يستّحق من اللّه أن يولّيه ثوابه و كرامته و هو المطيع للّه الّذي يتّولى إجلاله و إعظامه الولّي النّصير.

و قال بعضهم أولياء اللّه هم الّذين يتّولونه بالطّاعة و يتّولاهم بالكرامة.

١- الجاثية= ٢٩

و قد فسّر ذلك في قوله: **اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ.**

و عن سعيد بن جبير أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله سأل عن أولياء اللّه فقال صلى الله عليه و آله هم الّذين يذّكرون اللّه برؤيتهم يعني السَّمت و الهيئة.

و عن إبن عبّاس الإخبات و السكينة و قيل هم المتحابون في اللّه.

و قد روي الطّبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّ من عباد اللّه عباداً يغبطهم الأنبياء و الشّهداء قيل من هم يا رسول اللّه فلعلّنا نحبّهم قال صلى الله عليه و آله هم قومٌ تحابّوا في اللّه من غير أموالٍ أنصاب وجوهم من نورٍ على منابرٍ من نور لا يخافون إذا خاف النّاس لا يحزنون إذا حزن النّاس و قرأ: **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.**

و روي هذا الحديث بأسناده عن عمر بن الخطّاب أيضاً أنّه قال قال رسول اللّه الحديث و قد نقل غير واحدٍ من مفسّري العّامة بعده هذا الحديث في تفاسيرهم و لم يعلموا أنّ ألفاظ الحديث تشهد بكذبه و ذلك لأنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ أولياء اللّه أفضل و أشرف من الأنبياء و الشهداء لأنّهم مغبوطون لهم و معنى الغبطة هو تمنّي مقمام المغبوط فيلزم منه أنّ مقام هؤلاء أعلى و أرفع من مقام الأنبياء و لا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم و كيف يعقل ذلك و المفروض أنّ الأنبياء في صدر الأولياء و أن شئت قلت أنّ الأولياء أنّما بلغوا هذا المقام ببركة الأنبياء و متابعتهم و المتبوع أفضل من التّابع في الشريعة فكيف يعقل أن يكون مغبوطاً للنبّي و نقل الرّازي.

هذا الحديث في تفسيره عن عمر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إلاّ أنّه قال:

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم هم قوم تحابّوا في اللّه على غير أرحامٍ بينهم و لا أموال يتعاطوا الخ و لم يذكر قوله (أنّ من عباد اللّه عباداً يغبطهم الأنبياء و الشهداء) ولعلّه تفطّن ما ذكرناه من الإشكال فأسقط ما أسقط أو نقل الحديث عن موضع أخر غير كتاب الطّبري و كيف كان لا شكّ أنّ أولياء اللّه من أقرب

العباد اليه تعالى إلاّ أنّ الأنبياء في صدرهم و رأسهم فلا يغبطون على أحدٍ من المخلوقين كائناً من كان.

أن قلت ما معنى الأولياء و ما المراد بهم.

قلت الولاء و التَّوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبة و من حيث الدّين و من حيث الصّداقة و النُّصرة و الإعتقاد و الولاية النُّصرة و الولاية توَلّي الأمر و الولّي و المولى يستعملان في ذلك كلّ واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي و فى معنى المفعول أي المولى يقال للمؤمن هو ولّي اللّه عزّ وجلّ و لم يرد مولاه و قد يقال أنّ اللّه تعالى ولّي المؤمنين و مولاهم فمن الأوّل.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰه وَلّىَ الّذينَ اٰمَنُوا**.

قال اللّه تعالىٰ: **اِنَّ وَلّي اللّٰه**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَاللّٰهُ وَلّيَ الْمُؤْمِنينَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰه مَوْلىَ الّذينَ اٰمَنُوا**.

قال اللّه تعالىٰ: **نِعْمَ الْمُولىٰ وَ نِعْمَ النَّصير**.

قاله الرّاغب في المفردات اذا عرفت هذا فنقول: معنىٰ الآية أنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم يوم القيامة و لا يحزنون، و هذه الآية بشارة من اللّه لأولياءه المقرّبين.



فعن تفسير العيّاشي بأسناده، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أنّ أولياء اللّه، الآية ثمّ قال عليه السلام أتدرون من أولياء اللّه قالوا و من هم يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام هم نحن و أتباعنا فمن تبَّعنا من بعدنا طوبىٰ لهم و طوبى لنا و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا، قالوا يا أمير المؤمنين ما شأن طوبى لهم أفضل مِن طوبى لنا ألسنا نحن و

هم على أمرٍ قال عليه السلام لا أنّهم حملوا ما لم تحملوا عليه و أطاقوا ما لم تطيقوا انتهى.

و عن الباقر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علّي بن الحسين عليه السلام: ألا أنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، اذا أدّوا فرائض اللّه، و أخذوا سنن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وتوّرعوا عن محارم اللّه و زهدوا في عاجل زهرة الدنيّا، و رغبوا فيما عند اللّه وإكتسبوا الطّيب من رزق اللّه لا يريدون التّفاخر و التّكاثر ثمّ أنفقوا فيما يلزمهم من حقوقٍ واجبة فأولئك الّذين بارك اللّه لهم فيما إكتسبوا و يثابون على ما قدّموا لأخرتهم انتهى.

و عن كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده الى أبي بصير قال قال الصّادق عليه السلام يا أبا بصير طوبىٰ لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته و المطيعين له في ظهوره أولئك أولياء اللّه الّذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون انتهىٰ[1].

ثمّ فسَّر اللّه تعالى هذه الآية بقوله: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** و القرأن يفسّر بعضه بعضاً أي أنّ أولياء اللّه هم الذّين أمنوا باللّه و برسوله و بجميع ما جاء به الرّسول و مع ذلك يتّقون معاصيه ذكر اللّه تعالى للأولياء وصفين:

أحدهما: الإيمان.

الثّاني: التّقوى و الفرق بينهما أنّ التّقوى مضّمن بإتّقاء المعاصي مع منازعة النّفس اليها و أمّا الإيمان فهو من الأمن بسبب العمل من عائد الضّرر.



و قيل الإيمان موضوعه القلب و التّقوى في الجوارح والحقّ أنّ الإيمان هو الإعتقاد القلبي و التّقوى عبارة عن ظهوره في الخارج بسبب العمل فالتّقوى من ثمرات الإيمان و متّفرع عليه فالمتّقي مؤمن و لا عكس و الى هذا ينظر قول من

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٣٠٩

قال التّقوى عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرّمات فأنّهما من فروع الإيمان.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

البُشرىٰ بضّم الميم البشارة و هى الخبر المفرّح.

و قال الرّاغب في المفردات يقال للخبر السّار البشارة و البشرى و معنى الآية أنّ لهؤلاء الأولياء الّذين أمنوا و كانوا يتّقون البشارة في الحياة الدنيّا و فى الأخرة.

قال الجبائي و قتادة و الزُّهري البشرى في الحياة الدنيّا هي الرّؤيا الصادقة الصالحة يراها الرّجل أو يرى أهله.

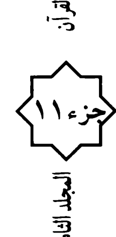
و قال أبو جعفر عليه السلام البشر في الدنيّا الرؤيا الصّالحة يراها المؤمن أو يرى له و في الأخرة الجنّة.

و قال الأخرون البشرى القرأن بشرف الإيمان و أمّا قوله: **لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ** معناه لا خلف لما وعد اللّه به من الثّواب بوضع كلمةٍ أخرى مكانها بدلاً منها لأنّها حقّ و الحقّ لا خلف له بوجهٍ و من المعلوم أنّ البشرى في الحياة الدنيّا و الأخرة هي الفور العظيم بحيث يصغر كلّ شئٍ في جنبه.

رويفي الفقيه بأسناده أنّه أتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله رجلٌ منَ أهل البادية له جسم و جمال فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: **ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْآخِرَةِ** فقال صلى الله عليه وآله أمّا قوله: **لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** فهي الرّؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشر بها في دنياه.

و أمّا قوله عزّ وجلّ: **فِى ٱلْآخِرَةِ** فأنّها بشارة المؤمن يبشّر بها عند موته أنّ اللّه عزّ وجلّ قد غفر لك ولمن يحملك الى قبرك انتهى.

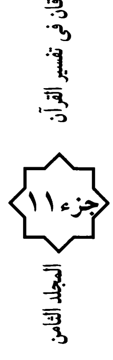
و يستفاد من بعض الأخبار أنّ البشارة في الدنيّا البشارة بقيام القائم عليه السلام.



فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: في قوله تعالىٰ: **لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ فِى ٱلْأَخِرَةِ** الإمام يبشّرهم بقيام القائم و بظهوره و بقتل أعداءهم و بالنّجاة في الأخرة و الورود على محمّد صلى الله عليه وآله صلّي الله عليه وأله الصادقين على الحوض الحديث.

و بأسناده عن علّي بن عقبة عن أبيه قال: قال لي أبو عبد الله يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلاّ هذا الأمر الّذي أنتم عليه (المراد به الولاية) بين أحدكم و بين أن يرى ما تقّر به عينه إلاّ أن يبلغ نفسه الى هذه ثمّ أهوى بيده الى الوريد ثمّ إتّكى و كان معي المعلّى فغمرني أن سله فقلت يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا بلغت نفسه هذي فأي شئٍ يرى فقلت له بضعة عشرة مرّة أيّ شئٍ فقال في كلّها يرى لا يزيد عليها ثمّ جلس في أخرها فقال يا عقبة فقلت لبيّك و سعديك فقال أبيت إلاّ أن تعلم فقلت نعم يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

أنّما ديني مع دينك فاذا ذهب ديني كان ذلك كيف لي بك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ساعة فبكيت فرّق لي فقال عليه السلام يراهما و الله قلت بأبي و أمّي من هما قال عليه السلام ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله و علّي يا عقبة لن تموت نفس مؤمنة أبداً حتّى تراهما.



قلت فإذا نَظَر اليهما المؤمن أَيَرجع الىٰ الدّنيا فقال لا يمضي أمامه إذا نظر اليهما مضىٰ أمامه فقلت لا يقولان شيئاً قال نعم يذخلان جميعاً على المؤمن فيجلس رسول الله صلى الله عليه وآله عند رأسه وعلّي عليه السلام عند رجله فيكتب عليه رسول الله فيقول يا ولّي الله أبشر أنا رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي خير لك ممّا تركت من الدنيّا ثمّ نهض رسول الله صلى الله عليه وآله فيقوم علّيٌ عليه السلام حتّى يكتب عليه فيقول يا ولّي الله أبشر أنا علّي بن أبي طالب الّذي كنت تحبّه أمّا لأنفعنّك ثمّ قال أنّ هذا في كتاب الله

عزّ وجلّ فقلت أين جعلني اللّه فداك هذا من كتاب اللّه قال عليه السلام في يونس قول اللّه عزّ وجلّ هاهنا: **اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ اَلْبُشْرىٰ** انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن عبد الرّحيم قال قال أبو جعفر أنّما أحدكم حين تبلغ نفسه هاهنا ينزل عليه ملك الموت فيقول، أمّا ما كنت ترجو فقد أعطيته و أمّا كنت تخافه فقد أمنت منه و يفتح له باب الى منزله من الجنّة و يقال له أنظر الى مسكنك من الجنّة و أنظر هذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله و علّي و الحسن و الحسين عليهم السّلام رفقاءك و هو قول اللّه عزّ وجلّ: **اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ اَلْبُشْرىٰ فِي اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا وَ فِي اَلْآخِرَةِ**[1] والأحاديث الواردة بهذاالمعنىٰ كثيرة.

وَ لاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ

ظاهر الكلام النّهي و المراد به تسلية النّبي صلى الله عليه وآله عن قولهم الّذي يؤذونه به و هو تكذيبهم وتهديدهم النبّي وتشاورهم في أمره و من المعلوم أنّ المكذّبين بعضهم لا جميعهم فالكلام على هذا من قبيل ذكر العام و إرادة الخاص و لا يبعد أن تكون الصفة المخصّصة محذوفة وتقدير الكلام قولهم الدال على تكذيبك و معاندتك و كيف كان فقوله: **إِنَّ اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا** مستأنف أي لا يحزنك قولهم إذ لا عزّة و لا قدرة لهم فأنّ العزّة للّه جميعاً فهم لا يقدرون على شئ و فى هذه الآية تأمينٌ للرّسول صلى الله عليه وآله و سلم من أضرار الكفّار و أنّ اللّه تعالى يديله عليهم و ينصر الرّسول كما وعد اللّه به في قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ اَللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اَللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ غالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ**[3].

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٣٠٩ الى ص ٣١٢ ٢- المجادلة=٢١
٣- يوسف=٢١

قال اللّه تعالىٰ: قال الأصمّ كانوا يتعزّزون بكثرة خدمهم و أموالهم فأخبر اللّه تعالى أنّه قادر على أن يسلب منهم ملك الأشياء و إن ينصرك و ينقل اليك أموالهم و ديارهم انتهى.

أقول ما ذكره الأصمّ لا دليل عليه فالآية على عمومها، ثمّ أنّ العزّة القهر و الغلبة مختّصة باللّه تعالى و لا ينافيه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ**[۱].

و ذلك لأنّ عزّة الرّسول و المؤمنين أنّما هي من اللّه لا من عند أنفسهم فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه ألا ترى أنّه تعالى يقول: **مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ جَمِيعًا**[۲] و أمثالها من الأيات الّتي تدلّ على أنّ العزّة مختّصة به تعالى و أنّما تسري منه الى غيره من المخلوق إذا شاء و أراد.

و السّر فيه هو أنّ المخلوق كائناً من كان محتاج الى خالقه فقيرٌ في ذاته و صفاته:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا اَلنّٰاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰآءُ إِلَى اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ**[۳].

و إذا كان كذلك فالعبد كما أنّه محتاج الى خالقه في وجوده محتاج اليه في صفاته فأنّها من توابع الوجود و لوازمه فهو في حدّ نفسه لا يقدر على شي:

قال اللّه تعالىٰ: **ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لاٰ يَقْدِرُ عَلٰى شَيْءٍ**[۴].

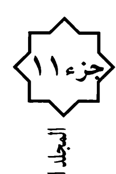
قال اللّه تعالىٰ: **لاٰ يَقْدِرُونَ عَلٰى شَيْءٍ مِمّٰا كَسَبُوا**[۵] و الآيات كثيرة.

۱- المنافقون=۸
۲- فاطر=۱۰
۳- سورة فاطر آية ۱۵
۴- النّحل=۷۵
۵- البقرة = ۲۶۴

محصّل الكلام هو انّ مخلوق قادر بقدرته تعالى عالم بعلمه و عزيز بعزّته و حيٌّ بحياته و هكذا فقوله: **إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** معناه أنّها له تعالىٰ أوّلاً و بالذّات و لغيره ثانياً و بالفرض و قوله و هو السّميع العليم، معناه أنّه تعالى يسمع قولهم و يعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضيه حالهم و يدفع عنك شرّهم و بعبارةٍ أخرى أنّه عالم بالمسموعات و الضّمائر.

■

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ مٰا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكٰآءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿۶۶﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهٰارَ مُبْصِرًا إِنَّ فى ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿۶۷﴾ قٰالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمٰا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ ﴿۶۸﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لٰا يُفْلِحُونَ ﴿۶۹﴾ مَتٰاعٌ فِى ٱلدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذٰابَ الشَّدِيدَ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ ﴿۷۰﴾ وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقٰامى وَ تَذْكيرى بِاٰيٰاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكٰآءَكُمْ ثُمَّ لٰا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا إِلَيَّ وَ لٰا تُنْظِرُونِ ﴿۷۱﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿۷۲﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلٰٓئِفَ وَ أَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴿۷۳﴾



◀ اللّغة

يَخْرُصُونَ، الخَرص حرز الثَّمرة و الخرص المحروز كالنَّقض للمنقوض و قيل الخرص الكذب و لعلّه هو المراد بالأية.

مِنْ سُلْطٰانٍ أي حجّة و الباقي واضح.

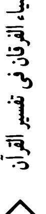
◀ الإعراب

ومٰا يَتَّبِعُ ما، نافية، و مفعول، يتّبع محذوف دلّ عليه قوله إن يتّبعون إلاّ الظَّن، و شركاء، مفعول يدعون، و قيل هي إستفهاميّة في موضع نصب بيتّبع إِنْ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إن، هاهنا بمعنى، ما، و بهذا، يتعلّق بسلطانٍ أو نعت له مَتٰاعٌ فِي ٱلدُّنْيٰا خبر مبتدأ محذوف تقديره، إفتراءهم أو حياتهم أو تقلبهم ونحو ذلك إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ إذ، ظرف و العامل فيه، بناء و يجوز أن يكون حالاً فَعَلَى ٱللّٰهِ الفاء جواب الشّرط والفاء في فَأَجْمِعُوٓا عاطفة على الجواب شُرَكٰآءَ كُمْ الجمهور فيه على النّصب و فيه أوجه.

أحدها: أنّه معطوفٌ على أمركم تقديره أمر شركاءكم،، فأقام المضاف اليه مقام المضاف.

الثّاني: هو مفعول معه، تقديره مع شركاءكم.

الثّالث: هو منصوب بفعل محذوف أي و أجمعوا شركاءكم و قد يقرأ بالرّفع بناءً على أنّه معطوف على الضّمير في أجمعوا.



◀ التفسير

أَلآ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ

ألا للتنّبيه و أصلها، لا دخلت عليها حرف الإستفهام لتفيد التنبيه و هى تستعمل في الإستقبال و لا تقع بعدها، إن، إلاّ مكسورة، بخلاف، أما، فأنّها تكون بمعنى حقّاً كقولهم أما أنّه منطلق لأنّها للحال و يجوز بعدها كسر، إن و

فتحها و هذا هو الفرق بينهما و كلمة، مَن بفتح الميم لا تستعمل إلاّ في العقلاء بخلاف، ما، فأنّها تستعمل فيهم و فى غيرهم، و إنّما جيء بها في الآية دون، ما، مع أنّها أشمل و أوسع من حيث المعنى لأنّ المراد بها في الآية العقلاء فقط دون جميع المخلوق و إذا كان له تعالى ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم و وجب أن يكون ملكاً بطريق أولى و إنّما خَص العقلاء تعظيماً للأمر و المعنى أنّ اللّه تعالى مالك لجميع العقلاء الّذين في السّموات كالملائكة و فى الأرض كالجّن و الإنس.

قال الرّاغب في المفردات الملك هو المتّصرف بالأمر و النّهي في الجمهور و ذلك يختّص بسياسته الناطقين و لهذا يقال ملك النّاس و لا يقال ملك الأشياء.

قال بعض المفسّرين أنّ، من، في الأصل للعقلاء و أمّا في المقام فهي شاملة لهم ولغيرهم على سبيل التّغليب و حيث جيء، بما، كان تغليباً للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل، أقول و على هذا فتغليب ذوي العقول إنّما هو لشرفهم لا لكثرتهم و وجه الشّرف ظاهر.

و قال صاحب الكشّاف، يعني العقلاء المميّزين و هم الملائكة و الثّقلان و إنّما خصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا في ملكه فهم عبيدٌ كلّهم لا يصلح أحدٌ منهم للربوبيّة و لا أن يكون شريكاً له فما دونهم ممّا لا يعقل أحقّ أن لا يكون نِّداً و شريكاً و دلّ على من إتخذ غيره ربّاً من ملك أو إنسّي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدّىَ اليه التقليد و ترك النَّظر إنتهىٰ.

وَ مَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُرَكَآءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

لمّا أثبت في صدر الآية أنّ من في السّموات و الأرض على ما مرّ البيان فيه له تعالى و أنّه خالقهم ومالكهم أشار في المقام بما يترّتب عليه و هو عدم

صلاحيّة غير اللّه تعالى من المخلوقات شريكاً له و ذلك لأنّ المخلوق لا يكون شريكاً للخالق للزومه أن يكون المخلوق مخلوقاً لغيره و خالقاً لغيره و هو من قبيل إجتماع النّقيضين توضيحه إجمالاً هو أنّ المخلوق بما مخلوق محتاج الى الخالق و الخالق لا يكون مخلوقاً لغيره و إلاّ يلزم التسلسل و إذا كان كذلك فلو كان المخلوق شريكاً لخالقه يلزم أن يكون خالقاً و مخلوقاً معاً و أن شئت قلت أن يكون مخلوقاً و غير مخلوقٍ و بعبارةٍ أخرى مخلوقاً و لا مخلوق و هو من قبيل إجتماع النقيضين.

أقول و يلزم أيضاً تقَّدم الشّيء على نفسه و هو محال لأنّ المخلوق من حيث أنّه مخلوق مؤخّر وجوداً و رتبةً عن خالقه فلو فرضنا كونه خالقاً أو شريكاً له يلزم تقَّدمه وجوداً على وجوده كتقدم العِّلة على المعلول و هو كما ترى هذا حكم العقل السليم الخالي عن شوائب الأوهام و عليه فمن جعل غير اللّه من المخلوقات شريكاً له لم يتَّبع حكم العقل بل خرج منه من حيث لم يحتسب و اذا خرج حكمه عن العقل فلا محالة يدخل في الظَّن و هو ترجيح أحَد الإحتمالين على الأخر و أنّما لم نقل دخل في الشكّ لأنّ الشكّ عبارة عن تساوي الطَّرفين و المشرك يقول بالشّرك و يعتقد به و لا يقول بتساوي الشّرك و عدم الشّرك فما حكم به في الباب يدخل في المظنون و الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُرَكَآءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ** فما قوله و ما يتَّبع، نافية بمعنى ليس كما أنّ، إن في قوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ** أيضاً نافية وقوله: **شُرَكَآءَ** مفعول يَتَّبع، ومَفعول، يدعون، محذوف يفهم المعنى تقديره ألهة، فيصير معنى الآية أنّ الّذين جعلوهم ألهة و أشركوهم مع اللّه في الرّبوبية ليسوا شركاء حقيقتاً اذ الشّركة في الألوهيّة مستحيلة و إن كانوا قد أطلقوا عليهم إسم الشّركة بحسب ظنونهم الكاذبة الفاسدة فهم كاذبون في دعواهم كما قال: **إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** و لا يبعد أن تكون، ما، في قوله: **وَ مَا يَتَّبِعُ** إستفهاميّة لا نافية و شركاء مفعول يدعون، و

عليه فالمعنى أيُّ شيءٍ يتّبع المتّبع كأنّه قيل من يدعو شريكاً للّه فهو في الحقيقة لا يتّبع شيئاً لأنّ متابعة الظّن في باب الإعتقادات كالعدم.

و أجاز الزّمخشري أن تكون ما، موصوله بمعنى الّذي عطفاً على، من، و العائد محذوف أي و الّذي يتّبعه الّذين يدعون من دون اللّه شركاء أي شركاءهم.

و قال بعضهم أنّ، ما، موصوله و هى في موضع رفع على الإبتداء و الخبر محذوف تقديره و الّذي يتّبع المشركون باطلٌ.

أقول و لكلٍّ من هذه الوجوه وجه وجيه من حيث التركيب و أمّا من حيث المعنى فالمأل واحد و هو أنّ المشركين إتّبعوا في قولهم بالشّرك ظنونهم الفاسدة و لم يعلموا أنّ الإعتقاد الصحيح لا يحصل بالظّن الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً ففي الآية دلالة على عدم جواز تحصيل الإعتقاد من طريق الظّن بل لابدّ أن يكون من طريق العقل و لأجل هذا إتّفقوا على عدم جواز التقليد في الأصول لأنّه لا يفيد إلاّ الظّن بل يجب تحصيله عقلاً بحسب القدرة و الإستطاعة و السّر فيه هو أنّ القطع لا يحصل إلاّ من طريق العقل فهؤلاء لتقليدهم أسلافهم في ذلك أو لشبهةٍ دخلت عليهم بأنّهم يتّقربون بذلك الى اللّه دخلوا في الظّن و خرجوا من العقل و هو كما ترى فأنّ الحكم اذا لم يكن من طريق العقل فهو كذب و لذلك قال تعالىٰ: **وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** أي يكذبون في دعواهم و هو واضح.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى ما هو خارج عن قدرة الشّركاء فقال:



هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

أي أنّ الّذي يملك من في السّموات و الأرض هو الّذي جعل اللّيل أي خلقه لتسكنوا فيه فيزول التّعب و الكلال عنكم بالنّوم و الإستراحة فيه و جعل

النّهار و أنّما يبصر فيه تشبيهاً و مجازاً و إستعارةً في صفة الشّيْ بسببه علىٰ وجه المبالغة ففي الآية تنبيه على عظيم قدرته و شمول نعمته لعباده فهو المستحقّ لأن يفرد بالعبادة و حيث أنّ إضافة الإبصار الى النّهار مجاز لأنّ النّهار لا يتّصف به حقيقة و أنّما يبصر من في النّهار فالمعنى يبصرون فيه مطالب معايشهم فهو من قبيل قول جرير حيث قال:

لقد لمتنا يا أمّ عيلان في السّرى ونــمت و مـا ليـل المـطّي بـنائمٍ

و قال الأخر:

و نـــام ليـــلي و تـــجّلى هـــمّي

و من المعلوم أنّ اللّيل لا ينام و الظّاهر أنّ اللاّم في قوله: **لِتَسْكُنُوا فِيهِ** لام التّعليل أي أنّ السّكون في اللّيل هو العلّة لخلق اللّيل هكذا قيل و الحقّ أنّها لام الغاية و قد أشار اللّه تعالى بهذه الدقيقة حيث قال:

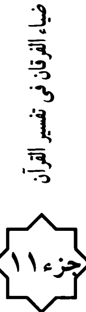
قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهارَ مُبْصِرًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ ٱلنَّهارَ مُبْصِرًا**(٥).



١- القصص =٧٣
٢- الرّوم =٢١
٣- غافر =٦١
٤- القصص =٧٢
٥- النّمل =٨٦

إن قلت ما الفرق بين الخلق و الجعل حيث قال في المقام و نظائره، جعل، و في الأزواج خلق، مع أنّ الغاية في المقامين واحدة و هى السّكون.

قلت الخلق أصله التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلْقِ اَلسَّمٰواٰتِ وَ اَلْأَرْضِ**.

أي أبدعهما بدلالة.

قال اللّه تعالىٰ: **بَدِيعُ اَلسَّمٰواٰتِ وَ اَلْأَرْضِ**(١).

و يستعمل في إيجاد الشّئ من شئ نحو.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَةٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ اَلْجَاَنَّ مِنْ مٰارِجٍ**(٤).

و هكذا و ليس الخلق الّذي هو الإبداع إلاّ للّه تعالى و الى هذا الفصل بينه تعالى و بين غيره أشار بقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ**(٥).

و أمّا الخلق بمعنى الإستحالة و هو الّذي لا يكون على سبيل الإبداع فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ بِإِذْني**(٦).

و أمّا الجعل فهو على ما قيل لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

الأوّل: يجري مجرى صار و طفق فلا يتّعدى نحو، جعل زيد يقول كذا.

الثّانى: يجري مجرى أوجد فتّعدى الى مفعولٍ واحد.

١- البقرة= ١١٧
٢- النساء = ١
٣- المؤمنون = ١٢
٤- الرحمن = ١٥
٥- النحل = ١٧
٦- المائدة= ١١٠

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمٰاتِ وَ ٱلنُّورَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**(۱).

الثّالث: هي إيجاد الشّئ و تكوُّنه من شئٍ أخر.

قال اللّه تعالىٰ: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبٰالِ أَكْنٰانًا**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ فيهٰا سُبُلًا**(۴).

الرّابع: في تصيير الشّئ على حالةٍ دون حالة.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرٰاشًا**(۵).

قال اللّه تعالىٰ: **جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً**(۶).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فيهِنَّ نُورًا**(۷).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا**(۸).

الخامس: الحكم بالشّئ على الشّئ حقّاً كان أو باطلاً

فأمّا الحقّ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ**(۹).

و أمّا الباطل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ نَصيبًا**(۱۰).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ**(۱۱).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْاٰنَ عِضينَ**(۱۲).

۱- النحل = ۷۸
۲- النحل = ۷۲
۳- النحل = ۸۱
۴- الزخرف = ۱۰
۵- البقرة= ۲۲
۶- النحل = ۸۱
۷- نوح = ۱۶
۸- الزخرف = ۳
۹- القصص = ۷
۱۰- الانعام = ۱۳۶
۱۱- النحل = ۵۷
۱۲- الحجر = ۹۱

فهذه هي وجوه الجعل بحسب الإستعمال و بذلك قد ظهر الفرق اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ اللّيل يطلق على الظّلمة و النّهار على النُّور و النُّور و الظلمة ضدّان لا يجتمعان إلاّ أنّ النُّور أمرٌ وجوديٌ و الظُّلمة أمرٌ عدميٌ و لا وجود لها فهي في الحقيقة عبارة عن عدم النُّور و ليسست بشيءٍ فلا يتعلّق بها الإبداع و أن شئت قلت لا يتعلّق بها الخلق الّذي هو إيجاد شيءٍ من شيءٍ و لذلك قال جعل اللّيل و لم يقل خلق اللّيل.

و أمّا في الأزواج قال خلق و لم يقل، جعل، فالجعل الّذي تعلّق باللّيل هو جعل البسيط لا الجعل المرّكب أي جعل الشّيء شيئاً لأنّه في المقام من قبيل تحصيل الحاصل.

و أمّا قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** فمعناه أنّ في ذلك علامات للسّامعين الّذين يسمعون أي يتّفكرون في عجائب الخلقة و يتّدبرونها و فيه تنبيه على أنّ هذا الجعل لا يقدر عليه أحد غيره تعالى.

قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا سُبْحٰانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ

قال بعض المفسّرين، الّذين أضافوا إتّخاذ الولد اليه طائفتان:

أحدهما: كفّار قريش و العرب فأنّهم قالوا الملائكة بنات اللّه

والأخرى النّصارى الّذين قالوا المسيح إبن اللّه فكذّب اللّه الفريقين في هذه الآية **أقول** الضّمير في قالوا، عائد على من نسب الى اللّه الولد كائناً من كان، فقال تعالى في جوابهم، **هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ** فإستدلّ على نفي الولد بقوله هو الغنّي، فتصير صورة القياس هكذا، إنّ اللّه تعالى غنّي له ما في السّموات و ما في الأرض، و كلّ غنّيٍ كذلك لا يحتاج الى الولد أو لا يكون له ولد فهو تعالى لا يكون له ولد.

أمّا الصُّغرىٰ فلا كلام لأحدٍ فيه لأنّه تعالى خالق السّموات و الأرض و من كان كذلك فهو غنّيٌ لا محالة اذ المفروض أنّه مالك ما سواه كائناً ما كان نعني بالغنّي إلاّ هذا.

و أمّا الكبرى فلأنّ الغنّي عن الكلّ لا يحتاج الى الولد أو لا يكون له ولد لعدم إحتياجه به فينتج أنّه لا ولد له و هو المطلوب.

و حاصل الكلام أنّه تعالى منّزه عن إتّخاذ الولد لكونه غير محتاج الى ذلك لأنّه مالك ما فى السّموات و الأرض، و قوله: **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَآ** معناه ليس عندكم من برهانٍ بهذا الّذي تقولون به فأنّ السّلطان هو البرهان الظّاهر و كلّ قولٍ لا برهان على صحّته فهو داخل في الإفتراء و الكذب بل نقول أنّ البرهان قائمٌ على خلاف قولهم و أنّه يستحيل عقلاً و ذلك لأنّ الولد المفروض لا يخلو أمّا أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود أو ممتنع الوجود.

الأوّل: محال لأنّ الولد يوجد بعد وجود الوالد لا قبله و لا معه اذ لو كان قبله يلزم أن لا يكون ولداً له و أن كان معه يلزم تساوي الوالد و الولد في مرتبة الوجود و هو محال هذا كلّه مضافاً الى أنّ الواجب يكون موجوداً بذاته و الولد موجود بوجود الوالد فكيف يعقل أن يكون هو أيضاً واجب الوجود.

الثّاني: أعني كوهه ممكناً محالٌ أيضاً لأنّ كلّ ممكنٍ فهو حادث و الحادث لا يولد من القديم.

الثّالث: أعني كونه ممتنعاً فهو حقّ لا مرية فيه و هو المطلوب.

و إن شئت قلت أنّه تعالى بسيط الحقيقة فلا جزء له حتّى ينفصل عنه الولد فلو كان له ولد يلزم أن يكون له أجزاء و كلّ مركب من الأجزاء محتاج اليها و كلّ محتاج ممكن الوجود فيكون الواجب ممكناً و هذا خلف و تفصيل الكلام في هذا الباب يأتي في سورة التّوحيد إن شاء اللّه.

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الذّين أضافوا اليه الولد، **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** أي لا يفوزون بشئٍ من الثّواب و فى هذا الكلام إشارة بأنّهم إفتروا على اللّه تعالى بما قالوه في حقّه و هو كذلك و قد أوضحناه بما لا مزيد عليه.

مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

قوله: **مَتَاعٌ فِى ٱلدُّنْيَا** رفع بأنّه خبر الإبتداء و تقديره ذاك متاع أو هو متاع أو لهم متاعٌ في الدنيّا.

قال بعض المفسّرين أنّه جواب عن سؤالٍ مقدّر كأنّه قيل كيف لا يعلمون و هم في الدنيّا مفلحون بأنواع النِّعم ممّا يتّلذذون به فقيل في الجواب ذلك متاعٌ في الدنيّا و هو ممّا لا بقاء له لأنّه زائل لا محالة ثمّ يلقون الشّقاء المؤيّد في الأخرة بسبب كفرهم.

وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يخبر هؤلاء الكفّار أخبار نوح اذ فيها تنبيةٌ و موعظةٌ لمن يتّنبه و يتّعظ بها فقال و أتل عليهم يا محمّد نبأ نوح اذ قال نوح لقومه الّذين بعث اليهم ياقوم أن كان كبر عليكم مقامي، بين أظهركم و تذكيري إيّاكم بأيات اللّه و أردتم قتلي و أذاي فعلى اللّه توّكلت أي فوّضت أمري اليه فأجمعوا ذوي الأمر منكم أي رؤوساءكم و وجوهكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة أي مغطّى مستوراً بل ينبغي أن يكون ظاهراً مكشوفاً ثمّ أقضوا إليَّ و لا تنظرون أي إفعلوا ما تريدون على وجه التهديد لهم.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

أي فأن هربتم عن الحقّ و إتّباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه و أعرضتم عن إتّباعي و قبول قولي **فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ** أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي فيثقل عليكم، **إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ** و المعنى ليس أجري إلاّ عليه تعالى لأنّه أرسلني اليكم، **وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** و المعنى أنّي مأمورٌ من قبل اللّه تعالى أن أكون من المسلمين المطيعين لأوامره و نواهيه فأنّ طاعته خير ما يكسبه العباد.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ أي أنّ قومه لم يقبلوا قوله: **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ** أي نجّينا نوحاً و أتباعه ممن معه في السّفينة عن الغرق، و جعلناهم خلائف، في الأرض.

وَ أَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا نوحاً في الماء فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين، الّذين أنذرهم نوح فأعرضوا عنه و كذّبوه و محصّل الكلام في هذه الأيات هو أنّ اللّه تعالى لا يعذّب قوماً إلاّ بعد تماميّة الحجّة و ظهور الحقّ عليهم عبرة لأولي الأبصار.

و أمّا قصّة نوح و الطّوفان و تفصيل الكلام فيها فيأتي في تفسير الأيات في سورة نوح إن شاء اللّه تعالى.

■

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰآءُوهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿۷۴﴾ ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِاٰيٰاتِنٰا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿۷۵﴾ فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوٓا إِنَّ هٰذٰا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿۷۶﴾ قٰالَ مُوسىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذٰا وَ لٰا يُفْلِحُ ٱلسّٰاحِرُونَ ﴿۷۷﴾ قٰالُوٓا أَجِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ اٰبٰآءَنٰا وَ تَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيٰآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَ مٰا نَحْنُ لَكُمٰا بِمُؤْمِنِينَ ﴿۷۸﴾ وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سٰاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿۷۹﴾ فَلَمّٰا جٰآءَ ٱلسَّحَرَةُ قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰٓ أَلْقُوا مٰآ أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿۸۰﴾ فَلَمّٰآ أَلْقَوْا قٰالَ مُوسىٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللّٰهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿۸۱﴾ وَ يُحِقُّ ٱللّٰهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿۸۲﴾ فَمٰآ اٰمَنَ لِمُوسىٰٓ إِلّٰا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿۸۳﴾

◀اللّغة

نَطْبَعُ، الطّبع جعل الشّئ على صفة غيره بمعنى فيه و قال الرّاغب في المفردات الطَّبع أنّ تصّور الشّئ بصورةٍ ما كطبع السِّكة و طبع الدّراهم و هو أعمّ من الختم و أخصّ من النّقش.

فِرْعَوْنَ بكسر الفاء وسكون الرّاء وفتح العين إسمٌ أعجميّ و قد أعتبر عرامته فقيل تفرَّعن فلان اذا تعاطى فعل فرعون و منه قيل للطّغاة الفراعنة.

لِتَلْفِتَنٰا أي لتصرفنا و اللَّفت الصَّرف عن أمرٍ.

◀الإعراب

أَسِحْرٌ هٰذٰا سحر خبر مقدّم و هذا مبتدأ ٱلْكِبْرِيٰآءُ فِى ٱلْأَرْضِ هو إسم كان و لكم، خبرها و فى الأرض، ظرف للكبرياء منصوب بها و بكان أو بالإستقرار في لكم، مٰا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ يقرأ بالإستفهام فعلى هذا تكون، ما، إستفهاماً و موضعها نصب بفعل محذوف موضعه بعد، ما، تقديره يأُ شيٍ أتيتم به، و جئتم به، يفسّر المحذوف و قيل الخبر محذوف أي السِّحر هو موضعها الرّفع بالإبتداء و جئتم به، الخبر.

◀التّفسير

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰآءُوهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ

أي ثمّ بعثنا من بعد نوح رسلاً الى قومهم، و المعنىٰ أرسلنا كلّ رسولٍ الىٰ قومه فجاءوهم بالبيّنات الدّالات على صدق دعواهم من المعجزات و الكرامات الجارية على أيديهم بإذن اللّه و الضّمير في قوله، بعده، يرجع الىٰ نوح أي ثمّ بعثنا من بعد نوح رسلاً، و هم هود، في قوم عاد و صالح النّبي عليه‌السلام في قوم ثمود و إبراهيم الخليل عليه‌السلام في قوم نمرود و فرعون زمانه و

إسحاق عليه السلام و لوط في قومه و يعقوب النّبي و يوسف الصّديق و أيُّوب النّبي و شعيب و غيرهم من الأنبياء الّذين بعثوا الى قومهم كما سيجئ قصصهم في محلّه إن شاء اللّه.

فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

الضّمير في كذّبوا أيضاً الى قوم نوح أي ما كانوا هؤلاء الأقوام ليؤمنوا بما كذّبوا به قوم نوح من قبل من توحيد اللّه و تصديق أنبياءه و قيل المعنى ما كانوا ليؤمنوا بالحجج و البيّنات بعد إتيان الأنبياء بها بما كذّبوا به من قبل و هذا يخبر عن عنادهم و عتُّوهم و المقصود أنّهم كذّبوا أنبياءهم كما كذَّب قوم نوح و لم يؤمنوا كما لم يؤمن قوم نوح به.

كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلٰى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ

معناه أنّا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفّار سمة و علامة على كفرهم بلزمهم الذّم بها و تعرفهم بها الملائكة إنّا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتدين وليس المراد من الطَّبع في الآية المنع من الإيمان لأنّ من منع من الإيمان لا يحسن تكليفه به و المعتدون هم الظّالمون لنفوسهم الذّين تعدُّوا حدود اللّه تعالى هكذا قيل في تفسير الآية.

و قال بعضهم و جاء النّفي مصحوباً بلام الجحود ليدلّ على أنّ إيمانهم في حيّز الإستحالة و الإمتناع و الضَّمير في، كذّبوا، عائد على من عاد عليه ضمير، كانوا، و هم قوم الرُّسل و المعنى أنّهم كانوا قبل بعثة الرُّسل أهل جاهليّة و تكذيب للحقّ فتساوت حالتهم قبل البعثة و بعدها كأن لم يبعث اليهم أحد، ومن قبل، متعلّق بكذّبوا، أي من قبل بعثة الرُّسل و كيف كان لا خفاء في معنى الآية و الظّاهر أنّ، ما، في قوله: **بِمٰا** موصوله و لذلك عاد الضّمير عليها في قوله: **بِمٰا كَذَّبُوا** به ولو كانت مصدرية.

كما قال بعضهم بقي الضّمير غير عائد على مذكورٍ فيحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضّمير و الكاف في قوله: **كَذٰلِكَ** للتّشبيه أي مثل ذلك الطّبع المحكم الّذي يمتنع زواله نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم و المبالغين في الكفر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتجّ أصحابنا على أنّ اللّه تعالى قد يمنع المكلّف عن الإيمان بهذه الآية انتهى.

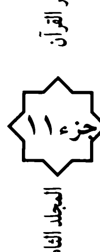
والجواب عنه أمّا أوّلاً: أنّ الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالىٰ: **بَلْ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً**[١] ولو كان هذا الطّبع مانعاً لما صَحّ الإستثناء.

ثانياً: لو كان الأمر كما ذكره و إعتقده لمّا تحسن التكليف لأنّ الممنوع من الإيمان كيف يكلّف به ثمّ يعاقب على عدم الإيمان فالحقّ أنّ علمه تعالى بعدم إيمانهم بإختيارهم كالطّبع على قلوبهم بعدم الإيمان.

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ بِـاٰيٰاتِنٰا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

و المعنى بعثنا بعد الرُّسل موسى و هارون الى فرعون و ملاءه، أي رؤوساء قومه و أكابرهم بأياتنا و هى المعجزات الّتي ظهرت على يديه فإستكبروا، عن الإنقياد لها و الإيمان بها و كانوا قوماً مجرمين، في ذلك المستحقّين للعقاب الدّائم و الإجرام إكتساب السّيئة و هى صفة ذمٍّ و سيأتي تفصيل ذلك في سورة القصص إن شاء اللّه تعالى.

و إعلم أنّ موسى إسمٌ مركب من إسمين بالقبطيّة فمو، هو الماء، وسى، الشّجر و سمّي بذلك لأنّ التّابوت التّي كان فيها موسى وجد عند الماء و الشّجر وجدته حواري أسية و قد خرجن ليغتسلن و هو موسى بن عمران بن



١- النساء=١٥٥

يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب قيل ولد يعقوب لاوي و قد مضى من عمره تسع و ثمانون سنة ثمّ أنّ لاوي بن يعقوب نكح نابتة بنت ماوي بن يشخر فولدت له عرشون و مرزي و مردي وقاهث بن لاوي و ولد للاوي قاهث بعد أن مضى من عمره ستّ و أربعون سنة فنكح قاهث بن لاوي قاهي بنت مبنيرين بن تبويل بن إلياس فولدت له يصهر و تزوّج يصهر شميت بنت تباويت بن بركياً بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران و قد مضى من عمره سنة و كان عمر يصهر مائة و سبعاً و أربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نحيب بنت إشموئيل بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له هارون و موسى و إختلفوا في إسم أمّها فقيل نخيب و قيل أفاحية و قيل بوخائيد و هو المشهور و كان عمر عمران مائة و سبعا و ثلاثين سنة و ولد له موسى و قد مضى من عمره سبعون سنة، ثمّ أنّ هارون كان أكبر سنّاً من موسى و مات هارون قبل موسى و هو أخو موسى لأبيه و أمّه ولم يكن لموسى ولد و كان الولد و الذريّة لهارون و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً و قيل الوحي كان ينزل على موسى و هو يوحيه الى هارون و هو الحقّ.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ

أخبر اللّه تعالى عن قوم فرعون الّذين أخبر عنهم بالإستكبار أنّهم لمّا جاءهم الحقّ من عند اللّه قالوا أنّ هذا الّذي أتى به موسى من المعجزات و البراهين بسحرٌ ظاهر و هو إخراج الباطل بصورة الحقّ.

و قيل هو إسمٌ لفعلٍ يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصُّور و الطّبائع فيجعل الإنسان حماراً و لا حقيقة لذلك عند المحصلين.

قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ

إعلم أنّ الألف في قوله: **أَتَقُولُونَ**، و قوله: **أَسِحْرٌ هَٰذَا**، للإستفهام الإنكاري و قيل في تكريرها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ يكون لتأكيد التّقريع على الحذف كأنّه قال أتقولون للحقّ لمّا جاءكم انّ هذا لسحرٌ مبين، أسحرٌ هذا و الحال أنّ السّاحر لا يفلح.

الثّاني: على وجه التكرار كقولك أتقول أعندك مال.

الثّالث: أن يكون حكاية قولهم و أن إعتقدوا أنّ السِّحر كما يقول الرّجل للجارية اذا أتته أحقٌّ هذا فيقولونه على التَّعجب ذكر هذه الوجوه في التبيان.

و قال الرّازي أنّ موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنّهم قالوا، أسحرٌ هذا بل قال أتقولون للحقّ لمّا جاءكم ما تقولون ثمّ حذف عنه مفعول، أتقولون، لدلالة الحال عليه ثمّ قال مرّةٍ أخرى أسحرٌ هذا و هذا إستفهام على سبيل الإنكار ثمّ إحتجّ على أنّه ليس بسحرٍ و هو قوله: **وَ لَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ** انتهى كلامه.

و قال القرطبي في الكلام حذف و المعنى أتقولون للحقّ هذا سحرٌ ثمّ إستأنف إنكاراً أخر من قبله فقال أسحرٌ هذا فحذف قولهم الأوّل إكتفاءً بالثّاني من قولهم منكراً على فرعون و ملاءه.

و نقل عن الأخفش أنّه قال هو من قولهم و دخلت الألف حكايةً لقولهم لأنّهم قالوا أسحرٌ هذا فقيل لهم أتقولون للحقّ لمّا جاءكم أسحرٌ هذا انتهى.

قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ.

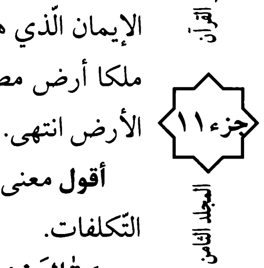


قرأ بعضهم، ويكون، بالياء والباقون بالتّاء على جهة الخطاب و هو الأشهر بل لا وجه لقراءة الياء بدليل قولهم لتلفتنا، على وجه الخطاب فالتّاء أوفق بسياق الآية من الياء مضافاً الى أنّ قوله لكما الكبرياء، أيضاً مؤيّد للخطاب ولو كانت قراءة الياء صحيحة ينبغي أن يقال لهما الكبرياء على وجه الغيبة و كيف كان فالمعنى أنّهم قالوا لموسى أجئتنا لتلفتنا أي لتصرفنا و تمنعنا عمّا وجدنا عليه أباءنا من عبادة الأوثان و تكون لكما، الخطاب لموسى و هارون لأنّهما بعثا اليهم كما قال تعالىٰ: **مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ** الكبرياء في الأرض و هى

الملك و قال قوم هي العظمة و قال قوم هي السّلطان و الكبرياء إستحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب.

وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ أي لسنا أن نؤمن لكما في، دعوتكما إيّانا بلا نّبوة و الألف في قوله: **أَجِئْتَنا**، للإستفهام و المراد به الإنكار على طريق اللّجاج و العناد لأنّهم تعلّقوا في حجّتهم بالشُّبهة في أنّهم على رأي أباءهم و إدَّعوا أنّ من دعاهم الى خلاف ما كانوا عليه من الشِّرك و الكفر فهو يريد التّأمر عليهم و لم يعلموا أنّ أباءهم كانوا على الباطل ففي الآية دلالة على ذمّ التقليد في الإعتقادات بل يجب التّفحص فيها و هذا ممّا أجمعوا عليه و لم يخالف فيه أحد و أنّما خاطبوا موسى وحده في قولهم أجئتنا، لأنّه هو الّذي ظهرت على يديه معجزة العصا و اليد و المراد بالأرض في قولهم هو أرض مصر و أنّما قالوا و تكون، بالتّاء لمجاز تأنيث الكبرياء و من قرأ بالياء فقد راعى اللّفظ لأنّه مذكر.

قال بعض المفسّرين أنّهم قالوا لموسى مقصودك في مجيئك الينا بما جئت هو أن ننتقل عن دين أباءنا الى ما تأمرنا به و نطيعك و يكون لكما العلّو و الملك علينا بطاعتك فنصير أتباعاً لك تاركين دين أباءنا و هذا مقصود لا نراه فلا نصدّقك فيما جئت به اذ غرضک أنّما هو موافقتك على ما أنت عليه و إستعلاءك علينا فالسَّبب الأوّل هو التقليد و الثّاني الجدّ في الرّئاسة حتّى لا تكونوا تبعاً و إقتضى هذان السببان اللّذان توهمّوهما مقصوداً التّصريح بإنتفاء الإيمان الّذي هو سببٌ لحصول السَّببين و يجوز أن يقصدوا الذّم بأنّهما أن ملكا أرض مصر تكَّبراً و تجَّبراً كما قال القبطي، إن تريدا إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض انتهى.



أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه فلا نحتاج الى هذه التّخريجات و التّكلفات.

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ قرأ أكثر أهل الكوفة بكلّ سحّارٍ بتشديد الحاء و ألف بعدها و الباقون، ساحر، على وزن فاعل و لكلٍّ وجهٌ وجيه

و المعنى واحد و أنّما قال فرعون ذلك بعد أن أعجزه المعجزات التّي ظهرت على يد موسى و لم يكن له في دفعها حيلة فقال لقومه أدتوني بكلّ ساحرٍ عليم، أي عليم بالسِّحر بليغٌ في علمه و فرعون، لا ينصرف لأنّه أعجمي معرفةٌ و هو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره إنصرف كياقوت و وزنه فعلون و الواو زائدة لأنّها لحقت عند سلامة الثّلاثة و مثله فردوس قالوا أنّما طلب فرعون كلّ ساحرٍ ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى و حتّى لا يفوته شيئ من السّحر بتّأخر بعضهم.

فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ

و أنّما أمرهم موسى بالإلقاء أوّلاً لأنّ موسى أراد إبطال سحرهم و المعنى أطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم و عصيّكم.

فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم و عصيّهم **قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**

قرأ أبو عمرو و مجاهد و أصحابه و ابن القعقاع بهمزة الإستفهام في قوله: **ٱلسِّحْرُ** ممدودة و باقي السّبعة و الجمهور به هَمزة الوصل فعلى الإستفهام قالوا يجوز أن تكون، ما، إستفهاميّة مبتدأ و السِّحر بدل منها و أن تكون منصوبة بمضمر تفسيره **جِئْتُمْ بِهِ** و السّحر خبر مبتدأ محذوف تقديره، أهو السِّحر.

و قال بعضهم، ما، في موضع رفع بالإبتداء و الخبر **جِئْتُمْ بِهِ** و التقدير، أيُّ شيئٍ جئتم به، على سبيل التّوبيخ و التّصغير لما جاءوا به من السِّحر.

و قيل أنّ الألف و اللاّم في قوله: **ٱلسِّحْرُ** للعهد و ذلك لأنّهم قالوا لما أتى به موسى أنّه سحر فقال موسى في جوابهم أنّ ما جدتم به فهو من السِّحر.

و في قراءة أبيّ **مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ** بلا ألف ولام و أنّما عبّر عن عملهم بالفساد وعدَّهم من المفسدين لأنّ المعارض للحقّ مفسد قطعاً كما أنّ المعارض للباطل مصلح و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ**

معناه أنّ اللّه سيبطل سحركم هذا لأنّه من الباطل و فاعله مفسد و من أفسد في الأرض لا يصلح اللّه عمله لأنّه من الباطل الّذي كان زهوقاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلْ جٰآءَ اَلْحَقُّ وَ زَهَقَ اَلْبٰاطِلُ إِنَّ اَلْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقًا**(۱).

و الی هـذا أشـار بـقوله **لِيُحِقَّ اَلْحَقَّ وَ يُبْطِلَ اَلْبٰاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ**(۲).

فأنّ هذا عطف على قوله: **قٰالَ مُوسىٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ** أي أنّ اللّه سيبطله و يحقّ الحقّ بكلماته أي يظهر الحقّ بسبب كلماته التّي وعدها لموسى أو بكلامه الّذي يبيّن به معاني الأيات التّي أتاها نبيّه صلى الله عليه و آله أو بما سبق من حكمه في اللّوح المحفوظ بأنّ ذلك يكون على إختلاف الأقوال فيه هذا.

و أنا أقول لا يبعد أن يكون المراد بالكلمات هو كلماته التّكوينيّة الوجوديّة و في رأسها الأنبياء و الأوصياء و الأولياء و عليه فالمعنى أنّ اللّه تعالى يبطل عمل المفسدين على أيدي المصلحين الكاملين أعني بهم الأنبياء أعطاهم اللّه تعالى المعجزات و الكرامات و خوارق العادات ولو كره المجرمون و كيف كان ففي الآية دلالة صريحة على أنّه تعالى ينصر المحقّين و يخذل المفسدين قال اللّه تعالى **إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا فِى اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا**(۳).

فَمٰآ آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِى اَلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لم يصدّق لموسى بالنّبوة إلاّ ذريّة من قومه أي من قوم موسى من بني إسرائيل مع خوفهم من فرعون و أشراف قومه، أو أتباعه أن يفتنوهم أي يعذّبوهم بأنواع العذاب و أنّ فرعون لعالٍ في الأرض، هو من العُلو أي إستكبروا و إدّعى الألوهيّة و هى من أكبر مصاديق العلّو و أنّه،

۱- الاسرا= ۸۱
۲- الانفال = ۸
۳- غافر =۵۱

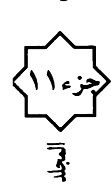
أي فرعون، لمن المسرفين المكثرين في القتل و إرتكاب المعاصي و ذلك لأنّ الإسراف الّذي هو بمعنى التّجاوز عن الحدّ قد يتحقّق بالقتل و قد يتحقّق بسبب المعاصي.

قال ابن عبّاس أنّه أراد إلاّ قليل من قومه، و قيل كانت أمّهاتهم من بني إسرائيل و أباءهم من القبط و قيل سمّوا ذريّة لأنّهم أولاد الذين أرسل عليهم موسى فلم يستجيب الأباء و قيل الأبناء.

و قيل هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلّم السِّحر و جعلهم من أصحابه و الضّمير في قوله و ملاءهم، قيل يرجع الى الذريّة فقط و قيل الى فرعون و أتباعه، و قيل الى فرعون فقط و فى الآية إشعار بأنّ الذريّة من قوم موسى الّذين كانوا على خوف من فرعون و هو كذلك.

■





وَ قالَ مُوسىٰ يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿۸۴﴾ فَقالُوا عَلَى ٱللّٰهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظّالِمِينَ ﴿۸۵﴾ وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكافِرِينَ ﴿۸۶﴾ وَ أَوْحَيْنآ إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ ٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلوٰةَ وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۸۷﴾ وَ قالَ مُوسىٰ رَبَّنآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي ٱلْحَيوٰةِ ٱلدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلىٰٓ أَمْوالِهِمْ وَ ٱشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتّٰى يَرَوُا ٱلْعَذابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿۸۸﴾ قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿۸۹﴾ وَ جاوَزْنا بِبَنِيٓ إِسْرآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتّٰىٓ إِذآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿۹۰﴾ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿۹۱﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ ﴿۹۲﴾ وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِيٓ إِسْرآئِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّباتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتّٰى جآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿۹۳﴾

◀ اللّغة

تَبَوَّءا أي إتّخذ يقال بوّأته منزلاً أي إتخّذته له و أصله الرّجوع من باؤو بغضب من اللّه، أي رجعوا و المبوأ المنزل لأنّه يرجع اليه للمقام فيه.

ٱطْمِسْ بفتح الألف وكسر الميم و الطَّمس محو الأثر يقال طمست الرِّيح آثار الديار.

وَ ٱشْدُدْ أي ثبّتهم على المقام في بلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشّد عليهم.

بَغْيًا وَ عَدْوًا البغي طلب الإستعلاء بغير حّقٍ و العدو و الظُّلم.

◀ الإعراب

أَنْ تَبَوَّءا يجوز أن تكون (أَن) المفسّرة و لا يكون لها موضع من الإعراب و يجوز أن تكون مصدريّة فتكون في موضع نصب، بأوحينا و الجمهور على تحقيق الهمزة و منهم من جعلها ياء و هى مبدلّة من الهَمزة تخفيفاً لِقَوْمِكُمَا أحد مفعولي تبَّوأ و يجوز أن يكون حالاً من البيوت بِمِصْرَ متعلّق بتَّبوأ أن يكون حالاً من البيوت و أن يكون حالاً من قومكما و أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في تبَّوأ فَلَا يُؤْمِنُوا في موضعه وجهان:

أحدهما: النَّصب و فيه وجهان:

أحدهما: هو معطوف على لِيُضِلُّوا.

الثّانى: هو جواب الدّعاء في قوله و أطمس و أشدد.

والقول الثّانى: موضعه جزم لأنّ معناه الدّعاء كما تقول لا تعذّبني وَ لَا تَتَّبِعَآنِّ يقرأ بتشديد النّون والنّون للتوكيد و يقرأ بتخفيف النّون و كسرها وَ جَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الباء للتعديّة مثل الهمزة بَغْيًا وَ عَدْوًا مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال آلْآنَ العامل فيه محذوف تقديره، أتؤمن الآن بِبَدَنِكَ في موضع الحال أي عارياً مُبَوَّأَ صِدْقٍ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون مكاناً.



◄التّفسير

وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

التَّوكل التَّوثق بأسناد الأمر الى اللّه و الوكالة عقد الأمر لمن يقوم به مقام مالكه و حيث أنّ اللّه عزّ و جلّ أملك بالعبد من نفسه فهم أحقّ بهذه الصِّفة فأنّ التوكل على اللّه يوجب النّجاة من كلّ محذور و الفوز بكّل سرور و لذلك قال موسى لقومه من بني إسرائيل **يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** أي صَدَّقتم بتوحيده واقعاً فعليه أي فعلى اللّه توكلّوا في جميع شئونكم أن كنتم مسلمين أي مطيعين منقادين له تعالى و قد مرّ منّا مراراً أنّ الإيمان عبارة عن الإعتقاد بالجنان و الإقرار باللّسان و العمل بالأركان و أمّا الإسلام فهو الإقرار بالشّهادتين فقط و لذلك يكون الإيمان أعّم من الإسلام فكلّ مسلم و ليس كلّ مؤمنٍ مسلمٍ مؤمناً إذا عرفت هذا فلقائل أن يقول قوله: **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ** يكفي في المقام فما معنىٰ قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** بعده.

و الجواب أنّ قوله: **مُسْلِمِينَ** ليس المراد به الإسلام المصطلح أعني الإقرار بالشهادتين لأنّه موجود في الايمان بل المراد به التَّسليم و الإنقياد له تعالى كما قال أمير المؤمنين عليه السلام الإسلام هو التّسليم ألخ.

و مقام التَّسليم من أعلى المقامات في طريق السُّلوك الى اللّه فالمعنى أنّ موسى عليه السلام قال لقومه أن كنتم آمنتم باللّه حقّاً و كنتم من المطعين المنقادين له فعليه توكّلوا لأنّ المؤمن المنقاد له تعالى في جميع أوامره و نواهيه يكون في مقام التَّسليم لا محالة و لا نعني بالتَّوكل إلاّ إيكال الأمر اليه و لعلّه لذلك أتى بفاء التّفريع و قال فعليه توكلّوا ولم يقل و عليه توكلّوا أي أنّ التَّوكل من فروع الإيمان و التَّسليم فمن لا يتوكّل عليه لا يكون مؤمناً مطيعاً حقّاً و إنّما خاطبهم بذلك حين إشتّد خوفهم ممّا توعَّدهم به فرعون من قتل الآباء و ذبح الذريّة.

قال بعض المفسّرين علّق توكلهم على شرطين متقدّم و متّأخر و متى كـان الشرطان لا يترّتبان في الوجود فالشّرط الثّاني شرط في الأوّل فمن حيث هـو شرط فيه يجب أن يكون متقدواً عليه فالإسلام هو الإنقياد للـتكاليف الصـادرة من اللّه و إظهار الخضوع و ترك التَّمرد و الإيمان عرفان القـلب بـاللّه تـعالى و وحدانيّته و سائر صفاته و أنّ ما سواه محدث تحت قهره و تدبيره و إذا حصل هذا الشّرطان فـوّض العبد جـميع أمـوره اليـه تـعالى و أعـتمد عـليه فـي كـلّ الأحوال إنتهى كلامه.

فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ، وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ

يظهر من الآية أنّهم أطاعوا موسى فـتوكلّوا عـلى اللّـه تـعالى و سـئلوا اللّـه تعالى و قالوا **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ** أي لا تَجعلنا مِـحنَةً و إعتباراً لهم أي للقوم الظالمين الّذين هم قوم فرعون و أختلفوا في معنى المراد بالفتنة الّتي أصلها البليّة فقال قـوم مـعناه لا تـجعلنا فـتنة بـتقتير الرّزق عـلينا و بسطه لهم و قال الزّمخشري أي موضع فتنة لهم أي عذاب يعذّبوننا و يـفتنون عن ديننا أو فتنة لهم يفتنون بنا و يقولون لو كان هؤلاء على الحقّ لما أصيبوا.

و قال القرطبي، أي لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنـا عـن الدّيـن أو لا تمنحنا بأنّ تعذّبنا على أيديهم و قال مجاهد المعنى لا تهلكنا بأيـدي أعـدائـنا فيقول أعدائنا لو كانوا على حَقٍ لم نسلّط عليم فيفتنوا.

و قال الأخرون يعني لاتظهرهم علينا فيروا أنّهم خيراً منّا فيزدادوا طـغياناً و كفراً الى غير ذلك من الأقوال المسطورة في التّفاسير.



و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه و فيه وجوه:

الأوّل: أنّ المراد لا تفتن بنا فرعون و قومه لأنّك لو سلطّتهم علينا لوقع فـي قلوبهم إنّا كنّا على الحقّ لما سلَّطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قويّة في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

الثّانى: أنّك لو سلّطتهم علينا لأستوجبوا العقاب الشّديد في الأخرة يكون فتنةً لهم.

الثّالث: لا تجعلنا فتنةً لهم أى موضع فتنة لهم أي موضع عذاب لهم.

الرّابع: أن يكون المراد من الفتنة المفتون لأنّ إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق و المعنى لا تجعلنا مفتونين أي لا تمكنّهم من أن يحملونا بالظلم و القهر على أن ننصرف من هذا الدّين الحقّ الّذي قبلناه و هذا التّأويل متأكّد بما ذكره اللّه تعالى قبل هذه الآية و هو قوله: **فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ**[1] المطلوب الثّاني في هذا الدّعاء. فهو قوله تعالىٰ: **وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**.

ثمّ قال و أعلم أنّ هذا التّرتيب يدلّ على أنّه كان إهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق إهتمامهم بأمر دنياهم و ذلك لإنّا إن حملنا قولهم: **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** على أنّهم سلّطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أنّ هذا الدّين باطل فتّضرعوا الى اللّه تعالى في أن يصون أولئك الكفّار عن هذه الشّبهة و قدّموا هذا الدّعاء على طلب النّجاة لأنفسهم و ذلك يدلّ على أنّ عنايتهم بمصالح دين أعداءهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم و أن حملناه على أن لا يمكّن اللّه أولئك الكفّار من أن يحملوهم على ترك هذا الّدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أنّ إهتمامهم بمصالح أديانهم فوق إهتمامهم بمصالح أبدانهم و على جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة انتهى كلامه.

أقول هذا الكلام لا يحتاج الى هذه التأويلات الباردة السخيفة و ذلك لأنّ معنى الكلام أعني به قوله: **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** يظهر من قوله: **عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ**[2] فحيث كان إيمان الذريّة بموسى على خوف من فرعون و ملائهم أن يفتنهم، أي يعذّبهم و يبتليهم بأنواع

۱- يونس = ۸۴ ۲- يونس=۸۳

المصائب فقالوا بعد إيمانهم بموسى ربّنا لا تجعلنا فتنة لفرعون و ملائه بعد إيماننا بموسى كما كنّا كذلك قبل الإيمان ففي هذا الكلام دعاءٌ على فرعون بالمغلُّوبيّة و الإستئصال فكأنّهم قالوا ربّنا سلّطنا على أعداءنا و لا تجعلنا مقهورين لهم ليعذّبونا بأنواع العذاب.

و أنّما قالوا ذلك لأنّ قوم موسى إستعبدهم فرعون و ملائه و قالوا لو كان لهؤلاء على اللّه كرامة كما يقولون و يدَّعون ما سلّطنا عليهم و حيث قالوا ذلك قال موسى لقومه: **يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا،فَقٰالُوا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ، وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ** أي لا تسلّطهم علينا ثانياً و هذا ظاهر لا خفاء فيه

وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءٰا لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

الوَحى بفتح و سكون الحاء الإشارة السريعة و لتّضمن السُرعة قيل أمرٌ وحيٌ و ذلك قد يكون بالكلام على سبيل الرَّمز و التّعرض و قد يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب، و بإشارةٍ ببعض الجوارح، و بالكتابة.

و يقال للكلمة الإلهية الّتي تلقى الى أنبياءه و أولياءه وحيٌ و ذلك أضربٌ جسماً دلّ عليه قوله: **وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ**[1].

و ذلك أمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرائيل عليه السلام النّبي في صورة معيّنة.

و أمّا بسماع كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى كلام اللّه.

و أمّا بإلقاءٍ في الرَّوح كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّ روح القدس نفث في روعي.

١- الشّورىٰ=٥١

و أمّا بإلهامٍ:

كما قال تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ**[١].

و أمّا بتسخيرٍ:

كقوله تعالىٰ: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا**[٢].

وأمّا بمنامٍ كما قال رسول اللّه ﷺ إنقطع الوحي و بقيت المبشّرات رؤيا المؤمن.

فالإلهام و التسخير و المنام دلّ عليه قوله، إلاّ وحياً و سماع الكلام معاينة دلّ عليه قوله: **أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ**.

و تبليغ جبرائيل في صورةٍ معيّنة دلّ عليه قوله: **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**[٣] إذا عرفت هذا فنقول.

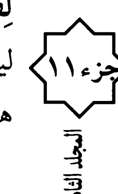
قوله: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَ أَخِيهِ** و هو هارون، كان الوحي الى موسى بواسطة جبرائيل و أمّا وحيه تعالى الى هارون فهو بواسطة جبرائيل و موسى و لذلك قدّم موسى في الكلام لأنّه كان نبيّاً مرسلاً و هارونه كان وزيره ما دام موسى حيّاً و لم يكن هارون نبيّاً في حياة موسى.

و قيل كان شريكاً له في النبّوة إلاّ أنّ موسى هو الأصل فيها.

نعم لو بقى هارون بعد موسى لكان نبيّاً و لكنّه مات قبل موسى.

و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى أوحى الى موسى و أخيه هارون **أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ** أي إتّخذا لهم بمصر، بيوتاً، أي إجعلا لهم بيوتاً في مصر ليسكنوا فيها **وَ ٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** الظّاهر أنّ الخطاب عامّ يشمل موسىٰ و هارون و قومهما، أي إجعلوا جميعاً بيوتكم قبلة.

و يمكن أن يقال في الكلام حذف و تقديره قولا لهم إجعلوا بيوتكم قبلة.



١- القصص=٧ ٢- النّحل=٦٨

٣- الشّوریٰ=٥١

و الجواب أن الحذف خلاف الأصل إلاّ أن يدلّ عليه دليل و لا دليل عليه في المقام مضافاً الى عدم الإحتياج اليه ضرورة أنّ الكلام بدونه مستقيم.

قال بعض المفسّرين أنّ فرعون كان مستولياً على بني إسرائيل خرب مساجدهم و مواضع عباداتهم و منعهم من الصّلوات و كلّفهم الأعمال الشّاقة وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بالصّلاة في بيوتهم في خفيّة من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيرّدوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام.

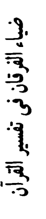
و أمّا قوله: **قِبْلَةً** معناه مصلّى، و قيل أي مسجداً، أي و أجعلوا بيوتكم مصلّى، أو مسجداً و ذلك لأنّهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلّوا في بيوتهم.

والى هذا أشار بقوله: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ** و أمّا قوله: **وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** معناه بشّرهم بالجنّة و ما وعد اللّه من الثّواب و أنواع النّعم.

نقل بعض المفسّرين عن إبن عبّاس أنّه قال في الكلام حذف و التقدير أجعلوا بيوتكم قبل القبلة.

و عنه أيضاً قبل مكّة و عن مجاهد أجعلوا بيوتكم مستقبل الكعبة و أنت ترى أنّ ما ذكروه لا دليل عليه إذا لا نعلم أنّهم كانوا يصلّون الى بيت المقدّس أو الى الكعبة و اللّه أعلم.

وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُۥ زِينَةً وَ أَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ.



حكى اللّه تعالى في هذه الآية عن موسى أنّه قال ربّنا أنّك آتيت فرعون و ملائه أي أتباعه و رؤوساء قومه زينةً و أموالاً في الحياة الدنيّا.

و المراد بالزينّة ما يتزيّن به من الحلّي و الثياب و المتاع.

و قيل المراد بها هو حسن الصُّورة و ليس بشئ، ربّنا ليضلّوا عن سبيلك، أي ليضلّوا النّاس عن سبيل الحقّ بسبب ما آتيتهم من الأموال و المتاع.

أن قلت ظاهر الكلام يدلّ على أنّ موسى عليه‌السلام جعل الغاية في ما أتاهم اللّه الإضلال و هذا يوهم أنّ السّب الأصلي في إقدارهم على الإضلال هو ما أتاهم من الأموال و حيث أنّ الزيّنة و الأموال ممّا أتاهم اللّه فهو تعالى في الحقيقة صار سبباً للإضلال و هو كما ترى يوجب الجبر و الظلم و اللّه تعالى منزّه عنهما فكيف قال موسى هذا.

قلت ليس الأمر كما ظننت و توّهمت و ذلك لأنّ موسى أشار بكلامه هذا الى طغيانهم و إضلالهم بسوء إختيارهم بسبب الأموال و بعبارةٍ أخرى أنّه اللّه تعالى أتاهم ما أتاهم من الأموال ليشكروا عليها فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً إلاّ أنّهم طغوا و تمرّدوا و عصوا بدل الشّكر و ضلّوا و أضّلوا و حيث كان سبب ذلك الأموال و الأمتعة فقال ما قال أي كأنّ اللّه تعالى جعلهم في الرّفاهية لأجل الإضلال لا لأجل الطّاعة و الشكر ففى الكلام ذمٌّ لقوم فرعون حيث إستفادوا من نعم اللّه خلاف ما كان واجباً عليهم عقلاً فهو من قبيل:

قوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ الُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**(۱).

و من المعلوم المسلم عن الكلّ أنّ آل فرعون إلتقطه ليكون لهم إبناً و ناصراً ألا ترى الى قوله تعالى بذلك:

وَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ(۲)

و الحاصل أنّهم إلتقطوه ليكون لهم قرّة عينٍ الخ لا ليكون لهم عدّواً و حزناً، إلاّ أنّ موسى صار في آخر الأمر عدّواً و حزناً على خلاف ما زعموه.

فمعنى الآية أنّ آل فرعون إلتقطه ليكون قرّة عين لهم، و قد حصل خلاف ما زعموه و قصدوه فصار عدّواً لهم فكأنّهم إلتقطوه للعداوة و هذا من محسنات فنّ البلاغة و ما نحن فيه من هذا القبيل و سمّي اللاّم بلام العاقبة.

۱- القصص=۸ ۲- القصص=۹

و العجب أنّ الرّازي إستدلّ بهذه الآية على الجبر قال هذا لفظه.

إحتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضلّ النّاس و يريد إضلالهم و تقريره من وجهين:

الأوّل: أنّ اللاّم في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام التعليل و المعنى أنّ موسى عليه السلام قال يا ربّ العزّة أنّك أعطيتهم هذه الزيّنة و الأموال لأجل أن يضلّوا فدلّ هذا على أنّه تعالى قد يريد إضلال المكلّفين.

الثّاني: أنّه قال و أشدد على قلوبهم فقال اللّه تعالى قد أجيبت دعوتكما و ذلك أيضاً يدلّ على المقصود انتهى كلامه.

و لم يعلم أنّ اللاّم ليست للتعليل بل هي لام العاقبة و الفرق بينهما واضح.

ثالثاً: أنّه تعالى منزّه عن فعل القبيح و إرادة الكفر قبيحة.

رابعاً: لو أراد الكفر لكان الكفّار مطيعين له في كفرهم إذ لا معنى للطّاعة إلاّ الإتيان بما يوافق الإرادة و لو كانوا كذلك لمّا إستّحقوا الدّعاء عليهم بطمس الأموال و شدّ القلوب إذ المفروض أنّهم كانوا مطيعين في كفرهم.

نقل الرّازي هذه الأجوبة عن القاضي ثمّ قال في آخر كلامه و إذ ثبت هذا فنقول.

وجب تأويل هذه الكلمة و ذلك من وجوه:

الأوّل: أنّ اللاّم في قوله: **لِيُضِلُّوا** لام العاقبة كقوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا** و لمّا كانت عاقبة قوم فرعون هو الضّلال و قد أعلمه اللّه تعالى لا جرم عبّر عن هذا المعنى بهذا اللّفظ.

الثّاني: أنّ قوله: **رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** أي لئلا يضلّوا عن سبيلك فحذفت، لا، لدلالة المعقول عليه كقوله:

يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا[1].



١- النساء = ١٧٦

و المراد أن لا تضلّوا، و كقوله تعالىٰ:

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ[١].

المراد لئلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير في الكلام.

الثّالث: أن يكون موسىٰ عليه السلام قد ذكر ذلك علـى سـبيل التّعجب المـقرون بالإنكار و ذالتّقدير كأنّك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فأنّهم لا ينفقون هذه الأموال إلاّ فيه و كأنّه قال آتيتهم زينةً و أموالاً لأجل أن يضلّوا عن سبيل اللّه ثمّ حذف حرف الإستفهام كقول الشّاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ غلس الظّلام من الرّباب خـيالاً

أراد أكذبتك فكذا هاهنا

الرّابع: قال بعضهم هذه اللاّم، لام الدّعاء و هى لام مكسورة تجزم المستقبل و يفتتح بها الكلام فيقال ليغفر للّه للمؤمنين و ليعذّب اللّه الكـافرين و المـعنى ربّنا إبتلهم بالضّلال عن سبيلك.

الخامس: أنّ هذا اللاّم لام التّعليل بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة.

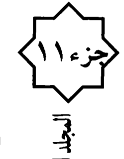
السّادس: أنّ الضّلال جاء في القرآن بمعنى الهلاك فقوله: **رَبَّنَا لِيُضِلُّوا** عن سبيلك معناه ليهلكوا و يموتوا انتهى كلامه في المقام.

أقول أنّه لم يقنع بما ذكره في إثبات مدّعاه من الوجهين الّذين مرَّ ذكـرهما بل شرع في الإستدلال بوجهٍ أبسط فقال.

و أعلم إنّا قد أجبنا عن هذه الوجوه مراراً كثيرة في هذا الكتاب و لا بأس بأن نعيدها(بعضها)، في هذا المقام.

فنقول الّذي يدلّ على أنّ حصول الإضلال من اللّه تعالى وجوه.

الأوّل: أنّ العبد لا يقصد إلاّ حصول الهداية فلمّا لم تحصل الهداية بـل حـصل الضّلال الّذي لا يريده علمنا أنّ حصوله ليس من العبد بل من اللّـه تـعالى فـلو قالوا أنّه ظنّ بهذاالضّلال أنّه هدى فلا جرم قدأوقعه وأدخله في الوجودفنقول.



١- الاعراف ١٧٢=

فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السّابق فلو كان حصول ذلك الجهل السّابق بسبب جهلٍ آخر لزم التسلسل و هو محال فثبت أنّ هذه الجهالات و الضّلالات لابدّ من إنتهاؤها الى جهلٍ أوّل و ضلالٍ أوّل و ذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد و تكوينه لأنّه كرهه و أنّما أراد ضدّه فوجب أن يكون من اللّه تعالى انتهى.

و الجواب أنّ مجرّد القصد لا يكفي في تحقّق الهداية بل يجب العمل بعد القصد و هو بإختياره فقوله أنّ الجهل و الضّلال الأوّل لا يمكن أن يكون بإحداث العبد لا نفهم معناه إذ المفروض أنّ الكتاب و السُّنة قد بينّا تكليف العبد فلو كان العبد مقصّراً في رفعه فالذّنب له.

قال، الثّاني: أنّه تعالى لمّا خلق الخلق بحيث يحبّون المال و الجاه حبّاً شديداً لا يمكنه إزالة هذا الحبّ عن نفسه ألبتّة و كان حصول هذا الحبّ يوجب الإعراض عمّن يستخدمه و يوجب التكبر عليه و ترك الإلتفات الى قوله و ذلك يوجب الكفر فهذه الأشياء بعضها يتأدّى الى البعض تأدّياً على سبيل اللّزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الّذي خلق الإنسان مجبولاً علىٰ حبّ المال و الجاه انتهى.

و الجواب أنّ حبّ المال و الجاه لايوجب ترك الإلتفات على سبيل اللّزوم بعد أن أعطى اللّه العبد العقل فلو كان حبّ المال و الجاه موجباً للكفر و الضّلالة على سبيل الإطلاق لكان في الأنبياء و الأوصياء و الأولياء أيضاً كذلك نرى خلاف ما ذكره في كثير من النّاس هذا مضافاً الى أنّ الكفر لا فاعل له لأنّه أمرٌ عدميّ فالقول بأنّ اللّه خالق الكفر لا معنى له.

قال الثّالث: و هو الحجّة الكبرى أنّ القدرة بالنسبة الى الضّدين بالسويّة فلا يترجح أحد الطّرفين على الثّاني إلاّ لمرجّح و ذلك المرّجح ليس من العبد و إلاّ لعاد الكلام فيه فلابدّ أن يكون من اللّه تعالٰى و إذا كان كذلك كانت الهداية و الإضلال من اللّه تعالى انتهى.

و الجواب أنّ المرجّح هو إرادة العبد قوله لعاد الكلام فيه، سفطة لأنّ العبد و أن كانت قدرته بالنسبة الى الضدّين بالسويّة إلاّ أنّه لمّا رجّح الفعل على الترك أو بالعكس لا يقال لم رجّح الفعل أو التّرك لأنّه بعقله يميّز بين الخير و الشّر و هذا هو منشأ إختياره في الأفعال الصّادرة عنه فالقول بأنّ الهداية و الإضلال من اللّه لا من العبد تحكمٌ لا دليل عليه بل الدليل ثابت على عدمه فهذه الوجوه الثّلاثة هي أقوى فحجّه في المقام و أنت ترى أنّها أوهن من بيت العنكبوت و قد أطال الكلام في النقض و الإبرام بما لا طائل تحته و أن أردت الوقوف على ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه: **رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** أخبر اللّه تعالى عن موسى أنّه دعى على فرعون و ملائه فسأل اللّه أن يطمس على أموالهم و الطمس محو الأثر فدعى موسى عليهم بأن يقلّب أحوالهم عن الإنتفاع بها لأنّها صارت باعثة على طغيانهم و معصيتهم و أمّا قوله و أشدد على قلوبهم، قيل معناه ثبّتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشدّ عليهم.

و قال القرطبي قال إبن عبّاس أي إمنعهم عن الإيمان، و قيل قسّها و أطبع عليها حتّى لا تنشرح للإيمان إنتهى قوله.

أقول ما ذكره أو نقله عن غيره غلطٌ فاحش على مذهب العدليّة نعم هو على مسلك الجبر الّذي يساوق الكفر لا كلام فيه و ذلك لأنّ اللّه تعالى لو منع العبد عن الإيمان كما يقولون به فلم أرسل الرُّسل و أنزل الكتب السّماوية ثمّ أنّ موسى كيف يدعوا عليهم بذلك و هو يدعوهم الى الإيمان، هذا كلّه مضافاً الى أنّ الكلام لا دلالة على ما ذكروه لأنّ قوله: **وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ليس فيه ذكرٌ من الإيمان و من المحتمل أن يكون المعنى و أشدد على قلوبهم في الإنتفاع بأموالهم كما هو مقتضى العطف و العجب من الرّازي حيث قال معنى ألشَّد على القلوب الإستيثاق منها حتّى لا يدخلها الإيمان ثمّ نقل عن الرّازي

أنّه قال و هذا دليل على أنّ اللّه تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السّؤال إنتهى كلامه.

أقول لا نعلم من أين وجد لفظ الإيمان في الكلام حيث فسّر ألشّد على القلوب بعدم دخول الإيمان فيها أليس هذا من التّفسير بالرّأي نعوذ باللّه منه ثمّ أنّ موسى عليه السلام الّذي أرسل اليهم ليدعوهم الى الإيمان كيف يدعوا عليهم بشّد قلوبهم حتّى لا يدخلها الإيمان أليس هذا من التّناقض الّذي يحكم العقل بإستحالته و أمّا قوله: **فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** قيل أنه معطوف علىٰ قوله: **لِيُضِلُّوا** و التّقدير ربّنا ليضلّوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم و عليه فقوله: **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** إعتراضاً، و قيل أنّه جواب لقوله: **وَ اشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** و التّقدير و أطبع على قلوبهم وقسّها حتّى لا يؤمنوا فأنّها تستحقّ ذلك فعلى القول الأوّل لا يكون فيه من معنى الدّعاء.

و على الثّاني فهو دعاءٌ عليهم.

و قال الفّراء: هو دعاء عليهم بأن لا يؤمنوا ثمّ حكى عن قومٍ أنّ المراد بذلك الإستفهام و الإنكار كأنّه قال أنّك لا تفعل ذلك ليضلّوا عن سبيلك.

و قيل أنّ قوله: **فَلَا يُؤْمِنُوا** خرج مخرج الجواب للأمر و معناه الإخبار كما يقولون أنظر الى الشّمس تغرب.

و قيل أنّ المعنى لا يؤمنون إيمان إلحاء حتّى يروا العذاب الأليم و هم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيارٍ أصلاً.

و قيل اللاّم، لام كي، و أنّه تعالى أعطاهم الأموال و الزيّنة لكي يضلّوا عقوبة و أمثال هذه الأقوال كثيرة.

و أنا أقول ما ذكروه في معنىٰ الكلام ممّا لا يعتمد عليه و الّذي نقول أنّ الفاء للتّفريع و الكلام مستأنف و ليس داخلاً في الدّعاء أصلاً إذ لا معنى لدعاء



موسى عليهم بعدم الإيمان و هو مبعوث اليهم لأجل الإيمان فالكلام خرج مخرج الأخبار فقط و المعنى أنّهم لا يؤمنون بإختيارهم و إرادتهم حتّى يروا العذاب الأليم في الآخرة و لا تنفعهم الدّعوة و الموعظة و التخويف و غير ذلك لإنغمازهم في الشّهوات و متابعتهم الأهواء و الأميال النفسانيّة و من كان كذلك فهو لا يتّبع الحّق و لا يقبله و هو ظاهر.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

قال أي قال اللّه تعالىٰ في جواب موسى و هارون، **قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** على فرعون و ملائه و إنّما قال تعالىٰ: **دَّعْوَتُكُمَا** و لم يقل دعوتك مع أنّ موسىٰ كان داعياً عليهم لقوله: **وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُۥ** قيل لأنّ موسىٰ كان داعياً مع تأمين هارون و المُؤمن أيضاً داع لأنّ المعنى في التّأمين اللّهم اجب هذا الدّعاء و قيل لا يبعد أن يكون كلّ واحدٍ منهما ذكر هذا الدّعاء و إنّما خّص موسىٰ بالذّكر تشريفاً و تعظيماً له ثمّ أمرهما اللّه تعالىٰ بأمرين:

أحدهما: الإستقامة فقال: **فَاسْتَقِيمَا**.

ثانيهما: عدم متابعة الجهال فقال: **وَ لَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**

أمّا الإستقامة فالمراد بها على ما قيل الإستقامة و الثّبات على طريق الدَّعوة و ألرّسالة و قيل الإستقامة في دعائهما لفرعون و قومه علىٰ ما أمر اللّه به،قوله: **وَ لَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**[1] أي و لا تتبّعان سبيل الجاهلين أي لا تتبّعان سبيلهم في وعدي و وعيدي فأنّه لا خلف له.

و قال إبن جريح: مكث فرعون بعد هذه الأمور أربعين سنة.

أقول إستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم.

١-ج ١١

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ**(٤).

و الإستقامة على المنهج المستقيم صعبٌ مستصعب قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله **شيبّتني سورة هُود لِمَكان هذه الأية** و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ أمرهما بالثّبات و الإستقامة في طريق الدّعوة الى الحقّ و نهاهما عن متابعة الّذين لا يعلمون وعد اللّه و وعيده.

وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتّٰىٓ إِذٰآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قٰالَ اٰمَنْتُ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ اٰمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرٰآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.

المجاوزة الخروج عن الحدّ من إحدى الجهات الأربعة، و البحر مستقرّ الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفه من كان في وسطه يقول اللّه تعالىٰ: **وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ ٱلْبَحْرَ** أي أخرجناهم منه بأن جفّف لهم البحر و جعله طرقاً حتّى جاوزو،**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا** أي كانت متابعة فرعون لبني إسرائيل علىٰ سبيل البغي و الظُّلم و البغي طلب الإستعلاء بغير حقٍّ و فرعون كان من أكبر مصاديق البغي، حتّىٰ، إذا أدركه الغرق، و الضّمير في أدركه يرجع الىٰ فرعون (قال، فرعون) آمنت أنّه لا إلٰه إلاّ الّذي، أي الإلٰه الّذي، آمنت به بنوإسرائيل، و هو إلٰه موسىٰ و أنا من المسلمين، أي المطيعين المنقادين له تعالىٰ.

١- فصّلت =٣٠
٢- الاحقاف =١٣
٣- هُود =١١٢
٤- الشّورىٰ =١٥

روي أنّ موسى سرىٰ بقومه متوجّهين الىٰ البحر و هم ستة مائة ألف و عشرون ألفاً و هم المقاتلة سوى الذّرية و كان موسى على السّاقة و هارون على المقدّمة ثمّ تبعهم فرعون بجنوده و على مقدّمته هامان في ألف ألف و سبع مائة ألف كلّ رجلٍ على حصان و على رأسه بيضة و بيده خربة أرسل فرعون في أثر موسىٰ و قومه ألف ألف و خمس مائة ثمّ خرج فرعون خلفهم في الدّهم و كانوا مائة ألف رجل كلّ واحدٍ منهم راكباً حصاناً أدهم فكان في عسكر فرعون مئة ألف حصان أدهم و ذلك حين طلعت الشّمس و أشرقت فلّما ترى الجمعان ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا يا موسى أين ما وعدتنا من النّصر و الظّفر هذا البحر أمامنا أن دخلناه غرقنا و فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا و لقد أوذينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا فقال موسىٰ أستعينوا باللّه و أصبروا أنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتّقين قالوا فلّما إنتهىٰ موسىٰ الىٰ البحر هاجَت الرّيح تَرمي بِمَوج كالجبال فقال له يوشع بن نون يا كلّيم اللّه أين أمرت و قد غشينا فرعون و أمامنا البحر فقال موسى هاهنا فخاض يوشع الماء و جاز البحر يواري حافر دابّته الماء فأوحى اللّه سبحانه الى موسى أن أضرب بعصاك الحجر فأنفلق فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم فإذا خربيل واقف على فرسه لم يبتل سرجه و لا لبده و ظهر في البحر إثني عشر طريقاً لأثني عشر سبطاً لكلّ سبطٍ طريق و أرشل اللّه الرّيح و الشّمس علىٰ قعر البحر حتّى صار يبساً و عن عبد اللّه بن سلام أنّ موسى لمّا إنتهىٰ الىٰ البحر قال يا مَن كان قبل كلّ شئ والمُكّون لكّل شئ والكائن بعد كلّ شئ إجعَل لنا مَخرجاً و عن عبد اللّه قال

قال رسول اللّه أنّه قال عند ذلك اللّهم لك الحَمد وإليك المُشتكىٰ وأَنت المُستعان ولا حَول ولا قُوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم فخاضت بنو إسرائيل البحر كلّ سبطٍ في طريقٍ و عن جانبيهم الماء كالجبل الضَّخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا و قال كلّ سبطٍ قد قتل أخواننا فأوحى اللّه سبحانه الى جبال الماء أن تشتكي فصار الماء شبكات ينظز بعضهم الى بضعٍ و يسمع بعضهم كلام بعضٍ حتّى عبروا البحر سالمين و لمّا خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدّمة عسكر فرعون اليه و أراد موسى أن يعود البحر الىٰ حاله الأولىٰ فأوحىٰ اللّه سبحانه أن أترك البحر رهواً أنّـهم جـندٌ مغرقون، فلمّا وصل فرعون قال لقومه أنظروا الى البحر قد إنفلق لهيبتي حتّىٰ أدرك أعدائي و عبيدي و لم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرسٍ أنثىٰ و عليه عمامة سوداء و تـقدَّمهم و خاض البحر و ظنّ أصحاب فرعون أنّه منهم فلمّا سمعت الخيول ريحها إقتحمت البحر في أثرها و جاء ميكائيل على فـرسٍ خـلف القوم ليشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلمّا أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال أنّـي قـد أتـيت هـذا الموضع مراراً و مالي عهدٌ بهذا الطّريق (بهذه الطّرق) و أنّي لا أمن أن يكون هذا مكراً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإمتنع و نفر حتّى جاء جبرئيل على رمكة ببيضاء فـخاض البـحر فـتبعها حصان فرعون فلمّا توافوا في البحر و همَّ أوّلهم بالخروج أمر اللّه البحر فإلتطم عليهم فغرقهم جميعاً بمرأى من بني إسرائـيل فـلمّا سمعت بنو إسرائيل صوت إلتـطام البـحر قـالوا لمـوسى مـاهذه

الوجبة فقال لهم أنّ اللّه سبحانه قد أهلك فرعون و كلّ من كان معه قالوا أنّ فرعون لا يموت ألم تر أنّه كان يلبث كذا و كذا يوماً لا يحتاج الى شيءٍ ممّا يحتاج اليه الإسنان فأمر اللّه سبحانه البحر فألقاه على نجوةٍ من الأرض درعه حتّى نظر اليه بنو إسرائيل الىٰ أخر الحديث.

اَلْاٰنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ أي الأن تقول ما تقول و الحال أنّك قد عصيت قبل ذلك وكُنتَ من المُفسدين و فيه إشارة الىٰ أنّ التّوبة قبل رؤية البأس مقبولة و أمّا بعدها فلا.

فعن عيون الأخبار بأسناده الىٰ إبراهيم بن محمّد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرّضا عليه السلام لأيّ علّةٍ أغرق اللّه تعالىٰ فرعون و قد أمَن به و أقرّ بتوحيده قال عليه السلام لأنّه أمن عند رؤية البأس و الإيمان عند رؤية البأس غير مقبول حكم اللّه تعالىٰ في السَّلف و الخلف قال اللّه تعالىٰ: فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوٓا اٰمَنّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ،فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ اِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا (١).

و لعلّةٍ أخرى أغرقه اللّه تعالى و هى أنّه إستغاث بموسىٰ لمّا أدركه الغرق و لم يستغيث باللّه فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه يا موسى لم تغث فرعون لأنّك لم تخلقه ولو إستغاث بي لأغثته انتهىٰ.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ اٰيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنّاسِ عَنْ اٰياتِنا لَغافِلُونَ

قرأ يعقوب و قتيبة نُنجيك بالتّخفيف من أنَجىٰ يُنجي و الباقون بالتّشديد من نَجّىٰ يُنَّجي فعلىٰ الأوّل هو من باب الأفعال و على الثّاني من باب التَّفعيل و المعنى واحد، و البدن بفتح الباء و الدّال المهملة مستكن روح الحيوان على

١- غافر =٨٤ و ٨٥

صورته فأنّ كلّ حيوان له روحٌ و بدن و الحيّ في الحقيقة الرُّوح دون البدن عند قومٍ و فيه خلاف.

قال ابن عبّاس ننجّيك أي نلقيك بنجوةٍ من الأرض و هى المكان المرتفع و قوله: **بِبَدَنِكَ** أي بجسدك و جسمك دون روحك.

و قيل أي بدرعك و كان من لؤلؤٍ منظوم لا مثال له و قيل مِن ذهبٍ و قيل مِن حديد و فيها سلاسل من ذهب و أنما قال ذلك لأنّ البدن جاء بمعنى الدّرع القصيرة قال الشّاعر:

ترى الأبدان فيها مسبغات   علىٰ الأبطال والكلب الحصينا

يعني الدّرُوع و قال عمرو بن معد يكرب:

أعاذل شكّتي بدني وسيفى   وكلّ مقلّصٍ سلس القياد

و كانت له درع من ذَهب يعرف بها، و قيل معناه نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب و لا سلاح و ذلك أبلغ في إهانته و قيل نُخرجك صحيحاً لم يأكلك شئ من الدَّواب **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ** الآية السّمة و العلامة أي و لمن وراءك و هم بنو إسرائيل و كان في أنفسهم أنّ فرعون أعظم شأناً من أن يغرق مطرحه علىٰ ممَّر بني إسرائيل.

و قيل معنىٰ الكلام **لِمَنْ خَلْفَكَ** أي لمن يأتي بعدك من القرون، و قيل لمن بقي من قبط مصر و غيرهم و قرأ بعضهم لمن **خَلفك** بفتح اللاّم أي من الجبابرة و الفراعنة ليتعّظوا بذلك و يحذروا أن يصيبهم ما أصابك اذا فعلوا فعلك و معنى كونه أية، كونه عبرة يعتبر بها الأمم.

و قال بعض المفسّرين معناه لمن يأتي بعدك ممّن يراك علىٰ تلك الصّفة و قد كنت تدّعي الرّبوبية وقوله: **وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ** إشارة الى غفلة أكثر النّاس عن أيات اللّه و عدم تدّبرهم فيها فأنّ الأيات كثيرة و المعتبرين بها قليلة قال أمير المؤمنين عليه السلام **ما أكثَر العِبَر وأقلّ الإعتبار** و قد ذمَّ اللّه تعالى الغافلين من النّاس في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُونَ ظٰاهِرًا مِنَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ هُمْ عَنِ ٱلْاٰخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ**(۳).

و غيرها من الأيات والسِّر في ذلك أنّ الغَفلة مِن أعَظم الدّواهي في باب السّلوك الىٰ اللّه كما أنّ اليَقظة مِن أعَظم السّعادات والخيرات واليَقظة عن نوم الغَفلة لا تتّحقق إلاّ بالإعتبار عن موارد العِبَر.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ كٰانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبٰابِ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ**(۵).

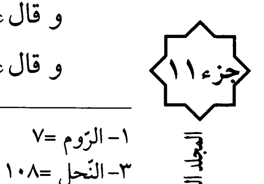
قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰآءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى ٱلْأَبْصٰارِ**(۶).

قال أمير المؤمنين عليه السلام أيّها النّاس أنظروا الى الدّنيا نظر الزّاهدين فيها الصّادفين عنها الىٰ أن قال فلا يغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها رحم اللّه إمرؤاً تفكّر فإعتبر و إعتبر فأبَصر فكأنّ ما هو كائن من الدّنيا عن قليل لم يكن الىٰ أخر كلامه(۷)

وقال في قصار الحكم: **و من إعتبر أبصر و من أبصر فهم و من فهم علم**(۸).

و قال عليه السلام: **و لو إعتبرت بما مضىٰ حفظت ما بقى**(۹).

و قال عليه السلام: **و لا تكن ممّن يصف العبرة و لا يعتبر**(۱۰).



۱- الرّوم =۷
۲- الأعراف =۱۴۶
۳- النّحل =۱۰۸
۴- يوسف =۱۱۱
۵- النّازعات =۲۶
۶- أل عمران =۱۳
۷- خ ۱۰۳
۸- قصار الحكم، ۲۰۸.
۹- الكتاب ۴۹
۱۰- قصار الحكم ۱۵۰

وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِيٓ إِسْرٰآئيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لما ذكر تعالى ما جرى لفرعون و أتباعه من الهلاك ذكر ما أحسن به لهم و ما إمتَّن به عليهم اذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون فذكر اللّه تعالىٰ أنّه إختار لهم بعد هلاك فرعون من الأماكن أحسنها و الظّاهر أنّ المراد من بني إسرائيل في الآية هم الذّين كانوا أمنوا بموسى من الذّرية ونجوا من الغرق لا جميعهم بمقتضى سياق الأيات لقد بوَّأنا، إخبار منه تعالى أنّه وطأ منزل بني إسرائيل و قوله: **مُبَوَّأَ صِدْقٍ** أي منزل صدقٍ و المعنى جعلناهم مكان صدقٍ و فضلٍ أو أنزلناهم منزلاً صالحاً مرْضياً قيل هو مصر و الشّام **وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ**، أي ملّكناهم الأشياء اللّذيذة من الأطعمة و الأشربة و الألبسة و غيرها.

قال القرطبي قال إبن عبّاس يعني قريظة و النَّضير و أهل عصر النّبي صلى الله عليه وآله من بني إسرائيل فأنّهم كانوا يؤمنون بمحمّدٍ و ينتظرون خروجه ثمّ لمّا خرج حسدوه

أقول و أنت ترى أنّ هذا خلاف ظاهر الآية فأنّ ظاهرها يدُّل على أنّ المراد من بني إسرائيل هم الذّين أنجاهم اللّه من فرعون و بدَّل خوفهم أمناً.

فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ أي فما إختلفوا في دينهم حتّى جاءهم العلم أي الدّليل المؤدّي الى العلم من جهة الرّسول و الكتاب فأمَن فريقٌ و كفر أخرون.



و قال صاحب الكشّاف فما إختلفوا في دينهم و ما تشعّبوا فيه شعباً إلاّ من بعد ما قرأوا التّوراة و كسبو العلم بدين الحقّ و لزمهم الثّبات عليه و إتّحاد الكلمة و علموا أنّ الإختلاف فيه تفرّق عنه و قيل هو العلم بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله و إختلاف بني إسرائيل و هم أهل الكتاب إختلافهم في صفته و نعته و أنّه هو أم ليس بعد ما جاءهم العلم و البيان أنّه هو لم يرتابوا فيه انتهىٰ.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ هو إخبار منه تعالىٰ بأنّه الّذي يتوّلى الفصل بين بني إسرائيل في الأمور الّتي يختلفون فيها يوم القيامة لأنّه يوم الفصل و أمّا الدّنيا فلا يمكن زوال الإختلاف فيها لأنّها لم تعدّ له و كيف كان فالآية مشعرة بذمّهم لأجل إختلافهم في دينهم بعد العلم وليس ذلك إلاّ لحبّهم الدّنيا و زخارفها أعاذنا اللّه منه بمنّه و كرمه فأنّ **حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة**، و أصل كلّ بليّة و لا سيّما في العلماء الّذين قال رسول اللّه فيهم، **اذا فَسَد العالِم فَسَد العالَم** صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

■



فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَ لاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَ لَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي ٱلآيَاتُ وَ ٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنْتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ وَ

أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۰۴﴾ وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿۱۰۵﴾ وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿۱۰۶﴾ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُۥٓ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاٰ رٰادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿۱۰۷﴾ قُلْ يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ قَدْ جٰآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿۱۰۸﴾ وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰٓ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ ﴿۱۰۹﴾

◀ اللّغة

مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ، الإمتراء طلب الشكّ مع ظهور الدّليل و هو من مري الضَّرع أي مسجد ليدُّر.

كَشَفْنٰا أي رفعنا.

ٱلْخِزْيِ، الخِزي بكسر الخاء هو الهوان الّذي يفضح صاحبه و يضع من قدره.

وَ مَتَّعْنٰاهُمْ أي أبقيناهم أحياء سالمين ممتَّعين.

ٱلرِّجْسَ بكسر الرّاء و سكون الجيم الرّجس الكفر و قيل الغضب و السخط.

◀الإعراب

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ هـو منصوب على الإستثناء المنقطع لأنّ المستثنى منه القرية و ليست من جنس القوم.

و قيل هو متّصل لأنّ التّقدير فلولا كان أهل القرية، و قد قرئ بالرّفع على أنّ، إلاّ، بمنزلة غير و عليه فيكون صفة مٰاذٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ هو إستفهام في موضع رفع بالإبتداء و السّمٰوات الخبر وَ مٰا تُغْنِي يجوز أن تكون إستفهاماً في موضع نصب و أن تكون نفياً كَذٰلِكَ حَقًّا فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ، كذلك، في موضع نصب صفة لمصدرٍ أي محذوف أي إنجاء كذلك و حقاً بدل منه.

الثّاني: أن يكونا منصوبين بينجي الّتي بعدهما.

الثّالث: أن يكون، كذلك، للأولى و حقّاً للثّانية و يجوز أن يكون، كذلك، خبر المبتدأ أي الأمر كذلك و حقّلَ مَنصوب بما بعَدها.

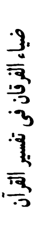
◀التّفسير

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَـيْكَ ظاهر الآية أنّ المخاطب بها النّبي صلى الله عليه وآله يقول اللّه تعالى له إن كنت في شكّ ممّا، أي من الّذي أنزلنا اليك، الشكّ هو توّقف النّفس فيما يخطر بالبال عن إعتقاده علىٰ ما هو به و على ما ليس به.

و قال الرّاغب في المفردات الشكّ إعتدال النقّيضين عن الإنسان و تساويهما ثمّ أنّهم إختلفوا في تفسير الآية و أنّه كيف يُمكن أن يكون النّبي في شكّ ممّا أنزله اللّه عليه.

فقال صاحب الكشّاف فأن كنت في شكّ بمعنى الفرض والتمثيل كأنّه قيل فأن وقع لك شكّ مثلاً و خيّل لك الشّيطان خيالاً منه تقديراً فسأل الّذين يقرؤن الكتاب.

و قيل خوطب به رسول اللّه و المراد أمّته.





و قيل الخطاب للسّامع ممّن يجوز عليه الشّك، و قيل ،إن، للنّفي أي فما كنت في شكّ فاسأل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنّك شاكّ و لكن لتزداد يقيناً كما إزداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة أحياء الموتى ذَكر هذه الوجوه في كتابه و قد أطال الكلام في هذا الباب الرّازي في تفسيره لهذه الآية و لا نحتاج الى نقل ما ذكره و من أراد الوقوف عليه فعليه بمراجعة كتابه.

نعم إختار من تلك الوجوه وجهاً لا بأس بذكره قال بعد الوجه الثّالث ما هذا لفظه.

و أقول تمام التّقرير في هذا الباب أنّ قوله: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** فأفعل كذا و كذا قضّية شرّطية و القضّية الشّرطية لا إشعار فيها ألبتّة بأنّ الشّرط وقع أو لم يقع و لا بأنّ الزجاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها إلاّ بيان ماهيّة ذلك الشّرط وأنّها مستلزمة لمّاهية الجزاء فقط و الّدليل عليه أنّك إذا قلت أن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ثمّ لا يدّل هذا الكلام علىٰ أنّ الخمسة زوج و لا علىٰ أنّها منقسمة بمتساويين فكذا هاهنا هذه الآية تدّل على أنّه لو حصل هذا الشكّ لكان الواجب فيه هو فعل كذا و كذا فأمّا أنّ هذا الشكّ وقع أو لم يقع فليس في الآية دلالة و الفائدة في إنزال هذه الآية على رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ تكثر الدّلائل و تقويتها ممّا يزيد في قوّة اليقين و طمأنينة النّفس و سكون الصّدر و لهذا السَّبب أكثر اللّه تعالىٰ في كتابه من تقرير دلائل التّوحيد و النبوّة انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره حقٌّ لا غبار عليه فأنّ القضّية الشّرطية ساكتة عن وجود الشّرط ليتّرتب عليه الجزاء و عدمه و هكذا بالنّسبة الى الجزاء إذ لا وجود له إلاّ بعد وجود الشّرط و الأحسن في تقرير الدّليل هو أن يقال أنّ القضّية الشّرطية تقتضي تعليق شئ علىٰ شئ أي تعليق الجزاء على وجود الشّرط و هذا ممّا لا كلام لأحدٍ فيه إلاّ أنّ البحثَ في الإستلزام بمعنى أنّها تستلزم إمكان وقوع الشّرط بمعنى تعليق الجزاء علىٰ الشّرط الممتنع لا يجوز أو لا تستلزم ذلك بل



هي ساكتة عنه فالجزاء معلّق على الشّرط سواء أمكن وقوع الشّرط أم لا و على هذا القول يجوز تعليق الجزاء علىٰ الشّرط الّذي لا يمكن وجوده أصلاً، و حيث أنّ القول الأوّل لا دليل عليه لأنّ لزوم تقييد الشّرط بإمكان الوجود لا يساعده العقل والنّقل.

أمّا العقل فلأنّ التّقييد خلاف الأصل و لا يثبت إلاّ الدّليل و اذ ليس فليس.

أمّا النّقل فلقوله تعالىٰ: **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ**[١]

فأنّ العبادة معلّقة علىٰ وجود الولَد للرّحمٰن و هو ممتنع مستحيل المعلوم أنّ القضيّة شرّطية فهذا في المستحيل عقلاً.

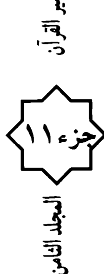
و أمّا المستحيل عادةً فلقوله: **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ**[٢].

نعم وقوع أن للتّعليق علىٰ المستحيل قليلٌ جدّاً و لكن أصل الوقوع ممّا لا كلام فيه اذا عرفت هذا فنقول:

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ

لا شكّ أنّه شرطّية فأن قلنا أنّ وجود الشكّ في رسول اللّه ممكنٌ علّق الجزاء و هو السّؤال على الممكن و أن قلنا أنّه محال في حقّه عقلاً أو عادةً، علّق الجزاء على المحال و على التّقديرين لا إشكال في الآية أصلاً و الشّرط صحيح أمكن وجوده أو إمتنع.

لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ قيل اللاّم في قوله، لقد، **لام القسم**، و يحتملان تكون للتّأكيد.



قال صاحب الكشّاف معناه فأثبت ودم على ما أنت عليه من إنتفاء المرية، أي ثبت عندك بالأيات و البراهيم القاطعة أنّ ما أتاك هو الحقّ الّذي لا مدخل فيه للمرية فلا تكوننَّ من الممترين الشّاكين.

١- الزُّخرف =٨١ ٢- الأنعام =٣٥

وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ

علّق الخسران على التّكذيب بأيات اللّه و هو كذلك لأنّ تكذيب الأيات يرجع في الحقيقة الى تكذيب اللّه بل هو هو و أيُّ خسرانٍ أشدَّ و أفضح منه قيل هو عطف على قوله فلا تكونَنَّ من الممترين.

قال بعضهم أنّ المراد بالخطاب غير النّبي من جملة أمّته من كان شاكّاً في نبُوته قال السّيد المرتضىٰ ﴿رحمه الله﴾ في أماليه عند هذه الآية **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** الى أخر الأية، ظاهر الخطاب له ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المعنى لغيره كما قال تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ**[١] فكأنّه قال يا أيّها السّامع للقرأن في شكّ ممّا أنزلناه على نبيّنا فإسأل الّذين يقرأون الكتاب ثمّ قال ﴿رحمه الله﴾ و ليس يمتنع عند من أمعن النّظر أن يكون الخطاب متوجّهاً الىٰ النّبي ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ليس اذا كان الشكّ لا يجوز عليه لم يحسن أن يقال له إن سلكت فأفعل كذا كما قال تعالىٰ في كتابه: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**[٢] و معلوم أنّ الشّرك لا يجوز عليه و لا خلاف بين العلماء في أنّه داخل في ظاهر أيات الوعد و الوعيد و أن كان لا يجوز أن يقع منه ما يستحقّ به من العقاب و أن قيل له إن أذنبت عوقبت، فهكذا لا يمتنع أن يقال له إن سلكت فإفعل كذا و كذا و أن كان مِمّن لا يشكّ انتهى.

أقول ما ذكره ﴿رحمه الله﴾ حقٌّ فانّ الخطابات القرأنية تعمّ جميع المسلمين في ظاهر الأمر و عليه فقوله: **وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ** أيضاً مِن هذا القبيل اذ لا تدّل الآية على وقوع التّكذيب منه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ كما لا تدلّ على وجود الشّرك في قوله: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** بل تدلّ على تعليق الخُسران على التّكذيب الّذي لم يقع و لا يقع البتّة كما تدلّ على تعليق حبط العمل على وجود الشّرك الّذي لم يقع منه ﴿عليه السلام﴾ قطّ فالآية المبحوثة عنها في المقام لا تحتاج الىٰ التّأويل بأنّ الخطاب له ﴿عليه السلام﴾ و المراد غيره بل هي بحالها من غير

١- الطّلاق =١
٢- الزّمر =٦٥

تأويل و حيث أن تلك الأيات في الحقيقة من المتشابهات و قد أمرنا فيها بالتّمسك بأهل البيت الّذين عبَّر عنهم القرأن بالرّاسخين حيث قال: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ**(١) فنذكر في ختام الكلام ما رُوي عنهم عليهم السّلام في هذا الباب فنقول:

عن كتاب علل الشّرائع بأسناده عن محمّد بن سعيد الأذخري و كان مِمّن يصحب موسى بن محمّد بن علّي الرّضا أنّ موسىٰ أخبره أنّ يحيى بن أكثم كتب اليه يسأله عن مسائل:

أخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** الىٰ أخره من المخاطب بها فأن كان المخاطب به النّبي ليس شكّ فيما أنزل اللّه عزّ وجلّ اليه و أن كان المخاطب غيره فعلى غيره اذاً أنزل الكتاب قال موسى فسألت أخي علّي بن محمّد النّقي عليه السلام عن ذلك قال عليه السلام أمّا قوله فأن كنت في شكّ الآية فأنّ المخاطب بذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله و لم يكن في شكّ ممّا أنزل اللّه عزّ وجلّ و لكن قالت الجهلة كيف لا يبعث الينا نبيّاً من الملائكة أنّه لم يفرق بينه و بين غيره في الإستغناء عن المأكل و المشرب و المشي في الأسواق فأوحى اللّه عزّ وجلّ الى مبيّه فإسأل الذّين يقرأون الكتاب من قبلك بمحضرٍ من الجهلة هل بعث اللّه رسولا قبلك إلاّ و هو يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق و لك بهم أسوة و أنّما قال و أن كنت في شّكٍ، و لم يكن، و لكن ليتبعهم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَ أَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ**(٢).

ولو قال تعالى نبتهل فنجعل لعنة اللّه عليكم لم يكونوا يجيبون للمباهلة و قد عرف أنّ نبيّه مؤدٍّ عنه رسالته و ما هو من الكاذبين و كذلك عرف النّبي أنّه صادق فيما يقول و لكن أحبّ أن ينصف من نفسه انتهىٰ.

١- ال عمران = ٧
٢- آل عمران = ٦١

و بأسناده الىٰ إبراهيم بن عمير رفعه الىٰ أحدهما عليه السلام في قول اللّه عزّ و جلّ لنبيّه: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ** قال رسول اللّه لا شكّ و لا أشكّ انتهىٰ.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن إبن مسكان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لمّا أسري برسول اللّه الىٰ السّماء و أوحى اليه في علّيٍ ما أوَحىٰ من شرفه و من عظمته عند اللّه ورد الى البيت المعمور و جمع له النّبيين و صلّوا خلفه عرض في نفس رسول اللّه من عظم ما أوحى اللّه اليه في علّي فأنزل اللّه: **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ** فإسأل الذّين يقرأُون الكتاب من قبلك يعني الأنبياء فقد أنزلنا اليهم في كتبهم من فضله ما أنزلنا في كتابك لقد جاءك الحقّ مِن ربّك فلا تكوننَّ من الممترين و لا تكوننَّ من الّذين كذّبوا بأيات اللّه فتكون من الخاسرين فقال الصّادق عليه السلام فواللّه ما شكّ و ما سأل انتهىٰ(۱).

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ أي أنّ الّذين ثبت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون، إختلفوا في معنى الكلمة و المراد بها.

فقال قتادة هي اللّعنة والغَضَب و قيل المراد بها وعيده بأنـهم يصيرون الى العذاب.

و قال الزّمخشري هي قول اللّه تعالى الّذي كتب في اللّوح و أخبر به الملائكة أنّهم يموتون كفّاراً فلا يكون غيره و تلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر.

و قال الرّازي المراد من هذه الكلمة كلم اللّه بذلك و إخباره عنه و خلقه في العبد مجموع القدرة و الدّاعية و هو موجب لحصول ذلك الأمر.

و قال إبن عطيّة أنّ اللّه أوجب لهم سخطه من الأزل و خلقهم لعذابه فلا

۱- تفسير نور الثّقلين ج ۲ ص ۲۱۹ و ص ۲۳۰

يؤمنون ولو جاءهم كلّ بيان و كلّ وضوح إلاّ في الوقت الذّي لا ينفعهم فيه الإيمان كما صنع فرعون و أشباهه و غير ذلك من الأقوال المسطورة في تفاسيرهم.

و قال البيضاوي أنّ الّذين حقّت، أي أثبتت، عليهم كلمة ربّك، بأنّهم يموتون على الكفر و يخلدون في العذاب، لا يؤمنون.

وأقول و عليه فمعنى الكلمة في الآية عنده هو إخباره تعالى بموتهم على الكفر و خلودهم في العذاب و يرجع هذا الى حكمه تعالى على العبد بالإيمان أو الكفر فأن كان كذلك فهو الجبر بعينه و أن كان المراد بإخباره أو حكمه بأنّه كذا و كذا هو علمه تعالىٰ بأنّه سيصير الى الكفر أو الىٰ الإيمان بإختياره و إرادته فهو حقّ لكنّهم لم يريدوا ذلك بل مرادهم قضاءه تعالىٰ على العبد بالكفر و الإيمان قضاءً لازماً كما صرّح به الرّازي و غيره من الأشاعرة و الحقّ أنّ الكلمة في الآية بمعنى ما وعد اللّه به و أخبر عنه بالثّواب و العقاب و الكفر و الإيمان و ذلك لأنّ وعده حقٌّ ثابت لا خلف له و من أصدق من اللّه قيلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتِ وَ ٱلْكُفّٰارَ نٰارَ جَهَنَّمَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذٰا مٰا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنٰى عَلٰى بَنِىٓ إِسْرٰآئِيلَ بِمٰا صَبَرُوا**(٥).

١- المائدة =٩
٢- التّوبة =٦٨
٣- يٰس =٥٢
٤- الأنعام =١١٥
٥- الأعراف =١٣٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذابِ عَلَى ٱلْكافِرِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى ٱلنّارِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**(٣) والأيات كثيرة.

و من المعلوم أنّ الوعد اذا كان عن علم بعاقبة الأمر لا يكون إلاّ حقّاً فمعنى وعده تعالى هو علمه بما يرجع الأمر بالأخرة اليه لا حُكمه و قضاءه بأنّه لابدّ من وقوعه و اذا كان كذلك فقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ** معناه أنّ الّذين ثبت و تحقّق في علم اللّه عدم إيمانهم فهم لا يؤمنون قطعاً لإستحالة تخلّف العلم عن المعلوم في حقّ من هو عالم بالسّرائر و العواقب و هذا ممّا لا كلام لنا فيه لأنّه لا ينافي الإختيار في حقّ العبد و أنّه بإختياره و إرادته يكون كافراً.

و قد ثبت عند المحصّلين أنّ العلم كاشف عن المعلوم لا أنّه علّة لوجود المعلول و الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتّٰى يَرَوُا ٱلْعَذابَ ٱلْأَلِيمَ** كلمة **لَو** وصليّة أي أنّهم لا يؤمنون و إن جاءتهم كلّ أيةٍ حتّى يروا العذاب الأليم في الأخرة أي لا تنفعهم الموعظة و لا التّهديد التّرغيب و لا غير ذلك كما لا تنفعهم الأيات و العلامات الدّالة علىٰ التّوحيد و النبوّة و هم الّذين قال اللّه فيهم **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(٤).

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلّا قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلىٰ حِينٍ

جزء ١١

معنى لولا (هَلاّ) و هى تستعمل علىٰ وجهين:

أحدهما: علىٰ وجه التّخصيص.

١- الزّمر =٧١

٢- الزّمر =١٩

٣- غافر =٦

٤- الانعام = ٩١

الثّاني: على وجه التّأنيب كقولك، هلاّ يأتي زيد بحاجتك، و قولك، هلاّ، إمتنعت من الفساد الذّي رغبت اليه و هى في المقام تحضيضيّة لا تأنيبية و لذلك صحبها التّوبيخ فهي بمعنى هلاّ و التّحضيض أن يريد الإنسان فعل الشّئ الّذي يحضّ عليه و اذا كانت للتّوبيخ فلا يريد المتكلّم الحضّ على ذلك الشّئ كقول الشّاعر:

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمي المقنّعا

لم يقصد حضّهم على عقر الكمي المقنع و فى الآية ونجّهم على ترك الإيمان النّافع فالمعنى، فهلاّ أمن أهل القرية و هم على مهلٍ لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحال و قوم، منصوب على الإستثناء المنقطع اذ ليسوا مندرجين تحت لفظ القرية.

و قال الزّمخشري يجوز أن يكون متصّلاً و الجملة في معنى النّفي كأنّه قيل ما أمَنَت قرية من القرى الهالكة إلاّ قوم يونس (لمّا أمنُوا) باللّه و كشفنا عنهم عذاب الخزي، أي رفعناه عنهم **فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** بعد توبتهم و رجوعهم عمّا كانوا عليه من الكفر و العناد و نحن نذكر قصّتهم لتكون عبرة لأولي الألباب.

فنقول روي العيّاشي في تفسيره عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول وجدنا في بعض كتب أميرالمؤمنين عليه السلام قال عليه السلام حدّثني رسول اللّه أنّ جبرئيل حدَّثه أنّ يونس بن متى بعثه اللّه الىٰ قومه و هو إبن ثلاثين سنة و كان رجلاً يعتريه الحدّة و كان قليل الصّبر على قومه و المداراة لهم عاجزاً عمّا حَمل أوتار النبوّة و أعلامها و أنّه يفسخ عنها كما يفسخ الجذع تحت حمله و أنّه أقام فيهم يدعوهم الى الإيمان باللّه والتّصديق به و إتّباعه ثلاثاً و ثلاثين سنة فلم يؤمن به و لم يتّبعه من قومه إلاّ رجلان إسم أحَدهما روبيل وإسم الأخر تنوخا و كان روبيل من أهل بيت العلم و النبوّة

و الحكمة و كان قديم الصُّحبة ليونس بن متى قبل أن يبعثه اللّه بالنبوّة و كات تنوخا رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة و ليس له علم و لا حكم و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوّت منها و كان تنوخا رجلاً حطّاباً يتَّحطب علىٰ رأسه ويأكُل من كسبه و كان لرُوبيل منزلة من يُونس غير منزلة تنُوخا لعلم رُوبيل و حكمته و قديم صحبته فلمّا رأىٰ يونس أنّ قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر و عرف من نفسه قلّة الصّبر فشكى ذلك الى ربّه و كان فيما شكى أن قال ياربّ أنّك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم الى الإيمان بك و التّصديق برسالاتي و أخوَّفهم عذابك و نعمتك ثلاثاً و ثلاثين سنة فكذّبوني و لم يؤمنوا بي و جحدوا نبوّتي و إستخفّوا برسالاتي و قد تواعدوني و خفت أن يقتلوني فأنزل عليهم عذابك فأنّهم قوم لا يؤمنون قال فأوحى اللّه الىٰ يونس أنّ فيهم الحمل و الجنين و الطّفل و الشّيخ الكبير و المرأة الضّعيفة و المستضعف المهين وأنا الحاكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا أعذّب الصّغار بذنوب الكبار من قومك يا يونس عبادي و خلقي و برَّيتي في بلادي و فى عِيلتي أحبّ أن أتأنّاهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم و أنّما بعثتك الى قومك لتكون حيطاً عليهم تعطف عليهم سخاء الرّحمة الماسّة منهم و تأنّاهم برأفة النُّبُوة فأصبر معهم بأحلام الرّسالة و تكون لهم كَهيئة الطّبيب المداوي العالم بمداواة الدّاء فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرّفق ولم تسنهم بسياسة المرسلين ثمّ سألتني مع سواء نظرك العذاب لهم عند قلّة الصّبر منك و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه و أحسن صحبةً و أشدّ تأنّياً في الصّبر عندي و أبلغ في العذر فغضبت له حين غضب لي و أجبته حين دعاني.

فقال يونس يا ربّ أنّما غضبت عليهم فيك و أنّما دعوتُ عليهم حين غضبوك فوعزَّتك لا أنعطف عليهم برأفةٍ أبداً و لا أنظر اليهم بنصيحةٍ شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم أيّاى و جحد نبوّتي فأنزل عليهم عذابك فأنهم لا يؤمنون أبداً فقال اللّه يا يونس أنّهم مِائة ألف أو يزيدون من خلقي يعمرون بلادي و يلدون عبادي و محبّتي أن أتأنّاهم للّذي سبق من علمي فيهم و فيك و تقديري و تدبيري غير علمك و تقديرك و أنت المرسل و أنا الرّب الحكيم و علمي فيهم يا يُونس باطن في الغيب عندي لا يعلم ما منتهاه و علمك فيهم ظاهر لا باطن له يا يُونس قد أجبتك ما سألت من إنزال العذاب عليهم و ما ذلك يا يونس بأوفر لحظّك عندي و لا أحمد لشأنك و سيأتيهم العذاب في سؤال يوم الأربعاء وسط الشّهر بعد طُلوع الشّمس فأعلمهم بذلك قال فمَّر يونس و لم يسؤه و لم يدر ما عاقبته فأنطلق يونس الىٰ تنوخا العابد فأخبر بما أوحى اللّه اليه من نزُول العذاب على قومه في ذلك اليوم و قال له إنطلق حتّىٰ أعلمهم بما أوحي اللّه إلّي من نزول العذاب فقال تنُوخا فدعهم في غمرتهم و معصيتهم حتّى يعذّبهم اللّه فقال له يونس بل نلقىٰ روبيل فنشاوره فأنّه رجل عالم حكيمٌ من أهل بيت النُّبوة فأنطلقا الىٰ رُوبيل فأخبره يُونس بما أوحى اللّه اليه من نزول العذاب علىٰ قومه في شوّال يوم الأربعاء في وسط الشّهر بعد طلوع الّشمس فقال له ما ترى إنطلق بنا حتّىٰ أعلمهم ذلك فقال له رُوبيل إرجع الىٰ ربّك رجعة نبيّ حكيم و رسول كريم و أسأله أن يصرف عنهم العذاب فأنّه غنّيٌ عن عذابهم و هو يحبّ الرّفق بعباده و ما ذلك بأضرّ لك عنده و لا أسوَأ لمنزلتك لديه و لعلّ قومك بعد ما سمِعت و رأيت من كفرهم و جحودهم يؤمنون يوماً فصابرهم وتأنّاهم فقال له تنوخا ويحك يا

رُوبيل ما أشرت علىٰ يونس و أمرته و أمرته بعد كفرهم باللّه و جحودهم لنبيّه و تكذيبهم أيّاه و إخراجهم أيّاه من مساكنه و ما همّوا به من رجمه فقال روبيل لتنوخا أسكت فأنّك رجلٌ عابد لا علم لك ثمّ أقبل على يُونس فقال أرأيت يا يُونس إذا أنزل اللّه العذاب علىٰ قومك أنزله فيهلكهم جميعاً أو يهلك بعضاً و يبقى بعضٍ فقال له يُونس بل يهلكهم جميعاً و كذلك سألته ما دخلتني لهم رحمة تعطف فأراجع اللّه فيهم و أسأله أن يصرف عنهم فقال له رُوبيل أتدري يا يُونس لعلّ اللّه إذا أنزل عليهم العذاب فأحسُّوا به أن يتوبوا اليه و يستغفروه فيرحمهم فأنّه أرحَم الرّاحمين و يكشف عنهم العذاب من بعد ما أخبرتهم عن اللّه أنّه ينزل عليهم الهذاب يوم الأربعاء فتكون بذلك عندهم كذّاباً فقال تنوخا و يحَك يا رُوبيل لقد قلت عظيماً يُخبرك النّبي المرسل أنّ اللّه أوحى اليه أنّ العذاب ينزل عليهم فترّد قول اللّه و تشكّ فيه و فى قول رسوله إذهب فقد حبط عملك فقال روبيل لتنوخا لقد فسد رأيك ثمّ أقبل على يونس فقال أنزل الوَحي والأمر من اللّه فيهم علىٰ ما أنزل اليك فيهم من إنزال العذاب عليهم و قوله الحّق أرأيت إذا كان ذلك فهلك قومك كلّهم و خربت قريتهم أليس اللّه يمحوا إسمك من النبوّة و تبطل رسالتك و تكون كبعض الضّعفاء و يهلك علىٰ يديك مائة ألف من النّاس فأبىٰ يُونس أن يقبل وصّيته فأنطلق و معه تنوخا الىٰ قومه فأخبرهم أنّ اللّه أوحى اليه أنّه منزّل العذاب عليهم يوم الأربعاء في شوّال في وسط الشّهر بعد طلوع الشّمس فردّوا اليه (عليه) قوله و كذّبوه و أخرجوه من قريتهم إخراجاً عَنيفاً فخرج يُونس و معه تنوخا من القرية و تنّحيا عنهم غير بعيد و أقاما ينظران العذاب و أقام رُوبيل مع قومه في قريتهم حتّىٰ إذا دخل عليهم شوّال صرخ

رُوبيل بأعلىٰ صوته في رأس الجبل الى القوم أنا رُوبيل الشّفيق عليكم الرّحيم بكم الىٰ ربّه قد أنكرتم عذاب اللّه هذا شوّال قد دخل عليكم أخبركم يُونس نبّيكم و رسول ربّكم أنّ اللّه أوحىٰ اليه أنّ العذاب ينزل عليكم في شوّال في وسط الشّهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشّمس و لن يخلف اللّه وعده رسله فأنظروا ماذا أنتم صانعون فأفزعهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب فأجفلوا (أَسرعوا) نحو رُوبيل و قالوا له ماذا أَنت مشير به علينا يا رُوبيل فأنّك رجلٌ عالم حكيم لم نزل نعرفك بالرّقة علينا و الرّحمة لنا و قد بلغنا ما أشرت به على يُونس فمرنا بأمرك و أشرنا برأيك فقال لهم رُوبيل فأنّي أرىٰ لكم و أشر عليكم أن تنظروا و تعمدوا و إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشّهر أن تعزلوا الأطفال عن الأمّهات في أسفل الجبل في طريق الأودية و تقفوا النّساء في سفح الجبل و يكون هذا كلّه قبل طلوع الشّمس فعجّوا عجيج الكبير منكم و الصّغير بالصّراخ و البكاء و التّضرع الى اللّه و التّوبة اليه و الإستغفار له و أرفعوا رؤسكمالىٰ السّماء و قولوا ربّنا ظلمنا و كذّبنا نبّيك و تبنا اليك من ذنوبنا و أن لا تغفر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين المعذّبين فأقبل توبتنا و أرحمنا أرحم الرّاحمين ثمّ لا تمّلوا من البكاء و الصّراخ و التّضرع الى اللّه و التّوبة اليه حتّىٰ تواریٰ الشّمس بالحجاب أو يكشف اللّه عنكم العذاب قبل ذلك فأجمع رأي القوم جميعاً علىٰ أن يفعلوا ما أشار به عليهم رُوبيل فلّما كان يوم الأربعاء الّذي توقّعوا العذاب تنّحىٰ رُوبيل عن القرية حيث يسمع صرخهم و يرى العذاب إذا نَزَل فلّما طلَع الفَجر يوم الأربعاء فعل قوم يُونس ما أمرهم رُوبيل فلّما بزغت الشّمس أقبلت ريح صفراء مظلمة مسرعة لها صرير و حفيف فلّما رآها و عجّوا

جميعاً بالصّراخ و البكاء و التّضرع الىٰ اللّه و تابوا اليه و أستغفروه و صرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمّهاتهم و عجّت سخال البهائم تطلب الثّدي و عجّت الأنعام تطلب الرّعا فلم يزالوا بذلك و يُونس و تنوخا يسمعان صيحتهم و صراخهم و يدعُون اللّه عليهم بتغليظ العذاب عليهم و رُوبيل في موضعه يسمع صراخهم و عجيجهم و يرىٰ ما نزل و هو يدعوا اللّه بكشف العذاب عنهم فلّما أن زالت الشّمس و فتحت أبواب السّماء و غضب الرّب تعالى رحمهم الرّحمن فأستجاب دعاءهم و قبل توبتهم و أقالهم عثرتهم و أوحى الىٰ إسرافيل أن أهبط الى قوم يُونس فأنّهم قد عجّوا إلّي بالبكاء و التَّضرع و تابوا إلّي و أستغفروني فرحمتهم و تبت عليهم و أنا التّواب الرّحيم أسرعُ الى قبول توبة عبدي التآئب من الذّنوب و قد كان عبدي يُونس و رسولي سألني نزول العذاب علىٰ قومه و قد أنزلته عليهم و أنا اللّه أحّق من و فى بعهده و قد أنزلته عليهم ولم يكن إشترط يُونس حين سئلني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلكهم فأهبط اليهم فأصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي فقال إسرافيل يا ربّ أنّ عذابك قد بلغ أكنافهم و كادوا أن يهلكهم و ما أراه إلاّ قد نزل بساحتهم فالى أين أصرفه فقال اللّه كلاّ إنّي قد أمرت ملائكتي أَن يَصرفوهيَنزلوه عليهم حتّىٰ يأتيهم أمري فيهم و عزيمتي فَأهبط يا إسرافيل عليهم و أصرفه عنهم و أصرف به الى الجبال فأذّلها به وليّنها حتّىٰ تصير ملتئمة حديداً جامداً فهبط إسرافيل فنشر أجنحته فأستاق بها ذلك العذاب حتّىٰ ضرب بها تلك الجبال الّتي أَوحىٰ اللّه اليه أَن يَصرفه اليها.

قال أبو جعفر عليه‌السلام و هي الجبال الّتي بناحية الموصل اليوم فصارت حديداً الىٰ يوم القيامة فلّما رآىٰ قوم يُونس أنّ العذاب قد

صرف عنهم هبطوا الى منازلهم من رؤوس الجبال و ضمّوا اليهم نساؤهم و أولادهم و أموالهم و حمدوا اللّه علىٰ ما صرف عنهم و أصبح يُونس و تنوخا يوم الخميس في موضعها الّذي كانا فيه لا يشّكان أنّ العذاب قد أنزل بهم و أهلكهم جميعاً لِما خفيت أصواتهم عنهما فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشّمس ينظران الىٰ ما صار اليه القوم فلّما دنوا من القوم و أستقبلتهم الحطّابون و الحماة والرّعاة بأعناقهم ونظروا الى أهل القرية مطّمئنين قال يُونس لتنوخا يا تنُوخا كذّبني الوحي (أي بإعتقاد القوم) وكذّبت وعدي لقومي لا و عزّة ربّي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذّبني الوحي فأنطلق يُونس هارباً على وجهه مغاضباً لرّبه ناحية بحر، أيلة، مستنكراً فراراً من أن يراه أَحد من قومه فيقول له يا كذّاب فلذلك قال اللّه: **وَ ذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**[1] و رجع تنوخا الىٰ القرية فلقى رووبيل فقال يا تنوخا أيّ الرّأيين كان أصوب و أحّق أرأييما أو رأيك فقال له تنوخا بل رأيك كان أصوب و لقد كنت أشرت برأي العلماء و الحكماء و قال تنوخا أمّا إنّي لَم أزل أرىٰ إنّي أفضل منك لزهدي و فضل عبادتي حتّى إستَبان فضلك لفضل علمك و ما أعطاك اللّه من الحكمة مع التّقوىٰ أفضل من الزُّهد و العبادة بلا علم فأصطحبا فلم يزالا مقيمين مع قومهما و مضىٰ يُونس على وجهه مغاضباً فكان من قصّته ما أخبر اللّه في كتابه الىٰ قوله: فآمنوا فمتّعناهم الىٰ حين.

قال أبو عبيدة قلت لأبي جعفر عليه السلام كم كان غاب يُونس عن قومه حتّىٰ رَجع اليهم بالنبوّة و الرّسالة فآمنوا به و صدّقوه قال عليه السلام أربعة أسابيع منها في ذهابه الىٰ البحر و سبعاً في بطن الحوت و

١- الانبياء= ٨٧

سبعاً تحت الشّجرة بالعراء و سبعاً منها في رجوعه الىٰ قومه فقلت له و ما هذه الأسابيع شهورا وأيّام أو ساعات فقال يا أبا عبيدة أنّ العذاب آتاهم يوم الأربعاء في النّصف من شوّال و صرف عنهم من يومهم ذلك فأنطلق يُونس مغاضباً فمضى يوم الخميس سبعة أيّام في مسيره الىٰ البحر و سبعة أيّام في بطم الحُوت و سبعة أيّام تحت الشّجرة بالعراء و سبعة أيّام في رجوعه الىٰ قومه فكان ذهابه و رجوعه ثمانية و عشرين يوماً ثمّ آتاهم فآمنوا به و صدّقوه و أتّبعوه فلذلك قال تعالىٰ: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ الىٰ آخر الآية.

و قد روى أبو بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال لما أظّل قوم يُونس العذاب دعوا اللّه فصرفه عنهم قُلتُ كيف ذلك قال عليه السلام كان في العلم أنّه يصرفه عنهم إنتهىٰ.

و عن الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أنّ يُونس لمّا آذاه قومه دعى اللّه فأصبحوا أوّل يوم من صُفر، و أصبحوا اليوم الثّاني و وجوههم سُود الحديث.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال و قد ذكر يوم عاشوراء، و هذا اليوم الّذي تابَ اللّه منه علىٰ قوم يُونس إنتهىٰ.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ثقال عليه السلام لَبث يُونس في بطن حُوت ثلاثة أيّام و نادىٰ في الظّلّمات ظلمة بطن الحوت و ظلمة اللّيل و ظلمة البحر لا إلـه إلاّ أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ[١] فأستجاب اللّه له فَأخرجه الحُوت الىٰ السّاحل ثمّ قذفه فألقاه الىٰ السّاحل و أنبت اللّه عليه شجرة من يقطين و هو القرع فكان يمصّه و يستّظل به و بورقه و كان تساقط شعره ورّق جلده

١- الانبياء = ٨٧

و كان يُونس يسيح و يذكر اللّه باللّيل و النّهار فلمّا أن قوى و إشتدّ بعث اللّه دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثمّ يبست فشّق ذلك على يونس فظَّل حزيناً فأوحى اللّه اليه مالك حزيناً يا يُونس قال يا ربّ هذه الشّجرة الّتي كانت تنفعني سلّطت عليها دودة فيبست قال تعالىٰ يا يونس أحزنت بشجرةٍ لم تزرعها و لم تسقها ولم تعن بها أن يبست حين إستغنيت عنها و لم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب أنّ أهل نينوىٰ آمنوا و أتّقوا فأرجع اليهم الحديث.

أقول الأحاديث نقلناها عن[١] و لم نذكر جميع ما ذكروه في الباب حذراً عن الإطناب إن شئت الإطّلاع علىٰ أكثر ممّا ذكرناه فعليك بمراجعة المآخذ المذكورة و غيرها من كتب الأحاديث.

وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِين

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه لو شاء و أراد إيمان جميع النّاس، لآمن من في الأرض جميعاً، و ذلك لأنّه تعالى قادر على كلّ شيءٍ فهو يقدر علىٰ أن يكون الخلق على الإيمان و لكنّه لم يرد و لم يشاء ذلك قال تعالىٰ: **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ اٰيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**[٢] ففي الآية دلالة علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ لم يشاء إيمان الجميع على سبيل القهر و أعمال القدرة لا أنّه تعالىٰ لم يرد و لم يشاء الإيمان أصلاً بل شاء الإيمان علىٰ سبيل الإختيار.

و من المعلوم أنّه لا يكون في الجميع ففي الآية إخبار عن عموم قدرته و أنّه قادر علىٰ كلّ شيءٍ و هو ممّا لا كلام فيه و فى قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ**

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ وتفسير العياشي وتفسير البُرهان
٢- سورة الشّعراء آية ۴

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ دلالة على أنّه لا ينبغي إكراههم عليه لأنّ اللّه قادر عليه يريده لأنّه ينافي التكليف و فيه تسلية للنّبي صلّى الله عليه و آله ممّا كان يلحقه من التّحسر و الحرص على إيمانهم.

قال صاحب الكشّاف (ولو شاء ربّك) مشيئة القسر و الإلجاء **لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** على وجه الإحاطة و الشّمول مجتمعين علىٰ الأيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه ألا ترىٰ الىٰ قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ** يعني يقدر علىٰ اكراههم و إضطرّارهم الىٰ الإيمان هو لا أنت وإيلاء الإسم حرف الإستفهام للإعلام بأنّ الإكراه ممكن مقدور عليه و أنّما الشّأن في المكره من هو، و ما هو إلاّ وحده لا يشارك فيه لأنّه هو القادر علىٰ أن يفعل في قلوبهم ما يضطّرون عنده الى الإيمان و ذلك غير مستطاع للبشر انتهىٰ.

و قال الرّازي أنّ اللّه تعالىٰ في الآية بيّن أنّ جِدّ الرّسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع و مبالغته في تقرير الدّلائل.

و الجواب عن الشّبهات لا تفيد لأنّ الإيمان لا يحصل إلاّ بتخليق اللّه تعالىٰ و مشيّئته و إرشاده و هدايته فإذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان.

و الجواب عنه أنّ الإيمان لو كان بتخليق اللّه و جدّ الرّسول لا ينفع فيه فلا نحتاج الى الرّسول أصلاً إذ المفروض أنّ جدّه لا ينفع و من كان كذلك فوجوده كالعدم فعلى اللّه تخليق الإيمان في قلب من يشاء و هذا ممّا لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل و ليت شعري ماالمراد بتخليق الإيمان في العبد فأن كان المراد إلقاء الإيمان في قلب العبد فهو ممّا يمكن تحقّقه من غير رسولٍ لأنّ إلقاء الإيمان في القلب خارج عن قدرة الرّسول و أن كان المراد به إيجاد الإيمان فهو ليس من المكوّنات حتّى يتعلّق به الخلق.

ثم قال الرّازي إحتجّ أصحابنا على صحّة قولهم بأنّ جميع الكائنات بمشيئة اللّه تعالىٰ فقالوا كلمة، لو، تفيد إنتفاء الشّئ لإنتفاء غيره فقوله: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ**

لَآمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيّئة و ما حصل إيمان أهل الأرض بالكّلية فدلّ هذا على أنّه تعالى ما أراد إيمان الكّل انتهىٰ.

و أجاب الجبائي عنه بأنّ المراد بالمشيّئة هو مشيّئة الإلجاء أي لو شاء اللّه أن يلجئهم الىٰ الإيمان لقدر عليه ولصَّح ذلك منه و لكنّه ما فعل ذلك لأنّ الصّادر من العبد علىٰ سبيل الإلجاء لا ينفعه و لا يفيده فائدة.

ثمّ قال الجبائي و معنى إلجاء اللّه تعالى أيّاهم الىٰ ذلك أن يعرّفهم إضطراراً أنّهم لو حاولوا تركه حال اللّه بينهم و بين ذلك و عند هذا لابدّوأن يفعلوا ما ألجؤوا عليه كما أنّه من علم منّا أن حاول قتل مالك فأنّه يمنعه منه قهراً لم يكن تركه لذلك الفعل سبباً لإستحقاق المدح و الثّواب فكذا هاهنا انتهىٰ.

أقُول هذا الجواب قد ذكره الرّازي في تفسيره بعد ذكره إحتجاج أصحابه ثمّ نَصدّىٰ للجواب عن الجبائي.

وقال أعلم أنّ هذا الكلام ضعيف و بيانه من وجوهٍ:

الأوّل: أنّ الكافران كان قادراً على الكفر فهل كان قارداً على الإيمان أو ما كان قادراً عليه فأن قدر على الكفر ولم يقدر علىٰ الإيمان فنيئذٍ يكون القُدرة علىٰ الكفر مستلزمةً للكفر فإذا كان خالق تلك القدرة هو اللّه تعالىٰ لزم أن يقال أنّه تعالى خلق فيه قدرةً مستلزمة للكفر فوجب أن يقال أنّه أراد منه الكفر إن كانت القدرة صالحة للضدّين كما هو مذهب القوم فرجحان أحد الطَّرفين علىٰ الآخر أن لم يتوقّف علىٰ المُرّجح فقد حصل الرجحّان لا لمرجّح و هذا باطل و إن توّقف علىٰ المرجّح أمّا أن يكون من العبد أو من اللّه فأن كان من العبد عاد التّقسيم فيه و لزم التّسلسل و هو محال و أن كان من اللّه فيكون مجموع تلك القدرة مع تلك الدّاعية موجباً لذلك الكفر فإذا كان خالق القدرة و الدّاعية هو اللّه تعالىٰ فحينئذٍ عاد الإلزام.

الثّاني: أنّ قوله: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ** لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيد في الآخرة فبيَّن اللّه تعالىٰ أنّه لا قدرة للرّسول علىٰ تحصيل هذا الإيمان ثمّ قال: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النّافع حتّى يكون الكلام منتظماً فأمّا حمل اللّفظ على مشيّئة القهر و الإلجاء فأنّه لا يليق بهذا الموضع انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و نحن نقول أمّا ما ذكره أوّلاً من أنّ الكافر أن كان قادراً علىٰ الكفر فهل كان قادراً علىٰ الإيمان أو ما كان قادراً عليه نقول في جوابه أنّه قادر علىٰ الإيمان أيضاً كما أنّه قادر علىٰ الكفر قوله فرجحان أحَد الطَّرفين يحتاج الىٰ المرجّح و المُرّجح أمّا أن يكون من العبد أو من اللّه نقول أنّه من العبد قوله عاد التّقسيم فيه و لزم التسّلسل.

نقول المرّجح موجود و هو حكم العقل برجحان أحد الطَّرفين على الأخر فأين التّسلسل ثمّ أين التّرجيح بلا مرّجح و بعبارةٍ أخرىٰ التَّسلسل موقوف علىٰ التَّرجيح بلا مرجّح فإذا ثبت المرجّح و هو حكم العقل بإختيار الأصلح فلا يلزم التّسلسل هذا أن قلنا بإستحالة التّرجيح بلا مرجّح و نحن نقول به بل نقول لا إشكال فيه و ذلك لأنّ نفس التّرجيح لأحد الطّرفين علىٰ الآخر بسبب العقل مرجّح و أيّ مرجّح أقوى مِن إختيار العقل أحد الطّرفين و الّذي نقول بإستحالته هو التَّرجح بلاً مرجّح و أين هذا من ذاك و حيث أنّ الرّازي لم يفرق بين التّرجيح و الترجّح فقال ما قال و هذا هو الّذي صار منشأ لخطأه و إشتباهه و كم زلَّ أقدام العلم في هذا الميلان.

و أمّا ما ذكره ثانياً في جواب الجبائي من أنّ قوله و لو شاء ربّك، لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء الىٰ آخر ما قال فطريفٌ من الكلام و ذلك لأنّ مشيّئة

اللّه لا تخلو عن الإلجاء و الإختيار و بعبارةٍ أخرى قوله تعالىٰ: **وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَاٰمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** إختياراً أو إضطراراً و لا ثالث لهما فأن كان إختياراً فهو تعالىٰ شاء و أمر به و لم يحصل الإيمان مِن الكلّ و أن كان إضطراراً بأن يضطّر العبد علىٰ الإيمان فهو و أن كان قادراً عليه إلاّ أنّه لم يشاء و لم يرد الإيمان كذلك لأنّ الإيمان الأضطراري لا فائدة فيه فقوله لا يجوز حمله على مشيّئة الإلجاء شططٌ من الكلام.

و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ شاء الإيمان من العباد إختياراً منهم لا إضطراراً و حيث أنّ النّبي كان حريصاً على إيمان الكلّ فقال تعالىٰ تسليةً له ذلك لا يكون و لا يحصل منهم بالإختيار و لو شاء ربّك لأمَن من في الأرض جميعاً علىٰ سبيل الإضطرار و الإلجاء و لكنّه لم يشاء و الدّليل علىٰ ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** فالمعنىٰ إنّا لم نكرههم عليه أفانت تكرههم عليه و لو كان الإيمان من المكره مفيداً لأكرهناهم عليه ففي الآية دلالة علىٰ عدم جواز الإكراه و الإجبار في الدّين و هذا هو الأصل في المقام:

قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ**(١).

دَلَّت الآية علىٰ عدم جواز الإكراه في الدّين والّدين هو الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **اُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ**(٢).



و هو يدُّل على أنّ وظيفة النّبي مجرّد الدّعوة الى الحقّ لا الإكراه و الإجبار عليه ظاهر لا خفاء فيه **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** الإذن الأمر و كلمة، ما، نافية و المعنى ليس لنفسٍ أن تؤمن إلاّ بأمر اللّه لها بالإيمان كما قال: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ**

١- البقرة=٢٥٦ ٢- النحل = ١٢٥

ٱلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَاٰمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ[١] و لا يبعد أن يكون المراد بـالإذن، العلم أي لا تؤمن إلاّ بِعلم اللّه و على المعنيين فالآية لا تدّل على أنّ العبد فـي إيمانه لا إختيار له بل تدّل على أنّ الإيمان مأمور به فمن أطاع الخالق آمن به و من آمن به فقد أطاعه و أنّ اللّه تعالىٰ عالمٌ بمن آمـن بـه قبل إيـمانه بـل قـبل إيجاده و أمّا قوله: **وَ يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ** أي يَـجعَل العذاب علىٰ الّذين لا يعقلون أوامره و نواهيه و قـيل يـجعل الكـفر عـليهم أي يحكم عليهم بالكفر و أنّهم أهله ذمّاً لهم.

و قـال إبــن عـبّاس الرِّجس الغـضب و السّـخط أي يـجعل اللّـه الغـضب والسّخط عليهم و كيف كان فالمعنى واضح.

قُلِ ٱنْظُرُوا مٰاذٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا تُغْنِى ٱلْاٰيٰاتُ وَ ٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

الخطابٌ للّرسول و المراد جميع الأمّة بل جميع النّاس أمرهم اللّه تـعالى بالنّظر الى السّمٰوات و الأرض و ما فيها مِن عجائب الخلقة من مـجيئ اللّيل و النّهار و مجرى البحور و الأفلاك و الشّـمس و القـمر و جـميع الكـواكب مـن السّيارات و غيرها و نتاج الحيوان و خروج الزّرع و الثّمار و وقوف السّمٰوات و الأرض بغير عمادٍ و غيرها من الأيات العجيبة لأنّ كلّ ذلك تدبير يقتضي مدبّراً لا يشبه الأشياء و لا تشبهه و من المعلوم أنّ المراد بالنّظر في الآيـة و أشباهها ليس مجرّد الرّؤية بالعين بل المراد الفكر والإعتبار.

و قال الرّماني هو طلب الشّيئ من جهة الفكر كـما يـطلب إدراكـه بـالعين و كلمة، ما، في قوله: **مٰاذٰا فِى ٱلسَّـمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** إستفهامية و المـعنى أنظروا أيُّ شيئٍ فيهما و أمّا قوله: **وَ مٰا تُغْنِى ٱلْاٰيٰاتُ وَ ٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ**

١- النّساء=١٦٩

يُؤْمِنُونَ فقيل، ما، للنّفي و المعنى ما يغني عنهم شيئاً يدفع الضّرر إذا لم يفكرّوا فيها و لم يعتبروا بها كقولك و ما يغني عنك المال شيئاً إذا لم تنفقه في وجوهه.

و قيل، إستفهّامية و المعنى أيُّ شيٍ يغني عنهم من إجتلاب نفعٍ أو دفع ضرر إذا لم يستدلّوا بها و النذّر جمع نُذير و هو صاحب النّذارة و هي إعلام بموضع المخافة ليقع به السّلامة و قال بعضهم النذّر جمع نذير أمّا مصدر فمعناه الأنذارات و أمّا بمعنىٰ منذر فمعناه المنذرون و الرسّل و في الآية توبيخٌ لِحاضري رسول اللّه من المشركين و كيف كان فالمقصود من الآية هو تنبيه الغافلين و كثيراً ما ذكر اللّه تعالىٰ في كتابه الحضّ علىٰ الكفّار في مخلوقاته:

قال اللّه تعالىٰ: **فَسيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللّهُ لَكُمُ ٱلْاٰياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فيٓ أَنْفُسِهِمْ**[4].

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيّامِ ٱلَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوٓا إِنّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرينَ

خاطب اللّه نبيّه بلفظ الإستفهام و المراد به النّفي لأنّ التّقدير ليس ينتظر هؤلاء الكفّار إلاّ مثل أيّام الّذين ضلّوا من قبلهم.

قال صاحب الكشّاف أي وقائع اللّه تعالى فهم كما يقال أيّام العرب لوقائعها.

١- آل عمران=١٣٧
٢- الحشر=٢١
٣- البقرة=٢١٩ - و ٢٦٦
٤- الرّوم=٨

قال بعض المُفسّرين أنّما قابلَ بين الأيّام المنتظرة و الأيّام الماضية في وقوع العذاب و الحسرة حين لا تنفع النَّدامة، قل يا محمّد، لهؤلاء الكفّار فأنتظروا أنّي معكم من المنتظرين أي إنتظروا ما وعد اللّه به من العقاب فأنّي منتظراً لنزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد اللّه به و المقصود من الآية إنّا نعذّبهم في المستقبل كما عذَّبنا من كان قبلهم في الماضي فأنّ حكم الأمثال واحد.

ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

بعدم إستحقاقهم العذاب بل يستحقّون الرَّحمة لإيمانهم فكما أنّه تعالىٰ أنجى الرُّسل و المؤمنين في الأمم الماضية بعد نزول العذاب فكذلك في المستقبل فأنّ الملاك و هو الإيمان موجود فيهم أنّه تعالىٰ خاطب نبيّه و قال:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ

قيل أنّه خطاب لأهل مكّة و ظاهر الكلام أنّه خطاب لجميع المشركين و المعنى أنّ الرّسول يقول لهم إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبيّنه لكم إنّي لا أعبد الّذين تعبدون و أنتم من دون اللّه كائناً ما كان **وَ لَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** قيل في قوله يتوفاكم دلالة على البدء و هو الخلق و على الإعادة فكأنّه أشار الىٰ أنّه يعبد اللّه الّذي خلقكم و يتوفّاكم و يعيدكم و كثيراً ما صرّح في القرآن بهذه الأطوار الثّلاثة و كان التّصريح بهذا.

الوصف لما فيه من التّذكير بالموت و إرهاب النّفوس به و صيرورتهم الى اللّه بعده فهو الجديد بأن يخاف منه و يتّقىٰ و يعبد لا الحجارة الّتي تعبدونها و أمرت أن أكُون من المؤمنين المصدّقين باللّه الموحّدين له المفرد له بالعبادة و

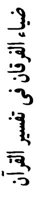
قيل معناه أن كنتم في شكّ من ديني و ممّا عليه، أثبت أم أتركه و أوافقكم، فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال و لا تشكّوا في أمري و أقطعوا عنّي أطماعكم و أعلموا إنّي لا أعبد الّذين تعبدون من دون اللّه و لا أختار الضّلالة على الهدىٰ كقوله: **قُلْ يآ أَيُّهَا اَلْكافِرُونَ، لآ أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ**[1] إنتهىٰ.

و قوله أمرت أن أكون أصله بأن أكون فحذف الجّار.

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ.

هذه الآية عطف علىٰ ما قبلها والتّقدير أمرت أن أكون من المؤمنين و قيل لي **أَقِمْ وَجْهَكَ** إختلفوا في، أن، هل هي مصدريّة أو تفسيريّة فمن قال بأنّ قوله: **وَ أَنْ أَقِمْ** معمولة تقوله و، أمرت، مراعي فيها المعنى لأنّ معنى قوله أن يكون، كن، من المؤمنين، فتكون، أن مصدرّية صلتها الأمر و قد أجاز ذلك النَّحويون و من قال أنّ الجملة المقدّرة فيها معنى القول فعلى قوله تكون أن تفسيريّة و المعنىٰ إستقم للدّين و لا تحدّ عنه و كنّي بذلك عن صرف العقل بالكلّية الى طلب الدّين هكذا قيل.

و قوله: **حَنِيفًا** فهو حال من الضّمير في أقم أو من المفعول و أجاز الزّمخشري أن تكون حالاً من الدّين و الحنف هو في الأصل ميلٌ عن الضّلال الى الإستقامة كما أنّ الجنف بالجيم ميلٌ عن الإستقامة الى الضّلال يقال تحَّنف فلان أي تحرّىٰ طريق الإستقامة و سمَّت العرب كلّ من حجَّ أو إختتن حنيفاً تنبيهاً على أنّه في دين إبراهيم.



قال بعض المفسّرين معنى الكلام، أستقم بإقبالك علىٰ ما أمرت به من القيام بأعباء النبوّة و تحمّل أمر الشّريعة ودعاء الخلق الى اللّه بوجهك إذ مَن أقبل علىٰ الشّيئ بوجهه يجمع همّته له فلم يضجع فيه، و قيل معناه أقم وجهك في الصّلاة بالتوجّه نحو الكعبة و الاقامة نصب الشّيئ المنافي لإضجاعه.



١- الكافرون = ١/٢

و أمّا قوله: **وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** فمعناه واضح و لا يبعد أن يكون المراد من الشّرك المنهي عنه في الآية هو الخفّي منه المعبّر عنه بالرّياء لأنّه ينافي الإخلاص فكأنّه قال أقم وجهك للدّين حنيفاً مخلصاً، و أنّما قلنا ذلك لأنّ الشّرك الجلّي كعبادة الأوثان لا يكون في النّبي قطعاً.

وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ.

قيل المعنىٰ، لا تدعه إلهاً كما يدعوا المشركون الوثن إلٰهاً، و قيل معناه لا تدعه دعاء الألهة في العبادة بدعاءه و معنى لا تدع من دون اللّه، لا تدع غير إلٰهاً وأنّما قال ما لا ينفعك و لا يضُّرك مع أنّ عبادة غيره تعالىٰ لا تحسن و لا يجوز مطلقاً لأنّ عبادة غير اللّه ممَّن يضّر و ينفع قبيحة عقلاً فعبادة من لا يَضُر و لا ينفع أقبح و أبعد من الشّبهة هكذا قيل و عندي وجه أخر.

و هو أنّ قوله: **لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ** إشارة بل كناية عن أنّ كلّ معبودٍ غيره تعالى سواء كان من الجمادات أم من ذوي العقول لا يقدر على إيصال النَّفع و الضَّر الى غيره.

أمّا الجماد فمعلومٌ و أمّا ذوي العقول مثل فرعون و نمرود و أمثالهما فأنّهم تحت قدرة اللّه و إرادته واقعاً و اذا كانوا كذلك فأنّهم عاجزون في حدّ ذواتهم و أنفسهم علي شئٍ فأيّ نفعٍ في عبادتهم و أيُّ ضُّرٍ في ترك عبادتهم فصَّح قوله أنّ غير اللّه كائناً ما كان لا ينفعك و لا يضُّرك و بما حقّقناه يندفع الإشكال المشهور و هو أنّ عبادة غير اللّه تضُّر قطعاً فكيف قال و لا يضُّرك.

و حاصل الدَّفع هو أنّ تركها لا يضُّرك لا أنّ فعلها لا يضُّرك و لا ينفعك كيف و يلزم علىٰ ذلك إرتفاع النَّقيضين و هو محال و ذلك لأنّ الفعل لا يخلو من النَّفع و الضَّر قطعاً في صورة إتّحاد الجهة نعم يمكن أن يكون نافعاً من جهةٍ و ضّاراً من جهةٍ أخرى.

فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ و ذلك لأنّ الشِّرك من أعظم مصاديق الظّلم كما قال تعالىٰ:

وَ إِذْ قٰالَ لُقْمٰانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يٰا بُنَيَّ لاٰ تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[1].

و لا شكّ أنّ من إتّخذ إلٰهاً غير اللّه فهو مشرك و كلّ مشركٍ فهو ظالم فمن فعل ذلك فهو ظالمٌ و هو المطلوب.

قال المفسّرون هذا الخطاب و أن كان متوجّهاً الى النّبي صلّى الله عليه و آله إلاّ أنّ المراد به أمّته.

أقُول ما ذكره المفسّرون في هذه الآية و نظائرها من أنّ الخطاب للنّبي و المراد أمّته لا نفهم معناه فأن أرادوا من حملهم الآية علىٰ هذا المعنى هو تعليق الشّرط علىٰ المحال لو كان المراد شخص الرّسول بمعنى أنّه يستحيل الشّرك من الرّسول فنقول في جوابهم أنّ وجود الشّرك أو إثباته له منافٍ لمقام رسالته مادام كونه رسولاً فهو صحيحٌ إلاّ أنّ الآية ساكتة عنه بل الآية تقول أن فعلت كذا كنت من الظّالمين و حيث أنّه لم يفعل فلا يكون منهم.

و أن أراد أنّ الشّرك محال منه مع قطع النّظر عن رسالته وبعبارةٍ أخرىٰ هو في نفسه محال في حقّه عقلاً فهو يحتاج الىٰ الإثبات فأنّ الشِّرك من البشر من حيث هو هو ليس من المحالات العقليّة.

نعم أنّ الرّسول منزّهٌ عنه لأنّ اللّه تعالىٰ عصمه و حفظه من كلّ المعاصي مادام كونه نبيّاً و هو لا يدّل على أنّه في حدّ نفسه مع قطع النّظر عن العصمة لا يقدر عليه أو أنّه محال في حقّه فالحقّ أنّ هذه الآية و أمثالها خطاب لجميع النّاس و لا شكّ أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله منهم فحمل هذه الأيات على عمومها لا إشكال فيه.

١- لقمان =١٣

و محصّل الكلام هو أنّ الآية حكمت و أثبتت الظّلم للمشرك من أيّ شخصٍ كان و التّخصيص يحتاج الى الدّليل و حيث أنّ الموضوع من أهمّ المسائل الإعتقادية و به يتَّضح مقام العصمة فلا بأس بالتكلّم فيه إجمالاً اذ كثير من النّاس يظنّون أنّ معنى العصمة هو عدم القدرة على العصيان و ليس كذلك فأنّ المعصوم يقدر على الذَّنب كغيره من البشر إلاّ أنّ اللّه تعالى عصمه من الخطأ و الزَّلل.

فنقول لا شكّ أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله كان معصوماً من أوّل عمره الى أخره كما هو المختار أو بعد البعثة كما ذهب اليه قوم.

أو في إبلاغه أحكام الدّين فقط كما إختاره شرذمة قليلة و على أيّ التّقادير فالعصمة ثابتة له و هذا ممّا لا كلام فيه إجمالاً ثمّ أنّ العصمة في العبد معناها حفظ اللّه إيّاه عن الخطأ.

قال الرّاغب في المفردات عصمة الأنبياء حفظه إيّاهم أوّلاً بما خصَّهم من صفاء الجوهر ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة و النَّفسية ثمّ بالنُّصرة و تثَّبت أقدامهم ثمّ بإنزال السّكينة عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتّوفيق انتهىٰ كلامه.

و قال الأخرون العصمة في الأنبياء هو أنّ اللّه تعالى أعطاهم قوّة قدسيّة تمنعهم عن الخطأ و كيف كان ليس معنى العصمة عدم قدرتهم على المعصية و الخطأ اذ لو كان كذلك فلا فضل للمعصوم على غيره لأنّ المفروض أنّه لا يقدر على الخطأ و من كان كذلك فهو مجبول على الطّاعة و أن شئت قلت خلقه اللّه غير قادرٍ على المعصية فترك العصيان ليس بإختياره لعدم قدرته عليه كان خارجاً عن القدرة و الإختيار لا مدح فيه و لذلك نقول أنّ الأنبياء و المعصومين أفضل من الملائكة لأنّ دواعي المعصية ليست موجودة في الملائكة بخلافها في الأنبياء حيث أنّها موجودة فيهم فالملك لا يزنى مثلاً لعدم وجود الشّهوة فيه و النّبي لا يزنىٰ مع وجودها فيه بإختياره و الفرق

واضح فمن قال أنّ المعصوم لا يعصي بمقتضى طبعه البشري لم يعرف معنى العصمة قطعاً اذا علمت هذا فالمعصوم بمقتضىٰ طبعه البشرىٰ يقدر على العصيان أيّة معصيةٍ كانت كغيره من أفراد البشر إلاّ أنّه لا يعصي بإختياره و إرادته بسبب ما أودع اللّه تعالىٰ فيه من القوّة القدسّية المانعة عن الخطأ أو أنّه تعالى يحفظه بأيّ نحوٍ شاء و أراد و أمّا أنّه يكون مسلوب الإختيار فليس كذلك و هذا هو المستفاد من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ اَلنّٰاسِ**(١).

أي يحفظك اللّه عن أذاهم إيّاك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ**(٣).

دلّت الأيات على أنّ العاصم هو اللّه و لا عاصم في الحقيقة غيره كذلك و عليه فحمل الأيات على ظواهرها لا إشكال فيه و لا ينافي عصمة النّبي حتّىٰ نحتاج الىٰ التكلّف و نقول الآية خطاب للنّبي و المراد أمّته ثمّ أنّ الأيات بهذه المضامين في القرآن كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**(٤).

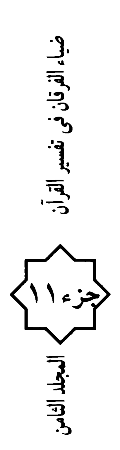
قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّٰهَ وَ لاٰ أُشْرِكَ بِهِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **لٰكِنَّا هُوَ اَللّٰهُ رَبِّى وَ لاٰ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّى وَ لاٰ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا**(٨).

قال اللّه تعالىٰ: **أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اَللّٰهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**(٩).



١- المائدة =٦٧
٢- يونس =٢٧
٣- غافر =٣٣
٤- الزّمر =٦٥
٥- الرّعد =٣٦
٦- الكهف =٣٨
٧- غافر =٤٢
٨- الجنّ =٢٠
٩- أل عمران =٦٤

و أمثال هذه الأيات كثيرة و لا يمكن حمل جميعها على ما ذكروه من الخطاب للنّبي و المراد أمّته، فقوله: **أنّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللّٰهَ وَ لَآ أُشْرِكَ بِهِۦ** يأبىٰ عن ذلك الحَمل والحاصل هو أنّه تعالىٰ نهىٰ جميع الخلق عن الشّرك و الظّلم و الكذب و الخيانة و غيرها فرق في ذلك بين المعصوم و غيره و من قال أو يقول غيره فعليه بالإثبات.

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ.

الخطاب للنّبي ظاهراً و لجميع النّاس واقعاً و المعنى أن أحلَّ بك الضُّر لأنّ المَّس الحقيقي لا يجوز عليه تعالىٰ لأنّ حقيقتها تكون بين الجسمين لكن لمّا أدخل الباء للتعدّية جرى مجرىٰ أن تقول يمسّك من أمَّسه و أمّا اذا لم يتعدّ فيكون كقوله: **مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ**[1] و المماسة و المطابقة و المجامعة نظائر و ضدّها المباينة، و الكشف رفع السّاتر المانع من الإدراك فكأنّ الضُّر هاهنا ساتر يمنع مِن إدراك الإنسان.

قال بعض المفسّرين و أتى بالضُّر بلفظ المَّس و فى الخير بلفظ الإرادة فقال و أن يردك بخيرٍ، و طابق بين الضُّر و الخير مطابقةٌ معنوّية لا لفظّية لأنّ مقابل الضُّر النَّفع و مقابل الخير الشَّر فجاءت لفظة الضّر ألطف و أخصّ من لفظة الشّر و جاءت لفظة الخير أتمّ من لفظة النَّفع و لفظة المَّس أوجز من لفظة الإرادة و أنَّص على الإصابة و أنسب لقوله فلا كاشف له إلاّ هو و لفظ الإرادة أدَّل على الحصول في وقت الخطاب و فى غيره و أنسب للفظ الخير و أن كان المَّس و الإرادة معناهما الإصابة و جاء جواب، أنّ يمسسّك، بمفي عامّ و إيجاب و جاء جواب، إن يردك بنفي عامّ لأنّ ما أراده لا يردُّه رادّ لا هو و لا غيره لأنّ

١- الأنبياء =٨٣

إرادته قديمة لا تتغيّر فلذلك لم يجئ التّركيب فلا رادّ له إلاّ هو و المَّس من حث هو فعل يوقعه و يرفعه بخلاف الإرادة فأنّها صفة ذاتٍ.

و جاء، فلا رادّ لفضله، سمّي الخير فضلاً إشعاراً بأنّ الخيرات منه تعالىٰ صادرة على سبيل الفضل و الإحسان و التّفضل ثمّ إتّسع في الإخبار عن الفضل و الخير فقال يصيب به من يشاء من عباده ثمّ أخبر بالصّفتَن الدّالتين على عدم المؤاخذة و هما الغفور الّذي يستر و يصفح عن الذّنوب و الرَّحيم الّذي رحمته سبقت غضبه انتهى.

أقول المَّس في الأصل يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس و كنّي به عن النّكاح تارةً فقيل مسَّها و ماسَّها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**[٢].

و في قصّة مريم:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنّٰى يَكُونُ لي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ**[٣].

و عن الجنُون أُخرىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ**[٤].

و قد يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذىً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلّآ أَيّامًا مَعْدُودَةً**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**[٦].

و الأيات كثيرة اذا عرفت معنى المَّس حقيقتاً و مجازاً فقد علمت أنّ المَّس في الآية لا يراد به معناه الحقيقي فهو كناية عن حلول الضّر و الأذىٰ.

١- البقرة =٢٣٧
٢- الأحزاب =٤٩
٣- أل عمران =٤٧
٤- البقرة =٢٧٥
٥- البقرة =٨٠
٦- القَمَر =٤٨

و من المعلوم أنّه لا كاشف له إلاّ هو تعالىٰ و لا يقدر على رفعه غيره كما أنّه اذا أراد إصابة الخير فلا رادّ أي لا مانع له ممّا أراد فلا يقدر أحد على منعه ففي الآية إشارة بل دلالة على أنّ الضُّر و النَّفع بيده اذ لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو.

أزِمّـة الأمـور طـرّاً بـيده   و الكلّ مستّمدةٌ من مـدده

و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: **يُصِيبُ بِهِۦ** أي بالخير من يشاء من عباده، قالوا المراد بـالمشّيئة هاهنا المصلحة و عليه فالمعنى أنّه تعالى اذا رأى المـصلحة فـي إصـابة الخـير الى عبده فلا يقدر أحد على صرفه عنه و هو أيضاً لا خـلاف فـيه لأنّ الخـالق الموجد المالك لجميع ما سواه و هو علىٰ كلّ شيءٍ قـدير و هـو لا يسأل عـمّا يفعل و هم يسألون قال اللّه تعالىٰ **وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[١]

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** معناه أنّه غفّار لكلّ ذنبٍ فلا ييأس من ذلك أحد في حال تكليفه و الرّحيم معناه إنعامه علىٰ جميع خلقه.

قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.

أمر اللّه نبيّه في هذه الآية أن يقول لجميع النّاس قد جاءكم الحقّ من ربّكم، و المراد به هو الّذي من عمل به من العباد نجا و ضدّه الباطل و هو الّـذي مَـن عمل به هلك فمن عمل بالحقّ كان حكيماً و من عمل بالباطل كان سفيهاً قيل المراد بالحقّ هاهنا هو ما أتىٰ به النّبي من القرأن و الشّـرائـع و الأحكـام و غـير ذلك من الأيات والدّلالات و الحقّ تارةً يقال و يراد به ما لا سبيل للبطلان اليه و تارةً يقال و يراد به الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل.

ثالثة: يقال و يراد به المطابق للواقع و يـقابله البـاطل و هـو الّذي لا يـطابق الواقع فقوله تعالىٰ: **قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ** يطلق على جميع هذه المـعانيلأنّ مـا

١- الأنعام =١٧

أتى به النّبي أعني به الدّين لا سبيل للبطلان اليه فأنّ حلاله حلال الىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك فالدّين هو الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل الى يوم القيامة و هو المطابق للواقع ونفس الأمر اذ لا يحتمل فيه الكذب قطعاً و لمّا كان كذلك فمن عمل به بإتيان الواجبات و تَرك المحرّمات فلا محالة يهتدي الىٰ صراط المستقيم.

و من المعلوم أنّ النّفع عائداً الىٰ العامل لأنّ الإهتداء الىٰ الكمال من أعظم المنافع و أحسن العوائد و الىٰ ذلك المعنى أشار اللّه بقوله: **فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** و الدّليل عليه هو أنّ اللّه تعالى غنّي علىٰ الإطلاق لا يحتاج الىٰ عبادة العبد اذ الإحتياج مساوقٌ للإمكان و هو تعالىٰ واجب الوجود و الرّسول أيضاً لا يحتاج الىٰ عبادة الأمّة:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٰى لِلْعَالَمِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يٰا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللّٰهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلٰى رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**(٣).

و الأيات في الباب كثيرة فاذا كان نفع العمل لا يعود الىٰ اللّه و الىٰ الرّسول فلا محالة يعُود الى العامل به و هو المطلوب.

ثمّ أنّ هذا الكلام بعينه يجري فيمن لا يعمل و يعصي ربّه لأنّ اللّه تعالى لا تضُّره معصية من عصاه و النّبي كذلك اذ هو المبلّغ للأحكام و الى هذا المعنى أُشير بقوله: **وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** و المقصود أنّ العاصي بعصيانه يضُر بنفسه و هو معلوم.

قال أهل السنّة أنّ الهداية و الضّلال واقعان بإرادة اللّه تعالىٰ من العبد و أنّ



١- الأنعام =٩٠ ٢- هُود =٢٩
٣- الشّعراء =١٠٩

من حكم له في الأزل بالإهتداء فيقع ذلك و أنّ من حكم له بالضّلال فكذلك و لا حيلة في ذلك.

وأنّا أقول قد مرّ نظير هذا الكلام منهم فيما مضى غير مرّةٍ وأجبنا عنهم بما لا مزيد عليه و العجب منهم حيث لم يتدّبروا في كلام اللّه تعالىٰ حقّ التدّبر فأنّ قوله: **فَمَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** في الحقيقة ردٌّ علىٰ مقالتهم لأنّ التّاء في الإهتداء إمّا للطّلب و أمّا للقبول.

فعلىٰ الأوّل: معنى الكلام فمن يطلب الهداية و الرّشاد فأنّما طلبها لنفسه.

علىٰ الثّاني: فمن قبل الهداية فقد قبلها لنفسه و المشهور أنّها للطّلب و على التّقديرين لا يوافق الكلام مسلك الجبر و ذلك لأنّ من حكم له في الأزل بالإهتداء فلا معنى لقوله فمن إهتدىٰ الخ في الدّنيا و ذلك لأنّه من تحصيل الحاصل و هكذا في جانب الضّلالة و من المعلوم أنّ الإهتداء بإختيار العبد كما أنّ الضّلال بيده.

و أمّا على ما ذهبوا اليه فهما خارجان عن قدرة العبد فلا معنى لقوله في أخر الآية و ما أنا عليكم بوكيلٍ أليس معنى هذا الكلام أنّ الرّسول ليس وكيلاً عليهم ليمنعهم من إعتقاد الباطل أو يجبرهم على الحقّ بل يجب عليهم النّظر لأنفسهم فمن لا إختيار له كيف ينظر لنفسه و هذا ظاهر.

وَ ٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ٱصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحٰاكِمِينَ.

أمر اللّه تعالى نبيّه بالصَّبر و متابعة الوحي و لعلَّ المراد بالصَّبر هو الصَّبر على أذى المشركين في إنكارهم دعوته و إيذاءهم للنّبي صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ باليد و اللّسان و أنّما أمره بالصَّبر لأنّه مفتاح الفرج و لذلك أمر اللّه جميع أنبياءه به فأنّ إنكار المعاندين دعوة الأنبياء أو أذاهم لم يكن مختّصاً برسول اللّه بل كان بجميع الأنبياء:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ ما كُذِّبُوا**(١).

و فى حكايةً عنهم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ ماۤ اٰذَيْتُمُونا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَصْبِرْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ**(٣).

و الأيات كثيرة و أمّا متابعة الوحي و هو إلقاء المعنى في النَّفس علىٰ وجهٍ خفّيٍ فالمراد بها واضح لا خفاء فيه اذ في عدم متابعة الوحي يتحقّق العصيان و المخالفة و النّبي منزّةٌ عنهما:

قال اللّه تعالىٰ: **إِتَّبِعْ ماۤ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لآ إِلٰهَ إِلّا هُوَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيۤ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا ما يُوحىٰ إِلَيَّ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا اَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحىٰ**(٧).

و محصّل الكلام هو انّ النّبي في الأحكام تابع للوحي و قوله: **حَتّٰى يَحْكُمَ اَللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ** معناه حتّى يحكم اللّه تعالىٰ بينك و بين من خالفك و أذاك يوم القيامة فأنّه تعالى خير الحاكمين لأنّه لا يظلم أحداً يخفى عليه شئ ممّا فعلوه من الشّرك و النّفاق و العناد و إيذاء الرّسول و من أمن به هذا أخر الكلام في تفسير سورة يونس و الحمد اللّه ربّ العالمين.

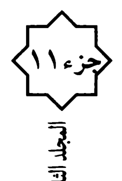
* * *

١- الأنعام =٣٤
٢- إبراهيم =١٢
٣- هُود =١١٥
٤- سورة الأنعام أية ١٠٦
٥- الزّخرف =٤٣
٦- يونس =١٥
٧- طه =١٣

سورة هود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرٰ كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ اٰيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾



◀ اللّغة

اٰياٰتُهُ، الأيات جمع أية و هي العلامة.

فُصِّلَتْ، التَّفصيل ضدّ الإجمال.

أُحْكِمَتْ، الإحكام بكسر الألف مصدر قولك، أحكَم إحكاماً و هو منع الفعل عن الفساد.

خَبِيرٍ، الخَبير العليم.

يَثْنُونَ تقول تثنَّيته عن كذا أي غطّيته.

لِيَسْتَخْفُوا، الإستخفاء طلب خفاء النّفس.

يَسْتَغْشُونَ من الغَش أي يتَّغطون ثيابهم و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀الإعراب

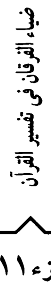
كِتَابٌ أي هذا كتابٌ و يجوز أن يكون خبر الٓرٰ.

مِنْ لَدُنْ يجوز أن يكون صفة أي كائن من لدن، و أن يكون مفعولاً و العامل فيه فُصِّلَتْ بنيت، لدن، و إن أضيفت لأنّ علّة بناءها خروجها من نظيرها فأنّ، لدن، بمعنى عند، و لكن هي مخصوصة بملاصقة الشّئ و شدّة مقاربته و عند ليست كذلك بل هي للقريب و ما بعد عنه و بمعنى اللمك أَلَّا تَعْبُدُوٓا أي أن لا تعبدوا و في، أن، ثلاثة أوجه:

أحدها: هي مخفّفة من الثقيلة.

الثّانى: أنّها ناصبة للفعل و على الوجهين موضعها الرّفع تقديره، هي أن لا تعبدوا و يجوز أن يكون التّقدير بأن لا تعبدوا فيكون موضعها جرّاً أو نصباً.

الوجه الثّالث: أن تكون، أن، بمعنى، أي، فلا يكون لها موضع و الا تعبدوا نهيٌ و مِنْهُ أي من اللّه و التقدير نذير كائن منه فلمّا قدَّمه صار حالاً و يجوز أن يتعلّق بنذير و يكون التّقدير إنَّني لكم نذير من أجل عذابه وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا أن، معطوفة على، أن، الأولى و هى مثلها فيما ذكر إِنْ تَوَلَّوْا أي يتَّولوا يَثْنُونَ الجمهور على فتح الياء و ضمّ النّون و ماضيه، ثنى، و يقرأ كذلك إلاّ أنّه بضمّ الياء و ماضيه أثنى و هو ضعيف أَلَا حِينَ العامل في الظّرف محذوف أي ألا حين يستغشون ثيابهم يستخفون و يجوز أن يكون ظرفاً ليعلم.



◀التّفسير

الٓر

إختلف المفسّرون في هذه الحروف الّتي في أوائل السُّور و الحقّ أنّها أسماء للسُّور و قد مرّ الكلام فيها في البقرة **كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** و المعنى هذا كتابٌ أحكمت أياته ثمّ فصلّت، قيل أحكمت الأيات بالأمر و النّهي و فصلّت بالثّواب و العقاب.

و قيل أحكمت أياته من الباطل ثمّ فصلّت بالحرام و الحلال و قيل أحكمت أياته على وجه الجملة ثمّ فصلّت أي بيّنت بذكرها أية.

أقول الإحكام الإتّقان و منع الفعل عن الفساد و قيل الإحكام النَّظم و معنى قوله: **أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ** نظمت نظماً رضيّاً لا نقص فيه و لا خلل كالبناء المحكم و هو الموّثق في التَّرصيف و على هذا فالهمزة في، أحكمت، ليست للنّقل و يجوز أن تكون للنّقل من حكم، بضمّ الكاف اذا صار حكيماً فالمعنى جعلت حكيمة كقولك تلك أيات الكتاب الحكيم على أحد التّأويلين في قوله: الكتاب الحكيم.

و قيل من أحكمت الدابة اذا منعها من الجماح بوضع الحكمة عليها و منه قول جرير:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم   أنّي أخاف عليكم أن أغضبا

و قال قتادة أي أحكمت من الباطل و عن أبي قتيبة، أحكمت أي إتقنت شبه ما يحكم من الأمور المتّقنة الكاملة و بهذه الصّفة كان القرأن في الأوّل ثمّ فصلّ بتقطيعه و تبيينه في أحكامه و أمر الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فثمّ، على بابها و هذه طريقة الإحكام و التّفصيل اذ الإحكام صفة ذاتيّة و التّفصيل أنّما هو بحسب من يفصل له و الكتاب أجمعه محكمٌ مفصّلٌ و الإحكام الذّي هو ضدّ النّسخ و التّفصيل الّذي هو خلاف الإجمال أنّما يقالان مع ما ذكرناه بإشتراك.

و قال صاحب الكشّاف، ثمّ فصّلت كما تفصّل القلائد بالدّلائل من دلائل التّوحيد و الأحكام و المواعظ و القصص أو جعلت فصولاً سورة سورة و أية أية و فرّقت في التّنزيل و لم تنزل جملة واحدة أو فصّل بها ما يحتاج اليه العباد أي بيّن و لخصّ و قرئ أحكمت أياته ثمّ فصّلت أي أحكمتها أنا ثمّ فصَّلتها في معنى ثمّ ليس معناها التّراخي في الوقت و لكن في الحال كما تقول هي محكمه أحسن الإحكام ثمّ فضَّله أحسن التَّفصيل و فلان كريم الأصل ثمّ كريم الفعل انتهىٰ كلامه.

و أمّا قوله: **مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** قيل معناه من لدن حكيم عليم و لعلّ الوجه فيه هو أنّ الخبر العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر و قيل الخبرة بضمّ الخاء المعرفة ببواطن الأمر.

و قال الرّاغب في المفردات بعد ما نقلناه عنه، أي عالمٌ بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و قيل خبير بمعنىٰ مخبر انتهىٰ.

أقول و عليه فمعنى الكلام من لدن حكيم عالم بأخبار أعملكم أو ببواطن أموركم و كيف كان فالمعنى واضح لأنّه تعالىٰ حكيمٌ خبير علىٰ جميع التّقادير.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ.

قال الزّمخشري قوله ألاّ تعبدوا، مفعول له على معنى، لئلا تعبدوا أو تكون، أن مفسّرة لأنّ في تفصيل الأيات معنى القول كأنّه قيل، قال لا تعبدوا إلاّ اللّه أو أمركم أن لا تعبدوا إلاّ اللّه إنّني لكم منه تذيرٌ و بشيرٌ، أي انّني لكم منه أي من اللّه تعالىٰ نذيرٌ و بشيرٌ، نذيرٌ من العذاب و العقاب و بشيرٌ الى الثّواب:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ**(٢).

١- المائدة =١٩
٢- المائدة =١٩

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**[٣].

و الأيات الدّالة على أنّ الرّسول بشيرٌ و نذيرٌ كثيرة و المقصود أن تعبدوا اللّه فأنّي أبشركم بالثّواب و أن تكفروا به فأنّي أنذركم و أخوفكم من عذابه و ما على الرّسول إلاّ البلاغ.

وَ أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ

الواو للعطف و المعنى أن لا تعبدوا و أن إستغفروا و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه أمركم أن لا تعبدوا إلاّ اللّه و أن إستغفروا ربّكم ثمّ توبوا اليه أي إرجعوا اليه فأنّ التّوبة هي الرّجوع يقال تاب عن ذنبه اذا رجع عنه فأن فعلتم ذلك، **يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** إختلفوا في متاع الحسن قيل هو الرّضا في الميسور و الصَّبر على المقدور.

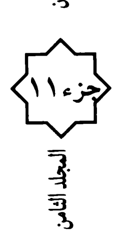
و قيل هو حسن العمل و قطع الأمل.

و قيل هو النّعمة الكافية مع الصحّة و العافية.

و قيل هو الجلال الّذي لا طلب فيه و لا تعب.

و قيل هو لزوم القناعة و توفيق الطّاعة و قوله: **إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى** أي مدّة معيّنة الّتي لا يعلمها إلاّ هو.

و قال الزّمخشري أنّه تعالى يطوّل نفعكم في الدّنيا بمنافع حسنة مرضيّة من عيشةٍ واسعةٍ و نعمةٍ متتابعة و أنّما وصف المتاع بالحسن لطيب عيش المؤمن برجاءه في اللّه عزّ وجلّ و فى ثوابه و فرحه بالتّقرب اليه بمفروضاته و



١- الأعراف =١٨٨
٢- فاطر =٢٢/٢٣
٣- الحجّ =٤٩

السّرور بمواعيده و الكافر ليس في شئٍ من هذا و الاجل المسمّى قيل هو أجل الموت و قيل هو يوم القيامة.

و قال الزّمخشري الىٰ أن يتوّفاكم **وَ يُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ** أي إنّ اللّه تعالى يعطي في الأخرة كلّ من كان له فضل في العمل.

و الحقّ أنّه ترغيب في العمل لأنّه على مقداره يجازي صاحبه و أنّ اللّه تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ والتّقدير، وأن تتوّلوا، إلاّ أنّه حذف للتُّضعيف و لذلك شدّده إبن كثير و قيل معناه، فقل أنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير و هو يوم القيامة وصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الأهوال و المجازات لكلّ إنسانٍ على قدر عمله.

أقول لا يبعد أن يكون الفعل علىٰ بابه و أن يكون المراد به الغائبين الماضين و التّقدير قيل لهم أنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ كبيرٍ.

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

المرجع المصير الى مثل الحال الأولى و قد ثبت أن كلّ شئٍ يرجع الى أصله:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعىٰ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهٰا وَ إِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللّٰهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ**(٥).

١- البقرة =١٥٦ — ٢- العَلَق =٨
٣- مريم =٤٠ — ٤- الأنعام =٣٦
٥- هُود =١٢٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[١].

و فى هذه الآية إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: أنّ الرّجوع اليه.

الثّاني: أنّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شيءٍ.

أمّا الأمر الأوّل: فهو من المسلّمات بل من البديهيات فأنّ المخلوق تحت قدرة الخالق و حيث أنّ الخالق خلق الخلق و أوجدهم فلا يمكن للخلق الفرار من حكومته.

أمّا الأمر الثّاني: و هو عموم قدرته فهو أيضاً ثابت عقلاً و نقلاً.

أمّا نقلاً فالأيات و الأخبار الواردة في الباب.

أمّا عقلاً فلأنّه لو لم يكن قادراً على كلّ شيءٍ فلا محالة يكون قادراً علىٰ بعضٍ دون بعضٍ و معنى عدم قدرته في البعض يرجع الى ضعفه و عجزه و العجز نقصٌ و عيب فأنّ كلّ ناقصٍ فهو داخل في سلسلة الممكنات و المفروض أنّه تعالىٰ واجب الوجود فكيف يكون عاجزاً ناقصاً.

ثانياً: أنّه محتاج في رفع نقصه الىٰ غيره و كلّ محتاج فهو مخلوق فرضناه خالقاً فهو تعالىٰ قادر على كلّ شيءٍ عالمٌ بكلّ شيءٍ محيطٌ بكلّ شئ فقدرته تتعلّق بكلّ مقدور كما أنّ علمه يتعلّق بكلّ معلومٍ و هو ممّا لا كلام فيه عند المحقّقين.

أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

أي يثنونها و يمدحونها على عداوة النّبي و قيل على الكفر و قيل أنّهم يثنون صدورهم على ما كانوا عليه من النّفاق و المأل واحد.

قيل نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول اللّه و يحلف أنّه ليحبّه و يضمر خلاف ما يظهر و قوله ليستخفوا منه، فالإستخفاء طلب خفاء

١- فُصّلت =٢١

النّفس و نظيره إستغشىٰ **والهاء في منه** ترجع الىٰ إسم اللّه أي ليستخفوا ما في صدورهم و ضمائرهم من اللّه.

و قيل عائدة الى الرّسول أي ليستخفوا عن الرّسول و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه خافية و الرّسول أيضاً كذلك بإذن اللّه تعالىٰ.

أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ معناه أنّهم كانوا يتغطّون ثيابهم ثمّ يتّفاوضون ما كانوا يدبّرونه علىٰ النّبي و على المؤمنين و يكتمونه عن النّاس فبيّن اللّه تعالى أنّهم وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاءً فوقهم علمٌ بما يسّرون و ما يعلنون أنّه عليمٌ بذات الصُّدور.

و حاصل المعنى أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شئ فهو عالم بسرائر المنافقين و ضمائرهم كما هو عالم بظواهرهم إلاّ أنّ المنافق لنفاقه يظنّ أنّه كما يقدر على إعمال النّفاق بالنسّبة الى أمثاله بسبب عدم وقوفهم على ضميره كذلك يقدر على الاستخفاء للّه تعالىٰ و لرسوله و ليس كذلك.

و محصّل الكلام هو أنّه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم و إعلانهم فلا وجه لتوصّلهم الىٰ ما يريدون من الإستخفاء:

قال اللّه تعالىٰ: **يَعْلَمُ خٰآئِنَةَ اَلْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِى اَلصُّدُورُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **ربّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفي وَ مٰا نُعْلِنُ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ**[4].

و غيرها من الأيات و الدّليل عليه من العقل هو أنّه تعالى لو لم يعلم شيئاً ظاهراً كان أو باطناً يلزم منه الجهل بالنسّبة الى ما لا يعلم و الجهل نقص و

١- غافر =١٩
٢- إبراهيم =٣٨
٣- الأحزاب =٥٤
٤- النّمل =٢٥

النَّقص من شئون الممكن و الواجب منزّهٌ عنه فهو تعالى عالم بـجميع الأشـياء ظاهرها و باطنها كما أنّه قادر على جميع المقدورات و هذا أصلٌ ثابت عـقلاً و شرعاً هذا أخر الكلام في الجزء الحادي عشر وبه نختم الكلام في هذا الجزء و يتلوه الجزء الثّانى عشر.

■

الفهرست

■

سُورة التّوبة ٨٧

■

■

■